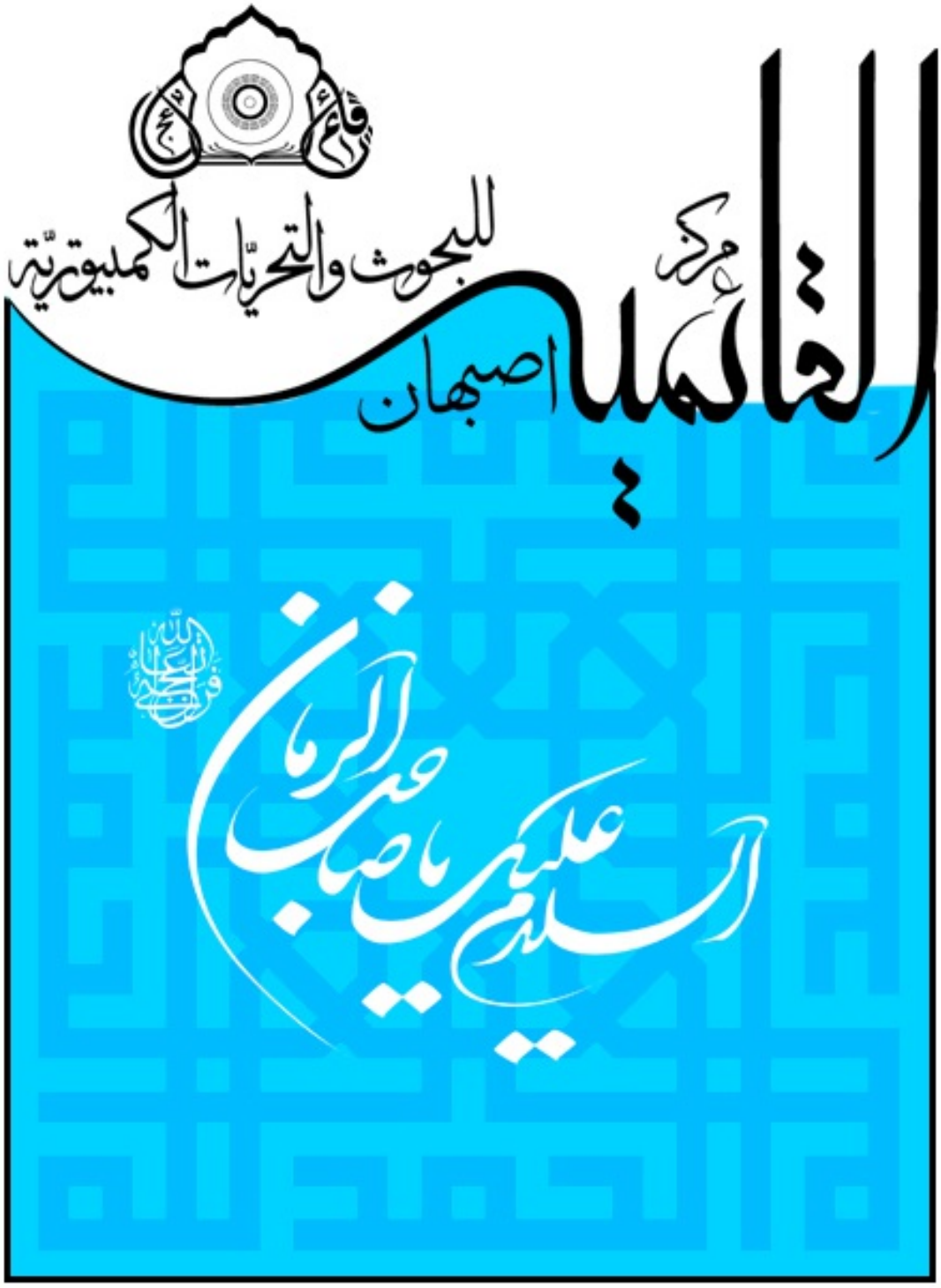

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

معالم في الطريق

نظرات في حركة الإسلام وتاريخ المسلمين

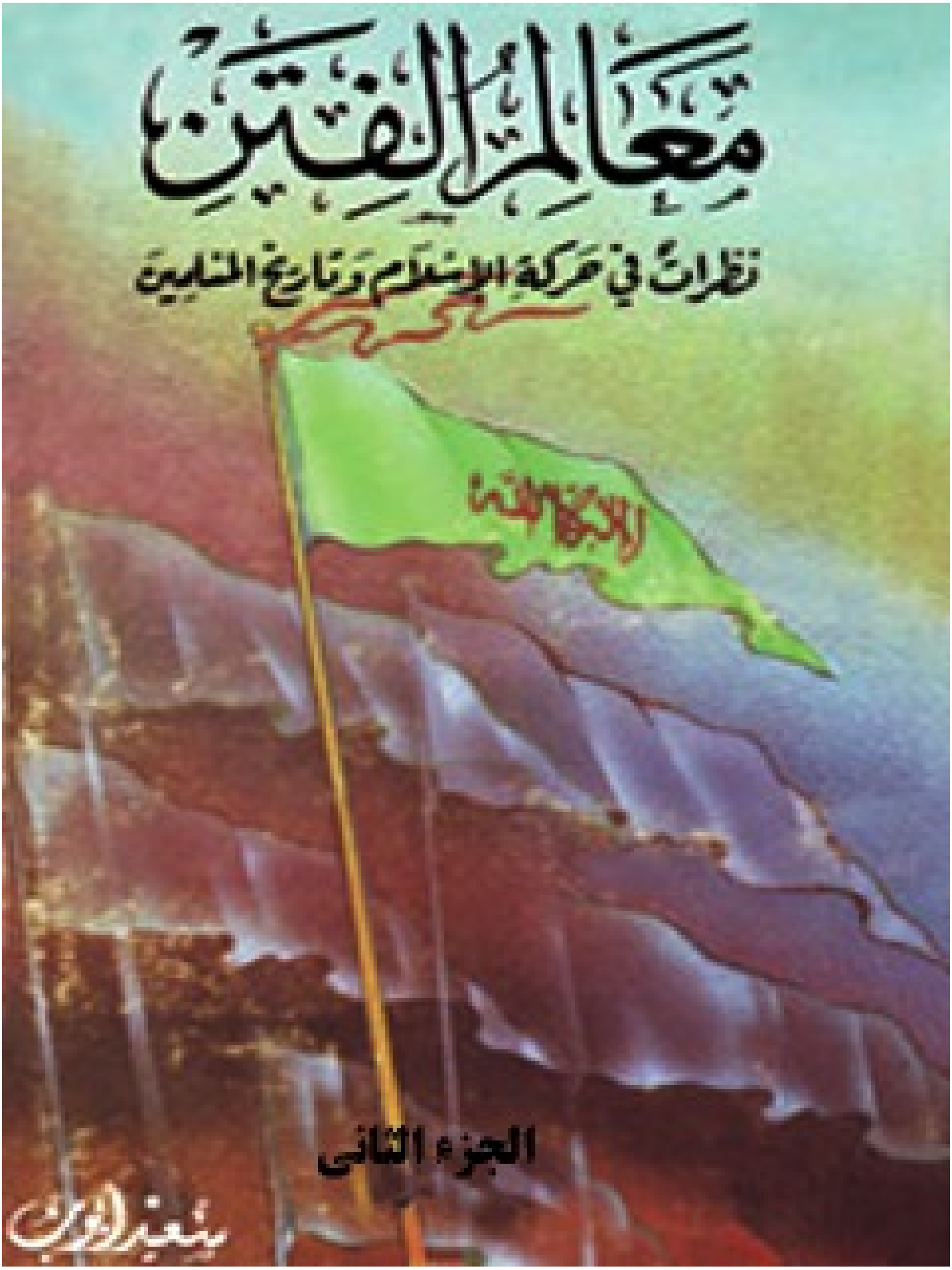

الجزء الثاني

سيد قطب

بسم الله الرحمن الرحيم

معالم الفتن: نظرات فی حرکه الاسلام و تاریخ المسلمین

کاتب:

سعید ایوب

نشرت فی الطباعة:

مجمع احیاء الثقافه الاسلامیه

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

الفهرس ----- ۵
معالم الفتن: نظرات فی حرکه الاسلام و تاریخ المسلمین المجلد۲ ----- ۹
اشارة ----- ۹
فهرست مطالب کتاب: معالم الفتن (المجلد ۲) ----- ۹
معارک الإمام ----- ۱۱
یوم الجمل ----- ۱۱
الناکثون فی البصرة ----- ۱۳
مسیر الإمام علی ----- ۱۶
علی أعتاب الحرب ----- ۲۱
الحرب ----- ۲۴
ایام صفین ----- ۳۰
اقامة الحجة ----- ۳۲
معاویة و سیاسة التشکیک ----- ۳۴
الاعلام العلوی ----- ۴۱
الاصطفاف للقتال ----- ۴۷
القتال ----- ۵۱
مشاهد من میدان القتال ----- ۵۶
عندما اتخذوا المصاحف جدارا ----- ۶۴
التخاذل و غیاب القمر ----- ۷۰
خیمة التحکیم ----- ۷۱
قتال المارقین ----- ۷۵
اشاره ----- ۷۵
التخاذل ----- ۸۰

غارات معاوية ----- ۸۷
ليلة بكى فيها القمر ----- ۸۹
وغاب القمر ----- ۹۲
لهيب الليل ----- ۹۶
جداول الدماء ----- ۱۰۲
عاصفة الأمطار الحمضية ----- ۱۰۲
بيعة الحسن بن على ----- ۱۰۲
القتال بالذهب والفضة ----- ۱۰۵
الغدر ----- ۱۰۸
وفاء و حقائق على الطريق ----- ۱۱۰
نظرات فى مقعد جديد ----- ۱۱۴
اتهام الأمين ----- ۱۱۶
ائتمان الخائن ----- ۱۲۳
دماء حول كهف النفاق ----- ۱۳۰
قلوب من نحاس ----- ۱۳۱
مقتل حجر بن عدى ----- ۱۳۲
هل رأيت آية النار ----- ۱۳۶
مقتل أبى عبدالله الحسين ----- ۱۳۸
و جاء وفد أغيلمة قريش ----- ۱۳۹
ابناؤنا خير من أبنائهم ----- ۱۴۱
النبى يبكى ----- ۱۴۵
على مفترق الطرق ----- ۱۵۰
الرسائل والحصار ----- ۱۵۲
العزيمة والإصرار ----- ۱۵۵

التخویف والإرهاب ----- ۱۵۷
صمود علی الطریق ----- ۱۶۰
و جاء الطغاة ----- ۱۶۵
القتلة واللصوص ----- ۱۷۰
سلام علیک أبا عبدالله ----- ۱۷۴
صرخات الحسین ----- ۱۷۵
و الله إنه لیحزننی قتل الحسین ----- ۱۷۶
بکاء و أحداث ----- ۱۷۸
فی دار أم سلمة ----- ۱۷۸
فی دار عبدالله بن عباس ----- ۱۷۸
فی قصر الإمارة ----- ۱۷۹
فی قصر الخلافة ----- ۱۸۰
الظهور والتشویه ----- ۱۸۳
نظرات علی کربلاء ----- ۱۸۵
الاستعباد ----- ۱۸۶
یوم الحرة أو یوم الأنصار ----- ۱۸۶
الوحل ----- ۱۹۱
حرکة عبدالله بن عمر بن الخطاب ----- ۱۹۹
حرکة أنس بن مالک ----- ۲۰۰
ما أشبه اللیلة بالبارحة ----- ۲۰۷
ریاح الفرعونیة ----- ۲۰۷
تشابه القلوب ----- ۲۱۱
دائرة الرؤیة الفرعونیة ----- ۲۱۳
نظرات علی الأطلال ----- ۲۲۲

صدود وردود ----- ۲۲۲
افرازات فکریة ----- ۲۲۸
من مقدمات الإفرازات الفکریة ----- ۲۴۳
آراء و شهود ----- ۲۵۵
آراء ----- ۲۵۶
الشهود ----- ۲۶۷
تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ----- ۲۷۴

معالم الفتن: نظرات فی حرکه الاسلام و تاریخ المسلمین المجلد۲

اشارة

سرشناسه : ایوب، سعید

Ayyub, Said

عنوان و نام پدیدآور : معالم الفتن: نظرات فی حرکه الاسلام و تاریخ المسلمین/ سعید ایوب

مشخصات نشر : قم: مجمع احیاآ الثقافه الاسلامیه، ۱۴۱۶ق. = - ۱۳۷۴.

شابک : بها:۷۵۰۰ریال(ج.۱و۲) ؛ بها:۷۵۰۰ریال(ج.۱و۲) ؛ بها:۷۵۰۰ریال(ج.۱و۲) ؛ بها:۷۵۰۰ریال(ج.۱و۲)

وضعیت فهرست نویسی : فهرستنویسی قبلی

یادداشت : کتابنامه

عنوان دیگر : نظرات فی حرکه الاسلام و تاریخ المسلمین

موضوع : اسلام -- تاریخ

موضوع : جنبشهای اسلامی

رده بندی کنگره : BP۱۴/الف۹۵م۶

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۹۱۲

شماره کتابشناسی ملی : م۷۶-۵۶۱۴

فهرست مطالب کتاب: معالم الفتن (المجلد ۲)

معالم الفتن (المجلد ۲)

معارک الإمام

یوم الجمل

الناکثون فی البصرة

مسیر الإمام علی

علی أعتاب الحرب

الحرب

ایام صفین

اقامة الحجة

معاویة و سیاسة التشکیک

الاعلام العلوی

الاصطفاف للقتال

القتال

مشاهد من میدان القتال

عندما اتخذوا المصاحف جدارا

التخاذل و غياب القمر

خيمة التحكيم

قتال المارقين

التخاذل

غارات معاوية

ليلة بكى فيها القمر

وغاب القمر

لهيب الليل

جداول الدماء

عاصفة الأمطار الحمضية

بيعة الحسن بن على

القتال بالذهب والفضة

الغدر

وفاء و حقائق على الطريق

نظرات فى مقعد جديد

اتهام الأمين

ائتمان الخائن

دماء حول كهف النفاق

قلوب من نحاس

مقتل حجر بن عدى

هل رأيت آية النار

مقتل أبى عبدالله الحسين

و جاء وفد أغيلمة قريش

ابناؤنا خير من أبنائهم

النبى يبكى

على مفترق الطرق

الرسائل والحصار

العزيمة والإصرار

التخويف والإرهاب

صمود على الطريق

و جاء الطغاة

القتلة واللصوص

سلام عليك أبا عبدالله

صرخات الحسين

و الله إنه ليحزننى قتل الحسين

بكاء و أحداث

فى دار أم سلمة

فى دار عبدالله بن عباس

فى قصر الإمارة

فى قصر الخلافة

الظهور والتشويه

نظرات على كربلاء

الاستعباد

يوم الحرة أو يوم الأنصار

الوحل

حركة عبدالله بن عمر بن الخطاب

حركة أنس بن مالك

ما أشبه الليلة بالبارحة

رياح الفرعونية

تشابه القلوب

دائرة الرؤية الفرعونية

نظرات على الأطلال

صدود وردود

افرازات فكرية

من مقدمات الإفرازات الفكرية

آراء و شهود

آراء

الشهود

معارک الإمام

يوم الجمل

تحركت أم المؤمنين عائشة ومن معها نحو البصرة. وروى أن أمير

المؤمنين على خرج على رأس قوة وهو يرجو أن يدركهم فيحول بينهم وبين الخروج. نظرا لما سيترتب على خروجهم. وبينما هو يستعد للخروج لقيه عبد الله بن سلام. فقال ": يا أمير المؤمنين لا تخرج منها - أى من المدينة - فوالله لئن خرجت منها لا ترجع إليها. ولا يعود سلطان المسلمين أبدا [" ۱] ، وابن سلام لا يقول هذا من فراغ. ولكنه سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا عندما

اعترض علیه أصحاب أمیر المؤمنین. قال لهم الإمام: دعوا الرجل فنعم الرجل من أصحاب محمد صلی الله علیه وسلم [" ۲] ، ثم قال: "وأیم الله لقد أخبرنی به رسول الله صلی الله علیه وسلم [" ۳] ، لقد عرف ابن سلام أن أمیر المؤمنین باتجاهه نحو الناکثین یکون قد بدأ طریقا طویلا ینتهی بقتله. ولقد رأی أن الخطوة الأولی فی اتجاه یوم الجمل تلتقی مع الخطوة الأخیرة یوم النهروان. فالأحداث ذات نسیج واحد وإن اختلفت الأعلام

[صفحه ۶]

والأسماء. لذلک قال ابن سلام فی الحدیث الصحیح للإمام ": لا تقدم العراق فإنی أخشی أن یصیبک بها ذباب السیف فقال: وأیم الله لقد أخبرنی به رسول الله صلی الله علیه وسلم فقال ابن سلام: فما رأیت کالیوم قط محاربا یخبر بذا عن نفسه - وفی روایة - ما رأیت کالیوم رجلا محاربا یحدث الناس بمثل هذا [" ۴] ، أی ما رأیت محاربا یحدث الناس بأنه سیقتل علی هذا الطریق، وقتله واقع لا محالة. وبینما کان الإمام یتجهز لرد الناکثین جاء رجل من أهل الکوفة فقال ": ما هذا؟ فقالوا: أمیر المؤمنین. قال: ما له، قالوا: غلبه طلحة والزبیر فخرج یعترض لهما لیردهما. فقال: إنا لله وإنا إلیه راجعون. آتی علیا فأقاتل معه هذین الرجلین وأم المؤمنین أو أخالفه إن هذا لشدید [" ۵] ، وکانت هذه أول صفحة علی طریق الجمل وفیها التباس الأمور عند الناس. وروی أن الحسن بن علی رضی الله عنه کان قد أشار علی والده فی أمور منها ": أنه قال له أخرج من المدینة یوم حصار عثمان. ولکن الإمام عصاه فی ذلک وقال له: أما قولک لو خرجت من المدینة حین أحیط بعثمان. فوالله لقد أحیط بنا کما أحیط به [" ۶] ، ویبقی سؤال: من الذی أحاط بأهل البیت وبعثمان فی وقت واحد؟ لقد کان هناک حصار منظور وحصار غیر منظور ولکن الإمام الخبیر بالرجال یعلمه جیدا. إن الإجابة علی هذا السؤال یتعذر الوقوف علی علمها. ولا یعلم حقائقها إلا من شاهدها ولابسها. بل لعل الحاضرین المشاهدین لها لا یعلم الکثیر منهم باطن الأمر، وروی أن الحسن بن علی کان له رأی فی خروج طلحة والزبیر ومن معهما. وهو أن یجلس الإمام فی بیته ثم یراقب الأحداث. فقال الإمام: وأما قولک حین خرج طلحة والزبیر فإن ذلک کان

[صفحه ۷]

وهنا علی أهل الإسلام. ووالله ما زلت مقهورا مذ ولیت. منقوصا لا أصل إلی شئ مما ینبغی وأما قولک: اجلس فی بیتک. فکیف لی بما قد لزمنی أو من یریدنی. أرید أن أکون مثل الضبع الذی یحاط بها ویقال دباب دباب لیست ههنا حتی یحل عرقوباها ثم تخرج. وإذا لم أنظر فیما لزمنی من هذا الأمر ویعنینی. فمن ینظر فیه، فکف عنک أی بنی [" ۷] .

لقد کان الإمام یتصرف تصرف الحجة. فهو لم یؤمر من رسول الله صلی الله علیه وسلم بأن یرفع سیفا ما دام الناس لم یلتفوا حوله باختیارهم. فإذا التفوا حوله فقد لزمه أن یسوقهم إلی ما یعرف وإلا تعطل الدین. وهذا هو شأن الحجة علی امتداد التاریخ الإنسانی إن ترکه الناس بعد دعوته إیاهم. إما أن یعتزل بمن آمن معه. وإما أن یهاجر. فإن وقع علی أتباعه ما یستأصلهم من حوله فهنا یدخل فقه الدفاع والقتال ولا قتال إلا بنص. وفی جمیع الحالات فإن الحجة لا یهمل من لزمه أو من یریده. وروی أن أمیر المؤمنین عندما کان یتجهز لرد الناکثین کان فریق أم المؤمنین قد خطا خطوات واسعة نحو الحرب الشاملة.

[۱] الطبری ۵:۱۷۰، البدایة والنهایة ۷:۲۳۴.

[۲] الطبری ۵:۱۷۰.

[۳] رواه أبو یعلی والبزار وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۹:۱۳۸)، ورواه الحاکم وصححه (المستدرک ۳:۱۴۰).

[۴] رواه أبو یعلی والبزار ورجاله ثقات والحاکم وصححه والحمیدی وابن حبان فی صحیحه (الزوائد ۹:۱۳۸)، (المستدرک ۳:۱۴۰)، (الخصائص الکبری للسیوطی ۲:۲۳۵).

[۵] الطبری ۵:۱۷۰.

[۶] الطبری ۵:۱۷۰.

[۷] الطبری ۵: ۱۷۰، الکامل ۳: ۱۱۴.

الناکثون فی البصرة

دخلت أم المؤمنین فناء البصرة. فلقیها عمیر بن عامر التمیمی فأوصاها أن

تراسل وجوه البصرة قبل اقتحامها [۱] وکان علی البصرة عثمان بن حنیف عاملا

لأمیر المؤمنین. فقالت أم المؤمنین لابن عامر: جئتنی بالرأی وأنت امرؤ صالح. وکتبت السیدة عائشة إلی رجال من أهل البصرة منهم الأحنف بن قیس. ثم تحرکت بقواتها لتحسین أوضاعها حتی إذا کانت بالحفیر انتظرت الجواب [۲] .

وروی البیهقی عن الحسن البصری أن الأحنف بن قیس قال لأم المؤمنین: یا أم المؤمنین. هل عهد إلیک رسول الله هذا المسیر؟ قالت: اللهم لا، قال: فهل

[صفحه ۸]

وجدته فی شئ من کتاب الله جل ذکره؟ قالت: ما نقرأ إلا ما تقرأون. فقال: فهل رأیت رسول الله صلی الله علیه وسلم استعان بشئ من نسائه إذا کان فی قلة والمشرکین فی کثرة؟ قالت: اللهم لا. فقال الأحنف: فإذن ما هو ذنبنا [" ۳] .

وروی أن عثمان بن حنیف عندما علم برسائل السیدة عائشة إلی وجوه أهل البصرة دعا عمران بن حصین وأبا الأسود الدؤلی وقال: انطلقا إلی هذه المرأة، فاعلما علمها وعلم من معها، فخرجا، ودخلا علی عائشة بعد أن استأذنا وأذنت وقالا: إن أمیرنا بعثنا إلیک نسألک عن مسیرک. فهل أنت مخبرتنا. فقالت: أطالب بدم عثمان، فقال أبو الأسود: إنه لیس فی البصرة من قتلة عثمان أحد. قالت: صدقت، ولکنهم مع علی بن أبی طالب فی المدینة. وجئت أستنهض أهل البصرة لقتاله. أنغضب لکم من سوط عثمان ولا نغضب لعثمان من سیوفکم؟ فقال: ما أنت من السوط والسیف إنما أنت حبیس رسول الله صلی الله علیه وسلم. أمرک أن تقری فی بیتک وتتلی کتاب ربک، ولیس علی النساء قتال ولا لهن الطلب بالدماء، وإن أمیر المؤمنین لأولی بعثمان منک وأحسن رحما، فإنهما أبناء عبد مناف. قالت: لست بمنصرفة حتی أمضی لما قدمت إلیه. أفتظن یا أبا الأسود أن أحدا یقدم علی قتالی. فقال: أما والله لنقاتلنک قتالا أهونه لشدید. ورجعا إلی عثمان بن حنیف وقال أبو الأسود إنها الحرب فتأهب لها [" ۴] .

ومما سبق یضاف إلی أسباب خروج السیدة عائشة. أن القوم ظنوا أن أحدا لن یجرؤ علی قتالها. ویترتب علی ذلک أن یقف أمیر المؤمنین علی وحده فی العراء ومعه قلة لا- تغنی عنه أمام الکثرة شیئا. وبدأ عثمان بن حنیف یتجهز لصد العدوان. وکان یعلم أن للناکثین أعوانا بالبصرة [۵] وأقبلت قوات أم المؤمنین،

[صفحه ۹]

حتی إذا انتهوا إلی المربد ودخلوا من أعلاه. أمسکوا ووقفوا حتی خرج ابن حنیف فیمن معه. وخرج إلی السیدة عائشة من أهل البصرة من أراد أن یخرج إلیها ویکون معها [۶] واصطف الفریقان. وتحدث طلحة فذکر عثمان بن عفان.

ودعا إلی الطلب بدمه. وقال: إن فی ذلک إعزاز دین الله عز وجل. وتکلم الزبیر بمثل ذلک. وبعد حدیثهما انقسم الناس. فقال البعض: صدقا وبرا، وقال البعض الآخر: فجرا وغدرا، وقالا- الباطل وأمرا به. قد بایعا ثم جاءا یقولان ما یقولان [" ۷] ، وکان من نتیجة هذا الانقسام أن تحاتی الناس وتحاصبوا وأرهجوا [۸] وعندئذ تکلمت أم المؤمنین. وکانت جهوریة یعلو صوتها کثرة

کأن صوت امرأة جلیلة [۹] ، فقالت: کان الناس یتجنون علی عثمان بن عفان ویزرون علی عماله ویأتوننا بالمدینة فیستشیرونا فیما یخبروننا عنهم، ویرون حسنا من کلامنا فی صلاح بینهم. ثم قالت: ألا إن مما ینبغی لا ینبغی لکم غیره. أخذ قتلة عثمان وإقامة کتاب الله عز وجل [" ۱۰] ، وترتب علی بیان السیدة عائشة. افتراق أصحاب عثمان بن حنیف أمیر علی فرقتین. فرقة قالت: صدقت والله وجاءت والله بالمعروف. وقال الآخرون: کذبتم والله ما نعرف ما تقولون، فتحاتوا وتحاصبوا وأرهجوا [۱۱] ومال بعضهم إلی عائشة

وبقی بعضهم مع

عثمان. وبینما یضرب الناس بعضهم بعضا بالحجارة. أقبل جاریة بن قدامة السعدی وقال: یا أم المؤمنین. والله لقتل عثمان بن عفان أهون من خروجک من بیتک علی هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح. إنه کان لک من الله ستر وحرمة. فهتکت سترک وأبحت حرمتک. إنه من رأی قتالک فإنه یری قتلک. إن کنت أتیتنا

[صفحه ۱۰]

طائعة فارجعی إلی منزلک. وإن کنت أتیتنا مستکرهة. فاستعینی بالناس [" ۱۲] ، ولکن فوات أم المؤمنین قامت بتنفیذ أمر القتال الأول الذی سمعه أبو الأسود الدؤلی حین بعثه ابن حنیف إلی السیدة عائشة. وهذا الأمر " لست بمنصرفة حتی أمضی لما قدمت إلیه [۱۳] ، ودار قتال شدید وکثر عدد القتلی فی أصحاب ابن حنیف [۱۴] ، وتدخلت أطراف لإنهاء هذا النزاع ولکن الأمور کانت تجری بسرعة نحو یوم الجمل. ففی نهایة المطاف تم الاستیلاء علی البصرة. وأخرجوا عثمان بن حنیف، من قصره. وروی الطبری: أنهم أرسلوا إلی عائشة یستشیرونها فی أمر ابن حنیف فقالت: إقتلوه. فقالت لها امرأة: نشدتک بالله یا أم المؤمنین فی عثمان وصحبته لرسول الله صلی الله علیه وسلم، فقالت عائشة: احبسوه ولا تقتلوه [" ۱۵] .

وأمر مجاشع بن مسعود وکان أحد جنود أم المؤمنین بضرب عثمان ونتف شعر لحیته: فضربوه أربعین سوطا ونتفوا شعر لحیته ورأسه وحاجبیه وأشفار عینیه وحبسوه [۱۶] وخطبت أم المؤمنین: أیها الناس، إنه ما بلغ من ذنب عثمان ما یستحل به دمه. مصتموه کما یماص الثوب الرخیص. ثم عدوتم علیه فقتلتموه بعد توبته وخروجه من ذنبه وبایعتم ابن أبی طالب بغیر مشورة من الجماعة ابتزازا وغصبا أترونی أغضب لکم من سوط عثمان ولسانه. ولا ـ أغضب لعثمان من سیوفکم. ألا ـ إن عثمان قتل مظلوما فاطلبوا قتلته. فإذا ظفرتم بهم فاقتلوهم. ثم اجعلوا الأمر شوری بین الرهط الذین اختارهم أمیر المؤمنین عمر بن الخطاب. ولا یدخل فیهم من شرک فی دم عثمان [" ۱۷] .

وهکذا خرج علی بن أبی طالب من الخلافة عند أول خطوة داخل البصرة

[صفحه ۱۱]

لأنه عندهم من الذین اشترکوا فی دم عثمان. وروی الیعقوبی أنهم بعد استیلائهم علی البصرة. انتهبوا بیت المال وأخذوا ما فیه. فلما حضر وقت الصلاة تنازع طلحة والزبیر وجذب کل منهما صاحبه حتی فات وقت الصلاة. وصاح الناس: الصلاة الصلاة یا أصحاب محمد، فقالت أم المؤمنین رضی الله عنها: یصلی محمد بن طلحة یوما وعبد الله بن الزبیر یوما. وروی ابن الأثیر: لما بایع أهل البصرة طلحة والزبیر قال الزبیر: أرید ألف فارس أسیر بهم إلی علی بن أبی طالب أقتله بیاتا أو صباحا قبل أن یصل إلینا. فلم یجبه أحد. فقال: إن هذه للفتنة التی کنا نحدث عنها. فقال له مولاه: أتسمیها فتنة وتقاتل فیها؟ قال: ویلک إنا نبصر ولا تبصر. ما کان أمر قط إلا وأنا أعلم موضع قدمی فیه. غیر هذا الأمر. فإنی لا أدری أمقبل أنا فیه أم مدبر [" " ۱۸] ، وعندما لم یجب الزبیر أحد. قال طلحة والزبیر: إن قدم علینا علی ونحن علی هذا الحال من القلة والضعف لیأخذن بأعناقنا. فأجمعا علی مراسلة القبائل واستمالة العرب، فبایعهم. علی ذلک الأزد وضبة وقیس غیلان. وبعث طلحة والزبیر إلی أهل الشام بما صنعوا وصاروا إلیه وقالا ": وإنا نناشدکم الله فی أنفسکم. ألا نهضتم بمثل ما نهضنا به [" ۱۹] ، وکتبت أم المؤمنین إلی أهل الکوفة بما کان منهم وأمرتهم أن یثبطوا الناس عن علی بن أبی طالب وتحثهم علی طلب قتلة عثمان وکتبت إلی أهل الیمامة وإلی أهل المدینة بما کان منهم أیضا وسیرت الکتب [۲۰] وروی ابن الأثیر أن أم المؤمنین بعثت إلی أبی موسی الأشعری بکتاب تأمره فیه بملازمة بیته أو نصرتها [۲۱] وکانت سیرة أبی

موسی بعد ذلک هی نصره أم المؤمنین علی امتداد الطریق. وکتبت عائشة إلی زید بن صوحان [۲۲] تقول له ": من عائشة ابنة أبی

[صفحه ۱۲]

بکر أم المؤمنین حبیبة رسول الله صلی الله علیه وسلم، إلی ابنها الخالص زید بن صوحان. أما بعد: فإذا أتاک کتابی هذا. فأقدم

فانصرنا على أمرنا هذا. فإن لم تفعل فخذل الناس عن على بن أبى طالب [" ۲۳] ، فكتب إليها. من زيد بن صوحان إلى عائشة ابنة أبى بكر حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما بعد. فأنا ابنك الخالص إن اعتزلت هذا الأمر ورجعت إلى بيتك. وإلا فأنا أول من نابذك، وقال زيد رضى الله عنه ": رحم الله أم المؤمنين أمرت أن تلزم بيتها. وأمرنا أن نقاتل فتركت ما أمرت به وأمرتنا به. وصنعت ما أمرنا به ونهتنا عنه [" ۲۴] .

وروى ابن كثير أن أبا موسى وهو يثبط الناس عن على. قام زيد بن صوحان وقال للناس: أيها الناس سيروا إلى أمير المؤمنين وسيد المسلمين. سيروا إليه أجمعين [" ۲۵] ، وإذا سبقنا الأحداث بخطوتين سنجد زيدا على أرض معركة الجمل شهيدا. وروى عنه أنه قال: لا تنزعوا عنى ثوبا ولا تغسلوا عنى دما فإنى رجل مخاصم [" ۲۶] .

[۱] الطبرى ۱۷۳:۵.

[۲] الطبرى ۱۷۳:۵.

[۳] المحاسن والمساوئ:البيهقى ۱:۳۵.

[۴] العقد الفريد ۲:۲۷۸، الإمامة والسياسة:ابن قتيبة ۱:۵۷.

[۵] الطبرى ۱۷۵:۵.

[۶] الطبرى ۱۷۵:۵.

[۷] الطبرى ۱۷۵:۵.

[۸] الطبرى ۱۷۵:۵.

[۹] الطبرى ۱۷۵:۵ البداية والنهاية ۳۳۳:۷.

[۱۰] الطبرى ۱۷۵:۵ البداية والنهاية ۳۳۳:۷.

[۱۱] الطبرى ۱۷۵:۵ البداية والنهاية ۳۳۳:۷.

[۱۲] الطبرى ۱۷۶:۵، البداية والنهاية ۲۳۳:۷، الكامل ۱۰۹:۳.

[۱۳] العقد الفريد ۲:۲۷۸، الإمام والسياسة ۱:۵۷.

[۱۴] الطبرى ۱۷۷:۵، البداية ۳۳۳:۷.

[۱۵] الطبرى ۱۷۸:۵، البداية والنهاية ۲۳۳:۷.

[۱۶] الطبرى ۱۷۸:۵، البداية والنهاية ۲۳۳:۷.

[۱۷] الإمامة والسياسة ۶۴، ۶۵:۱، ابن أبى الحديد ۳۵۷:۳.

[۱۸] الكامل ۱۱۳:۳، الطبرى ۱۸۳:۵.

[۱۹] الطبرى ۱۸۱:۵، الكامل ۱۱۲:۳.

[۲۰] الكامل ۱۱۲:۳.

[۲۱] الكامل ۱۱۷:۳.

[۲۲] كان من الذين سيرهم عثمان وقال النبى فيه: زيد وما زيد وأخبر بأنه فى الجنة.

[۲۳] الطبرى ۱۸۴:۵، البداية والنهاية ۲۳۴:۷، الإمامة والسياسة ۱:۶۰.

[۲۴] الطبرى ۱۸۴:۵، البداية والنهاية ۲۳۴:۷، الإمامة والسياسة ۱:۶۰.

[۲۵] البداية والنهاية ۲۳۷:۷.

[۲۶] رواه البخارى ويعقوب بن سفيان فى تاريخهما (الإصابة ۵۸۳:۱)، (الإستيعاب ۵۶۰:۱).

مسير الإمام على

لم يترك الإمام طريقا إلا أقام فيه حجة على القوم، فلقد بعث إليهم
بالرسائل وبأصحابه وطالب بالتحكيم بينه وبينهم بواسطة أطراف تخلفت عنه وعنهم. ولكن القوم أبوا إلا المضى فى طريقهم الذى خرجوا من أجله. فعندما علم الإمام بهياج المعارضين من مكة وجاءته رسالة من أم المؤمنين أم سلمة وفيها: أما بعد فإن طلحة والزبير وأشياعهم. أشياع الضلالة يريدون أن يخرجوا بعائشة ومعهم عبد الله بن عامر. يذكرون أن عثمان قتل مظلوما والله كافيهم
[صفحه ۱۳]
بحوله وقوته. ولولا ما نهانا الله عن الخروج وأنت لم ترض به. لم أدع الخروج إليك والنصرة لك. ولكنى باعثة إليك بابنى وهو عدل نفسى عمر بن سلمة، يشهد شاهدك فاستوص به يا أمير المؤمنين خيرا [" ۱] وكانت عائشة قد كتبت إلى أم
المؤمنين أم سلمة تريد. منها الخروج للطلب بدم عثمان. ولكن أم سلمة وعظتها موعظة بليغة رواها ابن قتيبة فى كتابه غريب الحديث فقالت: إن عمود الإسلام لا يثأب بالنساء. ولا يرأب بهن إن صدع... ما كنت قائلة لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عارضك فى بعض هذه الفلوات... والله لو سرت سيرك هذا ثم قيل لى ادخلى الفردوس. لاستحييت أن ألقى محمدا هاتكة حجابا ضربه على."
وروى أن الإمام خطب يومئذ فقال: إن آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح أوله. فانصروا الله ينصركم ويصلح لكم أمركم. فقام أبو قتادة الأنصارى وقال: يا أمير المؤمنين إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قلدنى هذا السيف وقد أغمدته زمانا. وقد حان تجريده على هؤلاء القوم الظالمين الذين لم يألوا الأمة غشا [" ۲] ، وتحرك الإمام من المدينة إلى الربذة فأقام فيها أياما بمن معه من قوات. وفى أثناء مسيره بعث إلى أهل الكوفة وغيرهم. للإصلاح فقال ": أما بعد فإنى خرجت من حيى هذا إما ظالما وإما مظلوما وإما باغيا وإما مبغيا عليه. وإنى أذكر الله من بلغه كتابى هذا. لما نفر إلى. فإن كنت محسنا أعاننى وإن كنت مسيئا استعتبنى [" ۳] إنه صوت الحجة – فالإمام يخاطب الحاضر وفقا لما يعلم عن المستقبل الذى كشف عنه النبى صلى الله عليه وسلم وهو يخبر بالغيب عن ربه عز وجل. والإمام يخبر الحاضر قبل أن يأتى المستقبل وهذا عين العدل فى الشريعة الغراء وروى أنه كتب إلى الأمصار لما قدم إلى الربذة؟ كونوا لدين الله أعوانا وأنصارا وأيدونا وانهضوا إلينا فالإصلاح ما نريد لتعود الأمة
[صفحه ۱۴]
إخوانا. ومن أحب ذلك وآثره فقد أحب الحق وآثره، ومن أبغض ذلك فقد أبغض الحق وغمضه، " وقال ": لقد أصيب هذا الرجل.. يعنى عثمان – بأيدى هؤلاء القوم. الذين نزغهم الشيطان لينزغ بين هذه الأمة. ألا إن هذه الأمة لا بد مفترقة كما افترقت الأمم قبلهم فنعوذ بالله من شر ما هو كائن، " ثم قال ": إنه لا بد مما هو كائن أن يكون. ألا وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة. وشرها فرقة تنتحلنى ولا تعمل بعملى. فقد أدركتم ورأيتم. فالزموا دينكم واهدوا بهدى نبيكم صلى الله عليه وسلم. واتبعوا سنته. واعرضوا ما أشكل عليكم على القرآن. فما عرفه القرآن فالزموه وما أنكره فردوه. وارضوا بالله جل وعز ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا وبالقرآن حكما وإماما [" ۴] – فالإمام كان يتحرك تحرك الدعوة، يخاطب الحاضر بزاد الماضى الطاهر المطهر. ليعبر الحاضر إلى المستقبل فى أمان، وفى علم الله المطلق أن كل حاضر فيه غثاء لا يسمع ولا يبصر – وهذا الغثاء يسير بزاد الآباء والأهواء، لذا فهو عدو لكل حاضر ولكل مستقبل فيه من الله برهان، وهنا كانت الحجة مهمة يقوم بها الهداة إلى الله حتى لا يكون للغثاء على الله حجة يوم لا ينفع مال ولا بنون. وروى أن الإمام عندما بعث إلى الأمصار للإصلاح. كتب أيضا إلى طلحة والزبير وأرسل كتابه مع عمران بن حصين وفيه: أما بعد: فقد علمتما وإن كتمتما أنى لم أرد الناس حتى أرادونى. ولم أبايعهم حتى بايعونى. وإنكما ممن أرادنى وبايعنى، وإن العامة لم تبايعنى لسلطان غالب. ولا لحرص حاضر. فإن كنتما بايعتمانى طائعين فارجعا وتوبا إلى الله من قريب. وإن كنتما بايعتمانى كارهين. فقد جعلتما لى عليكما السبيل بإظهاركما الطاعة وإسراركما المعصية. ولعمرى ما كنتما

بأحق المهاجرين بالتقية والكتمان، وإن دفعكما هذا الأمر قبل أن تدخلا فيه. كان أوسع عليكما من خروجكما منه بعد إقراركما به. وقد زعمتما أنى قتلت عثمان. فبينى وبينكما من تخلف عنى وعنكما من أهل

[صفحه ۱۵]

المدينة. ثم يلزم كل امرئ بقدر ما احتمل. فارجعا أيها الشيخان عن رأيكما. فإن الآن أعظم أمركما بالعار. من قبل أن يجتمع العار والنار. والسلام [" ۵] .

وبينما الإمام يبعث برسائله، علم وهو فى الربذة بما حدث لعامله عثمان بن حنيفة فى البصرة وبالقتلى الذين قتلوا ظلما وعدوانا [۶] ، كما علم أن أبا موسى الأشعرى يثبط الناس عنه بالكوفة. وتحرك الإمام إلى ذى قار، يقول ابن عباس عندما دخل عليه: فأتيته فوجدته يخصف نعلا [۷] فقلت له: نحن

إلى أن تصلح من أمورنا أحوج منا إلى ما تصنع. فلم يكلمنى حتى فرغ من نعله. ثم ضمها إلى صاحبتها وقال لى: قومهما. فقلت: ليس لهما قيمة، قال: ذاك! قلت: كسر درهمه، قال: والله أيهما أحب إلى من أمركم هذا إلا أن أقيم حقا أو أدفع باطلا. ثم خرج فخطب الناس فقال: إن الله سبحانه بعث محمدا صلى الله عليه وسلم، وليس أحد من العرب يقرأ كتابا، ولا يدعى نبوة. فساق الناس حتى بوأهم محلتهم [۸] وبلغهم منجاتهم. فاستقامت قناتهم [۹] واطمأنت صفاتهم [۱۰] أما والله إن كنت لفى

ساقتها. حتى تولت بحذافيرها. ما عجزت ولا جبنت وإن مسيرى هذا لمثلها. فلأنقبن الباطل حتى يخرج الحق من جنبه. ما لى ولقريش! والله لقد قاتلتهم كافرين، ولأقاتلنهم مفتونين، وإنى لصاحبهم بالأمس. كما أنا صاحبهم اليوم والله ما تنقم منا قريش إلا أن الله اختارنا عليهم. فأدخلناهم فى حيزنا [" ۱۱] .

فالإمام فى كلامه. كأنه جعل الباطل كشئ قد اشتمل على الحق. واحتوى عليه. وصار الحق فى طيه. كالشئ الكامن المستتر فيه. فأقسم لينقبن ذلك.

[صفحه ۱۶]

الباطل إلى أن يخرج الحق من جنبه. ثم قال: ما لى ولقريش، ولم يقل: ما لى وطلحة والزبير. وذلك لأن الإمام ينظر إلى مساحة طويلة وعريضة. بصفته خبير بمعرفة الرجال، ثم أخبر عن هذه المساحة الطويلة العريضة فقال: لقد قاتلتهم كافرين. ثم قال خاصف النعل الأول. أى نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم: ولأقاتلنهم مفتونين. يقول ابن أبى الحديد: لأن الباقى على الإمام مفتون فاسق [۱۲] ثم ربط الإمام بين ماضى المساحة وحاضرها برباط واحد،

فقال: وإنى لصاحبهم بالأمس كما أنا صاحبهم اليوم، ثم اختصر أسباب النزاع كله فقال: والله ما تنتقم منا قريش إلا أن الله اختارنا عليهم. فأدخلناهم فى حيزنا. هكذا تحدث الإمام بعد إن خصف نعله. وروى أن الإمام على بعث إلى أبى موسى بعد أن علم خبره. أنه اختار الكوفة للنزول بين أظهرهم. وإنه اختارهم على الأمصار. لأنهم أشد الناس حبا له. فلما دخل مبعوثا على قال أبو موسى: أما والله إن بيعة عثمان بن عفان فى عنقى وعنق صاحبكما الذى أرسلكما. إن أردنا أن تقاتل لا نقاتل حتى لا يبقى أحد من قتلة عثمان إلا قتل حيث كان [" ۱۳] ، فانطلق المبعوثان إلى على بن أبى طالب بذى قار وأخبراه الخبر [۱۴] ، فأرسل الإمام على مبعوثا آخر هو عبد الله بن عباس ومعه الأشتر [۱۵] ، وعندما لم تفلح هذه المحاولة أيضا مع أبى موسى. بعث الإمام بالحسن بن على وعمار بن ياسر، وروى ابن الأثير. أن عبد الخير الحيوانى قال: يا أبا موسى. هل بايع طلحة والزبير؟ قال: نعم، قال: هل أحدث على بن أبى طالب ما يحل به نقض بيعته. قال: لا أدرى، فقال: لا دريت، نحن نترككك حتى تدرى، هل تعلم أحدا خارجا من هذه الفتنة، إنما الناس أربع فرق، على بظهر الكوفة، وطلحة والزبير بالبصرة. ومعاوية بالشام، وفرقة بالحجاز لا غناء بها ولا يقاتل بها عدو، قال أبو موسى: أولئك خير

[صفحه ۱۷]

الناس وهى فتنة. فقال عبد الخير: غلب عليك غشك يا أبا موسى [" ۱۶] .

وعندما قدم الحسن بن على وعمار بن ياسر إلى الكوفة. صعدا المنبر فكان الحسن فوق المنبر فى أعلاه وقام عمار أسفل من الحسن [۱۷] ، قال فى فتح البارى: فقال الحسن: إن عليا يقول: إنى أذكركم الله رجلا رعى لله حقا إلا نفر فإن كنت مظلوما أعاننى، وإن كنت ظالما خذلنى. والله إن طلحة والزبير لأول من بايعنى ثم نكثا. ولم أستأثر بمال. ولا بدلت حكما [" ۱۸] ، والبخارى لم يرو شيئا من كلمة الحسن. علما بأنه ذكر أن الحسن كان فى أعلى المنبر. وروى البخارى ما قاله عمار. فقال: قال عمار: إن عائشة قد سارت إلى البصرة ووالله إنها لزوجة نبيكم فى الدنيا والآخرة، ولكن الله تبارك وتعالى ابتلاكم ليعلم إياه تطيعون أم هى [" ۱۹] ، وقال فى فتح البارى: قال بعض الشراح: الضمير فى إياه. لعلى بن أبى طالب، والظاهر خلافه وإنه لله تعالى [۲۰] ، وأقول: إن الكتاب وأهل البيت فى حبل واحد كما روى مسلم وغيره. وروى أن أبا موسى قال لعمار: يا أبا اليقظان أعدوت فيمن عدا على عثمان أمير المؤمنين فأحللت نفسك مع الفجار. فقال عمار: لم أفعل ولم يسوءنى [۲۱] ، قال الحسن،: يا أبا موسى لم تثبط الناس عنا. فوالله ما أردنا إلا الاصلاح، ولا مثل أمير المؤمنين يخاف على شئ. فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشى والماشى خير من الراكب فقال عمار: يا أيها الناس. إنما قال له خاصة: أنت فيها قاعدا خير منك قائما. فقام رجل فقال لعمار: اسكت أيها العبد أنت أمس مع الغوغاء واليوم تسافه أميرنا. وثار زيد بن صوحان وطبقته وثار

[صفحه ۱۸]

الناس [" ۲۲] .

ثم ألقى زيد بالمفاجأة. جاء ومعه كتابان من عائشة إلى أهل الكوفة كتاب للخاصة وآخر للعامة وفيهما: أما بعد فثبطوا أيها الناس واجلسوا فى بيوتكم إلا عن قتلة عثمان بن عفان. فلما فرغ زيد من قراءة الكتاب فى المسجد قال: أمرت بأمر وأمرنا بأمر. أمرت أن تقر فى بيتها وأمرنا أن نقاتل حتى لا تكون فتنة. فأمرتنا بما أمرت به. وركبت ما أمرنا به [۲۳] وبعد أن فرغ زيد من كلامه. انقسم

الناس. فريق هنا وفريق هناك. وقام الحسن بن على فقال: أيها الناس أجيبوا دعوة أميركم وسيروا إلى إخوانكم. فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه، والله لأن يليه أولو النهى. أمثل فى العاجلة وخير فى العاقبة. فأجيبوا دعوتنا. وأعينونا على ما ابتلينا به وابتليتم [۲۴] ، وقام حجر بن عدى فقال: أيها الناس أجيبوا أمير المؤمنين. وانفروا خفافا وثقالا. وأنا أولكم [۲۵] ، وقام زيد بن صوحان وقال: أيها الناس. سيروا إلى أمير المؤمنين وسيد المسلمين. سيروا إليه أجمعين [" ۲۶] .

ثم جاءت المفاجأة الأخرى على يد عمار بن ياسر، قال عمار: يا أبا موسى أنشدك الله. ألم تسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار، وأنا سائلك عن حديث. فإن صدقت وإلا بعثت عليك من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من يقررك به. أنشدك الله. أليس إنما عناك رسول الله أنت نفسك فقال: إنها ستكون فتنة بين أمتى أنت يا أبا موسى فيه نائما خير منك قاعدا. وقاعدا خير منك قائما. وقائما خير منك ماشيا. فخصك رسول الله ولم يعم الناس. فخرج أبو موسى ولم يرد عليه شيئا [" ۲۷] ، وعن أبى نجاء قال: كنت جالسا مع عمار، فجاء أبو موسى

[صفحه ۱۹]

قال: ما لى وما لك، ألست أخاك. فقال عمار: ما أدرى ولكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلعنك ليلة الجبل!!؟ قال أبو موسى: قد استغفر لى. فقال عمار: قد شهدت اللعن ولم أشهد الاستغفار [۲۸] ، وإذا أخذنا خطوتين إلى الإمام نحو الأحداث. نجد أن الإمام عليا كان يرفض اشتراك أبى موسى فى التحكيم بعد صفين [۲۹] ولكن القوم أصروا على اشتراكه. فقال الإمام: إنه ليس

لى بثقة قد فارقنى. وخذل الناس عنى ثم هرب منى [۳۰] وعندما أصروا قال

الإمام: لقد كنت بالأمس أميرا. فأصبحت اليوم مأمورا. وكنت بالأمس ناهيا فأصبحت اليوم منهيا. وسيأتى هذا فى موضعه. وروى أن أبا موسى لم يكف عن تثبيط الناس. فبعث الإمام على قرظة بن كعب الأنصارى أميرا على الكوفة. وكتب معه إلى أبى موسى: إنى قد بعثت الحسن وعمارا يستنفران الناس. وبعثت قرظة بن كعب واليا على الكوفة. فاعتزل عملنا مذموما مدحورا. وإن لم تفعل فإنى قد

أمرته أن ينابذك. فإن نابذته فظفر بك يقطعك إربا إربا [۳۱] ثم بعث الأشتر فجاء وكان لا يمر بقبيلة فيها جماعة إلا دعاهم ويقول: اتبعونى إلى القصر. فانتهى إلى القصر فى جماعة من الناس فدخله. وأخرج الأشتر غلمان أبى موسى من القصر. فخرجوا ينادون: يا أبا موسى هذا الأشتر قد دخل القصر. فضربنا وأخرجنا. فنزل أبو موسى فدخل القصر. فصاح به الأشتر: أخرج لا أم لك. أخرج الله نفسك. فقال: أجلنى هذه العشية، فقال: هى لك [۳۲] فلما قدم الكتاب على أبى موسى اعتزل [۳۳] واستجاب

[صفحه ۲۰]

الناس للنفير [۳۴] .

وروى عن زيد بن على عن ابن عباس قال: لما نزلنا مع على ذى قار، قلت: يا أمير المؤمنين ما أقل من يأتيك من أهل الكوفة فيما أظن. فقال: والله ليأتينى منهم ستة آلاف وخمسمائة وستون رجلا. لا يزيدون ولا ينقصون. قال ابن عباس: فدخلنى والله من ذلك شك شديد فى قوله. وقلت فى نفسى: والله إن قدموا لأعدنهم. وروى ابن إسحاق عن عمه بن يسار قال: نفر إلى على إلى ذى قار من الكوفة فى البحر والبر ستة آلاف وخمسمائة وستون رجلا حتى سمع صهيل الخيل وشحيح البغال حوله - فلما سار بهم منقلة [۳۵] قال ابن عباس: والله لأعدنهم فإن كانوا كما قال: وإلا أتممتهم من غيرهم. فإن الناس قد كانوا سمعوا قوله: قال: فعرضتهم فوالله ما وجدتهم يزيدون رجلا ولا ينقصون رجلا. فقلت: الله أكبر. صدق الله ورسوله. ثم سرنا [۳۶] ، وقبل أن يأخذ الإمام على الخطوة التالية بعث عبد الله بن عباس وزيد بن صوحان إلى عائشة وقال لهما: إذهبا إلى عائشة وقولا لها إن الله أمرك أن تقرى فى بيتك وألا تخرجنى منه. وإنك لتعلمين ذلك، غير أن جماعة قد أغروك فخرجت من بيتك. فوقع الناس لاتفاقك معهم فى البلاء والعناء. وخير لك أن تعودى إلى بيتك. ولا تحومى حول الخصام والقتال. وإن لم تعودى ولم تطفئى هذه النائرة فإنها سوف يعقب القتال. ويقتل فيها خلق كثير. فاتقى الله يا عائشة وتوبى إلى الله فإن الله يقبل التوبة من عباده ويعفو. وإياك أن يدفعك حب عبد الله بن الزبير وقرابة طلحة إلى أمر تعقبه النار. فجاءا إلى عائشة وبلغا رسالة على إليها. فقالت: إنى لا أرد على بن أبى طالب بالكلام لأنى لا أبلغه فى الحجاج. فرجعا إليه وأخبراه بما قالت [۳۷] ، ثم بعث عبد الله بن عباس إلى الزبير قبل وقوع الحرب ليستفيئه إلى

[صفحه ۲۱]

طاعته [۳۸] وقال له ": لا تلقين طلحة. فإنك إن تلقه تجده كالثور عاقصا قرنه [۳۹] .

يركب الصعب [۴۰] ويقول: هو الذلول، ولكن الق الزبير فإنه ألين عريكة [۴۱] فقل له: يقول لك ابن خالك. عرفتنى بالحجاز وأنكرتنى بالعراق. فما عدا مما بدا [" ۴۲] .

ورجع رسل الإمام يؤذونه بالحرب، فقام فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسول الله ثم قال: أيها الناس إنى راقبت هؤلاء القوم كى يرعووا أن يرجعوا ووبختهم بنكثهم. وعرفتهم بغيهم فلم يستجيبوا. وقد بعثوا إلى أن أبرز للطعان. وأصبر للجلاد. وإنما تمنيك نفسك أمانى الباطل. وتعدك الغرور. ألا هبلتهم. الهبول. لقد كنت وما أهدد بالحرب. ولا أرهب بالضرب. ولقد أنصف القارة من رماها فليرعدوا وليبرقوا. فقد رأونى قديما. وعرفوا نكايتى. فكيف رأونى. أنا أبو الحسن. الذى فللت حد المشركين. وفرقت جماعتهم. وبذلك القلب ألقى عدوى اليوم. وإنى لعلى ما وعدنى ربى من النصر والتأييد. وعلى يقين من أمرى. وفى غير شبهة من دينى أيها الناس. إن الموت لا يفوته المقيم. ولا يعجزه الهارب. ليس عن الموت محيد ولا محيص. من لم يقتل. مات، إن أفضل الموت القتل. والذى نفس على بيده لألف ضربة بالسيف أهون من موتة واحدة على الفراش. الله إن طلحة نكث بيعتى وألب على عثمان حتى قتله. ثم عضهنى [۴۳] به ورمانى. اللهم فلا تمهله. اللهم إن الزبير قطع رحمى ونكث بيعتى، وظاهر على عدوى. فاكفينه اليوم بما شئت... ثم نزل [۴۴] .

[صفحه ۲۲]

[۱] الطبرى ۵:۱۶۷، الكامل ۳:۱۱۳، الحاكم (المستدرك ۳:۱۱۹) ابن أبى الحديد ۲:۴۱۱.

[۲] الکامل ۱۱۳:۳، الطبری ۱۶۷:۵.

[۳] ابن أبی الحدید.

[۴] الطبری ۱۸۵:۵، الکامل ۱۱۵:۳.

[۵] ابن أبی الحدید ۹۵:۵.

[۶] الطبری ۱۸۶:۵.

[۷] یخصف بغله:أی یخرزها.

[۸] أی أسکنهم منزلهم، أی ضرب الناس علی الإسلام حتی أوصلهم إلیه.

[۹] أی کانت قناتهم معوجة فاستقامت.

[۱۰] أی کانت تزلزله فاستقرت.

[۱۱] ابن أبی الحدید ۴۰۴:۱.

[۱۲] ابن أبی الحدید ۴۰۵:۱.

[۱۳] الطبری ۱۸۴:۵.

[۱۴] الطبری ۱۸۷:۱.

[۱۵] الطبری ۱۸۷:۵.

[۱۶] الکامل ۱۱۷:۳، الطبری ۱۹۰:۵.

[۱۷] البخاری (الصحیح ۲۲۹:۴) أحمد (الفتح الربانی ۱۴۰:۲۳).

[۱۸] رواه أبو یعلی (فتح الباری ۵۸:۱۳).

[۱۹] البخاری ک الفتن (الصحیح ۲۲۹:۴) أحمد (الفتح الربانی ۱۴۰:۲۳).

[۲۰] فتح الباری:ابن حجر ۵۸:۱۳.

[۲۱] الطبری ۱۸۷:۵، البدایة والنهایة ۲۳۶:۷.

[۲۲] الطبری ۱۸۸:۵.

[۲۳] الطبری ۱۸۸:۵.

[۲۴] الطبری ۱۸۹:۵، الکامل ۱۱۸:۳.

[۲۵] الطبری ۱۸۹:۵، البدایة والنهایة ۲۳۷:۷.

[۲۶] البدایة والنهایة ۲۳۷:۷.

[۲۷] رواه ابن عساکر (کنز العمال ۲۷۴:۱۱)، وأبو یعلی (کنز ۲۴۶:۷) وحدیث الفتنة التی یکون فیها القاعد خیر من القائم رواه أبو داوود حدیث ۴۲۶۲ ولکنه لم یخص فیه أبو موسی.

[۲۸] رواه ابن عساکر (کنز العمال ۶۰۸:۱۳).

[۲۹] الطبری ۲۸:۶، مروج الذهب ۴۰۶:۲.

[۳۰] الطبری ۲۸:۶.

[۳۱] الکامل ۱۳۳:۳.

[۳۲] الکامل ۱۱۸:۳، البدایة ۲۳۷:۷.

[۳۳] الکامل ۱۳۳:۳.

[۳۴] البدایة والنهایة ۲۳۷:۷.

[۳۵] مرحلة السفر.

[۳۶] ابن أبی الحدید ۴۰۶:۱، البدایة والنهایة وقال ابن کثیر رواه الطبرانی ۲۱۲:۶.

[۳۷] تاریخ ابن أعثم ص ۱۷۵.

[۳۸] لیستفیئه:أی یسترجعه.

[۳۹] عاقصا قرنه:أی قد التوی قرناه علی أذنیه.

[۴۰] یرکب الصعب:أی یستهین بالمستصعب من الأمور.

[۴۱] العریکة:أی الطبیعة.

[۴۲] ابن أبی الحدید ۳۸۸:۱.

[۴۳] عضهه:قال فیه ما لم یکن.

[۴۴] ابن أبی الحدید ۲۴۷:۱.

علی أعتاب الحرب

واجه الإمام علی صعوبات کثیرة علی طریق الحرب وکان تفادی هذه الصعوبات لیس بالأمر الیسیر. فهی ستدور بین أهل القبلة وفی کل طرف من الأطراف یوجد رجال من أهل بدر. وعلی رأس هذه الأطراف أعلام لا یمکن تجاهلها. والحرب ستدور بعد أن غاب عن ذهن الغالب الأعم أحادیث کثیرة کان النبی صلی الله علیه وسلم یحذر فیها من أمور ویسمی فیها رؤوس الفتن بأسمائهم وأسماء آبائهم کما فی حدیث حذیفة وغیره. وعندما أمر الإمام بروایة الحدیث لم یعط الوقت الکافی لغربلة هذه الأحادیث وبیان مقاصد الصحیح منها. فعندما أصبحت الحرب علی الأبواب ظهرت أحادیث الاعتزال والتماس سیوف من خشب والقاتل والمقتول فی النار. وأحادیث فی أعماقها سلب مهمة الأمر بالمعروف والنهی عن المنکر کی تصبح الأمة بلا مهمة وتمهد الطریق لأغیلمة قریش، وکان الإمام علی وسط هذه الأمواج المتلاطمة حجة بذاته ومن حوله نجوم ساطعة کعمار وزید وحذیفة وغیرهم، وفی هؤلاء نصوص من النبی صلی الله علیه وسلم تدعو للالتفاف حول علی. وعلی الرغم من هذا فإن الإنسان هو الإنسان. فالإنسان الذی ارتدی ثیاب النفاق بینما کان الوحی ینزل علی رسول الله صلی الله علیه وسلم وکان من السهل علیه أن یشق طریقه فی عهود ما بعد النبی وإن کان فی هذه العهود من هو خبیر بمعرفة الرجال، ولأن الساحة بها الحق والباطل وبها باطل ابتلع الحق فی بطنه لیتکلم علی لسانه. کان الإمام علی یحشد الناس من حوله متفادیا لکل جدل عقیم یکون فی صالح التیارات المعادیة. کان یسأل فیجب إجابة الخبیر، وکان یعرض عن کل إنسان لا یرید أن ینتظم فی جیشه. وذلک لأنه یعرف نتیجة الحرب مقدما وفقا لما کان النبی صلی الله علیه وسلم یخبره. ومن کان هذا شأنه فهو فی دائرة الحجة ولیس فی دائرة الحشد من أجل الأموال والغنائم. ونحن هنا سنلقی ضوءا علی بعض ما کان یجری علی أعتاب الحرب، لنری حجم الصعوبات التی کان الإمام یواجهها وهو یأخذ بالأسباب لیصل إلی نتیجة وهو یعرفها مقدما. وکان یسیر فی اتجاهها علی الرغم من معرفته أنه مقتول فی نهایة طریقها. لأنه کان

[صفحه ۲۳]

یعلم أن الاختبار سنة إلهیة جاریة، وأن جیله یختبر بأحداث یمثل الإمام نفسه الحق فیها، وأن نتائج هذه الأحداث سوف تمتد إلی أجیال قادمة. وأول ضوء نلقیه هنا سیکون علی ما برز من طروحات فکریة فی هذه الآونة، روی أن الحارث اللیثی دخل علی أمیر المؤمنین فقال: یا أمیر المؤمنین. أی فتنة أعظم من هذه، إن أصحاب بدر یمشون بعضهم إلی بعض بالسیف، فقال الإمام: ویحک

أتكون فتنة أنا أميرها وقائدها. والذى بعث محمدا بالحق وكرم وجهه. ما كذبت ولا كذبت. ولا ضللت ولا ضل بى. ولا زللت ولا زل بى. وإنى لعلى بينة من ربى. بينها الله لرسوله. وبينها رسوله لى. وسأدعى يوم القيامة ولا ذنب لى. ولو كان لى ذنب لكفر عنى ذنوبى ما أنا فيه من قتالهم [" ۱] .

وروى أن الإمام خطب الناس فقال عن الفتن: إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع. وأحكام تبتدع. يخالف فيها كتاب الله. ويتولى عليها رجال رجالا ["... ۲] ، وذكر ابن أبى الحديد: إن الإمام تكلم عن الفتنة. فقال ": عليكم بكتاب الله " أى إذا وقع الأمر واختلط الناس. فعليكم بكتاب الله. وقد قام إليه من سأله عن الفتنة فقال: أخبرنا عن الفتنة وهل سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ وقد روى كثير من المحدثين عن على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: إن الله قد كتب عليك جهاد المفتونين. كما كتب على جهاد المشركين. فقال على: يا رسول الله. ما هذه الفتنة التى كتب على فيها الجهاد؟ قال: قوم يشهدون أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله. وهم مخالفون للسنة. فقلت: يا رسول الله، فعلام أقاتلهم وهم يشهدون كما أشهد؟ قال: على الإحداث فى الدين. ومخالفة الأمر. فقلت: يا رسول الله. إنك كنت وعدتنى الشهادة. فأسأل أن يجعلها لى بين يديك. قال: فمن يقاتل الناكثين

[صفحه ۲۴]

والقاسطين والمارقين. أما إنى وعدتك الشهادة وتستشهد. تضرب على هذه. يعنى رأسك. فتخضب هذه - يعنى لحيتك. فكيف صبرك إذن؟ قلت: يا رسول الله ليس ذا بموطن صبر. هذا موطن شكر. قال: أجل. فأعد للخصومة فإنك مخاصم. فقلت: يا رسول الله. لو بينت لى قليلا- فقال: إن أمتى ستفتتن من بعدى. فتتأول القرآن وتعمل بالرأى. وتستحل الخمر بالنبيذ. والسحت بالهدية. والربا بالبيع... فكن جليس بيتك حتى تقلدها. فإذا قلدتها جاشت عليك الصدور. وقلبت لك الأمور. تقاتل حينئذ على تأويل القرآن. كما قاتلت على تنزيله... فقلت يا رسول الله: فبأى المنازل أنزل هؤلاء المفتونين من بعدك أبمنزلة فتنة أم بمنزلة ردة؟ فقال: بمنزلة فتنة يعمهون فيها إلى أن يدركهم العدل. فقلت: يا رسول الله. أيدركهم العدل منا أم من غيرنا؟ قال: بل منا. بنا فتح الله وبنا يختم. وبنا ألف الله القلوب بعد الشرك. وبنا يؤلف بين القلوب بعد الفتنة [" ۳] .

وقتال المفتونين وشدته وضع فى دائرة الذهن. وكان أبو ذر رضى الله عنه يحدث به. قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "، والذى نفسى بيده. إن فيكم لرجلا يقاتل الناس من بعدى على تأويل القرآن كما قاتلت المشركين على تنزيله. وهم يشهدون أن لا إله إلا الله. فيكبر قتلهم على الناس. حتى يطعنون على ولى الله ويسخطون عمله كما سخط موسى أمر السفينة والغلام والجدار. فكان ذلك كله رضى الله تعالى [" ۴] ، ورغم أن أبا ذر كان يحدث بقتال المفتونين قبل أن يأتى زمانه. إلا أن زمانه عندما جاء، قال من قال: يا أمير المؤمنين أى فتنة أعظم من هذه. ولقد رأينا كيف أجاب الإمام على هذا. ولم تكن هذه العقبة الوحيدة التى أزاحها الإمام. وإنما كانت هناك عقبات وعقبات أوجدتها ثقافات متعددة، وروى أن الحارث بن حوط الليثى دخل على أمير المؤمنين. فقال: يا أمير المؤمنين ما أرى طلحة والزبير وعائشة: أضحوا إلا

[صفحه ۲۵]

على الحق، والحارث ما قال ذلك إلا- من بريق العناوين التى يحملها هؤلاء. ولكن الإمام فى إجابته أخذ الحارث بعيدا عن البريق والزخرف. فقال: يا حارث. إنك نظرت تحتك ولم تنظر فوقك: إن الحق والباطل لا يعرفان بالناس. ولكن اعرف الحق باتباع من اتبعه. والباطل باجتناب من اجتنبه [۵] .

وعلق الغزالى فى كتابه المنقذ من الضلال على هذا القول فقال: العاقل من يقتدى بسيد العقلاء على كرم الله وجهه حيث قال ": لا يعرف الحق بالرجال اعرف الحق تعرف أهله. " وإذا كانت هناك عقبات فكرية قد واجهت الإمام. فلقد رأينا كيف تعامل الإمام مع أصحاب هذا الفكر بالمنطق وإقامة الحجة. وبنفس المنطق واجه الإمام العقبات التى واجهته عند التعبئة العامة قبل الحرب، وكما ذكرنا أن بعض الأحاديث قد ظهرت على السطح ويكمن فيها الاعتزال فى غير موضعه. ومن هذه الأحاديث ما روى عن الأحنف أنه قال:

خرجت وأنا أريد نصر ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقينى أبو بكرة فقال: يا أحنف ارجع فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار. فقلت: يا رسول الله هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: إنه قد أراد قتل صاحبه [" ۶] ، يقول سعيد حوى وهو يعقب على هذا الحديث: إن القتال مع على بن أبى طالب كان حقا وصوابا. ولكن أبو بكرة حمل حديثا ورد فى غير الحالة التى قاتل فيها على. على حالة قتال على للباغين. وهو فهم من أبى بكرة. ولكنه فهم فى غير محله. ومن هذه الروايات ندرك أن عقبات متعددة واجهت عليا فى معركته مع الآخرين. منها أمثال هذه الفتوى التى هى أثر من الورع أكثر منها أثر عند فتوى تصيب محلها [" ۷] .

وورد عن الإمام على قد حث الناس أن يعقلوا الخبر فقال ": إعقلوا الخبر

[صفحه ۲۶]

إذا سمعتموه عقل رعاية لا عقل رواية. فإن رواة العلم كثير ورعاته قليل [" ۸] .

وقال ": ما اختلفت دعوتان إلا كانت إحداهما ضلالة [" ۹] ، وروى أنه لما بلغه حديث أبو بكرة قال: القاتل والمقتول منهم... ونحن إذا نظرنا فى جانب آخر. نجد أن أبا بكرة كان يرجح أن أهل الجمل لن يفلحوا. ووفقا على ترجيحه هذا حدد خطوات نفسه. ولم يحدد خطواته على حديث القاتل والمقتول فى النار. روى البخارى عنه أنه قال ": لقد نفعنى الله بكلمة أيام الجمل لما بلغ النبى صلى الله عليه وسلم أن فارسا ملكوا ابنة كسرى قال ": لن يفلح قوم ولوا. أمرهم امرأة [" ۱۰] ، وقال فى فتح البارى: زاد الإسماعيلى عن طريق عوف " قال أبو بكرة: فعرفت أن أصحاب الجمل لن يفلحوا، " ونقل ابن بطال عن المهلب أن ظاهر حديث أبى بكرة يوهم توهين رأى عائشة فيما فعلت [۱۱] ، وروى الترمذى أن أبا بكرة بعد أن ساق الحديث قال ": فلما قدمت عائشة ذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فعصمنى الله [" ۱۲] .

مما سبق نعلم أن أبا بكرة كان يرجح أن الهزيمة ستصب على أهل الجمل. لكنه قال لمن أراد أن يلتحق بجيش على " القاتل والمقتول فى النار " وهذا من خوفه على الأحنف من شدة القتال. وترتب على هذا اعتزال الأحنف بأتباعه وكان معه زهاء ستة آلاف مقاتل [۱۳] وفى موقف آخر التبست فيها الأمور

عند عملية حشد القوات. روى أن الإمام على ذهب إلى لاهيان بن صيفى. وكان له صحبة. فقام الإمام على باب حجرته وقال له: كيف أنت يا أبا مسلم. قال: بخير. فقال الإمام: ألا تخرج معى إلى هؤلاء القوم فتعيننى. قال: إن خليلى عليه الصلاة والسلام وابن عمك. عهد إلى إذا كانت فتنة بين المسلمين أن اتخذ

[صفحه ۲۷]

سيفا من خشب، فهذا سيفى فإن شئت خرجت به معك، فقال الإمام: لا حاجة لنا فيك ولا فى سيفك. ورجع من باب الحجرة ولم يدخل [" ۱۴] .

لقد رجع الإمام دون أن يوجه أى اتهام إلى أن أحد. فكما ذكرنا أن المقام مقام حجة، والاختيار مفتوح. وهو يأخذ بالأسباب ويكدح من أجل نهاية سيقتل عندها. والله يفعل ما يريد. ليبتلى الحاضرين وينظر كيف يعملون ويبتلى الذين من بعدهم فى مواقفهم من هذه الأحداث. والإمام قبل اتخاذه قرار الحرب فى جميع معاركه. كان يشاور ثم يضع الجميع أمام قراره وفى قراره لا تجد إلا مصلحة الدعوة فعن طارق بن شهاب قال: رأيت عليا عليه رحل رث بالربذة وهو يقول للحسن والحسين: ما لكما تحنان حنين الجارية. والله لقد ضربت هذا الأمر ظهرا لبطن. فما وجدت بدا من قتال القوم أو الكفر بما أنزل على محمد [" ۱۵] ، إن الإمام إذا رفض القتال فلا معنى لعهد النبى له بقتال الناكثين والفاسقين والمارقين. لذا فهو يخوض الصعب. ولا يخوض الصعب أحد سواه. وعلى طريق الصعب كان يخفف عن اتباعه فيخبرهم قبل كل معركة خاضها بنتيجتها وأهم معالمها. قال ذلك يوم الجمل وأيام صفين وفى قتال الخوارج. وروى عن ابن عباس قال: لما بلغ أصحاب على حين ساروا إلى البصرة. أن أهل البصرة وليقتلن طلحة والزبير. وليخرجن إليكم من

الکوفة ستة آلاف وخمسمائة رجلا ["... ۱۶] ، ولقد تحدثنا من قبل أن ابن عباس وجد أن العدد کما ذکر الإمام وذلک لما کان رسول الله صلی الله علیه وسلم یخبره. والخلاصة: أن مجمل الصعوبات التی واجهت الإمام کانت نتیجة لعدم الروایة بعد رسول الله. فهناک أحادیث تحذیر فیها أسماء رؤوس الفتن کل ذلک علی امتداد ربع قرن کان قد ضاع من ذاکرة البعض أو تناسوه کما فی حدیث حذیفة. ومن الأسباب أیضا تعدد مصادر الفتوی ومنها من لا یصل بالإنسان إلی حقیقة.

[صفحه ۲۸]

[۱] ابن أبی الحدید.

[۲] ابن أبی الحدید ۶۶۷:۱.

[۳] ابن أبی الحدید ۲۷۷:۳، ورواه وکیع (کنز المال ۱۸۳:۱۶).

[۴] رواه الدیلمی (کنزل العمال ۶۰۶:۱۱).

[۵] البیان والتبین:الجاحظ ۱۱۲:۲، تاریخ الیعقوبی ۱۵۲:۲.

[۶] رواه مسلم (الصحیح ۱۱:۱۸).

[۷] الأساس فی السنة ۱۷۱۱:۴.

[۸] ابن أبی الحدید ۳۷۴:۵.

[۹] ابن أبی الحدید ۴۴۹:۵.

[۱۰] البخاری ک الفتن (الصحیح ۲۲۸:۴).

[۱۱] فتح الباری ۵۶:۱۳.

[۱۲] الترمذی وصححه (الجامع ۵۲۸:۴)، والحاکم وأقره الذهبی (المستدرک ۱۱۹:۳).

[۱۳] الکامل ۱۲۲:۳، الطبری ۱۹۸:۵).

[۱۴] رواه أحمد والترمذی وحسنه وابن ماجة ونعیم ابن حماد وأورده ابن حجر فی الإصابة وابن کثیر فی البدایة (الفتح الربانی ۱۳۸:۲۳)، (جامع الترمذی ۴۹۰:۴).

[۱۵] رواه الحاکم (المستدرک ۱۱۵:۳)، (کنز العمال ۳۴۹:۱۱).

[۱۶] رواه الطبرانی، وابن کثیر فی البدایة (البدایة ۲۱۲:۶).

الحرب

فشلت جمیع محاولات أمیر المؤمنین لتجنب القتال وأبی الناکثون إلا

المواجهة. وکان الأحنف بن قیس عندما سمع ومن معه فتوی أبی بکرة قد اعتزل القتال. وأعلن هذا أمام معسکر أمیر المؤمنین. وعلی الرغم من هذا إلا أن وجد أن الأحنف کان مع علی. فأرسل إلیه. إن شئت أتیتک وإن شئت کففت عنک عشرة آلاف سیف. وکان علی قد علم أن الأحنف قد أعلن الاعتزال أمام المعسکر الآخر. وفی هذا الوقت العصیب لم یقل له الإمام: تعال إلی وأعنی. وإنما قال له: کیف بما أعطیت أصحابک من الاعتزال، فقال الأحنف: إن من الوفاء الله عز وجل قتالهم. لقد کان للفتوی أثر سیئ. لأنه قد ترتب علیها عهود، والإمام یحترم عهود الناس حتی فی أحلک الأوقات. ولذا قال له: کف من قدرت علی کفه [" ۱] ، وفی میدان القتال وقف الإمام علی فی مواجهة الناکثین علی أول طریق البغی الطویل. کان الإمام یرکب بغلة النبی صلی الله علیه وسلم [۲] .

وروی البلاذری أنها بقیت إلی زمن معاویة [۳] وکان محمد بن الحنفیة

یرفع رایة رسول الله السوداء وتعرف بالعقاب. وروی أن أم المؤمنین عائشة کانت علی جمل یدعی عسکر اشتراه لها یعلی بن أمیة.

وکان الجمل لواء القوم [۴] وألبسوا هودج أم المؤمنین الأدرع [۵] ووضعوا علیه جلود البقر [۶] ، وفی لحظات السکون قبل بدء المعرکة خرج طلحة والزبیر. فخرج إلیها الإمام علی،

[صفحه ۲۹]

حتی اختلفت أعناق دوابهم فقال الإمام: لعمری قد أعددتما سلاحا وخیلا ورجالا. فهلا أعددتما عذرا یوم القیامة فاتقیا الله. ولا تکونا کالتی نقضت غزلها من بعد قوة أنکاثا. ألم أکن حاکما فی دمکما. تحرمان دمی وأحرم دمکما فهل من حدث أحل لکم ذمی؟ قال طلحة: ألبت الناس علی عثمان. فقال الإمام: یومئذ یوفیهم الله دینهم الحق. یا طلحة، تطلب بدم عثمان! فلعن الله قاتل عثمان! یا طلحة أجئت بعرس رسول الله تقاتل بها وخبأت عرسک فی البیت، أما بایعتنی؟ قال: بایعتک والسیف علی عنقی!! ثم قال الإمام: یا زبیر ما أخرجک؟ قال: أنت! ولا أراک لهذا الأمر أهلا ولا أولی به منی!!؟ فقال الإمام: ألست له أهلا بعد عثمان. قد کنا نعدک من بنی عبد المطلب حتی بلغ ابنک ابن السوء ففرق بیننا [" ۷] .

لقد کان الزبیر أکثر صراحة. فعندما سأله الإمام عن سبب الخروج. حدثه عن الحکم والکرسی. وبعد هذا الحدیث عادت الخیول إلی مواقعها. ثم وقف الإمام علی بین الصفین ودعا الزبیر وقال: أنت آمن. تعالی حتی أعلمک. فأتاه. فقال له الإمام: أنشدک الله؟ أسمعت رسول الله صلی الله علیه وسلم یقول: إنک تقاتل علیا وأنت له ظالم؟ قال: نعم ولم أذکر ذاک إلا فی مقامی هذا. ثم انصرف [۸] وفی روایة: لتقاتلنه وأنت له ظالم ثم لینصرن علیک. قال: قد

سمعت لا جرم. لا أقاتلک [۹] وعندما انصرف قال له ابنه: ما لک؟ فقال: ذکرنی علی حدیثا سمعته من رسول الله صلی الله علیه وسلم. یقول: لتقاتلنه وأنت له ظالم. فقال عبد الله ابنه: وللقتال جئت! إنما جئت تصلح بین الناس. ویصلح الله هذا الأمر. قال: لقد حلفت أن لا أقاتله فقال: فاعتق غلامک وقف.

[صفحه ۳۰]

فأعتق غلامه ووقف [۱۰] وفی بدایة القتال انطلق الزبیر بفرسه وخرج من أرض المعرکة. فنزل بوادی السباع وقام یصلی فأتاه ابن جرموز فقتله [۱۱] .

وبعد أن أقام الإمام الحجة علی طلحة والزبیر مرة وعلی الزبیر وحده مرة. بعث إلی طلحة. أن القنی. فلقیه فقال: أنشدک الله أسمعت رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم یقول: من کنت مولاه فعلی مولاه. اللهم وال من ولاه وعاد من عاداه. قال: نعم، فقال: فلم تقاتلنی!! [۱۲] وانطلق طلحة للقتال ولم یفعل ما فعل الزبیر. ولم یبق غیر أم المؤمنین لم تسمع من أمیر المؤمنین کما سمع طلحة والزبیر. وشاء الله أن تخاطب أم المؤمنین علی بن أبی طالب وعمار بن یاسر قبل المعرکة، روی أن عمارا دنا من موضع أم المؤمنین وقال: ماذا تدعین؟ قالت: الطلب بدم عثمان. فقال: قاتل الله فی هذا الیوم الباغی والطالب بغیر الحق. ثم قال: أیها الناس إنکم لتعلمون أینا الممالئ فی قتل عثمان [۱۳] وما أن انتهی

عمار حتی جاء فی اتجاه أم المؤمنین فوارس أربعة. فهتفت: فیهم رجل عرفته. ابن أبی طالب ورب الکعبة. سلوه ما یرید فقال لها أمیر المؤمنین: أنشدک بالله الذی أنزل الکتاب علی رسول الله صلی الله علیه وسلم فی بیتک. أتعلمین أن رسول الله صلی الله علیه وسلم جعلنی وصیا علی أهله وفی أهله، قالت: اللهم نعم. قال: فما لک؟ قالت: أطلب بدم أمیر المؤمنین عثمان قال: أرینی قتلة عثمان، ثم انصرف [۱۴] .

مما سبق علمنا أن عمارا ذکر أم المؤمنین بقتال البغاة وذلک فی قوله ": قاتل الله فی هذا الیوم الباغی " أما أمیر المؤمنین لقد تحدث علی فی أمر لا نعلم باطنه. لقد کشف أنه وصی علی أهل النبی صلی الله علیه وسلم وفیهم.

[صفحه ۳۱]

ومن المعروف أن لقب أمهات المؤمنین لا ینزع عنهن بوفاة الرسول، وإنما هو لقب ملاصق لهن حتی قیام الساعة. ولحاملة اللقب

حقوق وواجبات حددها الشرع الحكيم. وهذا الامتداد لا بد له من عين تحرسه. ولقد ورد أنه لا يؤدى عن النبى فى حياته إلا على وبما أن اسم النبى تحمله أمهات المؤمنين ولا ينزع بوفاة النبى فإن الذى يسهر على مصلحة أمهات المؤمنين حتى لا يطمع الذى فى قلبه مرض أو أصحاب المخططات، لا يكون غير رأس الدولة. وهذا على أى حال تفسير لقول الإمام بأن النبى جعله وصيا على أهله وفى أهله. فالسؤال طرح أثناء معركة. وعندما وافقت أم المؤمنين على قول أمير المؤمنين قال: فما لك؟ والله أعلم بمراده. ولقد روى أن أم المؤمنين صفية قالت للنبى لما حضر: فإن حدث حدث فإلى من؟ قال: إلى على بن أبى طالب [" ۱۵] ، وبعد أن بين الإمام وصايته. سألها عن قتلة عثمان فقال: أرينى قتلة عثمان. فإذا كانت قد جاءت بالقوات من أجل هذا. فعليها إن كانت تعرفهم أن تدل الإمام عليهم كى تجرى محاكمتهم وتحقن دماء المقاتلين، وإن كانت لا تعرفهم فما فائدة الحشد - فلقد كان من الواجب أن تعطى للإمام فرصة ليجمع أطراف القضية. وبعد أن قال الإمام هذا انصرف. وصدر أمر القتال. قال الإمام: عباد الله، اتقوا الله، وغضوا الأبصار. واخفضوا الأصوات، وأقلوا الكلام، ووطئوا أنفسكم على المنازلة والمجادلة والمبارزة والمناضلة والمبادلة والمعانقة والمكادمة والملازمة فاثبتوا. واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون. ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم. واصبروا إن الله مع الصابرين. اللهم ألهمهم الصبر وأنزل عليهم النصر وأعظم لهم الأجر [۱۶] ، ثم نادى مناديه: لا يتبع مدبر. ولا يذفف على جريح، ولا يقتل أسير ومن أغلق بابه فهو آمن ومن ألقى سلاحه فهو آمن [۱۷] ، ثم نادى المنادى: لا تبدأوا القوم

[صفحه ۳۲]

بالقتال وكلموهم بألطف الكلام. فإن هذا مقام من فلج فيه فلج يوم القيامة. فنادى معسكر عائشة: يا ثأرات عثمان. فقال الإمام: ما يقولون؟ فقال محمد بن الحنفية: يقولون يا ثأرات عثمان فرفع الإمام يديه وقال: اللهم كب اليوم قتلة عثمان لوجوههم [۱۸] اللهم خذ أيديهم وأقدامهم [۱۹] ، ثم قال الإمام لأصحابه: أيكم يعرض عليهم هذا المصحف. فإن قطع يده أخذه بيده الأخرى. فقال له فتى شاب: أنا، قال: اعرض عليهم هذا، وقل هو بيننا وبينكم من أوله إلى آخره. والله الله فى دمائنا ودمائكم. فلما جاءهم الفتى حملوا عليه حتى قتل. فقال الإمام: قد طاب لكم الضراب فقاتلوهم [۲۰] .

وما إن بدأت المعركة حتى لاحت هزيمة أصحاب الجمل، يقول ابن كثير. تقدم على بالراية. وقتل خلق كثير وجم غفير ولم تر واقعة أكثر من قطع الأيدى والأرجل فيها من هذه الواقعة [۲۱] وقال عبد الله الكاهلى: لما كان يوم الجمل

ترامينا بالنبل حتى فنيت وتطاعنا الرماح حتى تكسرت. وتشبكت صدورنا وصدورهم حتى لو سيرت الخيل عليها لسارت. وعلم أهل المدينة بالواقعة يوم الحرب قبل أن تغرب الشمس من نسر مر بماء حول المدينة ومعه شئ معلق فسقط معه. فإذا أكف فيه خاتم نقشه عبد الرحمن بن عتاب وعلم من بين مكة والمدينة والبصرة بالوقعة بما نقل إليهم النسور من الأيدى والأقدام [۲۲] ، وكان هدف قوات أم المؤمنين الحفاظ على الجمل. فكان لا يأخذ بالراية ولا بخطام الجمل إلا شجاع معروف [۲۳] ، ومن حرص الرجال على الجمل وحبهم له. روى أن رجالا من الأزد كانوا يأخذون بعر الجمل فيفتتونه ويشمونه ويقولون بعر جمل

[صفحه ۳۳]

أما ريحه مسك [۲۴] وكان معسكر على يقولون: لا تزال الحرب قائمة ما دام

هذا الجمل واقفا. وذلك لأن معسكر عائشة يدافعون عنه ويعملون على رفع رأسه وكلما قتل منهم أحد سارع الآخر ليمسك بزمام الجمل. وعندما فنى بنو ضبة. أخذ الخطام سبعون رجلا من قريش. وكل واحد يقتل بعد صاحبه. وكان محمد بن طلحة منهم قال لعائشة: مرينى بأمرك يا أمه، فقالت: أمرك أن تكون كخير ابنى آدم. فثبت فى مكانه يقول: حم لا ينصرون. فتقدم إليه نفر فحملوا عليه فقتلوه [۲۵] .

وأمر الإمام بقتل الجمل [۲۶] ، ولما سقط البعير على الأرض انهزم من حوله من الناس. وحمل هودج عائشة، وإنه كالقنفذ من السهام. ونادى منادى على فى الناس: أنه لا يتبع مدبر ولا يذفف على جريح [۲۷] ، وبعد أن هدأ غبار المعركة. ظهر على أرض القتال عشرة

آلاف قتيل [۲۸] أما الجرحى فلا يحصون [۲۹] .

وكان من بين القتلى طلحة بن عبيد الله. قتله مروان بن الحكم وكان معه فى معسكر واحد وتحت قيادة واحدة. ولكن مروان كانت له مهمة تختلف عن مهمة طلحة. وهى قتل طلحة [۳۰] ولم تعلم أم المؤمنين بقتل طلحة والزبير إلا

عندما علمت بهزيمة قواتها. فلقد علمت رضى الله عنها بالأمور الثلاثة فى وقت واحد. كما علمت فى نفس الوقت بمقتل زيد بن صوحان الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ": من سره أن ينظر إلى من يسبقه بعض أعضائه إلى

[صفحه ۳۴]

الجنة فلينظر إلى زيد بن صوحان [" ۳۱] روى أن عائشة قالت يوم الجمل

لخالد بن الواشمة: أنشدك الله أصادقى أنت إن سألتك. قال: نعم، قالت: ما فعل طلحة؟ قال، قتل! فقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون. ثم قالت: ما فعل الزبير؟ قال: قتل! قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون. فقال لها: بل نحن لله ونحن إليه راجعون. على زيد وأصحاب زيد قالت: زيد بن صوحان، فقال: نعم، قالت: خيرا، فقال لها: والله لا يجمع الله بينه وبينهما فى الجنة أبدا. قالت: لا تقل ذاك فإن رحمته واسعة وهو على كل شئ قدير [" ۳۲] .

وروى عن زيد من وجوه أنه قال ": شدوا على ثيابى ولا تنزعوا عنى ثوبا. ولا تغسلوا عنى دما. فإنى رجل مخاصم - أو قال - فإنا قوم مخاصمون [" ۳۳] .

وانتهت حرب الجمل وهرب رؤوس بنى أمية الذين وقفوا بالأموال والعتاد وراء طلحة والزبير [۳۴] وروى أن الإمام على وقف عند عائشة فضرب الهودج بقضيب

وقال: يا حميراء رسول الله أمرك بهذا. ألم يأمرك أن تقرى فى بيتك. والله ما أنصفك الذين أخرجوك إذا صانوا عقائلهم وأبرزوك. وأمر أخاها محمد فأنزلها فى دار صفية بنت الحارث [۳۵] ، وروى أن عمارا قال لعائشة لما فرغوا من الجمل ": ما أبعد هذا المسير من العهد الذى عهد إليكم - يشير إلى قوله تعالى ": وقرن فى بيوتكن - فقالت: أبو اليقظان؟ قال: نعم، قالت، والله إنك ما علمت لقوال بالحق، قال: الحمد لله الذى قضى لى على لسانك [" ۳۶] .

وروى عن أبى البحترى أنه قال: لما انهزم أهل الجمل قال على: لا يطلبن عبد خارج المعسكر وما كان من دابة أو سلاح فهو لكم. وليس لكم أم ولد:

[صفحه ۳۵]

والمواريث على فرائض الله. وأى امرأة قتل زوجها. فلتعتد أربعة أشهر وعشرا. قالوا: يا أمير المؤمنين تحل لنا دماؤهم ولا تحل لنا نساؤهم. فقال: كذلك السيرة فى أهل القبلة. فخاصموه. فقال: فهاتوا سهامكم واقرعوا على عائشة. فهى رأس الأمر وقائدهم. قال: ففرقوا وقالوا: نستغفر الله فخصمهم أمير المؤمنين [" ۳۷] .

وانتقلت أم المؤمنين إلى دار صفية زوجة عبد الله بن خلف الذى قتله الإمام يوم الجمل. وروى أن أمير المؤمنين أقبل إلى منزل عائشة. فإذا عائشة جالسة حولها نسوة من نساء أهل البصرة. وهى تبكى وهن يبكين معها. فنظرت صفية بنت الحارث فرأت عليا. فصاحت هى ومن كان معها هناك من النسوة وقلن: يا قاتل الأحبة. يا مفرق بين الجميع، أيتم الله بنيك كما أيتمت ولد عبد الله بن خلف. فنظر إليها على فعرفها فقال: أما إنى لا ألومك أن تبغضينى. وقد قتلت جدك يوم بدر. وقتلت عمك يوم أحد. وقتلت زوجك الآن. ولو كنت قاتل الأحبة كما تقولين. لقتلت من فى هذا البيت ومن فى هذه الدار. ثم أقبل على عائشة فقال: ألا تنحين كلابك هؤلاء عنى. أما إنى قد هممت أن أفتح باب هذا البيت فأقتل من فيه. ولولا حبى للعافية. لأخرجتهم الساعة فضربت أعناقهم صبرا. فسكتت عائشة وسكتت النسوة فلم تنطق واحدة منهن [۳۸] وروى

أن الأبواب التى هدد على بفتحها كان من ورائها أناس من الجرحى قد لجأوا إلى عائشة [۳۹] وتغافل عنهم على لأن مذهبه كان لا

يقتل مدبرا ولا يذفف على

جريح ولا يكشف سترا ولا يأخذ مالا [۴۰] .

وروى أن ابن عباس دخل على عائشة فى دار صفية بغير إذنها. واجتذب

[صفحه ۳۶]

وسادة فجلس عليها. فقالت: يا ابن عباس أخطأت السنة المأمور بها. ودخلت إلينا بغير إذننا. وجلست على رحلنا بغير أمرنا. فقال: لو كنت فى البيت الذى خلفك فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم. ما دخلت إلا بإذنك. وما جلسنا على رحلك إلا بأمرك. وإن أمير المؤمنين على بن أبى طالب يأمرك بسرعة الأوبة والتأهب للخروج إلى المدينة [" ۴۱] ، وعندما كانت أم المؤمنين تستعد للذهاب إلى المدينة. كان قد سبقها بعض الذين يبحثون عن الحقيقة. روى عن ثابت مولى أبى ذر أنه قال: كنت مع على يوم الجمل. فلما رأيت عائشة واقفة دخلنى بعض ما يدخل الناس [۴۲] ، فكشف الله عنى ذلك عند صلاة الظهر. فقاتلت مع أمير المؤمنين. فلما فرغ ذهبت إلى المدينة. فأتيت أم سلمة. فقلت: إنى والله ما جئت أسأل طعاما ولا شرابا، ولكنى مولى لأبى ذر. فقالت مرحبا، فقصصت عليها قصتى. فقالت: أين كنت حين طارت القلوب سطائرها. قلت: إلى حيث كشف الله عنى عند زوال الشمس. قالت: أحسنت. سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: على مع القرآن والقرآن مع على. لن يتفرقا حتى يردا على الحوض [" ۴۳] وعن حرى بن سمرة قال: لما كان من أهل البصرة ما كان بينهم وبين على بن أبى طالب انطلقت حتى أتيت المدينة، فأتيت ميمونة بنت الحارث فقالت: ما جاء بك، قال: كان بين على وطلحة الذى كان فأقبلت فبايعت عليا. قالت: فالحق به فوالله ما ضل ولا ضل - قالتها ثلاث مرات [" ۴۴] .

كان هذا فى المدينة أما فى البصرة، فلقد روى أن الإمام عندما دخلها منتصرا خطب فى الناس خطبة طويلة جاء فيها ": يا أهل السبخة [۴۵] يا أهل المؤتفكة. أئتفكت بأهلك من الدهر ثلاثا. وعلى الله تمام الرابعة يا جند المرأة.

[صفحه ۳۷]

يا أتباع البهيمة. رغا فأجبتم، وعقر فانهزمتم، أخلاقكم رقاق. وأعمالكم نفاق. ودينكم زيغ وشقاق، وماؤكم أجاج وزعاق [" ۴۶] .

وقوله رضى الله عنه ": يا أهل السبخة " إشارة إلى حديث النبى صلى الله عليه وآله وسلم ": إن الناس يمصرون أمصارا وإن مصرا منها يقال لها البصرة. فإن أنت مررت بها أو دخلتها فإياك وسباخها وكلاءها وسوقها وباب أمرائها وعليك بضواحيها. فإنه يكون بها خسف وقذف ورجف وقوم يبيتون فيصبحون قردة وخنازير [" ۴۷] ، فلقد وصفها النبى صلى الله عليه وآله وسلم بفساد العقول وكثرة الظلم الواقع بها، والبصرة كما ذكرنا من قبل أن يمصرها مصرها عمر بن الخطاب وسكنتها أجناس مختلفة كان لهم تأثير بالغ على ثقافتها. وأبرز معالم هذه الثقافة هى القردية والخنزيرة. أى تلجيم العقل كل تافه ورخيص والسير فى طريق المادة لاتهام غذاء الدنس والعار. وروى أن رجلا قال للإمام بعد الفراغ من يوم الجمل: يا أمير المؤمنين. وددت أن أخى فلانا كان شاهدنا. ليرى ما نصرك الله به على أعدائك. فقال الإمام: أهوى أخيك معنا؟ قال: نعم، فقال: فقد شهدنا. ولقد شهدنا فى عسكرنا هذا، أقوام فى أصلاب الرجال وأرحام النساء. سيرعف بهم الزمان ويقوى بهم الإيمان [" ۴۸] ، وفى كلام الإمام إشارة إلى قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم": المرء مع من أحب [" ۴۹] ، وقوله ": إذا عملت الخطيئة فى الأرض كان من شهدها فكرهها. كمن غاب عنها. ومن غاب عنها فرضيها كان كمن

[صفحه ۳۸]

شهدها [" ۵۰] .

وانتهى يوم الذى نادى الإمام فى بداية طريقه بالمصالحة. ولكن أحدا لم يتقدم ليصلح بين الطائفتين. ولم ينصت أصحاب الجمل إلى رسائل الإمام ورسله إليهم. ولو قام الذين اعتزلوا القتال وغيرهم بالوساطة من أجل المصالحة. لعلمنا بكل يسر من هم البغاة. ولكنهم لم

یفعلوا ذلک. وترتب علی هذا أن البحث عن الحقیقة کان لا بد أن یتم علی طریق شاق نظرا لوجود رایات متعددة الأسماء.

[صفحه ۳۹]

[۱] الکامل ۱۲۲:۳، الطبری ۱۹۹:۵.

[۲] البدایة والنهایة ۲۴۲:۷، مروج الذهب ۳۹۰:۲.

[۳] أنساب الأشراف ۵۱۱:۱.

[۴] ابن أبی الحدید ۴۱۶:۲.

[۵] الطبری ۲۰۳:۵.

[۶] مروج الذهب ۴۰۰:۲.

[۷] الکامل ۱۲۲:۳، البدایة والنهایة ۲۴۱، ۲۶۳:۷.

[۸] رواه أبو یعلی والبیهقی وابن عساکر (کنز العمال ۳۴۰:۱۱) والبدایة والنهایة ۲۴۱:۷، أسد الغابة ۲۵۲:۲، الکامل ۱۲۲:۳، مروج الذهب ۴۰۱:۲، الطبری ۲۰۰:۵، ابن أبی الحدید ۲۰۷:۳.

[۹] فتح الباری ۵۵:۱۳.

[۱۰] الکامل ۱۲۲:۳، البیهقی وابن عساکر (کنز العمال ۳۳۰:۱۱).

[۱۱] أسد الغابة ۲۵۲:۵۲، الطبری ۲۱۹:۵.

[۱۲] رواه الحاکم (المستدرک ۳۷۱:۳)، وابن عساکر (کنز العمال ۳۳۳:۱۱) مروج الذهب ۴۰۳:۲، الطبری ۳۰۴:۵.

[۱۳] مروج الذهب ۳۷۱:۲.

[۱۴] رواه الطبرانی (کنز العمال ۲۳۸:۷)، (الزوائد ۲۳۸:۷).

[۱۵] رواه الطبرانی ورجاله رجال الصحیح (الزوائد ۱۱۲:۹).

[۱۶] الطبری ۶:۶.

[۱۷] رواه ابن أبی شیبة والبیهقی (کنز العمال ۳۳۵:۱۱).

[۱۸] رواه البیهقی (کنز العمال ۳۳۸:۱۱).

[۱۹] البدایة والنهایة ۷:۸.

[۲۰] الطبری ۳۰۴، ۳۰۵:۵، مروج الذهب ۳۹۹:۲، ابن أبی الحدید ۲۰۸:۳، کنز العمال ۳۳۸:۱۱، الکامل ۱۳۳:۳.

[۲۱] البدایة ۲۴۳:۷.

[۲۲] الکامل ۱۳۳:۳، البدایة ۲۴۷:۷، الطبری ۲۱۸:۵.

[۲۳] البدایة ۲۴۴:۷.

[۲۴] الطبری ۲۶۳:۵.

[۲۵] البدایة ۲۴۴:۷، الطبری ۲۱۴:۵.

[۲۶] البدایة ۲۶۶:۷، الطبری ۲۱۰:۵.

[۲۷] البدایة ۲۴۵:۷، الطبری ۲۰۸:۵.

[۲۸] الکامل ۱۳۱:۳، البدایة ۲۴۷:۷، الطبری ۲۲۲:۵، وقیل قتل فیها من أصحاب الجمل ثلاثة عشر ألفا ومن أصحاب علی خمسة آلاف (مروج الذهب ۳۸۷:۲).

[۲۹] البدایة ۲۴۷:۷.

[۳۰] لا خلاف بین أهل العلم علی أن مروان بن الحکم هو الذی قتل طلحة راجع (البدایة والنهایة ۲۷۸:۸)، (أسد الغابة ۸۸:۳).

[۳۱] رواه أبو یعلی وابن مندة (الإصابة ۵۸۲:۱)، والبیهقی (۲۱۴:۶).

[۳۲] رواه ابن منده والبیهقی (الإستیعاب ۵۶۰:۱).

[۳۳] رواه البخاری ویعقوب بن سفیان فی تاریخهما. وابن منده (الإصابة ۵۸۳:۱)، (الإستیعاب ۵۶۰:۱).

[۳۴] الطبری ۲۲۰:۵.

[۳۵] مروج الذهب ۳۱۷۶:۲.

[۳۶] الطبرانی بسند صحیح (فتح الباری ۵۸:۱۳)، الکامل ۱۳۳:۳، الطبری ۲۲۵:۵.

[۳۷] ابن أبی شیبة (کنز ۳۳۶:۱۱).

[۳۸] فتوح ابن أعثم (۳۳۹:۲، الطبری ۲۲۴:۵، الکامل ۱۳۱:۳. واللغط لابن أعثم، مروج الذهب ۲:۴۰۸.

[۳۹] الطبری ۲۲۲:۵، الکامل ۱۳۱:۳.

[۴۰] الکامل ۱۳۱:۳.

[۴۱] مروج الذهب ۳۷۷:۲.

[۴۲] أی أنه استصعب قتالها.

[۴۳] رواه الحاکم وصححه وأقره الذهبی (المستدرک ۱۲۴:۳).

[۴۴] رواه الطبرانی وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۹:۱۳۵)، والحاکم وصححه (المستدرک ۱۴۱:۳).

[۴۵] موضع یعلوه الملوحة.

[۴۶] مروج الذهب ۴۰۷:۲.

[۴۷] رواه أبو داود حدیث رقم ۴۲۸۵، والطبرانی (عون المعبود ۴۲۰:۱۱)، وقال السیوطی: هذا الحدیث أورده ابن الجوزی فی الموضوعات من غیر الطریق الذی أخرجه منها المصنف، وغفل عن هذا الطریق. وقد تعقبته فیما کتبت علی کتابه (عون المعبود ۴۲۰:۱۱).

[۴۸] ابن أبی الحدید.

[۴۹] البخاری (الصحیح ۷۷:۴).

[۵۰] رواه أبو داوود حدیث ۴۳۴۵.

ایام صفین

فی سنة ست وثلاثین قامت موقعة الجمل وانتهت. وقیل: إنه کان بین

خلافة علی إلی وقعة الجمل خمسة أشهر وإحدی وعشرون یوما. وقتل فی هذه الوقعة ما یقرب من عشرین ألفا منهم خمسة آلاف من قوات أمیر المؤمنین. وبینما الدماء لم تجف بعد، وإذا بمعاویة بن أبی سفیان یخرج علی رأس أهل الشام فی خمس وثمانین ألف مقاتل، لیقابل جیش أمیر المؤمنین بعد فراغه من یوم الجمل بحوالی أربعة أشهر. وبقراءة سریعة لخلفیة معاویة نجد أن عمر بن الخطاب ولاه الشام بعد موت أخیه یزید. وکانت وصیة هند لولدها معاویة " إن هذا الرجل استنهضک فی هذا الأمر. فاعمل بطاعته فیما أحببت وکرهت [" ۱] ، ووصاه والده أبو سفیان ": وقد ولوک جسیما من أمورهم فلا تخالفهم. فإنک تجری إلی أمد. فنافس فإن بلغته أورثته عقبک [" ۲] ، وکان معاویة یقول لعمر ": مرنی یا أمیر المؤمنین بما شئت. فیقول له: لا آمرک ولا أنهاک [" ۳] ، وکان عمر لا یذکر معاویة إلا بخیر. کان یقول للناس ": تذکرون کسری وعندکم

[صفحه ۴۰]

معاویة [" ۴] ، ویقول ": دعوا فتی قریش وابن سیدها [" ۵] ، وکان یدخر قوات الشام للحفاظ علی حدود الدولة ولذا أطلق عمر صیحة ": یا أهل الشام استعدوا لأهل العراق. فإن الشیطان قد باض فیهم [" ۶] ، وفی عهد عثمان کان معاویة یتفاخر بأبیه ویقول ": قد عرفت قریش أن أبا سفیان کان أکرمها وابن أکرمها... ولا أظن أن أبا سفیان لو ولد الناس لم یلد إلا حازما [" ۷] ، وفی نفس العهد بدأ کعب الأحبار یلقی فی نفس معاویة طلب الخلافة. فقال له: أنت الأمیر بعد عثمان [۸] وعندما استنجد عثمان بقوات الشام أثناء محنته تباطأ معاویة [۹] .

کانت هذه خلفیة معاویة وقد بینا هذا فی موضعه من الأحداث فیما ذکرنا. وهناک شخصیة أخری وهو عمرو بن العاص سنلقی ضوءا علی خلیفته نظرا لأهمیة دوره فی أحداث صفین. وعمرو استخدمه رسول الله صلی الله علیه وسلم واستخدام الرسول لأنماط عدیدة من الناس یخضع فی المقام الأول لحرکة الدعوة وهذه الحرکة کانت تقتفی التألیف بین القلوب. وکان جمیع العاملین علی طریقها. یخضعون لکشف سرائرهم بواسطة الوحی فتحت الوحی یعلم النبی صلی الله علیه وسلم حقائقهم، ولهذا کان استخدام الرسول الإنسان ما یختلف عن استخدام غیره لهذا الإنسان. ففی عهد عمر بن الخطاب لمع نجم عمرو بن العاص حتی أن عمر کان یقول: ما ینبغی لأبی عبد الله أن یمشی علی الأرض إلا أمیرا [" ۱۰] ، وولاه فلسطین والأردن ثم مصر. فلم یزل والیا علیها حتی مات عمر. وأقره عثمان علیها أربع سنین أو نحوها ثم عزله عنها وولاها عبد الله بن أبی السرح. وعندما عزله عثمان جعل یطعن علیه ویسعی فی إفساد

[صفحه ۴۱]

أمره. فلما بلغه قتل عثمان وکان معتزلا بفلسطین قال: إنی إذا أنکأت قرحة أدمیتها [" ۱۱] .

وروی الطبری وغیره: عندما قتل عثمان وعلم بمبایعة الناس لعلی وما وقع لأهل الجمل. ارتحل یبکی کما تبکی المرأة ویقول: وا عثماناه، أنعی الحیاء والدین حتی قدم دمشق [۱۲] ، فوجد أهل الشام یحضون معاویة علی الطلب بدم عثمان، فقال عمرو: أنتم علی الحق اطلبوا بدم الخلیفة المظلوم [۱۳] وقال

معاویة لعمرو: بایعنی فقال: لا والله لا أعطیک من دینی حتی أنال من دنیاک قال: سل، فقال: مصر طعمة. فأجابه إلی ذلک وکتب له به کتابا [۱۴] وکانت

مصر فی نفس عمرو بن العاص. لأنه هو الذی فتحها. ویقول الجاحظ: فکان لعظمها فی نفسه وجلالتها فی صدره، وما قد عرفه من أموالها وسعة الدنیا، لا یستعظم أن یجعلها ثمنا من دینه [۱۵] وروی أنه عندما خرج عمرو من عند

معاویة. قال له ابناه: ما صنعت؟ قال: أعطانا مصر طعمة. قالا: وما مصر فی ملک العرب! فقال: لا أشبع الله بطونکما إن لم تشبعکما مصر [" ۱۶] .

فوفقا لخلیفة هذا وذاک نری أن الأول هدفه الخلافة. والثانی هدفه الإمارة وبالتحدید أن تکون له مصر ما بقی حیا، وهذه الأهداف تسیر فی طریق البغاة وعلیها قمیص عثمان. ذلک الشعار البراق الذی یلتف من حوله العامة. وهذه الفئة علی طریق البغاة تعرف باسم " القاسطین " ولیس معنی القاسط: أنه المطالب بدم عثمان، وإنما معناه ": الجائر عن الحق الناکب عنه " فاللفظ والمعنی یتحدثان عن حقیقة الهدف ولیس عن بریق الشعار. وقول أمیر المؤمنین " أمرنی رسول الله

[صفحه ۴۲]

صلی الله علیه وسلم بقتال الناکثین والقاسطین والمارقین " یعنی أن هذا القتال لا علاقة له بالشعارات المرفوعة. وإنما علاقته بالأهداف الحقیقیة التی تخفیها الجلود الآدمیة. ولقد عبر الإمام علی عن مبایعة عمرو لمعاویة بأنها مبایعة مبتورة ومشلولة وفقا لمیزان الحقیقة الذی یقر الزیف. فقال: قد بلغنی أن عمرو بن العاص الأبتر بن الأبتر [۱۷] بایع معاویة علی الطلب بدم عثمان وحضهم علیه. فالعضد والله الشلاء عمرو ونصرته [" ۱۸] .

[۱] البدایة والنهایة ۱۱۸:۸.

[۲] البدایة والنهایة ۱۱۸:۵.

[۳] البدایة والنهایة ۱۲۵:۸، الطبری ۱۸۴:۶.

[۴] الطبری ۱۸۴:۶.

[۵] البدایة والنهایة ۱۲۴:۸، الدیلمی (کنز العمال ۵۸۷:۱۳).

[۶] ابن سعد (کنز العمال ۳۵۴:۱۲).

[۷] الطبری ۸۹:۵.

[۸] الطبری ۱۰۰:۵، البدایة والنهایة ۸۵:۵.

[۹] الطبری ۱۱۵:۵.

[۱۰] الإصابة ۱۱۳:۶ ترجمة عمرو.

[۱۱] الإستیعاب ۳۷۶:۲.

[۱۲] الطبری ۲۳۳:۵، الکامل ۱۴۰:۳.

[۱۳] الطبری ۲۳۴:۵، الکامل ۱۴۱:۳.

[۱۴] مروج الذهب ۳۹۰:۲، الکامل ۱۷۹:۳ الطبری ۵۶:۶.

[۱۵] ابن أبی الحدید ۳۲۱:۱.

[۱۶] ابن أبی الحدید ۳۲۲:۱.

[۱۷] روی ابن کثیر أن قوله تعالی: (إن شانئک هو الأبتر) نزلت فی العاص بن وائل (تفسیر ابن کثیر ۵۵۹:۴).

[۱۸] الطبقات الکبری ۲۵۴:۴.

اقامة الحجة

بعد مقتل عثمان بدأ الإمام علی یجری تغییرات تستقیم مع سیاسته. ولکن
معاویة رفض هذه التغییرات والتی کان من بینها عزله عن الشام. وبینما کان الإمام یستعد للذهاب إلی الشام لإزالة هذه العقبة التی علی أرض الدولة. خرج علیه أصحاب الجمل. وما أن فرغ من أهل الجمل حتی بلغه أن أهل الشام یتجهزون للقتال. وأن عمرو بن العاص یذیع علیهم " أن أهل العراق قد فرقوا جمعهم وأوهنوا شوکتهم وفلوا حدهم. وأن أهل البصرة مخالفون لعلی بعد أن وترهم وقتلهم. وقد تفانت صنادیدهم وصنادید أهل الکوفة یوم الجمل. وأن علیا قد سار فی شرذمة قلیلة منهم وقد قتل خلیفتکم. فالله الله فی حقکم أن تضیعوه وفی دمکم أن تبطلوه [" ۱] ، وعمرو فی بیانه لم یهمل موقف خصمه القتالی. وإنما أخبرهم بأن الصنادید قد قتلوا إشارة إلی أن المهملة لن تکون عسیرة بعد أن نضجت الثمرة. وبینما أهل الشام یشقون طریقهم بمراکب الدهاء والکید. کان الإمام علی یشق طریقه إلیهم بمراکب الحجة. حتی لا تکون لهم حجة فی یوم لا یغنی فیه الندم. فبعث إلیهم جریر بن عبد الله البجلی یدعوه إلی البیعة. ولکن معاویة رکب الصعب. ثم بعث إلیه الإمام برسالة جاء فیها: إن الله
[صفحه ۴۳]

سبحانه جعل الدنیا لما بعدها. وابتلی فیها أهلها. لیعلم أیهم أحسن عملا. ولسنا للدنیا خلقنا. ولا بالسعی فیها أمرنا. وإنما وضعنا فیها لنبتلی بها. وقد ابتلانی الله بک وابتلاک بی. فجعل أحدنا حجة علی الآخر. فغدوت علی طلب الدنیا بتأویل القرآن. وطلبتنی بما لم تجن یدی ولا لسانی. وعصبته أنت وأهل الشام بی. وألب عالمکم جاهلکم. وقائمکم قاعدکم. فاتق الله فی نفسک. ونازع الشیطان

قيادك. واصرف إلى الآخرة وجهك. فهى طريقنا وطريقك. واحذر أن يصيبك الله منه بعاجل قارعة تمس الأصل. وتقطع الدابر. فإنى أولى لك بالله أليه غير فاجرة. لئن جمعتنى وإياك جوامع الأقدار لا أزال بباحتك " حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين " [۲].

لقد أخبره أن الله جعل الدنيا طريقا إلى الآخرة. وابتلى فيها أهلها أى اختبرهم ليعلم أيهم أحسن عملا، وأخبره بأن الإنسان لم يؤمر بالسعى فى الدنيا لها. بل أمر بالسعى فيها لغيرها. وكشف له الحقيقة التى يدثرها شعار قميص عثمان فقال ": فغدوت على طلب الدنيا بتأويل القرآن " أى تعديت وظلمت ومن هذا الظلم قولك ": أنا ولى عثمان. " وعلى طريق الظلم ألزمتنى بما لم تجن يدى ولا لسانى. وحرضتم الناس على هذا. ولم يلتفت معاوية إلى الحجة. وظل يتاجر بقميص عثمان فأرسل إليه الإمام رسالة قال فيها: فسبحان الله. ما أشد لزومك للأهواء المبتدعة، والحيرة المتبعة. مع تضييع الحقائق واطراح الوثائق: التى هى لله تعالى طلبة. وعلى عباده حجة. فأما إكثارك الحجاج على عثمان وقتلته. فإنك إنما نصرت عثمان حيث كان النصر لك. وخذلته حيث كان النصر له، والسلام [" ۳]. ولقد رأينا كيف تثاقل معاوية عن نصرة عثمان، وفى هذا التخاذل والتثاقل يقول البلاذرى وهو المعروف بالثقة والضبط " وإنما صنع ذلك معاوية ليقتل

[صفحه ۴۴]

عثمان فيدعوا إلى نفسه [" ۴]، ولم يكتف الإمام بإرسال الرسائل. وإنما بعث إليه بالصحابة ليقيموا عليه الحجة على امتداد الطريق إلى صفين. روى أن الإمام بعث إليه عدى بن حاتم... فقال عدى لمعاوية: إنا أتيناك ندعوك إلى أمر يجمع الله به كلمتنا وأمتنا ويحقن به الدماء ونصلح ذات البين، إن ابن عمك سيد المسلمين أفضلها سابقة وأحسنها فى الإسلام أثرا. وقد استجمع له الناس. ولم يبق أحد غيرك وغير من معك. فاحذر يا معاوية أن يصيبك وأصحابك مثل يوم الجمل. فقال له معاوية: كأنك إنما جئت متهددا لم تأت مصلحا. هيهات يا عدى. كلا- والله إنى لابن حرب لا- يقعقع له بالسنان. وإنك والله من المجلبين على عثمان وإنك من قتلته وإنى لأرجو أن تكون ممن يقتله الله به. فقال شبث وزياد بن خصفة: يا معاوية. جوابا واحدا، أتيناك فيما يصلحنا وإياك. فأقبلت تضرب لنا الأمثال. دع ما لا ينفع وأجبنا فيما يعم نفعه. وقال له يزيد بن قيس: إنا لم نأت إلا لنبلغك ما أرسلنا به إليك. ونؤدى عنك ما سمعنا منك. ولن ندع أن ننصح لك وأن نذكر ما يكون به الحجة عليك ويرجع إلى الألفة والجماعة. إن صاحبنا من قد عرف المسلمون فضله ولا- يخفى عليك. فاتق الله يا معاوية ولا تخالف. فإنا والله ما رأينا فى الناس رجلا قط أعمل بالتقوى ولا أزهد فى الدنيا ولا أجمع لخصال الخير كلها منه. فقال لهم معاوية: إنكم دعوتم إلى الطاعة والجماعة. فأما الجماعة التى دعوتم إليها فمعنا هى. وأما الطاعة لصاحبكم فإنا لا نراها [" ۵] وبعد بعث عدى بن حاتم ثم بعث إليه إليه أبا عمر وبشير بن عمرو بن. محصن وسعيد بن قيس... وعندما دخلوا عليه قال بشير: يا معاوية إن الدنيا عنك زائلة وإنك راجع إلى الآخرة. وإن الله محاسبك بعملك ومجازيك عليه، وإنى أنشدك الله ألا تفرق جماعة هذه الأمة وألا تسفك دماءها بينها. فقطع عليه معاوية الكلام وقال: هلا أوصيت بذلك صاحبك؟ فقال أبو عمر: إن صاحبى ليس مثلك. إن صاحبى أحق البرية كلها بهذا الأمر فى الفضل والدين والسابقة فى

[صفحه ۴۵]

الإسلام والقرابة بالرسول صلى الله عليه وسلم قال معاوية: فماذا يقول؟ فقال أبو عمر: يأمرك بتقوى الله وأن تجيب ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق. فإنه أسلم لك فى دنياك وخير لك فى عاقبة أمرك. قال: ونترك دم ابن عفان لا والله لا أفعل ذلك أبدا. فبادره شبث بن ربعى وقال: يا معاوية إنك لم تجد شيئا تستغوى به الناس وتستميل به أهواءهم وتستخلص به طاعتهم إلا قولك: (قتل إمامكم مظلوما فنحن نطلب بدمه) فاستجاب لك سفهاء طغام. وقد علمنا أنك أبطأت عنه بالنصر. وأحببت له القتل لهذه المنزلة التى أصبحت تطلب. ورب متمن أمر وطالبه يحول الله دونه. وبما أوتى المتمنى أمنيته وفوق أمنيته. ووالله ما لك فى واحدة منهما خير. والله إن أخطأت ما ترجو إنك لشر العرب حالا. ولئن أحببت ما تتمناه لا تصيبه حتى تستحق من ربك صلى النار. فاتق الله يا معاوية. ودع

ما أنت علیه. ولا تنازع الأمر أهله فقال له معاویهٔ: لقد کذبت ولؤمت أیها الأعرابی الجلف الجافی فی کل ما ذکرت ووصفت. انصرفوا من عندی ولیس بینی وبینکم إلا السیف [" ۶] .

لم ینصت معاویهٔ لصوت الحجهٔ. لأن وصیهٔ أمه وأبیه وفتوی کعب الأحبار. کل ذلک کان قد استولی علیه. وما استولی علیه هذا إلا لأنه یوافق هواه الذی تحت جلده.

[۱] البدایهٔ والنهایهٔ ۲۵۵:۷، الطبری ۲۳۶:۵.

[۲] ابن أبی الحدید ۹۸:۵.

[۳] ابن أبی الحدید ۷۸۴:۴.

[۴] ابن أبی الحدید ۷۸۵:۴.

[۵] الکامل ۱۴۸:۳، الطبری ۲:۶.

[۶] الکامل ۱۴۶:۳، الطبری ۲۴۳:۵.

معاویهٔ و سیاسهٔ التشکیک

سارت سیاسهٔ تعبئهٔ الناس تحت لافتهٔ " قمیص عثمان " جنبا إلی جنب مع

سیاسهٔ التشکیک فی الأحادیث التی رویت فی فضل أهل البیت ومناقب علی بن أبی طالب فمعاویهٔ کان یدرک خطورهٔ هذه الأحادیث وغیرها من الأحادیث التی حذر فیها النبی صلی الله علیه وسلم من الفتن. ولعن فیها قبائل وبیوتا نظرا لخطورتها علی الدعوهٔ. لهذا رفع معاویهٔ أمام هذه الأحادیث لافتهٔ " أساطیر الأولین " ولم یکتف معاویهٔ بهذه اللافتهٔ وإنما تاجر بقتل طلحهٔ والزبیر وهزیمهٔ

[صفحه ۴۶]

عائشهٔ. وحاول أن یجذب علی بن أبی طالب إلی معرکهٔ کلامیهٔ. حول الخلافهٔ بعد رسول الله صلی الله علیه وسلم لأن دخول الإمام فی هذه الدائرهٔ سیجعله من وجههٔ نظر معاویهٔ یفقد أصوات العامهٔ فی الأمصار مما یسهل علی معاویهٔ اختراق الساحهٔ بعد ذلک. وبالجملهٔ: لم یترک معاویهٔ طریقا فیه هواه إلا وطرقه ووضع فیه العوائق. وسیاسهٔ شکیک فی الروایات عن رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم ظهرت معالمها فی رسالهٔ أرسلها معاویهٔ إلی أمیر المؤمنین علی یقول له فیها: أما بعد. فدعنی من أساطیرک. واکفف عنی من أحادیث. وأقصر عن تقولک علی رسول الله صلی الله علیه وسلم وافترائک من الکذب ما لم یقل. وغرور من معک والخداع لهم. فقد استغویتهم. ویوشک أمرک أن ینکشف لهم فیعتزلوک. ویعلموا أن ما جئت به باطل مضمحل. والسلام [" ۱] .

فکتب إلیه أمیر المؤمنین: أما بعد. فطالما دعوت أنت وأولیاؤک أولیاء الشیطان الرجیم الحق أساطیر الأولین ونبذتموه وراء ظهورکم. وجهدتم بإطفاء نورا الله بأیدیکم وأفواهکم. والله متم نوره ولو کره الکافرون. ولعمری لیتمن النور علی کرهک. ولینفذن العلم بصغارک. ولتجازین بعملک. فعث فی دنیاک المنقطعهٔ عنک ما طاب لک. فکأنک بباطلک وقد انقضی. وبعملک وقد هوی. ثم تصیر إلی لظی. لم یظلمک الله شیئا. وما ربک بظلام للعبید. ولم تکتف الحملهٔ الإعلامیهٔ للقاسطین علی رفع لافتهٔ " أساطیر الأولین " وإنما قامت بتغذیهٔ الساحهٔ بمادهٔ إعلامیهٔ هدفها التقلیل من شأن أمیر المؤمنین فی أول الطریق لیتمکنوا من سبه فی نهایهٔ الطریق. یقول معاویهٔ فی رسالهٔ له إلی أمیر المؤمنین: أما بعد فما أعظم الدین علی قلبک. والغطاء علی بصرک. الشره من شیمتک. والحسد من خلیقتک. فشمر للحرب واصبر إلی الضرب. فوالله لیرجعن الأمر إلی ما علمت. والعاقبهٔ للمتقین ["!!... ۲] .

[صفحه ۴۷]

یقول ابن أبی الحدید: وأعجب وأطرب ما جاء به الدهر، وإن کانت عجائبه وبدائعه جمهٔ - أن یفضی أمر علی کرم لله وجهه إلی أن یصیر معاویهٔ ندا له ونظیرا مماثلا- یتعارضان الکتاب والجواب. ویتساویان فیما یواجه به أحدهما صاحبه. ولا یقول له علی کرم الله

وجهه كلمـة إلا قال مثلها. وأخشن مسا منها. فليت محمـد صـلى الله عليه وسـلم كان شاهد ذلك ليرى عيانا لا خبرا أن الدعوة التى قام بها. وقاسـى أعظم المشاق فى تحملها. وكابد الأهوال فى الذب عنها. وضـرب بالسيوف عليها لتأييد دولتها. وشيد أركانها. وملأ الآفاق بهـا. خلصت صـفوا عفوا لاـ عـدائه الـذين كـذبوه لمـا دعا إليها. وأخرجه عن أوطانه لما حصن عليها. وأدموا وجهه وقتلوا عمه وأهله. فكـأنه كان يسـعى لهم ويـدأب لراحتهم، كما قال أبو سـفيان فى أيام عثمان. وقـد مر بقبر حمزة. وضـربه برجله وقال: يا أبا عمارة: إن الأمر الـذى اختلفنا عليه بالسـيف أمسـى فى يد غلماننا اليوم يتلعبون به ثم آل الأمر أن يفاخر معاوية عليا. كما يتفاخر الأكفاء والنظراء! ثم أقول ثانيا لأمير المؤمنين على كرم الله وجهه ليت شعرى. لماذا فتح باب الكتاب والجواب بينه وبين معاوية؟ وإذا كانت الضرورة قد قـادت إلى ذلك فهلا اقتصـر فى الكتاب إليه على الموعظـة من غير تعرض للمفاخرة [۳] والمنافرة. وإذا كان لا بـد منهما. فهلا اكتفى بهما من غير تعرض لأمر آخر يوجب المقابلـة والمعارضـة بمثله. وبأشد منه (ولا تسـبوا الذين يدعون من دون الله فيسـبوا الله عدوا بغير علم) [۴] ، وهلا دفع هـذا الرحل العظيم الجليل نفسه عن سـباب هـذا السـفيه الأحمق. هـذا مع أنه القائل: من واجه الناس بما يكرهون قالوا فيه ما لا يعلمون. أى افتروا عليه

[صفحه ۴۸]

وقالوا فيه الباطل [" ۵] .

وأقول: شـاء الله أن يرد الإمـام ردا يوجب المقابلـة والمعارضـة. وشـاء الله أن نجـد هـذه الرسائل فى أكثر من مصـدر لتعلم منها أصول الحقيقة الغائبة. والإمام لا يضره سباب ألف سفيه أحمق. لأن هؤلاء لا يكتب لسبابهم وعروشهم الخلود. فانظر إلى الوراء منذ عهد آدم عليه السـلام كم من كلاب نبحت على قافلة الأنبياء. لقد ذهب النباح كهباء ضائع فى خلاء يصـلى أصـحابه لظى. وكتب الخلود لدعوة الرسل والأنبياء. وكـذلك ترى سـيرة الأئمة والهداة لقد رصدتهم ألسـنة أصـحاب السوء وشوهتهم الأقلام المأجورة. وفى النهاية ذهب أهـل السوء والباطـل ولم يكتب لأقوالهم الخلود ولم يبق إلا السائرون على طريق الفطرة. وبعـد التكـذيب بالحـديث بـدأ إعلام معاوية يتاجر بمقتل طلحة والزبير وهزيمة عائشة. روى أن عمرو بن العاص قال لعائشة: لوددت أنك كنت قتلت يوم الجمل. فقالت: ولم لا أبا لك؟ فقال: تموتين بأجلك وتـدخلين الجنـة ونجعلك أكبر التشـنيع على على بن أبى طالب [" ۶] ، ومن هـذا نعلم أن المتاجرة بأهل الجمل لها جـذور وأصول. وفى رسالـة من معاويـة إلى أمير المؤمنين على يقول: معاوية:... دعوت الناس إلى نفسك. وأكرهت أعيان المسـلمين على بيعتك. ثم كان منك بعدما كان من قتلك شـيخى المسـلمين أبا محمد طلحة وأبا عبد الله الزبير. وهما من الموعودين بالجنة. والمبشر قاتل أحدهما بالنار فى الآخرة هذا إلى تشريدك بأم المؤمنين عائشة. وإحلالها محل الهون. مبتذلة بين أيدى الأعراب وفسـقة أهـل الكوفـة. فمن بين مشـهر لها، وبين شامت بها. وبين ساخر منها. ترى ابن عمك كان بهـذا لو رآه راضـيا. أم يكون عليك ساخطة. ولك عنه زاجرا. أن تؤذى أهله وتشـرد بحليلته. وتسـفك دماء أهل ملته. ثم تركك دار الهجرة التى قال رسول الله صـلى الله عليه وسلم عنها ": إن المدينة لتنفى خبثها كما ينفى الكير خبث الحديد " فلعمرى قد صح وعده وصدق قوله.

[صفحه ۴۹]

ولقـد نفت خبثها. وطردت عنها من ليس بأهل أن يسـتوطنها. فأقمت بين المصـرين. وبعدت عن بركة الحرمين. ورضـيت بالكوفة بدلا من المدينة. وبمجاورة الخورنق والحيرة. عوضا عن مجاورة خاتم النبوة ["... ۷] .

ورد أمير المؤمنين عليه فى رسالـة طويلة منها:... فرق بيننا وبينكم أمس أنا آمنا وكفرتم. واليوم أنا اسـتقمنا وفتنتم. وما أسـلم مسـلمكم إلاـ كرها. وبعـد أن كان أنف الإسـلام كله لرسول الله صـلى الله عليه وسـلم حربا. وذكرت أنى قتلت طلحـة والزبير. وشـردت بعائشـة. ونزلت بين المصرين. وذلك أمر غبت عنه – فلا عليك. ولا العذر فيه إليك ["... ۸] .

وقال ابن أبى الحديد: فأما الجواب المفصل فأن يقال: إن طلحة والزبير قتلا أنفسـهما ببغيهما ونكثهما. ولو اسـتقاما على الطريقة لسـلما ومن قتله الحق فـدمه هـدر... وأصـحابنا يـذهبون إلى أنهما تابا وفارقا الدنيا نادمين على ما صـنعا. وكذلك نقول نحن... فهما من أهل

الجنهٔ لتوبتهما. ولولا توبتهما لکانا هالکین کما هلک غیرهما. فإن الله تعالی لا یحابی أحدا فی الطاعهٔ والتقوی. (لیهلک من هلک عن بینهٔ ویحی من حی عن بینهٔ) [۹] ، وأما الوعد لهما بالجنهٔ فمشروط بسلامهٔ العاقبهٔ. والکلام فی سلامتهما. وإذا ثبتت توبتهما فقد صح الوعد لهما وتحقق... أما أم المؤمنین عائشهٔ فقد صحت توبتها. والأخبار الواردهٔ فی توبتها أکثر من الأخبار الواردهٔ فی توبهٔ طلحهٔ والزبیر. لأنها عاشت زمانا طویلا. وهما لم یبقیا. والذی جری لها کان خطأ منها. فأی ذنب لأمیر المؤمنین کرم الله وجهه فی ذلک؟ ولو أقامت فی منزلها لم تبتذل بین الأعراب وأهل الکوفهٔ، علی أن أمیر المؤمنین کرم الله وجهه أکرمها وصانها وعظم من شأنها... ولو کانت فعلت بعمر بن الخطاب ما فعلت به. وشقت عصا الأمهٔ علیه. ثم ظفر بها. لقتلها وفرقها إربا إربا. ولکن علیا کان حلیما کریما.

[صفحه ۵۰]

وأما قوله ": لو عاش رسول الله صلی الله علیه وسلم. فبربک هل کان یرضی لک أن تؤذی حلیلته. " فلعلی کرم الله وجهه أن یقلب الکلام علیه. فیقول ": افتراه لو عاش. أکان یرضی لحلیلته أن تؤذی أخاه ووصیه. وأیضا أتراه لو عاش أکان یرضی لک یا ابن أبی سفیان أن تنازع علیا الخلافهٔ، وتفرق جماعهٔ هذه الأمهٔ. وأیضا أتراه لو عاش أکان یرضی لطلحهٔ والزبیر أن یبایعا. ثم ینکثا لا لسبب. بل قالا: جئنا تطلب الدراهم. فقد قیل لنا: إن بالبصرهٔ أموالا کثیرهٔ هذا الکلام یقوله لمثلهما. فأما قوله ": ترکت دار الهجرهٔ " فلا عیب علیه إذا انتقضت علیه أطراف الإسلام بالبغی والفساد أن یخرج من المدینهٔ إلیها، ویهذب أهلها، ولیس کل من خرج من المدینهٔ کان خبثا. فقد خرج عنها عمر مرارا إلی الشام. ثم لعلی کرم الله وجهه أن یقلب علیه الکلام فیقول له: وأنت یا معاویهٔ قد نفتک المدینهٔ أیضا عنها. فأنت إذن خبث. وکذلک طلحهٔ والزبیر وعائشهٔ الذین تتعصب لهم وتحتج علی الناس بهم، وقد خرج من المدینهٔ الصالحون. کابن مسعود وأبی ذر وغیرهما وماتوا فی بلاد نائیهٔ عنها. وأما قوله ": بعدت عن حرمهٔ الحرمین، ومجاورهٔ قبر رسول الله صلی الله علیه وسلم، " فکلام إقناعی ضعیف، والواجب علی الإمام أن یقدم الأهم فالأهم من مصالح الإسلام. وتقدیم قتال أهل البغی علی المقام بین الحرمین أولی... [۱۰] .

إن خطاب معاویهٔ لیس فیه علم یری. وهو خطاب إعلامی فی المقام الأول یخاطب به غوغاء الشام ومن علی شاکلتهم علی الرغم من أن الرسالهٔ موجههٔ إلی أمیر المؤمنین علی: وعلی هذا المنوال بعث معاویهٔ برسالهٔ أخری إلی أمیر المؤمنین علی یقول له فیها: أما بعد، یقول الله تعالی فی محکم کتابه (ولقد أوحی إلیک وإلی الذین من قبلک لئن أشرکت لیحبطن عملک ولتکونن من

[صفحه ۵۱]

الخاسرین) [۱۱] ، وإنی أحذرک الله أن تحبط عملک وسابقتک بشق عصا هذه الأمهٔ وتفریق جماعتها. فاتق الله واذکر موقف القیامهٔ. وأقلع عما أسرفت فیه من الخوض فی دماء المسلمین. وإنی سمعت رسول الله صلی الله علیه وسلم یقول ": لو تمالا أهل صنعاء وعدن علی قتل رجل واحد من المسلمین. لأکبهم الله علی مناخرهم فی النار " فکیف یکون حال من قتل أعلام المسلمین وسادات المهاجرین. بل ما طحنت رحا حربه من أهل القرآن. وذی العبادهٔ والإیمان. من شیخ کبیر. وشاب غریر. کلهم بالله تعالی مؤمن. وله مخلص وبرسوله مقر عارف. فإن کنت أبا الحسن أنما تحارب علی الإمرهٔ والخلافهٔ. فلعمری لو صحت خلافتک لکنت قریبا من أن تعذر فی حرب المسلمین. ولکنها ما صحت لک. أنی بصحتها وأهل الشام لم یدخلوا فیها. ولم یرتضوا بها؟ وخف الله وسطوته. واتق بأسه ونکاله. وأغمد سیفک عن الناس. فقد والله أکلتهم الحرب ["... ۱۲] .

وهذا أیضا خطاب إعلامی کتبه معاویهٔ لتبدأ إذاعته فی بثه بمجرد أن یتحرک حامل الرسالهٔ فی اتجاه أمیر المؤمنین. ولقد رد أمیر المؤمنین علی علی هذه الرسالهٔ وغیرها من باب إقامهٔ الحجهٔ. فقال: أما بعد. فقد أتتنی منک موعظهٔ موصلهٔ. ورسالهٔ محبرهٔ. فمقتها بضلالک. وأمضیتها بسوء رأیک. وکتاب امرئ لیس له بصر یهدیه. ولا قائد یرشده. دعاه الهوی فأجابه. وقاده الضلال فاتبعه. فهجر لا غطا. وضل خابطا. فأما أمرک لی بالتقوی فأرجو أن أکون من أهلها، واستعیذ بالله من أن أکون من الذین إذا أمروا بها أخذتهم العزهٔ بالإثم. وأما تحذیرک إیای أن یحیط عملی وسابقتی فی الإسلام. فلعمری لو کنت الباغی علیک. لکان لک أن تحذرنی ذلک.

ولكنى وجدت الله تعالى يقول: (فقاتلوا التى تبغى حتى تفئ إلى أمر

[صفحه ۵۲]

الله) [۱۳] ، فنظرنا إلى الفئتين. أما الفئة الباغية فوجدناها الفئة التى أنت فيها. لأن بيعتى بالمدينة لزمتك وأنت بالشام. كما لزمتك بيعة عثمان بالمدينة. وأنت أمير لعمر على الشام. وكما لزمت يزيد أخاك بيعة عمر وهو أمير لأبى بكر على الشام. وأما شق عصا هذه الأمة. فأنا أحق أن أنهاك عنه. فأما تخويفك لى من قتال أهل البغى. فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنى بقتالهم وقتلهم. وقال لأصحابه ": إن فيكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله، " وأشار إلى وأنا أولى من اتبع أمره. وأما قولك: إن بيعتى لم تصح لأن أهل الشام لم يدخلوا فيها. كيف وإنما هى بيعة واحدة. تلزم الحاضر والغائب. لا يثنى فيها النظر. ولا يستأنف فيها الخيار. الخارج منها طاعن. والمروى فيها مداهن. فأربع على ظلعك، وانزع سربال غيك... [۱۴] .

لقد خاطبه، وفقا لثقافته وما سارت عليه الأمور بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ليحاكمه بما ارتضوه واتفقوا عليه وهو أن الاختيار طريق الخلافة. فبين له أن الخلافة ليس بعد عقدها خيار لمن عقدها ولا لغيرهم. لأنها تلزم غير العاقدين كما تلزم العاقدين. فيسقط الخيار فيها. ووفقا لهذا التعريف فقد لزمت أمراء الشام من قبل. وعليه فهى تلزم معاوية. كان هذا بعضا من سياسة التشكيك فى الحديث حتى يتم التعتيم مرة أخرى على مناقب أمير المؤمنين، وسارت سياسة التقليل من شأن أمير المؤمنين جنبا إلى جنب مع سياسة التشكيك فى الحديث. ووصف بأن يفرق الكلمة ويقتل المتقين ويفارق المدينة. وكان هذا لهدف لا يخفى على الباحث عن الحقيقة. وفى حياة أمير المؤمنين عتموا على مناقبه مرة، ثم أرادوا أن يعتموا عليها ويشوهوه مرة... وبعد وفاته سبوه على المنابر. وكما زج معاوية بأصحاب الجمل فى حربه الإعلامية. زج أيضا بقضية الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولقد كان يريد من وراء هذا أن يقول أمير المؤمنين فى أبى بكر.

[صفحه ۵۳]

وعمر، بما لا يرضى الرأى العام لأن الغالب الأعم فى الأمصار كانوا يعتقدون إمامة الشيخين إلا القليل... من خواص أمير المؤمنين، كان معاوية يريد أن يسجل عليه قوله أنهما غصباه حقه. فيجعل ذلك حجة عليه عند أهل الشام ويضيفه إلى ما وضعه فى عقولهم من انتقاص على كما زعم. كان يريد أن وينسبهما إلى الظلم ومخالفة الرسول فى أمر الخلافة. فالحصول على تسجيل مثل هذا كفيل بأن يفسد عليه أهل العراق أيضا وهم جنده وبطانته وأنصاره. لأن الغالب الأعم فيهم كانوا يعتقدون إمامة الشيخين. لهذا لم يدخر معاوية جهدا من أجل فتح هذا الباب. فأرسل كتابا مع أبى مسلم الخولانى قصد أن يغضب عليا ويجرحه إذا قرأ ذكر أبى بكر وأنه أفضل المسلمين إلى أن يخلط خطة فى الجواب بكلمة تقتضى طعنا فى أبى بكر. فجاءه الرد من على غير واضح غير بين. ليس فيه تصريح بالتظلم لهما وتارة يترحم عليهما. وتارة يقول: أخذا حقى وقد تركته لهما. فأشار عمرو به العاص مع معاوية أن يكتب كتابا ثانيا للكتاب الأول ليستفزا فيه عليا. ويحمله الغضب أن يكتب كلاما يتعلقان به فى تقبيح حاله. فكتب معاوية إلى أمير المؤمنين كتابا أنفذه مع أبى أمامة الباهلى ومما جاء فيه ": لقد حسدت أبا بكر والتويت عليه. ورمت إفساد أمره. وقعدت فى بيتك واستغويت عصابة من الناس حتى تأخروا عن بيعته. ثم كرهت خلافة عمر. وحسدته واستطلت مدته. وسررت لقتله. وأظهرت الشماتة بمصابه. حتى أنك حاولت قتل ولده لأنه قتل قاتل أبيه. ثم لم تكن أشد منك حسدا لابن عمك عثمان نشرت مقابحه. وطعنت فى فقهه. ثم فى دينه. ثم فى سيرته ثم فى عقله. وأغريت به السفهاء من أصحابك وشيعتك. حتى قتلوه بمحضر منك " وجاء فيها ": فدع اللجاج، والعبث جانبا، وادفع إلينا قتلة عثمان، وأعد الأمر شورى بين المسلمين ليتفقوا على من هو لله رضا. فلا بيعة لك فى أعناقنا. ولا طاعة لك علينا ولا عتبى لك عندنا. وليس لك ولأصحابك عندى إلا السيف، " وجاء فيها ": فأما ما لا تزال تمن به من سابقتك وجهادك. فإنى وجدت الله سبحانه يقول ": يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم

[صفحه ۵۴]

صادقین) [۱۵] ، ولو نظرت فی حال نفسک لوجدتها أشد الأنفس امتنانا علی الله بعملها، وإذا کان الامتنان علی السائل یبطل أجر الصدقة. فالامتنان علی الله یبطل أمر الجهاد، ویجعله (کمثل صفوان علیه تراب...) الآیة [۱۶] ، فهکذا نسج معاویة وابن العاص شباک الصید التی تخدم أهواءهما کی یرکبا علی أعناق الأمة. ورد أمیر المؤمنین وکان رده من محاسن الکتب. وجاء فیه ": أما بعد فقد أتانی کتابک تذکر فیه اصطفاء الله محمدا صلی الله علیه وسلم لدینه. وتأییده إیاه لمن أیده من الصحابة. فلقد خبأ لنا الدهر منک عجبا، إذ طفقت تخبرنا ببلاء الله تعالی عندنا. ونعمته علینا فی نبینا. فکنت فی ذلک کناقل التمر إلی هجر أو داعی مسدده إلی النضال. والمعنی ": فلقد خبأ لنا الدهر منک عجبا " موضع التعجب أن معاویة یخبر علیا کرم الله وجهه باصطفاء الله تعالی محمدا وتشریفه له. وتأییده له. وهذا ظریف لأنه یجری کإخبار زید عمرا عن حال عمرو. إذ کان النبی صلی الله علیه وسلم وعلی کرم الله وجهه کالشئ الواحد وقوله ": فکنت فی ذلک کناقل التمر إلی هجر " وهجر اسم مدینة. وهی بلدة کثیرة النخل یحمل منها التمر إلی غیرها [۱۷] ثم قال الإمام فی خطابه ": وزعمت أن أفضل الناس فی الإسلام فلان

وفلان، فذکرت أمرا إن تم اعتزلک کله. وإن نقص لم یلحقک ثلمه. وما أنت والفاضل والمفضول. والسائس والمسوس، وما للطلقاء وأبناء الطلقاء والتمییز بین المهاجرین الأولین وترتیب درجاتهم. هیهات لقد جن قدح لیس منها [۱۸] .

وطفق یحکم فیها من علیه الحکم لها [۱۹] ألا تربع أیها الإنسان علی ظلعک [۲۰] .

[صفحه ۵۵]

وتعرف قصور ذرعک. وتتأخر حیث أخرک القدر [۲۱] فما علیک غلبة المغلوب ولا ظفر الظافر [۲۲] فإنک لذهاب فی التیه. رواغ عن القصد [" ۲۳] ، ثم کشف له أمیر المؤمنین عن أمور یعرفونها فقال ": ومنا النبی ومنکم المکذب ومنا أسد الله ومنکم أسد الأحلاف، ومنا سید شباب أهل الجنة ومنکم صبیة النار. ومناخیر نساء العالمین، ومنکم حمالة الحطب، فی کثیر مما لنا وعلیکم. فإسلامنا ما قد سمع. وجاهلیتنا لا تدفع. وکتاب الله یجمع لنا ما شذ عنا. وهو قوله سبحانه وتعالی: (وأولو الأرحام بعضهم أولی ببعض فی کتاب الله) [۲۴] ، وقوله تعالی: (إن أولی الناس بإبراهیم للذین اتبعوه وهذا النبی والذین آمنوا والله ولی المؤمنین) [۲۵] فنحن مرة أولی بالقرابة، وتارة أخری أولی بالطاعة، ولما احتج

المهاجرون علی الأنصار یوم السقیفة برسول الله صلی الله علیه وسلم فلجوا علیهم - فإن یکن الفلج به. فالحق لنا دونکم. وإن یکن بغیره فالأنصار علی دعواهم. وزعمت أنی لکل الخلفاء حسدت، وعلی کلهم بغیت. فإن یکن ذلک کذلک. فلیست الجنایة علیک. فیکون العذر إلیک. وقلت: إنی کنت أقاد کما یقاد الجمل المخشوش حتی أبایع، ولعمر الله لقد أردت أن تذم فمدحت. وأن تفضح فافتضحت. وما علی المسلم من غضاضة فی أن یکون مظلوما ما لم یکن شاکا فی دینه. ولا مرتابا ببقینه. وهذه حجتی إلی غیرک قصدا. ولکنی أطلقت لک منها بقدر ما سنح من ذکرها. ثم ذکرت ما کان من أمری وأمر عثمان، فلک أن تجاب عن هذه لرحمک منه. فأینا کان أعدی له وأهدی إلی مقاتله؟ أمن بذل له نصرته فاستقعده واستکفه، أمن استنصره فتراخی عنه وبث

[صفحه ۵۶]

المنون إلیه حتی أتی قدره علیه ["... ۲۶] .

لقد فتح معاویة بابا فیه من الحجج الکثیر. وکان الإمام لا یرید لهذا الباب أن یفتح علی مصراعیه. لأنه کان فی حاجة لحقن الدماء بالدخول تحت بیعته. وعندما أصر معاویة قال الإمام فی رسالته ": ألا تری غیر مخیر لک. ولکن بنعمة الله أحدث " أی لست عندی أهلا لأن أخبرک بذلک. فإنک تعلمه. ومن یعلم الشئ لا یجوز أن یخبر به. ولکن أذکر ذلک. لأنه تحدث بنعمة الله علینا. وقد أمرنا بأن نتحدث بنعمته سبحانه [۲۷] .

ویبدو أن حدیث معاویة فی هذا الباب الذی یعلمه. دفع بآخرین کی یذکروه إن کان قد نسی رغبة منهم فی حقن الدماء. ومن هؤلاء محمد بن أبی بکر. فلقد بعث برسالة إلی معاویة ومما جاء فیها " إن الله بجلاله وعظمته وسلطانه وقدرته خلق خلقا بلا عبث ولا

ضعف فی قوة: لا حاجة به إلی خلقهم. ولکنه خلقهم عبیدا وجعل منهم شقیا وسعیدا وغویا ورشیدا. ثم اختارهم علی علمه. فاصطفی منهم محمدا صلی الله علیه وسلم. فاختصه برسالته. واختاره لوحیه. وائتمنه علی أمره. وبعثه رسولا مصدقا لما بین یدیه من الکتب. ودلیلا علی الشرائع. فدعا إلی سبیل أمره بالحکمة والموعظة الحسنة. فکان أول من أجاب وأناب، وصدق ووافق فأسلم وسلم. أخوه وابن عمه علی بن أبی طالب. فصدقه بالغیب المکتوم وآثره علی کل حمیم - ووقاه کل هول، وواساه بنفسه فی کل خوف. فحارب حربه، وسالم سلمه [" ۲۸] ، وقال محمد بن أبی بکر فی رسالته ": وقد رأیتک تسامیه وأنت أنت.. وهو هو السابق المبرز فی کل خیر... وأنت اللعین ابن اللعین. لم تزل أنت وأبوک تبغیان لدین الله الغوائل وتجتهدان علی إطفاء نور الله. وتجمعان علی ذلک الجموع وتبذلان فیه المال. وتحالفان فی ذلک القبائل. علی هذا مات أبوک. وعلی ذلک

[صفحه ۵۷]

خلفته. والشاهد علیک بذلک من یأوی ویلجأ إلیک من بقیة الأحزاب ورؤوس النفاق والشقاق لرسول الله صلی الله علیه وسلم. والشاهد لعلی مع فضله وسابقته القدیمة أنصاره الذین ذکرهم الله تعالی فی القرآن. ففضلهم وأثنی علیهم من المهاجرین والأنصار. فهم معه کتائب وعصائب. یجالدون حوله بأسیافهم ویهرقون دماءهم دونه. یرون الفضل فی اتباعه والشقاق والعصیان فی خلافه. فکیف یا لک الویل تعدل نفسک بعلی. وهو وارث رسول الله صلی الله علیه وسلم ووصیه وأبو ولده، وأول الناس له اتباعا وآخرهم به عهدا بخبره بسره ویشرکه فی أمره. وأنت عدوه وابن عدوه. فتمتع ما استطعت بباطلک ولیمددک ابن العاص فی غوایتک. فکأن أجلک قد انقضی وکیدک قد وهی. وسوف تستبین لمن تکون العاقبة العلیا. واعلم أنک إنما تکابد ربک الذی قد أمنت کیده وأیست من روحه وهو لک بالمرصاد. وأنت منه فی غرور بالله. وبالله وأهل رسوله عنک الغناء. والسلام علی من اتبع الهدی [" ۲۹] .

لقد أراد محمد بن أبی بکر أن یذکر معاویة لعله یعقل الأمور. وإذا کانت لهجة الخطاب بها قوة فإن هذه القوة دعوة لیتخطی معاویة حواجز النفس الأمارة بالسوء. وینتصر علی نفسه فیدخل فیما دخل فیه الناس. لتحقن دماء المسلمین ویفوز برضا رب العالمین. فماذا کان جواب معاویة؟ لقد کتب إلی محمد بن أبی بکر: من معاویة بن أبی سفیان إلی الزاری علی أبیه محمد بن أبی بکر. سلام عل أهل طاعة الله. أما بعد. فقد أتانی کتابک تذکر فیه ما الله أهله فی قدرته وسلطانه. وما اصطفی به نبیه. مع کلام ألفته ووضعته. لرأیک فیه تضعیف ولأبیک فیه تعنیف. ذکرت حق ابن أبی طالب وقدیم سابقته وقرابته من نبی الله ونصرته له ومواساته إیاه فی کل خوف وهول. واحتجاجک علی وفخرک یفضل غیرک لا بفضلک.. فأحمد إلها صرف ذاک الفضل عنک. وجعله لغیرک. فقد کنا وأبوک معنا فی حیاة نبینا نری حق ابن أبی طالب لازما لنا وفضله مبرزا علینا، فلما اختار الله لنبیه ما عنده وأتم له ما وعده، وأظهر دعوته. وأفلج

[صفحه ۵۸]

حجته [۳۰] قبضه الله إلیه فکان أبوک وفاروقه أول من ابتزه وخالفه. علی ذلک

اتفقا واتسقا. ثم دعواه إلی أنفسهما فأبطأ عنهما وتلکأ علیهما. فهما به الهجوم وأرادا به العظیم - فبایعهما وسلم لهما. لا یشرکانه فی أمرهما. ولا یطلعانه علی سرهما حتی قبضا وانقضی أمرهما. ثم أقاما بعدهما ثالثهما عثمان بن عفان. یهتدی بهدیهما ویسیر بسیرتهما. فعبته أنت وصاحبک حتی طمع فیه الأقاصی من أهل المعاصی. وبطنتما له وظهرتما وکشفتما له عداوتکما وغلکما حتی بلغتما منه مناکما. فخذ حذرک یا ابن أبی بکر فسری وبال أمرک. وقس شبرک بفترک کقصر عن أن تساوی أن توازی من یزن الجبال بحلمه. ولا تلین علی قسر قناته. ولا یدرک ذو مدی أناته. أبوک مهد له مهاده وبنی ملکه وشاده. فإن یکن ما نحن فیه صوابا فأبوک أولی. وإن یکن جورا فأبوک أسه ونحن شرکاؤه. فبهدیه أخذنا وبفعله اقتدینا ورأینا أباک فعل ما فعل فاحتذینا مثاله واقتدینا بفعاله. فعتب أباک بما بدا لک. أو دع. والسلام علی من أناب ورجع من غوایته وناب [" ۳۱] .

إن سیاسة معاویة التی اعتمدها لیشککک بها فی مناقب أمیر المؤمنین علی. لم تقف عند التشکیک والمتاجرة بحرب الجمل وإنما اندفعت نحو الخلافة لتسجل علی أمیر المؤمنین أی اعتراض یخدم القاسطین فی بلوغ أهدافهم. وعندما أدلی محمد بن أبی بکر بدلوه

رغبة منه فی الاصلاح. کانت رسالة معاویة التهدیدیة إلیه. فمعنی الرسالة: أنک إذا تکلمت مس جذورک ما تقول. وما تقوله لن یبطل دم عثمان وستهتف الجماهیر بالقصاص تکلمت أو صمت، ولن تجد الجماهیر بدیلا عن اختیار المسلمین لأنفسهم. ولکن محمد بن أبی بکر تکلم بدلیل أن خطابه وخطاب معاویة إلیه بین أیدینا فی أکثر من مصدر. ولقد ظهرت فی الساحة قبل وبعد صفین أحادیث وأسئله حائرة. جاءت نتیجة لسیاسة معاویة الإعلامیة فی هذا الباب. وما کان لهذه الأسئلة أن تطرح فی هذا الوقت العصیب الذی یبحث فیه الإمام عن وحدة

[صفحه ۵۹]

الأمة. لولا أن معاویة فتح لها الباب بغیة أن تصب نتائجها المرجوة فی سلته. ولکن الریاح جاءت بما لا تشتهی السفن. صحیح أن هناک من هاجر إلی معاویة وکان الدافع إلی هجرتهم الحصول علی الأموال. ولیس الاقتناع بما یقول، ولکن الأهم أن أهل البصائر فارقوه بعد أن عرفوه. یقول أمیر المؤمنین له فی رسالة أثناء تلک الحملة الإعلامیة: وأردیت [۳۲] جیلا من الناس کثیرا [۳۳] .

خدعتهم بغیک [۳۴] وألقیتهم فی موج بحرک تغشاهم الظلمات. وتتلاطم بهم

الشبهات. فجاروا [۳۵] عن وجهتهم [۳۶] ونکصوا علی أعقابهم. وتولوا علی

أدبارهم. وعولوا علی أحسابهم [۳۷] إلا من فاء من أهل البصائر. فإنهم فارقوک

بعد معرفتک. وهربوا إلی الله من موازرتک. إذ حملتهم علی الصعب. وعدلت بهم عن القصد، فاتق الله یا معاویة فی نفسک. وجاذب الشیطان قیادک. فإن الدنیا منقطعة عنک. والآخرة قریبة منک [" ۳۸] .

[۱] ابن أبی الحدید ۴:۷۶۹.

[۲] المصدر السابق ۴:۷۶۹.

[۳] المصدر السابق ۴:۷۶۹.

[۴] کان الإمام قد تفاخر فی رسالة وقال: إن کنت صادقا فیما تسطر.. فدع الناس جانبا. وتیسر لما دعوتنی إلیه من الحرب... واعف الفریقین من القتال. لیعلم أینا المرین علی قلبه. المغطی علی بصره، فأنا أبو الحسن، قاتل جدک وأخیک وخالک. (ابن أبی الحدید ۴:۷۷۰).

[۵] سورة الأنعام: الآیة ۱۰۸.

[۶] ابن أبی الحدید ۴:۷۷۰.

[۷] الکامل:للمبرد ط لیدن ص ۱:۱۵۱.

[۸] ابن أبی الحدید ۵:۱۷۸.

[۹] ابن أبی الحدید ۵:۱۷۷.

[۱۰] سورة الأنفال: الآیة ۴۲.

[۱۱] ابن أبی الحدید ۵:۱۸۰.

[۱۲] سورة الزمر: الآیة ۶۵.

[۱۳] ابن أبی الحدید ۴:۳۱۶.

[۱۴] سورة الحجرات: الآیة ۹.

[۱۵] ابن أبی الحدید ۴:۳۱۶.

[۱۶] سورة الحجرات: الآیة ۱۷.

[۱۷] سورة البقرة: الآیة ۲۶۴.

[۱۸] ابن أبی الحدید ۴:۶۰۵.

[۱۹] هذا مثل یضرب لمن یدخل نفسه بین قوم لیس له أن یدخل بینهم.

[۲۰] أی وطفق یحکم فی هذه القصة أو فی القضیة من یجب أن یکون الحکم لها علیه لا له فیها.

[۲۱] أی ألا ترفق بنفسک وتکف ولا تحمل علیها ما لا تطیقه.

[۲۲] مثل قولک: ضع نفسک حیث وضعها الله.

[۲۳] أی ما الذی أدخلک بینی وبین أبی بکر وعمر وأنت من بنی أمیة لست هاشمیا ولا تیمیا ولا عدویا، ولست مهاجرا.

[۲۴] أی تترک ما یلزمک فعله وتتحدث عن الصحابة وما جری بعد موت النبی. ونحن إلی الکلام فی غیر هذا أحوج منا إلی الکلام فی البیعة وحقن الدماء والدخول تحت طاعة الإمام.

[۲۵] سورة الأنفال: الآیة ۷۵.

[۲۶] سورة آل عمران: الآیة ۶۸.

[۲۷] ابن أبی الحدید ۴:۵۹۹.

[۲۸] ابن أبی الحدید ۴:۶۰۷.

[۲۹] ابن أبی الحدید ۱:۶۳۲.

[۳۰] أی قومها وأظهرها.

[۳۱] ابن أبی الحدید ۱:۶۳۲.

[۳۲] أردیتهم:أهلکتهم.

[۳۳] جیلا من الناس:أی صنفا من الناس.

[۳۴] الغی:الضلال.

[۳۵] وجاروا:أی عدلوا عن القصد.

[۳۶] ووجهتهم:یقال: هذا وجهه الرأی، أی هو الرأی بنفسه.

[۳۷] أی لم یعتمدوا علی الدین وإنما أردتهم الحمیة ونخوة الجاهلیة فأخلدوا إلیها وترکوا الدین.

[۳۸] ابن أبی الحدید ۴:۷۶۷.

الاعلام العلوی

کان من نتائج التشکیک الأموی بروز أسئلة لا بد أن یجیب علیها الإمام

وحده ولیس أحدا غیره. سأله بعض أصحابه: کیف دفعکم قومکم عن هذا المقام وأنتم أحق به؟ فقال: أما الاستبداد [۱] علینا بهذا المقام. ونحن الأعلون نسبا والأشدون بالرسول صلی الله علیه وسلم نوطا [۲] فإنها کانت

[صفحه ۶۰]

أثرة [۳] شحت [۴] علیها نفوس قوم. وسخت [۵] عنها نفوس آخرین. والحکم الله والمعود إلیه یوم القیامة.

ودع عنک نهبا صیح فی حجراته++

ولکن حدیثا ما حدیث الرواحل

وهلم الخطب فی ابن أبی سفیان. فلقد أضحکنی الدهر بعد إبکائه [۶] .

ولا غرر والله. فیا له خطبا یستفرغ العجب. ویکثر الأود [۷] حاول القوم إطفاء

نور الله من مصباحه. وسد فواره من ينبوعه. وجد جوا بينى وبينهم شربا وبيئا. فإن ترتفع عنا وعنهم محن البلوى، أحملهم من الحق. وإن تكن الأخرى " فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليهم بما يصنعون [" ۸] .

وقال الإمام ردا على ما يشاع فى الساحة، وقد قال قائل: إنك على هذا الأمر يا ابن أبى طالب لحريص. فقلت: بل أنتم والله لأحرص وأبعد. وأنا أخص وأقرب. وإنما طلبت حقا لى وأنتم تحولون بينى وبينه. وتضربون وجهى دونه. فلما قرعته بالحجة فى الملأ الحاضرين. هب كأنه بهت لا يدرى ما يجيبنى به. اللهم إنى أستعديك [۹] على قريش ومن أعانهم. فإنهم قطعوا رحمى [۱۰] وصغروا عظيم منزلتى [۱۱] ، وأجمعوا على منازعتى أمرا هو لى. ثم

قالوا: إلا إن فى الحق أن تأخذه. وفى الحق أن تتركه [" ۱۲] .

كان الإمام يجيب على أسئلة الحاضر بوقائع حدثت فى الماضى فبين أنهم

[صفحه ۶۱]

لم يقتصروا على أخذ حقه ساكتين عن الدعوى. ولكنهم أخذوه وادعوا أن الحق لهم وأنه يجب عليه أن يترك المنازعة فيه. فيا ليتهم أخذوه معترفين بأنه حقه. فكانت المصيبة به أخف وأهون [۱۳] .

ولقد ذكرنا فى هذا الكتاب أن الساحة بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم كان بها العديد من التيارات التى تصد عن سبيل الله. وذكرنا أن الصحابة الكبار أرادوا أن يحيدوا هذه التيارات حتى لا تبطش بالدعوة فكان ما جرى فى السقيفة. والإمام هنا لا يخص إنسانا بعينه نازعه الأمر. وإنما يذكر قريشا إذ تحدث عن الذين قطعوا رحمه وصغروا منزلته وأجمعوا على منازعته. وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه فى أن قريشا دبرت أمرا. وبعضى قريش هموا بعمل كان فى رأيهم إنقاذا للدعوة. وبعد السقيفة اعتزل الإمام على وكانت له مكانته بين القوم حتى كان يوم الشورى وفيه رفعت أعلام " إنك على هذا الأمر يا ابن أبى طالب لحريص. " وبعد أن وضع الإعلام العلوى النقاط فوق الحروف فى قضية طرحها الإعلام الأموى الذى يبتغى التشكيك والمتاجرة بكل شئ. طالب الإمام أتباعه إذا سألوا أن يسألوا تفقها فقال: سل تفقها. ولا تسأل تعنتا، فإن الجاهل المتعلم شبيه بالعالم. وإن العالم المتعنت شبيه بالجاهل [" ۱۴] .

وقال ": لا تجعلوا علمكم جهلا ويقينكم شكا. إذا علمتم فاعملوا. وإذا تيقنتم فأقدموا [" ۱۵] ، وقال ": اعقلوا الخبر إذا سمعتموه عقل رعاية. لا عقل رواية. فإن رواة العلم كثير ورعاته قليل [" ۱۶] ، ثم طالب الإمام بكتابة العلم ليكون حجة على امتداد الزمان فقال ": الق دواتك. وأطل جلفة قلمك. وفرج بين السطور. وقرمط بين الحروف فأن ذلك أجدر بصباحة

[صفحه ۶۲]

الخط [" ۱۷] ، وقال "، العلم علمان. مطبوع ومسموع. ولا ينفع المسموع إذا لم يكن المطبوع [" ۱۸] وجبت الناس فى العلم فقال ": كل وعاء يضيق بما جعل فيه: إلا وعاء العلم فإنه يتسع [" ۱۹] ، وساق الناس إلى طريق الفكر فقيل له: صف لنا العاقل، فقال: هو الذى يضع الشئ فى مواضعه فقيل: فصف لنا الجاهل، قال: قد فعلت [۲۰] وقيل له: ما هو الخير؟ فقال: ليس الخير أن يكثر مالك وولدك. ولكن الخير أن يكثر علمك. وأن يعظم حلمك [" ۲۱] .

لقد كان الإعلام العلوى يدق أوتاد العلم فى كل مكان ويعمل على دوام العلم ليكون حجه على كل زمان. قال الإمام حين سأله رجل أن يعرفه ما الإيمان قال له: إذا كان غدا فأتنى حتى أخبرك على أسماع الناس، فإن نسيت مقالتى حفظها عليك غيرك فإن الكلام كالشاردة يثقفها هذا ويخطئها هذا [" ۲۲] .

وبينما كان الإعلام الأموى يدق أوتاد البدعة والفرقة كان الإعلام العلوى يدق أوتاد السنة والجماعة. عن يحيى بن عبد الله بن الحسن عن أبيه، قال: كان على يخطب فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين. أخبرنى من أهل الجماعة ومن أهل الفرقة. ومن أهل السنة ومن أهل البدعة؟ فقال: ويحك أما إذا سألتنى فافهم عنى، ولا عليك أن تسأل عنها أحدا بعدى. فأما أهل الجماعة فأنا ومن تبعنى وإن قلوا. ذلك الحق من أمر الله وأمر رسوله. فأما أهل الفرقة فالمخالفون لى ومن اتبعنى وإن كثروا. وأما أهل السنة المتمسكون بما سنه الله لهم

ورسوله وإن قلوا، وأما أهل البدعة. فالمخالفون لأمر الله ولكتابه ورسوله العاملون برأيهم وأهوائهم وإن كثروا. وقد مضى الفوج الأول وبقيت أفواج. وعلى الله

[صفحه ۶۳]

قصهما واستئصالها عن حدبة الأرض [" ۲۳] .

وقال له رجل: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الفتنة؟ فقال: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ": كيف صبرك إذا خضبت هذه من هذا. وأهوى بيده إلى لحيتى ورأسى؟ فقلت: بأبى وأمى يا رسول الله ليس ذلك من مواطن الصبر ولكن من مواطن البشرى والكشر. فقال لى: أجل. ثم قال لى: يا على إنك باق بعدى ومبتلى بأمتى. ومخاصمهم يوم القيامة بين يدى الله تعالى. فأعدد جوابا فقلت: بأبى أنت وأمى. بين لى ما هذه الفتنة التى يبتلون بها، وعلى ما أجاهدهم بعدك؟ فقال: إنك ستقاتل بعدى الناكثة والقاسطة والمارقة. وجلاهم وسماهم رجلا رجلا!!. ثم قال لى: وتجاهد أمتى على كل من خالف القرآن ممن يعمل فى الدين بالرأى. ولا رأى فى الدين. إنما هو أمر من الرب ونهيه فقلت: يا رسول الله فأرشدنى إلى الفلج عند الخصومة يوم القيامة، فقال: نعم. إذا كان ذلك فاعتصر على الهدى. إذا قومك عطفوا الهدى على العمى. وعطفوا القرآن على الرأى فتأولوه برأيهم. تتبع الحجج من القرآن بمشتبهات الأشياء الكاذبة عند الطمأنينة إلى الدنيا والتهالك والتكاثر. فأعطف أنت الرأى على القرآن إذا قومك حرفوا الكلم عن مواضعه عند الأهواء الساهية والهرج الآثم والقادة الناكثة والفرقة القاسطة والأخرى المارقة. أهل الإفك المردى والهوى المطغى والشبهة الحالقة. فلا تتكلن عن فضل العاقبة فإن العاقبة للمتقين ["... ۲۴] ، والحديث طويل ويشهد بصحته فضلا عن أنه حديث صحيح ما رواه حذيفة وعمار وأبو أيوب الأنصارى حين تحدث عن قتال على للبغاة وسيأتى فى موضعه. ثم قال إمام المتقين. وقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: وإياك يا على أن يكون خصمك أولى بالعدل والإحسان والتواضع لله والاقتداء بسنتى والعمل بالقرآن منك. فإن من فلج الرب على العبد يوم القيامة، أن يخالف

[صفحه ۶۴]

فرض الله أو سنة سنها نبى أو يعدل عن الحق ويعمل بالباطل. فعند ذلك يملى لهم فيزدادوا إثما قال تعالى: (إنما نملى لهم ليزدادوا إثما)، يا على إن القوم سيفتنون ويفتخرون بأحسابهم وأموالهم ويزكون أنفسهم، ويمنون دينهم على ربهم. ويتمنون رحمته ويأمنون عقابه. ويستحلون حرامه بالمشتبهات الكاذبة. فيستحلون الخمر بالنبيذ والسحت بالهدية والربا بالبيع ويمنعون الزكاة ويطلب البر. ويتخذون فيما بين ذلك أشياء من الفسق لا توصف صفتها. ويلى أمرهم السفهاء ويكثر تتبعهم على الجور والخطأ، فيصير الحق عندهم باطلا والباطل حقا. ويتعاونون عليه ويرمونه بألسنتهم، ويعيبون العلماء ويتخذونهم سخريا. قلت: يا رسول الله فبأية المنازل هم إذا فعلوا ذلك. بمنزلة فتنة أو بمنزلة ردة؟ قال: بمنزلة فتنة. ينقذهم الله بنا أهل البيت عند ظهورنا [۲۵] (يوجد

بياض فى المتن) ثم تحدث عن الفتن فبين أن الله فتح بأهل البيت وبهم يختم وبهم يقصم كل جبار وكل منافق. ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم لعلى: يا على إنما مثل هذه الأمة كمثل الغيث لا يدرى أوله خير أم أخره. وبين ذلك نهج أعوج لست منه وليس منى " [۲۶] ، وهذا حديث رواه أيضا الإمام أحمد والرامهرمزى. وفى الفترة بين موقعة الجمل وبين صفين. كان الإعلام العلوى يسوق الناس إلى صراط الله العزيز الحميد ولم يترك الإمام موقفا إلا وأقام عليه حجة. ولم يترك باطلا إلا وضربه ليخرج الحق من جنبه. لقد كان الإمام يعرف المنافقين. نظرا لأن النبى صلى الله عليه وسلم وضع عنده أصول الأحداث فى المستقبل. فوفقا لهذه الأصول ترى النفاق يشع بدون تدخل من أحد. لذا كان الإمام يسوق الناس إليه فى عالم ترك بنو أمية بصماتهم على امتداد طريقه فكان يقول ": أنا يعسوب المؤمنين والمال يعسوب الفجار، " وقال: معنى ذلك أن المؤمنين يتبعونى. والفجار يتبعون المال. كما تتبع النحل يعسوبها. وهو

[صفحه ۶۵]

رئیسها [۲۷] ، وقال الإمام: لو ضربت خیشوم المؤمن بسیفی هذا علی أن یبغضنی ما أبغضنی. ولو صببت الدنیا بجماتها علی المنافق علی أن یحبنی ما أحبنی وذلک أنه قضی فانقضی علی لسان النبی الأمی صلی الله علیه وسلم أنه قال: یا علی. لا یبغضک مؤمن ولا یحبک منافق [۲۸] ، وفی وصف المنافقین یقول الإمام ": أوصیکم عباد الله بتقوی الله. وأحذرکم أهل النفاق. فإنهم الضالون المضلون. والزالون المزلون. یتلونون ألوانا. ویفتنون افتنانا [۲۹] ویعمدونکم

بکل عماد [۳۰] ویرصدونکم بکل مرصاد [۳۱] قلوبهم دویهٔ [۳۲] وصفاحهم

نقیهٔ [۳۳] یمشون الخفاء. ویدبون الضراء. وصفهم دواء. وقولهم شفاء وفعلهم

الداء العیاء [۳۴] ، حسدهٔ الرخاء [۳۵] وموکدو البلاء [۳۶] ، ومقنطوا الرجاء [۳۷] لهم

بکل طریق صریع. وإلی کل قلب شفیع [۳۸] ولکل شجو دموع [۳۹] یتقارضون

الثناء [۴۰] ویتراقبون الجزاء [۴۱] إن سألوا الحفوا [۴۲] وإن عذلوا

[صفحه ۶۶]

کشفوا [۴۳] ، وإن حکموا أسرفوا [۴۴] قد أعدوا لکل حق باطلا [۴۵] ، ولکل قائم

مائلا. ولکن حی قاتلا، ولکل باب مفتاحا [۴۶] ، ولکل لیل مصباحا [۴۷] .

یتوصلون إلی الطمع بالیأس لیقیموا به أسواقهم [۴۸] وینفقوا به أعلاقهم [۴۹] .

یقولون فیشبهون. ویصفون فیموهون. قد هونوا الطریق، وأضلعوا المضیق [۵۰] .

فهم لمهٔ الشیطان. وحمهٔ النیران [۵۱] ، (أولئک حزب الشیطان ألا أن حزب الشیطان هم الخاسرون) [۵۲] .

وبعد أن وصف أمیر المؤمنین مربع النفاق وصفا جامعا شاملا- سئل عن الإیمان فقال: الإیمان علی أربع دعائم: علی الصبر والیقین. والعدل والجهاد. والصبر منها علی أربع شعب: علی الشوق، والشفق، والزهد، والترقب، فمن اشتاق إلی الجنهٔ سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار اجتنب المحرمات، ومن زهد فی الدنیا استهان بالمصیبات. ومن ارتقب الموت سارع فی الخیرات. والیقین منها علی أربع شعب: علی تبصرهٔ الفطنهٔ، وتأول الحکمهٔ، وموعظهٔ العبرهٔ، وسنهٔ الأولین، فمن تبصر فی الفطنهٔ، تبینت له الحکمهٔ، ومن تبینت له الحکمهٔ، عرف العبرهٔ، ومن عرف العبرهٔ فکأنما کان فی الأولین. والعدل منها علی أربع شعب: علی غائض الفهم. وغور العلم. وزهرهٔ الحکم، ورساخهٔ الحلم، فمن فهم علم غور العلم. ومن علم غور العلم صدر.

[صفحه ۶۷]

عن شرائح الحلم. ومن حلم لم یفرط فی أمره. وعاش فی الناس حمیدا، والجهاد منها علی أربع شعب: علی الأمر بالمعروف والنهی عن المنکر، والصدق فی المواطن، وشنآن الفاسقین، فمن أمر بالمعروف شد ظهور المؤمنین، ومن نهی عن المنکر أرغم أنوف المنافقین، ومن صدق فی المواطن قضی ما علیه. ومن شنأ الفاسقین وغضب لله غضب الله له وأرضاه یوم القیامهٔ. والکفر علی أربع دعائم: علی التعمق، والتنازع، والزیغ، والشقاق، فمن تعمق لم ینب إلی الحق، ومن کثر نزاعه بالجهل دام عماه عن الحق.. ومن زاغ ساءت عنده الحسنهٔ، وحسنت عنده السیئهٔ. وسکر سکر الضلالهٔ، ومن شاق وعرت علیه طرقه. وأعضل علیه أمره. وضاق علیه مخرجه. والشک علی أربع شعب: علی التمادی، والهول، والتردد والاستسلام، فمن جعل المراء دیدنا لم یصبح لیلهٔ، ومن هاله ما بین یدیه نکص علی عقبیه. ومن تردد فی الریب. وطئته سنابک الشیطان. ومن استسلم لهلکهٔ الدنیا والآخرهٔ هلک فیهما [" ۵۳] .

وبعد أن تحدث الإمام عن النفاق والإیمان. تحدث عن الإسلام فقال ": لأنسبن الإسلام نسبهٔ لم ینسبها أحد قبلی. الإسلام هو التسلیم، والتسلیم هو الیقین. والیقین هو التصدیق، والتصدیق هو الاقرار، والإقرار هو الأداء والأداء هو العمل [" ۵۴] ، وقال إمام المتقین ": غدا ترون أیامی ویکشف لکم عن سرائری. وتعرفوننی بعد خلو مکانی وقیام غیری مقامی [" ۵۵] ، وقال الإمام: إن أمرنا صعب مستصعب لا یحمله إلا عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإیمان ولا یعی حدیثنا إلا صدور أمینهٔ، وأحلام رزینهٔ، أیها الناس: سلونی قبل أن تفقدونی!

[۵۶] ، الله أکبر

[صفحه ۶۸]

یا أمیر المؤمنین!! إنه قول باب مدینهٔ العلم الذی یجلس علی ذروتها أحمد صلی الله علیه وسلم:. أیها الناس: سلونی قبل أن تفقدونی. فلأنا بطرق السماء أعلم منی بطرق الأرض، قبل أن تشغر برجلها فتنهٔ تطأ فی خطامها. وتذهب بأحلام قومها [" ۵۷] .

یقول ابن أبی الحدید: أجمع الناس کلهم علی أنه لم یقل أحد من الصحابهٔ، ولا أحد من العلماء " سلونی " غیر علی بن أبی طالب کرم الله وجهه ذکر ذلک ابن عبد البر المحدث فی کتاب " الإستیعاب " والمراد بقوله ": فلأنا أعلم بطرق السماء منی بطرق الأرض ، "ما اختص به من العلم بمستقبل الأمور. ولا سیما فی الملاحم والدول. وقد صدق هذا القول عنه ما تواتر عنه من الأخبار بالغیوب المتکررهٔ. لا- مرهٔ ولا- مائهٔ مرهٔ. حتی زال الشک والریب فی أنه إخبار عن علم. وأنه لیس عن طریق الاتفاق. وقد تأول قوم علی وجه آخر قالوا: أراد أنا بالأحکام الشرعیهٔ والفتاوی الفقهیهٔ أعلم منی بالأمور الدنیویهٔ، فعبر عن تلک بطرق السماء، لأنها أحکام إلهیهٔ، وعبر عن هذه بطرق الأرض لأنها من الأمور الأرضیهٔ [۵۸] .

وقال ابن أبی الحدید فیقول الإمام ": إن أمرنا هذا صعب مستصعب، ولا یحمله إلا عبد مؤمن امتحن الله قلبه بالإیمان، " قال: هذه الکلمهٔ قد قالها کرم الله وجهه مرارا. ووقفت فی بعض الکتب علی خطب من جملتها: إن قریشا طلبت السعادهٔ فشقیت، وطلب النجاهٔ فهلکت. وطلبت الهدی فضلت، ألم یسمعوا ویحهم قوله تعالی ": والذین آمنوا واتبعتهم ذریتهم بإیمان ألحقنا بهم ذریتهم) [۵۹] ، فأین المعدل المنزع عن ذریهٔ الرسول، الذین شید الله بنیانهم فوق بنیانهم. وأعلی رؤوسهم فوق رؤوسهم، واختارهم علیهم، ألا إن الذریهٔ أفنان

[صفحه ۶۹]

أنا شجرتها. ودوحهٔ أنا ساقها. وإنی من أحمد بمنزلهٔ الضوء من الضوء... إن أمرنا صعب مستصعب. لا یعرف کنهه إلا ثلاثهٔ: ملک مقرب. أو نبی مرسل. أو عبد امتحن الله قلبه للإیمان. فإذا انکشف لکم سر. أو وضح لکم أمر فاقبلوه. وإلا فاسکتوا تسلموا وردوا علمنا إلی الله. فإنکم فی أوسع مما بین السماء والأرض [" ۶۰] .

ودائرهٔ الملک المقرب أو النبی المرسل. هی دائرهٔ الوحی حیث یوجد النبی صلی الله علیه وسلم ودائرهٔ العبد الذی امتحن الله قلبه للإیمان هی دائرهٔ أهل البیت. والدائرهٔ الأولی تعطی الثانیهٔ، حیث طهر علی طهر ویقول ابن أبی الحدید: إعلم أن أمیر المؤمنین کرم الله وجهه لو فخر بنفسه. وبالغ فی تعدید مناقبه وفضائله بفصاحته التی آتاه الله تعالی إیاها. واختصه بها، وساعده علی ذلک فصحاء العرب کافهٔ لم یبلغوا إلی معشار ما نطق به الرسول الصادق صلوات الله علیه فی أمره. ولست أعنی بذلک الأخبار العامهٔ الشائعهٔ التی یحتج بها الإمامیهٔ علی إمامته کخبر الغدیر والمنزلهٔ وقصهٔ براءهٔ، وخبر المناجاهٔ وقصهٔ خیبر وخبر الدار بمکهٔ فی ابتداء الدعوهٔ ونحو ذلک. بل الأخبار الخاصهٔ التی رواها فیه أئمهٔ الحدیث التی لم یحصل أقل القلیل منها لغیره [" ۶۱] .

ومما سبق علمنا أن أهل الشام رفضوا کل نصیحهٔ وشککوا فی کل حقیقهٔ، واستغلوا کل حادثهٔ وکل حرکهٔ فشقوا طورا فیها. علی أمل أن یصلوا إلی غایتهم حیث کرسی الحکم. وعلمنا کیف واجه الإمام هذا الإعلام وهذه المخططات. وکیف أمر بالعلم وتدوینه نظرا لما سیترتب فیما بعد علی هذه الأحداث. وما ترک الإمام دربا من الدروب إلا وأقام علیه الحجهٔ وحدد الحرکهٔ فیه تحدیدا دقیقا. ومما سبق یمکن بوضوح معرفهٔ أی دائرهٔ من الدوائر هی التی تقاتل لتکون کلمهٔ الله هی العلیا. وأبن یوجد لواء الضلالهٔ والأمراء الذین سیتمنون یوم القیامهٔ أن ذوائبهم کانت معلقهٔ بالثریا. یتذبذبون بین السماء والأرض ولم یکونوا عملوا.

[صفحه ۷۰]

علی شئ أو أنهم لم یولوا شیئا. کما ورد فی أحادیث النبی صلی الله علیه وسلم وهو یخبر بالغیب عن ربه جل وعلا.

[۱] الاستبداد بالشئ:التفرد به.

[۲] النوط:الالتصاق.

[۳] أی استئثار بالأمر واستبدادا به.

[۴] شحت:نحلت.

[۵] سخت:جادت.

[۶] یشیر إلی ما کان عنده من الکآبة لتقدم من سلف علیه، ثم جاء معاویة نظیرا له.

[۷] الأود:العوج.

[۸] ابن بی الحدید ۳۰۳:۳.

[۹] أی أطلب أن تساعدنی علیهم.

[۱۰] لم یرعوا قربه من النبی.

[۱۱] أی لم یقفوا مع النصوص الواردة فیه.

[۱۲] ابن أبی الحدید ۳۵۰:۳.

[۱۳] ابن أبی الحدید ۳۵۱:۳.

[۱۴] ابن أبی الحدید ۶۲۰:۵.

[۱۵] ابن أبی الحدید ۵۷۹:۵.

[۱۶] ابن أبی الحدید ۳۷۴:۵.

[۱۷] ابن أبی الحدید ۶۱۴:۵.

[۱۸] المصدر السابق ۶۳۱:۵.

[۱۹] المصدر السابق ۴۹۰:۵.

[۲۰] المصدر السابق ۵۱۷:۵.

[۲۱] المصدر السابق ۳۷۲:۵.

[۲۲] المصدر السابق ۵۷۲:۵.

[۲۳] رواه وکیع (کنز العمال ۱۸۳:۱۶).

[۲۴] رواه وکیع فی الغرر (کنز العمال ۱۸۳:۱۶.

[۲۵] المصدر السابق.

[۲۶] المصدر السابق.

[۲۷] ابن أبی الحدید ۶۱۴:۵.

[۲۸] ابن أبی الحدید ۳۲۴:۵ والحدیث روی شطره الأخیر مسلم والترمذی وغیرهم.

[۲۹] أی یتشعبون فنونا أی ضروبا.

[۳۰] یعمدونکم:یهدونکم ویفدحونکم. عماد:بأمر فادح.

[۳۱] أی یعدون المکاید لکم.

[۳۲] قلب دو:أی فاسد.

[۳۳] جمع صفحة الوجه.

[۳۴] أی أقوالهم أقوال الزاهدین وأفعالهم أفعال الفاسقین الفاجرین.

[۳۵] أی یحسدون کل النعم.

[۳۶] أی إذا وقع واحد من الناس فی البلاء أکدوه علیه بالسعایات وإغراء السلطان علیه.

[۳۷] أی یبدلون بشرورهم رجاء الراجی قنوطا.

[۳۸] أی یستحوذوا علی قلوب الناس بالریاء والتصنع.

[۳۹] أی یبکون عند أهل کل حزن ومصاب.

[۴۰] أی یثنی زید علی عمرو، لیثنی عمرو علیه فی ذلک المجلس.

[۴۱] أی یرتقب کل واحد منهم علی ثنائه ومدحه لصاحبه جزاء منه إما بالمال أو بأمر آخر.

[۴۲] الالحاف فی السؤال: الاستقصاء فیه. وهو مذموم.

[۴۳] أی إذا عزلک أحدهم کشف عیوبک فی ذلک اللوم والعذل. وربما کشفها لک بمختصر ممن لا تحب ذکرها بحضرته.

[۴۴] إذا سأل أحدهم ففوضته فی مالک أسرف ولم یقنع بشئ.

[۴۵] یقیمون الباطل فی معارضة الحق.

[۴۶] أی ألسنتهم ذلقة قادرة علی فتح المغلقات.

[۴۷] أی کل أمر مظلم فقد أعدوا له کلاما ینیره ویضیئه.

[۴۸] أی لتنفق سلعتهم.

[۴۹] الإعلاق:السلعة الثمینة.

[۵۰] أضلعوا الطریق:أی أمالوه.

[۵۱] ابن أبی الحدید ۴۸۲:۳.

[۵۲] سورة المجادلة: الآیة ۱۹.

[۵۳] ابن أبی الحدید ۳۰۲:۵، ووکیع وابن عساکر وابن أبی الدنیا (کنز العمال ۱۸۳:۱۶، ۲۰۶:۹۶).

[۵۴] ابن أبی الحدید ۴۱۳:۵.

[۵۵] المصدر السابق ۲۱۲:۳۰.

[۵۶] ابن أبی الحدید ۱۳۵:۴، وروی ابن سعد " سلونی عن کتاب الله، "... الطبقات. ۳۳۸:۲.

[۵۷] ابن أبی الحدید ۱۳۵:۴.

[۵۸] ابن أبی الحدید ۱۳۸:۴.

[۵۹] سورة الطور: الآیة ۲۱.

[۶۰] ابن أبی الحدید ۱۳۸:۴.

[۶۱] ابن أبی الحدید ۲۴۹:۳.

الاصطفاف للقتال

علی أرض صفین رفعت رایتان لا ثالث لهما. رایة النبی صلی الله علیه وسلم

بمودة أهلها وأعلن أن حربهم حربه وسلمهم سلمة.. وبین أنهم یؤدون عنه وأنهم یدورون مع الکتاب ولن یفترقا حتی یردا علی الحوض. وأخبر أن الأمة ممتحنة بأصحاب هذه الرایة ولذلک أوصی بهم فی کل موضع من المواضع وقال ": أوصیکم الله فی أهل بیتی. " ورایة حذر النبی صلی الله علیه وسلم من فتح الطریق لها. وحدد أسماء وبین معالم للفتن. کیف یقف الصحابة عند الأبواب

ویمنعوا الناس من الدخول فیها. لأن الدخول یعنی فتح طریق آخر علی امتداده ترفع رایات أکثر من سبعین فرقة ویری علی امتداده الأئمة المضلون وأمراء الجور الذین یقتتلون علی الملک ویحرصون علی الإمارة. وفی نهایة المطاف عندما تنهدم الدنیا یتمنوا أن یخروا من الثریا ولم یلوا من أمر الناس شیئا. وأخبر النبی أن التکالب علی الدنیا یعنی عدم الورود علی الحوض لأن الکتاب لا یأمر الناس بالحرص علی الإمارة واکتناز الذهب والفضة. لقد قال النبی صلی الله علیه وسلم ": ویل لبنی أمیة " ثلاث مرات [۱] ، ولقد وردت أحادیث صحیحة أن النبی صلی الله علیه وسلم ذکر أسماء قادة الفتن وحذر منهم. وکان حذیفة یقول: أنسی أصحابی أم تناسوا. والله ما ترک رسول الله صلی الله علیه وسلم من قائد فتنة إلی أن تنقضی الدنیا... ألا وقد سماه لنا باسمه واسم أبیه واسم قبیلته" [۲] ، وروی عن الإمام علی وعمار

[صفحه ۷۱]

بمثل ذلک. وإذا کان النبی قد أخبر بأسماء رؤوس الفتن. فإنه أخبر أیضا بأسماء. أعلام الهدی. ولقد ذکرنا ما ورد فی أهل البیت. وأخبر عنهم أیضا آخر الزمان ولکن یبدو أن الصحابة نسوا هذه الأسماء کما ذکر حذیفة. وهذا الإخبار جاء فی صحیح مسلم فی مواضع. منها عندما تحدث عن القیادة الإسلامیة التی ستفتح المدینة العظمی قبل خروج الدجال. یقول النبی صلی الله علیه وسلم عن هذا الفتح... " ویقبلون فیبعثون عشر فوارس إنی لأعرف أسماءهم وأسماء آبائهم وألوان خیولهم هم خیر فوارس علی وجه الأرض" [۳] ، فهنا توجد أسماء وعند مسلم أیضا " لا یزال هذا الدین عزیزا منیعا إلی اثنی عشر خلیفة " ولکن الراوی لم یسمع کلمة قالها النبی بعد ذلک: فقال ": فقال کلمة أصمنیها الناس فقلت لأبی: ما قال؟ قال: کلهم من قریش [" ۴] .

هذه أحادیث ذکرت فیها أسماء. ولا یمکن لعاقل أن یقول إن النبی احتفظ بهذه الأسماء لنفسه ولم یبلغها لأمته. لأن النبی صلی الله علیه وسلم بعثه الله لیقیم حجة. ولیس معنی أن فی الصحابة من نسی أن جمیعهم تناسوا. فبنوا أمیة رایة رویت فیهم أحادیث تحذر الناس من طریقهم. فعند الباب أخبر النبی صلی الله علیه وسلم أن أشد قومه بغضا له قبائل منهم بنو أمیة [۵] ، وأخبر أن بنی أمیة إذا تقلدوا المناصب وبلغوا أربعین – وفی روایة – ثلاثین رجلا. فإنهم سیتخذون مال الله دولا أی یکون لقوم دون قوم. ودین الله دخلا أی یدخلوا فیه أمورا لم ترد فی کتاب أو سنة. وعباد الله خولا أی عبیدا یستخدمونهم ویستعبدونهم [" ۶] .

[صفحه ۷۲]

وأکثر الأحادیث التی ذکر فیها أسماء بعض الناس أو القبائل کی تحذرهم الأمة. استغلها کعب الأحبار. وکان من المتخصصین فی القص مستغلا أحادیث آخر الزمان والجنة والنار. فکعب علی مساحة اللا روایة. جاء بأحادیث من دائرة التخدیر ووضع علیها رداء التبشیر، ولقد استفاد من هذا خط بنی أمیة من بدایته إلی نهایته. ومن الثابت بل ومن المشهور أن کعبا کان من المنحرفین عن علی بن أبی طالب [۷] ، وکان أبو ذر یهاجمه فی وجود عثمان إذا رآه یتدخل فی توزیع الخراج. وبلغت المأساة ذروتها. عندما ألقی کعب فی نفس معاویة بأحادیثه المختلفة وقصصه الإسرائیلیة. وأخبره بأنه الخلیفة بعد عثمان. وبعد هذا البیان لا یستغرب أن نسمع أمیر المؤمنین علی یقول لأصحابه یوم صفین: انفروا إلی بقیة الأحزاب، امضوا بنا إلی ما قاله الله ورسوله. إنا نقول صدق الله ورسوله. ویقولون: کذب الله ورسوله [" ۸] ، ولیس معنی أنهم یقولون هذا. أنهم یسیرون بین الناس ویرددونها. وإنما المعنی: أن لهم تأویلا خاصا فی مال الله. ودین الله وعباد الله. ولهم موقفهم الخاص من رسول الله والذی یعلمه الله. وبینه رسوله عندما وضعهم ضمن الذین یبغضونه. ولا یستغرب أیضا أن نسمع الإمام یقول بعد أن رفع معسکر معاویة المصاحف لیعبر عن أهدافه من تحتها " إن معاویة وابن العاص وابن أبی معیط وحبیب بن سلمة وابن أبی السرح والضحاک، لیسوا بأصحاب دین ولا قرآن، أنا أعرف بهم منکم [" ۹] ، وقوله أیضا فی معاویة وأبیه " طلیق بن طلیق، حزب من الأحزاب. لم یزل حربا لله ورسوله هو وأبوه. حتی دخلا فی الإسلام کارهین [" ۱۰] ، وقوله ": والذی فلق الحبة وبرأ النسمة ما أسلموا. ولکن استسلموا، وأسروا الکفر. فلما وجدوا علیه أعوانا. رجعوا إلی عداوتهم لنا. إلا أنهم لم یترکوا

[صفحه ۷۳]

الصلاة [" ۱۱] ، ولا یستغرب أن نری عمار بن یاسر الذی ورد فیه أنه یدعو إلی الجنة وخصومه یدعون إلی النار - إلی غیر ذلک من الأحادیث التی ذکرناها - یقول یوم صفین وهو یشیر إلی رایة معاویة: قاتلت صاحب هذه الرایة ثلاثا مع رسول الله صلی الله علیه وسلم. وهذه الرابعة [" ۱۲] ، وروی أن رجلا سأل عمارا: یا أبا الیقظان، ألم یقل رسول الله صلی الله علیه وسلم: قاتلوا الناس حتی یسلموا. فإذا أسلموا عصموا منی دماءهم وأموالهم؟ قال: بلی، ولکن والله ما أسلموا ولکن استسلموا وأسروا الکفر حتی وجدوا علیه أعوانا [" ۱۳] ، ولا یستغرب أن نسمع ابن مسعود وهو یحدث بحدیث فیه اسم من الأسماء التی حذر النبی صلی الله علیه وسلم منها، قال عبد الله: قال رسول الله صلی الله علیه وسلم: إذا رأیتم معاویة بن أبی سفیان یخطب علی منبری فاضربوا عنقه، " وکان الحسن یقول: فوالله ما فعلوا ولا أفلحوا [" ۱۴] ، ولیس معنی قتله لأنه دخل المسجد، وإنما لأنه یخطب. لأن الخطبة لا بد أن تحمل فکره وثقافته فی معنی مال الله ودین الله وعباد الله، وخطورة هذه الثقافة تبلغ مداها إذا کان معاویة ورجاله هم حراس الأمة، لهذا وجدنا الحسن بن علی بعد وفاة أمیر المؤمنین. یقیم الحجة علی الناس فی کل میدان. فلقد تجهز لقتال معاویة ولکنه خذل، ثم حث الناس علی الصمود ولکنهم قالوا: البقیة البقیة!! وطلبوا الصلح. ثم اشترط الحسن شروطا. ولکن معاویة لم یف بها لسبب بسیط هو أن الأمة کانت تغط فی نوم عمیق. والحجة لا یأتی إلی الناس وإنما الناس هم الذین یأتون إلیه لأن قانون الاختیار یدور علی قوله تعالی: (ثم جعلناکم خلائف فی الأرض من بعدهم لننظر کیف تعملون [" ۱۵] .

[صفحه ۷۴]

فالرایات یوم صفین، کان فیها من الله برهان. فالذی یقاتل لتکون کلمة الله هی العلیا معروف. وقتال بنی أمیة من أجل الملک مشهور. وهذا القتال له بذور غرست فی الفتن. وروی أنه قد قیل لسفینة: إن بنی أمیة یزعمون أن الخلافة فیهم. فقال: کذبوا بنو الزرقاء [۱۶] ، بل هم ملوک من شر الملوک [" ۱۷] ، وبنو أمیة ما زعموا هذا إلا علی أساس. فلقد سمعوا الأحادیث التی تخبر بأنهم سیصلون إلی الملک [۱۸] ولأن هذه الأحادیث أحادیث تحذیریة. رفعوها من دائرة التحذیر

إلی دائرة التبشیر. وقاتلوا علی ذلک. ساروا وسط الأمة یتعوذون من الفتنة وهم فی الفتنة سقطوا لأنهم الذین حفروا حفرتها. وسنری فیما بعد ماذا صنعوا کی بخبرهم أمیر المؤمنین بخبرهم فی المستقبل. وسنری أن حرکتهم خلال أحداث صفین ما ترکت بابا یساعد علی تأصیل هذا الشذوذ إلا فتحوه لیخلطوا الأمور علی الناس فیما بعد. فالذی یبحث فی الخلافة یجدهم. والذی یبحث فی الملک یجدهم، وحسبنا الله ونعم الوکیل. وإذا کنا قد تحدثنا عن الرایات علی أرض الاصطفاف. فلنتحدث عن بعض الرجال الذین تحت هذه الرایات. أما معسکر أمیر المؤمنین. روی أنه کان فی جیش علی ثمانون بدریا ومائة وخمسون ممن بایع تحت الشجرة [۱۹] ، وکان جمیع من شهد معه من الصحابة ألفین وثمانمائة [۲۰] علی رأس هؤلاء: عمار بن یاسر. الذی بشره النبی صلی الله علیه وسلم بأن الفئة الباغیة تقتله وقال فیه رسول الله صلی الله علیه وسلم ": من عادی عمارا عاداه الله ومن أبغض

[صفحه ۷۵]

عمارا أبغضه الله [" ۲۱] ، وقال ": ویح عمار تقتله الفئة الباغیة، یدعوهم إلی الجنة، ویدعونه إلی النار [" ۲۲] ، وتحت رایة علی نجد أیضا أویس بن عامر القرنی. الذی لم یر النبی صلی الله علیه وسلم. وأخبر النبی أن أویسا خیر التابعین - وظهر أویس فی عهد عمر بن الخطاب واستغفر لعمر. وعندما طلب عمر أن یکون أویس بجانبه. فضل أویس أن یذهب إلی الکوفة. وعندما ود عمر أن یکتب للأمراء بشأنه. قال أویس إنه یفضل أن یعیش فی غبراء من الناس. وعاش أویس زاهدا حتی جاء عهد علی فخرج مقاتلا یضرب بالسیف ویصیح: یا خیل الله ارکبی! وهناک الکثیر تحت رایة الأمیر کرم الله وجهه. أما رایة بنی أمیة، فتحتها التجار بجمیع عناوینهم، روی أن معاویة بعث رجلا إلی أمیر المؤمنین وقال له: أبلغ علیا أنی أقاتله بمائة ألف. ما فیهم من یفرق بین الناقة والجمل. وقد بلغ من أمرهم فی طاعته لهم. أنه صلی بهم عند سیرهم إلی صفین الجمعة یوم الأربعاء، وأعاروه رؤوسهم عند القتال وحملوه بها [۲۳] إنهم

العامة والغوغاء، الذين يمهدون الطريق لكل فتنة. أما قادة الألوية

الـذين قاتلوا بجلـد وقوة. فعلى رأسـهم: أبو الأعور السـلمى، وورد أن رسول الله صـلى الله عليه وسـلم لعنه. وبسـر بن أرطاة الـذى فعل الأفاعيل فى مكـة والمدينـة واليمن. وأخباره مشـهورة، ومنهم أيضا عبيـد الله بن عمر بن الخطاب، وعبـد الرحمن بن خالـد بن الوليـد. وحبيب بن مسـلمة الفهرى، وعندما قطعوا الماء كان على الميسرة عبد الله بن عمرو بن العاص. وحابس بن سعيد. والضحاك بن قيس. وغير هؤلاء كثير [۲۴] وروى عن ابن إسحاق أنه قال:

اجتمع عند معاوية فى ليلة من ليالى صفين عمرو بن العاص. وعتبة بن أبى سفيان. والوليد بن عقبة ومروان بن الحكم وعبد الله بن عامر وابن طلحة الطلحات الخزاعى، فقال عتبة: إن أمرنا وأمر على بن أبى طالب لعجيب. ما

[صفحه ۷۶]

فينا إلا موتور محتاج. أما أنا فقتل جـدى عتبـة بن ربيعـة. وأخى حنظلـة، وشـرك فى دم عمى شـيبة يوم بـدر، وأما أنت يا وليـد، فقتل أبـاك صبرا، وأمـا أنت يا ابن عامر. فصـرع أباك وسـلب عمك، وأما أنت يا ابن طلحـة، فقتل أباك يوم الجمل وأيتم إخوتك، وأما أنت يا مروان فكما قال الشاعر:

وأفلتهن عليا جريصا++

ولو أدركنه صـفر الوطاب [۲۵] فقال معاويـة: هـذا الاقرار فأين الغير؟ قال مروان: وأى غير تريـد؟ قال: أريد أن تشـجروه بالرماح، قال: والله يا معاوية ما أراك إلا هاذيا أو هازئا. وما أرانا إلا ثقلنا عليك، فقال ابن عقبة:

يقول لنا معاوية بن حرب++

أما فيكم لواتركم طلوب

يشد على أبى حسن على++

بأسمر لا تهجنه الكعوب

إلى أن قال:

فقلت له: ألكعب يا بن هند++

كأنك بيننا رجل غريب

أتغرينا بحية بطن واد++

إذا نهشت فليس لها طبيب [۲۶] .

فهم يخافون لأنهم لا يسـتندون إلى حقيقة. وإنما إلى فتنة شـقوا فيها طريقهم. ولأنهم خائفون كان لا بد لهم من جدر تحميهم وتحمى تـاريخهم. ومن أجـل إقامـة هـذه الجـدر بعثروا المال على العقول والنفوس. وما تركوا خدعـة إلا فعلوها ولا مصـحفا إلا رفعوه. وهـذا الأسـلوب لاـ يقـدم عليه أمير المؤمنين. أولا: لأنه حجـة ويعلم أنه مقتول. وثانيا: لأن الغادر يرفع له لواء يوم القيامـة. ويظهر غـدره على رؤوس الأشهاد.

[۱] رواه ابن منده وأبو نعيم عن حمران بن جابر ورواه ابن قانع عن سالم الحضرمى (كنز العمال ۱۱:۱۶۵).

[۲] رواه أبو داود، وسبق تخريجه.

[۳] رواه مسلم كتاب الفتن (الصحيح ۸:۱۷۸).

[۴] رواه مسلم كتاب الإمارة (۶:۴).

[۵] رواه البيهقى عن عمران وقال ابن كثير رجاله ثقات (البداية ۶:۲۶۸) ورواه نعيم ابن حماد عن أبى سعيد (كنز العمال ۱۱:۱۶۹).

[۶] الحديث رواه الإمام أحمد والطبرانى والبزار والحاكم وأبو يعلى والبيهقى عن أبى سـعيد وأبى ذر وابن عباس وفى الحديث تحذير

من بنی أمیه أو بنی الحکم، ولقد تحدثنا عنه فیما سبق.

[۷] قال ابن أبی الحدیـد: روی جماعـه من أهل السیر أن علیا کان یقول عن کعب الأحبار: إنه لکذاب. وقال: وکان کعب منحرفا عن علی (ابن أبی الحدید ۱:۷۹۲).

[۸] رواه البزار بإسناده (الزوائد ۷:۲۳۹).

[۹] الطبری ۶:۲۷، الکامل ۳:۱۶۱، مروج الذهب ۲:۴۳۳، البدایه والنهایه ۷:۲۹۸.

[۱۰] الکامل ۳:۱۴۸.

[۱۱] ابن أبی الحدید ۱:۷۶۰.

[۱۲] رواه الطبرانی وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۷:۲۴۳) وابن سعد (الطبقات ۳:۲۵۷) والطبری ۶:۲۱.

[۱۳] ابن أبی الحدید ۱:۷۶۰.

[۱۴] المصدر السابق ۱:۷۶۰.

[۱۵] سوره یونس: الآیه ۱۴.

[۱۶] الزرقاء امرأه من أمهات بنی أمیه، رواه ابن حبان (تحفه الأحوذی ۶:۴۷۹).

[۱۷] رواه الترمذی وصححه وقال رواه غیر واحد (الجامع ۴:۵۰۳) وأبو داوود حدیث ۴۶۴۶.

[۱۸] الحـدیث تحدث به أبو ذر فی وجود عثمان وکعب الأحبار، ومعاویه کانت یقرب مروان منه لمعرفته أن فی صـلبه ملوکا. والإمام علی أخبر مروان بالأحادیث التحذیریه بعد الجمل.

[۱۹] الحاکم (المستدرک ۳:۱۰۴) البدایه ۷:۲۵۵.

[۲۰] مروج الذهب ۲:۳۶۱.

[۲۱] رواه أحمد والطبرانی ورجاله رجال الصحیح (الفتح ۲۲:۳۲۹) (الزوائد ۹:۲۹۳).

[۲۲] رواه أحمد (الفتح ۲۳:۱۴۲) والبخاری (کنز العمال ۱۱:۷۲۲).

[۲۳] مروج الذهب ۳:۴۱.

[۲۴] ابن أبی الحدید ۱:۶۴۹. والطبری أحداث سنه ۳۶.

[۲۵] لامرئ القیس، علیاء:قاتل والد امرئ القیس، الجریص:الذی یؤخذ بریقه، صفر الوطاب:کنایه عن القتل.

[۲۶] ابن أبی الحدید ۲:۴۷۸.

القتال

قبل أن یتوجه معاویه إلی صفین، کان قد صالح ملک الروم علی مال

[صفحه ۷۷]

یحمله إلیه لشغله بعلی [۱] والذی أشار علیه بالتقریب إلی الروم لتفرغ لعلی هو

عمرو بن العاص [۲] ، وعندما توجه إلی صـفین حاول السـیطره علی مصادر المیاه، ولکن خطته باءت بالفشل أمام قوات أمیر المؤمنین علیه السـلام. وعندما اصـطف الفریقان قبل القتال یقول ابن عباس: عقم النساء أن یأتین بمثل أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب، والله ما رأیت ولا سـمعت رئیسا یوزن به. رأیت فی هـذا الیوم علیا وعلیه عمامهٔ بیضاء وکأن عینیه سـراجا سـلیطا [۳] ، وهـو یقف علی طوائف الناس فی مراتبهم یحثهم ویحرضهم، حتی انتهی إلی وأنا فی کثیف [۴] من الناس. فقال: یا معشر المسلمین، عموا الأصوات، وأکملوا اللامهٔ [۵] ، واستشعروا الخشیهٔ، وافلقوا السیوف فی الأجفان قبل السل، والحظوا الشزر [۶] ، واطعنوا الهبر [۷] ، ونافحوا [۸] بالظبأ [۹] ،

وصلوا السیوف بالخطا [۱۰] ، والنبال بالرماح، وطیبوا عن أنفسکم، فإنکم بعین الله، ومع ابن عمر رسول الله، عاودوا الکر، واستقبحوا الفر، فإنه عار فی الأعقاب، ونار یوم الحساب، ودونکم هذا السواد الأعظم، والرواق [۱۱] المطنب [۱۲] ، فاضربوا نهجه، فإن الشیطان راکب صعیده، مفترض ذراعیه، قد قدم للوثبة یدا وأخر

[صفحه ۷۸]

للنکوص [۱۳] رجلا فصبر جمیل حتی تنجلی عن وجه الحق، وأنتم الأعلون والله معکم ولن یترکم أعمالکم، وتقدم أمیر المؤمنین علی بغلة رسول الله صلی الله علیه وسلم الشهباء [" ۱۴] .

ومن آراء أمیر المؤمنین قبل القتال روی أنه قال: لا تقتلوا القوم حتی یبدؤکم. فأنتم بحمد الله عز وجل علی حجة، وترککم إیاهم حتی یبدؤکم حجة أخری لکم. فإذا قاتلتموهم فهزمتموهم، فلا تقتلوا مدبرا، ولا تجهزوا علی جریح، ولا تکشفوا عورة، ولا تمثلوا بقتیل. فإذا وصلتم إلی رحال القوم، فلا تهتکوا سترا، ولا تدخلوا دارا إلا بإذن، ولا تأخذوا من أموالهم إلی ما وجدتم فی عسکرهم، ولا تهجوا امرأة بأذی - وإن شتمن أعراضکم وسبین أمراءکم وصلحاءکم فإنهم ضعاف القوی والأنفس [۱۵] .

وبعد هذه التعلیمات الرفیعة المستوی، نادی أمیر المؤمنین: یا کهیعص [۱۶] اللهم إلیک رفعت الأبصار وبسطت الأیدی، ونقلت الأقدام، ودعت الألسن، وأفضت القلوب، وتحوکم إلیک فی الأعمال، فاحکم بیننا وبینهم بالحق، وأنت خیر الفاتحین. اللهم إنا نشکو إلیک غیبة نبینا، وقلة عددنا، وکثرة عدونا، وتشتت أهوائنا، وشدة الزمان، وظهور الفتن، فأعنا علی ذلک بفتح منک تعجله، ونصر به سلطان الحق وتظهره [۱۷] .

وبعد أن فرغ أمیر المؤمنین، روی عن الحارث أنه قال: رأیت بعیرا من أهل الشاء جاء وعلیه راکبه وثقله [۱۸] فألقی ما علیه، وجعل یتخلل الصفوف إلی علی بن أبی طالب. فجعل شفره فیما بین رأس علی ومنکبه، وجعل یحرکها

[صفحه ۷۹]

بجرانه، فقال أمیر المؤمنین: والله إنها للعلامة بینی وبین رسول الله صلی الله علیه وسلم [۱۹] وروی کان درع علی بن أبی طالب لا ظهر لها. فقیل له فی

ذلک، فقال: إذا استمکن عدوی من ظهری فلا یبقی [۲۰] وروی إنه کان بعد

المعرکة وفی نهایة کل یوم کان یظهر فی إزار ورداء. فقیل له: أتقتل أهل الشام بالغداة وتظهر بالعشی فی إزار ورداء؟! فقال: أبا لموت تخوفونی؟! فوالله ما أبالی أسقطت علی الموت أم سقط علی [۲۱] .

ولم یکن هدف الإمام القتل، وإنما إقامة الحجة، وفتح طریق الهدایة أمام الذین وقعوا تحت تأثیر الإعلام الأموی، وکان هذا الإعلام قد بث فی الناس أن علیا لا یصلی وأنه قتل عثمان، وإذا وقع فی یده أسیر فإن علیا یقتله صبرا. ومن معالم إقامة الحجة أثناء المعرکة علی الذین سقطوا ضحیة للإعلام الأموی. روی أن علیا أتی بأسیر یوم صفین، فقال له الأسیر: لا تقتلنی صبرا، فقال الإمام: لا أقتلک صبرا إنی أخاف الله رب العاملین، وخلی سبیله، ثم قال له: أفیک خیر یتابع [۲۲] .

وروی أن شابا من معسکر معاویة أنشد:

أنا ابن أرباب الملوک غسان++

والدائن الیوم بدین عثمان

نبأنا قراؤنا بما کان++

أن علیا قتل ابن عفان

وظل الشاب یشتم ویلعن، فلقیه هاشم بن عتبة وکان من أصحاب علی فقال له: یا هذا إن الموقف وما أردت به. قال: فإنی أقاتلکم لأن صاحبکم لا یصلی کما ذکر لی، وأنتم لا تصلون أیضا. وأقاتلکم لأن صاحبکم قتل خلیفتنا وأنتم ساعدتموه علی قتله، فقال له هاشم:

وما أنت وابن عفان، إنما قتله أصحاب محمد وأبناء الصحابهٔ وقراء الناس، حین أحدث الأحداث وخالف حکم

[صفحه ۸۰]

الکتاب!! وهم أهل الـدین وأولی بالنظر فی أمور الناس منک ومن أصـحابک... وأما قولک إن صاحبنا لا یصـلی، فهو أول من صـلی، وأفقه خلق الله فی دین الله، وأولی بـالرسول، وأمـا کـل من ترى معی فکلهم قـارئ لکتـاب الله، لاـ ینـام اللیل تهجـدا، فلا یغوینک عن دینک هؤلاء الأشـقیاء المغرورون. فقال له الفتی: یا عبـد الله إنی أظنک امرأ صالحا فتخبرنی، هل تجد لی من توبهٔ؟ قال هاشم: نعم یا عبـد الله تب إلی الله یتب علیـک فـإنه یقبـل التوبـهٔ عن عبـاده ویعفو عن السـیئات ویحب المتطهرین. فرجع الفتی. فقـال له أهل الشام: خدعک العراقی، خدعک العراقی. قال: لا ولکن نصح لی [۲۳] .

وروی أن معاویهٔ بعث وفدا لیسـتلم القتلی، فقابل الإمام علی هذا الوفد وقال لهم: معاویهٔ الذی لم یجعل له سابقهٔ فی الدین، ولا سـلف صدق فی الإسـلام، طلیق ابن طلیق، حزب من الأحزاب، لم یزل حربا لله ورسوله هو وأبوه، حتی دخلا فی الإسـلام کارهین، ولا عجب إلا من انقیادکم له وترکون آل بیت نبیکم الذین لا ینبغی لکم شـقاقهم ولا خلافهم. ألا إنی أدعوکم إلی کتاب الله وسـنهٔ نبیه وإماتهٔ الباطل وإحیاء الحق ومعالم الـدین. فقالوا: تشـهد أن عثمان قتل مظلوما. قال: لا أقول أنه قتل مظلوما ولا ظالما. فقالوا: الذی لا یتبرأ من قتل عثمان نحن نتبرأ منه [۲۴] فتلی الإمام (فإنک لا تسمع الموتی ولا

تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرین. وما أنت بهاد العمی عن ضلالتهم أن تسمع إلا من یؤمن بآیاتنا فهم مسلمون) [۲۵] .

ولم یکتف الإعلام الأموی بهـذه النتیجـهٔ، وهـذا الحشد من الذین صـلوا الجمعهٔ یوم الأربعاء. وإنما جلسوا علی أرض صـفین یشـتمون الإمام، لیثبتوا الباطل داخل الجماجم الآدمیهٔ، لیشق الباطل طریقه فی عالم الاحتناک، روی أن الإمام مر علی جماعهٔ من أهل الشام فیها الولید بن عقبهٔ وهم یشتمونه فخبر

[صفحه ۸۱]

بذلک، فوقف فیمن یلیهم من أصـحابه. فقال: انهضوا إلیهم علیکم السـکینهٔ والوقار، وقار الإسـلام وسـیما الصالحین، فوالله لأقرب قوم من الجهل قائـدهم ومؤذنهم معاویـهٔ، وابن النابغهٔ، وأبو الأعور السـلمی، وابن أبی معیط شارب الخمر المجلود جلدا فی الإسـلام. وهم أولی من یقومون فینتقصوننی ویجذبوننی. وقبل الیوم ما قاتلونی وأنا إذ ذاک أدعوهم إلی الإسـلام، وهم یدعوننی إلی عبادهٔ الأصنام، الحمـد الله قـدیما عادانی الفاسـقون فعبـدهم الله، ألم یفتحوا؟ إن هـذا لهو الخطب الجلیل، إن فساقا کانوا غیر مرضـیین وعلی الإسـلام وأهله متخوفین. خـدعوا شـطر هـذه الأمـهٔ. وأشـربوا قلوبهم حب الفتنهٔ ما اسـتمالوا أهواءهم بالإفک والبهتان. قد نصـبوا لنا الحرب فی إطفاء نور الله عز وجل، اللهم فافضض خدمتهم، وشتت کلمتهم، وأبسلهم بخطایاهم، فإنه لا یذل من والیت، ولا یعز من عادیت [۲۶] .

لقد جلسوا علی الطرقات یشـتمون، فإذا أمیر المؤمنین یصدر أوامره لاتباعه: انهدوا إلیهم علیکم السـکینهٔ والوقار، وقار الإسـلام وسـیما الصالحین!! فأی فرق بین هذا وذاک!؟ لقد کان علیه السلام فی قتاله یقود الناس إلی صراط الله العزیز الحمید، رغم ضراوته فی القتال. کان یقیم الحجهٔ أولا ثم یضـرب بکل قوهٔ أصـحاب الرقاب الغلیظهٔ الذین یشـیدون الطرق نحو سنن الیهود والنصاری، حتی لا یقذفون بالأمـهٔ فی دروبها المظلمهٔ، وبقدر صـمود الناس من حوله تکون قوهٔ الضـربات. روی أنه کان فی صـفین لا یرجع حتی یخصب سـیفه، وأنه حمـل ذات یوم علی أعـدائه فلم یرجع حـتی انثنی سـیفه، فألقـاه إلیهم وقـال: لولاـ أنه انثنی مـا رجعت [۲۷] وذکر علمـاء التاریخ وغیرهم أنه بارز فی أیام

صفین، وقتل خلقا حتی ذکر بعضهم أنه قتل خمسمائهٔ [۲۸] وکانت أقوی ضرباته

بعد أن قتل عمار بن یاسر. وروی أنه فی یوم من أیام صفین، قال الناس: إن

[صفحه ۸۲]

معاویـهٔ قـد مات. فقال أمیر المؤمنین: قـد أکثرتم من نعی معاویـهٔ، والله ما مات، ولا یموت حتی یملک ما تحت قدمی. وإنما أراد ابن

آكلة الأكباد أن يعلم ذلك منى، فبعث من يشيع ذلك فيكم، ليعلم ويتيقن ما عندى فيه، وما يكون من أمره فى المستقبل من الزمان. ثم ذكر أمير المؤمنين ما يكون من أمر معاوية وذكر الحجاج وما يسومهم من العذاب. فارتفع الضجيج. فقال رجل: إن ذلك كائن؟ قال الإمام: والله إن ذلك لكائن. فقال آخر: متى يكون؟ قال: إذا خضبت هذه من هذه - ووضع إحدى يديه على لحيته والأخرى على رأسه - وأكثر الناس من البكاء فقال: لا تبلوا فى وقتكم هذا. فستبكون بعدى طويلا. وبعد أن حدثهم الإمام، كاتب أكثر أهل الكوفة إلى معاوية سرا فى أمورهم. واتخذوا عنده الأيادى [۲۹] .

هنا تكمن حقيقة الابتلاء، وهنا ترى حركة التاريخ، فالإمام يقاتل بضراوة وهو يعلم أنه مقتول وأن معاوية سيملك ما تحت قدمه، والرسول صلى الله عليه وسلم كان يجاهد ويحذر وهو يعلم أن غلمان قريش سينزون على منبره نزو القردة، وكان ينادى بوحدة الأمة وهو يعلم أنها ستفترق إلى أكثر من سبعين شعبة، وكان يحذر من اتباع اليهود والنصارى وهو يعلم أن مساحة كبيرة من الأمة ستتبعهم شبرا بشبر وذراعا بذراع، والإمام على من بايعه الناس وهو يخوض حروبا فتحوها عليه من كل جانب. ومع ذلك لم يهمل الاصلاح وإقامة الحجة وحشد الحشود، وهو يعلم أن الحشود من حوله ستنفض، ثم تأتيه ضربة من أشقى الناس فتخضب لحيته من رأسه، فما معنى هذا؟ لقد ذكرنا فى هذا الكتاب أن كليات الدين موجودة فى فطرة الإنسان نفسه، وهذه الفطرة تهدى الإنسان إلى صراط الله العزيز. ومعنى أنها تهديه إلى طريق وإن هناك طريقا آخر يحمل معالم أخرى لا تهدى إلى صراط الله العزيز. ودائرة الفطرة يسهر عليها أنبياء الله ورسله - فالله يبعثهم بالدين، والدين طريق خاصة فى الحياة تؤمن صلاح الدنيا بما يوافق الكمال الأخروى. أما دائرة اللاهدى، فيسهر عليها

[صفحه ۸۳]

الشيطان. وبرنامج الشيطان يعتمد على التزيين والإغواء، ليصل بالإنسان إلى مرحلة الاحتناك، وهى مرحلة خدمة الأهواء والسياسة الشيطانية، والإنسان بين برنامج الفطرة وبين برنامج الشيطان حر مختار، بمعنى أن الله تعالى حاصر الإنسان بجميع الحجج فى نفسه وفى الوجود حتى لا تكون له على الله حجة. ثم أمر سبحانه الجوارح أن تطيع صاحبها فيما يريد، ويختار، وكلما اختار الإنسان شيئا من دائرة الشيطان، انطفأ نور من أنوار الفطرة بداخله - فإذا اختار الكفر خرج الإيمان من قلبه، وفى كل إنسان قلب واحد وهذا القلب لا يحمل إلا شيئا واحدا. قال تعالى: (ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) [۳۰] ، ولأن الله تعالى يعلم أن وسائل الشيطان لها بريقها، وأن هذا البريق سيكون عاملا مهما فى الصد عن سبيل الله، بعث سبحانه الرسل على فترات، ليبينوا للناس أسباب الهدى كى تطرد القلوب الكفر وتعمر بالإيمان. والرسالة الخاتمة جاءت لتدعو الناس إلى صراط الله العزيز، وحذرت من دوائر الشيطان أشد التحذير، وما تركت الرسالة سبيلا إلى الهدى إلا بينته. ومن فضل الله تعالى على الأمة الخاتمة أنه سبحانه أوحى إلى رسوله بما سيحدث فى أمته حتى قيام الساعة، وأخبره بخطوات الشيطان فى بعض القبائل وداخل بعض النفوس ليحذر أمته من هذا ومن ذاك، وأخبره سبحانه بعلمه المطلق أنه رغم تحذيره إياهم إلا أن الغالب الأعم من الأمة لن ينصت إلى هذا التحذير وأن الأمة ستختلف ثم ستفترق ثم ستتبع سنن الأولين شبرا بشبر وذراعا بذراع، وعلى امتداد هذا الطريق فإن الحجة فوق الرؤوس، وفى الكون وفى أعماق أعماق النفس حيث الفطرة والموعد الله. ومعنى أن الحجة فوق الرؤوس أن الحجة مستمرة وتسوق الناس إلى صراط الله العزيز. ولا يضرها من خالفها أو خذلها أو ناوأها. ولا يضرها قتل أو قطع رؤوس أو سجن أو طرد أو نفى. فالملك لله، والموعد الله. وفى عهد الإمام على كان الإمام يعلم نهايته. فلم يتألم لأنه سيضرب على

[صفحه ۸۴]

رأسه، وإنما كان يقول: فوالله ما أبالى أسقطت على الموت أم سقط على [" ۳۱] .

ولم يكن الإمام يتألم من هذا، وإنما كان يتألم أن يرى باطلا ولا يستطيع كسره. وذلك لأنه يعيش فى دائرة الإيمان الكامل. وأصحاب هذه الدائرة لا تشعر جوارحهم إلا بما فى مخزون الفطرة ودائرة العبادة الحق. لقد كان الإمام يعلم بأنه مقتول، ولكنه كان يأخذ بأسباب

إقامة المجتمع الصالح. وليس معنى أن الله تعالى كتب على كل إنسان الموت وأن يجلس الإنسان على سريره لينتظر الموت، وإنما عليه أن يكد ويحصل العلوم ويأخذ بأسباب الحياة الكريمة التى تؤمن صلاح الدنيا بما يوافق الكمال الأخروى. والإمام أعلن أمام الجميع إخبار الرسول له بأنه مقتول. وهناك فرق بين مقتول وميت. فإذا كانت الأمة ستقتل الإمام، فهل هذا أخذا بأسباب الحياة الكريمة؟ قد يقال إن الذى قتله إنسان واحد، فنقول إن الذى قتل الناقة كان إنسان واحد، ولكن الله عندما أخبرنا بقتلها قال ": فكذبوه فعقروها " ثم أخبرهم الإمام أن بعد القتل سيأتيهم العذاب. والعجيب أن الإمام عندما أخبرهم بأنه سيقتل وأن معاوية سيملك ما تحت قدمه. سارع البعض بإرسال الرسائل إلى معاوية واتخذوا عنده الأيادى. فهل هذا أخذا بالأسباب الكريمة؟. فإذا جاء العذاب فهل يكون العذاب إلا نتيجة طبيعية لأعمالهم. لأن الله لا يظلم مثقال ذرة. إن الإنسان الذى يفسد دينه الفطرى لا تتعادل قواه الحسية الداخلية، وتصبح معظم ملكات نفسه فى حالة جوع دائم. واليهود عندما فسد دينهم الفطرى جاعت نفوسهم، وعندما جاء إليهم أنبياء الله ورسله لإطعامهم الحلال، لم يجدوا فى الحلال كفاية، فقتلوا الأنبياء، ولما كان لا بد أن يسير اليهود وراء إمام لهم، بشرط أن يكون هذا الإمام موافق لما يريدون، بدأوا ينقبون فى أحاديث الغيب وأخبار المستقبل التى تركتها رسلهم. فوجدوا أحاديث عليها علامات تحذيرية وأخرى عليها علامات تبشيرية، واختلط الأمر عليهم فهناك

[صفحه ۸۵]

أشياء يريدونها وعليها تحذير وأخرى لا يريدونها وعليها تبشير. ووجدوا أن الغيب فيه مسيحان الأول يولد من عذراء والآخر دجال. ووجدوا أن ابن العذراء لن يعطيهم إلا بميزان بينما الآخر سيصب عليهم الدنيا صبا، واختلط عليهم الأمر، وهنا تدخل أحبار السوء فى كل زمان وكل مكان، الأحبار الذين يسعون فى الأرض فسادا، فقالوا أنهم أحباء الله والله لا يعطى أحباءه بميزان. وقد يكون الأولون قد أخطأوا فى تحديد التحذير والتبشير. ثم استقروا على المسيح الثانى. وحاولوا قتل المسيح الأول عندما بعثه الله إليهم، ولما كان المسيح الذى وقعوا عليه هو الدجال الذى وصفته الأحاديث بأنه يهودى أى أنه على هوى اليهود [۳۲] .

وعالم ابتغاء الفتنة عالم طويل عريض، ويبحث أصحابه دائما فى أصولهم التى فى صدورهم، ثم يعملوا من أجل إيجاد رداء لهم يسيرون به فى الحياة، وكلما كان الرداء له قداسة كانت العقبات فى طريقهم أقل. ولقد استغل تيار النفاق الجلباب الإسلامى. بل استغلوا فيما بعد القرآن، قال تعالى: (فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة) [۳۳] ، ثم استغلوه عندما رفعوه طلبا للتحكيم بينهم وبين أمير المؤمنين الذى يقاتلهم أصلا على التأويل. وكانوا يريدون من وراء ذلك أولا: الخروج من المعركة أحياء، وثانيا: إخراج الإمام من دائرة أنه الأعلم بالتأويل. كما حاولوا من قبل إخراجه من دائرة التطهير.

[۱] مروج الذهب ۴۱۸:۲.

[۲] الطبرى ۱۸۶:۶.

[۳] السراج السليط:المتقد بالزيت الجيد.

[۴] كثيف:أى حشد وجماعة.

[۵] اللامة:الدرع.

[۶] الشزر:النر بمؤخرة العين.

[۷] الهبر:اللحم الكثير.

[۸] نافخوا:دافعوا.

[۹] الظبأ:حد السيف.

[۱۰] الخطا:الرمى بالسهام.

[۱۱] الرواق:ما بين يدى البيت.

[۱۲] المطنب:المشدود.

[۱۳] النکوص:الفرار والهرب.

[۱۴] مروج الذهب ۲:۴۲۰، ابن عساکر (کنز العمال ۱۱:۳۴۷).

[۱۵] الطبری ۶:۶، ابن أبی الحدید ۱:۷۵۷.

[۱۶] ابن أبی الحدید ۲:۲۰۹.

[۱۷] ابن أبی الحدید ۲:۲۰۹.

[۱۸] ثقله:حملة.

[۱۹] رواه أبو نعیم وابن عساکر (کنز العمال ۱۱:۳۵۰)، (الخصائص الکبری ۲:۲۳۴).

[۲۰] العقد الفرید ۱:۲۰۹.

[۲۱] العقد الفرید ۱:۱۱۹. وابن کثیر بلفظ آخر (البدایة ۷:۲۶۵.

[۲۲] رواه الشافعی والبیهقی (کنز العمال ۱۰:۳۴۸).

[۲۳] الطبری ۶:۲۳، الکامل ۳:۱۵۹.

[۲۴] الکامل ۳:۱۴۸.

[۲۵] سورة الروم: الآیة ۵۲،، ۵۳.

[۲۶] الطبری ۶:۲۵.

[۲۷] البدایة والنهایة ۷:۲۹۴.

[۲۸] البدایة والنهایة ۷:۲۶۴.

[۲۹] مروج الذهب ۲:۴۶۵.

[۳۰] سورة الأحزاب: الآیة ۴.

[۳۱] العقد الفرید ۱:۱۱۹.

[۳۲] راجع بحوثنا فی المسیح الدجال وصدر منها خمس بحوث.

[۳۳] سورة آل عمران: الآیة ۷.

مشاهد من میدان القتال

لقد کان هناک من خذل الإمام من البدایة، عندما علموا أن الأمر سیکون

لمعاویة فی النهایة. وکان هناک أیضا الذین علموا بنهایة الإمام ولکنهم أخذوا بالأسباب نحو الحیاة الکریمة. ومنهم من کان یعلم أن الفئة الباغیة ستقتله فی هذه المعرکة لا محالة، ولکن لم یمنعه ذلک من أن یسیر وراء أمیر المؤمنین. باختصار: کان هناک من یأخذ بالأسباب لینظر الله إلی عمله وهو یسیر نحو

[صفحه ۸۶]

غایته. أما نتیجة هذا العمل فعند الله أمرها. - من هؤلاء (یزید بن قیس الأرجی): لقد حرض الناس فقال: إن المسلم السلیم من سلم دینه ورأیه، وإن هؤلاء القوم والله إن یقاتلوننا علی إقامة دین رأونا امتناه. وإن یقاتلوننا إلا علی هذه الدنیا، لیکونوا جبابرة فیها ملوکا. فلو ظهروا علیکم لا أراهم الله ظهورا ولا سرورا. ألزموکم بمثل سعید والولید وعبد الله بن عامر السفیه الضال. یجیز أحدهم فی مجلسه بمثل دیته ودیة أبیه وجده، یقول هذا لی ولا إثم علی. کأنما أعطی تراثه عن أبیه وأمه، وإنما هو مال الله عز وجل، أفاءه علینا بأسیافنا

وأرماحنا. فقاتلوا عباد الله القوم الظالمين الحاكمين بغير ما أنزل الله، ولا يأخذكم فى جهادهم لوم لائم. ثم فإنهم ما ازدادوا إلى يومهم إلا شرا [۱] .

- ومنهم (عبد الله بن بديل): قال فى الناس: إلا أن معاوية ادعى ما ليس أهله، ونازع هذا الأمر من ليس مثله، وجادل بالباطل ليدحض به الحق، وصال عليكم بالأعراب والأحزاب قد زين لهم الضلالة وزرع فى قلوبهم حب الفتنة. وليس عليهم الأمر، وزادهم رجسا إلى رجسهم، وأنتم على نور من ربكم، وبرهان مبين. فقاتلوا الطغاة الجفاة ولا تخشوهم. فكيف تخشونهم وفى أيديكم كتاب الله عز وجل طاهرا مبرورا "؟ أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين. قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين، " وقد قاتلناهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة، وهذه ثانية، والله ما هم فى هذه بأتقى ولا أزكى ولا أرشد قوموا إلى عدوكم، بارك الله عليكم، فقاتل قتالا شديدا هو وأصحابه [۲] .

وروى: كان على عبد الله بن بديل بصفين ومعه سيفان فكان يضرب

[صفحه ۸۷]

أهل الشام وهو يقول:

لم يبق إلا الصبر والتوكل++

ثم التمشى فى الرعيل الأول

مشى الجمال فى حياض المنهل++

والله يقضى ما يشاء ويفعل [۳] .

وروى أن الصحابى الجليل عبد الله بن بديل هو ونفر من أصحابه على الموت، فاقتحم هو وأصحابه قبة معاوية وكان عدد أصحابه بين المائتين والثلثمائة. وعندما أرسل إليه الأشتر أن يقاتل بين الناس لأن فى هذا بقاء له ولأصحابه أبى. وانطلق نحو معاوية وكان حول معاوية رجال كالجبال يقول الطبرى: كان فى يده سيفان وخرج أمام أصحابه. فأخذ كلما دنا منه رجل ضربه فقتله حتى قتل سبعة، ودنا من معاوية فنهض إليه الناس من كل جانب، وأحبط به وبطائفة من أصحابه، فقاتل حتى قتل وقتل ناس من أصحابه ورجعت طائفة [۴] .

- ومنهم (أويس بن عامر القرنى): أخبر عنه النبى صلى الله عليه وآله وسلم ليكون حجة على التابعين كى ينصروا عليا، روى الإمام مسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": إن خير التابعين رجل يقال له أويس [" ۵] ، وقال الحاكم: أويس لم يصحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما ذكره رسول الله ودل على فضله [۶] ، وقال النووى: هو من دلائل النبوة لأنه أخبر عن اسمه واسم أبيه ونعته وقبيلته، وإنه يجتمع بعمر، وكل ذلك غيب، فكان ذلك. ولفظ مسلم " يأتى عليكم أويس بن عامر مع إمداد أهل اليمن من مراد ثم من قرن، وكان به برص. فبرأ منه إلا موضع الدرهم. له والدة هو بها بر، لو أقسم على الله لأبره، "... وقال لعمر:

[صفحه ۸۸]

"فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل [" ۷] .

وعندما التقى بعمر قال له عمر: لا تفارقنى. فأملس منه [۸] ، وكان عمر قد سأله: أين تريد؟ قال: الكوفة. فقال عمر: ألا أكتب لك إلى عاملها فيستوصى بك. قال: لا. أكون فى غبراء الناس أحب إلى [۹] .

وعن الحسن البصرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتى وأكثر من ربيعة ومضر. قال الحسن: إنه أويس. وقال أبو بكر بن عياش: قلت لرجل من قوم أويس بأى شئ بلغ هذا؟ قال: فضل الله يؤتيه من يشاء [۱۰] ، وظل أويس فى الكوفة زاهدا فى عالم اكتنز الذهب والفضة، وجارت فيه الولاة، وفى عهد على خرج الزاهد ليقف تحت لواء سيد الزاهدين، عن الأصبغ بن نباته قال: شهدت عليا يوم صفين وهو يقول: من يبايعنى على الموت! فبايعه تسع وتسعون. فقال على: أين التمام؟ أين الذى

وعدت به؟ فجاء رجل عليه أطمار صوف. محلوق الرأس فبايعه على الموت والقتل. فقال: هذا أويس القرنى، فما زال يحارب بين يديه حتى قتل [۱۱].

وروى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال: نادى رجل من أهل الشام يوم صفين: أفيكم أويس القرنى؟ قالوا: نعم، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن من خير التابعين أويس القرنى [۱۲] وهكذا

كان أويس حجة على نهاية جيل وبداية جيل آخر. وروى الإمام الحاكم: لما كان يوم صفين. نادى مناد من أصحاب معاوية: أفيكم أويس القرنى؟ قالوا: نعم. فضرب دابته حتى دخل معهم. ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

[صفحه ۸۹]

وسلم يقول: خير التابعين أويس القرنى [۱۳].

إن كان ورقة تسقط علمها عند الله، وكل خطوة فى حركة التاريخ عليها حجة من الله، وما من بصمة إلا ولها جذور، وما خلق الله شيئا إلا لهدف. وعلى امتداد أيام صفين ضرب الزاهد بسيفه فماذا كان يريد هذا الزاهد؟ وما معنى أن الله سبحانه يخبر رسوله صلى الله عليه وسلم بهذا الزاهد ومكانته؟ وما المقصود من وراء هذا؟ ولماذا قاتل مع على بالذات؟ وما هى أهدافهما؟ إن هذه أسئلة وغيرها يتركها الباحث دون إجابة لمن أراد أن يتفكر ويتدبر. والآن كيف كانت نهاية هذا المقاتل الزاهد؟ يقول ابن حجر فى حديث صحيح الإسناد، نادى منادى على: يا خيل الله اركبى وابشرى، قصف الناس، فانتضى أويس سيفه حتى كسر جفنه فألقاه، ثم جعل يقول: يا أيها الناس تموا تموا ليتمن وجوه، ثم ينصرف حتى يرى الجنة. فجعل يقول ذلك ويمشى. حتى إذا جاءته رمية فأصابت فؤاده فقتل [۱۴]، وعن يحيى بن معين قال: قتل أويس القرنى بين يدى على بن أبى طالب يوم صفين [۱۵].

ويبدو أن وجود أويس فى معسكر على بن أبى طالب لم يرق للبعض وفقا لأمور سياسة غير خافية. وكان العلماء يخافون من الحكام. يقول النووى فى حديث " خير التابعين أويس، " هذا صريح فى أنه خير التابعين. وقد يقال: قد قال أحمد بن حنبل وغيره. أفضل التابعين سعيد بن المسيب. والجواب: إن مرادهم أن سعيدا أفضل فى العلوم الشرعية. كالتفسير والحديث والفقه. لا فى الخير عند الله!!؟ [۱۶] وقال ابن الصلاح: حديث خير التابعين قاطع للنزاع.

ولكن فى رأى السخاوى. إن تفضيل أحمد لابن المسيب، لعله أراد الأفضلية فى

[صفحه ۹۰]

العلم لا الخيرية [۱۷] وهكذا اختلفوا مع وجود نص صريح، كما اختلفوا من قبل

فى مولى المؤمنين. وربما يعود ذلك إلى الخوف والله أعلم. أما اختيار سعيد بن المسيب. فإن لابن المسيب تاريخه الذى لا ينكره عليه باحث. ولكن هذا الاختيار يقتضى أن ننظر فى الأحداث بجملتها. وابن المسيب عندما سمع من عامر بن سعد حديث " أنت منى بمنزلة هارون من موسى " لم يطمئن وذهب بنفسه إلى سعد وراجعه فأقسم له سعد أنه سمعه من رسول الله [۱۸]، وابن المسيب عندما يتأكد بنفسه من صحة حديث. فلا غبار على هذا، ولكن ابن أبى الحديد قال وهو يتحدث عن المنحرفين عن على بن أبى طالب" وكان سعيد بن المسيب منحرفا عن على [" ۱۹].

وقتل أويس بن عامر القرنى بين يدى على بن أبى طالب، وهو يأخذ. بأسباب الحياة الكريمة. وبعد قتل أويس ازدادت المعركة ضراوة، واقتتلوا كأشد القتال، وكثرت القتلى بينهم. وتحاجزوا عند الليل. - ومنهم (عمار بن ياسر): ولقد ذكرنا ما ورد فيه على امتداد هذا البحث، فعمار كان الميزان على امتداد معارك أمير المؤمنين. وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعلى عندما ذكر عمار: أما أنه سيشهد معك مشاهد أجرها عظيم، وذكرها كثير، وثناؤها حسن [" ۲۰]، وكان عمار حجة على الذين انحرفوا عن أمير المؤمنين أو اعتزلوه فى وقت لا يجب فيه الاعتزال. روى أن رجلا جاء إلى ابن مسعود فقال: إن الله قد أمننا أن يظلمنا ولم يؤمنا أن يفتننا. أرأيت إذا نزلت فتنة كيف أصنع. قال: عليك بكتاب الله. فقال: أرأيت أن

[صفحه ۹۱]

جاء قوم كلهم يدعون إلى كتاب الله. قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إذا اختلف الناس كان ابن سمية مع الحق [۲۱] ومن قبل رأينا كيف

أوصى حذيفة بالتزام عمار. والنبى صلى الله عليه وسلم وضع حول عمار مناقب لهدف حتى لا يكون للناس حجة فى عدم التزام على والقتال تحت رايته. وعمار، كما ورد فى البخارى، أجاره الله من الشيطان [" ۲۲] ، وكما ورد عند الإمام أحمد ": ما عرض عليه أمران قط إلا اختار الأرشد منهما [" ۲۳] ، وأيضا ": من عادى عمار عاداه الله [" ۲۴] وكما ورد عند البزار

والطبرانى ": أبو اليقظان على الفطرة لا يدعها حتى يموت [" ۲۵] ، وكما ورد عن ابن عساكر: عمار خلط الله والإيمان ما بين قرنه إلى قدمه وخلط الإيمان بلحمه ودمه يزول مع الحق حيث زال. وليس ينبغى للنار أن تأكل منه شيئا [" ۲۶] .

وعمار عهد إليه النبى صلى الله عليه وسلم بعهد قال له: يا عمار إن رأيت عليا قد سلك واديا وسلك الناس واديا غيره فاسلك مع على ودع الناس. إنه لن يدلك على ردى ولن يخرجك من الهدى [۲۷] .

وعندما حدد النبى صلى الله عليه وسلم الراية والدليل قال: أبشر يا

[صفحه ۹۲]

عمار تقتلك الفئة الباغية [" ۲۸] .

والقتل لم يكن من أجل القتل، ولكن لكل قتل أسبابه، ويمكن ملاحظة هذه الأسباب فى قول النبى صلى الله عليه وسلم ": ويح عمار تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار [" ۲۹] ، ثم يتعدى التحذير أرض المعركة ويشمل مساحة أوسع وذلك فى قول النبى صلى الله عليه وسلم لعمار ": ستقتلك الفئة الباغية وأنت مع الحق. فمن لم ينصرك يومئذ فليس منى [" ۳۰] .

هذا هو عمار، جندى على بن أبى طالب! فماذا قال عمار على أرض صفين؟ روى أن عمارا خرج إلى الناس فقال: اللهم إنك تعلم إنى لو أعلم أن رضاك فى أن أقذف بنفسى فى هذا البحر لفعلته - اللهم إنك تعلم أنى لو أعلم رضاك فى أن أضع ظبة سيفى فى صدرى، ثم انحنى عليها حتى تخرج من ظهرى لفعلت، وإنى لا أعلم اليوم عملا هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين ولو أعلم أن عملا من الأعمال هو أرضى لك منه لفعلته. وقال عمار: أيها الناس اقصدوا بنا نحو هؤلاء الذين يبتغون دم ابن عفان ويزعمون أنه قتل مظلوما. والله ما طلبتهم بدمه. ولكن القوم ذاقوا الدنيا فاستحبوها واستمرؤها، وعلموا أن الحق إذا لزمهم حال بينهم وبين ما يتمرغون فيه من دنياهم. ولم يكن للقوم سابقة فى الإسلام يستحقون بها طاعة الناس والولاية عليهم. فخدعوا أتباعهم أن قالوا: إمامنا قتل مظلوما. ليكونوا بذلك جبابرة ملوكا. وتلك مكيدة بلغوا بها ما ترون. ولولا هى ما تبعهم من الناس رجلان. اللهم إن تنصرنا فطالما نصرت. وإن تجعل لهم الأمر. فادخر لهم بما

[صفحه ۹۳]

أحدثوا فى عبادك العذاب الأليم [۳۱] ، وروى أن عمارا شاهد عمرو بن العاص فى أرض المعركة فقال: يا أهل العراق أتريدون أن تنظروا إلى من عادى الله ورسوله، وجاهدهما وبغى على المسلمين وظاهر المشركين؟ فلما رأى الله عز وجل يعز دينه ويظهر رسوله أتى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فأسلم. وهو فيما نرى راهب غير راغب، ثم قبض الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فوالله إنه زال بعده معروفا بعداوة المسلم وهوادة المجرم، فاثبتوا له وقاتلوه، فإنه يطفئ نور الله ويظاهر أعداء عز وجل [۳۲] وعندما سمع ابن العاص هذا زال وذهب يبحث له عن خدعة يختفى ورائها من هذا العار. وروى أن قيسا بن عبادة قال لعمار: أرأيت قتالكم رأيا رأيتموه، فإن الرأى يخطئ ويصيب أو عهد عهده إليكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمار ": ما عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا لم يعهده إلى الناس كافة. " أى أن تعليمات النبى صلى الله عليه وسلم بخصوص قتال البغاة مع على بن أبى طالب لم تكن لفئة دون فئة، ولكن لأمر شمل الناس كافة. ثم انتقل وهو يجيب قيس إلى أمر آخر فقال ": إن رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال: إن فی أمتی اثنی عشر منافقا لا یدخلون الجنة ولا یجدون ریحها حتی یلج الجمل فی سم الخیاط. ثمانیة منهم تکفیکهم الدبیلة [۳۳] سراج من نار یظهر فی أکتافهم حتی ینجم فی صدورهم [" ۳۴] .

ولا ندری ما هو الدافع الذی جعل عمار یذکر المنافقین فی هذا الموضع؟ ومن المعروف أن عمارا وحذیفة کانا مع النبی صلی الله علیه وسلم عند عودته من تبوک. یوم أن أرادت تیارات الهدم والتخریب أن یغتالوا النبی صلی الله علیه وسلم

[صفحه ۹۴]

فقیس حدث عمارا عن القتال. أهو من الرأی أم فیه عهد؟ فأجاب عمار علی السؤال. ثم تحدث عن جماعة التخریب وهو لم یسأل عنها. فهل یا تری سقط السؤال من الناسخ؟ أم أن عمارا له مقصود خفی علینا وظهر لقیس. أم أن عمارا کان یقصد شیئا لا یعلمه إلا الله عز وجل؟ وروی أن عمارا قال وهو یشیر إلی رایة معاویة: لقد قاتلت صاحب هذه الرایة مع رسول الله صلی الله علیه وسلم ثلاث مرات. وهذه الرابعة [۳۵] ما

هی بأبر ولا أتقی [۳۶] وقال: فالذی نفسی بیده لو ضربونا حی یبلغوا بنا

سعفات هجر، لعرفت أن مصلحینا علی الحق وأنهم علی الضلالة - وفی روایة - لعلمنا أنا علی الحق وأنهم علی الباطل [۳۷] ، وروی أن رجلا جاء إلی معسکر عمار فقال: أیکم عمار بن یاسر؟ فقال عمار: أنا عمار، قال: أبو الیقظان؟ قال: نعم. قال: إن لی إلیک حاجة. أفأنطق بها سرا أو علانیة؟ قال: اختر لنفسک أیهما شئت. قال: لا بل علانیة، قال: فانطق [۳۸] ثم بدأ الرجل

یتحدث عن حاله فی القتال، وأنه قد دخله الشک فی صحة هذا القتال. لأن الأطراف یصلون صلاة واحدة ویقرؤون کتابا واحدا، وإنه ذهب إلی علی بن أبی طالب فذکر له ذلک فقال له: لقد لقیت عمار بن یاسر؟ فقال الرجل: لا، فقال له أمیر المؤمنین: فألقه. فانظر ماذا یقول لک عمار فاتبعه. وأخبر الرجل عمارا بأنه جاءه لذلک ". فقال عمار: أتعرف صاحب الرایة السوداء المقابلة لی؟ فإنها رایة عمرو بن العاص. قاتلتها مع رسول الله صلی الله علیه وسلم ثلاث مرات

[صفحه ۹۵]

وهذه الرابعة. فما هی بخیرهن ولا أبرهن، بل هی شرهن وأفجرهن. ثم قال عمار للرجل: أشهدت بدرا وأحدا ویوم حنین؟ أو شهدها أب لک فیخبرک عنها؟ قال: لا. قال: فإن مرکزنا الیوم علی مراکز رایات رسول الله صلی الله علیه وسلم یوم بدر ویوم أحد ویوم حنین. وإن مراکز رایات هؤلاء علی مراکز رایات المشرکین من الأحزاب. فهل تری هذا العسکر ومن فیه؟ والله لوددت أن جمیع من فیه ممن أقبل مع معاویة یرید قتالنا. مفارقا للذی نحن علیه. کانوا خلقا واحدا فقطعته وذبحته. والله لدماؤهم جمیعا أحل من دم عصفور. أفتری دم عصفور حراما؟ قال: لا. بل حلال. قال: فإنهم حلال کذلک. أترانی بینت لک؟ قال: قد بینت لی. قال فاختر أی ذلک أحببت. فانصرف الرجال. فدعاه عمار ثم قال: أما أنهم سیضربونکم بأسیافهم حتی یرتاب المبطلون منکم فیقولوا: لو لم یکونوا علی حق ما أظهروا علینا. والله ما هم من الحق علی ما یقذی عین ذباب، والله لو ضربونا بأسیافهم حتی یبلغونا سعفات هجر. لعلمنا أنا علی حق. وإنهم علی باطل. وروی: جاء رجل إلی علی فقال: یا أمیر المؤمنین، هؤلاء القوم الذی نقاتلهم، الدعوة واحدة، والرسول واحد، والصلاة واحدة، والحج واحد فماذا نسمیهم؟ قال: سمهم بما سماهم الله فی کتابه. قال: ما کل ما فی الکتاب أعلمه. قال: أما سمعت الله تعالی یقول: (تلک الرسل فضلنا بعضهم علی بعض) - إلی قوله - (ولو شاء الله ما اقتتل الذین من بعدهم من بعد ما جاءتهم البینات، ولکن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من کفر) [۳۹] فلما وقع

الاختلاف. کنا نحن أولی بالله. وبالکتاب وبالنبی وبالحق. وهم الذین کفروا وشاء الله قتالهم. فقاتلهم بمشیئته وإرادته [۴۰] .

لقد کان عمار یقاتل وهو یعلم أن نتیجة القتال فی نهایة المعرکة ستکون لصالح معاویة، وکان یعلم أنه مقتول لا محالة بین صفین فی هذه المعرکة.

[صفحه ۹۶]

وبالرغم من ذلک کان یأخذ بأسباب الحیاة الکریمة. لینظر الله إلی عمله وماذا یفعل ابتغاء مرضاته تعالی. کان یقول: أخبرنی رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم أنی أقتل بین صفین [۴۱] وقال سمعت رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم

یقول ": آخر شربة تشربها من الدنیا شربة لبن [" ۴۲] وروی أن عمارا تقدم وقد

جنحت الشمس للغروب، ومعه ضح من لبن ینتظر غروب الشمس أن یفطر، فقال غربت الشمس وشرب الضح: سمعت رسول الله صلی الله علیه وسلم یقول: آخر زادک من الدنیا ضح من اللبن [۴۳] ، وکان عمار یتذکر هذا علی امتداد أیام صفین، وتقدم عمار فقاتل ثم رجع. وفی الیوم رجع عمار إلی موضعه فاستسقی. فأتته امرأة من نساء بنی شیبان من مصافهم بعس فیه لبن. فدفعته إلیه. فقال: الله أکبر الله أکبر، الیوم ألقی الأحبة تحت الأسنة، صدق الصادق. وبذلک أخبرنی الناطق. وهو الیوم الذی وعدت فیه. ثم قال: أیها الناس. هل من رائح إلی الله تحت العوالی (أی تحت الرماح) والذی نفسی بیده لنقاتلنهم علی تأویله کما قاتلناهم علی تنزیله. وتقدم وهو یقول:

نحن ضربناکم علی تنزیله++

فالیوم نضربکم علی تأویله

ضربا یزیل الهام عن مقیله [۴۴] .

ویذهل الخلیل عن خلیله

أو یرجع الحق إلی سبیله [۴۵] .

وروی أن الذی سقاه هو أبو المخاریق [۴۶] ، وأنه بعد أن شرب اللبن نادی:

[صفحه ۹۷]

إنی لقیت الخیار وتزوجت الحور العین. الیوم نلقی الأحبة محمدا وحزبه [۴۷] .

وروی عن سعید بن عبد العزیز أن عمار بن یاسر أقسم یوم أحد فهزم المشرکون، وأقسم یوم الجمل فغلبوا أهل البصرة، وقیل له یوم صفین لو أقسمت. فقال: لو ضربونا بأسیافهم حتی نبلغ سعفات هجر، لعلمنا أنا علی الحق وهم علی الباطل، فلم یقسم. وروی أنه قال یوم أحد.

أقسمت یا جبریل ویا میکائیل++

لا یغلبنا معشر الضلال

أنا علی الحق وهم جهال ثم انطلق حتی خرق صف المشرکین [۴۸] ، کان یعلم یوم صفین بأنهم سیتراجعوا عن مواقعهم وعبر عن ذلک بقوله ": لو ضربونا حتی نبلغ سعفات هجر، " ولکن النصر عند عمار لم یکن بامتلاک الأرض، وإنما بالمبادئ التی یحاربون علیها ومن أجلها، النصر بالأخلاق وفی الأخلاق، والباطل لا یمکث فی الأرض وإن طالت اللیالی. لأن الباطل طارئ لا أصالة فیه، والباطل مطارد من الله، ولا بقاء لشئ یطارده الله. کان عمار یعلم أنه فی موقع المنتصر علی الرغم من أن الموت قریب منه. فبالقرب من عمار وقف أبو الغادیة قاتل عمار.. یقول أبو الغادیة: کنا نعد عمارا من خیارنا، حتی سمعته یوما فی مسجد قباء یقع فی عثمان، فلو خلصت إلیه لوطئته برجلی، فما صلیت بعد ذلک صلاة إلا قلت: اللهم لقنی عمارا [۴۹] کان أبو الغادیة یراقب عمارا، وکان عمار ینادی

صاحبه هاشم بن عتبة: یا هاشم الجنة تحت ظلال السیوف، والموت فی أطراف الأسل، وقد فتحت أبواب السماء، وتزینت الحور العین، الیوم ألقی الأحبة محمدا وحزبه [۵۰] وتقدم عمار وهاشم، یقول أبو الغادیة: فلما کان یوم صفین.

جعل عمار یحمل علی الناس. فقیل: هذا عمار، فرأیت فرجة بین الرئتین وبین

[صفحه ۹۸]

الساقین. فحملت علیه فطعنته فی رکبته فوقع فقتلته [۵۱] ، وفی روایة الإمام أحمد: فاختلفت أنا وهو ضربتین، فبدرته فضربته فکبا

لوجهه ثم قتلته [۵۲] .

وهكذا قتل عمار بن ياسر رضى الله عنه، وكان يوم صفين شيخا كبيرا، يقول عبد الله بن سلمة: رأيت عمارا يوم صفين شيخا كبيرا آدم طوالا. أخذ الحربة بيده ويده ترعد ويقول: والذى نفسى بيده لقد قاتلت هذه الراية مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث مرات، وهذه الرابعة [۵۳] .

وبعد قتل عمار ظهر على الساحة لأول مرة " فقه البغاة " والعمود الفقرى لهذا الفقه، إن الأمير إذا أمر بالسرقة أو بالقتل. فعند ظهور الضحية فإن الفاعل لن يكون الأمير بأى حال ربما يكون أقل جندى فى قواته، وربما يكون بواب رواقه. وعلى سبيل المثال، لقد قتل النظام الحسين بن على، ولكن النظام لم يظهر على امتداد التاريخ، وإنما ظهر ذو الجوشن الذى نفذ الخطة. ومن قبل الحسين ارتكبت جرائم عديدة كقتل حجر بن عدى واجتياح المدينة، وكل هذا فعله جندى من الجنود، أما أمير القوم فلم يكن يدرى لأنه وقتئذ كان مشغولا بالصلاة. روى أن عبد الله بن عمرو بن العاص، وكان يقاتل يوم صفين ومعه سيفان [۵۴] ، روى أنه قال لأبيه: يا أبت قتلتم هذا الرجل فى يومكم، وقد قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال. ألم تكن معنا يوم أن آتاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجعل يمسح التراب عن وجهه ويقول ": ويحك تقتلك الفئة الباغية؟ " فدفع عمرو صدر فرسه. ثم جذب معاوية إليه. وأخبره بما يقول عبد الله فقال معاوية: إنك شيخ أخرق. ولا تزال تحدث بالحديث وأنت تدحض

[صفحه ۹۹]

فى بولك. أو نحن قتلنا عمارا. من جاء به؟ [۵۵] ، وفى رواية عند الإمام أحمد قال معاوية: أو نحن قتلناه. إنما قتله على وأصحابه. جاؤوا به حتى ألقوه بين رماحنا [۵۶] ، ثم خرج عمرو بن العاص ليؤصل هذا الفقه العميق فقال: (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ": إن قاتله وسالبه فى النار. " فقيل لعمرو: فإنك هوذا تقاتله، فقال: إنما قال قاتله وسالبه) [۵۷] .

فقه واسع عميق. وروى أن ذا الكلاع سمع عمرو وهو يحدث معاوية بحديث: تقتله الفئة الباغية، فكان ذو الكلاع يقول: ويلك! ما هذا يا عمرو. وشاءت الأقدار أن يقتل ذو الكلاع فى المعركة. فقال عمرو لمعاوية: ما أدرى بقتل أيهما أنا أشد فرحا. بقتل عمار أو ذى الكلاع. والله لو بقى ذو الكلاع بعد قتل عمار لأفسد علينا جندنا [۵۸] .

وروى أن عمارا لما قتل قال أمير المؤمنين على لربيعة وهمدان. أنتم درعى ورمحى، فانتدب له نحو من اثنى عشر ألفا، وتقدمهم على - فحمل وحملوا معه حملة رجل واحد، فلم يبق لأهل الشام صف إلا انتقض، وقتلوا كل من انتهوا إليه. ثم نادى أمير المؤمنين وقال: يا معاوية علام تقتل الناس بيننا؟ هلم أحاكمك إلى الله. فأينا قتل صاحبه استقامت له الأمور. فقال عمرو لمعاوية: أنصفك الرجل. فقال معاوية: ما أنصفت. وإنك لتعلم أنه لم يبارزه رجل قط إلا قتله. قال له عمرو: وما يجمل بك إلا مبارزته، فقال معاوية: طمعت فيها بعدى [۵۹] .

وعندما رفض معاوية مبارزة أمير المؤمنين، لأنه يعلم منه ما علم، ولأنه

[صفحه ۱۰۰]

علم أنه لا يجلس على أرضية الطمع وحده وإنما يشاركه فيها ابن العاص. اشتد القتال. وقتل فى ذلك اليوم صفوان وسعد ابنا حذيفة بن اليمان. وقد كان حذيفة قد قال لابنيه: كونا مع على، فستكون له حروب كثيرة، فيهلك فيها خلق من الناس. فاجتهدا أن تستشهدا معه، فإنه والله على الحق، ومن خالفه على الباطل [۶۰] وقتل فى هذا اليوم هاشم بن عتبة الذى كان عمار يناديه: يا هاشم

الجنة تحت ظلال السيوف [۶۱] .

لقد قدمنا هنا بعض المشاهد على أرض صفين. يوم أن أخبر الإمام بأنه مقتول وأن معاوية سيملك ما تحت قدمه. ففى هذا اليوم أراد بعض الناس الدنيا فكاتبوا معاوية سرا. وأراد البعض الآخر الآخرة فقاتلوا وقتلوا رغم علمهم مقدما بما سيسفر عنه القتال فى النهاية.

[۱] الطبرى ۶:۱۰، الكامل ۳:۱۵۲.

[۲] الطبری ۹:۶، الکامل ۱۵۱:۳، الإصابة ۴۰:۴.

[۳] الإصابة ۴۰:۴.

[۴] الطبری ۱۳:۶.

[۵] مسلم فی فضل أویس (الصحیح ۹۵:۱۶).

[۶] الحاکم (المستدرک ۴۰۲:۳).

[۷] مسلم (الصحیح ۹۵:۱۶)، (کنز العمال ۷۵:۱۲).

[۸] أی تخلص وأفلت (کنز العمال ۴:۱۴).

[۹] رواه مسلم وابن سعد وأبو عوانة وأبو یعلی وأبو نعیم والبیهقی والروبانی (کنز العمال ۴:۱۴).

[۱۰] الحاکم (المستدرک ۴۰۵:۳).

[۱۱] الحاکم (المستدرک ۴۰۳:۳).

[۱۲] رواه أحمد وقال الهیثمی إسناده جید (الفتح ۴۴۵:۲۲).

[۱۳] الحاکم (المستدرک ۴۰۲:۳) وابن سعد (الخصائص الکبری ۲۲۰:۲).

[۱۴] الإصابة ۱۱۷:۱.

[۱۵] الحاکم وأقره الذهبی (المستدرک ۴۰۲:۳).

[۱۶] النووی شرح مسلم (الصحیح ۹۵:۱۶).

[۱۷] تبسیط علوم الحدیث:المطیعی ص ۲۰۳.

[۱۸] رواه مسلم (الصحیح ۱۷۴:۱۵).

[۱۹] ابن أبی الحدید ۸۰۹:۱.

[۲۰] رواه أبو نعیم (کنز العمال ۷۲۳:۱۱).

[۲۱] ابن کثیر وقال رواه دیزیل (البدایة ۲۹۶:۷)، والطبرانی (کنز العمال ۷۲۱:۱۱).

[۲۲] البخاری (الصحیح ۳۰۵:۲) فی فصل عمار.

[۲۳] أحمد والحاکم والترمذی وصححه (الفتح الربانی ۳۳۰:۲۲)، (الجامع ۶۶۸:۵). المستدرک ۳۸۸:۳).

[۲۴] أحمد والطبرانی ورجاله رجال الصحیح (الفتح ۳۲۹:۲۲)، (الزوائد ۲۹۳:۹) وابن عساکر والطبرانی وابن حبان وابن أبی شیبة بلفظ آخر (کنز العمال ۵۳۳:۱۳، ۷۲۲، ۷۲۶:۱۱) والحاکم (المستدرک ۳۸۹:۳).

[۲۵] البزار والطبرانی ورجالهم ثقات (الزوائد ۲۹۵:۹).

[۲۶] ابن عساکر (کنز العمال ۷۲:۱۱).

[۲۷] الدیلمی (کنز العمال ۶۱۴:۱۱).

[۲۸] الترمذی وصححه (الجامع ۶۷۹:۵).

[۲۹] أحمد والبخاری وابن عساکر والطبرانی (الفتح الربانی ۳۳۱:۲۲)، (کنز العمال ۷۲۲، ۷۲۴:۱۱).

[۳۰] ابن عساکر (کنز العمال ۳۵۱:۱۱).

[۳۱] الطبری ۲۱:۶ ذ، الکامل ۱۵۷:۳، البدایة والنهایة ۲۶۷، ۲۹۲:۷.

[۳۲] الطبری ۷:۶، الکامل ۱۵۰:۳.

[۳۳] الدبیلة:نار تظهر فی أکتافهم.

[۳۴] مسلم کتاب صفات المنافقین (الصحیح ۱۲۴:۱۷) أحمد (الفتح الربانی ۱۴۰:۲۳) وابن عساکر (کنز العمال ۳۵۱:۱۱).

[۳۵] رواه الطبرانی وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۲۴۳:۷) وابن سعد (الطبقات ۲۵۳:۳).

[۳۶] الطبری ۲۲:۶.

[۳۷] رواه أحمد ورجاله ثقات (الفتح الربانی ۱۴۱:۲۳) والحاکم وصححه (المستدرک ۳۸۴:۳) البدایة والنهایة ۲۶۷:۷، الطبری ۲۱:۶، مروج الذهب ۴۲۲:۲، ابن أبی الحدید ۲۶۰:۲ الطبقات الکبری ۲۵۷:۳.

[۳۸] ابن أبی الحدید ۲۶۰:۲.

[۳۹] سورة البقرة: الآیة ۲۵۳.

[۴۰] ابن أبی الحدید ۲۶۰:۲.

[۴۱] رواه البزار وإسناده حسن (الزوائد ۳۶۵:۹) وابن عساکر عن مولاة عمار (کنز العمال ۵۳۱:۱۳).

[۴۲] رواه أحمد (الزوائد ۲۴۳:۷) والحاکم (المستدرک ۳۸۵:۳) والطبرانی (الزوائد ۲۹۶:۹)، البدایة والنهایة ۲۶۸:۷، ابن أبی الحدید ۸۱۰:۲.

[۴۳] الحاکم (۳۸۵:۳ المستدرک).

[۴۴] المقیل:الموضع ومکان القیلولة.

[۴۵] مروج الذهب ۴۲۲:۲، ابن أبی الحدید ۸۱۰:۲.

[۴۶] الطبری (الزوائد ۲۴۳:۷).

[۴۷] رواه أحمد والطبرانی ورجالهما ثقات (الزوائد ۲۹۶:۹)، ابن أبی الحدید ۸۱۰:۲.

[۴۸] رواه الطبرانی ورجاله رجال الصحیح (الزوائد ۳۹۵:۹).

[۴۹] رواه أحمد والطبرانی (الزوائد ۲۹۸:۹).

[۵۰] الطبری ۲۳:۶.

[۵۱] ابن سعد (الطبقات ۲۶۱:۳).

[۵۲] رواه الطبرانی وأحمد وقال الهیثمی رجال أحمد والطبرانی رجال الصحیح (الزوائد ۲۹۸:۹).

[۵۳] البدایة والنهایة ۲۹۲:۷.

[۵۴] أسد الغابة ۳۵۱:۳ وروی أنه ندم بعد ذلک وکان یقول: ما لی ولصفین.

[۵۵] الطبری ۲۳:۶.

[۵۶] رواه أحمد والحاکم وأقره الذهبی (الفتح الربانی ۱۴۳:۲۳) وقال الهیثمی رواه الطبرانی وأحمد وأبی یعلی والبزار ورجال أحمد وأبی یعلی ثقات (الزوائد ۲۴۱، ۲۴۲:۷).

[۵۷] رواه أحمد وقال الهیثمی رجاله ثقات (الفتح الربانی ۱۴۳:۲۳)، (الزوائد ۲۴۱:۷)، وابن عساکر (کنز العمال ۵۳۲:۱۳).

[۵۸] البدایة والنهایة ۲۹۳:۷.

[۵۹] الطبری ۲۳:۶، البدایة ۲۷۲:۷، الکامل ۱۵۸:۳، مروج الذهب ۴۲۸:۲.

[۶۰] مروج الذهب ۴۲۵:۲.

[۶۱] البدایة والنهایة ۲۷۰:۷.

عندما اتخذوا المصاحف جدارا

بعد قتل عمار اشتعلت المعركة اشتعالا. وكان عمار لا يأخذ واديا من

أو دية صفين إلا اتبعه من كان هناك من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [۱] وروى عن محمد بن عمارة بن خزيمة بن ثابت قال: ما زال جدى -

يعنى خزيمة - كافا سلاحه يوم الجمل حتى قتل عمار بصفين، فسل سيفه فقاتل حتى قتل. قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: تقتل عمارا الفئة الباغية. فعندما قتل عمار بد أن ضربات الصحابة فيما سمى فى التاريخ ": ليلة الهرير " والهريز: صوت القوس. وصوت الكلب دون نباح. يقول المسعودى: اختلط الناس، وبطل النبل، واستعملت السيوف، وجنهم الليل، وتنادوا بالشعار (أى الكلمة السرية المتفق عليها) وتقصفت الرماح. وتكادم القوم (أى آثروا العص) وكان يعتنق الفارس الفارس ويقعان إلى

[صفحه ۱۰۱]

الأرض عن فرسيهما. وكان جملة من قتل على بن أبى طالب فى يومه وليلته خمسمائة وثلاثة وعشرون رجلا، أكثرهم فى هذا اليوم، وكان على إذا قتل رجل كبر إذا ضرب. ولم يكن يضرب إلا قتل [۲] .

وكان هذا اليوم للأشتر فيه نصيب كبير وروى أنه أنشد:

إن تقتلوا منا أبا++

اليقظان شيخا مسلما

فقد قتلنا منكم++

سبعين رأسا مجرما

أضحوا بصفين وقد++

لاقوا نكالا مؤلما [۳] .

وكان الأشتر يحرض الناس على امتداد أيام صفين ويقول: إن هؤلاء القوم لا يقاتلونكم إلا عن دينكم ليميتوا السنة: ويحيوا البدعة، ويعيدوكم فى ضلالة قد أخرجكم الله عز وجل منها بحسن البصيرة. فطيبوا عباد الله أنفسا بدمائكم دون دينكم، فإن ثوابكم على الله والله عنده جنات النعيم. وإن الفرار من الزحف فيه السلب للعز والغلبة على الفئ وذل المحيا والممات، وعار الدنيا والآخرة [۴] .

وفى ليلة الهرير كان الأشتر يضرب ضرباته بكل قوة حتى اخترق صفوف أهل الشام. وأجرى حولهم عمليات الالتفاف والتطويق. يقول ابن كثير: حمل الأشتر على أهل الشام وتبعه على. فتنقضت غالب صفوفهم، وكادوا ينهزمون، فعند ذلك رفع أهل الشام المصاحف فوق الرماح [۵] .

وخدعة رفع المصاحف أرست فيما بعد قاعدة المتاجرة بالشعار والشراء به ثمنا قليلا، وإذا كان الخوارج قد تاجروا بالدين بعد ذلك، فلا يمكن لباحث أن يهمل أول باب تم عنده المتاجرة بالكتاب على نطاق واسع. فالخوارج دخلوا من باب صفين بصورة من الصور، وكان ابن العاص صاحب فكرة رفع الشعار. ولم تأت الفكرة عشوائيا دون تجهيز وإعداد. فالقوم كانوا يعرفون من يواجهون -

[صفحه ۱۰۲]

والروايات الكثيرة تثبت أنهم كانوا يتجنبون ملاقاة أمير المؤمنين فى المعركة. لهذا جرى الإعداد على قدم وساق لضرب القاعدة بعد أن قتل العديد من الصحابة الأجلاء الذين كانوا يمثلون العمود الفقرى لجيش الإمام. فشق الصف هو المنفذ الوحيد لخروجهم من المعركة والسعى بعد ذلك فى طريق الفتنة للوصول إلى الكرسى. وكان المصحف وسيلتهم الوحيدة فى ذلك. فرفع الكتاب وطلب التحكيم سيؤدى إلى وجود مؤيد ومعارض داخل معسكر الإمام. فالمؤيد سيكون من بين الذين يحكمون عواطفهم فى الأمور ولا يفهمون من الدين إلا القليل، أو من الذين يكاتبونهم سرا. وفى جميع الحالات فإن رفع المصاحف سيكون انتصار للإعلام الأموى أمام العامة الذين شربوا مقولة أن جيش الإمام لا يصلى فكيف بهم إذا أذيع عليهم أن الإمام رد المصحف. لقد كان فقه الرمز يعمل

من أجل إيجاد فترة زمنية. إما أن يهلك جيش الإمام بعضه بعضا فيها. وإما أن يستدرج إلى فخ التحكيم. فإذا رفض الإمام قرارات هيئة التحكيم فهو أمام العامة والغوغاء خارج عن القانون. وإذا قبلها كان الكرسى لمعاوية ويسحب بساط العلم بالتأويل من تحت الإمام. وبسحب هذا البساط ضاع الدين. وابن العاص عندما عرض خطته على معاوية لم يجعل العمود الفقرى فيها النجاة من حصار الأشتر لمعسكر أهل الشام، وإنما كان العمود يقوم على اجتماع تيارهم وتشتيت معسكر الإمام. وروى أنه قال لمعاوية: هل لك فى أمر أعرضه عليك لا يزيدنا إلا اجتماعا ولا يزيدهم إلا فرقة. قال: نعم، فقال: نرفع المصاحف. ثم نقول: ما فيها حكم بيننا وبينكم. فإن أبى بعضهم أن يقبلها. وجدت فيهم من يقول: بل ينبغى أن نقبل. فتكون فرقة تقع بينهم. وإن قالوا: بلى نقبل ما فيها. رفعنا هذا القتال عنا وهذه الحرب إلى أجل أو إلى حين [" ۶] .

وأقر معاوية الخطة. وخرج ابن العاص ليعلن سياسة الرمز، فقال: أيها الناس. من كان معه مصحفا فليرفعه على رمحه. ونادوا: كتاب الله بيننا وبينكم.

[صفحه ۱۰۳]

من لثغور الشام بعد أهل الشام؟ ومن لثغور العراق بعد أهل العراق. ومن لجهاد الروم؟ ومن للترك؟ ومن للكفار؟ [۷] .

يقول المسعودى: ورفع فى عسكر معاوية نحو من خمسمائة مصحف، فلما رأى كثير من أهل العراق ذلك، قالوا: نجيب إلى كتاب الله. وقيل لعلى: قد أعطاك معاوية الحق. ودعاك إلى كتاب الله فاقبل منه وكان أشدهم فى طلب التحكيم الأشعث بن قيس [۸] ، وكان أمير المؤمنين يعلم أن القوم يسيرون فى طريق أخبره به النبى صلى الله عليه وسلم. لقد تم ابتلاؤهم والنصر على الأعتاب. لقد خيروا بين الشعار والشعور بالشعار. فاختاروا الشعار بلا شعور. اختاروا الطريق الذى تسير فيه أكثر من سبعين فرقة وكل فرقة تدعى أنها على الشعار الحق. وهل الشعار إلا حقا محضا وأن الابتلاء لا يكون إلا فى الشعور. كان الإمام يعلم أن القوم قد اختاروا طريق اللا دعوة، واللا دعوة تعنى اللا ممارسة وهذا ينتهى إلى جحود الذين من قبلهم ليزاحموا أصحابها فيها، ويتبعونهم شبرا بشبر وذراعا بذراع، ثم ينتهى بهم المطاف فيكونوا غثاء، رخيصا، تافها، لا قيمة له. فى علم تقرقع فيه أنياب الحيتان. وفى هذا العالم يذوقوا الذل، أى ذل. وأخذ الإمام بالأسباب كما علمه أستاذ البشرية محمد صلى الله عليه وسلم فقال لهم: عباد الله. امضوا على حقكم وصدقكم قتال عدوكم، فإن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبى معيط وحبيب بن مسلمة وابن أبى السرح والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، أنا أعرف بهم منكم. قد صحبتهم أطفالا وصحبتهم رجالا، فكانوا شر أطفال وشر رجال. ويحكم أنهم ما رفعوها ثم لا يرفعونها ولا يعلمون بما فيها. وما رفعوها لكم إلا خدعة ومكيدة. قالوا: ما يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله عز وجل فنأبى أن نقبله. فقال: ويحكم. أنا أول من دعا إلى كتاب الله. وأول من أجاب إليه. وليس يحل لى، ولا يسعنى فى دينى أن أدعى إلى كتاب الله فلا أقبله. إنى أقاتلهم ليدينوا

[صفحه ۱۰۴]

بحكم القرآن، فإنهم قد عصوا الله عز وجل فيما أمرهم ونسوا عهده ونبذوا كتابه [۹] فقالوا: يا على أجب إلى كتاب الله عز وجل إذا دعيت إليه. وهددوه

بالقتل إذا رفض إجابة الدعوة [۱۰] فقال لهم: احفظوا عنى نهى إياكم، واحفظوا مقالتكم لى. أما أنا فإن تطيعونى تقاتلوا، وإن تعصونى فاصنعوا ما بدا لكم [۱۱] .

لقد كان أمير المؤمنين أول حاكم تظلمه رعيته. فالحكام على امتداد التاريخ ليس لهم إلا أن يأمروا وعلى الرعية أن تنفذ. أما الإمام لأن له مهمة محددة لا يجوز له أن يجبر فردا على عمل ما، فهو فقيه وعلى علم بالطريق، وعلى امتداد هذا الطريق يسير بمصباحه. فمن أراد أن يتجنب الحفر على سنة الله ورسوله - فعليه بحامل المصباح. وعلى امتداد هذا الطريق عهد إليه بعهود. ومع كل عهد شروط تنفيذه. وأهم هذه الشروط أن يجتمع الناس حوله ليضرب بهم من صد عن طريقه... فإذا فقد هذا الشرط فعليه أن يقيم الحجة وفقا

لحركة الدعوة وحركة الواقع. وبعد رفع المصاحف ظلمت الرعية قائدها. وأصدرت إليه الأوامر: قالوا له: ابعث إلى الأشتر ليأتينك. وكان الأشتر صبيحة ليلة الهرير أشرف على عسكر معاوية ليدخله [۱۲] وتدخل القوم فى سير الأعمال العسكرية، يشير إلى أن عددهم وقوتهم ولم يكن من السهل تجاهلهم أو تجاهل خطرهم على باقى القوات فضلا على حركة الدعوة. ولقد روى أن الذين اعتزلوا بحروراء فقط كانوا اثنا عشر ألف مقاتل [۱۳] وروى أن الإمام عندما بعث للأشتر أن يأتيه. قال

الأشتر لمبعوث الإمام: ليس هذه الساعة، إنى قد رجوت أن يفتح لى فلا

[صفحه ۱۰۵]

تعجلنى. وعندما سمع القوم هذا ارتفع الهرج وعلت الأصوات، وقالوا للإمام: ابعث إليه فليأتك وإلا والله اعتزلناك. فبعث الإمام: أقبل إلى فإن الفتنة قد وقعت. وجاء الأشتر فقال لهم: يا أهل العراق، يا أهل الذل والوهن، حين علوتم القوم ظهرا، وظنوا أنكم لهم قاهرون. رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها، وقد والله تركوا ما أمر الله عز وجل به فيها وسنة من أنزلت عليه صلى الله عليه وسلم، فلا تجيبوهم امهلونى عدو الفرس، فإنى قد طمعت فى النصر. قالوا: إذا ندخل معك فى خطيئتك، ثم قالوا: لقد قاتلناهم فى الله عز وجل، وندع قتالهم لله سبحانه. إنا لسنا مطيعيك ولا صاحبك فاجتنبنا. فقال: خدعتم والله فانخدعتم. ودعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم، يا أصحاب الجباه السود، كنا نظن صلواتكم زهادة فى الدنيا وشوقا إلى لقاء الله عز وجل، فلا أرى قراركم إلا إلى الدنيا من الموت إلا قبحا، يا أشباه النيب الجلالة. وما أنتم برائين بعدها عزا أبدا، فابعدوا كما بعد القوم الظالمين، فسبوه وسبهم. وقال الناس: قد قبلنا أن نجعل القرآن بيننا وبينهم حكما [۱۴] .

وروى أن الإمام كان ساكتا لا يتكلم، ثم قام فسكت الناس كلهم. فقال: لقد فعلتم فعلة ضعضعت قوة، وأسقطت منه، وأوهنت وأورثت وهنا وذلة، ولما كنتم الأعليين وخاف عدوكم الاجتياح واستحربهم القتل ووجدوا ألم الجراح، رفعوا المصاحف، ودعوكم إلى ما فيها ليفثؤكم عنها ويقطعوا الحرب فيما بينكم وبينهم. ويتربصون ريب المنون خديعة ومكيدة. فأعطيتموهم ما سألوا. وأبيتم إلا أن تدهنوا وتجوزوا. وأيم الله ما أظنكم بعدها توافقون رشدا، ولا تصيبون باب خدم [۱۵] وقال: أيها الناس. إن أمرى لم يزل معكم على ما أحب. إلى أن أخذت منكم الحرب. وقد والله أخذت منكم وتركت. وأخذت من عدوكم فلم تترك. وإنها فيهم أنكى وأنهك. ألا إنى كنت أمس أمير المؤمنين فأصبحت اليوم مأمورا، وكنت ناهيا فأصبحت منهيا. وقد أحببتم البقاء. وليس

[صفحه ۱۰۶]

لى أن أحملكم على ما تكرهون ثم قعد [۱۶] .

وعندئذ بدأ نجم الأشعث بن قيس فى الظهور. قال ابن أبى الحديد: كل فساد كان فى خلافة أمير المؤمنين على، وكل اضطراب حدث فأصله الأشعث [۱۷] جاء الأشعث إلى أمير المؤمنين فقال: ما أرى الناس إلا قد رضوا،

وسرهم أن يجيبوا القوم إلى ما دعوهم إليه من حكم القرآن. فإن شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد. قال: آته إن شئت. فآتاه. فسأله: يا معاوية لأى شئ رفعتم هذه المصاحف؟ قال: لنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به فيها. فابعثوا رجلا منكم ترضونه، ونبعث منا رجلا، ونأخذ عليهما أن يعملا بما فى كتاب الله ولا يعدواه، ثم نتبع ما اتفقنا عليه، فقال الأشعث: هذا هو الحق، وانصرف وأخبر أمير المؤمنين. واجتمع قراء الشام وقراء العراق. وقال أهل الشام: إنا قد رضينا واخترنا عمرو بن العاص. وقال الأشعث والقراء الذين صاروا خوارج فيما بعد: قد رضينا نحن واخترنا أبا موسى الأشعرى. فقال الإمام: فإنى لا أرضى بأبى موسى ولا أرى أن أوليه. فقال الأشعث ومن معه: إنا لا نرضى إلا به. قال الإمام: إنه ليس لى برضا. وقد فارقنى وخذل الناس عنى وهرب منى حتى أمنته بعد أشهر، ولكن هذا ابن عباس أوليه ذلك. قالوا: والله ما نبالى. أكنت أنت أو ابن عباس. ولا نريد إلا رجلا هو منك ومن معاوية سواء، وليس إلى واحد منكما بأدنى من الآخر. فقال أمير المؤمنين: فإنى أجعل الأشتر. فقال الأشعث: وهل سعر الأرض علينا إلا الأشتر. وهل نحن إلا فى حكم الأشتر. قال أمير المؤمنين: وما الحكمة؟ قال: حكمة أن يضرب بعضنا بعضا بالسيف حتى يكون ما أردت وما أراد [۱۸] .

لقد كان الإمام يأخذ بأسباب الحياة الكريمة. فهو يعلم أن أبا موسى سيأتى لا محالة ليشارك فى تحكيم الإمام يرفضه من البداية. وكان الإمام قد قال لأبى

[صفحه ۱۰۷]

موسى قبل موقعة الجمل: اعتزل عملنا يا ابن الحائك مذموما مدحورا. فما هذا أول يومنا منك. وإن لك فينا لهنات وهنيات [۱۹] ، وروى أن عمار بن ياسر قال لأبى موسى: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلعنك ليلة الجبل. فقال أبو موسى: إنه قد استغفر لى. قال عمار: قد شهدت اللعن ولم أشهد الاستغفار [۲۰] ، وعندما هرب أبو موسى من على بن أبى طالب قيل لعمار: قد هاجر أبو موسى، فقال عمار: والله ليخذلن جنده، وليفرن جهده، ولينقضن عهده [۲۱] ثم أخبر عمار عن معركة صفين قبل وقوعها. فقال بعد أن سلط الضوء على أبى موسى ": والله إنى لأرى قوما ليضربنكم ضربا يرتاب له المبطلون، والله لو قاتلوا حتى بلغوا بنا سعفات هجر لعلمت أن صاحبنا على الحق وهم على الباطل [۲۲] .

لقد قال لهم الإمام عندما قالوا: لا نرضى إلا بأبى موسى، قال، ويحكم هو ليس بثقة. قد فارقنى [۲۳] وقال لهم: قد عصيتمونى فى أول هذا الأمر. فلا تعصونى الآن. إنى لا أرى أن أولى أبا موسى الأشعرى. فقال الأشعث ومن معه: لا نرضى إلا بأبى موسى الأشعرى [۲۴] .

وانتهت المواجهة العسكرية بصفين بعد رفع المصاحف، وكان جملة من قتل من الفريقين جميعا سبعين ألفا. من أهل الشام خمسة وأربعون ألفا، ومن أهل العراق خمسة وعشرون ألفا فيهم خمسة وعشرون بدريا. وقيل غير ذلك نظرا لأن فى قتلى الفريقين من غرق ومن قتل فى البر فأكله السباع. فروى أن عدد القتلى مائة ألف وعشرة آلاف من أهل الشام تسعون ألفا.

[صفحه ۱۰۸]

ومن أهل العراق عشرون ألفا [۲۵] وروى أن مدة المقام بصفين كانت مائة يوم

وعشرة أيام. وقال آخرون: كان سبعة أشهر. وقيل: تسعة أشهر. وكان بينهم فى هذه المدة تسعون زحفا [۲۶] .

وعندما جاء أبو موسى ودخل المعسكر، قال الأحنف للقوم: لقد أبيتم إلا أبا موسى فادفئوا ظهره بالرجال. وجاء عمرو بن العاص ومن معه. جلس الطرفان. فكتبوا: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تقاضى عليه على أمير المؤمنين. فقال عمرو: اكتب اسمه واسم أبيه. هو أميركم. فأما أميرنا فلا. قال أمير المؤمنين: الله أكبر سنة بسنة ومثل بمثل. والله إنى لكاتب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية، إذ قالوا لست رسول الله ولا نشهد لك به. ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فكتبه. فقال عمرو: سبحان الله. أتشبهنا بالكفار ونحن مسلمون؟ فقال على: يا ابن النابعة. ومتى لم تكن للكافرين وليا وللمسلمين عدوا؟ فقام عمرو وقال: والله لا يجمع بينى وبينك مجلس بعد اليوم، فقال على: وإنى لأرجو أن يطهر الله عز وجل مجلسى منك ومن أشباهك. وكتب الكتاب [۲۷] .

ولقد تحدثنا فيما سبق أن النبى صلى الله عليه وسلم بعد صلح الحديبية كان قد أنذر قريش بأن لهم فى المستقبل يوما يقاتلهم فيه رجلا- امتحن الله قلبه بالإيمان، وهو خاصف النعل. وظل هذا الأمر فى ذهن دائرة الاستكبار وتوارثوه وكانت حركتهم مرتبطة بما فى دائرة ذهنهم. وروى ابن أبى الحديد عن أبى إسحاق الشيبانى قال: قرأت كتاب الصلح عند سعيد بن أبى بردة فى صحيفة صفراء. عليها خاتمان: خاتم من أسفلها. وخاتم من أعلاها. على خاتم على بن أبى طالب ": محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم " وعلى خاتم معاوية " محمد رسول الله " وقيل لعلى حين أراد أن

[صفحه ۱۰۹]

يكتب الكتاب بينه وبين معاوية وأهل الشام: أتقر أنهم مؤمنون مسلمون! فقال على: ما أقر لمعاوية ولا لأصحابه أنهم مؤمنون ولا مسلمون. ولكن يكتب معاوية ما شاء بما شاء، ويقر بما شاء لنفسه ولأصحابه. ويسمى نفسه بما شاء وأصحابه [۲۸] .

وكان فيما كتب فى الصحيفة. أن يحيى الحكمان ما أحياء القرآن، ويميتا ما أمات القرآن، ولا يتبعان الهوى ولا يداهنان [۲۹] فى شئ

من ذلک. فإن فعلا فلا حکم لهما، والمسلمون فی حکمهما براء [۳۰] وقال أمیر المؤمنین للحکمین:

علی أن تحکما بما فی کتاب الله. وکتاب الله کله لی. فإن لم تحکما بما فی کتاب الله فلا حکومة لکما [۳۱] .

واتفقوا علی موضع التحکیم بین الکوفة والشام. وخرج الأشعث لیقرأ الصحیفة علی الناس. وجری بین الأشعث وبین أناس منهم خطب طویل، وعندئذ قام عروة بن أذیة، وهو أخو بلال الخارجی، فقال: أتحکمون فی دین الله وأمره ونهیه الرجال؟ لا حکم إلا لله. فکان أول من قالها [۳۲] وما أن قال عروة هذا حتی تباغض القوم جمیعا، وأقبل بعضهم یتبرأ من بعض. تبرأ الأخ من أخیه والابن من أبیه، وأمر علی بن أبی طالب بالرحیل. لعلمه باختلاف الکلمة. وتفاوت الرأی. وعدم النظام لأمورهم، وما لحقه من الخلاف منهم. وکثر التحکیم فی جیش أهل العراق، وتضارب القوم بالمقارع ونعال السیوف وتسابوا. ولام کل فریق منهم الآخر فی رأیه. وسار علی نحو الکوفة. ولحق معاویة بدمشق [۳۳] .

[صفحه ۱۱۰]

وروی عن علقمة والأسود أنهم قالا: أتینا أبا أیوب الأنصاری عند منصرفه من صفین. فقلنا له: یا أبا أیوب. إن الله أکرمک بنزول محمد صلی الله علیه وسلم وبمجیئ ناقته تفضلا من الله وإکراما لک. حین أناخت ببابک دون الناس. ثم جئت بسیفک علی عاتقک تضرب به أهل لا إله إلا الله! فقال لهما: یا هذا إن الرائد لا یکذب أهله، وأن رسول الله صلی الله علیه وسلم أمرنا بقتال ثلاثة مع علی: بقتال الناکثین والقاسطین والمارقین. فأما الناکثون فقد قاتلت. وهم أهل الجمل وطلحة والزبیر، وأما القاسطون. فهذا منصرفنا من عندهم - یعنی معاویة وعمرو - وأما المارقون فهم أهل الطرقات وأهل السعیفات وأهل التخیلات وأهل النهروان. والله ما أدری أین هم! ولکن لا بد من قتالهم إن شاء الله. ولقد سمعت رسول الله صلی الله علیه وسلم یقول لعمار: یا عمار تقتلک الفئة الباغیة. وأنت مذ ذاک مع الحق والحق معک. یا عمار بن یاسر، إذا رأیت علیا قد سلک ودیا وسلک الناس غیره، فاسلک مع علی، فإنه لن یدلیک فی ردی ولن یخرج من هدی. یا عمار، من تقلد سیفا أعان به علیا علی عدوه. قلده الله یوم القیامة وشاحین من در. ومن تقلد سیفا أعان به عدو علی علیه، قلده الله یوم القیامة وشاحین من نار. فقال علقمة والأسود لأبی أیوب: یا هذا حسبک! حسبک رحمک الله! حسبک رحمک الله [۳۴] وأنا أقول: حسبک رحمک الله.

[صفحه ۱۱۱]

[۱] رواه أحمد (الفتح الربانی ۱۴۲:۲۳).

[۲] مروج الذهب ۴۳۱:۲.

[۳] مروج الذهب ۴۳۲:۲.

[۴] الطبری ۱۲:۶.

[۵] البدایة والنهایة ۲۷۳:۷.

[۶] الطبری ۲۶:۶، الکامل ۱۶۱:۳، البدایة والنهایة ۲۷۳:۷.

[۷] مروج الذهب ۴۳۲:۲، الطبری ۲۶:۶، ابن أبی الحدید ۴۲۳:۱.

[۸] مروج الذهب ۴۳۲:۲.

[۹] ابن أبی الحدید ۴۲۶:۱. الطبری ۲۷:۶، البدایة والنهایة ۲۹۸:۷، مروج الذهب ۴۳۳:۲، الکامل ۱۶۱:۳.

[۱۰] الطبری ۲۷:۶، البدایة والنهایة ۲۹۸:۷، مروج الذهب ۴۳۳:۲، ابن أبی الحدید ۴۲۶:۱.

[۱۱] الطبری ۲۷:۶، البدایة والنهایة ۲۹۹:۷، ابن أبی الحدید ۴۲۶:۱.

[۱۲] ابن أبی الحدید ۴۲۶:۱، الطبری ۲۷:۶، البدایة ۲۹۹:۷.

[۱۳] الطبری ۳۵:۶.

[۱۴] الطبری ۲۸:۶، الکامل ۱۶۱:۳، ابن أبی الحدید ۴۲۷:۱، البدایة ۳۰۰:۷.

[۱۵] الطبری ۳۱:۶.

[۱۶] ابن أبی الحدید ۴۲۸:۱، مروج الذهب ۴۳۲:۲.

[۱۷] ابن أبی الحدید ۴۶۸:۱.

[۱۸] الطبری ۲۸:۶، ابن أبی الحدید ۴۳۳:۱، الکامل ۱۶۲:۳، مروج الذهب ۴۳۴:۲.

[۱۹] مروج الذهب ۳۹۶:۲.

[۲۰] رواه ابن عساکر (کنز العمال ۶۰۸:۱۳).

[۲۱] رواه الطبرانی وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۲۴۳:۷).

[۲۲] رواه الطبرانی وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۲۴۳:۷).

[۲۳] مروج الذهب ۴۳۴:۲، الطبری ۲۸:۶، ابن أبی الحدید ۴۳۳:۱، الکامل ۱۶۲:۳.

[۲۴] مروج الذهب ۴۳۴:۲، الطبری ۲۸:۶، ابن أبی الحدید ۴۳۳:۱، الکامل ۱۶۲:۳.

[۲۵] مروج الذهب ۴۳۶:۲.

[۲۶] البدایة والنهایة ۲۷۵:۷.

[۲۷] الطبری ۲۹:۶، أبی الحدید ۴۳۶:۱.

[۲۸] ابن أبی الحدید ۴۳۷:۱.

[۲۹] المداهنة:الخداع.

[۳۰] مروج الذهب ۴۳۵:۲، ابن أبی الحدید ۴۳۷:۱، الطبری ۲۹:۶.

[۳۱] ابن عساکر وابن أبی شیبة (کنز العمال ۳۱۹:۱۱)، مروج الذهب ۴۳۵:۲.

[۳۲] مروج الذهب ۴۳۶:۲، ابن أبی الحدید ۴۳۸:۱.

[۳۳] مروج الذهب ۴۳۷:۲.

[۳۴] رواه ابن عساکر عن أبی صادق (کنز العمال ۳۵۲:۱۱) والخطیب البغدادی (البدایة والنهایة ۳۰۷:۷)، وابن جریر عن مخنف باختصار (کنز العمال ۳۵۲:۱۱).

التخاذل و غیاب القمر

قال الإمام عند انصرافه من صفین:

أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالدین المشهور، والعلم المأثور، والکتاب المسطور، والنور الساطع، والضیاء اللامع، والأمر الصادع [۱] ، إزاحة للشبهات، واحتجاجا بالبینات، وتحذیرا بالآیات وتخویفا بالمثلات، والناس فی فتن انجذم [۲] فیها حبل الدین، وتزعزعت سواری [۳] الدفین: واختلف الفجر [۴] ، وتشتت الأمر، وضاق المخرج، وعمی المصدر، فالهدی حامل، والعمی شامل، عصی الرحمن، ونصر الشیطان، وخذل الإیمان، فانهارت [۵] دعائمه، وتنکرت معالمه، ودرست سبله، وعفت شرکه [۶] أطاعوا الشیطان فسلکوا

سالکه، ووردوا مناهله. بهم سارت أعلامه، وقام لواؤه فی فتن داستهم

[صفحه ۱۱۲]

بأخفافها [۷] ووطئتهم بأظلافها [۸] وأقامت علی سنابکها، فهم فیها تائهون

حائرون، جاهلون مفتونون، فی خیر دار [۹] وشر جیران [۱۰] نومهم سهود [۱۱] .

وکحلهم دموع [۱۲] بأرض عالمها ملجم [۱۳] وجاهلها مکرم [۱۴] [۱۵] .

ودخل أمیر المؤمنین إلی الکوفة ولم یدخل معه الذین اختلفوا معه، ونزلوا بحروراء وکان عددهم یومئذ اثنی عشر ألفا، ونادی مناديهم أن أمیر القتال شبث بن ربعی وأمیر الصلاة عبد الله بن الکواء، والأمر شوری والبیعة لله والأمر بالمعروف والنهی عن المنکر [۱۶] .

لقد رفعوا صوتهم فوق صوت أمیر المؤمنین. أمروه بأن یقبل التحکیم، وأن یسحب قوات الأشتر إلی الخلف، وأن یقر أبا موسی. وبعد أن نالوا ما أرادوا اختلفوا فیما بینهم. وهذا لا یستغرب منه لأنه من شیعة الذین یسلکون طریق الشیطان، فالاختلاف والبغی علی هذا الطریق أمر طبیعی ولا ینبغی البحث عن أسبابه.

[۱] الصادع:الظاهر الجلی.

[۲] انجذم:انقطع.

[۳] الساریة:الدعامة.

[۴] النحر:الأصل.

[۵] انهارت:تساقطت.

[۶] الشرک:الطرائق.

[۷] الخفاف:الإبل.

[۸] الأظلاف:للبقر والمعاعز.

[۹] خیر دار:قیل یقصد الکوفة وقیل الشام.

[۱۰] شر جیران:أی أصحاب معاویة.

[۱۱] نوفهم سهود:یعنی أصحاب معاویة. لا ینامون اللیل ویرتبون أمره.

[۱۲] کحلهم دموع:أی نفاقا.

[۱۳] أی المؤمن فی تقیة وخوف.

[۱۴] أی المکذب فی عز ومنعة.

[۱۵] ابن أبی الحدید ۱:۱۲۳.

[۱۶] الطبری ۶:۳۵.

خیمة التحکیم

قبل التحکیم جاء المغیرة بن شعبة إلی معاویة، فقال له معاویة: یا مغیرة

ما تری؟ قال: یا معاویة لو وسعنی أن أنصرک لنصرتک، ولکن علی أن آتیک بأمر

[صفحه ۱۱۳]

الرجلین - أی عمرو وأبو موسی - فرحل حتی دخل علی أبی موسی کالزائر له. فقال: یا أبا موسی. ما تقول فیمن اعتزل هذا الأمر وکره الدماء - وکان المغیرة مقیما بالطائف ولم یشهد الحرب - قال: أولئک خیر الناس، خفت ظهورهم من دمائهم وخمصت بطونهم من أموالهم. ثم ذهب المغیرة إلی عمرو. فقال: یا أبا عبد الله، ما تقول فیمن اعتزل هذا الأمر وکره الدماء، قال: أولئک شرارة الناس لم یعرفوا حقا ولم ینکروا باطلا. فرجع المغیرة إلی معاویة فقال له: قد ذقت الرجلین. أما أبو موسی فخالع صاحبه وجاعلها لرجل لم یشهد هذا الأمر، وهواه فی عبد الله بن عمر، وأما عمرو بن العاص، فهو صاحبک الذی تعرف. وقد ظن الناس أنه یرومها لنفسه. وأنه لا یری

أنك أحق بهذا الأمر منه [۱] .

لم يكن ابن العاص يمثل أى مشكلة لمعاوية، وإنما الذى كان يهم معاوية هو معرفة خامات أبى موسى الأشعرى. وبعد أن تذوق المغيرة الخامات وأخبر بها معاوية، بدأت السياسة الأموية تعمل من أجل الوصول إلى أهدافها. وروى: لما أراد أبو موسى المسير إلى دومة الجندل وهو المكان الذى اتفق ليكون مقرا للتحكيم. قال له ابن عباس: إن عليا لم يرض بك حكما لفضل عندك، والمتقدمون عليك كثير، وإن الناس أبوا غيرك، وإنى لأظن ذلك لشر يراد بهم. وقد ضم داهية العرب معك - يعنى عمرو - إن نسيت فلا تنسى أن عليا بايعه الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان. وليس فيه خصلة تباعده من الخلافة. وليس فى معاوية خصلة تقربه من الخلافة [۲] وقال له: واعلم يا أبا موسى أن

معاوية طليق الإسلام، وأن أباه رأس الأحزاب، وأنه يدعى الخلافة من غير مشورة ولا بيعة، فإن زعم لك أن عمر وعثمان استعملا فلقد صدق، استعمله عمر وهو الوالى عليه. بمنزلة الطبيب يحميه ما يشتهى ويوجره ما يكره. ثم استعمله عثمان برأى عمر، وما أكثر من استعملا ممن لم يدع الخلافة. واعلم أن لعمرو مع كل شئ يسرك خبيثا يسؤوك. ومهما نسيت فلا تنسى أن عليا بايعه.

[صفحه ۱۱۴]

القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان. وأنه لم يقاتل إلا العاصين والناكثين [۳] .

وانطلق أبو موسى إلى خيمة التحكيم. وروى أن معاوية وصى عمرا عندما فارقه وهو يريد الاجتماع بأبى موسى فقال له: يا أبا عبد الله. إن أهل العراق قد أكرهوا عليا على أبى موسى. وأنا وأهل الشام راضون بك. وقد ضم إليك رجل - أى أبو موسى - طويل اللسان قصير الرأى، فأخر الخلا. وطبق المفصل. ولا تلقه برأيك كله [۴] .

وروى أن عمرا أعطى لأبى موسى صدر المجلس. وكان لا يتكلم قبله. وأعطاه التقدم فى الصلاة وفى الطعام. لا يأكل حتى يأكل، وإذا خاطبه فإنما يخاطبه بأجمل الأسماء ويقول له: يا صاحب رسول الله، حتى أطمئن إليه، فظن أنه لا يغشه [۵] ودعا عمرو بصحيفة وكاتب، ثم قال لكاتبه: اكتب فإنك شاهد

علينا. ولا تكتب شيئا يأمر به أحدنا حتى تستأمر الآخر فيه، فإذا أمرك فاكتب، وإذا نهاك فانته، حتى يجتمع رأينا. ثم قال عمرو: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تقاضى عليه فلان وفلان، فكتب وبدأ بعمرو، فقال له عمرو: لا أم لك أتقدمنى قبله كأنك جاهل بحقه؟ فكتب فبدأ باسم عبد الله بن قيس. وكتب: تقاضيا على أنهما يشهدان أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، ثم قال عمرو: ونشهد أن أبا بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عمل بكتاب الله وسنة رسوله حتى قبضه الله إليه، وقد أدى الحق الذى عليه، قال أبو موسى موافقا: اكتب. ثم قال فى عمر بن الخطاب مثل ذلك. فقال أبو موسى اكتب. ثم قال عمرو: واكتب: وأن عثمان ولى هذا الأمر بعد عمر على إجماع من المسلمين وشورى من أصحاب رسوله صلى الله عليه وسلم. ورضى منهم وأنه كان مؤمنا. فقال أبو موسى

[صفحه ۱۱۵]

الأشعرى: ليس هذا مما قعدنا له. قال عمرو: والله لا بد من أن يكون مؤمنا أو كافرا. فقال أبو موسى: كان مؤمنا. قال عمرو: فمره يكتب، قال أبو موسى: اكتب. قال عمرو: فظالما قتل عثمان أو مظلوما؟ قال أبو موسى: بل قتل مظلوما، قال عمرو: أفليس قد جعل الله لولى المظلوم سلطانا يطب بدمه؟ قال أبو موسى: نعم، قال عمرو: فهل تعلم لعثمان وليا أولى من معاوية؟ قال: أبو موسى: لا، قال عمرو: أفليس لمعاوية أن يطلب قاتله حيثما كان حتى يقتله أو يعجز عنه؟ قال أبو موسى: بلى، قال عمرو للكاتب: اكتب وأمره أبو موسى فكتب، قال عمرو: فإنا نقيم البينة أن عليا قتل عثمان. فقال أبو موسى: هذا أمر قد حدث فى الإسلام. وإنما اجتمعنا لغيره. فهلم إلى أمر يصلح الله به أمر أمة محمد، قال عمرو: وما هو؟ قال أبو موسى: قد علمنا أن أهل العراق لا يحبون معاوية أبدا، وأن أهل الشام لا يحبون عليا أبدا. فهلم نخلعهما جميعا ونستخلف عبد الله بن عمر. وكان عبد الله بن عمر على بنت أبى موسى [۶] .

وروى عن أبى جناب أن أبا موسى قال غير مرة: والله إن استطعت لأحيين اسم عمر بن الخطاب. فقال له عمرو: إن كنت إنما تريد أن تبايع ابن عمر لدينه. فما يمنعك من ابنى عبد الله وأنت تعرف فضله وصلاحه؟ قال: إن ابنك رجل صدق. ولكنك قد غمسته فى هذا الفتن [۷] .

وروى الطبرى: أراد أبو موسى عبد الله بن عمر فأبى عليه عمرو، وأراد عمرو ابنه فأبى أبو موسى، فقال له عمرو: خبرنى ما رأيك؟ قال: رأيى أن نخلع هذين الرجلين ونجعل الأمر شورى بين المسلمين، فيختار المسلمون لأنفسهم من أحبوا، فقال له عمرو: فإن الرأى ما رأيت. فأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون، فقال عمرو: يا أبا موسى أعلمهم بأن رأينا قد اجتمع واتفق. فتكلم أبو موسى فقال: إن رأيى ورأى عمرو قد اتفق على أن نرجو أن يصلح الله

[صفحه ۱۱۶]

عز وجل به أمر هذه الأمة فقال عمرو: صدق وبر أبو موسى. تقدم فتكلم. فتقدم أبو موسى ليتكلم فقال له ابن عباس: ويحك والله إنى لأظنه قد خدعك. إن كنتما قد اتفقتما على أمر فقدمه فليتكلم بذلك الأمر قبلك. ثم تكلم أنت بعده فإن عمرا رجل غادر ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه. فإذا قمت فى الناس خالفك. وكان أبو موسى مغفلا فقال: إنا قد اتفقنا. فتقدم أبو موسى ثم قال: أيها الناس إنا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة. فلو نر أصلح لأمرها. ولا ألم لشعثها من أمر قد أجمع رأيى ورأى عمرو عليه وهو أن تخلع عليا ومعاوية وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم وإنى قد خلعت عليا ومعاوية... وأقبل عمرو بن العاص فقام مقامه وقال: إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبى معاوية. فإنه ولى عثمان بن عفان، والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه [۸] – وفى رواية – وأن أبا موسى قد كتب فى الصحيفة أن عثمان قتل مظلوما وأن لوليه سلطانا أن يطلب بدمه حيث كان. وقد صحب معاوية رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه. وصحب أبوه النبى صلى الله عليه وسلم. وأن معاوية هو الخليفة علينا. وله طاعتنا وبيعتنا على الطلب بدم عثمان. فقال أبو موسى: كذب عمرو. لم نستخلف معاوية. ولكنا خلعنا معاوية وعليا معا، وقال عمرو: بل كذب عبد الله بن قيس، قد خلع عليا ولم أخلع معاوية [۹] فقال أبو موسى: ما لك لا وفقك الله غدرت وفجرت إنما مثلك

(كمثل الحمار يحمل أسفارا) [۱۰] ، فقال له عمرو: بل إياك يلعن الله. كذبت وغدرت. إنما مثلك مثل (الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) [۱۱] ، ثم

[صفحه ۱۱۷]

وكز أبا موسى فألقاه لجنبه [۱۲] وانطلق عمرو إلى معاوية وسلم عليه بالخلافة [۱۳] .

وهكذا انتهى التحكيم بين المسلمين. لقد اشترط أمير المؤمنين على بن أبى طالب على الحكمين أن يحكما بكتاب الله ولا يتبعان الهوى ولا يداهنان. فلم يأخذا من كتاب الله إلا مثلين ضربهما الله. مثل الحمار ومثل الكلب، وضرب كل واحد منهما صاحبه بمثل. ومن أجمل ما قرأت فى هذا المقام. قول الأستاذ العقاد وهو يعلق على التحكيم قال: كلب وحمار فيما حكم به على نفسيهما غاضبين. وهما يقضيان على العالم بأسره ليرضى بما قضياه. وانتهت المأساة بهذه المهزلة. أو انتهت المهزلة بهذه المأساة [۱۴] .

ومن أطرف الآراء التى قرأتها عن التحكيم ورأى ابن كثير، فلقد قال: فقال عمرو: إن هذا قد قال ما سمعتم وأنه قد خلع صاحبه، وإنى قد خلعته كما خلعه وأثبت صاحبى معاوية، فإنه ولى عثمان وهو أحق الناس بمقامه. ثم يعلق ابن كثير على ما فعله ابن العاص فيقول: وكأن عمرو رأى أن ترك الناس بلا إمام والحالة هذه يؤدى إلى مفسدة طويلة عريضة أربى مما الناس فيه من الاختلاف. فأقر معاوية لما رأى ذلك من المصلحة. والاجتهاد يخطئ ويصيب [۱۵] ، فيا ترى هل فى هذا إقرار لفقه الكيد والمكر تحت عنوان: إن ابن العاص خاف على الأمة أن تنام ليلة واحدة بدون إمام؟ لأن من مات فى هذه الليلة فستكون ميتته ميتة جاهلية. فلهذا أسرع بتنصيب إمام الزمان معاوية. وهو من هو وأسرته لها فضل عظيم على الإسلام والمسلمين. وإذا كان ابن كثير يرى أن ابن العاص لو لم يفعل

ذلک لوصل الأمر إلی مفسدهٔ طویلهٔ. فابن کثیر کواحد من کتاب التاریخ یعلم قبل غیره، أن الاختلاف والافتراق علی امتداد التاریخ بعد صفین یعود أصله

[صفحه ۱۱۸]

إلی ما فعله عمرو بن العاص یوم التحکیم. ویعلم قبل غیره أن هذا التحکیم الذی رضیه من عمرو بن العاص لم یقبله أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب. الذی یعده ابن کثیر من الخلفاء الراشدین. ولا ندری کیف لا یقبل خلیفهٔ راشد التحکیم ثم تقبله أمه ملتمسهٔ العذر لابن العاص، علی اعتبار أنه متأول مجتهد له أجر علی اجتهاده!! أی أجر والله ذم الاختلاف وابن العاص له عمود کبیر فی دائرهٔ الاختلاف. ومن أنصف ما قرأت فی هذا المقام. ما ذکره الدمیری فی حیاهٔ الحیوان. روی أن معاویهٔ عندما صار خلیفهٔ قال لأبی الأسود الدؤلی: ما کنت تصنع لو جعلک أبو تراب حکما؟ فقال: کنت أجمع ألف رجل من المهاجرین وأولادهم، وألفا من الأنصار وأولادهم. ثم أقول: یا معشر الحاضرین، أیما أحق بالخلافهٔ رجل من المهاجرین أم رجل من الطلقاء؟ فلما سمع منه معاویهٔ لعنه وطرده من مجلسه. صحیح أن هذا الرأی أغضب الحاکم. لکنه فیه إنصاف، وإدخال المهاجرین والأنصار طرفا فی القضیهٔ فیه روح الشوری وبعد النظر، أما أن تترک الساحهٔ للثعالب ویلتمس لهم الأعذار فیما بعد. فهذا - فی رأینا - لا یجانبه الصواب. وقبل أن نلقی الضوء علی أحداث ما بعد التحکیم، علینا أن ننظر فی الأحداث منذ أن رفعت المصاحف لنری کیف کانت حرکهٔ أمیر المؤمنین. ولقد ذکرنا أن الإمام کان یعلم أنه مقتول وأن معاویهٔ سیمتلک ما تحت قدمه من تراب. وعلی الرغم من هذا فإن الإمام ومن معه کانوا یأخذون بأسباب الحیاهٔ الکریمهٔ، وکانوا یواجهون الانحراف الذی أخبر به النبی صلی الله علیه وآله وسلم، من أجل أن یتنفس المستقبل الحریهٔ الحقیقیهٔ وهو یخطو فی اتجاه أهدافه. وحرکهٔ أمیر المؤمنین فی مواجههٔ هذه الأحداث. کانت حرکهٔ الحجهٔ علی جیل الصحابهٔ الأوائل. لأن الشذوذ إذا تسرب من أرضیهٔ الصحابهٔ إلی المستقبل فلن یکون فی هذه الحالهٔ شذوذا، وإنما سیکتسب الشذوذ رداء القداسهٔ وعلی هذا لا یمکن نقده. ثم تعبر الفتن علی هذه القواعد فی هدوء وسکینهٔ

[صفحه ۱۱۹]

وعلیها علامات التزیین والإغواء. لتدخل إلی عالم الاحتناک والاستسلام. وحرکهٔ الإمام بعد عملیهٔ رفع المصاحف کانت تدور حول الرفض. ولکن القوم هددوه إذ لم یقبل التحکیم فسیترتب علی ذلک أمور. ثم اختار القوم أبو موسی الأشعری، ورفض الإمام هذا الاختیار. ولکنهم أجاروا علیه. هذا کان الإمام حجهٔ علی معسکره. وبدخول عمرو بن العاص وکتابهٔ صحیفهٔ الاتفاق بین أهل الشام وأهل العراق کان الإمام حجهٔ علی المعسکرین. وبصدور قرارات التحکیم کان الإمام حجهٔ علی الأمهٔ. وحجج الإمام علی الجمیع تستند علی حقیقهٔ واحدهٔ هی أصل الحقائق کلها " إحیاء ما أحیا القرآن وإماتهٔ ما أمات القرآن، " فعندما خرج للقتال بعد بیعته تحرک علی محور هذه الحقیقهٔ. وعندما رفع أهل الشام المصاحف رفض خدعتهم لأنها تستهدف هذه الحقیقهٔ، ووصف رؤوسهم بأنهم لیسوا بأصحاب دین ولا قرآن، وعندما جاء عمرو وأبو موسی للاتفاق علی التحکیم قال لهما ": فإن لم تحکما بما فی کتاب الله فلا حکومهٔ لکما. " لقد کان یأخذ الجمیع إلی ساحهٔ القرآن ویضع فی أعناقهم أعظم حجهٔ منذ ذرأ الله ذریهٔ آدم. وهذا فی رأینا أعظم انتصار لإمام المتقین. قد یکون خصومه قد بسطوا أیدیهم علی التراب. ولکن وبالتأکید لن یروا لهذا التراب أی فائدهٔ. یوم یقف التابع والمتبوع أمام عظمهٔ الله جل وعلا. وبعد التحکیم الذی کان الإمام یعلم نتیجته، وذلک وفقا لإخبار النبی صلی الله علیه وسلم. بدأ الإمام یحث الناس علی القتال. لم یحثهم علی قتال الحکمین، وإنما علی قتال البغاهٔ، فالحکمین سقط حکمهما عند الإمام بمجرد إعلانه لأنه اشترط. إذا لم یحکما بکتاب الله فلا حکومهٔ. لقد حث الجمیع علی قتال القاسطین بعد أن تمت مهمته فی إقامهٔ حجته علی أفراد بعینهم وأقوام بعینهم. کان له رغبهٔ فی أن یلتقی بهم أمام الله وحده. وعندما ساق الله إلیه الأحداث والتقی بهم، وضعهم فی دائرهٔ القرآن وحده هو الحکم فیها. ثم جلس بعد ذلک ینادی معسکره کی یأخذ بالأسباب کما أخذ بها عمار وابن صوحان وابن بدیل وابن عامر القرنی وغیرهم. وکان یحذر إلا- أن أخوف الفتن علیکم فتنهٔ بنی أمیهٔ. کان یرید منهم أن یطفئوا بریقها، ولکن تقاعس

منهم من

[صفحه ۱۲۰]

تقاعس، وفی جمیع الحالات فالحجهٔ علی رأس هذا وذاک.

[۱] ابن أبی الحدید ۲:۴۴۹.

[۲] مروج الذهب ۲:۴۳۹.

[۳] ابن أبی الحدید ۲:۴۴۵.

[۴] مروج الذهب ۲:۴۳۹، ابن أبی الحدید ۱:۴۴۴.

[۵] الکامل ۳:۱۶۸، وابن أبی الحدید ۳:۴۵۱، الطبری ۶:۳۹.

[۶] مروج الذهب ۲:۴۴۰.

[۷] الطبری ۶:۳۸، ابن أبی الحدید ۱:۴۵۰، البدایهٔ والنهایهٔ ۷:۲۸۳، مروج الذهب ۲:۴۴۱.

[۸] الطبری ۶:۴۰، مروج الذهب ۲:۴۴۲، الکامل ۳:۱۶۸، البدایهٔ ۷:۲۴۸، ابن أبی الحدید ۱:۴۵۱.

[۹] مروج الذهب ۲:۴۴۲.

[۱۰] سورهٔ الجمعهٔ: الآیهٔ ۵.

[۱۱] سورهٔ الأعراف: الآیهٔ ۱۷۶.

[۱۲] الطبری ۶:۴۰، مروج الذهب ۲:۴۴۳، الکامل ۳:۱۶۸، البدایهٔ ۷:۲۴۸، ابن أبی الحدید ۱:۴۵۱.

[۱۳] الطبری ۶:۴۰.

[۱۴] عبقریهٔ الإمام:العقاد ص ۸۵.

[۱۵] البدایهٔ ۷:۲۸۴.

قتال المارقین

اشاره

روی أنه لما بلغ علیا ما کان من أمر أبی موسی وعمرو قال: إنی کنت

تقدمت إلیکم فی هذا الحکومهٔ ونهیتکم عنها، فأبیتم إلا عصیانی، فکیف رأیتم عاقبهٔ أمرکم إذ أبیتم علی؟ والله إنی لأعرف من حملکم علی خلافی، والترک لأمری، ولو أشاء أخذه لفعلت، ولکن الله من ورائه [۱] ، وکنت فیما أمرت به کما قال أخو بنی جشم [۲] .

أمرتهم أمری بمتعرج اللوی [۳] .

فلم یستبینوا الرشد إلا ضحی الغد

من دعا إلی هذه الحکومهٔ فاقتلوه قتله الله، ولو کان تحت عمامتی هذه. إلا أن هذین الرجلین الخاطئین اللذین اخترتموهما حکمین قد ترکا حکم الله، وحکما بهوی أنفسهما بغیر حجهٔ ولا حق معروف، فأماتا ما أحیا القرآن وأحیا ما أماته، واختلف فی حکمهما کلامهما، ولم یرشدهما الله ولم یوفقهما، فبرئ الله منهما ورسوله وصالح المؤمنین. فتأهبوا للجهاد، واستعدوا للمسیر، وأصبحوا فی عساکرکم إن شاء الله تعالی [۴] .

ثم کتب أمیر المؤمنین إلی الخوارج الذین اعتزلوه: من عبد الله علی أمیر المؤمنین إلی زید بن حصین وعبد الله بن وهب ومن معهما

من الناس، أما بعد: فإن هذين الرجلين اللذين ارتغبنا حكمهما قد خالفا كتاب الله واتبعا أهواءهما بغير هدى من الله، فلم يعملا بالسنة ولم ينفذا للقرآن حكما، فبرئ الله ورسوله منهما والمؤمنون، فإذا بلغكم كتابى هذا، فاقبلوا فإنا سائرون إلى عدونا

[صفحه ۱۲۱]

وعدوكم، ونحن على الأمر الأول الذى كنا عليه والسلام [۵] .

فكتبوا إليه: أما بعد فإنك لم تغضب لربك، إنما غضبت لنفسك، فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك، وإلا فقد نابذناك على سواء، إن الله لا يحب الخائنين [۶] ، وهكذا خاطب أتباع الشيطان أمير المؤمنين. لقد رموا إمام المتقين [۷] بالكفر. وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على أنهم لا يعلمون من الإسلام إلا اسمه، وتحت هذا الاسم ساروا وراء أمير المؤمنين، ليأكلوا باسم الشعار، وعندما رفع أهل الشام المصاحف وجدوا أنفسهم فى الشعار وليس فى الشعور، وطالبوا الإمام بوقف القتال. وعندما انتهى القتال بطلب التحكيم راح الذين يقرؤون القرآن ولا- يجاوز تراقيهم يوزعون الأخطاء. وها هم يرمون أمير المؤمنين بالكفر، وعندما نقول بأنهم أتباع الشيطان فإن هذا القول حق، لأن أمير عسكرهم كان عبد الله بن وهب الراسبى، وهو المعروف لهم اسما ونسبا، أما الأستاذ الذى يغذيهم بالعلوم فهو شيطان الردهة. وقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم فى حياته بقتله عندما شاهده أبو بكر، وقد ذهب كل من أبى بكر وعمر ليقتلاه ولكن خشوعه غرهما فلم يقتلاه، فأمر النبى صلى الله عليه وآله عليا أن يقتله وعندما ذهب على لم يجد هذا الشيطان. وأخبر النبى صلى الله عليه وآله عليا بأنه سيقتله عند قتال المارقين. ولقد تحدثنا عن ذو الثدية وأمر النبى بقتله من قبل. وأمير المؤمنين حاول بكل جهده أن يفصل الاتباع عن سيدهم، فكاتبهم وبعث إليهم بعبد الله بن عباس ثم ذهب إليهم بنفسه كى يعودوا إلى الحق، ولكنهم أبوا إلا- الركون لما تلقيه الشياطين. وبعد أن يأس منهم تركهم، وكتب إلى أمراء الأنصار بالاستعداد لقتال أهل الشام. ومما جاء فى كتابه إليهم: أما بعد، فإن من ترك الجهاد فى الله وأدهن فى أمره، كان على شفا هلكة إلا أن

[صفحه ۱۲۲]

يتداركه الله بنعمة، فاتقوا الله وقاتلوا من حاد الله وحاول أن يطفئ نور الله. قاتلوا الخاطئين الضالين القاسطين المجرمين، الذين ليسوا بقراء للقرآن، ولا- فقهاء فى الدين، ولا- علماء فى التأويل، ولا- لهذا الأمر بأهل فى سابقة الإسلام، والله لو ولوا عليكم لعملوا فيكم بأعمال كسرى وهرقل، تيسروا وتهيئوا للمسير إلى عدوكم [۸] .

وما أن بدأ الحشد لمواجهة أهل الشام، حتى بدأت قوات الخوارج تتحرك فى الداخل وتثير المتاعب فى العديد من المناطق. وكأن بينهم وبين أهل الشام عقد غير منظور يقضى بتشتيت قوات أمير المؤمنين. وهناك أدلة على ذلك تستشف من سير الحوادث، ونتيجة للعمليات التخريبية للخوارج قال الناس فى معسكر أمير المؤمنين: لو سار بنا أمير المؤمنين إلى هذه الحرورية فبدأنا بهم ثم نسير بعد ذلك إلى الشام. وعندما علم أمير المؤمنين بما يقوله الناس خطب وحرضهم على الجهاد وقال: سيروا إلى قتلة المهاجرين والأنصار قدما، فإنهم سعوا فى إطفاء نور الله، وحرضوا على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه. ألا- إن رسول الله أمرنى بقتال القاسطين، وهم هؤلاء الذين سرنا إليهم، والناكثين وهم هؤلاء الذين فرغنا منهم، والمارقين ولم نلقهم بعد. فسيروا إلى القاسطين، فهم أهم علينا من الخوارج. سيروا إلى قوم يقاتلونكم كيما يكونوا جبارين يتخذهم الناس أربابا، ويتخذون عباد الله خولا ومالهم دولا [۹] . وفى الوقت الذى يحرض فيه أمير المؤمنين أتباعه على القتال، كان الخوارج قد اجتمعوا فى أربعة آلاف وبايعوا عبد الله بن وهب الراسبى، وتحركوا حتى نزلوا المدائن، وجاؤوا بعبد الله بن خباب صاحب رسول الله صلى الله عليه وعامل على عليها، وضربوا عنقه وبقروا بطن امرأته وكانت حاملا. وقتلوا

[صفحه ۱۲۳]

غيرها من النساء [۱۰] ، وعندما علم أمير المؤمنين بأخبار هذه المجزرة، بعث إليهم بالحارث بن مرة العبدى ليتحقق من صحة هذه

الأخبار. وما أن وصل الحارث إليهم حتى قتلوه، وأتى الخبر أمير المؤمنين والناس، فقام إليه الناس وقالوا: يا أمير المؤمنين. علام تدع هؤلاء وراءنا يخلفوننا فى أموالنا وعيالنا. سر بنا إلى القوم فإذا فرغنا مما بيننا وبينهم سرنا إلى عدونا من أهل الشام [۱۱].

ونادى مناد أمير المؤمنين بالذهاب إلى قتال الخوارج. ويبدو أن هناك إذاعة أخذت على عاتقها زعزعت النفوس من قتال الخوارج، على اعتبار أنهم قراء ويصلون ويصومون. وهذه الإذاعة وصلت حتى المدينة المنورة فعن أبى سعيد الرقاشى قال: دخلت على عائشة فقالت: ما بال أبى الحسن يقتل أصحابه القراء [۱۲]، وعن أبى كثير قال: كنت مع سيدى على بن أبى طالب حتى قتل أهل النهروان. فكأن الناس وجدوا فى أنفسهم من قتلهم [۱۳].

فهذا وغيره يدل على أن هناك إذاعة كانت تخذل الناس عن قتال الخوارج. وبعد القتال وعندما أعلنت إذاعة أمير المؤمنين أن عليا قتل ذو الثدية أو شيطان الردهة. بدأت أم المؤمنين عائشة تحدث بأحاديث النبى صلى الله عليه وآله فيما يختص بفضل العصابة التى تقتل شيطان الردهة. كما بدأ الذين وجدوا فى أنفسهم من قتلهم يستبشروا ويذهب عنهم ما كانوا يجدون. وروى أن أمير المؤمنين على عندما تحرك بقواته فى اتجاه الخوارج كان يسير بجانبه جندب الأزدى فقال أمير المؤمنين: يا جندب. أترى تلك الرابية؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، فقال: فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرنى أنهم يقتلون عندها [۱۴]، وكان طليق بن على اليمامى يقول: قال النبى

[صفحه ۱۲۴]

صلى الله عليه وسلم: يوشك أن يجئ قوم يقرؤن القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، طوبى لمن قتلهم وطوبى لمن قتلوه، أما إنهم سيخرجون بأرض قومك يا يمامى يقاتلون بين الأنهار، قال قلت: بأبى أنت وأمى ما بها أنهار قال: إنها ستكون [۱۵].

وهكذا أخبر النبى صلى الله عليه وآله بهذه الأنماط البشرية. أخبر بمجيئهم وقتالهم بين الأنهار فى وقت لم يكن هناك وجود للأنهار، ثم دل على بن أبى طالب على رابية فى هذه الأرض وأخبره بأنهم عندها يقتلون. إنه الإخبار بالغيب عن الله، الإخبار بخطوات الشيطان قبل أن تظهر آثارها على الأرض. إن الإخبار بالغيب حصار للشيطان وانتصار للإنسان، ولكن أكثر الناس لا يعقلون. وروى أن أمير المؤمنين عندما أتى أهل النهروان وقف عليهم فقال: أيتها العصابة التى أخرجها عداوة المراء واللجاجة، وصدها عن الحق والهوى، وطمح بها النزق، وأصبحت فى اللبس والخطب العظيم. إنى نذير لكم أن تصبحوا تلفيكم الأمة غدا صرعى بأثناء هذا النهر، وبأهضام هذا الغائط، بغير بنية من ربكم ولا برهان بين. ألم تعلموا أنى نهيتكم عن الحكومة، وأخبرتكم أن طلب القوم إياها منكم دهن ومكيدة لكم، ونبأتكم أن القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، وإنى أعرف بهم منكم، عرفتهم أطفالا ورجالا، فهم أهل المكر والغدر، وإنكم إن فارقتم رأيى جانبتم الحزم فعصيتمونى حتى إذا أقررت بأن حكمت، فلما فعلت شرطت واستوثقت فأخذت على الحكمين إن يحييا ما أحيا القرآن وأن يميتا ما أمات القرآن، فاختلفا وخالفا حكم الكتاب والسنة. فنبذنا أمرهما ونحن على أمرنا الأول. فما الذى بكم ومن أين أتيتم؟ قالوا: إننا حكمنا فلما حكمنا أثمنا وكنا بذلك كافرين، وقد تبنا فإن تبت كما تبنا فنحن معك. وإن أبيت فاعتزلنا فإنا منابذوك على سواء إن الله لا يحب الخائنين. فقال أمير المؤمنين: أصابكم حاصب ولا بقى منكم وابر. أبعد إيمانى برسول الله صلى الله عليه وسلم وهجرتى معه وجهادى فى سبيل الله. أشهد

[صفحه ۱۲۵]

على نفسى بالكفر. لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين. ثم انصرف عنهم [۱۶].

واصطف الفريقان، ورفع أبو أيوب الأنصارى راية الأمان ونادى: من جاء هذه الراية منكم ممن لم يقتل ولم يستعرض فهو آمن. ومن انصرف منكم إلى الكوفة أو إلى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن. وعندما سمعوا النداء انصرف بعضهم إلى الكوفة والبعض الآخر إلى الدسكرة وخرج منهم إلى على نحو من مائة [۱۷] وأمر على بأن يكفوا عنهم حتى يبدؤهم [۱۸]، ورمى الخوارج

بالسهم الأول ونادوا الرواح الرواح إلى الجنهٔ وشدوا على الناس والخيل [۱۹] .

وبدأ الخوارج يتساقطون حول الرابيهٔ التى أخبر النبى صلى الله عليه وآله بأنهم يقتلون عندها، وقتل قادتهم وعلى رأسهم عبد الله بن وهب الراسبى [۲۰] ، وفى نهايهٔ المعركهٔ خرج على بن أبى طالب يطلب من أصحابه أن يبحثوا له عن ذى الثديهٔ بين القتلى ووصفه لهم. فقال بعضهم: ما نجده. فقال أمير المؤمنين: والله ما كذبت ولا كذبت اذهبوا فابحثوا عنه، فوجدوه على الوصف الذى وصفه على [۲۱] ، فى حفرهٔ على شاطئ النهر فى أربعين أو خمسين قتيلا، فلما استخرج نظر إلى عضده فإذا لحم مجتمع على منكبه كثدى المرأهٔ. له حلمهٔ عليها شعيرات سود، فإذا مدت امتدت حتى تحاذى طول يده الأخرى، ثم تترك فتعود إلى منكبه كثدى المرأهٔ. فلما استخرج قال على: الله أكبر والله ما كذبت ولا كذبت، أما والله لولا أن تنكلوا عن العمل. لأخبرتكم بما قضى الله على لسان نبيه صلى الله عليه وآله لمن قاتلهم مستبصرا فى قتالهم. عارفا للحق الذى نحن

[صفحه ۱۲۶]

عليه. ثم مر أمير المؤمنين على خوارج وهم صرعى وقال: بؤس لكم، لقد ضركم من غركم!! فقال الناس: يا أمير المؤمنين من غرهم؟ قال: الشيطان وأنفس بالسوء إمارهٔ غرتهم بالأمانى وزينت لهم المعاصى. ونبأتهم أنهم ظاهرون [۲۲] ثم وقف أمير المؤمنين على ذى الثديهٔ وسأل الناس: من أبوه؟ فجعل الناس يقولون بعد أن اختاروا فى اسم أبيه ولم يعرفه أحد منهم: هذا ملك! هذا ملك، فقال على: ابن من هو؟ فلم يجيبوه، فقال: أما إن خليلى صلى الله عليه وآله أخبرنى بثلاثهٔ إخوهٔ من الجن هذا أكبرهم، والثانى له جمع كثير، والثالث فيه ضعف [۲۳] وفى روايهٔ - قال على: أيكم يعرف هذا، فقال

رجل من القوم هذا حرقوص. أمه ههنا. فأرسل إلى أمه وقال لها: ممن هذا؟ قالت: ما أدرى إنى كنت فى الجاهليهٔ أرعى غنما لى بالربذهٔ، فغشينى شئ كهيئهٔ الظلمهٔ فحملت سنهٔ فولدت هذا [۲۴] .

وعندما طار الخبر إلى الآفاق، قال سعد بن أبى وقاص: قتل على بن أبى طالب شيطان الرهٔ [۲۵] وعن أبى سعيد الرقاشى قال: دخلت على عائشهٔ

فقالت: ما بال أبى الحسن يقتل أصحابه القراء. قال قلت: يا أم المؤمنين إنا وجدنا فى القتلى ذا الثديهٔ. فشهقت أو تنفست ثم قالت: كاتم الشهادهٔ مع شاهد الزور. سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: يقتل هذه العصابهٔ خير أمتى [۲۶] - وفى روايهٔ - هم شرار أمتى يقتلهم خيار أمتى [۲۷] - وفى روايهٔ - هم شر الخلق والخليقهٔ يقتلهم خير الخلق والخليقهٔ [۲۸] .

من هذا كله رأينا أن اتباع الشعار الذى لا شعور فيه، الذين يأكلون الدين

[صفحه ۱۲۷]

بالدين، ويقرؤون القرآن وتقف تلاوتهم عند أنيابهم ولا تعلم قلوبهم عنها شيئا. فهؤلاء اصطفوا وراء شيطان من شياطين الجن. وأنفس أمارهٔ بالسوء تمنطق أصحابها بجلود آدميهٔ. ولقد روى الإمام مسلم: إن الشيطان ليتمثل فى صورهٔ الرجل فيأتى القوم فيحدثهم بالحديث من الكذب فيتفرقون، فيقول الرجل منهم: سمعت رجلا أعرف وجهه ولا أدرى ما اسمه يحدث [۲۹] وروى ابن عساكر:

سيكون بعدى أئمهٔ لا يهتدون بهديى ولا يستنون بسنتى، وسيقوم رجال قلوبهم قلوب شياطين فى جثمان إنس [" ۳۰] .

إن أتباع اللا شعور واللا دعوهٔ عبدوا كل شئ حتى ذواتهم. فاهتموا بصورهم واشتغلوا بها ولم يفقهوا قول النبى صلى الله عليه وآله": إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم [" ۳۱] ولقد استهدف

الشيطان قلوبهم حتى أنهم لم يجدوا حرجا فى تكفير أمير المؤمنين الذى هو من النبى بمنزلهٔ هارون من موسى إلى النبوهٔ، ولم يترك الشيطان لهم إلا ما على جلودهم وهى المساحهٔ التى لا ينظر الله إليها. وهذا الصنف من الناس لم يستأصل فى موقعهٔ النهروان، وإنما توجد لهم بصمات على امتداد التاريخ روى أنه لما قتل الخوارج قيل لأمير المؤمنين: هلك القوم بأجمعهم، فقال: كلا والله إنهم نطف فى أصلاب الرجال وقرارات النساء، كلما نجم منهم قرن قطع، حتى يكون آخرهم لصوصا سلابين. وروى عن النبى صلى الله عليه

وآله قال ": لا يزالوا يخرجون حتى يخرج آخرهم من الدجال [" ۳۲] ، وهكذا استقر بهم المطاف. لقد التقطهم الدجال أعظم الفتن منذ ذرأ الله ذرية آدم، وهذا عدل الله. إنهم رفضوا أمير المؤمنين عند المقدمة. فرفضهم الطهر عند الخاتمة. لأنهم رجس لا ينبغى أن يناموا إلا عند دجال ليزيدهم الله رجسا

[صفحه ۱۲۸]

على رجسهم. وبعد أن فرغ أمير المؤمنين من قتال الخوارج، خطب فى الناس وحثهم على العمل ليلتحم الشعار بالشعور. وروى أنه صعد المنبر بعد فراغه من النهروان، فحمد الله، وخنقته العبرة فبكى حتى اخضلت لحيته بدموعه وجرت، ثم نفض لحيته فوغ رشاشها على ناس من أناس، فكانوا يقولون: إن من أصابه من دموعه فقد حرمه الله النار، ثم قال: يا أيها الناس. لا تكونوا ممن يرجوا الآخرة بغير عمل، ويؤخر التوبة بطول أمل، يقول فى الدنيا قول الزاهدين، ويعمل فيها عمل الراغبين، إن أعطى منها لم يشبع، وإن منع منها لم يقنع، يعجز عن شكر ما أوتى، ويبتغى الزيادة فيما بقى، ويأمر ولا يأتى، وينهى ولا ينتهى، ويحب الصالحين ولا يعمل بأعمالهم، ويبغض الظالمين وهو منهم. تغلبه نفسه على ما يظن، ولا يغلبها على ما يستيقن، إن استغنى فتن، وإن مرض حزن، وإن افتقر قنط ودهن، فهو بين الذنب والنعمة يرتع، يعافى فلا يشكر، ويبتلى فلا يصبر. كأن المحذر من الموت سواه، وكأن من وعد وزجر غيره يا أغراض المنايا، يا رهائن الموت، يا وعاء الأسقام، يا نهبة الأيام، ويا ثقل الدهر، ويا فاكهة الزمان، ويا نور الحدثان، ويا خرس عند الحجج، ويا من غمرته الفتن وحيل بينه وبين معرفة العبر بحق، أقول: ما نجا من نجا إلا بمعرفة نفسه، وما هلك من هلك إلا من تحت يده. قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا) جعلنا الله وإياكم ممن سمع الوعظ فقبل، ودعى إلى العمل فعمل [۳۳]

.

[۱] قال المسعودى: يريد بذلك الأشعث بن قيس والله أعلم.

[۲] عند أبى الحديد "، أخو هوزان " ۴۱۱:۱.

[۳] اللوى:ما النوى من الرمل.

[۴] مروج الذهب ۴۴۶:۲، ورواه باختصار: الكامل ۱۷۱:۳، البداية والنهاية ۲۸۷:۷، ابن أبى الحديد ۴۵۴:۱، الطبرى ۴۳:۶، الأغانى ۹:۵.

[۵] الطبرى ۴۴:۶، الكامل ۱۷۱:۳.

[۶] الطبرى ۴۴:۶، الكامل ۱۷۱:۳، البداية والنهاية ۲۸۷:۷.

[۷] الطبرى ۴۸:۶، الكامل ۱۷۱:۳.

[۸] الطبرى ۴۴:۶.

[۹] مروج الذهب ۴۴۹:۲، الكامل ۱۷۴:۳.

[۱۰] الطبرى ۴۶:۶، مروج الذهب ۴۴۹:۲، الكامل ۱۷۴:۳.

[۱۱] الطبرى ۴۷:۲، الكامل ۱۷۴:۳.

[۱۲] رواه ابن أبى عاصم (كتاب السنة ۵۹۹:۲).

[۱۳] رواه الإمام أحمد والحميدى والعدنى (كنز العمال ۲۲۹:۱۱).

[۱۴] رواه ابن عساكر (كنز العمال ۳۰۲:۱۱).

[۱۵] رواه الطبرانى (كنز العمال ۲۰۸:۱۱).

[۱۶] الطبرى ۴۸:۶.

[۱۷] الطبرى ۴۹:۶.

[۱۸] الطبرى ۴۹:۶.

[۱۹] الطبری ۶:۴۹.

[۲۰] الطبری ۶:۴۹.

[۲۱] روی مسلم عن أبی سعید قال: أشهد أن علیا قاتلهم وأنا معه، فأمر بذلک الرجل فالتمس فوجد فأتی به حتی نظرت إلیه علی نعت رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم الذی نعت (صحیح مسلم ۷:۱۶۷).

[۲۲] الطبری ۶:۵۰، مروج الذهب ۲:۴۵۲.

[۲۳] رواه الإمام أحمد وقال الهیثمی رجاله ثقات (الفتح الربانی ۲۳:۱۵۶).

[۲۴] أخرجه أبو یعلی (الخصائص الکبری ۲:۲۵۰).

[۲۵] البدایة والنهایة ۷:۲۹۸.

[۲۶] رواه ابن أبی عاصم (کتاب السنة ۲:۵۹۹.

[۲۷] رواه البزار (فتح الباری ۱۲:۲۸۶).

[۲۸] رواه الطبرانی (فتح الباری ۱۲:۲۸۶).

[۲۹] رواه مسلم (صحیح ۱:۹).

[۳۰] رواه ابن عساکر (کنز العمال ۱۱:۲۲۳).

[۳۱] رواه مسلم (کشف الخفاء ۱:۲۸۲).

[۳۲] رواه أحمد ورجاله ثقات (الزوائد ۶:۲۹۹).

[۳۳] ابن النجار (کنز العمال ۱۶:۲۰۶).

التخاذل

بعد فراغ أمیر المؤمنین من أهل النهروان کانت قواته متماسکة، حیث إنه

لم یقتل من أصحابه إلا سبعة، وکان النبی صلی الله علیه وآله قد أخبره بعدد القتلی من قواته وقوات أهل النهروان. وقد أخبر أمیر المؤمنین قواته بهذا قبل

[صفحه ۱۲۹]

المعرکة. وبعد المعرکة، ونظرا لأن القوات متماسکة، تحدث أمیر المؤمنین فی معسکره وقال: إن الله قد أحسن بکم وأعز نصرکم، فتوجهوا من فورکم هذا إلی عدوکم. فقالوا: یا أمیر المؤمنین نفدت نبالنا، وکلت سیوفنا، ونصلت أسنة رماحنا، وعاد أکثرها قصدا. فأرجع إلی مصرنا فلنستعد بأحسن عدتنا. ولعلک تزید فی عدتنا عدة من هلک منا، فإنه أوفی لنا علی عدونا [۱] .

فسمع أمیر المؤمنین منهم وأقبل حتی نزل النخیلة، ثم أمر الناس أن یلزموا عسکرهم، ویوطنوا علی الجهاد أنفسهم، وأن یقلوا زیارة نسائهم وأبنائهم حتی یسیروا إلی عدوهم. فأقام الناس فی معسکرهم أیاما، وکان أمیر المؤمنین یجهز للمعرکة فی هذه الأیام، ولکن الحال لم یدم علی هذا طویلا، فالناس بدؤوا یتسللون من معسکرهم حتی خلا المعسکر. وعندما رأی أمیر المؤمنین ذلک، دخل الکوفة وانکسر علیه رأیه فی المسیر [۲] وخطب فی الناس تلک الخطبة

التی بکر فیها وهو یحثهم علی العمل لیلتقی الشعار بالشعور، ثم خطب فیهم مرة أخری فقال: أیها الناس استعدوا للمسیر إلی عدو فی جهاده القربة إلی الله ودرک الوسیلة عنده، حیاری فی الحق جفاة عن الکتاب، نکب عن الدین یعمهون فی الطغیان، ویعکسون فی غمرة الضلال، فأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخیل، وتوکلوا علی الله وکفی بالله وکیلا، وکفی بالله نصیرا [۳] .

ولکن القوم لم ینفروا فترکهم أمیر المؤمنین أیاما، حتی إذا آیس من أن یفعلوا دعا رؤساءهم لیسألهم عن رأیهم. فقام فیهم خطیبا

فقال: عباد الله ما لكم إذا أمرتكم أن تنفروا اثاقلتم إلى الأرض، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة، وبالذل والهوان من العز، أو كلما ندبتكم إلى الجهاد دارت أعينكم كأنكم من

[صفحه ۱۳۰]

الموت فى سكرة، وكأن قلوبكم مألوسة فأنتم لا تعقلون، وكأن أبصاركم كمة فأنتم لا تبصرون. لله أنتم، ما أنتم إلا أسود الشرى فى الدعة، وثعالب رواغة حين تدعون إلى البأس. ما أنتم لى بثقة سجيس الليالى، ما أنتم بركب يصال بكم ولاذى عز يعتصم إليه. لعمر الله بئس حشاش الحرب أنتم. أنكم تكادون ولا تكيدون، وينتقص أطرافكم ولا تتحاشون، ولا ينام عنكم وأنتم فى غفلة ساهون. إن أخا الحرب اليقظان ذو عقل وبات لذل من وادع وغلب المتجادلون، والمغلوب مقهور ومسلوب. ثم قال أمير المؤمنين: أما بعد، فإن لى عليكم حقا، وإن لكم على حقا، فأما حقكم على فالنصيحة لكم ما صحبتكم، وتوقير فيئكم عليكم وتعليمكم فيما لا- تجهلون وتأديبكم كى تعلموا، وأما حقى عليكم، فالوفاء بالبيعة، والنصح لى فى الغيب والمشهد، والإجابة حين أدعوكم، الطاعة حين آمركم. فإن يرد الله بكم خيرا انتزعوا عما أكره، وتراجعوا إلى ما أحب، تنالوا ما تطلبون وتدركوا ما تأملون [۴] .

إن الخذلان شذوذ قديم ضرب بجذوره فى أعماق الأرض، والشيطان فى حركته لا يحب شيئا متماسكا. فإذا كان لا بد من التماسك فيجب أن يكون وفقا لبرنامجه. والشيطان عندما يقوم بتفكيك جسد ما فإن أدواته لا بد وأن تكون من صنع البيئة التى يريد أن يفكك جسدها. وأمير المؤمنين وجه إليهم الدعوة، كى يواجهوا حركات التفتيت والتفكيك التى يذيع دعاتها أنهم على قلب رجل واحد ويتوجهون نحو هدف واحد، ولكن القوم تلقوا دعوة الإمام، وهم بين المعتل أو المكره، وقيل منهم من نشط، وفيما بعد جاء التثاقل إلى الأرض بجميع أمراضه، لأن التثاقل فراش ممهد تتحرك فيه أجهزة ومؤسسات الصد بكل سهولة ويسر، فالمتثاقل لا يرد إلا الحياة الدنيا، والشيطان له أساليبه فى مخاطبته فى هذا الباب. وشاء الله تعالى أن من يتثاقل عن نصرة الحق، خوفا من الموت أو غيره أو طمعا فى مال أو غيره، أن يجعله ينفر ويهب عند سماعه بوقا للشيطان، فينتظم فى جيشه، ويصطف فى خيله ورجله، ويزين له الشيطان هناك أن قتاله

[صفحه ۱۳۱]

قتال حق، وأن المال الذى اكتسبه بمخالبه حلال، وأن حركته فى الحياة هى الحركة الصحيحة. فجيش الشيطان لا ينتظم فيه مخلوقات من الكواكب الأخرى، وإنما ينتظم فيه الذين يحملون بين ضلوعهم قلوبا ليست قلوب إنس، ويسيرون نحو أهداف ترفضها الفطرة. ويرفعون أعلام يعتمد مضمونها على الزينة من أجل إغواء الناس ثم السير بهم فى طريق التلجيم والاحتناك. لقد كان الإمام يحذر من التثاقل إلى الأرض، ويدعو الناس كى يأخذوا بالأسباب نحو الحياة الكريمة، وهو خير دليل على ذلك. فهو قد أخبركم بأنه مقتول، والمقتول هو الذى يدعو للقتال. ولكن ذهب نداء الإمام فى عالم. وكأنه عالم السكون، حيث لا ومض ولا نبض ولا صوت إلا من رحم الله، ويقابل هذا العالم عالم آخر يتحرك بالذهب والفضة والتمر، إنه عالم معاوية. ومعاوية لم يكن بعيدا عن الساحة بعد التحكيم، فلقد أصبح له حضور بعد أن سلم عليه ابن العاص بالخلافة. كانت له عيون فى كل مكان، وكان يتابع حركة جيش العراق قبل النهروان وبعدها، لأنه كان على يقين أن عليا لن يتركه وسيأخذ بجميع الأسباب لكى يدمر قشرته. وتدمير القشرة يعنى أن الأيام به لن تطول، وهو يريد المزيد والمزيد، لهذا تحرك معاوية فى جميع الجبهات، وكانت مقدمته فى كل جبهة الذهب والفضة. وروى أن قوما من المدينة لحقوا بمعاوية. فكتب سهل بن حنيف الأنصارى [۵] إلى أمير المؤمنين بذلك، فرد عليه أمير المؤمنين بخطاب جاء فيه: أما بعد. فقد بلغنى أن رجالا ممن قبلك يتسللون إلى معاوية، فلا تأسف [۶] على ما يفوتك من عددهم، ويذهب عنك من مددهم. فكفى لهم غيا [۷] ولك منهم شافيا [۸] فرارهم من الهدى والحق،

[صفحه ۱۳۲]

وإيضاعهم [۹] إلى العمى والجهل. فإنما هم أهل دنيا مقبلون عليها، ومهطعون [۱۰] إليها. قد عرفوا العدل ورأوه، وسمعوه ووعوه.

وعلموا أن الناس عندنا فی الحق أسوة، فهربوا إلی الآثرة [۱۱] فبعدا وسحقا [۱۲] إنهم والله لم يفروا من جور، ولم يلحقوا بعدل. وإنا لنطمع فی هذا الأمر أن يذلل الله لنا صعبه، ويسهل لنا حزنه، إن شاء الله. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته [۱۳] .

وروی أنه لما رأت طائفة من أصحابه ما يفعله معاوية من بذل الأموال لأصحابه والمنقطعين إليه، وتفضيل بعضهم علی بعض فی العطاء قالوا: يا أمير المؤمنين. إن عامة الناس أصحاب دنيا لها يسعون وفيها يكدحون، فلو أعطيت من هذا المال، وفضلت الأشراف من العرب وقريشا علی الموالی، ومن تخاف خلافه وفراقه، حتی إذا استتب لك ما تريد عدت إلی أحسن ما كنت عليه من العدل فی الرعية والقسم بالسوية. فقال الإمام: أتأمرونی أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه؟ والله لا اطور به [۱۴] ما سمر سمير [۱۵] ، وما أم نجم فی السماء نجما [۱۶] ولو كان المال لی لسويت بينهم، فكيف وإنما لمال مال الله؟ ثم. قال:

ألا وإن إعطاء المال فی غير حقه تبذير وإسراف. وهو يرفع صاحبه فی الدنيا، ويضعه فی الآخرة، ويكرمه فی الناس، ويهينه عند الله... [۱۷"] .

إن المقتول لا يجامل أحدا، المقتول حجة ومهمته هی مهمة الحجة، قال فيه النبی صلی الله عليه وآله ": من أحب عليا فقد أحبنی. ومن أحبنی فقد

[صفحه ۱۳۳]

أحب الله. ومن أبغض عليا فقد أبغضنی ومن أبغضنی فقد أبغض الله [" ۱۸] ، وقال صلی الله عليه وآله ": يا علی من فارقنی فارق الله ومن فارقك يا علی فارقنی [" ۱۹] وقال النبی صلی الله عليه وآله ": إن الله يغضب لغضبك ويرضی لرضاك [" ۲۰] وقال صلی الله عليه وآله ": من آذی عليا فقد آذانی [" ۲۱] .

فهذه الأحاديث الصحيحة وغيرها، تبين أن الإمام له مهمة واحدة، هی سوق الناس إلی صراط الله وفقا لمنهج الفطرة الذی جاء به النبی صلی الله عليه وسلم. وهذه المهمة لا يشوبها تخاذل الناس عنه، فمن أراد أن يصطف وراء يعسوب المؤمنين فليصطف ومن أراد أن يبحث عن مكان له وراء يعسوب المال فليذهب. وكل طريق له أسبابه. والموعد الذی سيلتقی فيه الجميع (يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا - ذلك اليوم الحق، فمن شاء اتخذ إلی ربه مآبا) [۲۲] .

ولم يترك الإمام بابا يحث الناس فيه علی القتال إلا طرقه وحدثهم منه، لقد خوفهم من فتنة بنی أمية. فقال: ألا وإن أخوف الفتن عندی عليكم فتنة بنی أمية، فإنها عمياء مظلمة، عمت خطتها، وخصت بليتها. وأصاب البلاء من أبصر فيها، وأخطأ البلاء من عمی عنها. وأيم الله لتجدن بنی أمية لكم أرباب سوء بعدی كالناب الضروس، تعدم بغيها. وتخبط بيدها، وتزين برجلها، وتمنع درها، لا يزالون بكم حتی لا يتركوا منكم إلا نافعا لهم، أو غير ضار بهم، ولا يزال بلاؤهم عنكم حتی لا يكون انتصار أحدكم منهم إلا كانتصار العبد من ربه،

[صفحه ۱۳۴]

والصاحب من مستصحبه. ترد عليكم فتنتهم شوهاء فحشية، وقطعا جاهلية. ليس فيها منار هدی، ولا علم يری، نحن أهل البيت منها بمنجاة، ولسنا فيها بدعاة. ثم يفرجها الله عنكم كتفريج الأديم، بمن يسومهم خسفا، ويسوقهم عنفا. ويسقيهم بكأس مصبرة لا يعطيهم إلا السيف. ولا يحلسهم إلا الخوف [۲۳] .

لقد خوفهم من مساحة مظلمة وبين لهم أن علی رأس هذه المساحة رجل واسع البلعوم. فقال: أما إنه سيظهر عليكم بعدی [۲۴] رجل رحب البلعوم [۲۵] ، مندحق البطن [۲۶] ، يأكل ما يجد، ويطلب ما لا يجد، فاقتلوه. ولن تقتلوه [۲۷] ، إلا وإنه سيأمركم بسبی والبراءة منی، فأما السب فسبونی فإنه لی زكاة ولكم نجاة، وأما البراءة فلا تتبرأوا منی، فإنی ولدت علی الفطرة، وسبقت إلی الإيمان والهجرة. لقد أخبرتكم بصاحب البطن التی لا تشبع، وأنه سيظهر عليكم لأن أتباعه يسيرون نحو غاية واحدة هی المال وهم لا يختلفون عليها.

وأمرهم أن يقتلوه ولن يقتلوه. قال ابن أبى الحديد: إنه لا ينافى بين الأمر بالشئ والإخبار عن أنه لا يقع. كما أخبر الحكيم سبحانه عن أن أبا لهب لا يؤمن وأمره بالإيمان. وكما قال تعالى: (فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) [۲۸] ، ثم قال: (ولا يتمنونه أبدا) [۲۹] وأكثر التكليفات على هذا المنهج [۳۰] ولقد تحدثنا على امتداد هذا

البحث أن الله سبحانه يهدى إلى صراط مستقيم. ويبين العقبات التى عليها

[صفحه ۱۳۵]

بصمات شيطانية كى يحذر الناس منها، وفى علمه تعالى أن من عباده من سيقف أمام هذه العقبات باختياره، وقد بهرته زينتها. وأخبرهم أنه واسع البلعوم سيدعو إلى سبه والبراءة منه، فأباح أمير المؤمنين لهم سبه، لأن الله تعالى قد أباح عند الاكراه التلفظ بكلمة الكفر. أما البراءة فأخبرهم بأنه لا يجوز التبرى منه، لأنه منذ ولد لم يواقع قبيحا، ولا كان كافرا طرفة عين قط. ولا مخطئا ولا غالطا فى شئ من الأشياء المتعلقة بالدين. ولقد ثبت أن الذى وجد الدعوة لسب أمير المؤمنين والبراءة منه هو معاوية ابن أبى سفيان، وثبت أيضا أنه المقصود بواسع البلعوم. وذلك لما رواه الإمام مسلم عن ابن عباس. قال: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: اذهب فادع معاوية. فلما ذهبت فدعوته له فقيل: إنه يأكل، فأخبرته، فقال فى الثالثة ": لا أشبع الله بطنه " قال: فما شبع بعدها [۳۱] وروى ابن أبى الحديد عن جلام قال:

كنت أحب أن أرى أبا ذر، لأنه رجل من قومى. فالتفت إليه فإذا رجل أسمر ضرب [۳۲] من الرجال، خفيف العارضين فى ظهره خبأ [۳۳] فأقبل على معاوية

وقال: ما أنا بعدو الله ولا لرسوله [۳۴] ، بل أنت وأبوك عدوان لله ولرسوله، أظهرتما الإسلام وأبطنتما الكفر، ولقد لعنك رسول الله صلى الله عليه وآله، ودعا عليك مرات ألا تشبع. سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول ": إذا ولى الأمة الواسع البلعوم، الذى يأكل ولا يشبع فلتأخذ الأمة حذرها منه، " فقال معاوية: ما أنا ذاك الرجل. قال أبو ذر: بل أنت ذلك الرجل. بل أنت ذلك الرجل، أخبرنى رسول الله صلى الله عليه وآله، وسمعته يقول وقد مررت به ": اللهم العنه ولا تشبعه إلا بالتراب " فكتب معاوية إلى عثمان فيه [۳۵] .

[صفحه ۱۳۶]

وروى البخارى " إن المؤمن يأكل فى معى واحد، وإن الكافر أو المنافق يأكل فى سبعة أمعاء [" ۳۶] ، وروى الإمام قال النبى صلى الله عليه وآله ": إن للمنافقين علامات يعرفون بها، تحيتهم لعنة، وطعامهم نهبة [۳۷] ، وغنيمتهم غلول... [۳۸] [۳۹] .

ومن أطرف ما قرأت فى تفسير "، لا أشبع الله بطنه " ما قاله ابن كثير. قال: وقد انتفع معاوية بهذه الدعوة فى دنياه وأخراه، أما فى دنياه فإنه لما صار إلى الشام أميرا، كان يأكل فى اليوم سبع مرات، يجاء بقصعة فيها لحم كثير وبصل فيأكل فيها، ومن الحلوى والفاكهة شيئا كثيرا. ويقول: الله ما أشبع. وهذه نعمة ومعدة يرغب فيها كل الملوك!! أما فى الآخرة فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: اللهم إنا بشر فأيما عبد سببته أو جلدته أو دعوت عليه وليس لذلك أهلا فاجعل ذلك كفارة وقربة تقربه بها عندك يوم القيامة [۴۰] ، ولست أدرى إذا كان ابن كثير قد اعتبر أن هذا الدعاء ": لا أشبع الله له بطنا، " اعتبره من النعم فى الدنيا. فلماذا جعله فى الآخرة من السب الذى طلب النبى من ربه أن يجعله كفارة وقربة؟!. ثم نعود إلى ما كنا نحدث فيه، لقد أخبرهم أمير المؤمنين بمساحة فيها فتن مظلمة، وعلى رأس هذه المساحة رجل واسع البلعوم. وهم كانوا يعرفون وقتئذ من هو، نظرا لأن أبى ذر كان قد كشف غطاءه. فضلا على أن أمير المؤمنين قد أخبرهم فى أكثر من موطن بأن معاوية وأهل الشام سيظهرون عليهم، وأن عليهم أن يأخذوا بالأسباب لينظر الله كيف يعملون، ولا يشغلوا أنفسهم بالنتائج لأن لله فى خلقه شؤون. وعندما لم يجد الإمام منهم الاستجابة

[صفحه ۱۳۷]

المناسبة قال لهم: أحمد الله على ما قضى من أمر، وقدر من فعل. وعلى ابتلائى بكم أيتها الفرقة التى إذا أمرت لم تطع، وإذا دعوت لم

تجب. إن أهملتم [۴۱] خضتم، وإن حوربتم خرتم [۴۲] ، وإن اجتمع أناس على إمام طعنتم، وإن اجئتم إلى شاقة نكصتم [۴۳] لا أبا لغيركم، ما تنتظرون بنصركم، والجهاد على حقكم،

الموت أو الذل لكم [۴۴] فوالله لئن جاء يومى - وليأتينى - ليفرقن بينى وبينكم،

وأنا لصحبتكم قال: وبكم غير كثير. لله أنتم، أما دين يجمعكم، ولا حمية [۴۵] تشحذكم، أوليس عجبا أن معاوية يدعو الجفاة الطغام فيتبعونه على غير معونة ولا عطاء [۴۶] وأنا

أدعوكم - وأنتم تريكة الإسلام وبقية الناس - إلى المعونة أو طائفة من العطاء [۴۷] ، فتتفرقون عنى، وتختلفون على. إنه لا يخرج إليكم من أمرى رضا فترضون، ولا سخط فتجتمعون عليه [۴۸] وإن أحب ما أنا لاق إلى

الموت. قد دارستكم الكتاب [۴۹] ، وفاتحتكم الحجاج [۵۰] ، وعرفتكم ما أنكرتم [۵۱] ، وسوغتكم ما حججتم [۵۲] ، لو كان الأعمى يلحظ، أو النائم

[صفحه ۱۳۸]

يستيقظ [۵۳] ، وأقرب بقوم من الجهل بالله قائدهم معاوية ومؤدبهم ابن النابغة [۵۴] .

لقد أخبرهم بأنهم يتثاقلون إلى الأرض وهم تريكة الإسلام وبقية الناس. وبين لهم ما هم فيه حيث العدل فى العطاء، وتلقى العلم النافع من مصادره النقية، وكان من نتيجة ذلك ظهور ما كانت عقولهم وأذهانهم تنفر عنه من الأمور الدينية، وبعد معرفتهم هذا اعتقدوه، وأخبرهم أنه فعل معهم ما يقتضى حصول الاعتقادات الحقيقية. ولكن أفعالهم تدل على أن الهوى والعصبية والإصرار على اللجاج صفحات عليا فى ساحتهم. ومما لا شك فيه أن بذرة التخاذل وضعت عند رفع المصاحف. فبعد قتل عمار بن ياسر تلقى أهل الشام ضربات قوية ليلة الهرير. وكان الأشتر وقواته على أعتاب خيمة معاوية وفى هذا الوقت رفعت المصاحف ودخل التخاذل عن هذا الباب، وبعد ذلك رأينا الذين أضروا على التحكيم هم أنفسهم الذين قاتلوا عليا لسيره فى طريق التحكيم، والعجيب إنهم خرجوا بمقولة طالما روج لها معاوية، لقد أجازوا الخلافة لكل العرب ولكل مسلم ولو كان عبدا حبشيا، ما دامت شروط الإمامة متوفرة فيه. باختصار: بعد رفع المصاحف وضع البيض كله فى سلة معاوية. فالخوارج وإن كانت جرائمهم الظاهرة هى القتل والتخريب، إلا أن عقيدتهم قبل رفع المصاحف لم تكن بحال هى نفس العقيدة بعد ذلك. وأغلب الظن أنهم عندما خالفوا الإمام وهددوه بالقتل إذا لم يقبل التحكيم وأن ذى الثدية بدأ يعمل فى هذا الوقت بالذات. ثم وضع لمساته على اعتقاداتهم بعد ذلك. لتلتقى هذه اللمسات مع لمسات الذين سيتخذون دين الله دغلا تحت إذاعة واحدة وإعلام واحد، مما ساعد إلى حد كبير فى التخاذل عن أمير المؤمنين. إن علماء الأمة أقروا أحاديث تقول بأن ذى الثدية كان شيطان الردهة، وأقروا أحاديث تذم بنى أمية وأنهم ملوك من شر الملوك. وعقيدة الخوارج فى

[صفحه ۱۳۹]

الخلافة معروفة، وهى تنسجم إلى حد كبير مع الذين فرقوا دينهم شيعا. لهذا قلنا إن التخاذل وضعت بذرته عند رفع المصاحف، وإن الإمام علم هذا منذ البداية ولهذا أمرهم بالقتال. فلما أبوا عليه بدأ يضع حجته على كل رأس وفى كل خيمة، وعندما تبين الجميع نتيجة الخدعة، دعاهم الإمام إلى أمرة الله، ولكن دعوته واجهت ساحة أوسع من التخاذل، نتيجة لإعلام لم يعد يتحدث عن رفع المصاحف، وإنما يتحدث عن تحكيم أعطى الخلافة لمعاوية، يقابله إعلام الخوارج الذى دق وتدا فيه أن الخلافة لكل العرب. وبذرة التخاذل عندما وضعت وجدت من يرعاها. وهناك دائرتان خرج منهما الماء لهذه البذرة: الأولى: أن الله تعالى جعل للشهادة فى سبيله مقاييس ومعايير، وجعل الجنة للمؤمنين من عباده، والطريق إلى الجنة يمر بابتلاءات وامتحانات عديدة. وكلما كانت الأجيال قريبة من عهد النبوة كانت الابتلاءات أقوى وأشد. وفى عهد الإمام على كان الإمام يحدث أتباعه بأن معاوية سيظهر عليهم وأن هذا أمرا لا مرد له. ثم يأمرهم الإمام بعد ذلك بأن يأخذوا بالأسباب لوقف هذه الفتنة التى هى نتيجة لمقدمة أوجدتها. فموقف كهذا لا يحتاج إلا إلى

قلب مؤمن یعلم أن الغیب لله وأن الأخـذ بالأسـباب تکلیف إلهی للإنسان. لهذا فلا بد أن یأخذ به، وأن معرکته لن تکون بحال معرکهٔ خاسـرهٔ رغم ظهور عـدوه فی نهایتها، وأنه قـد لا یشـهد انتصاره، ولکن بالتأکیـد سـتأتی أجیال تذکر أعلامه وخطاه. وعلی ذلک قاتل العدیـد حول الإمام، کانوا یقاتلون بأمر الله عـدوا ما زال فی علم الله بهـدف حمایهٔ الفطرهٔ، للوصول إلی غایاتهم العلیا بعد الموت، فهنا یکمن الإیمان الحق، إیمان الأحرار لا إیمان التجار. وفی عهـد الإمام علی، کان الاختیار عظیما. فعلی مـدی سـنتین تقریبا خاض الإمام ثلاثـ معـارک، کـان لکـل معرکـهٔ منهم حصـیلتها من أحـادیث الإخبـار بالغیب. وعنـدما قتل أکثر الصـحابهٔ فی هـذه المعارک أخذ أمـاکنهم رؤسـاء القبائـل. ومنهم من أبلی وقاتـل ابتغاء مرضاهٔ الله، ومنهم من کتب إلی معاویـهٔ بعـد أن علم أنه سـیظهر والتمس عنـده الأیادی. وأغلب الظن أن الخوارج خرجوا من بطن

[صفحه ۱۴۰]

واحـد من هؤلاء. وباختصار: اتباع هذه الدائرهٔ هم ضـعاف الإیمان، الإیمان عندهم صورهٔ ولیس عمل. وجدوا أن المعرکهٔ لها تکالیف وهم لیسوا علی اسـتعداد لـدفع هذه التکالیف. ثم أعد لهم منهجا للحکم یزاحموا به معاویهٔ عندما یظهر، فهم بإیمانهم یکونوا فی دائرهٔ الحکم أفضل من وجودهم خارجها. أما الـدائرهٔ الثانیـهٔ التی ساعدت علی التخاذل، فهی دائرهٔ الذهب والفضهٔ والزبیب. ولهذا قال النبی صلی الله علیه وسـلم ": علی یعسـوب المؤمنین والمـال یعسوب المنـافقین [" ۵۵] ، وکـان علی یقول ": أنـا یعسوب المؤمنین والمـال یعسوب الفجرهٔ، " وفی روایـهٔ ": والمال یعسوب الظلمـهٔ [" ۵۶] ، ولقـد ذکرنا فیما سـبق کیف فر أقوام من المدینـهٔ فی اتجاه معاویهٔ، وهنـاک العدیـد من الأمثلـهٔ فی تفضـیل أکثر النـاس للمال فی فترهٔ التخاذل. وروی أن علیا قال لرجل: أآثرتم معاویـهٔ. فقال: ما آثرناه، ولکنا آثرنا القسب [۵۷] الأصفر والبر الأحمر والزیت الأخضر.

[۱] الطبری ۵۱:۶.

[۲] الطبری ۵۱:۶.

[۳] الطبری ۵۲:۶.

[۴] الطبری ۵۲:۶.

[۵] کان عاملا لعلی علی المدینهٔ.

[۶] أی لا تحزن.

[۷] الغی:الضلال.

[۸] أی یکفیک فی الانتقام منهم وشفاء النفس من عقوبتهم أنهم یتسللون إلی معاویهٔ.

[۹] الایضاع:الاسراع.

[۱۰] مهطعون:مسرعون أیضا.

[۱۱] الآثرهٔ:الاستئثار.

[۱۲] فبعدا وسحقا:دعاء علیهم بالبعد والهلاک.

[۱۳] ابن أبی الحدید ۲۳۴:۵.

[۱۴] ولا أطور به:لا أقربه.

[۱۵] ما سمر سمیر:أی ما أقام الدهر وما بقی.

[۱۶] ما أم نجم فی السما نجم:أی قصد وتقدم لأن النجوم تتبع بعضها بعضا.

[۱۷] ابن أبی الحدید ۳:۳.

[۱۸] رواه الطبرانی وقال الهیثمی إسـناده حسن (الزوائـد ۱۳۲:۹) وذکره الألبانی فی سلسـلهٔ الأحادیث الصـحیحهٔ، وقال حدیث صحیح

(الصحیحة ۲۹۸:۵).

[۱۹] رواه البزار (کشف الأستار ۲۰۱:۳) وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۱۳۵:۹) ورواه الحاکم وصححه (المستدرک ۱۲۱:۳).

[۲۰] رواه الطبرانی وقال الهیثمی إسناده حسن (الزوائد ۲۰۳:۹).

[۲۱] رواه أحمد وقال الهیثمی رجال أحمد ثقات (الزوائد ۱۲۹:۹) ورواه الحاکم وصححه (المستدرک ۱۲۲:۳) ورواه البزار بسند صحیح (کشف الأستار ۲۰۰:۳).

[۲۲] سورة النبأ: الآیة ۳۸:۳۹.

[۲۳] ابن أبی الحدید ۶۰۵:۲.

[۲۴] سیظهر:سیغلب.

[۲۵] رحب البلعوم:واسعه.

[۲۶] مندحق البطن:بارزها.

[۲۷] ابن أبی الحدید ۷۷۶:۱.

[۲۸] سورة البقرة: الآیة ۹۴.

[۲۹] سورة الجمعة: الآیة ۷.

[۳۰] ابن أبی الحدید ۷۷۷:۱.

[۳۱] رواه مسلم وذکره ابن کثیر فی البدایة ۱۱۹:۸.

[۳۲] الضرب:الخفیف اللحم.

[۳۳] خبأ:أی أشرف کاهله علی ظهره حدبا.

[۳۴] فی سیاق الأحداث کان معاویة قد اتهمه بذلک.

[۳۵] ابن أبی الحدید ۹۴:۳.

[۳۶] البخاری (الصحیح ۲۹۳:۳).

[۳۷] أی اغتصاب.

[۳۸] أی سرقه.

[۳۹] رواه أحمد (الفتح الربانی ۲۳۲:۱۹).

[۴۰] البدایة والنهایة ۱۲۰:۸.

[۴۱] أهملتم:خلیتم وترکم.

[۴۲] خرتم:ضعفتم.

[۴۳] نکصتم:أحجمتم.

[۴۴] الموت أو الذل لکم:دعاء علیهم بأن یصیبهم أحد الأمرین.

[۴۵] الحمیة:الآنفة.

[۴۶] معاویة لم یکن یعطی جنده علی وجه المعونة والعطاء وإنما کان یعطی رؤوساء الناس لیستعبدهم بها، ویدعو أولئک السادة أتباعهم فیطیعونهم. فمنهم من یطیعونهم حمیة. ولم یکن یصل إلی هؤلاء الأتباع من أموال معاویة قلیل أو کثیر.

[۴۷] أمیر المؤمنین کان یقسم بین الرؤساء والأتباع علی وجه العطاء والرزق.

[۴۸] والمعنی: أنکم لا تقبلون مما أقول لکم شیئا. سواء کان مما یرضیکم أو مما یسخطکم. بل لا بد لکم من المخالفة والافتراق عنه.

[۴۹] دراستکم الکتاب:أی درسته علیکم.

[۵۰] وفاتحتکم الحجاج:أی حاکمتکم بالمحاجة والمجادلة.

[۵۱] وعرفتکم ما أنکرتم:بصرنکم ما عمی عنکم.

[۵۲] وسوغتکم ما حججتم:أوضحت لکم الأمور الدینیة.

[۵۳] أی أنی قد فعلت معکم ما یقتضی حصول الاعتقادات الحقیقیة فی أذهانکم.

[۵۴] ابن أبی الحدید ۴۱۷:۳.

[۵۵] رواه ابن عدی (کنز العمال ۱۴:۱۱).

[۵۶] رواه أبو نعیم (کنز العمال ۱۱۹:۱۳).

[۵۷] القسب:التمر الیابس.

غارات معاویة

بعد التحکیم بدأ معاویة فی ترتیب أوراقه، فوضع عینه علی مصر، وکان
علیها یومئذ محمد بن أبی بکر عاملا لعلی، وکان معاویة یرید مصر لیجرد أمیر المؤمنین من خراجها ویستعین به. وعندما علم معاویة أن علیا قد ولی الأشتر علی مصر بدلا من محمد بن أبی بکر عظم ذلک علیه، لمعرفته أن الأشتر إن قدمها کان أشد علیه من محمد بن أبی بکر، ومن هنا بدأ عمل معاویة للالتفاف حول أمیر المؤمنین، فبعث إلی رجل من أهل الخراج، وقال له: إن الأشتر قد ولی مصر، فإن أنت کفیتنیه لم آخذ منک خراجا ما بقیت فاحتل له بما قدرت علیه. وخرج الرجل حتی أتی القلزم وأقام به، وعندما انتهی الأشتر إلی القلزم

[صفحه ۱۴۱]

استقبله الجایستار، وهو المکلف من قبل معاویة بقتله، وقال للأشتر: هذا منزل وهذا طعام وعلف وأنا رجل من أهل الخراج، فنزل به الأشتر فجاء الرجل إلیه بطعام حتی إذا طعم آتاه بشربة من عسل قد جعل فیها سما. فسقاه إیاها فلما شربها مات [۱] .

ولم یخطط معاویة للجریمة فقط بل استثمرها، فقال لأهل الشام: إن علیا وجه الأشتر إلی مصر، فادعوا الله أن یکفیکموه، فکانوا کل یوم یدعون الله علی الأشتر. وعندما جاء الذی سقاه إلی معاویة وأخبره بمهلک الأشتر خطب معاویة وقال: أما بعد فإنه کانت لعلی بن أبی طالب یدان یمینان، قطعت إحداهما یوم صفین - یعنی عمار بن یاسر - وقطعت الأخری الیوم - یعنی الأشتر [۲] وبعد
ذلک بعث معاویة عمرو بن العاص، وکان قد صالحه علی أن تکون مصر طعمة له ما بقی، بعثه إلی مصر للاستیلاء علیها. وعندما نزل مصر اجتمعت إلیه العثمانیة من أهلها، وقاومهم محمد بن أبی بکر بمن معه، ولکن أهل الشام حاصروا قوات محمد بن أبی بکر، وخرج محمد یمشی فی الطریق حتی انتهی إلی مکان فی ناحیة الطریق. وظل معاویة بن خدیج یبحث عن ابن أبی بکر حتی وجده، فقال له: لأقتلنک یا ابن أبی بکر، فقال: یا ابن الیهودیة النساجة لیس ذلک إلیک إنما ذلک إلی الله عز وجل، أما والله لو کان سیفی فی یدی ما بلغتم منی هذا. فقال له معاویة بن خدیج: أتدری ما أصنع بک. أدخلک فی جوف حمار ثم أحرقه علیک بالنار. فقال محمد: إن فعلتم بی ذلک فطال ما فعل ذلک بأولیاء الله... فقتله ثم ألقاه فی جیفة حمار ثم أحرقه بالنار [۳] وقال
المسعودی: فأخذه معاویة بن خدیج وعمرو بن العاص وغیرهما فجعلوه فی جلد حمار، وأضرموه بالنار، وذلک بموضع فی مصر یقال له: کوم شریک. وقیل: إنه فعل به ذلک، وبه شئ من الحیاة [۴] وبلغ معاویة قتل محمد وأصحابه،

[صفحه ۱۴۲]

فأظهر الفرح والسرور، وبلغ علیا قتل محمد وسرور معاویة، فقال: جزعنا علیه علی قدر سرورهم، فما جزعت علی هالک منذ دخلت

هذه الحروب جزعى عليه كان لى ربيبا، وكنت أعده ولدا، وكان بى برا، وكان ابن أخى. فعلى مثل هذا نحزن وعند الله نحتسبه [۵] .

ومع بداية عام تسع وثلاثين هجرية، بدأ معاوية يبعث سرايا لتغير على أطراف أمير المؤمنين، وكذلك كان على يبعث من يمنع سرايا معاوية من أذية الناس، ومن السرايا التى بعثها معاوية، سرية النعمان بن بشير التى أغارت على عين التمر، وسرية سفيان بن عوف أغارت على هيت والأنبار والمدائن، وحملوا ما كان فى الأنبار من الأموال وأموال أهلها ورجعوا إلى معاوية. وسرية عبد الله بن مسعدة أغارت على تيماء، فنهب الأموال وتصدى له أهل تيماء فخرج فى أصحابه ليلا إلى الشام، وسرية الضحاك بن قيس أمره معاوية أن يمر بأسفل واقصة وأن يغير على كل من مر به ممن هو فى طاعة على. فسار فأخذ أموال الناس وقتل من لقى من الأعراب [۶] .

كانت هذه السرايا مقدمات لسرية بسر بن أرطأة، وبسر كان من الذين بعثهم عمر بن الخطاب مددا لعمرو بن العاص فى فتح مصر [۷] قال الدارقطنى:

بسر له صحبة ولم تكن له استقامة بعد النبى صلى الله عليه وآله، هو الذى قتل طفلين لعبيد الله بن عباس [۸] ، وقال يحيى بن معين: بسر رجل سوء. وقال أبو عمر: ذلك لأمور عظام ركبها فى الإسلام [۹] ، وروى أن معاوية عندما وجه بسر لقتل شيعة على، قام إليه نفر منهم زياد بن الأشهب الجعدى وقال لمعاوية: يا أمير المؤمنين. نسألك بالله وبالرحم أن لا تجعل لبسر على قيس سلطانا. حتى لا

[صفحه ۱۴۳]

يقتل قيسا بما قتلت به بنو سليم من بنى فهر وكنانة يوم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة [۱۰] ، وروى أن أبا ذر كان يقول: يوم العوراء، وما يوم العوراء. فقيل له: ما يوم العوراء؟ قال: إن نساء من المسلمات يسبين فيكشف عن سوقهن، فأيتهن كانت أعظم ساقا اشتريت على عظم ساقها، وإنى دعوت الله أن لا يدركنى هذا الزمان ولعلكما تدركانه. قال راوى الحديث: فأرسل معاوية بسر بن أرطأة إلى اليمن فسبى نساء مسلمات فأقمن فى السوق [۱۱] ، وقال فى الإستيعاب: أغار بسر على همدان وسبى نساءهم فكن أول نساء مسلمات سبين فى الإسلام، وقتل أحياء من بنى سعد [۱۲] .

وروى أن معاوية بعد تحكيم الحكمين أرسل بسر فى جيش، فساروا من الشام حتى قدموا المدينة، ففر منهم أبو أيوب الأنصارى، وصعد بسر منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنادى على المنبر: يا دينار ويا نجار شيخى شيخى عهدى به بالأمس فأين هو - يعنى عثمان - ثم قال: يا أهل المدينة والله لولا ما عهد إلى معاوية، ما تركت بها محتلما إلا قتلته. ثم بايع أهل المدينة، وأرسل إلى بنى مسلمة فقال: والله ما لكم عندى من أمان ولا مبايعة حتى تأتونى بجابر بن عبد الله، فانطلق جابر إلى أم المؤمنين أم سلمة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها: ماذا ترين؟ إنى خشيت أن أقتل وهذه بيعة ضلالة. قالت: أرى أن تبايع. فآتاه جابر فبايعه [۱۳] .

وهدم بسر دور بالمدينة، ثم مضى حتى أتى مكة، فخافه أبو موسى الأشعرى أن يقتله، فقال له بسر: ما كنت لأفعل بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك. ثم مضى بسر إلى اليمن وقتل عبد الله بن عبد المدان الحارثى وقتل ابنه. ووجد ابن عبيد الله بن عباس عند رجل من بنى كنانة من أهل

[صفحه ۱۴۴]

البادية. فلما أراد قتلهما قال الكنانى: على ما تقتل هذين ولا ذنب لهما، فإن كنت قاتلهما فاقتلنى. قال بسر افعل. فبدأ بالكنانى فقتله ثم قتلهما، وقتل بسر فى مسيره هذا جماعة كثيرة من شيعة على باليمن، وبلغ عليا خبر بسر فوجه جارية بن قدامة فى ألفين ووهب بن مسعود فى ألفين، وهرب بسر وأصحابه [۱۴] .

كان هذا هو منهج معاوية فى القتال. تجنب ملاقاة على فى الميدان، والإغارة وسلب ما يمكن سلبه ثم الارتداد للخلف نحو الشام، وقتل كل من فى الطريق، طفلا أو شيخا، وعرض النساء المسلمات فى الأسواق، ومن قبل وضع من فيه شئ من حياة فى جلد حمار، ثم إشعال النار فيه. كانت هذه سيرته فى بداية الطريق، وسنرى فيما بعد كيف كانت سيرته على امتداد الطريق. وينبغى فى هذا المقام أن نذكر تقديم ابن كثير لغارات معاوية، وهو تقديم يجعل الباحث فى حيرة. فهو عندما تحدث عن التحكيم قدم الروايات التى أجمعت

علیها الأمة وتفید بأن أبی موسی وعمرو اتفقا علی خلع علی ومعاویة. وعندما خلع أبو موسی صاحبه، وجاء الدور علی ابن العاص فعل ما فعل، وبرر ابن کثیر ما فعله عمرو بأنه رأی أن ترک الناس بلا إمام یؤدی إلی مفسدة طویلة!! [۱۵] ، هذا ما قاله هناک، ثم نراه یقول هنا، وهو یتحدث عن غارات معاویة، إن أبا موسی وعمرا کانا قد اتفقا علی خلع علی - ولم یشر إلی معاویة - وأن معاویة تحرک علی هذه الخلفیة حیث إنه کان یعتقد أنه الإمام الذی یجب طاعته. وإلیک ما قاله ابن کثیر بنصه: جهز معاویة جیوشا کثیرة فرقها فی أطراف معاملات علی. وذلک أن معاویة رأی بعد أن ولاه عمرو بن العاص بعد اتفاقه مع أبی موسی علی عزل علی. إن ولایته وقعت الموقع فهو الذی یجب طاعته فیما یعتقد. ولأن جیوش علی من أهل العراق لا تطیعه فی کثیر من الأمر ولا یأتمرون بأمره، فلا یحصل بمباشرته المقصود من الإمارة والحالة هذه، فهو

[صفحه ۱۴۵]

یزعم أنه أولی منه إذا کان الأمر کذلک [" ۱۶] .

إن هذا التحلیل یلتبس بعضه علی بعض، ولا یقود أی باحث إلی حقیقة. فلا یوجد نصا واحدا یقول أن عمروا خاف علی الأمة ففعل ما فعل، ولا یوجد نصا یقول أنه اتفق علی الأشعری علی عزل علی وحده. والإسلام لا یقر أن عدم طاعة مصر من الأمصار لأمیر المؤمنین ویعطی الحق لمن یطیعه رجاله فی مصر آخر بأن تغیر علی الأطراف لیقتل ویسرق، تحت لافتة أن هذا هو المقصود من الإمارة والحالة هذه. والإسلام لا یقر أیضا أن یقوم الأولی بقتل الأطفال وعرض النساء المسلمات فی الأسواق. علما بأن الأمة لم تعط لمعاویة لقب " الأولی " فی حیاة علی، والخلاصة: أننا نفهم أن بتر النصوص عند الحدیث عن أهم الأحداث التاریخیة دون توضیح لا یکون مفیدا للباحث فی جمیع الأحوال.

[۱] الطبری ۵۴:۶، مروج الذهب ۴۵۵:۲، الکامل ۱۷۸:۳، ابن أبی الحدید ۳۱۲:۲.

[۲] الطبری ۵۵:۶، الکامل ۱۷۸:۳، ابن أبی الحدید ۳۱۲:۲.

[۳] الطبری ۶۰:۶.

[۴] مروج الذهب ۴۵۴:۲.

[۵] مروج الذهب ۴۵۴:۲.

[۶] الطبری ۷۸:۶.

[۷] الإستیعاب ۱۵۵:۱.

[۸] الإستیعاب ۱۵۶:۱.

[۹] الإستیعاب ۱۵۵:۱.

[۱۰] الإستیعاب ۱۵۷:۱.

[۱۱] الإستیعاب ۱۵۷:۱.

[۱۲] الإستیعاب ۱۵۷:۱.

[۱۳] الطبری ۸۰:۶، الکامل ۱۹۳:۳، البدایة والنهایة ۳۲۲:۷.

[۱۴] الطبری ۸۱:۶، الکامل ۱۹۳:۳، البدایة والنهایة ۳۲۳:۷، ابن أبی الحدید ۲۷۳:۱.

[۱۵] البدایة والنهایة ۲۸۴:۷.

[۱۶] البدایة والنهایة ۳۲۰:۷.

لیلة بکی فیها القمر

روى أن عليا خطب الناس بعد أن تخاذلوا عنه فقال ": أيها الناس إنكم قد

أبيتم إلا أن أقولها، ورب السماوات والأرض. أن من عهد النبى صلى الله عليه وسلم إلى ": إن الأمة ستغدر بك بعدى [" ۱] لقد أعلنها الإمام واضحة جلية

على أسماعهم. إن أفعالهم التى بها يستحقون الثواب والعقاب. الله تعالى أعلم بها من أنفسهم، وأنهم اختبروا لينظر الله كيف يعملون. وأن نتيجة أعمالهم عهد بها النبى صلى الله عليه وسلم إلى على. وعلى هذا فإن الإمام كان يعلم أن الضربة التى ستأتيه، ستأتيه من طريق غدر طويل. وعلى الرغم من هذا فإنه على امتداد هذا الطريق لم يكن يعبأ بما سيفعله أهل الغدر. وإنما كان يدعو ويصحح الأخطاء فكان بذلك شاهد على جيل الصحابة، وكان السلف بذلك شاهد على الخلف. فالإمام هو الإنسان الوحيد الذى قاتل داخل سور الأمة على تأويل

[صفحه ۱۴۶]

القرآن. وبما أن حجية القرآن قائمة على امتداد التاريخ، فإن حجية الأحداث التى تعلقت بالقرآن قائمة أيضا. وعندما أعلن الإمام أمامهم أن طريق الغدر الذى يقفون عليه، أخبر به النبى صلى الله عليه وسلم عليا. قال: أما والذى نفسى بيده، ليظهرن هؤلاء القوم عليكم، ليس لأنهم أولى بالحق منكم، ولكن لإسراعهم إلى باطلهم. وإبطائكم عن حقى. ولقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها، وأصبحت أخاف ظلم رعيتى. استنفرتكم للجهاد فلم تنفروا. وأسمعتكم فلم تسمعوا، ودعوتكم سرا وجهرا فلم تستجيبوا، ونصحت لكم فلم تقبلوا، شهود كغياب، وعبيد كأرباب [۲] اتلوا عليكم الحكم فتنفرون منها، وأوعظكم بالموعظة البالغة

فتتفرقون عنها، وأحثكم على جهاد أهل البغى فما آتى على آخر قولى حتى أراكم متفرقين أيادى سبأ [۳] ، ترجعون إلى مجالسكم وتتخادعون عن مواعظكم [۴] .

أقومكم غدوة، وترجعون إلى عشية كظهر الخية [۵] عجز المقوم وأعضل

المقوم [۶] أيها القوم الشاهدة أبدانهم، الغائبة عنهم عقولهم، المختلفة

أهواؤهم، المبتلى بهم أمراؤهم، صاحبكم يطيع الله وأنتم تعصونه، وصاحب أهل الشام يعصى الله وهم يطيعونه، لوددت والله أن معاوية صارفنى بكم صرف الدينار بالدرهم، فأخذ منى عشرة منكم وأعطانى رجلا منهم. يا أهل الكوفة.. منيت منكم بثلاث واثنتين: صم ذو أسماع، وبكم ذو كلام، وعمى ذو أبصار، لا أحرار صدق عند اللقاء، ولا إخوان ثقة عند البلاء، تربت أيديكم [۷] يا أشباه الإبل غاب عنها رعاتها. كلما جمعت من جانب تفرقت من آخر، والله لكأنى بكم فيما

[صفحه ۱۴۷]

أخاكم [۸] ألو حمى الوغى [۹] ، وحمى الضراب، قد انفرجتم عن على بن أبى طالب انفراج المرأة عن قبلها [۱۰] وإنى لعلى بينة من ربى، ومنهاج من نبى،

وإنى لعلى الطريق الواضح القطه لقطا [۱۱] [۱۲] .

يقول ابن أبى صالح الحنفى: رأيت على بن أبى طالب أخذ المصحف، فوضعه على رأسه، حتى إنى لأرى ورقة يتقعقع ثم قال: اللهم إنهم منعونى أن أقوم فى الأمة بما فيه، فاعطنى ثواب ما فيه، اللهم إنى قد مللتهم وملونى، وأبغضتهم وأبغضونى، اللهم فأبدلنى بهم خيرا منهم، وأبدلهم بى شرا منى. اللهم أمت قلوبهم موت الملح فى الماء [۱۳] .

وعندما بلغ أمير المؤمنين غارة معاوية على هيت والأنبار، قال بعد أن تثاقل أهل الكوفة: لا يدرك الحق إلا بالجد والصدق، فأى دار بعد داركم تمنعون، ومع أى إمام بعدى تقاتلون. المغرور من غررتموه، ومن فارقكم فاز بالسهم الأصيب. أصبحت والله لا أصدق قولكم، ولا أطمع فى نصركم، فرق الله بينى وبينكم، وأعقبنى بكم من هو خيرا لى منكم، وأعقبكم من هو شر لكم منى. أما إنكم ستلقون بعدى ثلاثا: ذلا شاملا، وسيفا قاطعا، وآثره قبيحة يتخذها فيكم الظالمون سنة. فتبكى لذلك أعينكم، ويدخل الفقر بيوتكم،

وستذكرون عند ذلك المواطن، فتودون أنكم رأيتمونى وهرقتم دماءكم دونى، فلا يبعد الله إلا من ظلم [۱۴].

[صفحه ۱۴۸]

وعندما بلغه أن سرايا معاوية تقتل شيعته ويعرضون النساء المسلمات فى الأسواق. خطب الناس فقال: أيها الناس. إنى قد بثثت لكم المواعظ [۱۵] التى وعظ بها الأنبياء أممهم، وأديت إليكم ما أدت الأوصياء [۱۶] إلى من بعدهم، وأدبتكم بسوطى فلم تستقيموا. وحدوتكم [۱۷] بالزواجر فلم تستوسقوا [۱۸]، لله أنتم. أتتوقعون إماما غيرى يطأ بكم الطريق [۱۹]، ويرشدكم السبيل؟ ألا إنه قد أدبر من الدنيا ما كان مقبلا، وأقبل منها ما كان مدبرا. وأزمع الترحال عباد الله الأخيار، وباعوا قليلا من الدنيا لا يبقى بكثير من الآخرة لا يفنى. ما ضر إخواننا الذين سفكت دماؤهم بصفين ألا يكونوا اليوم أحياء، يسيغون الغصص، ويشربون الرنق. قد والله لقوا الله فوفاهم أجورهم، وأحلهم دار الأمن بعد خوفهم، أين إخوانى الذين ركبوا الطريق، ومضوا على الحق؟ أين عمار؟ وأين ابن التيهان؟ وأين ذو الشهادتين؟ وأين نظراؤهم من إخوانهم [۲۰] الذين تعاقدوا على المنية [۲۱] وأبرد برؤوسهم إلى الفجرة؟ [۲۲].

قال راوى الحديث: ثم ضرب عليه السلام بيده على لحيته الشريفة الكريمة. فأطال البكاء، ثم قال: أوه على إخوانى الذين قرأوا القرآن فأحكموه، وتدبروا الفرض فأقاموه! أحيوا السنة وأماتوا البدعة. دعوا إلى الجهاد فأجابوا، ووثقوا بالقائد فاتبعوه [۲۳] ثم نادى بأعلى صوته: الجهاد الجهاد عباد الله. ألا

[صفحه ۱۴۹]

وإنى معسكر فى يومى هذا، فمن أراد الرواح إلى الله فليخرج [۲۴] وروى أنه

ضرب برجله على المنبر حتى سمع قدمه فى آخر المسجد، وقال: والله لتطأون هكذا هكذا. ثم لتستعملن عليكم اليهود والنصارى حتى تنفوا، ثم لا يرغم الله إلا بآنافكم [۲۵].

لقد أخبرهم أولا- بظهور أهل الشام عليهم، ثم أخبرهم ثانيا بأن اليهود والنصارى سيقودوهم إلى عالم النفى أى عالم الترديه، حيث تكون مهمتهم تقليد اليهود والنصارى فى كل شئ، ثم أخبرهم ثالثا بأنهم سيركبون المرحلة الأخيرة معهم، وهى التى لا يرغم الله إلا بآنافهم، وهذه الأرضية هى أرضية الخنزيرية حيث يطبخون فى المادة حتى يأتيهم الدجال. وروى أن الإمام بعد أن خطبهم خرج بنفسه ماشيا إلى المعسكر. فأدركه بعض الناس، وكان يريد أن يتوجه لقتال أهل الشام. ومن العجيب أنه بعد أن عزم على ضرب أهل الشام جاءته الضربة القاتلة من أشقى الناس عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله، وعندما جاءت الضربة تراجع العساكر فكانوا كأغنام فقدت راعيها، تخطفها الذئاب من كل مكان [۲۶].

[۱] ابن أبى الحديد ۸۱۳:۱ والحديث رواه الحاكم والبيهقى بسند صحيح (البداية والنهاية ۲۱۸:۶، كنز العمال ۲۹۷:۱۱).

[۲] عبيد كأرباب:يصفهم بالكبر.

[۳] أيادى سبأ:مثل يضرب للمتفرقين.

[۴] تتخادعون عن مواعظكم:أى تمسكون من الاتعاظ والانزجار.

[۵] كظهر الخية:الخية القوس. يريد اعوجاجهم كما أن ظهر القوس معوج.

[۶] أعضل المقوم:أى أعضل داؤه.

[۷] تربت أيديكم:أى لا أصبتم خيرا.

[۸] فما أخالكم:أى فما أظنكم.

[۹] حمى الوغى:اشتد وعظهم. والوغى:الأصوات والجلبة.

[۱۰] انفراج المرأة عن قبلها:أى وقت الولادة.

[۱۱] القطه لقطا:أى أنا التقط طريق الهدى من بين طريق الضلال لفظ من هاهنا وهاهنا. كما يسلك الإنسان طريقا دقيقة اكتنفها

الشوكـ.

[۱۲] ابن أبى الحديد ۶۲۴:۲.

[۱۳] رواه ابن عساكر (كنز العمال ۱۹۵:۱۳) ابن كثير (البداية ۱۲:۸) المسعودى (مروج الذهب ۱۳۹:۳).

[۱۴] ابن عساكر (كنز العمال ۳۵۶:۱۱).

[۱۵] بثت لكم المواعظ:فرقتها ونشرتها.

[۱۶] الأوصياء:الذين يأتمنهم الأنبياء على الأسرار الإلهية أو الذين لهم الإمرة والولاية.

[۱۷] حدوتكم:سقتكم كما تحدى الإبل.

[۱۸] فلم تستوسقوا:أى لم تجتمعوا.

[۱۹] يطأ بكم الطريق:أى يحملكم على المنهاج الشرعى.

[۲۰] أين نظراؤهم:يعنى الذين قتلوا بصفين من الصحابة.

[۲۱] وتعاقدوا على المنية:جعلوا بينهم عقدا.

[۲۲] وابرد برؤوسهم:أى حملت رؤوسهم مع البريد إلى الفسقة للبشارة بها. والفجرة هنا هم أمراء الشام.

[۲۳] وثقوا بالقائد:يعنى نفسه فاتبعوه فى حرب من حارب وسلم من سالم.

[۲۴] ابن أبى الحديد ۴۳۶:۳.

[۲۵] الدولابى فى الكنى والأسماء، ابن أبى شيبة (كنز العمال ۷۸۰:۵).

[۲۶] ابن أبى الحديد ۴۳۷:۳.

وغاب القمر

روى أن النبى صلى الله عليه وآله قال لعلى: ألا أحدثك بأشقى الناس.

رجلين: أحيمر ثمود الذى عقر الناقة، والذى يضربك يا على على هذه (يعنى رأسه) حتى تبتل منه هذه (يعنى لحيته) [۱] ، وقال له": إن الأمة ستغدر بك

[صفحه ۱۵۰]

بعدى، وأنت تعيش على ملتى وتقتل على سنتى. من أحبك أحبنى، ومن أبغضك أبغضنى، وإن هذه ستخضب من هذا (يعنى لحيته من رأسه) [۲] وروى

أن أنسا قال: دخلت مع النبى صلى الله عليه وسلم على على وهو مريض. وعنده أبو بكر وعمر. فقال أحدهما لصاحبه: ما أراه إلا هالكا. فقال النبى: إنه لن يموت إلا مقتولا. ولن يموت حتى يملأ غيظا [۳] .

وروى أن أبا فضالة الأنصارى خرج ليعود على فى مرض أصابه، وأثناء حديثه مع على قال على: عهد إلى النبى صلى الله عليه وسلم أن لا أموت حتى تخضب هذه من هذه (يعنى لحيته من هامته) [۴] وعن أبى سنان أنه عاد عليا فى

شكوى اشتكاها، فقال لعلى: لقد تخوفنا عليك فى شكواك هذه. فقال: ما تخوفت على نفسى، عهد إلى أن لا أموت حتى تخضب هذه من هذه [۵] وروى

أن رجلا من الخوارج يقال له الجعد بن بعجة قال لعلى: اتق الله يا على فإنك ميت، فقال: بل مقتول، ضربة على هذا تخضب هذه. عهد معهود وقضاء مقضى، وقد خاب من افترى [۶] ، وروى أن عليا كان يعرف قاتله وذلك لأن النبى وصفه له وسماه واسم أبيه، وعندما جاء ابن ملجم مع الناس ليبايع عليا قال على:

أريد حياته ويريد قتلى++

عذيرك [۷] من خليلك من مرادى [۸] .

[صفحه ۱۵۱]

وكان يقول هذا كلما رآه، وروى أنه لما دخل شهر رمضان، كان يفطر عند الحسن ليلة وعند الحسين ليلة، وليلة عند عبد الله بن جعفر، ولا يزيد على اللقمتين أو ثلاث. فقيل له فى ذلك فقال: إنما هى ليال قلائل، يأتى أمر الله وأنا خميص [۹] وفى اليوم الذى قتل فيه جاءه ابن النباح حين طلع الفجر يؤذنه

بالصلاة، فقام يمشى وهو يقول:

أشدد حيازيمك للموت++

فإن الموت لاقيكا

ولا تجزع من الموت++

إذا حل بواديكا [۱۰] .

وقال: والله ما كذبت وكذبت، وإنها الليلة التى وعدت فيها [۱۱] وعندما

خرج، أقبل الوز والبط يصحن فى وجهه، فطردوهن عنه فقال: ذروهن فإنهن نوائح [۱۲] ، وكان ابن ملجم قد أتى الأشعث بن قيس فى هذه الليلة، فخلا به فى بعض نواحى المسجد، ومر بهما حجر بن عدى، فسمع الأشعث يقول لابن ملجم: النجاء النجاء بحاجتك فقد فضحك الصبح. فقال حجر: قتلته يا أعور، وخرج مبادرا إلى على ليخبره [۱۳] ، وقال أبو الفرج: وللأشعث بن قيس فى انحرافه عن أمير المؤمنين أخبار يطول شرحها [۱۴] ولم يلتق حجر بن عدى

بعلى، وسبقه ابن ملجم فضربه، فأقبل حجر والناس يقولون: قتل أمير المؤمنين [۱۵] وعن أبى عبد الله بن محمد الأزدى قال: إنى لأصلى تلك الليلة

فى المسجد الأعظم مع رجال من أهل المصر، كانوا يصلون فى ذلك الشهر من أول الليل إلى آخره. إذ نظرت إلى رجال يصلون قريبا من السدة. قياما وقعودا وركوعا وسجودا ما يسأمون إذ يخرج عليهم على بن أبى طالب الفجر. فأقبل

[صفحه ۱۵۲]

ينادى: الصلاة الصلاة، فرأيت بريق السيف وسمعت قائلا يقول: الحكم لله يا على لا لك. ثم رأيت بريف سيف آخر وسمعت على عليه السلام يقول: لا يفوتنكم الرجل [۱۶] .

قال أبو الفرج: فأما بريق السيف الأول، فإنه كان شبيب بن بحير ضربه فأخطأه، ووقعت ضربته فى الطاق، وأما بريق السيف الثانى، فإنه ابن ملجم ضربه فأثبت الضربة فى وسط الرأس، وشد الناس عليهما من كل ناحية حتى أخذوهما [۱۷] ، وانصرف الناس من صلاة الصبح، فأحدقوا بابن ملجم ينهشون لحمه بأسنانهم ويقولون: يا عدو الله ماذا صنعت؟ أهلكت أمة محمد وقتلت خير الناس. وأنه لصامت لا ينطق [۱۸] .

وأمر أمير المؤمنين على إذا مات من الضربة أن يفعلوا بقاتله كما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل برجل أراد قتله. وهو أن يقتل ويحرق بالنار [۱۹] وطريقة القصاص من قاتله تدل أيضا على منزلة أمير المؤمنين من

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وروى أن الناس أخذوا ابن ملجم وأدرجوه فى بوارى ثم طلوها بالنفط وأشعلوا فيها النيران فاحترق [۲۰] .

ورحل الإمام على عليه السلام من الدنيا. وروى أنه قال: إن خليلى صلى الله عليه وآله وسلم حدثنى أن أضرب لسبع عشر قضى من رمضان، وهى الليلة التى مات فيها موسى عليه السلام، وأموت لاثنين وعشرين من رمضان، وهى الليلة التى رفع فيها عيسى عليه السلام

[۲۱] وبعد أن صعدت روح الإمام

[صفحه ۱۵۳]

إلى بارئها وقف الحسن بن على فى الناس خطيبا ثم قال ": أيها الناس. لقد فارقكم رجل بالأمس لم يسبقه الأولون بعلم ولا يدركه الآخرون، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبعثه بالراية جبريل عن يمينه وميكائيل عن شماله، لا ينصرف حتى يفتح الله له، وزاد فى رواية - وما ترك من صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم من عطاء، كان يرصدها لخادم لأهله، ثم خنقته العبرة فبكى وبكى الناس معه [۲۲] .

وروى الطبرى: لما إنتهى إلى عائشة قتل على بن أبى طالب قالت:

فألقت عصاها واستقرت بها النوى++

كما قر عينا بالإياب المسافر

ثم قالت: من قتله؟ فقيل: رجل من مراد. قالت:

فإن يك بك نائيا فلقد نعاه++

غلام ليس فى فيه التراب

فقالت لها زينب ابنة أبى سلمة: العلى تقولين هذا؟ فقالت: إنى أنسى فإذا نسيت فذكرونى [۲۳] ، وكانوا قد قالوا لعائشة أيام صفين: ألا تعجبين لرجل من الطلقاء ينازع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلافة؟ فقالت: وما تعجب من ذلك؟ هو سلطان الله يؤتيه البر والفاجر [۲۴] .

وبعد مقتل الإمام أنشد الخارجى عمران بن حطان [۲۵] شعرا يمدح فيه قاتل عليا فقال:

يا ضربة من تقى ما أراد بها++

ألا ليبلغ من ذى العرش رضوانا

إنى لأذكره يوما فأحسبه++

أوفى البرية عند الله ميزانا [۲۶] .

[صفحه ۱۵۴]

وعمران بن حطان هذا له رواية فى صحيح البخارى، الذى قيل فيه أنه أصح كتاب بعد كتاب الله، وممن عاب على البخارى إخراجه حديث عمران بن حطان الدارقطنى فقال: عمران متروك لسوء اعتقاده وسوء مذهبه [۲۷] وأخرج أبو

داوود أيضا حديث عمران عن عائشة. وقال: إن الخوارج أصح أهل الأهواء حديثا [۲۸] والخوارج هم الذين وصفهم النبى صلى الله عليه وسلم بأنهم:

"يمرقون من الدين [" ۲۹] ، أى أن أهواءهم خارج نطاق الدين. وأخبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم أيضا بأنهم " لن يعودوا إلى الدين [" ۳۰] وبين أنهم " لا

يزالون يخرجون حتى يخرج آخرهم مع الدجال [" ۳۱] فالطريق واضح فكيف

يكونوا أصح أهل الأهواء حديثا وهم الذين أرادوا هدم الدين من رأس؟ يقول شاعرهم ابن مياس المرادى فى قتل على:

ونحن خلعنا ملكه من نظامه++

بضربة سيف إذ علا وتجبرا

ونحن كرام فى الصباح أعزة++

إذا الموت بالموت ارتدى وتأذرا

وقال أيضا:

فلا مهر أغلى من على وإن غلا++

ولا قتل إلا دون قتل ابن ملجم [۳۲] .

ولقد رد القاضى أبو الطيب على شعر عمران بن حطان فقال:

إنى لأبرأ مما أنت قائله++

عن ابن ملجم الملعون بهتانا

يا ضربة من شقى ما أراد بها++

ألا ليهدم للإسلام أركانا

إنى لأذكره يوما فألعنه++

دنيا وألعن عمران ابن حطانا

[صفحه ۱۵۵]

وقال:

أنتما من كلاب النار جاء به++

نص الشريعة برهانا وتبيانا [۳۳] .

[۱] رواه أحمد وقال الهيثمى رواه أحمد والبزار ورجاله ثقات (الزوائد ۱۳۶:۹)، والحاكم والبيهقى بسند صحيح (المستدرک ۱۴۱:۳)، (كنز ۱۳۶:۱۳) (البداية والنهاية ۲۱۸:۶).

[۲] رواه أحمد وصححه (المستدرک ۱۴۲:۳) والدارقطنى والخطيب (كنز العمال ۶۱۷:۱۱).

[۳] قال السيوطى فى الخصائص الكبرى رواه الحاكم (الخصائص ۲۱۰:۲).

[۴] قال ابن كثير رواه الطبرانى (البداية والنهاية ۲۱۸:۶).

[۵] رواه الطبرانى وقال الهيثمى إسناده حسن (الزوائد ۱۳۷:۹) والحاكم وصححه (۱۱۳:۳).

[۶] رواه أحمد (الفتح الربانى ۱۶۳:۲۳) والطبرانى والبغوى والضياء بسند صحيح (كنز العمال ۲۹۷:۱۱) والحاكم (المستدرک ۱۴۳:۳)، وقال ابن كثير رواه الطيالسى (البداية ۲۱۸:۶).

[۷] أى هات من يعتذر منك.

[۸] رواه ابن سعد ووكيع (كنز العمال ۱۹۱:۱۳).

[۹] رواه ابن عساكر والعسكرى (كنز ۱۹۰:۳۹۵:۱۳).

[۱۰] رواه ابن عساكر (كنز العمال ۱۹۶:۱۳) وابن أبى الحديد ۳۳۹:۲.

[۱۱] مروج الذهب ۴۵۹:۲.

[۱۲] ابن كثير (البداية ۱۴:۸)، (مروج الذهب ۴۵۹:۲، ابن عساكر ۱۹۵:۱۳.

[۱۳] ابن أبى الحديد ۳۴۰:۲، مقاتل الطالبين.

[۱۴] مقاتل الطالبين، ابن أبى الحديد ۳۴۰:۲.

[۱۵] مقاتل الطالبين، ابن أبى الحديد ۳۴۰:۲.

[۱۶] رواه الطبرانى (الزوائد ۱۴۱:۹)، الطبرى ۸۴:۶، ابن أبى الحديد ۳۴۰:۲.

[۱۷] مقاتل الطالبين، ابن أبى الحديد ۳۴۰:۲.

[۱۸] مقاتل الطالبین، ابن أبی الحدید ۳۴۱:۲.

[۱۹] رواه أحمد ورجاله ثقات (الفتح الربانی ۱۶۳:۲۳)، (الزوائد ۱۴۲:۹) والحاکم (المستدرک ۱۴۴:۳).

[۲۰] مروج الذهب ۴۶۱:۲.

[۲۱] کنز العمال ۶۹۷:۱۳. وهذا الحدیث اعترض علیه ابن الجوزی. وکم رد ابن الجوزی أحادیث صحیحة. ولقد تصدی له السیوطی وبین أنه لم یصب الحق فی الکثیر من اعتراضاته. والحدیث رواه أبو یعلی وابن جریر وابن عساکر (کنز ۶۹۳:۱۳).

[۲۲] رواه أحمد بسند صحیح (الفتح الربانی ۱۶۴:۲۳) وابن أبی شیبة وأبو نعیم وابن عساکر وابن جریر (کنز العمال ۱۹۳:۱۳)، مروج الذهب ۴۶۱:۲.

[۲۳] الطبری ۶۷:۶.

[۲۴] البدایة والنهایة ۱۳۱:۸.

[۲۵] قال فی الإصابة: کان من رؤوس الخوارج.

[۲۶] مروج الذهب ۴۶۲:۲، البدایة والنهایة ۳۲۹:۷.

[۲۷] الإصابة:ابن حجر ۱۸۰:۳.

[۲۸] الإصابة ۱۱۹:۳.

[۲۹] رواه أحمد (البدایة والنهایة ۲۹۲:۳).

[۳۰] رواه أحمد (البدایة والنهایة ۲۹۷:۷).

[۳۱] رواه أحمد ورجاله ثقات (الزوائد ۲۲۹:۶). .

[۳۲] الطبری ۸۷:۶، البدایة والنهایة ۳۲۹:۷.

[۳۳] مروج الذهب ۴۶۲:۲.

لهیب اللیل

لم یر الناس إلا ابن ملجم وأصحابه عندما قتل أمیر المؤمنین، وفی
الحقیقة کان هناک طابور طویل یقف وراء ابن ملجم ولا یراهم إلا الله وحده. لقد شارک الکثیر من الناس فی قتل علی بن أبی طالب، وفی کتاب الله الکریم. عقر ناقة صالح علیه السلام فردا واحدا قال تعالی: (إذ انبعث أشقاها)، وبعد إتمام عملیة القتل قال تعالی: (فکذبوه فعقروها) [۱] ، وفی هذا یقول الإمام علی: أیها الناس، إنما یجمع الناس الرضا والسخط، وإنما عقر ناقة ثمود رجل واحد، فعمهم الله بالعذاب لما عموه بالرضا، فقال سبحانه: (فعقروها فأصبحوا نادمین) [۲] فما کان ألا خارت أرضهم بالخسفة خوار السکة المحماة فی
الأرض الخوارة. أیها الناس: من سلک الطریق ورد الماء، ومن خالف وقع فی التیه [۳] ولا یخفی أن حدیث قتل علی بن أبی طالب فیه أحیمر ثمود قاتل
الناقة، والذی یضرب علیا علی رأسه فتخضب لحیته من رأسه. فأشقی الناس هنا یقابله أشقی الناس هناک، وقتل علی هنا یقابله قتل الناقة هناک. والعذاب الذی وقع هناک لا بد وأن یقابله عذاب هنا. ولذلک کان علی بن أبی طالب یخبرهم بالذل الشامل الذی سیحل بهم بعد مقتله کما أخبره النبی صلی الله علیه وآله وسلم. والعذاب الذی یشق طریقه الظالمون من الأمة الخاتمة، یستقیم مع رسالة الأمة ودوامها حتی قیام الساعة. بمعنی أن ثمود ضربهم عذاب الاستئصال. أما الأمة الخاتمة فلها عذاب یستقیم مع الاستئصال بصورة من الصور حتی یأتی أمر الله.

[صفحه ۱۵۶]

ولما كان الدجال خارج لا محالة فی آخر الزمان. كما أخبر النبی صلی الله علیه وسلم ": إن الله لم یبعث نبیا إلا حذر أمته الدجال، وأنا آخر الأنبیاء، وأنتم آخر الأمم، وهو خارج فیكم لا محالة [" ۴] ولما كانت جمیع الفتن منذ كانت

الدنیا تصب شذوذها فی سلة لها موضع عند الدجال، كما أخبر النبی صلی الله علیه وسلم ": وما صنعت فتنة منذ كانت الدنیا صغیرة أو كبیرة إلا لفتنة الدجال [" ۵] ، فإن ملامح العذاب الذی یصیب الظالمین من الأمة ترى صورته على طریق الدجال. وطریق الدجال داخل مربع الأمة یبدأ كما قال النبی صلی الله علیه وآله وسلم من عند دائرتین ": ثلاثة من نجا منها فقد نجی، من نجا عند موتی، ومن نجا عند قتل خلیفة یقتل مظلوما وهو مصطبر یعطی الحق من نفسه فقد نجا، ومن نجا من فتنة الدجال فقد نجا [" ۶] فالدائرة الأولى حادث أو

موقف ینشأ عند موت النبی صلی الله علیه وسلم، والدائرة الثانیة قتل خلیفة یعمل بالحق ویسیر بالحق وهدفه الحق. فالذی ینجو من الدائرة الأولى، ویدخل فی أمان الدائرة الثانیة تسوقه أقدامه إلى أمان الدائرة الثالثة والتی یكون مركزها الدجال. فالأمان یدفع إلى أمان. ومن وقع فی فتنة الدجال، فإن لوقوعه أسباب سلك طریقها یقول النبی صلی الله علیه وآله وسلم ": لأنا لفتنة بعضكم أخوف عندی من الدجال، ولن ینجو أحد مما قبلها إلا نجا منها [" ۷] .

فهذا باختصار طریق العذاب وبعض ملامحه. والله تعالى لا یظلم الناس. والعذاب الذی یرونه ما هو إلا نتیجة طبیعیة لأعمالهم. والله تعالى أخذ على نفسه الرحمة، وأنه لا یضل قوما بعد إذ هداهم حتى یبین لهم ما یتقون. ولقد ساق النبی صلی الله علیه وسلم الأمة إلى طریق الهدایة. وحذرهم من كل سبیل

[صفحه ۱۵۷]

لیس لله فیه رایة. وبالغ فی التحذیر فقال ": من أهان سلطان الله فی الأرض أهانه الله [" ۸] ، وقال ": أول فرقة تسیر إلى السلطان فی الأرض لتذله یذلهم الله تعالى یوم القیامة [" ۹] ، قال فی تحفة الأحوذی: أی من أهان من أعز الله أهانه الله. وفی الأرض متعلق بسلطان الله. قال تعالى لداوود علیه السلام ": إنا جعلناك فی الأرض خلیفة " وإضافة السلطان إلى الله إضافة تشریف كبیت الله وناقة الله [" ۱۰] .

فالنبی حذر من إهانة سلطان الله، وحذر أیضا من إهانة ولیه الذی هو ولی الله فقال ": من أهان لی ولیا فقد بارزنی بالعداوة [" ۱۱] ، وقال ": من أخاف لی ولیا فقد بارزنی بالمحاربة [" ۱۲] ، وقال ": من عادی لی ولیا فقد ناصبنی بالمحاربة [۱۳] ، وقال ": من آذی لی ولیا فقد استحل محارمی [" ۱۴] ، وقال لعلی وفاطمة والحسن والحسین ": أنا حرب لمن حاربتم وسلم لمن سالمتم [" ۱۵] ، وقال: "من آذی علیا فقد آذانی [" ۱۶] ، وقال: من كنت مولاه فعلی مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. وانصر من نصره واخذل من خذله [" ۱۷] ، وقال:

[صفحه ۱۵۸]

"سبعة لعنتهم ولعنهم الله " منهم " المتسلط على أمتی بالجبروت لیذل من أعز الله ویعز من أذل الله. والمستحل من عترتی ما حرم الله [" ۱۸] .

والنبی وهو یحذر كان یعلم أن الأمة ستقع فی الفتن، ولكن ما على الرسول إلا البلاغ، ولقد ساق الناس إلى الهدى آخذا بجمیع الأسباب للوصول بهم إلى هذا الهدف. كان یعلم بأنهم سیكذبوه وأنه سیهاجر ویترك لهم الدیار فی سبیل الله وأنهم سیقاتلونه وأن بنی أمیة سیصعدون منبره فی نهایة المطاف، فلم یحول هذا العلم بینه وبین الدعوة، وإنما جاهد ونصح حتى لا یكون للناس على الله حجة یوم القیامة. ومما روی عن النبی وهو یخبر بالغیب عن ربه " والذی نفسی بیده لا تقوم الساعة حتى تقتلوا إمامكم وتجتلدوا بأسیافكم ویرث دنیاكم شراركم [" ۱۹] ففی الحدیث بدایة تسفر عن قتل إمام، ثم اجتلاد

بالسيوف، ثم يجلس الرويبضه والغلمان السفهاء على المقاعد الأولى وبين أيديهم دنيا فعلوا من أجلها الأفاعيل. وهكذا يستقيم البدء مع الختام. فالناس لم يروا سوى ابن ملجم وأصحابه عند قتل الإمام على، كما أن ثمود لم تر سوى عاقر الناقة وأصحابه. وروى أن الناقة عندما قتلت رفعت ببصرها إلى السماء. وروى أن جماعة تبعوا فصيلها لما هرب منهم فرماه أحدهم بسهم فأصاب قلبه، وأن فصيلها رغا ثلاث مرات إلى السماء [۲۰]، وروى أن الإمام على قال ": إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سنح لى الليلة فى منامى. فقلت: يا رسول الله. ما لقيت من أمتك من الأود واللدد. فقا: ادع عليهم. فقلت: اللهم أبدلنى بهم من هو خير لى منهم. وأبدلهم بى من هو شر منى [۲۱]، وهذا الدعاء جهر به الإمام أمام القوم عندما خذلوه. ثم

[صفحه ۱۵۹]

رحل الإمام وأمامه البشرى. قال له النبى صلى الله عليه وسلم ": أبشر يا على حياتك معى وموتك معى [" ۲۲]، وقال ": إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة على وعمار وسلمان [" ۲۳]، وقال لفاطمة ": إنى وإياك وهذا النائم [۲۴] وهما [۲۵] لفى مكان واحد يوم القيامة" [۲۶].

وإذا كانت البشرى دائرة عاش فيها الإمام على فى الدنيا، فإن البشرى يوم القيامة ستكون حقيقة يعيشها الإمام على بجانب الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم، وبما أن ساحة الأمة يوجد عليها إمام مقتول، فإننا نلقى الضوء هنا على الدماء يوم القيامة، يقول النبى صلى الله عليه وسلم ": أول ما يقضى بين الناس فى الدماء [" ۲۷]، وفيما يتعلق بالأمة فى هذا الشأن يقول الإمام على ": أنا أول من يجثو بين يدى الرحمن للخصومة يوم القيامة [" ۲۸]، وروى أنه قال ": أنا حجيج المارقين وخصيم الناكثين المرتابين " أى: يوم القيامة [۲۹].

وروى أنه عندما نزل قوله تعالى (": ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) [۳۰] قال الزبير يا رسول الله. أتكرر علينا الخصومة بعد الذى كان بيننا فى الدنيا؟ قال: نعم فقال الزبير: إن الأمر إذا لشديد [۳۱].

وروى أن الإمام على قال: يؤتى بى وبمعاوية يوم القيامة فنختصم عند ذى

[صفحه ۱۶۰]

العرش. فأينا فلج فلج أصحابه [" ۳۲]، وقال ": حزبنا حزب الله، والفئة الباغية حزب الشيطان، ومن سوى بيننا وبين عدونا فليس منا" [۳۳]، أما قول الإمام بأن حزبه هو حزب الله فإن هذا يستشف ويرى بوضوح فى آيات القرآن الكريم وفى الأحاديث الصحيحة وفى حركة التاريخ، وإما أن الفئة الباغية هى حزب الشيطان، فيكفى الفئة الباغية قتل عمار الذى يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول فى عمار ": عمار خلط الله الإيمان ما بين قرنه إلى قدمه. وخلط الإيمان بلحمه ودمه [" ۳۴]، وقال: روى عمار إيمانا إلى مشاشته [۳۵]، فعمار الذى فى دائرة الإيمان قتل بيد الفئة الباغية، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول ": أبى الله أن يجعل لقاتل مؤمن توبة [" ۳۶]، وقال ": لو أن أهل السماء والأرض اشتركوا فى دم مؤمن لأكبهم الله فى النار [" ۳۷]، فالذى يقتل مؤمنا لأنه مؤمن، فهذا بلا جدال من حزب الشيطان. ولأن المؤمن كثير ما يقتل على طريق البغى، فلقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا الطريق فقال ": يا معشر المسلمين احذروا البغى، فإنه ليس من عقوبة هى أخطر من عقوبة البغى [" ۳۸]، وقال ": لو بغى جبل على جبل لدك الباغى منهما [" ۳۹]، وقال: لا يبغى على الناس إلا ولد بغى أو فيه شئ منه [" ۴۰]، وقال ": لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدره، ألا ولا غادر أعظم غدرا من أمير عامة [" ۴۱].

[صفحه ۱۶۱]

فالأمير الذى يسلك طريق المكر والخديعة على امتداد طريق البغى هو أعظم الناس غدرا، وله لواء يوم القيامة يحمل اسمه. فإذا كان حزب الله وحزب الشيطان لهما معالمهما فى أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم. فلا تسوية بين هذا وذاك لقول النبى صلى الله عليه وسلم أيضا ": على بن أبى طالب باب حطة، من دخل فيه كان مؤمنا ومن خرج منه كان كافرا [" ۴۲]، قال فى فيض القدير: والمعنى

أن علیا طریق حط الخطایا [۴۳] ، وقال النبی صلی الله علیه وسلم ": فلو أن رجلا صفن [۴۴] بین الرکن والمقام وصلی وصام ثم مات وهو مبغض لآل محمد صلی الله علیه وسلم دخل النار [" ۴۵] ، وقال ": والذی نفسی بیده لا یبغضنا أهل البیت أحد إلا أدخله الله النار ["۴۶] ، وقال ": النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بیتی أمان لأمتی من الاختلاف. فإذا خالفتها قبیلة من العرب، اختلفوا فصاروا حزب إبلیس [" ۴۷] ، والتسویة لا تستقیم أیضا، لأن النبی صلی الله علیه وسلم أخبر بأن طریق البغاة سیکون فیه مال الله دولا، ودین الله دخلا وعباد الله خولا. وعلی امتداد هذا الطریق تنبت الأشجار التی حذر منها النبی، أشجار الفتن التی یجلس فی ظلها الدجال وأتباعه آخر الزمان. ودائرة الدجال التی علیها رجس لا تستقیم مع دائرة المهدی الذی فیها من الله طهر. وکما حذر النبی من الدجال فی أحادیث، بشر أیضا بالمهدی فی أحادیث. ومن عدل الله أنه قابل الشر المخبوء بعدل مخبوء، وکما أن للشر أعلام کذلک للعدل أعلام.

[صفحه ۱۶۲]

وفی الختام نقول: لقد عمل التیار التخریبی علی امتداد التاریخ لوقف حرکة الأنبیاء والرسل، ولکن کیدهم رد إلی نحورهم وخاب سعیهم وأصبحوا أحادیث. وعند الرسالة الخاتمة اجتمعت رایات الشذوذ التی تحمل بصمات الذین أصبحوا أحادیث، وأرادوا الکید للدعوة، ولکن الله کشف خباياهم، وهتک سترهم وأخبر النبی بوقع أقدامهم فی المستقبل کی یحذر أمته. فکان النبی یتکلم مع الرجل منهم فی الوقت الذی یری حقیقته فی الآخرة، بمعنی: یقول له أحدهم یا رسول الله أین مدخلی؟ فیقول له النبی: النار فالنبی هنا یراه علی صورتین، والصورة الأخیرة هی الحقیقة، وعلی هذا المثال، کان النبی صلی الله علیه وآله وسلم یتحدث مع فطاحل بنی أمیة، وهو یراهم فی صورة أخری علی منبره بعد وفاته، ثم یری حقیقتهم فی الآخرة. وفقا لهذا حذر النبی أشد التحذیر من الیهود ومن النصاری، ومن المنافقین ومن الذین فی قلوبهم مرض، ولقد بینا هذا فی موضعه. وبعد النبی صلی الله علیه وسلم اجتهد بنی أمیة، فکان العقد فیما بینهم، حتی أن أبی بن کعب کان یقول فی عهد عمر ": هلک أهل العقد ورب الکعبة، هلک أهل العقد ورب الکعبة، والله ما آسی علیهم إنما آسی علی من أهلکوا من المسلمین [۴۸] ولقد ذکرنا فیما سبق أن أبی بن کعب عندما وعد الناس بأنه

سیتکلم یوم الجمعة. ما جاء یوم الجمعة إلا وأبی بن کعب فی عالم ما بعد الحیاة الدنیا. ولا ندری أهی مصادفة أن یموت أبو بکر مسموما، وعمر مقتولا ثم یأتی عثمان یضعه بنی أمیة علی طریق القتل، ثم یأتی أمیر المؤمنین علی فیقاتله معاویة، ثم یقتل أمیر المؤمنین. ولقد اتهم أبو الأسود الدؤلی معاویة بهذا القتل عندما قال:

ألا أبلغ معاویة بن حرب++

فلا قرت عیون الشامتینا

أفی شهر الصیام فجعتمونا++

بخیر الناس طر أجمعینا

[صفحه ۱۶۳]

قتلتم خیر من رکب المطایا++

وذللها ومن رکب السفینا [۴۹] .

وکان الإمام علی یضع قریش فی دائرة الساعین لقتله وکان کثیرا ما یقول:

تلکم قریش تمنانی لتقتلنی++

فلا وربک ما بروا وما ظفروا

فإن هلکت فرهن ذمتی لهم++

بذات ودقین ولا یعفو لها أثر [۵۰] .

فبنی أمیه لم تکن بعیده عن دم الإمام، ثم جاء دور الحسن بن علی وروی أن معاویه أوصی بنت الأشعث لتسمه، وقتل الحسن مسموما. ثم جاء الدور علی الحسین قتیل الدولهٔ الأمویهٔ. فهل جاء کل هذا مصادفهٔ لیجلس بنی أمیهٔ علی رؤوس الأمهٔ؟ إن الذی قطف الثمرهٔ لا بد أنه یراقب الشجرهٔ زمنا طویلا، وهذه المراقبهٔ لا بد وأن تستقیم مع أحادیث اللعن التی لعن فیها النبی تیارات الهدم. بمعنی أنهم وهم یراقبون الأحداث کانوا علی درایهٔ بأن هذه الأحداث ستصب فی وعائهم فی نهایهٔ المطاف، لأن وقودهم هو الذی یدفعها ویسیرها. إن قیادهٔ بنی أمیهٔ للبغض لم تأت بعد عهد الإمام علی، وإنما بدأت بعد نزول الوحی علی رسول الله صلی الله علیه وسلم، وهذا نراه فی حدیث ": أبغض الناس إلی رسول الله صلی الله علیه وسلم: بنو أمیهٔ وثقیف وبنو حنیفهٔ [" ۵۱] ، وقول النبی صلی الله علیه وآله وسلم ": أشد قومنا لنا بغضا بنو أمیهٔ وبنو المغیرهٔ وبنو مخزوم [" ۵۲] ، إن البغض لطریق الهدایهٔ کان منذ زمن الرسول، وهذا البغض ارتدی رداء الفتن البراقهٔ بعد عهد علی بن أبی طالب. ولقد کان فی بنی أمیهٔ رجال صدقوا ما عاهدوا الله علیه، وهؤلاء کان یعرفهم الإمام علی، وکان فیهم أیضا رجال یتسلقون ویشترون الذمم للصد عن سبیل الله وهؤلاء أیضا کان یعرفهم الإمام علی، ویری بصماتهم من اشتغل برصد التاریخ وأحداثه. فهم هناک عند دائرهٔ الکبر، التی قال فیها النبی صلی الله علیه وسلم ": الکبر بطر الحق

[صفحه ۱۶۴]

وغمط الناس [" ۵۳] ، وبطر الحق: دفعه وإنکاره ترفعا وتجبرا [۵۴] ، وقیل: هو أن یجعل ما جعله الله حقا باطلا، وقیل: هو أن یتکبر علی الحق فلا یقبله، وغمط الناس: أی احتقارهم [۵۵] .

إن الإمام علی قتله الذین یبغضونه، قتله تیار المسجد الضرار، وتیار العقبهٔ الذین أرادوا یوما أن یغتالوا النبی عند عودته من تبوک. والتاریخ لا یحاکم الناس، وإنما الذی یحاکمهم الله وحده. وروی أن الإمام علی قال: لا تأمنن علی خیر هذه الأمهٔ عذاب الله لقوله تعالی ": فلا یأمن مکر الله إلا القوم الخاسرین) [۵۶] .

ولا تیأس لشر هذه الأمهٔ من روح الله لقوله تعالی: (إنه لا ییأس من روح الله إلا القوم الکافرون) [۵۷] .

إن التاریخ لا یحاکم أحدا، إنما الذی یحاکم الناس هو الله وحده. ولقد رحل الإمام، وفی الحدیث الصحیح یقول النبی لعلی: أنت أخی، وأبو ولدی، تقاتل علی سنتی وتبرئ ذمتی، من مات فی عهدی فهو کنز الله، ومن مات فی عهدک فقد قضی نحبه. ومن مات بحبک بعد موتک ختم الله له بالأمن، والإیمان ما طلعت الشمس أو غربت، ومن مات یبغضک مات میتهٔ جاهلیهٔ وحوسب بما عمل فی الإسلام [" ۵۸] .

[صفحه ۱۶۷]

[۱] سورهٔ الشمس: الآیهٔ ۱۴.

[۲] سورهٔ الشعراء: الآیهٔ ۱۵۷.

[۳] ابن أبی الحدید ۵۴۹:۳.

[۴] رواه مسلم (الصحیح ۵۵:۱۸) الترمذی (الجامع ۲۳۲:۴) وأحمد (الفتح الربانی ۷۶:۲۴) الحاکم (المستدرک ۵۳۶:۱).

[۵] رواه البزار ورجاله رجال الصحیح (الزوائد ۳۳۵:۷).

[۶] رواه أحمد والطبرانی والضیاء بسند صحیح (کنز العمال ۱۸۰:۱۱) والحاکم وصححه (المستدرک ۱۰۱:۳).

[۷] رواه أحمد والبزار وقال الهیثمی رجال أحمد رجال الصحیح (الزوائد ۳۳۵:۷).

[۸] رواه ابن أبی عاصم وصححه الألبانی (کتاب السنهٔ ۴۸۹:۲) والترمذی (کنز العمال ۱۸۴:۱).

[۹] رواه الدیلمی عن حذیفهٔ (کنز ۲۱۵:۱).

[۱۰] تحفهٔ الأحوذی ۴۷۶:۶).

[۱۱] رواه الطبرانی وأبو نعیم عن أبی إمامهٔ (کنز ۲۲۹:۱).

[۱۲] رواه ابن عساکر عن أنس (کنز ۲۲۹:۱۱).

[۱۳] رواه الطبرانی عن ابن عباس (کنز ۲۳۱:۱).

[۱۴] رواه أحمد وأبی یعلی والطبرانی وابن عساکر عن عائشة (کنز ۲۳۰:۱).

[۱۵] رواه الحاکم وصححه (المستدرک ۱۴۹:۳) والضیاء بسند ۶۴۰:۱۳) والترمذی (الجامع ۶۹۹:۵).

[۱۶] رواه أحمد وقال الهیثمی رجال أحمد ثقات، ورواه الطبرانی والبزار وابن حبان فی صحیحه (الزوائد ۱۲۹:۹) والحاکم صححه (المستدرک ۱۲۲:۳) وأبو یعلی ورجاله ثقات (الزوائد ۱۲۹:۹)، وابن سعد وابن أبی شیبة (کنز ۱۴۲:۱۳).

[۱۷] رواه البزار وابن جریر وقال الهیثمی رجاله ثقات (کنز العمال ۱۵۸:۱۳) والألبانی وصححه (الصحیحة ۳۴۳:۵).

[۱۸] رواه ابن أبی عاصم وحسنه الألبانی (کتاب السنة ۲۴:۱).

[۱۹] رواه الترمذی (الجامع ۴۶۸:۴) وقال فی تحفة الأحوذی، رواه ابن ماجة (التحفة ۳۹۱:۶).

[۲۰] ابن کثیر فی التفسیر (۲۲۹:۲) والمیزان (۳۱۵:۱۰).

[۲۱] البدایة والنهایة ۱۲:۸، الطبقات الکبری ۳۶:۳، العقد الفرید ۲۸۹:۲، مقاتل الطالبین ص ۱۶.

[۲۲] رواه الطبرانی وقال الهیثمی إسناده حسن (الزوائد ۱۱۲:۹).

[۲۳] رواه الترمذی وصححه (الجامع ۶۶۷:۵) والحاکم وأقره الذهبی (المستدرک ۱۳۷:۳).

[۲۴] أی علیا.

[۲۵] أی الحسن والحسین.

[۲۶] رواه الحاکم وأقره الذهبی (المستدرک ۱۳۷:۳).

[۲۷] رواه البخاری ومسلم والترمذی (کشف الخفاء ۸۲۶:۱)، (الجامع ۱۰:۴)، (کنز العمال ۲۰:۱۵).

[۲۸] رواه البخاری (الصحیح ۵:۳.

[۲۹] ابن أبی الحدید ۳۷۸:۲.

[۳۰] سورة الزمر: الآیة ۳۱.

[۳۱] رواه الترمذی وصححه (الجامع ۳۷۱:۵).

[۳۲] رواه ابن عساکر والحارث (کنز العمال ۳۵۰:۱۱).

[۳۳] رواه ابن عساکر (کنز العمال ۳۵۶:۱۱).

[۳۴] رواه ابن عساکر (کنز العمال ۷۲۰:۱۱).

[۳۵] رواه الحاکم وأقره الذهبی (المستدرک ۳۹۲:۳).

[۳۶] رواه الطبرانی والضیاء بسند صحیح (کنز العمال ۱۹:۱۵).

[۳۷] رواه الترمذی (الجامع ۱۱:۴).

[۳۸] رواه ابن أبی الدنیا وابن النجار (کنز العمال ۳۰۸:۳) وابن عدی (کنز ۴۴۶:۳).

[۳۹] (کنز العمال ۴۴۶:۳).

[۴۰] رواه ابن عساکر (کنز العمال ۱۹:۱۱) والطبرانی (کنز ۴۴۶:۳).

[۴۱] رواه مسلم (کنز العمال ۵۱۸:۳) وأحادیث لواء الغدر رواه البخاری (الصحیح ۷۸:۴) والترمذی (الجامع ۱۴۴:۴).

[۴۲] رواه الدارقطنی فی الأفراد (کنز ۱۰۰:۵).

[۴۳] فیض القدیر ۴:۳۵۶.

[۴۴] أى وقف.

[۴۵] رواه الطبرانى. وقال الهيثمى روى هذا الحديث عن سفيان الثورى وبقية رجاله رجال الصحيح (الزوائد ۱۷۱:۹)، ورواه الحاكم وقال حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وواقعة الذهبى (المستدرك ۱۴۹:۳).

[۴۶] رواه الحاكم وقال حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه (المستدرك ۱۵۰:۳).

[۴۷] رواه الحاكم وقال هذا حديث صحيح الإسناد (المستدرك ۱۴۹:۳).

[۴۸] رواه الحاكم وأقره الذهبى (المستدرك ۵۲۷:۴).

[۴۹] مروج الذهب ۴۶۳:۲.

[۵۰] مروج الذهب ۴۶۴:۲.

[۵۱] رواه البيهقى ورجاله ثقات (البداية والنهاية ۲۶۸:۶).

[۵۲] رواه نعيم بن حماد والحاكم (كنز العمال (۱۶۹:۱۱).

[۵۳] رواه مسلم (الصحيح ۸۹:۲).

[۵۴] النووى شرح مسلم (الصحيح ۸۹:۲).

[۵۵] تحفة الأحوذى ۱۳۸:۶.

[۵۶] سورة الأعراف: الآية ۹۹.

[۵۷] سورة يوسف: الآية ۸۷.

[۵۸] رواه أبو يعلى وقال البوصيرى رواته ثقات (كنز العمال ۱۵۹:۱۳).

جداول الدماء

عاصفة الأمطار الحمضية

بيعة الحسن بن على

كان الحسن بن على علامة بارزة فى طريق الدعوة إلى الله. فإذا كان

على بن أبى طالب حجة على عصر فيه أكابر الصحابة، فإن الحسن حجة على جيله أو إن شئت فقل حجة على مقدمة جيل التابعين، أو قل حجة على الساحة الإسلامية من بعد والده عليه السلام. ويكفى لكى ندلل على ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم للحسن والحسين " من أحبهما فقد أحبنى ومن أبغضهما فقد أبغضنى [" ۱] ، وقوله ": هذان ابناى وابنا ابنتى، اللهم أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما [" ۲] ، يكفى أنهما من أصحاب الكساء، ولقد قال النبى لأصحاب الكساء " أنا حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم" [۳] ، وعلاوة على هذا وذاك

[صفحه ۱۶۸]

فلقد قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم ": جاءنى جبريل أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة [" ۴] .

فهذه المناقب لم توضع إلا لحكمة ومن وراء هذه الحكمة هدف. والحسن خاض المعارك مع والده، وكان يعلم جيدا ما الذى عليه أهل الشام، وكان يعلم أن معاوية سيملك ما تحت قدمه. هكذا سمع من النبى صلى الله عليه وسلم ومن على بن أبى طالب عليه السلام. وعلى الرغم من أنه كان يعلم أن نهايته فى مربع الشهادة، وأنه سيقتل ويكون سيدا فى الجنة بهذه الشهادة. إلا- أنه أخذ بالأسباب لإقامة الحجة حتى لا يكون للناس على الله حجة. والبداية كانت بعد وفاة أمير المؤمنين. روى الطبرانى أن الحسن بن على

خطب الناس، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر أمير المؤمنين عليا خاتم الأوصياء، ووصى النبى وأمين الصديقين والشهداء... ثم قال: أيها الناس من عرفنى فقد عرفنى، ومن لم يعرفنى، فأنا الحسن بن محمد صلى الله عليه وسلم. أنا ابن البشير، أنا ابن النذير، أنا ابن الداعى إلى الله عز وجل بإذنه، وأنا ابن السراج المنير، وأنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا. والذين افترض الله مودتهم فى كتابه إذ يقول ": ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا [" ۵] ، فاقتراف الحسنة مودتنا أهل البيت [" ۶] .

فلما انتهى إلى هذا الموضع من الخطبة، قام عبد الله بن عباس بين يديه، فدعا الناس إلى بيعته [۷] ، وقام رجل فقال: أشهد لقد رأيت رسول الله صلى الله

[صفحه ۱۶۹]

عليه وآله وسلم واضعه فى حبوته ويقول ": من أحبنى فليحبه، فليبلغ الشاهد الغائب [" ۸] ، ولولا كرامة رسول الله ما حدثت به أبدا [۹] وعندما قام الناس

ليبايعوه، قال: أبايعكم على أن تسمعوا وتطيعوا وتسالمون من سالمت وتحاربون من حاربت [" ۱۰] ، فاستجابوا وقالوا: ما أحبه إلينا وأحقه بالخلافة [۱۱] .

وروى أن الحسن رضى الله عنه كتب إلى معاوية يدعوه إلى الطاعة والجماعة وقال له... ": ولقد كنا تعجبنا لتوثب المتوثبين علينا فى حقنا وسلطان نبينا، وإن كانوا ذوى فضيلة وسابقة فى الإسلام، وأمسكنا عن منازعتهم مخافة على الدين أن يجد المنافقون والأحزاب [۱۲] ، فى ذلك مغمزا يثلمونه به، أو يكون لهم بذلك سبب إلى ما أرادوا من إفساده. فاليوم فليتعجب المتعجب من توثبك يا معاوية على أمر لست من أهله ولا بفضل فى الدين معروف، ولا أثر فى الإسلام محمود. وأنت ابن حزب من الأحزاب، وابن أعدى قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولكتاب الله والله حسيبك، فسترد فتعلم لمن عقبى الدار. وبالله لتلقين عن قليل ربك، ثم ليجزينك بما قدمت يداك، وما الله بظلام للعبيد. إن عليا لما مضى لسبيله – رحمة الله عليه يوم قبض، ويوم من الله عليه بالإسلام، ويوم يبعث حيا – ولانى المسلمون الأمر بعده فأسأل الله أن يؤتينا فى الدنيا الزائلة شيئا ينقصنا به فى الآخرة مما عنده من كرامة، ولك فى ذلك إن فعلته الحظ الجسيم، والصلاح للمسلمين، فدع التمادى فى الباطل، وأدخل فيما دخل فيه الناس من بيعتى، فإنك تعلم أنى أحق بهذا الأمر منك عند الله وعند كل

[صفحه ۱۷۰]

أواب حفيظ، ومن له قلب منيب. واتق الله ودع البغى، واحقن دماء المسلمين، فوالله ما لك خيرا فى أن تلقى الله من دمائهم بأكثر مما أنت لاقيه فيه. وادخل فى السلم والطاعة، ولا تنازع الأمر أهله ومن هو أحق به منك ليطفئ الله النائرة [۱۳] بذلك، ويجمع الكلمة، ويصلح ذات البين. وإن أنت أبيت إلا التمادى فى غيك سرت إليك بالمسلمين فحاكمتك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين . "وأرسل الحسن هذه الرسالة مع حرب بن عبد الله الأزدى [۱۴] .

فكتب معاوية إليه ومما جاء فى رسالته... ذكرت وفاة النبى صلى الله عليه وسلم وتنازع الأمر بعده، وتغلبهم على أبيك، فصرحت بتهمة أبى بكر وعمر الفاروق، وأبى عبيدة الأمين حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصلحاء المهاجرين والأنصار. فكرهت ذلك لك. إنك امرؤ عندنا وعند الناس غير الظنين، ولا المسئ، ولا اللئيم وأنا أحب لك القول السديد، والذكر الجميل. إن هذه الأمة لما اختلفت بعد نبيها لم تجهل فضلكم ولا سابقتكم ولا قرابتكم من نبيكم، ولا مكانكم فى الإسلام وأهله. فرأت الأمة أن تخرج من هذا الأمر لقريش لمكانها من نبيها، ورأى صلحاء الناس من قريش والأنصار وغيرهم من سائر الناس وعوامهم أن يولوا هذا الأمر من قريش أقدمها إسلاما، وأعلمها بالله وأحبها له وأقواها على أمر الله، فاختاروا أبا بكر، وكان ذلك رأى ذوى الدين والفضل والناظرين للأمة. فأوقع ذلك فى صدوركم لهم التهمة، ولم يكونوا متهمين، ولا فيما أتوا بالمخطئين ولو رأى المسلمون أن فيكم من يغنى غناءه ويقوم مقامه، ويذب عن حريم الإسلام ذبه، ما عدلوا بالأمر إلى غيره رغبة عنه، ولكنهم عملوا فى ذلك بما رأوه صلاحا للإسلام وأهله، والله

یجزیهم عن الإسلام وأهله خیرا. وقد فهمت الذی دعوتنی إلیه من الصلح، والحال فیما بینی وبینک الیوم، مثل الحال التی کنتم علیها أنتم وأبو بکر بعد وفاهٔ النبی

[صفحه ۱۷۱]

صلی الله علیه وسلم فلو علمت أنک أضبط منی للرعیهٔ، وأحوط علی هذه الأمهٔ. وأحسن سیاسهٔ، وأقوی علی جمع الأموال، وأکید للعدو لأجبتک إلی ما دعوتنی إلیه، ورأیتک لذلک أهلا، ولکن قد علمت أنی أطول منک ولایهٔ، وأقدم منک بهذه الأمهٔ تجربهٔ، وأکبر منک سنا، فأنت أحق أن تجیبنی إلی هذه المنزلهٔ التی سألتنی، فادخل فی طاعتی، ولک الأمر من بعدی. "... قال جندب: فلما أتیت الحسن بکتاب معاویهٔ قلت له: إن الرجل سائر إلیک، فابدأه بالمسیر حتی تقاتله فی أرضه وبلاده وعماله. فإما أن تقدر أنه ینقاد لک، فلا والله حتی یری منا أعظم من یوم صفین [۱۵] .

وفی رسالهٔ معاویهٔ نری أن القوم بعد الرسول صلی الله علیه وسلم عملوا فی الخلافهٔ بما رأوه صلاحا للإسلام وأهله، ونری أن معاویهٔ فی زمن الحسن یحسبها بالأقدمیهٔ، فهو الأطول ولایهٔ والأقوی علی جمیع الأموال. ولا ندری لماذا لم یضع عنوان الأطول إسلاما أمام عینیه وهو یقاتل علیا؟ ولماذا رفع عنوان الأقدمیهٔ هنا بینما کان هناک یرفع قمیص عثمان؟ إن معاویهٔ وإعلامه یبدلون أعلامهم وفقا لمتطلبات کل ساحهٔ. ویدخرون لکل زمان خدعهٔ.

[۱] رواه أبو یعلی وقال البوصیری رواته ثقات (کنز العمال ۱۵۹:۱۳).

[۲] رواه ابن ماجهٔ وقال البوصیری صحیح ورجاله ثقات. ورواه الإمام أحمد والبزار (الفتح الربانی ۱۴۰۶:۳)، (الزوائد ۱۷۹:۹)، (سنن ابن ماجهٔ ۱:۵۱) ورواه الحاکم وصححه (المستدرک ۱۶۶:۳).

[۳] رواه الترمذی وحسنه (الجامع ۶۵۶:۵).

[۴] رواه الترمذی وابن ماجهٔ وأحمد والطبرانی والحاکم – وتم تخریجه من قبل.

[۵] هذا الحدیث عده السیوطی من المتواترات (تحفهٔ الأحوذی ۲۷۲:۳) ورواه البخاری والضیاء (کنز العمال ۱۲۰:۱۲) والترمذی وأحمد والحاکم وابن حبان وأبو یعلی وقال الهیثمی رجاله رجال الصحیح (الزوائد ۲۰۱:۹)، (الجامع الترمذی ۶۵۶:۵)، (کنز العمال ۱۱۲:۱۲).

[۶] سورهٔ الشوری: الآیهٔ ۲۳.

[۷] قال الهیثمی رواه الطبرانی فی الأوسط وفی الکبیر باختصار وأبو یعلی والبزار وأحمد وإسناد أحمد وبعض طرق البزار والطبرانی فی الکبیر حسان (الزوائد ۱۴۶:۹) ورواه الحاکم (المستدرک ۱۴۳:۳. ۱۷۲:۴)، ورواه الطبری فی تاریخ الأمم ۹۵:۶، وابن أبی الحدید ۶۹۶:۴.

[۸] رواه أحمد وابن أبی شیبهٔ وابن مندهٔ والحاکم (کنز العمال ۶۵۱:۱۳)، (المستدرک ۱۷۴:۳).

[۹] روایهٔ أخری للحاکم بها هذه الزیادهٔ (المستدرک ۱۷۴:۳).

[۱۰] الحاکم (المستدرک ۱۷۳:۳) الطبری ۹۳:۶.

[۱۱] ابن أبی الحدید ۶۹۷:۴.

[۱۲] الأحزاب هم الذین تحزبوا وتظاهروا علی قتال النبی صلی الله علیه وآله وسلم من قریش وغطفان وبنی مرهٔ وبنی أشجع وبنی سلیم وبنی أسد فی غزوهٔ الخندق.

[۱۳] للنائرهٔ:العداوهٔ والشحناء.

[۱۴] ابن أبی الحدید ۶۹۸:۴.

[۱۵] ابن أبی الحدید ۶۹۹:۴.

القتال بالذهب والفضة

عندما بعث معاوية إلى الحسن أن الخلافة له من بعده، كان الحسن ينظر

إلى هذا الوعد من نافذة أحاديث الإخبار بالغيب التى وضعها النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى دائرة ذهن أهل البيت. ولم يكن الحسن يعبأ كثيرا بما يقوله معاوية، نظرا لوزنه بمعيار هذه الأحاديث التى تخبر عن المستقبل. وروى أن الحسن كتب إلى معاوية: أما بعد فقد وصل إلى كتابك، تذكر فيه ما ذكرت، فتركت جوابك خشية البغى منى عليك، وبالله أعوذ من ذلك فاتبع الحق تعلم أنى من أهله، وعلى إثم أن أقول

[صفحه ۱۷۲]

فأكذب ["... ۱] .

فلما وصل كتاب الحسن إلى معاوية كتب إلى عماله... " إن الله بلطفه وحسن صنعه، أتاح لعلى بن أبى طالب رجلا من عباده، فاغتاله فقتله، فترك أصحابه متفرقين مختلفين، وقد جاءتنا كتب أشرافهم وقادتهم يلتمسون الأمان لأنفسهم وعشائرهم. فأقبلوا إلى حين يأتيكم كتابى هذا بجهدكم وجندكم وحسن عدتكم. فقد أصبتم بحمد الله الثأر، وبلغتم الأمل، وأهلك الله أهل البغى والعدوان"... [۲] فلما اجتمعت العساكر إلى معاوية سار بها قاصدا العراق. وبلغ الحسن خبره ومسيره نحوه. وأنه قد بلغ جسر منبج، فتحرك عند ذلك، وبعث حجر بن عدى، فأمر العمال والناس بالتهيؤ للمسير. ونادى المنادى: الصلاة جامعة. فخرج الحسن رضى الله عنه، وصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإن الله كتب الجهاد على خلقه. وسماه كرها، ثم قال لأهل الجهاد من المؤمنين: اصبروا إن الله مع الصابرين. فلستم أيها الناس نائلين ما تحبون إلا بالصبر على ما تكرهون، بلغنى أن معاوية بلغه أنا كنا أزمعنا على المسير إليه فتحرك لذلك، أخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم بالنخيلة حتى ننظر وتنظروا. ونرى وتروا [۳] .

وكان فى كلامه يتخوف خذلان الناس له. وبعد أن تكلم لم يتكلم أحد من الناس ولا أجابه بحرف. فلما رأى ذلك عدى بن حاتم قام فقال: أنا ابن حاتم، سبحان الله، ما أقبح هذا المقام! ألا تجيبون إمامكم وابن بنت نبيكم؟ أين خطباء مضر؟ أين المسلمون؟ أين الخواضون من أهل المصر الذين ألسنتهم كالمخاريق [۴] فى الدعة، فإذا جد الجد فرواغون كالثعالب؟ أما تخافون مقت الله

[صفحه ۱۷۳]

ولا عيبها وعارها؟ ثم استقبل الحسن بوجهه فقال: أصاب الله بك المراشد، وجنبك المكاره، ووفقك لما تحمد ورده وصدره، قد سمعنا مقالتك، وانتهينا إلى أمرك، وسمعنا لك وأطعناك فيما قلت وما رأيت. وهذا وجهى إلى معسكرى، فمن أحب أن يوافينى فليواف [۵] .

وكان عدى بن حاتم أول الناس عسكر، وقام قيس بن سعد بن عبادة، وزياد بن صعصعة وغيرهما فأنبوا الناس ولاموهم وحرضوهم. وخرج الناس فعسكروا، ونشطوا للخروج، وسار الحسن فى عسكره [۶] ، وفى الوقت الذى كان الحسن يخاف فيه من خذلان الناس له، كان معاوية يتحرك ببيت ماله المملوء بالذهب والفضة. ولقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم " أن لكل أمة فتنة وفتنة أمتى فى المال [" ۷] ، وقال ": إن هذا الدينار والدرهم أهلكا من قبلكم وهما مهلكاكم [" ۸] وكان معاوية يريد أن يشق صف الحسن قبل القتال بسكين الدينار والدرهم. وروى الحاكم أن عبد الله بن جعفر كان على مقدمة الحسن فى عشرة آلاف، فراسله معاوية وضمن له ألف ألف درهم. إذا سار إلى الحجاز وخرج من الساحة، فأجابه إلى ذلك. وتفرق الجند الذين كانوا مع عبد الله بن جعفر، وانضم البعض منهم إلى قوات قيس بن سعد [۹] الذى كان يعتبر القوة الضاربة فى جيش الحسن. وبعد أن فتت معاوية جانب من جوانب الحسن، بدأ يتفرغ لقوات قيس بن سعد. روى الطبرى: حين نزل الحسن عليه السلام المدائن بعث قيس بن سعد على مقدمته فى اثنى عشر ألفا، وأقبل معاوية فى أهل الشام حتى نزل مسكن. فبينما الحسن فى المدائن إذا نادى مناد فى العسكر: ألا إن قيس بن سعد قد

[صفحه ۱۷۴]

قتل، فانفروا فنفروا ونهبوا سرادق الحسن عليه السلام، حتى نازعوه بساطا كان تحته [۱۰] وتفرق الناس من حول الحسن بعد إذاعة بيان يقول أن قيسا قد قتل،

وهذا باطل، ولم يقف الأمر بعد إذاعة البيان عند سرقة متاع الحسن. وإنما حدث ما لم يكن فى الحسبان، فهناك من أشار بأسر الحسن وتقديمه إلى معاوية ليأخذوا من معاوية الأمان [۱۱] وهناك من تقدم من الحسن وطعنه بالمعول فشق

فخذه [۱۲] .

فهذا الهياج داخل المعسكر كان هدفه إحداث أكبر الخسائر فى القيادة بواسطة الغوغاء، فالحسن كان الهدف. وأهل الشام لهم خبرات فى دس العيون. ولقد روى أن معاوية دس رجلا من حمير إلى الكوفة، ورجلا من بنى القين إلى البصرة. وأمرهما أن يكتبا إليه أخبار الحسن [۱۳] وليس ببعيد أن تكون هذه الإذاعة التى أدت إلى خروج الحسن جريحا من أرض المعركة من صنع هؤلاء. وروى ابن أبى الحديد: أن الحسن عليه السلام حمل على سرير ودخل إلى المدائن، وبها سعيد بن مسعود واليا عليها من قبله، فأقام عنده يعالج جرحه [۱۴] ، وعندما جن الليل أرسل معاوية إلى القادة والجنود يخبرهم بأن الحسن راسله فى الصلح وهو مسلم الأمر إليه. وأغراهم بالمال، فانسل بعضهم ليلا ودخلوا معسكر معاوية [۱۵] ، ولم يتبق داخل معسكر الحسن سوى قوات قيس بن سعد وبعض الصحابة والتابعين الذين انفض عنهم الناس، بينما على الجانب الآخر تقف قوات الشام التى كسبت معركة ليس بما يملكون من رجال وإنما بما يملكون من ذهب وفضة. ولم يظهر بريق الذهب فجأة، وإنما كانت له أرضية قديمة دق فيها أوتاده، وحول هذه الأوتاد لا تسمع صوتا ترتعش خوفا ويقول:

[صفحه ۱۷۵]

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": إن لكل أمة فتنة وفتنة أمتى فى المال، " فما بالك إذا كانت الأيدى التى تدفع المال هى نفسها فتنة حذر الرسول منها! لم يتبين الناس الفتنة التى تعطى فتنة، ولم يضعوا فى اعتبارهم ماذا سيترتب على ذلك. والأهم من ذلك أنهم أحبوا ما نهوا عنه، وبغضوا وانفضوا عن ما أمروا به. ألم يقل النبى فى الحسن والحسين " من أحبهما فقد أحبنى ومن أبغضهما فقد أبغضنى [" ۱۶] وروى أن الحسن عندما تماثل للشفاء كان يحث الناس كى يتصدوا لمعاوية، ومن خطب الحسن رضى الله عنه فى بعض مقاماته أنه قال ": نحن حزب الله المفلحون وعترة رسول الله صلى الله عليه وسلم الأقربون، وأهل بيته الطاهرون الطيبون، وأحد الثقلين اللذين خلفهما رسول الله صلى الله عليه وسلم والثانى كتاب الله فيه تفصيل كل شئ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والمعول عليه فى كل شئ، لا يخطئنا تأويله، بل نتيقن حقائقه، فأطيعونا فإن طاعتنا مفروضة، إذ كانت بطاعة الله والرسول وأولى الأمر مقرونة "... فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول "، " ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر لعلمه الذين يستنبطونه منهم" [۱۷] ، وأحذركم الاصغاء لهتاف الشيطان، إنه لكم عدو مبين، فتكونون كأوليائه قال لهم "، لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إنى برئ منكم إنى أرى ما لا ترون [" ۱۸] ، [۱۹] ، وظل صوت الحسن يدوى فى أعماق السكون، فى عالم لا نبض فيه ولا ومض ولا صوت. وبدأ معاوية يتحسس الساحة من قريب ومن بعيد. وروى أنه بعث إلى الحسن بصحيفة بيضاء مختوم على أسفلها، وكتب إليه أن اشترط فى هذه

[صفحه ۱۷۶]

الصحيفة التى ختمت أسفلها ما شئت [۲۰] وعلى أن تكون الخلافة للحسن من بعده. وعندما وصلت الرسالة، قام الحسن خطيبا وقال: إن معاوية دعانا إلى أمر ليس فيه عز ولا نصفة. فإن أردتم الموت رددناه عليه، وحاكمناه إلى الله عز وجل بظبأ السيوف، وإن أردتم الحياة قبلناه وأخذنا لكم الرضا، فناداه الناس من كل جانب: البقية البقية وإمضاء الصلح [۲۱] .

وهنا قال الحسن رضى الله عنه كلمته المشهورة: يا أهل العراق إنه سخى بنفسى عنكم ثلاث قتلكم أبى، وطعنكم إياى وانتهابكم

متاعی [۲۲] فالذین

تخاذلوا عن الإمام علی وقتلوه، لا بد لهم من عقاب فی بطن الغیب. فلما جاء الحسن آخذا بأسباب النجاة، لم یترکوه وإنما طعنوه وسرقوا متاعه، فأی جنود هؤلاء الذین احترفوا ظلم أئمتهم؟ ثم إذا کانوا قد سرقوا متاعا بدراهم معدودة، فکیف یکون الحال إذا وضع الذهب فی طریقهم وأذن لهم أن یأخذوه نظیر خدمة ما یقدمونها إلی جهاز ما. وبدأ الحسن یترکهم وما یریدون، فلقد اشترط علیهم عند البیعة أن یسمعوا، وأن یطیعوا وأن یحاربوا من حارب ویسالموا من سالم. ولکنهم لم یسمعوا ولم یطیعوا وسالموا من حارب من قبل أن تبدأ الحرب، وروی أن الحسن رضی الله عنه کتب شروطا کثیرة علی الصحیفة البیضاء المختوم علی أسفلها، وهذه الشروط حجة بذاتها علی أصحاب المقاعد الأولی، حتی لا یکون لهم علی الله حجة. وبعث الحسن إلی معاویة یطلب الصلح، وکتب إلی قیس بن سعد وکان علی مقدمته فی اثنی عشر ألفا، یأمره بالدخول فی طاعة معاویة، فقام قیس فی الناس فقال: یا أیها الناس اختاروا الدخول فی طاعة إمام ضلالة أو القتال مع غیر إمام. قالوا: لا بل نختار أن ندخل فی طاعة إمام ضلالة، فبایعوا لمعاویة، وانصرف عنهم

قیس بن

[صفحه ۱۷۷]

سعد [۲۳] وروی: لما تم الصلح بین الحسن ومعاویة أرسل إلی قیس بن سعد یدعوه إلی البیعة، فقال: إنی حلفت ألا ألقاه إلا وبینی وبینه الرمح أو السیف، فأمر معاویة برمح وسیف فوضعا بینه وبینه لیبر یمینه، وقال له: أتبایع یا قیس؟ قال: نعم. ووضع یده علی فخذه ولم یمدها إلی معاویة، فجاء معاویة من سریره، وأکب علی قیس حتی مسح یده علی یده وما رفع إلیه قیس یده [۲۴] ، ثم أمر معاویة الحسن أن یخطب. فقام فخطب فقال فی خطبته: إنما الخلیفة من سار بکتاب الله وسنة نبیه، ولیس الخلیفة من سار بالجور، ذاک رجل ملک ملکا تمتع به قلیلا ثم تتخمه، تنقطع لذته، وتبقی تبعته (وإن أدری لعله فتنة لکم ومتاع إلی حین) [۲۵] [۲۶] .

[۱] ابن أبی الحدید ۴:۷۰۱.

[۲] ابن أبی الحدید ۴:۷۰۱.

[۳] المصدر السابق ۴:۷۰۱.

[۴] المصدر السابق ۴:۷۰۲.

[۵] المصدر السابق ۴:۷۰۲.

[۶] رواه الترمذی وصححه (الجامع ۴:۵۶۹).

[۷] رواه أبو داوود (کنز العمال ۴:۱۹۱).

[۸] الحاکم (المستدرک ۳:۶۷۴).

[۹] الطبری ۶:۹۲، ابن أبی الحدید ۴:۷۰۲.

[۱۰] الطبری ۶:۹۲.

[۱۱] الطبرانی وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۹:۱۷۲).

[۱۲] ابن أبی الحدید ۴:۶۹۷.

[۱۳] المصدر السابق ۴:۷۰۳.

[۱۴] المصدر السابق ۴:۷۰۴.

[۱۵] تم تخریجه من قبل.

[۱۶] تم تخریجه من قبل.

[۱۷] سورة النساء: الآیة ۵۹ – ۸۳.

[۱۸] سورة الأنفال: الآیة ۴۸.

[۱۹] مروج الذهب ۲:۴۸۰.

[۲۰] الطبری ۶:۹۳.

[۲۱] الانحرافات الکبری:للمؤلف ص ۴۷۸.

[۲۲] الطبری ۶:۹۲.

[۲۳] الطبری ۶:۹۲.

[۲۴] ابن أبی الحدید ۴:۷۰۷.

[۲۵] سورة الأنبیاء: الآیة ۱۱۱.

[۲۶] ابن أبی الحدید ۴:۷۰۷.

الغدر

قبل دخول معاویة الکوفة ظهر الغدر... روی أنه نزل النخیلة، وجمع

الناس بها فخطبهم وقال: ألا إن کل شئ أعطیته الحسن بن علی تحت قدمی هاتین لا أفی به. قال أبو إسحاق: وکان والله غادرا [۱] فمعاویة لم یدخل الکوفة عنوة، ولم یملک ما حولها قسرة، ولکن دخل بعهود ومواثیق. وما کان لمعاویة أن یلغی ما عاهد علیه إلا بعد أن تأکد أن المبایعة أصبحت فی عنق کثیر من العامة. وبعد أن تأکد أن الموقف العسکری فی صالحه. وفوق کل هذا فهو ألغی شروط الحسن لا- شروط العامة، وکان یعلم أن الحسن لو وقف أمام الناس یدعوهم للقتال من أجل أن یوفی معاویة بالشروط، فإن العامة ستفترق عن الحسن مع أول کیس من الذهب یلقیه معاویة علی رؤوسهم. وروی أن الحسن عندما التقی بمعاویة وسأله أن یعطیه الشروط التی شرط فی السجل الذی ختم

[صفحه ۱۷۸]

معاویة أسفله، لم یعط معاویة أی اهتمام لما تعاهد علیه وأبی أن ینفذ للحسن من الشروط شیئا [۲] .

ولم تکن هذه المفاجأة الوحیدة قبل دخول الکوفة، فلقد روی عن سعید بن سوید. قال: صلی بنا معاویة بالنخیلة الجمعة ثم خطبنا فقال: والله إنی ما قاتلتکم لتصلوا، ولا لتصوموا، ولا لتحجوا، ولا لتزکوا، إنکم لتفعلون ذلک. وإنما قاتلتکم لأتأمر علیکم. وقد أعطانی الله ذلک وأنتم کارهون [۳] .

وکان عبد الرحمن بن شریک إذا حدث بذلک یقول: هذا والله هو التهتک [۴] ثم سار موکب معاویة ولم یعترض معترض علی أی بیان أذاعه،

وتوجه نحو الکوفة. وعن حبیب بن أبی ثابت قال: خطب معاویة بالکوفة حین دخلها، فذکر علیا علیه السلام فنال منه ومن الحسن. فقام الحسن وقال: أیها الذاکر علیا، أنا الحسن وأبی علی، وأنت معاویة وأبوک صخر، وأمی فاطمة وأمک هند، وجدی رسول الله وجدک عتبة بن ربیعة، وجدتی خدیجة، وجدتک قتیلة، فلعن الله أخملنا ذکرا، وألأمنا حسبا، وشرنا قدیما وحدیثا، وأقدمنا کفرا ونفاقا. فقالت طوائف من أهل المسجد: آمین [۵] قال الفضل: قال یحیی بن

معین: وأنا أقول: آمین. وقال أبو الفرج: قال أبو عبید: قال الفضل: وأنا أقول ": آمین " ویقول علی بن الحسین الأصفهانی: آمین. وقال عبد الحمید بن أبی الحدید: آمین. قلت: ویقول سعید أیوب مصنف هذا الکتاب: آمین. وقال ابن عبد ربه: قعد معاویة بالکوفة یبایع الناس علی البراءة من علی بن أبی طالب [۶] فأین الشروط؟ أین الوفاء بالوعد؟ أین الأمانة؟ وهل کل من

[صفحه ۱۷۹]

خاصم فجر؟ وتوجد روایهٔ فی البخاری یستشف منها أصحاب العقول والأفهام أفول معاویهٔ فی الکوفهٔ، فعن مسروق قال: دخلنا علی عبد الله بن عمرو حین قدم معاویهٔ إلی الکوفهٔ، فذکر عبد الله رسول الله صلی الله علیه وسلم فقال: لم یکن فاحشا ولا متفحشا. وقال: قال رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم ": إن من أخیرکم أحسنکم خلقا، " تری، ما الذی دعی عبد الله أن یقول ذلک؟ وهل لهذا القول علاقهٔ بالإعلام الأموی وقتئذ؟ وروی أن الحسن رضی الله عنه خرج إلی مسجد الکوفهٔ فقال: یا أهل الکوفهٔ اتقوا الله فی جیرانکم وضیفانکم، وفی أهل البیت نبیکم صلی الله علیه وسلم الذین أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهیرا [۷] .

وروی المدائنی أن أصحاب الحسن اجتمعوا عنده، فقال المسیب بن نجیهٔ للحسن رضی الله عنه: ما ینقضی عجبی منک أعطاک معاویهٔ أمرا فیما بینک وبینه، ثم قال: ما قد سمعت، والله ما أراد بها غیرک. قال الحسن: فما تری؟ قال: أری أن ترجع إلی ما کنت علیه، فقد نقض ما کان بینه وبینک. فقال: یا مسیب. إنی لو أردت بما فعلت الدنیا لم یکن معاویهٔ بأصبر عند اللقاء، ولا أثبت عند الحرب منی، ولکنی أردت صلاحکم... فارضوا بقدر الله وقضائه، حتی یستریح بر، أو یستراح من فاجر [۸] .

وروی أن حجر بن عدی قال للحسن: لوددت أنک کنت من قبل هذا الیوم، ولم یکن ما کان. إنا رجعنا راغمین بما کرهنا، ورجعوا مسرورین بما أحبوا. فقال الحسن: یا حجر، لیس کل الناس یحب ما تحب ولا رأیه کرأیک وما فعلت ما فعلت إلا إبقاء علیک، والله کل یوم فی شأن [۹] ، وروی أن سفیان بن أبی لیلی النهدی دخل علیه فقال: السلام علیک یا مذل المؤمنین. قال الحسن: اجلس یرحمک الله. إن رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم رفع له ملک

[صفحه ۱۸۰]

بنی أمیهٔ، فنظر إلیه یعلون منبره واحدا فواحدا فشق ذلک علیه [۱۰] فأنزل الله فی

ذلک قرآنا قال له: (وما جعلنا الرؤیا التی أریناک إلا فتنهٔ للناس والشجرهٔ الملعونهٔ فی القرآن) [۱۱] ، وسمعت علیا أبی رحمه الله یقول سیلی أمر هذه الأمهٔ رجل واسع البلعوم کبیر البطن [۱۲] فسألته: من هو؟ فقال: معاویهٔ، وقال لی:

إن القرآن قد نطق بملک بنی أمیهٔ ومدتهم. قال تعالی: (لیلهٔ القدر خیر من ألف شهر) [۱۳] قال أبی: هذه ملک بنی أمیهٔ [۱۴] .

لقد أخذ الحسن رضی الله عنه بالأسباب، ولیس معنی أن القرآن قد أخبر بأن أبا لهب لن یؤمن أن الدعوهٔ لا تشمل أبا لهب، فکل حرف یسمعه وکل آیهٔ فی نفسه وفی الکون حجهٔ علیه. وکذلک أهل الشام لیس معنی أنهم سیجلسون علی المقاعد الأولی فی الدنیا، أن الدعوهٔ لا تتوجه إلیهم لتخبرهم بأحوال الدنیا وأخبار الآخرهٔ. ولله فی عباده شؤون. وخرج الحسن رضی الله عنه من الکوفهٔ فلما صار بدیر هند نظر إلی الکوفهٔ وقال:

ولا عن قلی فارقت دار معاشری++

هم المانعون خوزتی وذماری

ثم سار إلی المدینهٔ [۱۵] بعد أن أنقذ الکوفهٔ من مجزرهٔ کانت ستؤکل فیها کثیر من الأکباد، وروی أنه قال فی أهل العراق ": إنهم قوم لا یرجعون إلی الحق، ولا یقصرون عن باطل، أما إنی لست أخشاهم علی نفسی، ولکن أخشاهم علی ذاک - وأشار إلی الحسین [۱۶] .

[صفحه ۱۸۱]

[۱] المصدر السابق ۷۰۶:۴.

[۲] الطبری ۹۵:۶.

[۳] ابن أبی الحدید ۷۰۶:۴، البدایهٔ والنهایهٔ ۹۰:۵.

[۴] ابن أبی الحدید ۷۰۶:۴.

[۵] ابن أبی الحدید ۷۰۶:۴.

[۶] العقد الفرید ۱:۷۰.

[۷] الطبری ۶:۹۵.

[۸] ابن أبی الحدید ۴:۶۸۶.

[۹] الحدیث روی بسند صحیح، رواه الحاکم والترمذی والبیهقی وقد خرجناه فیما سبق.

[۱۰] ابن أبی الحدید ۴:۶۸۶.

[۱۱] سورة الإسراء: الآیة ۶۰.

[۱۲] الحدیث رواه غیر واحد منهم نعیم بن حماد عن الحسن (کنز العمال ۱۱:۳۴۹). والدیلمی (الخصائص الکبری ۲:۱۹۹).

[۱۳] الحدیث روی بسند صحیح کل من الحاکم والترمذی والبیهقی وابن جریر وغیرهم. وقد خرجناه فیما مضی.

[۱۴] ابن أبی الحدید ۴:۶۸۶.

[۱۵] ابن أبی الحدید ۴:۶۸۷.

[۱۶] رواه الطبرانی ورجاله ثقات (الزوائد ۶:۲۴۴).

وفاء و حقائق علی الطریق

کان معاویة فی الکوفة، وعلی امتداد الطریق من الکوفة إلی المدینة یبعث إلی کل من یعرفه ویسألهم عن علی بن أبی طالب. وکان یرید من وراء ذلک الوقوف علی أسباب حب الناس لعلی لیقوم بعد ذلک بوضع منهج ثقافی یتصدی لعلی بعد وفاته. ومن الذین التقی بهم معاویة خالد بن المعمر. قال معاویة له: کیف حبک لعلی؟ قال: أحبه لثلاث خصال: علی حلمه إذا غضب، وعلی صدقه إذا قال، وعلی وفائه إذا وعد [۱] وروی أنه بعث إلی امرأة یقال لها دارمیة الحجونیة وقال لها: أتدری لم بعثت إلیک؟ قالت: لا یعلم الغیب إلا الله، قال: بعثت إلیک لأسألک علام أحببت علیا وأبغضتنی ووالیته وعادیتنی؟ قالت: أو تعفینی، قال: لا أعفیک. قالت: أما إذا أبیت، فإنی أحببت علیا علی عدله فی الرعیة، وقسمه بالسویة، وأبغضتک علی قتالک من هو أولی منک بالأمر، وطلبتک ما لیس لک بحق. ووالیت علیا علی ما عقد له رسول الله صلی الله علیه وسلم تشیر إلی قوله: من کنت مولاه... - وحبه المساکین وحکمک بالهوی. فقال لها: یا هذه، هل رأیت علیا؟ قالت: أی والله. فقال: فکیف رأیته قالت: رأیته والله لم یفتنه الملک الذی فتنک. ولم تشغله النعمة التی شغلتک، فقال: فهل سمعت کلامه؟ قالت: نعم والله، فکان یجلو القلب من العمی کما یجلو الزیت صدأ الطست [۲] .

وروی أنه بعث إلی امرأة تدعی الزرقاء بنت عدی. فعندما دخلت علیه قال: مرحبا وأهلا. کیف کنت فی مسیرک؟ أتدرین فیم بعثت إلیک؟ قالت: إنی لی بعلم ما لم أعلم! قال: ألست الراکبة الجمل والواقفة بین الصفین یوم صفین تحضین علی القتال، وتوقدین الحرب، فما حملک علی ذلک؟ فقالت: یا معاویة مات الرأس، وبتر الذنب، ولم یعد ما ذهب، ومن تفکر أبصر، والأمر یحدث

[صفحه ۱۸۲]

بعده الأمر. قال: صدقت. أتحفظین کلامک یوم صفین؟ فقالت: لا. قال: لکنی أحفظه. لله أبوک حین تقولین: أیها الناس، إنکم قد أصبحتم فی فتنة غشتکم جلابیب الظلم، وجارت بکم عن قصد المحجة، فیا لها من فتنة عمیاء صماء بکماء، لا تسمع لناعقها ولا تنساق لقائدها. إن المصباح لا یضئ فی الشمس، ولا تنیر الکواکب مع القمر، ولا یقطع الحدید إلا الحدید، فصبرا یا معشر المهاجرین والأنصار علی الغضض. فکأن قد اندمل شعب الشتات، والتأمت کلمة العدل، دفع الحق باطله، فلا تجهلن أحد فیقول: کیف العدل وأنی لیقضی الله أمرا کان مفعولا. ألا وإن خضاب النساء الحناء، وخضاب الرجال الدماء، ولهذا الیوم ما بعده، والصبر خیر فی الأمور عواقبا... ثم قال معاویة: والله یا زرقاء لقد شرکت علیا فی کل دم سفکه. فقالت: أحسن الله بشارتک، وأدام سلامتک،، فمثلک بشر

بخير وسر جليسه. قال أو يسرك ذلك؟ فقالت: نعم والله. لقد سررت بالخبر فأنى لى بتصديق الفعل. قال معاوية: والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب من حبكم له فى حياته [۳] .

وروى أنه أمر بأن تحمل إليه أم الخير بنت الحريش بن سراقة. وعندما حضرت قال معاوية: أيكم يحفظ كلامها؟ فقال رجل: أنا أحفظ بعض كلامها. كانت تقول: أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم. إن الله قد أوضح لكم الحق، وأبان الدليل، وبين السبيل، ورفع العلم، ولم يدعكم فى عمياء مبهمة، ولا- سوداء - مدلهمة. فأين تريدون رحمكم الله. أفرارا عن أمير المؤمنين. أم فرارا من الزحف. أم رغبة عن الإسلام. أم ارتدادا عن الحق. أما سمعتم الله جل ثناؤه يقول: (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم). ثم رفعت رأسها إلى السماء يومئذ وقالت: اللهم قد عيل الصبر، وضعف اليقين، وانتشرت الرغبة، وبيدك يا رب أزمة القلوب، فاجمع اللهم بها الكلمة على التقوى، وألف القلوب على الهدى، وأردد الحق إلى أهله. هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل، والرضى التقى، والصديق الأكبر،

[صفحه ۱۸۳]

إنها إحن بدرية، وأحقاد جاهلية، وضغائن أحدية. وثب بها واثب حين الغفلة، ليدرك ثارات بنى عبد شمس. ثم قالت يومئذ قاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون. صبرا يا معشر المهاجرين والأنصار، قاتلوا على بصيرة من ربكم وثبات من دينكم. فكأنى بكم غدا وقد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة فرت من قسورة، لا تدرى أين يسلك بها من فجاج الأرض. باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا الضلالة بالهدى، وباعوا البصيرة بالعمى، وعما قليل ليصبحن نادمين حين تحل بهم الندامة، فيطلبون الإقالة ولات حين مناص. إنه من ضل والله عن الحق وقع فى الباطل. ألا إن أولياء الله استصغروا عمر الدنيا فرفضوها، واستطابوا الآخرة فسعوا لها، فالله الله أيها الناس، قبل أن تبطل الحقوق، وتعطل الحدود، ويظهر الظالمون، وتقوى كلمة الشيطان. فإلى أين تريدون رحمكم الله؟ عن ابن عم رسول الله صلى عليه وسلم، وصهره وأبى سبطيه، خلق من طينته وتفرع من نبعته [۴] ، وخصه بسره [۵] ، وجعله باب مدينته [۶] ، وأبان ببغضه المنافقين [۷] وها هو ذا مغلق السهام، ومكسر الأصنام [۸] ، صلى

والناس مشركون [۹] - وأطاع والناس كارهون،، وقتل مبارزى بدر، وأفنى أهل أحد، وهزم الأحزاب، وقتل الله به أهل خيبر [۱۰] ، مفرق به جمع هوزان، فيا لها

[صفحه ۱۸۴]

من وقائع زرعت فى قلوب نفاقا وردة وشقاقا - وزادت المؤمنين إيمانا. فقال معاوية: يا أم الخير ما أردت بهذا الكلام إلا قتلى، ولو قتلتك ما حرجت فى ذلك. قالت: والله ما يسوءنى فى أن يجرى قتلى على يدى من يسعدنى الله بشقائه [۱۱] .

وروى أن عكرشة بنت الأطرش بن رواحة دخلت على معاوية متوكئة على عكازها، فسلمت عليه بالخلافة ثم جلست. فقال لها معاوية: الآن يا عكرشة صرت عندك أمير المؤمنين. قالت: نعم إذ لا على حى، فقال: ألست المتقلدة حمائل السيف بصفين، وأنت واقفة بين الصفين تقولين: أيها الناس عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم. إن الجنة لا يرحل عنها من قطنها، ولا يهرم من سكنها، ولا يموت من دخلها، فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها، ولا تنصرم همومها، وكونوا قوما مستبصرين فى دينهم، مستظهرين بالصبر على طلب حقهم. إن معاوية دلف إليكم العرب غلف القلوب. لا يفقهون الإيمان ولا يدرون ما الحكمة. دعاهم بالدنيا فأجابوه واستدعاهم إلى الباطل فلبوه. ثم قال: فكأنى أراك على عصاك هذه، وقد انكفأ عليك العسكران يقولون: هذه عكرشة بنت الأطرش، فإن كدت لتقتلين أهل الشام لولا قدر الله، وكان أمر الله قدرا مقدورا، فما حملك على ذلك؟ قالت: يا أمير المؤمنين قال تعالى ": يا أيها الذين آمنوا لا- تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم)، وإن اللبيب إذا كره أمرا لا- يحب إعادته. قال: صدقت فاذكرى حاجتك. قالت: إنه كانت صدقاتنا تؤخذ من أغنيائنا فترد على فقرائنا، وإنا فقدنا ذلك، فقال معاوية: هيهات يا أهل العراق نبهكم على بن أبى طالب فلن تطاقوا [۱۲] .

لم يكن سهلا على معاوية أن يتلقى صفعات الحقائق من النساء المسلمات، ولكن معاوية عندما يستمع فإنما يستمع لهدف. ولقد اختار من النساء التى تشتهر بين قومها بالبلاغة، واختار أن يسمع من النساء، لأن الكلمات

[صفحه ۱۸۵]

ستخرج بلا- خوف من سيوف وقيود. وبعد أن استمع، تحرك ركبه إلى المدينة. وروى أنه لما قدم المدينة، تلقته رجال من وجوه قريش فقالوا: الحمد لله الذى أعز نصرك، وأعلا أمرك، فما رد عليهم جوابا حتى دخل المدينة. فقصد المسجد ثم قال: أما بعد فإنى والله ما وليت أمركم حين وليته وأنا أعلم أنكم لا تسرون بولايتى ولا تحبونها، وإنى لعالم بما فى نفوسكم من ذلك، ولكنى خالستكم بسيفى هذا مخالسة، ولقد رمت نفسى على عمل ابن أبى قحافة، فلم أجدها تقوم بذلك ولا- تقدر عليه. وأردتها على عمل ابن الخطاب، فكانت أشد نفورا وأعظم هربا من ذلك. وحاولتها على مثل سنيات عثمان فأبت على. وأين مثل هؤلاء؟ ومن يقدر على أعمالهم؟ هيهات أن يدرك فضلهم أحد ممن بعدهم. غير أنى سلكت بها طريقا لى فيه منفعة، ولكم فيه مثل ذلك، ولكن فيه مواكلة حسنة، ما استقامت السيرة وحسنت الطاعة. فإن لم تجدونى خيركم فأنا خير لكم. والله لا أحمل السيف على من لا سيف معه، ومهما تقدم مما قد علمتموه فقد جعلته دبر أذنى، وإن لم تجدونى أقوم بحقكم كله فارضوا منى ببعضه... وإياكم والفتنة فلا تهموا بها... [۱۳].

وأهم معالم الخطاب أن لكل خليفة طريقة، وبما أن معاوية لا يدرك فضل الذين سبقوه رضوان الله عليهم، فإنه ستكون له سنة خاصة به فيها منفعة له ولهم. وفى جميع الأحوال فهو قد وضع نفسه فى دائرة الخير " فإن لم تجدونى خيركم فأنا خير لكم، " وفى جميع الأحوال فهو فى دائرة الحق " وإن لم تجدونى أقوم بحقكم كله فارضوا منى ببعضه، " وفى جميع الأحوال فإن هذا هو الدين الذين نزل به جبريل الأمين على قلب محمد صلى الله عليه وسلم. وروى أن معاوية لقى أبا قتادة الأنصارى فى المدينة فقال له: تلقانى الناس كلهم غيركم يا معشر الأنصار. فقال: لم يكن لنا دواب. قال: فأين النواضح؟ فقال: عقرناها فى طلبك وطلب أبيك يوم بدر. ثم قال: إن النبى صلى الله عليه

[صفحه ۱۸۶]

وآله وسلم قال لنا: إنكم سترون بعدى آثرة. فقال معاوية: فما أمركم؟ قال: أمرنا أن نصبر. فقال معاوية: فاصبروا وعندما بلغ عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ذلك قال:

ألا أبلغ معاوية بن حرب++

أمير المؤمنين نبأ كلامى

فإنا صابرون ومنظروكم++

إلى يوم التغابن والخصام [۱۴].

وروى أنا أبا أيوب الأنصارى قال لمعاوية: أنبأنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا سنرى بعده أثرة. فقال معاوية: فيم أمركم. قال: أمرنا أن نصبر. فقال: اصبروا إذا [۱۵]، وروى أن مروان أقبل فوجد أبا أيوب الأنصارى عند قبر النبى صلى الله عليه وسلم واضعا وجهه على القبر ويبكى، فقال له مروان: أتدرى ما تصنع، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا تبكوا على الدين إذا وليه أهله، ولكن ابكوا على الدين إذا وليه غير أهله [۱۶].

وروى أن أروى بنت الحارث بن عبد المطلب دخلت على معاوية، وهى عجوز كبيرة، فقالت: يا ابن أخى، لقد كفرت يد النعمة، وأسأت لابن عمك الصحبة، وتسميت بغير اسمك، وأخذت غير حقك من غير بلاء كان منك، ولا من آبائك ولا سابقة فى الإسلام، بعد أن كفرتم برسول الله صلى الله عليه وسلم. فأتعس الله منكم الجدود، وأضرع منكم الخدود، ورد الحق إلى أهله ولو كره المشركون. وكانت كلمتنا هى العليا ونبينا صلى الله عليه وسلم هو المنصور، فوليتم علينا بعده تحتجون بقرابتكم من رسول الله صلى الله

عليه وآله وسلم. ونحن أقرب إليه منكم، وأولى بهذا الأمر، فكنا فيكم بمنزلة بنى إسرائيل فى آل فرعون. وكان على بن أبى طالب رحمه الله بعد نبينا صلى الله عليه

[صفحه ۱۸۷]

وسلم بمنزلة هارون من موسى، فغايتنا الجنة، وغايتكم النار، فقال لها عمرو بن العاص: كفى أيتها العجوز الضالة، واقصرى من قولك مع ذهاب عقلك. إذ لا تجوز شهادتك وحدك. فقالت له: وأنت يا ابن النابغة تتكلم، وأمك كانت أشهر امرأة تغنى بمكة وآخذهن الأجرة. ادعاك خمسة نفس من قريش، فسألت أمك عنهم فقالت: كلهم أتى فانظروا أشبههم به فالحقوه به، فغلب عليك شبه العاص بن وائل فلحقت به. فقال مروان: كفى أيتها العجوز واقصدى لما جئت له. فقالت: وأنت أيضا يا ابن الزرقاء تتكلم. ثم التفتت إلى معاوية فقالت: والله ما جرأ على هؤلاء غيرك. فإن أمك القائلة فى قتل حمزة:

نحن جزيناكم بيوم بدر++

والحرب بعد الحرب ذات سعر

ما كان لى عن عتبة من صبر++

وشكر وحشى على دهرى

حتى ترم أعظمى فى قبرى فأجابتها بنت عمى وهى تقول:

خزيت فى بدر وبعد بدر++

يا بنة جبار عظيم الكفر

فقال معاوية: عفا الله عما سلف، هات حاجتك. قالت: ما لى إليك حاجة وخرجت عنه [۱۷] ، وروى أن سعنة بن عريص قال لمعاوية: أنشدتك الله يا معاوية أما تذكر يا معاوية لما كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء على بن أبى طالب، فاستقبله النبى صلى الله عليه وسلم وقال: قاتل الله من يقاتلك وعادى من يعاديك، فقطع عليه معاوية حديثه وأخذ معه فى حديث آخر [۱۸] .

ما زلنا نرى الأحداث ومعاوية فى المدينة، ولم يبق أمامنا إلا أن نرصده عند بيت عثمان الذى كان قميصه لافتة كبرى عند بداية الأحداث. روى أن واثلة صحابى رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على معاوية. فقال له معاوية:

[صفحه ۱۸۸]

ألست من قتلة عثمان؟ قال: لا ولكنى ممن حضره فلم ينصره. فقال: وما منعك من نصره؟ قال: لم تنصره المهاجرون والأنصار. فقال معاوية: أما لقد كان حقه واجب عليهم أن ينصروه. قال: فما منعك يا أمير المؤمنين من نصره ومعك أهل الشام؟ فقال: أما طلبى بدمه نصرة له؟ فضحك أبو الطفيل ثم قال: أنت وعثمان كما قال الشاعر:

لا ألفينك بعد الموت تندبنى++

وفى حياتى ما زودتنى زادا [۱۹] .

وروى أن معاوية عندما دنا إلى باب دار عثمان بن عفان صاحت عائشة بنت عثمان وندبت أباها. فقال لها معاوية: يا بنت أخى، إن الناس أعطونا سلطاننا، فأظهرنا لهم حلما تحته غضب. وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد، فبعناهم هذا بهذا، وباعونا هذا بهذا، فإن أعطيناهم غير ما اشتروا منا، شحوا علينا بحقنا وغمطناهم بحقهم. ومع كل إنسان منهم شيعة، وهو يرى مكان شيعته. فإن نكثناهم نكثوا بنا، ثم لا ندرى أتكون لنا الدائرة أم علينا. وأن تكونى ابنة عثمان أمير المؤمنين. أحب إلى أن تكونى أمة من إماء المسلمين. ونعم الخلف أنا لك بعد أبيك [۲۰] .

وهكذا اندثرت لافتة " قميص عثمان " بعد أن حققت أهدافها، وأصبح معاوية نعم الخلف لأبناء عثمان بعد أبيهم. وعلى امتداد الطريق من الكوفة إلى المدينة، وضع معاوية يده على حقائق منها أن حب على بن أبى طالب فى القلوب، وأن تعاليمه راسخة رسوخ

الجبال، ولن يكون من السهل انفراد الحكام ببيوت المال، وأن حقه واضح ومنزلته من الرسول لا تحتاج إلى بيان طويل. وفوق كل هذا علم معاوية أن تاريخه الأموى تاريخ مكشوف أمام المهاجرين والأنصار، وأن كل ما ادعاه فى حربه مع على أصبح مفضوحا على ساحة المدينة وما حولها. وأما هذا وغيره، أقدم معاوية على سياسة يتم من خلالها التعتيم على دائرة الطهر، وفى الوقت نفسه تصنع له تاريخ.

[صفحه ۱۸۹]

[۱] العقد الفريد ۲:۲۸۲.

[۲] العقد الفريد ۲:۱۱۵.

[۳] العقد الفريد ۲:۱۰۸.

[۴] تقصد قول النبى ": إن الله تعالى جعل ذريتى فى صلب على، " رواه الطبرانى عن جابر وابن عباس (كنز ۱۱:۶۰۰).

[۵] تقصد حديث النجوى وغيره فى حديث النجوى حديث صحيح رواه الترمذى (الجامع ۵:۶۳۹).

[۶] تقصد حديث " أنا مدينة العلم وعلى بابها " وهو حديث صحيح وله طرق ضعيفة. وركز القوم على طرقه الضعيفة.

[۷] تقصد حديث " لا يبغضه إلا منافق " ورواه مسلم وغيره.

[۸] تقصد حديث تكسيره الأصنام مع رسول الله. ورواه البخارى.

[۹] تقصد حديث " أنا أول من أسلم " رواه الترمذى وصححه (الجامع ۵:۶۴۲) وحديث " أنا أول من صلى " رواه الإمام أحمد ورجاله ثقات (الزوائد ۹:۱۰۳).

[۱۰] تقصد حديث " لأدفعن الراية غدا إلى رجل يحبه الله ورسوله " والحديث رواه البخارى وأحمد (البخارى ۲:۱۶۶) الفتح الربانى ۲۳:۱۲۲.

[۱۱] العقد الفريد ۲:۱۱۹.

[۱۲] العقد الفريد ۲:۱۱۲.

[۱۳] البداية والنهاية ۸:۱۳۲.

[۱۴] تاريخ الخلفاء ۱:۱۸۸.

[۱۵] رواه الطبرانى وقال الهيثمى رواه الطبرانى بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح (الزوائد ۹:۳۲۳).

[۱۶] رواه الطبرانى وقال الهيثمى فيه كثير بن زيد وثقه أحمد وغيره (الزوائد ۵:۲۴۵) ورواه الحاكم وأقره الذهبى (المستدرك ۴:۵۱۵) ورواه أحمد (الفتح الربانى ۲۳:۳۲).

[۱۷] العقد الفريد ۲:۱۲۱.

[۱۸] قال فى الإصابة رواه ابن شيبة (الإصابة ۳:۹۴).

[۱۹] تاريخ الخلفاء ۱:۱۸۷.

[۲۰] البداية والنهاية ۸:۱۳۳.

نظرات فى مقعد جديد

من الشام بدأ معاوية فى إدارة شؤون الخلافة وروى أنه قال على منبر

دمشق ": أيها الناس اعقلوا قولى. فلن تجدوا أعلم بأمور الدنيا والآخرة منى [... ۱] وكان قد أعلن فى المدينة من قبل ": فإن لم تجدونى خيركم فأنا

خير لكم. " فمعاوية وضع نفسه فى دائرة العلم ودائرة الخير، ولكن الباحث يجد أن الحقيقة تخالف ذلك. أولا: لأن الأمة على أعتاب توجيه ضربة إلهية بما قدمت يداها وهذا ثابت فى أحاديث صحيحة، كما أن فتح أبواب كل شئ على الذين نسوا ما ذكروا به سنة كونية وحقيقة قرآنية. وقد تكون دوائر العلم والخير الخاصة بمعاوية فى ظاهرها علم وخير، ولكن الحقيقة التى لا جدال فيها أن فى باطنها فتنة ليس فيها علم يرى. وثانيا: أن بنى أمية بالذات على أيديهم يأتى ما ذكرناه فى أولا. فمعاوية وإن كان يعمل لصالح نفسه أو أسرته هو فى الحقيقة صورة من صور العذاب، كما أن الحجاج بن يوسف صورة من صوره. وقتال الإمام على لمعاوية كان فى الحقيقة أخذا بالأسباب لصد هذه الصورة التى تحمل معالم العذاب، والتى هى نتيجة طبيعية لأعمال الناس. وصد الإمام لهذه الصورة لا يكون إلا بدفع الناس إلى الصراط المستقيم، لأن أعمالهم على الصراط المستقيم ستفتح عليهم بركات من السماء، بينما أعمالهم على أى خط آخر ستأتى بصور العذاب حيث تفتح عليهم أبواب كل شئ عدا البركة. فالدعوة تعمل من أجل فتح أبواب وغلق أبواب، كى تصل القافلة البشرية سالمة غانمة إلى كمالها وأهدافها العليا. فإذا وجدنا معاوية يخطب على المنابر، فيجب أن نضع نصب أعيننا أن النبى صلى الله عليه وسلم ساءه ذلك عندما أراه الله بنى أمية ينزون على منبره نزو القردة. وإذا قال معاوية على منبر دمشق ": لن تجدوا أعلم منى بأمور الدنيا والآخرة " فيجب أن نعلم أن معاوية باغى، وأن الناس تخاذلوا ولم يردوه عن

[صفحه ۱۹۰]

بغيه، لهذا عبر إلى المنبر، وأن للباغى عقوبة عند الله، ومن ركب قطاره أصابته العقوبة. أخرج ابن مردويه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ثلاث قد فرغ الله من القضاء فيهن. لا يبغين أحدكم. فإن الله تعالى يقول: (يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم)، ولا يمكرن أحد، فإن الله تعالى يقول: (ولا يحيق المكر السئ إلا بأهله، " ولا ينكث أحد. فإن الله تعالى يقول: (من نكث فإنما ينكث على نفسه) [۲] .

إنها محطات ثلاث، من ركب فى قطار واحدة منهن فلا يلومن إلا نفسه قال النبى صلى الله عليه وسلم ": تعرض الفتن على القلوب، فأى قلب أنكرها نكتت فى قلبه نكتة بيضاء، وأى قلب لم ينكرها نكتت فى قلبه نكتة سوداء. حتى يصير القلب أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربدا كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه" [۳] ، أو قال ": إذا عملت الخطيئة فى الأرض كان من شهدها فكرهها كمن غاب عنها،، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها" [۴] .

إنها محطات ثلاث، ولا تخفى واحدة على أحد، أخرج ابن جرير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم. قيل: كيف؟ فقرأ قوله تعالى: (فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين) [۵] ، يعنى أنهم لا يهلكون حتى تكثر ذنوبهم فيستوجبون العقوبة، ويكون لمن يعذبهم عذر [۶] .

إن معاوية نزل بالخلافة إلى أرض الشام، بل وحاول أن ينقل منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هناك. وإذا كان قد أعلن من هناك، أنه

[صفحه ۱۹۱]

أعلم الناس بأمور الدنيا والآخرة، فإن الباحث يرد عليه قوله، ويقول: إن هذا القول يعارض الحقيقة التى أعلنها رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما قال لابن حولة: يا ابن حولة إذا رأيت الخلافة قد نزلت الأرض المقدسة فقد دنت الزلازل والبلايا والأمور العظام ["... ۷]

.

وقال الأمين الصادق صلى الله عليه وسلم ": لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا ولضحكتم قليلا- يظهر النفاق، وترفع الأمانة وتقبض الرحمة، ويتهم الأمين، ويؤتمن الخائن [" ۸] .

[۱] البداية والنهاية ۸:۱۳۲.

[۲] الدر المنثور ۳۰۳:۳.

[۳] رواه أحمد والحاكم وصححه (كنز العمال ۱۱۹:۱۱)، (المستدرک ۴۶۸:۴).

[۴] رواه أبو داوود حديث ۴۳۴۵.

[۵] عون المعبود ۵۰۲:۱۱.

[۶] عون المعبود ۵۰۲:۱۱.

[۷] رواه الإمام أحمد وأبو داوود والحاكم وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبى " الفتح الربانى ۲۹:۲۴. "

[۸] عند البخارى ضياع الأمانة. إذا أسند الأمر إلى غير أهله (الصحيح ۱۲۸:۴) ک الدعوات، ب رفع الأمانة.

اتهام الأمين

كان التعتيم على مناقب أمير المؤمنين على بن أبى طالب شيئا طبيعيا على

امتداد القرن الأول بصفة خاصة. فعمر بن الخطاب عندما خاف على الإسلام أمر بعدم الرواية، وهدد العديد من الصحابة الذين كانوا يروون الحديث. ولقد سجل البخارى منع عمر للرواية وعدم الأخذ بها من حديث أبى موسى عندما استأذن [۱] ولقد تحدثنا عن ذلك فى موضعه، وذكرنا أنه قد ترتب على ذلك

خفوت أصوات وظهور أصوات أخرى. وعندما جاء عهد على بن أبى طالب، كان القص قد غذى الساحة بعد أن خلت من الرواية. لهذا واجه الإمام صعوبات كثيرة ليبين للناس من هو، وشقت الرواية طريقها فى الصخور، وعلم الناس بعض مناقب الإمام. ولم يكن كل من علم راسخ العقيدة، وذلك لأن الإمام لم يسهر على تربيتهم، فالغالب الأعم منهم كان قريبا من ثقافة الوليد بن عقبة وأبو

[صفحه ۱۹۲]

زبيد الشاعر. وعندما رأى معالم العدل تحت راية الإمام ابتعد عن ثقافة الوليد وغيره، واقترب من ثقافة الإمام. وهؤلاء منهم من نصر الإمام، ومنهم من خذله. وكانت حركة الإمام تعتمد على الصحابة الأجلاء، وعلى الصادقين من التابعين. وعندما قتل هؤلاء لم تكن الخطورة قط على الجانب العسكرى، وإنما كانت أيضا على دوام الرواية. وإذا كان بين أيدينا حديث صحيح يقول: إذا نزلت الخلافة الأرض المقدسة فقد دنت البلايا، وإذا كان بين أيدينا أحاديث تحذر من البغى ومن بنى أمية، فلا عجب إذا رأينا بنى أمية يعملون من أجل تشويه الخط الرسالى، فإذا لم يشوهوا هذا الخط فأى خط يشوهون؟ وإذا كان تشويههم لغير الخط الرسالى فلماذا كان حزن النبى صلى الله عليه وآله وسلم عندما أراه الله بنى أمية على منبره؟ إن معنى وجودهم على المنبر إشارة إلى اغتصابه، وإشارة إلى أنهم نازعوا الأمر أهله. ومعنى تشويه الخط الرسالى، أى العمل من أجل تزيين خط آخر يكون مشابها للخط الرسالى فى الصورة، بهدف أن يهرع أصحاب الأهواء إلى الخط المزخرف نظرا لوجود مطالب كل صاحب هوى على هذا الطريق. ونظرا لأن هذه المطالب تحميها فتاوى علماء الضلال الذين حذر النبى صلى الله عليه وسلم حذيفة منهم. قال حذيفة... ": قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم. دعاة إلى أبواب جهنم من أجابهم قذفوه فيها. قلت: يا رسول الله صفهم لنا. قال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا. قلت: فما تأمرنى إن أدركت ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم. قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك [" ۲] .

فهؤلاء لا بد من وجود من يمهد إليهم، لا بد من وجود من يمهد لأكثر من سبعين فرقة وتنجوا واحدة. وإذا كان الحديث قد صرح بأنه سيكون زمان لا

[صفحه ۱۹۳]

جماعة فيه ولا إمام، فإن هناك حديث آخر صرح بأنه من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية [۳] لهذا لم يهمل الحديث الذى رواه

حذيفة موضع الإمام فى

الزمان الذى لا يكون فيه جماعة ولا إمام، وهو قوله ": فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة. " لم يقل اعتزل وكفى ولا تحققت الموتة الجاهلية، وإنما قال ": ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك، " وفى رواية ": قال حذيفة: ثم ماذا؟ قال: ثم يخرج الدجال [" ۴] ، فإذا كان الدجال شجرة رجس، فأى شجرة التى تقابل الرجس؟ فإذا قلنا إنها شجرة المهديين؟ فما هو الدليل على أنهم مهديين؟ ونحن لا نريد أن نطيل فى هذا البحث. وبالجملة فلن يكون معاوية صاحب هذه الشجرة، أعنى شجرة المهديين، وذلك لوجود أحاديث تقول خلاف هذا. وإذا أردنا أن نضع أيدينا على أصل الشجرة فإنى أسوق الحديث الصحيح الذى أورده السيوطى فى تاريخ الخلفاء، فقال: أخرج الطبرانى فى الأوسط بسند صحيح عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الناس من شجر شتى، وأنا وعلى من شجرة واحدة [۵] ، وروى الديلمى ": أنا وعلى من شجرة واحدة والناس من أشجار شتى [" ۶] وروى الحاكم ": يا على الناس من شجر شتى " وأنا وأنت من شجرة واحدة [" ۷] .

فالظالمين من بنى أمية هدفهم تشويه الخط الرسالى، وذلك بإنشاء خط جديد مشابه له. والنبى صلى الله عليه وسلم حذر من هذا، وأغلق الأبواب أمام هذه الأعمال، فقال... ": فإن للقرآن منار كمنار الطريق فما عرفتم فخذوه وما أنكرتم فردوه إلى

[صفحه ۱۹۴]

عالمه [" ۸] ولقد قتلوا عالمه، ونتيجة لذلك يمكن أن نفهم قوله النبى صلى الله

عليه وسلم ": كتاب الله يضلون، وأول ذلك من قبل قرائهم وأمرائهم [" ۹] ، فهم ضلوا لأن هناك أشياء لا يعلمونها فى كتاب الله. وبما أنهم قتلوا عالمه واعتزلوا أهل بيته لا يستبعد أن يتحقق الضلال، ويرتفع النفاق، ليتحقق قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم": أكثر منافقى أمتى قراؤها [" ۱۰] .

من هنا يمكن أن نعلم حقيقة الخط المشابه للخط الرسالى. الذى أخذ على عاتقه تمزيق الأمة ولكن تحت الراية المزخرفة التى تقول بالجماعة. لا يهم أن تتمزق الأمة ولكن المهم أن تكون الجماعة على رأس الحكم. وتيارات التشويه دائما ما تلجأ إلى التشويه الغير مباشر، فكتاب الله لا يمكن أن تمتد إليه يد أو عقل لإحداث تشويه فيه، فهذا من المحال. وإنما تمتد عقولهم إلى تفسيره وتأويله، فتفرغه من المحتوى السياسى الذى يتعارض مع أهداف جماعة الحكم. والقارئ للقرآن يعلم أنه يتعرض للأحداث الكبرى ويقدم لها الحلول، ولقد سلط الأضواء على الانحرافات الكبرى على امتداد التاريخ البشرى وبينها للأمة الخاتمة - وحذر من الوقوع على طريقها، وهذا كله عند تيارات التشويه لا يلتفت إليه إلا فى حدود. وفى الغالب الأعم يقرؤن القرآن قراءة لا تجاوز تراقيهم فى المآتم وحول الأضرحة، وفى أنديه النفاق حيث المباخر والشعوذة والدجل. وكما أن كتاب الله لا يمكن أن تمتد إليه يد أو عقل للتشويه فيه، فكذلك النبى صلى الله عليه وسلم. فتيار التشويه داخل الأمة لا يقترب من مكانة النبوة، وإلا سيفقد وجوده على الكرسى. ولكى يتجنب ذلك يفعل ما فعله مع القرآن، بمعنى أن يكذب على النبى فيحدث التباسا بين ما قيل وبين ما لم يقال. وهذا الطريق ينتج الإنسان المشوه. أو يقوم بضرب الخط الذى ينتسب إلى النبى

[صفحه ۱۹۵]

، أقصد الخط الرسالى، أو ينسب إلى كل ما هو برئ منه. فإذا حدث هذا فهو أمام العامة لم يقترب من ساحة النبوة، بمعنى روى فى حديث صحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ": من آذى عليا فقد آذانى [" ۱۱] فخط التشويه يوجه الأذى إلى على، ويمكن للعامة أن تتقبل ذلك.

ولكن الحقيقة أن عليا لم يكن هو الهدف، وهذا لا يفهمه إلا عاقل منصف. ولقد كان النبى يغضب عندما يؤذى أحد عليا. فعن سعد بن أبى وقاص قال: كنت جالسا فى المسجد أنا ورجلين معى، فنلنا من على، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم غضبان يعرف فى وجهه الغضب، فتعوذت بالله من غضبه فقال: ما لكم وما لى!!؟ من آذى عليا فقد آذانى [۱۲] ، لم يقل: ما لكم وعلى، وإنما قال: ما

لکم وما لی. وعلی هذا المقیاس نفهم قول النبی صلی الله علیه وسلم ": من سب علیا فقد سبنی [" ۱۳] .

وروی أن رجلا من أهل الشام جاء فسب علیا عند ابن عباس، فحصبه ابن عباس وقال: یا عدو الله أذیت رسول الله صلی الله علیه وسلم: "إن الذین یؤذون الله ورسوله لعنهم الله فی الدنیا والآخرهٔ وأعد لهم عذابا مهینا [" ۱۴] .

وروی أن معاویهٔ أصدر العدید من القرارات بعد عودته من المدینهٔ إلی الشام. روی المدائنی: کتب معاویهٔ نسخهٔ واحدهٔ إلی عماله بعد عام الجماعهٔ: برأت الذمهٔ ممن روی شیئا فی فضل أبی تراب وأهل بیته، فقام الخطباء من کل کورهٔ، وعلی کل منبر، یلعنون علیا ویبرأون منه ویوقعون فیه وفی أهل بیته [" ۱۵] ، ثم کتب معاویهٔ إلی عماله فی جمیع الآفاق ": لا تجیزوا لأحد من شیعهٔ علی

[صفحه ۱۹۶]

وأهل بیته شهادهٔ [" ۱۶] ، ثم کتب إلیهم: أن انظروا من قبلکم من شیعهٔ عثمان ومحبیه وأهل ولایته، والذین یرون فضائله ومناقبه فأدنوا مجالسهم وقربوهم وأکرموهم، واکتبوا لی بکل ما یروی کل رجل منهم واسمه واسم أبیه وعشیرته [" ۱۷] وبعد أن کثر الحدیث فی فضائل عثمان ومناقبه کتب إلیهم: إن

الحدیث فی عثمان قد کثر وفشا فی کل مصر. فإذا جاءکم کتابی هذا فادعوا الناس إلی الروایهٔ فی فضائل الصحابهٔ والخلفاء الأولین، ولا تترکوا خبرا یرویه أحد من المسلمین فی أبی تراب إلا وتأتونی بمناقض له فی الصحابهٔ. فإن هذا أحب إلی وأقر لعینی، وأدحض لحجهٔ أبی تراب وشیعته [" ۱۸] ، ثم کتب إلی عماله نسخهٔ واحدهٔ: انظروا من قامت علیه البینهٔ أنه یحب علیا وأهل بیته. فامحوه من الدیوان. وأسقطوا عطاءه ورزقه [" ۱۹] ، وشفع ذلک بنسخهٔ أخری: من اتهمتموه بموالاهٔ هؤلاء القوم، فنکلوا به واهدموا داره [" ۲۰] .

وترتب علی هذه القرارات أن الکذابین والجاحدین وجدوا لکذبهم وجحودهم موضعا یتقربون به إلی أولیائهم وقضاهٔ السوء وعمال السوء فی کل بلد، فحدثوهم بالأحادیث الموضوعهٔ المکذوبهٔ، ورووا ما لم یقله الخط الرسالی وما لم یفعلوه لیبغضوهم إلی الناس، وقرأت الکتب علی الناس، ورویت أخبار کثیرهٔ فی مناقب الصحابهٔ مفتعلهٔ لا حقیقهٔ لها. وترتب علی ذلک اشتداد البلاء ولا سیما بالکوفهٔ، حتی أن الرجل من شیعهٔ علی کان یخاف من خادمه ومملوکه. کان هذا فی زمن معاویهٔ وتفاقم الأمر بعد قتل الحسین علیه السلام، وبعد أن ولی عبد الملک بن مروان وأتی بالحجاج بن یوسف. فلم یبق أحد إلا وهو خائف علی دمه أو طرید فی الأرض.

[صفحه ۱۹۷]

إن للصحابهٔ فضائل ومناقب ولم یکونوا فی حاجهٔ إلی إضافات جدیدهٔ. ولکن هذه الإضافات لم یقصد بها الصحابهٔ، لأن العدید منهم کانوا فی رحمهٔ الله ولا تفیدهم زیادات، وإنما کان المقصود أن تزاحم مناقب الصحابهٔ مناقب أهل البیت لیحدث الالتباس. ولکن أهل الحدیث الراسخین فی علم الحدیث. ذکروا کثیرا من الأحادیث الموضوعهٔ، وبینوا وضعها وأن رواتها غیر موثوق بهم. إلا أن المحدثین إنما یطعنون فیما دون طبقهٔ الصحابهٔ، ولا یتجاسرون علی أحد من الصحابهٔ لأن علیه لفظ (الصحبهٔ) علی أنهم قد طعنوا فی قوم لهم صحبهٔ کبسر بن أرطأهٔ وغیره. ونحن لا نجحد فضل أحد من الصحابهٔ، ولکننا نعلم أن بعض الأخبار الواردهٔ فیهم موضوع. وقرار سب علی بن أبی طالب علی المنابر وقف منه الصحابهٔ فی دائرهٔ الخوف. فمعاویهٔ اهتم اهتماما ملحوظا بالأمن الداخلی، فبث العیون وسلح الحامیات العسکریهٔ، وأعطی للأمراء فی الأمصار حق التصرف فی هذه القضایا. وأمام الأسوار حول المدن التی تمثل أی خطر علیه حتی مکهٔ، یقول ابن کثیر ". کانت أبواب مکهٔ لا أغلاق لها وأول من اتخذ لها الأبواب معاویهٔ [" ۲۱] .

ولیس معنی أن الصحابهٔ کانوا فی دائرهٔ الخوف أنهم قبلوا ثقافهٔ السب. فمنهم من رفضها وقتل فی ذلک کحجر بن عدی وغیره، ومنهم من رفضها بحذر، ومنهم من رفض ووعظ، ومنهم الجهاز الذی أشرف علی إتمام ثقافهٔ السب، کعمرو بن العاص، ومروان بن الحکم، والمغیرهٔ بن شعبهٔ، وبسر بن أرطأهٔ، ومعاویهٔ بن خدیج وغیرهم. ولقد سجل مسلم عملیهٔ السب فی صحیحه، وبهذا التسجیل لا یمکن أن یدعی مدعی أن السب کان خرافهٔ أو لا أساس له من الصحهٔ، وسجله غیر مسلم فی روایات صحیحهٔ. وبدایهٔ عملیهٔ السب روی أن معاویهٔ استعمل المغیرهٔ بن شعبهٔ علی الکوفهٔ فلما أمره علیها دعاه وقال له: لست ترکا إیصاءک بخصلهٔ. لا

[صفحه ۱۹۸]

تترک شتم علی وذمه والترحم علی عثمان والاستغفار له. والعیب لأصحاب علی والإقصاء لهم. والإطراء بشیعة عثمان والإدناء لهم" [۲۲] فهذه الوصیة التی رواها

صاحب الکامل هی إجمالی ما رواه ابن أبی الحدید من قبل. وبدأت عملیة السب، روی الطبرانی بسند صحیح أن عمرو بن العاص صعد المنبر، فذکر علیا ووقع فیه، ثم صعد المغیرة بن شعبة، ووقع فی علی، وکان الحسن بن علی بالمسجد. فقیل له اصعد. فقال: لا أصعد ولا أتکلم حتی تعطونی إن قلت حقا أن تصدقونی، وإن قلت باطلا أن تکذبونی، فأعطوه، فصعد المنبر فحمد الله وأثنی علیه ثم قال: أنشدک بالله یا عمرو ویا مغیرة. ألا تعلمان أن رسول الله صلی الله علیه وسلم قال: لعن الله السابق والراکب أحدهما فلان، قالا اللهم بلی. قال: أنشدک الله یا معاویة ویا مغیرة، ألا تعلمان أن رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم لعن عمرو بن العاص بکل قافیة قالها لعنة، قالا: اللهم بلی. قال: أنشدک یا عمرو ویا معاویة، ألا تعلمان أن رسول الله صلی الله علیه وسلم لعن قوم هذا قالا: بلی، فقال الحسن: فإنی أحمد الله الذی وقعتم فیه تبرأ من هذا [۲۳] .

وهذا الحدیث یحتاج إلی تفسیر. فأما قوله ": لعن الله السابق والراکب. أحدهما فلان " فیقصد بذلک معاویة کما روی البغوی [۲۴] وقوله ": أن رسول الله لعن عمرو بن العاص بکل قافیة قالها لعنة. " فلقد روی أن الذین کانوا یهجون رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم من مشرکی مکة: أبو سفیان بن الحارث، وعبد الله بن الزبعری، وعمر بن العاص، وضرار بن الخطاب [۲۵] ، وکان أشدهم عمرو بن العاص وروی أن رسول الله قال ": اللهم إن عمرو بن العاص هجانی وهو یعلم أنی لست بشاعر، فاهجه والعنه عدد ما

[صفحه ۱۹۹]

هجانی [" ۲۶] وإن کان فی إسناد هذا الحدیث مقال. فإن حدیث الحسن یشهد بصحته. أما قوله ": إن رسول الله لعن قوم هذا " فإنه یقصد المغیرة بن شعبة، والمغیرة بن ثقیف [۲۷] ، وفی الحدیث الصحیح. إن بنی أمیة وثقیف وبنی حنیفة من أبغض الناس إلی رسول الله [۲۸] .

وهکذا رفع عنهم الحسن رضی الله عنه الغطاء الذی وضعه علی جلودهم عالم اللاروایة. لقد وقفوا لیلعنوا وهم فی الحقیقة علیهم من الله لعنة. قال تعالی: (إن الذین یؤذون الله ورسوله. لعنهم الله فی الدنیا والآخرة). ومن الذین سهروا من أجل انتشار ثقافة السب مروان بن الحکم الذی کان سببا رئیسیا فی محاصرة الثوار لعثمان، ومروان هو قاتل طلحة یوم الجمل، ومروان وأبیه علیهما لعنة من الله علی لسان رسوله. وصرح بذلک روایات صحیحة. وأخرج ابن سعد أن مروان بن الحکم کان یسب علیا کل جمعة علی المنبر [۲۹] ، وروی أنه قال للحسن: أهل بیت ملعونون. فقال الحسن: أقلت أهل بیت ملعونون. فوالله لقد لعنک الله علی لسان نبیه صلی الله علیه وسلم وأنت فی صلب أبیک [۳۰] وروی عن أبی کثیر قال: کنت جالسا عند الحسن بن علی

فجاءه رجل فقال: لقد سب عند معاویة علیا سبا قبیحا رجل یقال له معاویة بن خدیج. فلم یعرفه الحسن،، فقال: إذا رأیته فأتنی به، فرآه الرجل عند دار عمرو بن حریث، فأراه إیاه، فقال الحسن: أنت معاویة بن خدیج؟ فسکت فلم یجبه - ثلاثا - ثم قال: أنت الساب علیا عند ابن أکلة الأکباد؟ أما لئن وردت علیه الحوض، وما أراک ترد، لتجدنه مشمرا حاسرا عن ذراعیه یذود الکفار والمنافقین عن حوض رسول الله صلی الله علیه وسلم. قول الصادق

[صفحه ۲۰۰]

المصدوق محمد صلی الله علیه وسلم [۳۱] ومعاویة بن خدیج ذکره ابن سعد

فیمن ولی مصر من الصحابة. أمره معاویة علی الجیش الذی جهزه إلی مصر وبها محمد بن أبی بکر عاملا لعلی، فأخذوا ابن أبی بکر ووضعوه فی بطن حمار وأشعلوا فیه النار. أما الصحابة الذین لم یقبلوا ثقافة السب، ما رواه مسلم عن سهل، قال: استعمل علی المدینة رجل من آل مروان، فدعا سهل بن سعد فأمره أن یشتم علیا، فأبی سهل. فقال له: أما إذا أبیت فقل لعن الله أبا تراب. فقال: ما کان

لعلی اسم أحب إلیه من أبی تراب، وإن کان لیفرح إذا دعی بها [۳۲] ، وروی مسلم أیضا أن معاویة أمر سعد بن أبی وقاص فقال: ما منعک أن تسب أبا تراب [۳۳] فعد علیه سعد بعض مناقب علی وقال: لو أن تکون لی واحدة منهن خیرا من أن تکون لی حمر النعم. وعن عبد الرحمن بن البلیمانی قال: کنا عند معاویة. فقام رجل فسب علیا بن أبی طالب فقام سعید بن زید بن عمر بن نفیل فقال: یا معاویة إنی سمعت رسول الله صلی الله علیه وسلم یقول: هو منی بمنزلة هارون من موسی [" ۳۴] وعن أبی عمار قال: إنی لجالس عند واثلة بن الأسقع، إذ ذکروا علیا فشتموه فلما قاموا. قال: اجلس أخبرک عن الذی شتموا. إنی عند رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم ذات یوم إذ جاء علی وفاطمة وحسن وحسین فألقی علیهم کساءا ثم قال ": اللهم هؤلاء أهل بیتی فأذهب عنهم الرجس

[صفحه ۲۰۱]

وطهرهم تطهیرا [" ۳۵] .

وعن خالد بن عرفطة قال: أتیت سعد بن مالک فقلت: بلغنی أنکم تعرضون علی سب علی بالکوفة فهل سببته؟ قال ": معاذ الله والذی نفس سعد بیده، لقد سمعت رسول الله صلی الله علیه وسلم فی علی شیئا لو وضع المنشار علی مفرقی ما سببته أبدا [" ۳۶] ، ویقصد سعد یوم أن عاد من الیمن ودخل لیشکوا علیا وکان معه أبو بکر. فبینما هو فی وسط کلامه قال له النبی ": سعد بن مالک بن الشهید. مه بعض قولک لأخیک علی. فوالله لقد علمت أنه جیش فی سبیل الله، " فقال سعد: فقلت فی نفسی ثکلتک أمک سعد بن مالک. ألا أرانی کنت فیما یکره منذ الیوم وما أدری. لا جرم والله لا أذکره بسوء أبدا سرا ولا علانیة [۳۷] .

وروی أن أبا الأسود الدؤلی وکان من شیعة علی ینزل بالبصرة فی بنی قشیر، وکان جیرانه یرجموه باللیل لمحبته علیا وأهل بیته. فإذا ذکر رجمهم له قالوا: إن الله یرجمک فیقول لهم: تکذبون لو رجمنی الله لأصابنی، ثم باع الدار، فقیل له: بعت دارک! فقال: بل بعت جاری [۳۸] وروی الزمخشری فی

ربیع الأبرار: سأل زیاد بن أبیه أبا الأسود عن حب علی فقال: إن حب علی یزداد فی قلبی کما یزداد حب معاویة فی قلبک، وإنی أرید الله والدار الآخرة بحبی علیا، وأنت ترید الدنیا وزینتها بحبک معاویة. ویقصد بذلک قول النبی صلی الله علیه وسلم ": علی یعسوب المؤمنین والمال یعسوب المنافقین [" ۳۹] .

وروی أن معاویة قال لصعصعة بن صوحان. اصعد المنبر فالعن عتیا.

[صفحه ۲۰۲]

فامتنع من ذلک وقال: أو تعفینی؟ قال: لا. فصعد صعصعة المنبر فحمد الله وأثنی علیه ثم قال: معاشر الناس إن معاویة أمرنی أن ألعن علیا. فالعنوه لعنه الله [۴۰] .

وهکذا مرت ثقافة السب. ولقد أخبر النبی صلی الله علیه وسلم عن هذه الثقافة وبین أهدافها الحقیقیة. روی عن عبد الله الجدلی أنه قال: دخلت علی أم سلمة رضی الله عنها فقالت لی: أیسب رسول الله صلی الله علیه وسلم!؟ قلت: معاذ الله أو سبحان الله. قالت: سمعت رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم یقول: من سب علیا فقد سبنی [۴۱] .

أنظر إلی قول أم المؤمنین: أیسب رسول الله فیکم؟ إنها لم تقل: أیسب علی فیکم: لأن علیا درجة علی طریق طاهر طویل. وفی مواجهة أخری قالت أم المؤمنین أم سلمة: إنی سمعت رسول الله صلی الله علیه وسلم یقول: من سب علیا فقد سبنی، ومن سبنی فقد سب الله تعالی [۴۲] ولقد أخبر الإمام علی

عن هذه الثقافة فقال ": إنکم ستعرضون علی سبی فسبونی، فإن عرضت علیکم البراءة فلا تتبرأوا منی فإنی علی الإسلام، " وفی روایة – فإنی علی الفطرة [۴۳] .

وفی روایة: فإنی ولدت علی الفطرة وسبقت إلی الإیمان والهجرة [۴۴] .

وروی أن ابن عباس قال لمعاویة: ألا تکف عن شتم هذا الرجل؟ قال: ما کنت لأفعل حتی یربوا علیه الصغیر ویهرم فیه الکبیر [۴۵]

وهذه الاستمرارية التى

[صفحه ۲۰۳]

يصر عليها معاوية. أخبر عنها وعن غيرها النبى فقال: كيف أنتم إذا لبستم فتن يهرم فيها الكبير ويربو فيها الصغير ويتخذها الناس سنة. فإذا غيرت قالوا: غيرت السنة [۴۶] إنها الفتن التى تنسف العبادة نسفا، وتترك الناس لا يعقلون فتن

اللسان فيها أوقع من السيف. قال النبى صلى الله عليه وسلم ": إن الفتنة تجئ فتنسف العبادة نسفا، وينجو العالم منها بعلمه [" ۴۷] ، وهل ثقافة السب تحافظ على عبادة أو تنفع معها عبادة، لقد ألقوا فى الساحة بأحاديث يزاحم بعضها بعضا. وتمهد لخروج أكثر من سبعين فرقة كل فرقة معها أحاديثها. وكل فرقة لها لسان يضرب كضرب السيف، يقول النبى صلى الله عليه وسلم ": ستكون فتنة صماء بكماء عمياء، من أشرف لها استشرفت له، وإشراف اللسان فيها كوقوع السيف [۴۸] قال فى عون المعبود: وصفت الفتنة بهذه الأوصاف

بأوصاف أصحابها. أى لا يسمع فيها الحق، ولا ينطق به، ولا يتضح الباطل عن الحق، وقيل المعنى: لا يميزون فيها بين الحق والباطل، ولا يسمعون النصيحة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، بل من تكلم بحق أوذى ووقع فى المحن، ومن أشرف لها: أى من اطلع عليها وقرب منها. استشرفت له. أى: اطلعت تلك الفتنة عليه وجذبته إليها. وإشراف اللسان. أى: إطلاقه وإطالته كوقوع السيف أى: فى التأثير [۴۹] .

وإذا كان إشراف اللسان فى هذه الفتنة كوقوع السيف، بمعنى إذا كانت الكلمة فى هذه الفتنة تعمل عمل السيف. فإن الذين سبوا عليا يكونوا فى منزلة الذين قتلوه. لقول النبى صلى الله عليه وسلم ": من لعن مؤمنا فهو كقتله، ومن قذف مؤمنا بكفر فهو كقتله [" ۵۰] وبهذا تكون بنى أمية بثقافة السب قافلة

من القتلة ولا يعرف حقيقتهم إلا العالم. وشاء الله أن يكون على امتداد تاريخ

[صفحه ۲۰۴]

بنى أمية العديد من العلماء الأفاضل، فكانوا يحذرون من الحفرة قبل الوقوع فيها. حدث هذا فى جميع الأحداث الكبرى بل والصغرى التى جرت تحت أعلام بنى أمية. ولقد رأينا كيف كانوا ينهون عن السب فى كل زمان ومكان. لقد أنتجت ثقافة السب جيلا مشوها، كان من السهل عليه أن يقتل الحسين، ويجتاح المدينة، ويضرب الكعبة. ولقد ظلوا يسبون الإمام حتى ضاع ذكره عند الذين يقفون تحت رايات بنى أمية. يقول المسعودى: قيل لرجل من أهل الشام من زعمائهم وأهل الرأى والعقل منهم: من أبو تراب هذا الذى يلعنه الإمام على المنبر؟ قال: أراه لصا من لصوص الفتن [۵۱] وروى أن فقيها آخر

ذهب ليشتكى جاره إلى الوالى فقال: إن جاره مرجئ قدرى ناصبى رافضى، يبغض معاوية بن الخطاب الذى قتل على بن العاص. فقال له الوالى: ما أدرى على أى شئ أحسدك. على علمك بالمقالات أو على بصرك بالأنساب [۵۲] .

وروى فى سنن أبى داوود أن فى عصر بنى مروان لم يكن فطاحل العلم وجهابذته يعدون عليا من الخلفاء، وعندما بلغ سفينة ذلك قال: كذبت استاه بنى الزرقاء [۵۳] .

وظل الحال هكذا حتى جاء عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وسنتحدث عن ذلك فى حينه.

[۱] رواه الحاكم (كنز العمال ۱۲۷:۱۱) وروى صدر الحديث أحمد والترمذى وابن ماجة وغيرهم.

[۲] رواه البخارى ك بدء الخلق (الصحيح ۲۸۰:۲) ورواه غيره ولقد تكلمنا عن الحديث فيما سبق.

[۳] رواه ابن أبى عاصم وحسنه الألبانى (كتاب السنة ۵۰۳:۴) ورواه غير واحد ولقد بينا ذلك فيما سبق.

[۴] رواه أبو داود حديث ۴۲۴۴.

[۵] تاريخ الخلفاء ۱۶۰:۱.

[۶] الدیلمی (کنز العمال ۱۶۸:۱۱).

[۷] الحاکم (کنز العمال ۱۶۸:۱۱).

[۸] رواه الطبرانی (الزوائد ۱۸۷:۱).

[۹] رواه ابن أبی عاصم وفیه من ضعف (کتاب السنة ۱۳۲:۱).

[۱۰] رواه أحمد والطبرانی وقال الهیثمی أحد أسانید أحمد ثقات أثبات (الزوائد ۲۲۹:۶).

[۱۱] رواه أحمد وأبو یعلی ورجاله ثقات (الزوائد ۱۲۹:۹).

[۱۲] رواه أبو یعلی ورجاله ثقات (الزوائد ۱۲۹:۹).

[۱۳] رواه أحمد ورجاله ثقات (الفتح ۱۳۰:۹) والحاکم وصححه (المستدرک ۱۲۱:۳).

[۱۴] رواه الحکم وأقره الذهبی (المستدرک ۱۵۲:۳).

[۱۵] ابن أبی الحدید ۵۹۵:۳.

[۱۶] المصدر السابق ۵۹۵:۳.

[۱۷] المصدر السابق ۵۹۵:۳.

[۱۸] المصدر السابق ۵۹۶:۳.

[۱۹] المصدر السابق ۵۹۶:۳.

[۲۰] المصدر السابق ۵۹۶:۳.

[۲۱] البدایة والنهایة ۱۳۹:۸.

[۲۲] الکامل ۲۳۴:۳، الطبری ۱۰۸:۶.

[۲۳] رواه الطبرانی وقال الهیثمی رواه عن شیخه زکریا بن یحیی وقال الذهبی: أحد الأثبات ما علمت فیه جرحا أصلا (الزوائد ۲۴۷:۷).

[۲۴] رواه الطبرانی والبغوی (الإصابة ۵:۴).

[۲۵] أسد الغابة ۵:۲.

[۲۶] رواه ابن عساکر (کنز العمال ۵۴۸:۱۳).

[۲۷] الإصابة ۱۳۱:۶.

[۲۸] البیهقی (البدایة والنهایة ۲۶۸:۶.

[۲۹] البدایة والنهایة ۲۸۰:۸، تاریخ الخلفاء ۱۷۷:۱.

[۳۰] رواه أبو یعلی (الزوائد ۲۴۰:۵) وابن سعد وابن عساکر (کنز العمال ۳۵۷:۱۱) وذکره ابن کثیر (البدایة ۸:۲۸۰).

[۳۱] رواه الطبرانی بإسنادین (الزوائد ۱۳۱:۹)، والحاکم (المستدرک ۱۳۸:۳)، وابن أبی عاصم (کتاب السنة ۳۶۰:۲).

[۳۲] رواه مسلم (الصحیح ۱۸۲:۱۵) فی فضل علی.

[۳۳] رواه مسلم فی فضل علی (الصبح ۱۷۵:۱۵) والحاکم وأقره الذهبی (المستدرک ۱۰۹:۳).

[۳۴] رواه ابن أبی عاصم (کتاب السنة ۶۰۲:۲).

[۳۵] رواه الطبرانی وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۱۶۱:۹).

[۳۶] رواه أبو یعلی وإسناده حسن (الزوائد ۱۳۰:۹) ابن أبی عاصم (کتاب السنة ۶۰۴:۲).

[۳۷] رواه البیهقی (البدایة والنهایة ۳۴۶:۷) ولقد قدمنا الحدیث بطوله فی موضعه.

[۳۸] حیاة الحیوان:الدمیری فی آخر باب الدال.

[۳۹] رواه ابن عدی وغیره (کنز العمال ۴ - ۶:۱۱).

[۴۰] العقد الفرید ۴۶۶:۲، والحاکم (المستدرک ۳۵۸:۱).

[۴۱] رواه أحمد وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۱۳۰:۹) (الفتح الربانی ۱۲۱:۲۳)، ورواه الحاکم وأقره الذهبی (المستدرک ۱۲۱:۳) وأورده السیوطی فی تاریخ الخلفاء ۱۶۲:۱.

[۴۲] رواه أحمد والحاکم (کنز العمال ۶۰۲:۱۱)، (المستدرک ۱۲۱:۳).

[۴۳] رواه الحاکم وصححه (المستدرک ۳۵۸:۱) والمحاملی وابن عساکر (کنز العمال ۳۰۲:۱۱) ورواه البلاذری (أنساب الأشراف ص ۱۱۹:۱) وابن أبی الحدید ۷۷۶:۱.

[۴۴] ابن أبی الحدید ۷۷۶:۱.

[۴۵] ابن أبی الحدید ۲۲۲:۴.

[۴۶] رواه الحاکم وأقره الذهبی (المستدرک ۵۱۵:۴).

[۴۷] رواه أبو نعیم وأبو داوود والرافعی (کنز العمال ۱۵۰، ۱۷۸:۱۰).

[۴۸] رواه أبو داوود حدیث ۴۲۴۴.

[۴۹] عون المعبود ۳۴۶:۱۱.

[۵۰] رواه البخاری (الصحیح ۵۷:۴).

[۵۱] مروج الذهب ۴۲:۳.

[۵۲] مروج الذهب ۴۲:۳.

[۵۳] ذکره الألبانی فی تحقیقه کتاب السنة ۵۶۴:۲.

ائتمان الخائن

من قبل أن یحدث الاختلاف والافتراق أعلن النبی صلی الله علیه
وسلم علی الأمة أن " الإسلام والسلطان أخوان توأمان، لا یصلح واحد منهما إلا بصاحبه. فالإسلام أس [۱] ، والسلطان حارث. وما لا أس له یهدم، وما لا
[صفحه ۲۰۵]
حارث له ضائع [" ۲] ثم بین فضل أهل بیته ووجوب مودتهم فی أحادیث کثیرة
منها " النجوم أمان لأهل السماء وأهل بیتی أمان لأمتی [" ۳] ، وقوله صلی الله علیه وسلم ": مثل أهل بیتی مثل سفینة نوح من رکبها نجا ومن تخلف عنها غرق [" ۴] ، وقوله ": إنی تارک فیکم الثقلین أحدهما أکبر من الآخر، کتاب الله حبل ممدود من السماء والأرض، وعترتی أهل بیتی وإنهما لن یفترقا حتی یردا علی الحوض [" ۵] ، وغیر ذلک من الأحادیث التی أوردناها فی موضعها. فمن هذا نفهم أن معنی الإسلام والسلطان یکون أقرب للفهم إذا وضعنا أمامنا فی دائرة السلطان أهل البیت. بمعنی أن نقول: أن الإسلام وأهل البیت توأمان، وذلک لأن الروایات حددت معنی السلطان الذی یستقیم مع الکتاب. والنبی صلی الله علیه وسلم عندما وضع الأمة علی الصراط المستقیم وعلم من ربه جل وعلا أن الأمة ستختلف من بعده، فأقام الحجة علی الناس، وهم فی طریق الاختلاف، کما أقامها من قبل أن یتشعبوا فی دروب الاختلاف فقال..... ": إن رحی الإسلام دائرة. وإن الکتاب والسلطان سیفترقان فدوروا مع الکتاب حیث دار [" ۶] فإذا کان الکتاب کما فی الحدیث الصحیح لن یفترق عن
أهل البیت. فإننا یمکن أن نفهم أن الدوران مع الکتاب یعنی فی مقدمته الدوران مع أهل البیت.

[صفحه ۲۰۶]

والنبی صلی الله علیه وسلم وهو یخبر عن الافتراق، أمر الجیل الأول بأن یأخذ بالأسباب لدفع الافتراق والاختلاف لأن من حکمهٔ الوجود أن الله ینظر لعباده، لیری کیف یعملون وفقا لمساحهٔ الاختیار التی وهبها إیاهم. فعن أنس أن معاذا قال: یا رسول الله. أرأیت إن کان علینا أمراء لا یستنون بسنتک، ولا یأخذون بأمرک، فما تأمرنی فی أمرهم؟ فقال النبی صلی الله علیه وسلم: لا طاعهٔ لمن لم یطع الله عز وجل [۷] ، وعن عمران بن حصین قال قال رسول الله صلی الله علیه وسلم ". لا طاعهٔ فی معصیهٔ الله تبارک وتعالی [" ۸] ، وعلی هذا یکون النبی صلی الله علیه وسلم قد ساق الناس إلی الصراط المستقیم أولا، ثم أخبرهم بالافتراق وماذا یفعلون ثانیا، ثم أمرهم بالأخذ بالأسباب ثالثا، ولا حجهٔ لهم بعد ذلک کله. وقال النبی صلی الله علیه وسلم لأصحابه: إن أول ما دخل النقص علی بنی إسرائیل، کان الرجل یلقی الرجل فیقول: یا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا یحل لک، ثم یلقاه من الغد فلا یمنعه ذلک أن یکون أکیله وشریبه وقعیده. فلما فعلوا ذلک ضرب الله قلوب بعضهم ببعض. ثم تلی قوله تعالی: (لعن الذین کفروا من بنی إسرائیل علی لسان داوود وعیسی بن مریم...)، ثم قال: کلا- والله لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنکر، لتأخذن علی ید ی الظالم، ولتأطرنه علی الحق أطرا [۹] ، ولتقصرنه علی الحق قصرا، أو لیضربن الله بقلوب بعضکم علی بعض، ثم لیلعنکم کما لعنهم [" ۱۰] ، ولا حجهٔ لهم بعد هذا. وجاء معاویهٔ بن أبی سفیان، وجعل سب الإمام علی سنهٔ، جاء معاویهٔ علی طریق الاختلاف. ولو لم یکن الاختلاف قد وقع، ما جاء معاویهٔ. ولکن الله

[صفحه ۲۰۷]

بعلمه المطلق علم أن عباده سیختلفون فعاقبهم ببنی أمیهٔ وکان قد حذرهم منهم. ویقول النبی صلی الله علیه وسلم ": ما اختلفت أمهٔ بعد نبیها إلا ظهر أهل باطلها علی أهل حقها [" ۱۱] إن الله تعالی ذم الاختلاف فی کتابه وعلی لسان نبیه

صلی الله علیه وسلم، فإذا وقع الاختلاف فلا بد من عقوبهٔ یتذوقها الغالب الأعم. وأهل الحق لا یضرهم من ناوأهم أو من خذلهم أو من عاداهم، فهذا قانون الوجود. ومن یقف تحت مظلهٔ الاختلاف فعلیه أن یستقبل أبواب کل شئ، وهذا أیضا من قانون الوجود. یقول الصادق الأمین صلی الله علیه وآله وسلم ": إن الله تبارک وتعالی إذا أراد بقوم بقاء أو نماء، رزقهم القصد والعفاف. وإذا أراد بقوم اقتطاعا، فتح لهم أو فتح علیهم باب خیانهٔ " حتی إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتهٔ فإذا هم مبلسون. فقطع دابر القوم الذین ظلموا والحمد لله رب العالمین [" ۱۲] .

لقد جاء معاویهٔ بعد أن اختلف الناس، ولیس صحیحا أن معاویهٔ جاء نتیجهٔ لاجتماع الناس، فهو نفسه القائل لابنهٔ عثمان ": یا بنت أخی إن الناس أعطونا سلطاننا فأظهرنا لهم حلما تحته غضب، وأظهروا لنا طاعهٔ. تحتها حقد، فبعناهم هذا بهذا، وباعونا هذا بهذا... ومع کل إنسان منهم شیعهٔ، وهو یری مکان شیعته. فإن نکثناهم نکثوا بنا، ثم لا ندری أتکون لنا الدائرهٔ أم علینا [" ۱۳] ، ثم إن أحادیث النبی صلی الله علیه وسلم وهو یخبر بالغیب عن ربه جل وعلا، وأیضا حرکهٔ التاریخ. کل ذلک یثبت أن معاویهٔ جاء علی رقعهٔ خلاف ولیس علی عصبهٔ اجتماع. فمعاویهٔ دخل من طریق کان الرجل فیه یلقی أخاه فیقول: یا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا یحل لک. ثم یلقاه من الغد فلا یمنعه ذلک أن یکون أکیله وشریبه وقعیده. فی الوقت الذی یحذر فیه النبی صلی الله علیه وسلم ویقول ": یهلک أمتی هذا الحی من قریش. " قالوا: فما تأمرنا یا رسول الله، قال: لو أن

[صفحه ۲۰۸]

الناس اعتزلوهم [۱۴] فأهل هذا الحی لا یجهلهم أحد من الصحابهٔ، ولقد

حددتهم روایات صحیحهٔ وشهدت حرکهٔ التاریخ علی خطاهم. فالنبی حذر من طریق النقص الذی أصاب بنی إسرائیل فی الوقت الذی أشار فیه باعتزال بنی أمیهٔ ومن علی شاکلتهم، وقوله: لو أن الناس اعتزلوهم وفیه إشارهٔ بأنهم لن یأخذوا بالأسباب. وعندما جاء معاویهٔ ووضع ثقافهٔ السب، تراجع الدین عند الذین أکلوا من زاد هذه الثقافهٔ. وهذا أمر طبیعی لساحهٔ لم یدر أصحابها مع القرآن،

واختاروا حارسا غير الذى حدده النبى صلى الله عليه وسلم لحفظ الإسلام، لأن من سنن الوجود أن ما لا أس له يهدم وما لا حارث له ضائع. ونحن هنا سنلقى ضوءا على معالم الضياع. وفى البداية نقول إن حذيفة سجل لنا معالم الخفوت قبل وفاته [۱۵] فقال: إنما كان النفاق على عهد النبى صلى الله عليه وسلم فأما اليوم فإنما هو الكفر بعد الإيمان [۱۶] وقال: إن المنافقين اليوم شر منهم على عهد النبى صلى الله عليه وسلم. كانوا يومئذ يسرون واليوم يجهرون [۱۷] ، وقال.... ": ابتلينا حتى جعل الرجل منا لا يصلى إلا سرا [" ۱۸] ، وفى لفظ البخارى ": فابتلينا حتى أن الرجل ليصلى وحده وهو خائف [" ۱۹] ، فإذا كان هذا قد حدث فى ساحة لم يكن معاوية على الكرسى الأول فيها، فما بالك إذا جلس معاوية ووصف نفسه بأنه أعلم الناس بشؤون الدنيا والآخرة. كانت الساحة بها خفوت، ثم جاء الضياع بعد ذلك. فعن زياد بن جارية أنه دخل مسجد دمشق وقد تأخرت صلاة الجمعة بالعصر. فقال: والله ما

[صفحه ۲۰۹]

بعث الله نبيا بعد محمد صلى الله عليه وسلم أمركم بهذه الصلاة [۲۰] ، وعن أبى العالية قال: أخر ابن زياد الصلاة، فأتانى عبد الله بن الصامت فذكرت له صنيع ابن زياد، فعض على شفتيه وضرب فخذى وقال: إنى سألت أبا ذر كما سألتنى فضرب فخذى كما ضربت على فخذك وقال: إنى سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سألتنى، فضرب فخذى كما ضربت وقال: صل الصلاة لوقتها، فإن أدركتك معهم فصل ولا تقل إنى قد صليت ولا أصلى [۲۱] وكان سفيان الثورى

يقول: يا؟ أظن الصلاة تقبل إلا أن الصلاة خير من تركها [۲۲] ، كان هذا فى مرحلة تأخير الصلاة. وهذه المرحلة تبعتها أخرى فى ساحة ترفع ثقافة السب وتحرص عليها. فعن أم الدرداء قالت: دخلت على أبى الدرداء وهو مغضب. فقلت: من أغضبك، قال: والله لا أعرف فيهم من أمر محمد صلى الله عليه وسلم شيئا إلا أنهم يصلون جميعا - يعنى صلاة الجماعة [۲۳] وروى البخارى: دخل الزهرى على أنس فوجده يبكى، فقال: ما يبكيك؟ قال: لا أعرف شيئا مما أدركت إلا هذه الصلاة. وهذه الصلاة قد ضيعت [۲۴] أما أبو الدرداء الذى شهد بأنه لا

يعرف فيهم من أمر محمد صلى الله عليه وسلم شيئا إلا صلاة الجماعة، فلقد مات قبل وفاة عثمان بن عفان بسنتين [۲۵] بمعنى: أنه شهد ما رآه فى خلافة

عثمان على أقل تقدير. أما أنس فلقد عاش إلى ما بعد زمن الحجاج بن يوسف، وروى أنه مات سنة إحدى وتسعين وكان عمره مائة سنة إلا سنة [۲۶] ، فأبى الدرداء شهد الصورة فقط. أما أنس فلقد شهد الضياع فى عهد بنى أمية. وإذا سألنا: كيف ضاعت الصلاة بعد وفاة النبى بمدة قليلة؟ نقول: ضاعت عندما

[صفحه ۲۱۰]

انفصل الإسلام عن السلطان. فإن قيل: وما الدليل؟ نقول: قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم " لينتقضن الإسلام عروة عروة، فكلما انتقضت عروة، تشبث الناس بالتى تليها، فأولهن نقضا الحكم وآخرهن الصلاة [" ۲۷] ، وعلى هذا يكون ضياع الصلاة كنتيجة سببه ضياع الحكم عند المقدمة. إن النبى صلى الله عليه وسلم ذم بنى أمية، فهل ينتظر أن يحافظ بنو أمية على الصلاة وغيرها، والنبى صلى الله عليه وسلم لعن الحكم وما ولد فماذا ينتظر من مروان عندما يتقلد أمور المسلمين؟ ولقد اتفق العلماء على أنه أول من شق عصا المسلمين بلا شبهة [۲۸] ، إن الصورة بهتت فى عهد عثمان، وعندما جاء على بن أبى طالب قاتلوه، ثم جاء معاوية فكان أول من نقص التكبير فى الصلاة [۲۹] ، فى الوقت الذى كان فيه أول من اتخذ الحرس لحمايته، وأول من اتخذ الخصيان لخاص خدمته [۳۰] وفى عام ستين دخل بالدولة نحو أعتاب

المبايعة لولده يزيد. وفى الحديث الصحيح قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم ": تعوذوا بالله من رأس الستين ومن إمارة الصبيان" [۳۱] ، وعندما وضع معاوية ابنه على رقبة الأمة سار على منهاج أبيه ورفع أعلام السب، فكان من نتيجة هذه الثقافة ظهور الإنسان المشوه الذى لا يمكن أن يحمل منهجا سماويا، ففى الحديث الصحيح يقول البنى صلى الله عليه وسلم ": يكون خلف بعد الستين سنة

أضاعوا الصلاهٔ، واتبعوا الشهوات، فسوف یلقون غیا، ثم یکون خلف یقرؤون القرآن لا یعدو تراقیهم. ویقرأ القرآن ثلاثهٔ: مؤمن ومنافق وفاجر [۳۲] ، المنافق

[صفحه ۲۱۱]

کافر به، والفاجر یتأکل منه، والمؤمن یؤمن به [۳۳] والمال هو الباب الوحید

الذی تخرج منه هذه الأجیال المنافقهٔ الفاجرهٔ، یقول النبی صلی الله علیه وسلم ": مما أتخوف علی أمتی أن یکثر فیهم المال حتی یتنافسوا، فیقتتلوا علیه. وإن مما أتخوف علی أمتی أن یفتح لهم القرآن حتی یقرأه المؤمن والکافر والمنافق، فیحل حلاله المؤمن ابتغاء تأویله [" ۳۴] ومما هو محفوظ أن القرآن قد فتح

للصالح والطالح منذ زمن بعید، یوم أن قال الناس حسبنا کتاب الله، ولم یکن فی الساحهٔ وقتئذ العالم بتأویله، الأمر الذی أدی إلی تشعبات کانت الأمهٔ فی غنی عنها. وبعد عهد یزید سارت أعلام بنی أمیهٔ علی الطریق الذی یضیعون فیه الصلاهٔ، حتی جلس الولید بن عبد الملک علی رقبهٔ الأمهٔ. وروی أنه جلس یوم الجمعهٔ علی المنبر حتی اصفرت الشمس، فقام إلیه رجل فقال: یا أمیر المؤمنین إن الوقت لا ینتظرک، وإن الرب لا یعذرک. قال: صدقت. ومن قال مثل مقالتک فلا ینبغی له أن یقوم مثل مقامک، ثم نادی: من هاهنا من أقرب الحرس یقوم إلیه فیضرب عنقه [۳۵] .

إنه طریق إضاعهٔ الصلاهٔ، حتی أن سفیان الثوری کان یقول فی الذین علی طریق السلطان: لولا أن تکون سبهٔ ما صلیت علی من یأتی السلطان حتی یکونوا عبرهٔ [۳۶] ، وقال وهیب: هؤلاء الذین یدخلون علی الملوک. إنهم لأضر علی الأمهٔ من المقامرین [۳۷] ، وقال سفیان: القبول مما فی أیدیهم من استحلال المحارم، والتبسم فی وجوههم، علامهٔ الرضا بفعالهم، وإدمان النظر إلیهم یمیت القلب [۳۸] وروی أن النبی صلی الله علیه وسلم قال ": إذا قال الرجل

[صفحه ۲۱۲]

للمنافق یا سیدنا فقد أغضب ربه [۳۹] وقال ": لا تقولوا للمنافق سیدنا، فإنه إن

یکن سیدکم فقد أسخطتم ربکم [" ۴۰] وفی هذا دلیل أن المنهج یظهر المنافق

وإلا فکیف سیعرفونه؟. لقد ضاعت الصلاهٔ عندما تم التعتیم علی العلم وتشویه حملته، إن الله تعالی یقول: (یرفع الله الذین آمنوا منکم والذین أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبیر) [۴۱] ، قال المفسرون: تدل الآیهٔ علی انقسام المؤمنین إلی طائفتین: مؤمن ومؤمن عالم ومن المحفوظ أن المؤمن العالم أفضل بقوله تعالی: (هل یستوی الذین یعلمون والذین لا یعلمون) [۴۲] ، وقالوا: وبما أن المؤمن العالم أفضل، فإن ما ذکر من رفع الدرجات فی الآیهٔ مخصوص بالذین أوتوا العلم. ویبقی لسائر المؤمنین من الرفع، الرفع درجهٔ واحدهٔ، ویکون التقدیر أن الله یرفع الذین آمنوا درجهٔ. ویرفع الذین أوتوا العلم درجات. فإذا کان طریق بنی أمیهٔ قد أضاع الصلاهٔ فهل تکون أعلامهم فی دائرهٔ الذین أوتوا العلم؟ وإذا کان النبی صلی الله علیه وسلم قد قال ": لکل قوم سادهٔ، حتی أن للنحل سادهٔ [" ۴۳] ، فهل بنی أمیهٔ سادهٔ المؤمنین أو سادهٔ الذین أوتوا العلم؟ وإذا کان النبی صلی الله علیه وسلم قد قال ": إن الله لا یقبض العلم انتزاعا ینتزعه من الناس، ولکن یقبض العلم بقبض العلماء، حتی إذا لم یترک عالما، اتخذ الناس رؤوسا جهالا فسألوا فأفتوا بغیر علم، فضلوا وأضلوا [" ۴۴] فهل علماء بنی أمیهٔ

قبضوا؟ کیف وهم علی سدهٔ الحکم وأبواب المساجد مفتوحهٔ لهم، ولهم المدارس والمعاهد والدواوین؟ فإذا کان ذلک کذلک، فلماذا ضیعوا الصلاهٔ واعتمدوا عقائد المرجئهٔ، وسارت السیاسهٔ المالیهٔ تحت أعلامهم بالوقود البیزنطی؟

[صفحه ۲۱۳]

إن العلم قبض تحت هذه الأعلام عندما استبعدوا حملته. وعن زیاد بن لبید قال: قلنا یا رسول الله، وکیف یذهب العلم ونحن نقرأ القرآن، ویقرئه أبنائنا، ونقرئه أبناؤنا أبناءهم إلی یوم القیامهٔ؟ فقال النبی: ثکلتک أمک یا ابن أم لبید، إن کنت لأراک من أفقه رجل

بالمدينة، أوليس هذه اليهود والنصارى يقرأون التوراة والإنجيل لا ينتفعون بما فيها بشئ [۴۵] إنه عالم معاوية ويزيد

الذين سهروا على ثقافة تأتى بخلف يقرأون القرآن لا يعدوا تراقيهم وتحت أعلامهم يقرأ القرآن منافق كافر به وفاجر يتأكل منه. إنه العالم الذى قام بالتعتيم على الخط الرسالى. حتى جاء الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا. ولقد ركبوا بذلك سنن الذين من قبلهم. يقول تعالى بعد أن ذكر أنبياءه ورسله: (أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم - وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا - فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات، فسوف يلقون غيا - إلا من تاب وآمن وعمل صالحا، فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا) [۴۶] ، قال المفسرون: وقوله تعالى: (وممن هدينا واجتبينا) معطوف على قوله ": من النبيين، " وهؤلاء غير النبيين من الذين أنعم الله عليهم، فإن هذه النعمة غير خاصة بالنبيين ولا منحصرة فيهم، بدليل قوله تعالى: (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) [۴۷] ومن الدليل أيضا

أن الله تعالى قال: (واذكر فى الكتاب مريم) ومريم ليست من النبيين. وكانت من الصديقين لقوله تعالى: (وأمه صديقة) [۴۸] ، فالمراد بقوله تعالى: (وممن هدينا واجتبينا) غير النبيين من الصديقين والشهداء والصالحين لا محالة. فهل

[صفحه ۲۱۴]

بنى أمية يقفون تحت رايات الذين هداهم الله واجتباهم؟ أم أنهم عتموا على الخط الرسالى وشقوا طريقهم نحو سنن الأولين، حيث الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا؟ ويقول البعض: إن النبى قال ": أيما عبد دعوت عليه فاجعل اللهم ذلك له أو عليه رحمة " ونحن نشك فى هذا، لأن النبى صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى، ولكن هب أن النبى قال ذلك. مع تحفظنا الشديد، فهل يسر بنو أمية أن رسول الله لعنهم فكان ذلك لهم رحمة؟ وقال البعض: يكفى بنى أمية أنهم فتحوا الفتوح ومصروا الأمصار. ونحن نقول إن الفتوحات عمل عظيم، ولكن أى فتوحات؟ إن الإسلام جاء ليقول كلمة لا ليرفع سيفا. فإذا رفع السيف فإن هذا السيف لا يرفع إلا بإذن الله ووفقا لمنهج الله. والنبى صلى الله عليه وسلم قال ": لا يقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه" [۴۹] ولقد ثبت

أن بنى أمية لا- يحيطون به. وثبت أنهم ليسوا أولى الناس بالأنبياء، وليسوا من الذين أوتوا العلم، لقد فتحوا الفتوح ومصروا الأمصار، ولكن لحساب من؟ إننا ما زلنا نعانى من مقولة إن الإسلام انتشر بالسيف، والإسلام برى من هذه المقولة التى ألصقت به فى عالم الفتن. إن فتوحات بنى أمية وغيرهم أشار إليها النبى صلى الله عليه وسلم عندما قال لابن حولة: ليفتحن لكم الشام والروم وفارس، حتى يكون لأحدكم من الإبل كذا وكذا، ومن البقر كذا وكذا، ومن الغنم، وحتى يعطى أحدهم مائة دينار فيسخطها. ثم وضع رسول الله يده على رأس بن حولة وقال: يا ابن حولة، إذا رأيت الخلافة قد نزلت الأرض المقدسة فقد دنت الزلازل والبلايا والأمور العظام [۵۰] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: إذا فتحت

عليكم فارس والروم، أى قوم أنتم. قال عبد الرحمن بن عوف: نقول كما أمرنا الله. فقال النبى: أو غير ذلك تتنافسون ثم تتحاسدون ثم تتدابرون ثم

[صفحه ۲۱۵]

تتباغضون [" ... ۵۱] .

إن أصحاب المقاعد الأولى أساءوا أبلغ إساءة إلى الفتوحات. ومن لطف الله تعالى أن عامة المسلمين من التجار وغيرهم، والعديد من العلماء الأفاضل، كانوا الصورة النقية التى عبرت عن الإسلام فى البلاد المفتوحة. أما أصحاب المقاعد الأولى الذين لا فقه لهم فيقول عنهم النبى صلى الله عليه وسلم ": إنه سيفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها، وإن عمالها فى النار، إلا من اتقى الله وأدى الأمانة [" ۵۲] وللأمانة تعاريف طويلة وعريضة، وأما علماء السوء

الذین اتخذوا الفتوحات وغیرها تجارة یقول فیهم النبی صلی الله علیه وسلم ": ویل لأمتی من علماء السوء، یتخذون هذا العلم تجارة، یبیعونها من أمراء زمانهم ربحا لأنفسهم، لا أربح الله تجارتهم [" ۵۳] .

إن الذین وضعوا بنی أمیة فی دائرة مناقب الفتوحات، لم یصیبوا الحق فی رأینا، لأن بنی أمیة دخلوا هذه الأبواب من طریق أضاعوا فیه الصلاة، واتبعوا الشهوات، فجاءت الفتن المقروءة والمسموعة وغیر ذلک. ثم کیف یوضعوا فی دائرة المناقب هذه فی الوقت الذی ضاعت فیه الأمانة؟ یقول النبی صلی الله علیه وسلم ": إذا ضیعت الأمانة فانتظروا الساعة. وقیل: یا رسول الله: کیف أضاعتها؟ قال: إذا أسند الأمر إلی غیر أهله فانتظر الساعة [۵۴] ولما کان إسناد

الأمر إلی غیر أهله بهذه الأهمیة، فکان لا بد أن یبین لهم من هم أهله هؤلاء، ولقد ثبت أنه صلی الله علیه وسلم قد بین ذلک فی أکثر من موضع [۵۵] ومن

[صفحه ۲۱۶]

العجیب أنه کان یبایعهم علی ذلک، فعن عبادة قال: بایعنا رسول الله صلی الله علیه وسلم علی السمع والطاعة فی منشطنا ومکرهنا، وعسرنا ویسرنا، وأثره علینا وأن لا ننازع الأمر أهله ["... ۵۶] ومن الأعجب أن أبا أیوب الأنصاری

کان یبکی ویقول ": لا تبکوا علی الدین إذا ولیه أهله، ولکن ابکوا علیه إذا ولیه غیر أهله [۵۷] .

وهکذا نعود إلی حیث بدأنا، ولقد بدأنا هذا الضوء بقول النبی صلی الله علیه وسلم ": إن الإسلام والسلطان أخوان توأمان، لا یصلح واحد منهما إلا بصاحبه. فالإسلام أس والسلطان حارس، وما لا أس له یهدم، وما لا حارس له ضائع [" ۵۸] ثم إخباره ": إن رحی الإسلام دائرة وإن الکتاب والسلطان سیفترقان

فدوروا مع الکتاب حیث دار [" ۵۹] ولقد بینا کیف تم الافتراق، وکیف رفعت

أعلام الذین أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات.

[صفحه ۲۱۷]

[۱] أس:أصل البناء.

[۲] رواه الدیلمی (کنز العمال ۶:۱۰).

[۳] رواه الطبرانی وأبو یعلی وابن عساکر وابن أبی شیبة عن سلمة ابن الأکوع (کنز العمال ۹۶، ۱۰۲، ۱۲) ورواه أبو یعلی والبزار والحاکم عن أبی ذر (الخصائص الکبری ۲:۴۶۶).

[۴] رواه البزار عن ابن عباس وعن الزبیر (کنز العمال ۱۲:۹۵۵) ورواه الحاکم وابن جریر والطبرانی عن أبی ذر (کنز العمال ۹۵، ۱۲:۹۸) وطریق أبو ذر طریق ضعیف. وجمیع من ساق هذا الحدیث ساقه من طریقه الضعیف ولا حول ولا قوة إلا بالله.

[۵] رواه أحمد والترمذی وحسنه والطبرانی وقال المناوی رجاله موثقون (الفتح الربانی ۱:۱۸۶).

[۶] رواه الطبرانی عن معاذ وابن عساکر عن ابن مسعود (کنز العمال ۱:۲۱۶).

[۷] رواه عبد الله بن أحمد وقال فی الفتح الربانی الحدیث جید الإسناد (الفتح ۲۳:۴۴).

[۸] رواه الطبرانی وقال الهیثمی رجاله رجال الصحیح (۷:۲۶۹ الزوائد).

[۹] رواه أحمد وقال فی الفتح الربانی: الحدیث صحیح رواه مسلم بلفظه والبخاری بلفظ: لا طاعة فی معصیة " الفتح ۲۳:۴۲. "

[۱۰] أی:لترده إلی الحق.

[۱۱] رواه الطبرانی (کنز العمال ۱:۱۸۳).

[۱۲] أخرجه ابن أبی حاتم وأبو الشیخ وابن مردویه (الدر المنثور ۳:۱۲).

[۱۳] البدایة والنهایة ۸:۱۳۳.

[۱۴] رواه أحمد وإسناده صحیح (الفتح الربانی ۳۹:۲۳) والبخاری الصحیح (ک الفتن ۲۸۰:۲) ومسلم (الصحیح ۴۱:۱۸).

[۱۵] من الثابت أن حذیفة مات بعد قتل عثمان بأیام معدودات.

[۱۶] البخاری ک الفتن (الصحیح ۲۳۰:۴).

[۱۷] البخاری ک الفتن (الصحیح ۲۳۰:۴).

[۱۸] رواه أحمد (الفتح الربانی ۴۰:۲۳) ومسلم (الصحیح ۱۷۹:۲).

[۱۹] البخاری (الصحیح ۱۸۰:۲) ک الجهاد.

[۲۰] ابن عساکر (کنز العمال ۳۷۱:۸).

[۲۱] رواه أحمد ومسلم (الفتح الربانی ۱۸۳:۲۳).

[۲۲] مقاتل الطالبین ۳۲۹:۱.

[۲۳] رواه أحمد وإسناده جید ورواه الترمذی بطریق آخر (الفتح الربانی ۹۹، ۲۰۰:۱).

[۲۴] رواه البخاری (الصحیح ۱۳:۱).

[۲۵] الإصابة ۴۶:۵.

[۲۶] الإصابة ۷۲:۱.

[۲۷] رواه أحمد وابن حبان فی صحیحه والحاکم (کنز ۲۳۸:۱) وقال السیوطی. رواه أحمد والطبرانی والحاکم وصححه (الخصائص الکبری ۲۶۵:۱).

[۲۸] شذرات الذهب:ابن العماد الحنبلی ۶۹:۱.

[۲۹] تاریخ الخلفاء ۱۸۷:۱.

[۳۰] تاریخ الخلفاء ۱۸۷:۱.

[۳۱] رواه أحمد بسند صحیح وأبو یعلی (کنز العمال ۱۱۹:۱۱).

[۳۲] رواه أحمد وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۲۳۱:۶) وقال ابن کثیر تفرد به أحمد وإسناده علی شرط السنن (البدایة ۲۲۸:۶) ورواه ابن جریر (کنز ۳۱۴:۱۱) والحاکم وأقره الذهبی (المستدرک ۵۰۷:۴)، والبیهقی (الخصائص الکبری ۲۳۶:۲)، وابن حبان فی صحیحه (کنز العمال ۱۹۵:۱۱).

[۳۳] رواه الحاکم (المستدرک ۵۰۷:۴).

[۳۴] رواه الحاکم (کنز العمال ۲۰۰:۱۰).

[۳۵] العقد الفرید ۶۲:۱.

[۳۶] رواه أحمد فی الورع ۱۹۳:۱.

[۳۷] أحمد فی الورع ۸۲:۱.

[۳۸] أحمد فی الورع ۹۷:۱.

[۳۹] رواه الحاکم والبیهقی (کنز العمال ۱۷۰:۱).

[۴۰] رواه أحمد وأبو داود والنسائی (کنز العمال ۱۷۰:۱).

[۴۱] سورة المجادلة: الآیة ۱۱.

[۴۲] سورة الزمر: الآیة ۹.

[۴۳] أبو یعلی (کنز العمال ۸۸:۶).

[۴۴] رواه مسلم (الصحیح ۲۲۴:۱۶) وأحمد (الفتح الربانی ۱۸۱:۱).

[۴۵] رواه أحمد (الفتح الربانی ۱۸۲:۱)، والحاکم وأقره الذهبی وقال الهیثمی رواه الطبرانی والبزار (الزوائد ۲۰۰:۱).

[۴۶] سورة مریم: الآیة ۵۸، ۶۰.

[۴۷] سورة النساء: ۶۹.

[۴۸] سورة المائدة: ۷۵.

[۴۹] رواه أبو نعیم (کنز العمال ۸۴:۳).

[۵۰] رواه أحمد وأبو داوود والحاکم وصححه (الفتح الربانی ۲۹:۲۴).

[۵۱] رواه مسلم (الصحیح ۹۷:۱۸).

[۵۲] رواه أحمد وقال فی الفتح إسناده حسن (الفتح الربانی ۲۵:۲۳).

[۵۳] رواه الحاکم فی تاریخه (کنز ۲۰۵:۱۰).

[۵۴] رواه البخاری (الصحیح ۱۲۸:۴).

[۵۵] کان علی فی دائرة أهل بمکة عندما نزل قوله تعالی: (وأنذر عشیرتک الأقربین) وکان فی دائرة أهله عندما نزل قوله تعالی: (... وأنفسنا وأنفسکم)، وکان فی دائرة أهل یوم تبوک عندما قال له ": أنت منی بمنزلة هارون من موسی، "... وفی العام التاسع عندما بعثه بسورة براءة، ویوم الکساء (إنما یرید الله لیذهب عنکم الرجس أهل البیت...)، ویوم غدیر خم: (من کنت مولاه فعلی مولاه).

[۵۶] رواه البخاری (الصحیح ۲۲۲:۴)، ورواه ابن أبی عاصم وقال الألبانی رجاله ثقات (کتاب السنة ۴۹۳:۲).

[۵۷] رواه أحمد والحاکم وأقره الذهبی الطبرانی (الفتح الربانی ۳۲:۲۳)، (المستدرک ۴۱۵:۲)، (الزوائد ۲۴۵:۵).

[۵۸] رواه الدیلمی (کنز العمال ۱۰:۶).

[۵۹] رواه الطبرانی عن معاذ. وابن عساکر عن ابن مسعود (کنز ۲۱۶:۱).

دماء حول کهف النفاق

احذروا إن القانون هنا یقوم علی أعمدة، قال معاویة ": إیاک والسلطان،

فإنه یغضب غضب الصبیان، ویأخذ أخذ الأسد، وإن قلیلة یغلب کثیر الناس [" ۱] وقال ": إنی لا أحول بین الناس وألسنتهم ما لم یحولوا بیننا وبین

ملکنا [" ۲] وکتب إلی نائبه زیاد ": إنه لا ینبغی أن نسوس الناس سیاسة واحدة

باللین فیمرحوا، ولا بالشدة فنحمل الناس علی المهالک، ولکن کنت أنت للشدة والفظاظة والغلظة. وأنا للین والألفة والرحمة ["... ۳] . لقد وضع بنی أمیة بذرة الاضطهاد فی الإسلام، ومن هذه البذرة خرجت شجرة تحت ظلالها وضعت الأرائک للملک العضوض، ونصبت الخیام للجبریة والطواغیت. وعلی طرقها توجه التهم للشرفاء فیتهموا بالعمالة تارة، وبالتحریض تارة، وبالسعی للاستیلاء علی السلطة تارة أخری، وبالتهمة تقطع الرؤوس، ویطاف بها هنا وهناک، علی هدیر هتاف یدعو للسلطان بدوام البغاء. والقانون لا یجوز الطعن فیه، لأن الذی أملاه صحابی شاهد النبی وسمع منه. ومرحا للطلقاء وأبناء الطلقاء، مرحا لاثنی عشر رجلا کانوا یریدون أن یقتلوا النبی صلی الله علیه

[صفحه ۲۱۸]

وسلم عند عودته من تبوک، ومرحا لأصحاب المسجد الضرار. ونحن هنا سنلقی الضوء علی کیفیة تعامل القانون مع المسلمین تحت ثقافة السب. بعد موت النبی صلی الله علیه وسلم بما یقرب من ثلاثین عاما.

[۱] البداية والنهاية ۱۳۵:۸.

[۲] الطبرانى ۱۸۷:۶.

[۳] البداية والنهاية ۱۳۶:۸.

قلوب من نحاس

يوم غدير خم قال النبى صلى الله عليه وسلم ": من كنت مولاه فعلى
مولاه ".... الحديث، وفى نفس الخطبة أوصى الأمة بوصايا وحذرهم من أمور منها قوله ": لعن الله من ادعى إلى غير أبيه ولعن الله من تولى غير مواليه الولد للفراش وللعاهر الحجر [" ۱] ولقد اخترت هذه الرواية، لأنها لزيد بن أرقم
وفيها ": كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بغدير خم، ونحن نرفع غصن شجرة عن رأسه فقال، ".... ثم ساق الحديث. وهذا الحديث رواه أحمد عن أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": الولد للفراش وللعاهر الحجر وحسابهم على الله، ومن ادعى إلى غير أبيه، أو انتمى إلى غير مواليه فعليه لعنة الله إلى يوم القيامة [" ۲] ورواه أحمد والشيخان عن أبى عثمان أنه لقى أبا
بكرة فقال له: ما هذا الذى صنعتم؟ إنى سمعت سعد بن أبى وقاص يقول: سمع أذنى من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول: من ادعى أبا فى الإسلام غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه، فالجنة عليه حرام. فقال أبو بكرة: وأنا سمعت من رسول الله [۳] .
وإذا كان معاوية قد حارب الذى قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم يوم الغدير ": من كنت مولاه فعلى مولاه، " فإن معاوية تتبع الخطبة إلى نهايتها، وألحق زياد بن أبيه بالخيمة الأموية، ضاربا بالتحذير عرض الحائط. وزياد هو
[صفحه ۲۱۹]
المعروف بزياد بن أبى سفيان، ويقال فيه زياد بن أبيه، ويقال زياد بن أمه. وادعاه معاوية وألحقه بأبيه أبى سفيان وصار من جملة أصحابه. وكان أمير المؤمنين على بن أبى طالب قد حذر زياد من معاوية فقال له ": إن معاوية يأتى المرء من بين يديه ومن خلفه فاحذره [" ۴] .
وكان معاوية يريد أن يخترق جبهة على، فبعث إلى زياد يغريه بهذا الاستلحاق، وكان زياد وقتئذ عاملا لعلى. وبعد وفاة أمير المؤمنين راسل معاوية زياد رغبة منه فى أن يستعين به فى تأسيس ملكه والقضاء على المعارضة. وبدخول زياد خيمة معاوية جرت الدماء أنهارا، ولم تقف حتى بعد وفاة زياد الذى خلفه ابنه فكان شر خلف لشر سلف. وروى الطبرى: كان زياد أول من شد أمر السلطان، وأكد الملك لمعاوية، وألزم الناس الطاعة، وتقدم فى العقوبة، وجرر السيف، وأخذ بالظنة، وعاقب على الشبهة، وخافه الناس فى سلطانه خوفا شديدا [۵] وكان زياد أول من سير
بين يديه بالحراب، ومشى بين يديه بالعمد [۶] وضم معاوية إلى زياد الكوفة،
فكان أول من جمع له الكوفة والبصرة [۷] وقام زياد بتعيين سمرة بن جندب
عاملا له على البصرة، وكان يقيم ستة أشهر بالكوفة وستة أشهر بالبصرة [۸] .
وسمرة بن جندب شرب من إناء زياد كل معالم القسوة، يقول الطبرى: سئل أنس بن سيرين، هل كان سمرة قتل أحدا؟ قال: وهل يحصى من قتل سمرة بن جندب؟، استخلفه زياد على البصرة، فقتل ثمانية آلاف من الناس، وعندما قيل له: هل تخاف أن تكون قد قتلت أحدا بريئا قال: لو قتلت إليهم ا
[صفحه ۲۲۰]
مثلهم ما خشيت [۹] وعن أبى سوار العدوى قال: قتل سمرة من قومى فى
غداة سبعة وأربعين رجلا قد جمع القرآن [۱۰] ، وروى أن سمرة دخل إلى المدينة، وعند مرور الخيل ظهر رجل فضربوه بالحربة،

وقال سمرة: إذا سمعتم بنا قد ركبنا فاتقوا أسنتنا [۱۱] .

فهذه القوة الحديدية التى يتحرك بها رجال لهم قلوب من نحاس، حذر النبى صلى الله عليه وسلم من مقدماتها يوم غدير خم. وذلك لأن أصحاب العقول البرونزية، التى تقرقع أنيابهم كقرقعة أنياب الحيتان، لن يجدوا فريسة يغرسون فيها أنيابهم سوى الذين يحبون على بن أبى طالب، فيوم الغدير دثر النبى على بن أبى طالب بدثار " من كنت مولاه "... فى الوقت الذى كان النبى يقول فيه ": لعن الله من ادعى إلى غير أبيه. "....

[۱] رواه الطبرى (الزوائد ۱۵:۴).

[۲] رواه أحمد (الفتح الربانى ۲۱۸:۲۱) والترمذى وقال فى تحفة الأحوذى أخرجه الجماعة إلا أبو داود (التحفة ۳۲۱:۴).

[۳] رواه أحمد والشيخان (الفتح الربانى ۴۱:۱۷).

[۴] أسد الغابة ۲۷۲:۲.

[۵] الطبرى ۱۲۶:۶.

[۶] الطبرى ۱۲۷:۶.

[۷] الطبرى ۱۲۸:۶.

[۸] الطبرى ۱۳۱:۶.

[۹] الطبرى ۱۳۲:۶.

[۱۰] الطبرى ۱۳۲:۶.

[۱۱] الطبرى ۱۳۲:۶.

مقتل حجر بن عدى

قال النبى صلى الله عليه وسلم وهو يخبر بالغيب عن ربه جل وعلا:

"سيقتل بعذراء أناس يغضب الله لهم وأهل السماء [" ۱] وروى عن الإمام على

أنه قال ": يا أهل العراق سيقتل منكم سبعة نفر بعذراء، مثلهم كمثل أصحاب الأخدود [" ۲] وحجر بن عدى هو الذى قام بفتح عذراء، قال: إنى لأول فارس

من المسلمين هلل فى واديها، وأول رجل من المسلمين نبحته كلابها [۳] .

فمن الذى قتل فى عذراء؟ الإجابة: إنه حجر بن عدى. فماذا قتل؟

[صفحه ۲۲۱]

الإجابة: قتل فى مولاه على بن أبى طالب! [۴] .

يقول ابن كثير: كان المغيرة بن شعبة على الكوفة إذا ذكر عليا فى خطبته يتنقصه بعد مدح عثمان، فيغضب حجر... فلما توفى المغيرة وجمع معاوية لزياد الكوفة مع البصرة، فعل ما كان يفعله المغيرة، فكان حجر يغضب كغضبه أيام المغيرة [۵] وروى أن زياد خطب يوما فى الجمعة، فأطال الخطبة وأخر

الصلاة، فقال له حجر: الصلاة، فمضى زياد فى خطبته، وكما ذكرنا من قبل أن بنى أمية كانوا يتعاملون مع الصلاة بطريقة خاصة بهم. وعند ما مضى زياد فى الخطبة، خشى حجر فوات الصلاة فضرب بيده إلى الحصا. وثار إلى الصلاة وثار الناس معه [۶] فلما رأى زياد. نزل وصلى بالناس. ثم كتب إلى معاوية فى

أمر حجر. فكتب إليه معاوية: أن شده فى الحديد واحمله إلى [۷] وتم القبض

على حجر، وأحضر الشهود الذين يشهدون عليه أنه سب الخليفة، وحارب الأمير، وأنه قال: إن هذا الأمر لا يصلح إلا فى آل على بن أبى طالب [۸] .

وروى أنه لما أخذ فى قيوده سائرا إلى الشام، تلقته بناته فى الطريق وهن يبكين، فمال نحوهن وقال: اسكتن، فسكتن، فقال: اتقين الله عز وجل واصبرن، فإنى أرجو من ربى فى وجهى هذا إحدى الحسنيين، إما الشهادة وهى السعادة، وإما الانصراف إليكن فى عاقبة. وإن الذى كان يرزقكن ويكفينى مؤونتكن هو الله تعالى، وهو حى لا يموت، أرجو أن لا يضيعكن. وأن يحفظنى فيكن [۹] .

وروى أنه ذهب إلى معاوية أولا فى دمشق، ثم أمر معاوية بقتله فى

[صفحه ۲۲۲]

عذراء. وقيل: إن معاوية تحرك فى موكبه من دمشق وضرب خيمته فى عذراء، وجاء حجر إليه. ولا ندرى لماذا اختار معاوية عذراء بالذات! وكما ذكرنا أن حجرا هو أول فارس قال لا- إله إلا الله فيها. وروى أن معاوية عندما أمر بقتل حجر وأصحابه، جاء رسول معاوية فقال لهم: إنا قد أمرنا أن نعرض عليكم البراءة من على بن أبى طالب واللعن له، فإن فعلتم تركناكم، وإن أبيتم قتلناكم. وإن أمير المؤمنين معاوية يزعم أن دماءكم قد حلت له بشهادة أهل مصركم عليكم. غير أنه قد عفى عن ذلك، فابرؤوا من هذا الرجل نخلى سبيلكم. فقالوا: إنا لسنا فاعلى ذلك. فأمر بقبورهم فحفرت، وأدنيت أكفانهم، فقاموا الليل كله يصلون. فلما أصبحوا قال أصحاب معاوية: يا هؤلاء لقد رأيناكم البارحة قد أطلتم الصلاة، وأحسنتم الدعاء، فاخبرونا ما قولكم فى عثمان. قالوا: هو أول من جار فى الحكم وعمل بغير الحق. فقال أصحاب معاوية: أمير المؤمنين معاوية أعلم منكم. ثم قالوا: تبرؤون من هذا الرجل؟ قالوا: بل نتولاه ونتبرأ ممن تبرأ منه. فأخذ كل رجل من أصحاب معاوية رجلا منهم ليقتله. فقال لهم حجر: دعونى أتوضأ. قالوا: توضأ. فلما توضأ قال لهم: دعونى أصلى ركعتين، فأيمن الله ما توضأت قط إلا صليت ركعتين. فتركوه يصلى. فلما صلى قال: والله ما صليت صلاة قط أخف منها. ولولا أن تظنوا فى جزعا من الموت لاستكثرت فيها [۱۰] .

وروى أن بعض أصحاب حجر قالوا: ابعثوا بنا إلى معاوية، فلما دخلوا عليه دخل الخثعمى قال: الله الله يا معاوية! فإنك منقول من هذه الدار الزائلة إلى الدار الآخرة الدائمة، ثم مسؤول عما أردت بسفك دمائنا. فقال له معاوية: ما تقول فى على؟ قال: أقول فيه قولك. أتبرأ من دين على الذى يدين الله به. فسكت معاوية ثم قال لعبد الرحمن العنزى: ما تقول فى على: فقال لمعاوية: دعنى ولا تسألنى فهو خير لك. قال: والله لا- أدعك حتى تخبرنى عنه، فقال: أشهد أنه كان من الذاكرين الله كثيرا، ومن الآمرين بالحق، والقائمين بالقسط،

[صفحه ۲۲۳]

والعافين عن الناس، فقال معاوية: فما قولك فى عثمان؟ قال: هو أول من فتح باب الظلم، وأرج أبواب الحق، فقال معاوية: قتلت نفسك، قال: بل إياك قتلت [۱۱] .

لم يأمر معاوية بقتل العنزى فى مرج عذراء، بل اختاره من بين أصحاب حجر ليرى أهل العراق قتله. روى أن معاوية بعث به إلى زياد وكتب إليه: إن هذا العنزى شر من بعثت، فعاقبه عقوبته التى هو أهلها، واقتله شر قتلة [۱۲] .

وروى أن العنزى قبل أن يغادر عذراء قال لحجر: نعم أخو الإسلام كنت. ثم حمل إلى العراق فلما قدم به على زياد، أمر بدفنه حيا [۱۳] .

وروى أن حجرا لما مشى إليه فياض الأعور بالسيف، ارتعدت فرائصه، فقيل له: يا حجر أليس زعمت أنك لا تجزع من الموت؟ فقال: وما لى لا أجزع، وأنا أرى قبرا محفورا وكفنا منشورا وسيفا مشهورا [۱۴] وروى أنه قال:

اللهم إنا نستعديك على أمتنا، فإن أهل الكوفة شهدوا علينا، وإن أهل الشام يقتلوننا، أما والله لئن قتلتمونى بها، إنى لأول فارس من المسلمين هلل فى واديها، وأول رجل من المسلمين نبحته كلابها. فمشى إليه الأعور، هدبة بن فياض بالسيف، فأرعدت خصائله، فقال

لحجر: أنا أدعک فابرأ من صاحبک. فقال حجر: لا أقول ما یسخط الرب. فقتله، وأقبلوا یقتلونهم واحدا واحدا حتی قتلوا ستة [۱۵] روی الطبری: قال الحسن: حجوهم ورب الکعبة [۱۶] ، وفی قتل

حجر قالت هند ابنة زیدان الأنصاریة:

ألا یا حجر بنی عدی++

تلقتک السلامة والسرور

[صفحه ۲۲۴]

أخاف علیک ما أروی عدیا++

وشیخا فی دمشق له زئیر

یری قتل الخیار علیه حقا++

له من شر أمته وزیر [۱۷] .

وروی أن حجرا أوصی قبل قتله فقال: لا تغسلوا عنی دما، ولا تطلقوا عنی قیدا، وادفنونی فی ثیابی، فأنا سألقی معاویة غدا [۱۸] وفی روایة: فإنی لاق

معاویة بالحادة، وإنی مخاصم [۱۹] .

وقتل أصحاب عذراء الذین وصفهم الحدیث بأن مثلهم کمثل أصحاب الأخدود. لقد لفت النبی صلی الله علیه وآله وسلم الأنظار إلیهم، لیعلم الذین عاصروا الحدث حقیقة الأحداث. فحجر لم یکن مجرد قتیل، ولکنه شاهد علی تاریخ مضی، وشاهد علی إمارة تقلدها رجل وقع فی دائرة اللعن یوم غدیر خم، یوم أن قال رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم ": لعن الله من ادعی إلی غیر أبیه."... وکان حجر شاهدا أیضا علی کرسی کبیر یجلس علیه شیخ فی دمشق له زئیر، وهذا أیضا مخالف لما قیل یوم الغدیر. تری هل فهم أحد یومئذ الحکمة التی رواء قتل حجر. إننی أمیل إلی القول بأن الکثرة لم تفهم المغزی بدلیل أن حجرا دعا ربه وقال: اللهم إنا نستعدیک علی أمتنا، فإن أهل الکوفة شهدوا علینا وإن أهل الشام یقتلوننا. وأغلب الظن أن أهل الشام ما کانوا فی حاجة إلی شهود، فالذی یضیع الصلاة علی أقل تقدیر لیس بعیدا علیه أن یضیع الشهود - وها هو سمرة بن جندب الذی قتل الآلاف وما خاف أن یکون فیهم بریئا واحدا. وبعد أن فرغ معاویة من قتل حجر ورفاقه ذهب إلی المدینة، وروی أنه دخل علی عائشة ولم یشهد کلامهما أحد إلا ذکوان مولی عائشة [۲۰] ، فقالت: ما حملک علی قتل أهل عذراء حجر وأصحابه؟ قال: یا أم المؤمنین، إنی رأیت

[صفحه ۲۲۵]

قتلهم صلاحا للأمة، وبقاءهم فسادا للأمة فقالت: سمعت النبی صلی الله علیه وسلم یقول ": سیقتل بعذراء ناس یغضب الله لهم وأهل السماء [" ۲۱] ، وبعد أن عاتبته عائشة قال: أنت والله العالمة العاملة بأمر رسول الله صلی الله علیه وسلم، الناصحة المشفقة البلیغة الموعظة، حضضت علی الخیر وأمرت به، ولم تأمرینا إلا بالذی هو لنا مصلحة وأنت أهل أن تطاعی [۲۲] وروی أنها عاتبته

أیضا فی قتل أخیها فقالت: أما خفت أن أقعد لک رجلا فیقتلک؟ فقال: ما کنت لتفعلیه، وأنا فی بیت أمان، وقد سمعت النبی صلی الله علیه وسلم یقول ": الإیمان قید الفتک. " ثم قال: کیف أنا فی الذی بینی وبینک وفی حوائجک؟ قالت: صالح، فقال: فدعینا وإیاهم حتی نلقی ربنا [۲۳] وفی روایة قال: کیف

بری بک یا أمة، قالت: إنک محب لنا، فقال: یکفینی هذا عند الله [۲۴] .

ولقد کان معاویة برا بأم المؤمنین، فعن سعید بن عبد العزیز قال: قضی معاویة عن عائشة أم المؤمنین ثمانیة عشر ألف دینار، وما کان علیها من الدین الذی کانت تعطیه الناس [۲۵] وعن عطاء قال: بعث معاویة إلی عائشة وهی بمکة

بطوق قیمته مائة ألف فقبلته [۲۶] وروی أن زید بن منبه، أخو یعلی بن منبه

صاحب حجل عائشة، ومتولی تلک الحرب دخل علی معاویة وشکا إلیه دینا لزمه فأمر معاویة له بثلاثین ألف، وعندما هم زید بالانصراف قال معاویة: ولیوم الجمل ثلاثین ألف أخری [۲۷] .

ولیس معنی هذا أن أم المؤمنین تبحث عن الثروة، معاذ الله. فلقد کانت تأخذ المال من معاویة لتعطی المحتاجین. ولقد روی عن عائشة قالت: جلست

[صفحه ۲۲۶]

أبکی عند رسول الله صلی الله علیه وسلم. فقال: ما یبکیک. إن کنت تریدین اللحوق بی، فیکفیک من الدنیا مثل زاد الراکب، ولا تخالطین الأغنیاء [۲۸] .

[۱] ابن عساکر ویعقوب بن سفیان (کنز العمال ۱۲۶:۱) ابن کثیر (البدایة ۵۵:۸).

[۲] البدایة والنهایة ۵۵:۸.

[۳] الکامل ۲۴۱:۳، أسد الغابة ۴۱۲:۱، الطبری ۱۵۴:۶.

[۴] الحاکم (المستدرک ۴۷۰:۳).

[۵] البدایة والنهایة ۵۱:۸، الطبری ۱۴۳:۶.

[۶] الطبری ۱۴۳:۶، الکامل ۲۴۳:۳.

[۷] البدایة ۵۱:۸، الطبری ۱۴۳:۶، الکامل ۲۴۳:۳، کتاب المحن ۱۲۰:۱.

[۸] البدایة ۵۱:۸.

[۹] الطبری ۱۵۲:۶.

[۱۰] الطبری ۱۵۴:۶، الکامل ۲۴۱:۳، أسد الغابة ۴۶۲:۱.

[۱۱] الطبری ۱۵۵:۶، الکامل ۲۴۲:۳.

[۱۲] الطبری ۱۵۵:۶، الکامل ۲۴۲:۳.

[۱۳] الطبری ۱۵۵:۶، الکامل ۲۴۲:۳.

[۱۴] الطبری ۱۵۴:۶، الکامل ۲۴۱:۱، الحاکم (المستدرک ۴۶۹:۳) کتاب المحن ۱۸۸:۱.

[۱۵] الطبری ۱۵۵:۶، الکامل ۲۴۱:۳، کتاب المحن ۱۸۸:۱.

[۱۶] الطبری ۱۵۵:۶.

[۱۷] الطبری ۱۵۷:۶.

[۱۸] الحاکم (المستدرک ۴۶۹:۳).

[۱۹] الحاکم (المستدرک ۴۷۰:۳) ابن عساکر (کنز العمال ۳۵۳:۱۱) أسد الغابة ۴۶۲:۱.

[۲۰] البدایة ۱۴۳:۸.

[۲۱] ابن عساکر ویعقوب بن سفیان (کنزل العمال ۵۸۸:۱۳) کتاب المحن ۱۱۹:۱.

[۲۲] البدایة والنهایة ۱۴۳:۸.

[۲۳] رواه أحمد (الفتح الربانی ۲۳۴:۱۹) کتاب المحن ۱۲۰:۱.

[۲۴] البدایة والنهایة ۵۷:۸.

[۲۵] البدایة والنهایة ۱۳۶:۸.

[۲۶] البدایة والنهایة ۱۳۷:۸.

[۲۷] العقد الفرید ۶۸:۲.

[۲۸] أبو سعید الأعرابی فی الزهد (کنز العمال ۷۳۱:۳).

هل رأیت آیة النار

کان عمر بن الحمق من أتباع حجر بن عدی، وکان یعترض علی ما

یعترض علیه حجر، وکما کان حجر حجة علی جموع أحاط بها العذاب من کل مکان، ودعوة لهم کی یأخذوا بالأسباب لدفع هذا العذاب، کذلک کان عمرو بن الحمق أیضا. روی عن عمرو أنه قال: هاجرت إلی رسول الله صلی الله علیه وسلم. فبینما أنا عنده ذات یوم قال لی: یا عمرو هل لک أن أریک آیة الجنة تأکل وتشرب الشراب، وتمشی فی الأسواق؟ قلت: بلی بأبی أنت. قال: هذا وأشار بیده إلی علی بن أبی طالب. ثم قال لی: یا عمرو هل لک أن أریک آیة النار، تأکل الطعام وتشرب الشراب وتمشی فی الأسواق؟ قلت: بلی بأبی أنت. قال: هذا وقومه آیة النار، وأشار إلی رجل! فلما وقعت الفتنة ذکرت قول النبی صلی الله علیه وسلم ففرت من آیة النار إلی آیة الجنة. ثم قال عمرو: ویری بنو أمیة قتلی بعد هذا. والله إن کنت فی حجر فی جوف حجر، لاستخرجنی بنو أمیة حتی یقتلونی، حدثنی به حبیبی رسول الله صلی الله علیه وسلم، وقال لی: إن رأسی أول رأس تحتز فی الإسلام وینقل من بلد إلی بلد [۱] .

وروی أن عمرو بن الحمق کان من جملة من أعان حجر بن عدی، فطلبه زیاد فهرب وکان مریضا، وخرجت الخیل فی طلبه. وفی الطریق سأله رجل: من

[صفحه ۲۲۷]

أنت؟ فقال: من إن ترکتموه کان أسلم لکم، وإن قتلتموه کان أضر بکم. وهرب عمرو إلی الموصل [۲] ، وروی أن عامل الموصول لما رأی عمرا عرفه، فکتب إلی معاویة فأمر معاویة بقتله، فهرب نحو الجزیرة ومعه رجل یقال له زاهر، وبینما هما مختبآن إذ رأیا نواصی الخیل فی طلبه، فأمر زاهر أن یتغیب، وقال له: فإذا قتلت فإنهم یأخذون رأسی، فارجع إلی جسدی فادفنه، فقال له زاهر: بل انثر نبلی ثم أرمیهم حتی إذا فنیت معک. قال عمرو: لا ولکنی سأزودک منی ما ینفعک الله به. فاسمع منی: آیة الجنة محمد رسول الله صلی الله علیه وسلم، وعلامتهم علی بن أبی طالب! وتواری زاهر، فأقبل القوم، وقتل عمرو، ونزل إلیه رجل منهم فقطع رأسه. فکان أول رأس فی الإسلام نصب فی الناس. وخرج زاهر إلیه فدفنه [۳] وفی روایة: أن حیة نهشته فمات فقطعوا رأسه [۴] .

وبعد أن رفعت رأس عمرو بن الحمق لیراها أهل العراق، کان لا بد أن یراها أهل الشام. یقول البخاری: أول رأس بعث فی الإسلام رأس عمرو بن الحمق. بعثه زیاد إلی معاویة [۵] لکی تشاهد الأمة الرأس المقطوع. یقول ابن کثیر: وبعث برأسه إلی معاویة فطیف به فی الشام وغیرها، فکان أول رأس طیف به [۶] .

وکان معاویة قد ألقی القبض علی زوجه عمرو بعد أن فشل فی القبض علی عمرو، وألقی بها فی سجونه. ورأی معاویة بعد أن أطمئن إلی أن الأمة قد شاهدت الرأس، أن یبعث برأس عمرو إلی زوجته فی السجن. یقول ابن کثیر: ثم بعث معاویة برأسه إلی زوجته آمنة بنت الشرید، وکانت فی سجنه فألقی فی حجرها، فوضعت کفها علی جبینه، ولثمت فمه وقالت: عیبتموه عنی طویلا،

[صفحه ۲۲۸]

ثم أهدیتموه إلی قتیلا، فأهلا بها من هدیة، غیر قالیة ولا مقلیة [۷] .

إن بنی أمیة سجلوا السطور الأولی فی قانون الاضطهاد الذی یحمل غلاف الدین، فمن هنا کانت خطورتهم. ولأجل ذلک حذرت الدعوة منهم، ولقد میزهم الله بعلامات علی امتداد تاریخهم فی الجاهلیة حتی لا تجهلهم قریش. فبینما کان لبنی عبد شمس أنهار کان لبنی هاشم أنهار أخری، وجاءت الدعوة الخاتمة علی هذا الأساس من المعرفة، جاءت الدعوة لتنهی الأحقاد وتعلن: لا فضل لعربی علی أعجمی إلا بالتقوی، وتحذر من أصحاب مستنقعات الحقد لأنهم لو بلغوا أربعون رجلا علی آرائک السلطة فسیکون قانونهم:

السواد بستان لقريش، وأن أبا سفيان لو ولد الناس فلن يلد إلا حازما. إن الدعوة أرشدت الجيل الأول إلى الطريق الذى إذا أخذوا به فلن يضلوا أبدا. وقتل حجر، وقطع رأس عمرو بن الحمق، ومن قبلهما عمار بن ياسر، وزيد بن صوحان، وغيرهم ما وقع إلا على طريق ينتهى بتمزيق الأمة. ومن فضل الله تعالى ورحمته، أنه غرس على امتداد طريق الأمة الخاتمة مبشرات وعلامات، تنير الطريق قبل وقوع الحدث كى يحذر الناس. فعمار كان علامة لأحداث محددة، وأبو ذر كان علامة لوقت محدد، وحجر بن عدى وأصحابه علامات إرشادية لها مهمة ما، وعند ثقافة ما، فى زمن ما. ومعنى أن جبريل عليه السلام يخبر النبى صلى الله عليه وسلم أن عمارا تقتله الفئة الباغية، وأن الله يغضب لقتل أهل عذراء، معنى هذا أن من أراد طريق العصمة من الفتن فلا يقف ضد المبشرات والعلامات، بل يجب عليه أن يدور معهم ويسلك طريقهم. وهذه العلامات باختصار شديد. دعوة للدخول فى رحاب الرحمة، والخروج من باب الضنك والعذاب الذى نشأ من اختلافهم وارتفاع أصواتهم وخذلانهم للحق، فالله سبحانه يبين للناس ما يتقون ويكشف لهم طريق المحن. فإذا آمن أهل القرى فتح عليهم سبحانه أبواب البركات، وإذا اختلفوا

[صفحه ۲۲۹]

أنار الطريق بالمبشرات والعلامات ليرفع عنهم ما جلبوه لأنفسهم، وهذا من رحمته الواسعة. يقول النبى صلى الله عليه وآله وسلم": ذهبت النبوات وبقيت المبشرات [" ۸] فإغلاق الطريق أمام المبشرات وعلاماتها يعنى أن الذى أغلق

الطريق يسير فى عالم الفتن، وعالم الفتن لا يدرى القاتل فيه فى أى شئ قتل، ولا يدرى المقتول فى أى شئ قتل. وفى عالم الفتن الراضى بفعل قوم كالداخل فيه معهم. وعلى كل داخل فى الباطل إثمان: إثم العمل به وإثم الرضا به. وليس معنى أن الفتن فى الخارج أن يغلق رجال الجيل الأول على أنفسهم الأبواب، لأن الفتن على أيامهم كان عليها علامات وعلامات، وكان إمام الهدى لا يجهله أحد. إن إغلاق الباب عند المقدمة سيكون إغلاقا للحقيقة عند النتيجة. والله تعالى يجرى الأحداث لينظر كيف يعمل عباده. كما أن لكل فتنة فقه. فهناك فتنة يدور فقهها على رحى " لو أن الناس اعتزلوهم " فالاعتزال هنا المقصود منه تجريد جهات الاستعلاء على عباد الله من المال، والجنود والفقهاء، فالاعتزال سيجعلهم بلا سيف وبلا سجن. وهناك فتن يجب أن يبحث المسلم فيها عن سيف من خشب، وذلك عندما يجد أن الذين من حوله يقتتلون على المال، أو على شبر من الأرض. قال النبى صلى الله عليه وسلم ": إذا رأيت رجلين من أمتى يقتتلان على المال، فاعدد عند ذلك سيفا من خشب [" ۹] .

وقال ": إذا رأيت الأخوين المسلمين يختصمان فى شبر من الأرض فاخرج من تلك الأرض [" ۱۰] .

وفى الجيل الأول لم يكن الإمام على، ومن بعده الإمام الحسن، يقاتلان من أجل المال. ولم يخرج أبو ذر، أو عمار، وأويس، أو حجر من أجل المال. فاعتزال هذا الخط يكون اعتزال فى غير محله. ولقد رأينا فى حركة التاريخ أن الغالب الأعم لم يعتزل الذين أمروا باعتزالهم واعتزلوا الذين نهوا عن

[صفحه ۲۳۰]

اعتزالهم. ونتيجة لذلك، ركبوا الطريق الذى يؤدى إلى عذراء فقتل حجر. وغضب الله وأهل السماء. وفى الفتن يقول الإمام على ": لا يقولن أحدكم: اللهم إنى أعوذ بك من الفتن، لأنه ليس أحد إلا وهو مشتمل على فتنة. ولكن من استعاذ فليستعذ من مضلات الفتن، فإن الله سبحانه يقول ": واعلموا إنما أموالكم وأولادكم فتنة، " ومعنى ذلك أنه سبحانه يختبر عباده بالأموال والأولاد، ليتبين الساخط لرزقه والراضى بقسمه. وإن كان الله سبحانه أعلم بهم من أنفسهم. ولكن لتظهر الأفعال التى بها يستحق الثواب والعقاب، لأن بعضهم يحب الذكور ويكره الإناث. وبعضهم يحب تثمير المال. ويكره انثلام الحال [" ۱۱] .

فمن هذا نعلم أن الأحداث عندما تجرى لا بد للأفعال أن تظهر. فإذا أغلقت الأبواب فى موضع، فليس معنى هذا أنها تغلق فى كل موضع بالنسبة للجيل الأول. وإلا لو كان الاغلاق قاعدة، ما كنا قد علمنا حركة الأحداث. ولكننا علمنا عندما شاهدنا حركة أبو ذر وعمار وحجر وغيرهم. ومن الدليل أيضا على عدم جدية إغلاق الأبواب فى وجه الإمام على والإمام الحسن، أن من الصحابة من واجه

حركة الاستكبار الأموى وهى فى عنفوانها، آخذا بالأسباب فى اتجاه رحمة الله الواسعة. ولتكون بصماته شاهدة على الأحداث. روى أن قيس بن خرشه وفد على النبى صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أبايعك على ما جاءك من الله، وعلى أن أقول بالحق. فقال له النبى: عسى أن يكون عليك من لا تقدر على أن تقوم معه بالحق - (وفى رواية: يا قيس عسى إن مد بك الدهر أن يليك بعدى ولاة لا تستطيع أن تقول بحق معهم) [۱۲] ، فقال قيس: والله لا أبايعك على شئ إلا وفيت لك به. فقال له النبى: إذا لا يضرك شئ. فكان قيس يعيب زياد بن أبيه، وابنه عبيد الله، وكان يقول قال لى النبى: لا يضرك شئ. فأرسل إليه عبيد الله بن زياد وقال له: أأنت الذى تزعم أنه لن

[صفحه ۲۳۱]

يضرك شئ. فقال: نعم، قال: كذبت أنت تفترى على الله ورسوله. فقال: لا والله. ولكن إن شئت أخبرتك بمن يفترى. قال ابن زياد: وما هو؟ فقال: من ترك العمل بكتاب الله وسنة رسوله. قال: ومن ذاك، فقال: أنت وأبوك ومن أمركما. قال ابن زياد: لتعلمن اليوم أنك قد كذبت. وصاح قائلا: ائتونى بصاحب العذاب. فمال قيس عند ذلك فمات [۱۳] .

لقد خذل كثير من الناس علامات البشرى. إن نزول جبريل عليه السلام، وإخباره بأن الله يغضب لمن يقتل فى عذراء، كان دعوة ليقف الجيل الأول بعد قتل حجر وقفة رجل واحد حول الإمام الحسن. بعد أن خذلوه وكشفوا خنادقه أمام خيل معاوية. كان دعوة ليأخذوا بالأسباب التى ترضى الله بعد غضبه، والله واسع المغفرة. ولكن حركة التاريخ سارت على خلاف ذلك. وإذا كان الستار قد نزل هنا على قطع رأس عمرو بن الحمق، والطواف بها فى الأمصار، ثم إرسالها إلى زوجته فى السجن، فإن الستار سيفتح هناك على رأس أبى عبد الله الحسين بن على عليهما السلام ليطوف بها جند الباطل. فى عالم دق فيه الخذلان أوتاده، ونصب خيامه، وفتح فيه بنو أمية أبواب الفتن التى ليس فيها على يرى على مصارعها.

[۱] رواه الطبرانى فى الأوسط وقال الهيثمى فيه عبد الله بن عبد الملك وهو ضعيف (الزوائد ۴۰۶:۹) وله شاهد قوى عند الطبرانى فى الكبير. (كنز العمال ۶۲۷:۱۱) ورواه ابن عساكر بلفظ آخر بسند صحيح (كنز العمال ۴۹۶:۱۳).

[۲] الطبرى ۱۴۸:۶، البداية ۴۸:۸.

[۳] رواه ابن عساكر وقال ابن حجر فى الإصابة سنده جيد (الإصابة ۵۳۳:۲) (كنز العمال ۴۹۸:۱۳).

[۴] البداية ۴۸:۸، ابن عساكر (كنز العمال ۴۹۸:۱۳).

[۵] التاريخ الصغير للبخارى ۱۰۵:۱.

[۶] البداية والنهاية ۴۸:۸.

[۷] البداية والنهاية ۴۸:۸.

[۸] رواه ابن ماجة وابن حبان فى صحيحه (الإصابة ۲۷۲:۸).

[۹] رواه الطبرانى (كنز العمال ۱۴۸:۱۱).

[۱۰] رواه الطبرانى (كنز العمال ۱۴۹:۱۱).

[۱۱] ابن أبى الحديد ۵: ۳۷۰.

[۱۲] رواه الطبرانى (كنز العمال ۱۹۰:۱۱).

[۱۳] قال السيوطى أخرجه الطبرانى والبيهقى (الخصائص الكبرى ۲۵۴:۲) وأخرجه الحسن بن سفيان فى مسنده وقال ابن حجر رجاله ثقات (الإصابة ۵: ۲۵۰).

مقتل أبى عبدالله الحسين

و جاء وفد أغيلمة قريش

عندما قتلت الدولة حجر ورفاقه فى عام ۵۱ ه تحت شعار حفظ الأمن

الداخلى، كان الجهاز السرى لنظام حكم بنى أمية يدبر الخطط لاغتيال بعض الشخصيات الذين لا يمكن قتلهم على طريقة حجر وغيره، وذلك لإفساح المجال أمام النظام الوراثى الذى عزم عليه معاوية. ولقد ظهرت رغبة معاوية فى تنصيب ابنه يزيد خليفة على المسلمين عندما قدم له المغيرة بن شعبة مفتاح هذا الأمر. روى أن المغيرة خشى أن يستغنى عنه معاوية بعد أن كبر سنه ورق

[صفحه ۲۳۲]

عظمه. فأتى معاوية وقال له: يا أمير المؤمنين إن الأنفس ليغدى عليها ويراح، ولست فى زمن أبى بكر ولا عمر، فلو نصبت لنا علما بعدك نصير إليه، فإنى قد كنت دعوت أهل العراق إلى بيعة يزيد. فقال له معاوية: يا أبا محمد انصرف إلى عملك ورم هذا الأمر لابن أخيك [۱] .

وهكذا من أجل أن يضمن المغيرة إفناء عمره فى ولاية الكوفة، فتح على أمة محمد صلى الله عليه وسلم بابا يأت بخير، حتى أن المغيرة نفسه قال لاتباعه عقب خروجه من عند معاوية: والله لقد وضعت رجله فى ركاب طويل ألقى عليه أمة محمد [۲] .

وروى أن معاوية بعد لقائه مع المغيرة خطب أهل الشام فقال: يا أهل الشام. كبرت سنى، وقرب أجلى، وقد أردت أن أعقد لرجل يكون نظاما لكم، وإنما أنا رجل منكم [۳] لقد أراد معاوية من هذا البيان أن يدخل إليهم بلافتة

الشورى، ويترك الأمر إليهم فى اختيارهم، ثم يتصرف مع هذا الاختيار حسب ما يحب. وروى أن أهل الشام أجمعوا واتفقوا على عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فشق ذلك على معاوية وأسرها فى نفسه [۴] ، وروى أن عبد الرحمن بن خالد كان مريضا، فدخل عليه ابن أثال النصرانى فسقاه سما [۵] ، وروى الطبرى وغيره: أمر معاوية ابن أثال أن يحتال فى قتله، وضمن له أن هو فعل ذلك أن يضع عنه خراجه ما عاش، وأن يوليه جباية خراج حمص، فلما قدم عبد الرحمن بن خالد حمص، دس إليه ابن أثال شربة مسمومة، فشربها فمات، وولاه معاوية خراج حمص، ووضع عنه خراجه [۶] وكان ذلك عام ۴۶ ه أى

بعد صلحه مع الحسن بخمس سنين تقريبا.

[صفحه ۲۳۳]

ومعاوية كان قد تصالح مع الحسن رضى الله عنه بشروط، ولكنه مزق صحيفة الشروط بعد أن علم أن الموقف العسكرى فى صالحه، ونظرا لأن تركيبته النفسية لا تقوى على الوفاء بالشروط. وكان من ضمن هذه الشروط رأى يكون للحسن الأمر من بعده، وكان الحسن يريد من وراء هذا أن تتذوق الأمة نظام معاوية الذى لن يكون بحال نظاما يحمل روح الإسلام وأسمى معانيه. فيكون هذا دعوة للفظه جماهيريا، أو دعوة للالتفات حول الحسن فيما بعد. وهذا كله من باب الأخذ بالأسباب، وفقا لحركة الدعوة وحركة الناس. ولم يكن معاوية يفكر بعيدا عن هذا التصور الذى يسير عليه الحسن، لذا بادر من أجل تصفية الحسن عليه السلام. روى أن جعدة بنت الأشعث بن قيس امرأة الحسن سقته السم، وقد كان معاوية دس إليها: إنك إن احتلت فى قتل الحسن، وجهت إليك بمائة ألف درهم، وزوجتك من يزيد، فكان ذلك الذى بعثها على سمه. فلما مات، وفى لها معاوية بالمال، وأرسل إليها: إنا نحب حباة [۷] يزيد، ولولا ذلك لوفينا لك بتزويجه [۸] .

وروى أن الحسن رضى الله عنه قام فدخل المخرج ثم خرج فقال: لقد لفظت طائفة من كبدى، أقلبها بهذا العود، ولقد سقيت السم مرارا، وما سقيت مرة هى أشر من هذه. ثم قال لرجل دخل عليه: سلنى قبل أن لا تسألنى فقال: ما أسألك شيئا يعافيك الله [۹] وروى أن الطبيب قال عندما جاؤوا به: هذا رجل

قطع السم أمعاءه [۱۰] .

وروى أبو الفرج الأصفهانى: أن الحسن أرسل إلى عائشة أن تأذن له أن يدفن مع النبى صلى الله عليه وسلم فقالت: نعم. فلما سمعت

بنو أميهٔ بذلک استلاموا فی السلاح. وتنادوا هم وبنو هاشم فی القتال. فبلغ ذلک

[صفحه ۲۳۴]

الحسن. فأرسل إلی بنی هاشم، أما إذا کان هذا فلا حاجهٔ لی فیه، ادفنونی إلی جنب أمی. ودفن إلی جنب فاطمهٔ علیها السلام [۱۱] .

لقد کان الجهاز السری یعمل بکل قواه من أجل إفساح الطریق لعهود تتربع فیه الأغیلمهٔ السفهاء الذین حذر منهم النبی صلی الله علیه وسلم. حتی سعد بن أبی وقاص لم ینج من ضربات هذا الجهاز، فروی أن معاویهٔ حین أراد أن یعهد إلی یزید دس لسعد السم فمات [۱۲] وبعد أن فرغت الساحهٔ من الذین

یخشی معاویهٔ أن یقتلهم علی مسمع ومرأی من قریش، ولم یتبق إلا نفر یمکن أن یقوم العسکر بتصفیتهم، بدأ معاویهٔ یبایع لابنه یزید.

وروی أن سعید بن عثمان بن عفان عندما سمع بمبایعهٔ معاویهٔ لابنه قال لمعاویهٔ: لقد اصطنعک أبی ورفاک حتی بلغت باصطناعه المدی الذی لا یجاری إلیه ولا یسامی، فما شکرت بلاءه، ولا جازیته بآلائه، وقدمت علی هذا - یعنی یزید - وبایعت له، ووالله لأنا خیر منه أبا وأما. فقال معاویهٔ: أما بلاء أبیک فقد یحق علی الجزاء به، وقد کان من شکری لذلک أنی طلبت بدمه، حتی تکشفت الأمور، ولست بلائم نفسی فی التشمیر. وأما فضل أبیک علی أبیه، فأبوک والله خیر منی، وأقرب برسول الله صلی الله علیه وسلم. وأما فضل أمک علی أمه، فما ینکر امرأهٔ من قریش خیر من امرأهٔ من کلب. وأما فضلک علیه فوالله ما أحب أن الغوطهٔ دحست لیزید رجالا- مثلک. فقال له یزید وکان حاضر المجلس: یا أمیر المؤمنین ابن عمک! وأنت أحق من نظر فی أمره، وقد عتب علیک لی فأعتبه، فعندئذ ولاه معاویهٔ حرب خرسان [۱۳] وروی أن عمرو بن حزم وفد علی معاویهٔ وقال له: أذکرک الله

فی أمهٔ محمد بمن تستخلف علیها. فقال: نصحت وقلت برأیک، وإنه لم یبق إلا ابنی وأبناؤهم، وابنی أحق [۱۴] .

[صفحه ۲۳۵]

ومن الطریف أن یقول ابن کثیر فی هذه الکارثهٔ: لما مات الحسن، قوی أمر یزید عن معاویهٔ، ورأی أنه لذلک أهلا، وذلک من شدهٔ محبهٔ الوالد لولده. ولما کان یتوسم فیه من النجابهٔ الدنیویهٔ، وسیما أولاد الملوک ومعرفته بالحروب، وترتیب الملک، والقیام بأبهته [۱۵] وروی ابن کثیر أن معاویهٔ قال:

إنی خفت أن أذر الرعیهٔ من بعدی کالغنم المطیرهٔ لیس لها راع. ونحن نعجب: أخاف معاویهٔ علی الرعیهٔ من بعده فنصب لهم یزید، ولم یخف النبی صلی الله علیه وسلم علی أمته فلم ینصب لهم أحدا؟! أکان معاویهٔ حریصا علی الإسلام فأتی بأولاد الملوک للقیام بأبههٔ الحکم، ولم یکن النبی صلی الله علیه وسلم حریصا علیه ولذلک لم یأت بأصحاب الطهر والعفاف؟! لا والله. لقد کان النبی یخاف علی أمته، وکان حریصا علی استمرار الدعوهٔ. وروی أن معاویهٔ وهو یعد المسرح لابنه أمر بإحضار رؤوس القبائل، وعندما حضروا قام رجل من الأزد فأشار إلی معاویهٔ وقال: أنت أمیر المؤمنین، فإذا مت فأمیر المؤمنین یزید، فمن أبی هذا فهذا. وأخذ بقائم سیفه فسله. فقال له معاویهٔ: اقعد فأنت من أخطب الناس [۱۶] وفی سنهٔ ست وخمسین هجریهٔ دعا

معاویهٔ الناس إلی بیعهٔ ابنه یزید من بعده وجعله ولی العهد [۱۷] وروی ابن کثیر

أن معاویهٔ قال لیزید: کیف تراک فاعلا إن ولیت. قال: کنت والله یا أبه عاملا فیهم عمل عمر بن الخطاب. فقال معاویهٔ: سبحان الله یا بنی، والله لقد جهدت علی سیرهٔ عثمان، فما أطقتها فکیف بک وسیرهٔ عمر [۱۸] وقال ابن کثیر

وهو یصف یزید: کان فیه خصال محمودهٔ فی الکرم والحلم والفصاحهٔ والشعر والشجاعهٔ وحسن الرأی فی الملک، وکان فیه أیضا إقبال علی الشهوات، وترک بعض الصلوات فی بعض الأوقات، وإماتتها فی غالب

[صفحه ۲۳۶]

الأوقات [۱۹] ولقد وصفه غیر واحد وسیأتی فی موضعه:

[۱] العقد الفرید ۹۸:۱، الطبری ۱۶۹:۶، البدایهٔ والنهایهٔ ۷۹:۸.

[۲] العقد الفرید ۹۸:۱.

[۳] أسد الغابة ۴۴۰:۳.

[۴] أسد الغابة ۴۴۰:۳.

[۵] أسد الغابة ۴۴۰:۳.

[۶] الطبری ۱۲۸:۶.

[۷] حباة:من حبابی بمعنی نصر ومال واختفی.

[۸] مروج الذهب ۴۷۶:۲، الحاکم (المستدرک ۱۷۶:۳)، ابن أبی الحدید ۷۰۸:۴.

[۹] البدایة والنهایة ۴۲:۸، الحاکم (المستدرک ۱۷۶:۳)، ابن أبی الحدید ۷۰۸:۴.

[۱۰] البدایة ۴۳:۸.

[۱۱] ابن أبی الحدید ۷۰۸:۴.

[۱۲] مقاتل الطالبین ۶۰:۱.

[۱۳] الطبری ۱۷۱:۶، البدایة والنهایة ۸۰:۸.

[۱۴] تاریخ الخلفاء ۱۹۲:۱.

[۱۵] البدایة والنهایة ۸۰:۸.

[۱۶] البدایة والنهایة ۸۰:۸.

[۱۷] مروج الذهب ۳۷:۳.

[۱۸] الطبری ۱۶۸:۶.

[۱۹] البدایة والنهایة ۲۳۰:۸.

ابناؤنا خیر من أبنائهم

بینما کان الإعلام الأموی یشید بأبناء بنی أمیة ویردد قول معاویة ": إنه لم

یبق إلا ابنی وأبناؤهم وابنی أحق " کان النبی صلی الله علیه وسلم قد أقام. الحجة علی هذا القول ومثله، وأودع هذه الحجة فی ذاکرة الجیل الأول، وقوله تعالی: (فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءکم) [۱] وقوله النبی صلی الله علیه وسلم للحسن والحسین ": هذان ابنای وابن ابنتی اللهم إنی أحبهما [... ۲] .

وقوله ": إن الله تعالی جعل ذریة کل نبی فی صلبه. وإن الله تعالی جعل ذریتی فی صلب علی بن أبی طالب [۳] ، وقوله ": إن لکل نبی أب عصبة ینتمون إلیها إلا ولد فاطمة فأنا ولیهم وأنا عصبتهم [.. ۴] وقوله ": نحن خیر من أبنائنا، وبنونا خیر من أبنائهم، وأبناء بنینا خیر من أبناء أبنائهم [" ۵] إلی آخر الأحادیث

التی ذکرت علاقتهم بالنبی صلی الله علیه وسلم. فجمیع هذا یطیح بادعاءات معاویة وغیره. لأن محبة الوالد لوالده، وتوسم الوالد فی ولده النجابة الدنیویة، والقیام بأبهة الملک شئ، ومحبة النبی لأبنائه وتعلیمهم للقیام بأمر الله شئ آخر، وهذا لا یلتقی مع هذا من أول الخط وحتی حوض النبی صلی الله علیه وسلم، لأن لکل مقدمة نتیجتها وفقا لما روی عن النبی صلی الله علیه وسلم. فهذا کله کان فی دائرة الذهن لدی الجیل الأول، ولأن النبی صلی الله علیه.

[صفحه ۲۳۷]

وسلم یحبهم، فلقد حصنهم وحذر من اقتحامهم بسوء، لأن حربهم حربه [۶] ، ومن آذی أهله فقد آذی الله [۷] ومن أبغض الحسن

والحسين فقد

أبغض رسول الله [۸] ومعنى تحصين النبى لهم أن النبى رفعهم إلى مكانه لا

يضرهم فيها من خذلهم. وهذه المكانة هى نفسها مكانة الدعوة والدعوة هى الحق. والحق حق ولو قل اتباعه، والباطل باطل ولو كثر اتباعه. وبهذا التحصين يكون الاعتداء عليهم هو اعتداء على الدعوة، ومن اعتدى على الدعوة فقد اعتدى على رسول الله صلى الله عليه وسلم. فهذا ما صرحت به الأحاديث ونرى أنه لا داعى لتكرارها هنا. إن السيدة فاطمة كانت لها مهمة فى حدث محدد، قد نراه صغيرا، ولكنه تحت المجهر يكون كبيرا، والإمام على كانت له مهمة محددة، وكذلك الإمام الحسن، والإمام الحسين جاء دوره فى الوقت المناسب. فهو حجة على عصر يتم فيه ترجيح الأبناء، فابن عثمان، وابن خالد، وابن سعد، وابن معاوية، وابن الزبير، وابن أبى بكر كل منهم يريد الملك. فشاء الله أن تبدأ حركة الحسين فى هذا الوقت، علما بأن فى ذاكرة الجيل الأول الأحاديث التى تضع أبناء أمية وأبناء الحكم فى دائرة التحذير منهم. فهم الذين رآهم النبى على منبره ينزون نزو القردة، وهم الذين سيتخذون مال الله دولا، ودين الله دخلا، وعباد الله خولا- وفى نفس الوقت تحتوى الذاكرة على أبناء دائرة الطهر، أبناء الكساء والمباهلة. ولقد علم الجميع أنهم أهل البيت ولا أحد غيرهم. فالنبى كان يمر ببيت فاطمة لمدة سبعة أشهر ويقول فى وقت الصلاة والناس فى المسجد ": الصلاة يا أهل

[صفحه ۲۳۸]

البيت [" ... ۹] وعلى هذا فدائرة الاختيار لا إجبار فيها، والله تعالى ينظر إلى

عباده كيف يعملون. فإن ركبوا طريق الدعوة أنزل عليهم بركات، وإن لم يركبوا، فإن الدعوة سائرة فى عالميتها، ولن توقف حركتها قبيلة من القبائل، حتى ولو قامت بتجنيد عصر بالكامل للنيل من هذه الدعوة، ولمن صد عقوبة عند الله والله يطارده ولا بقاء لشئ يطارده الله. إن الحسين بن على جاء فى الوقت المناسب كى يسوق الناس إلى الطريق المستقيم، فهو فى هذا الوقت عنوان لدائرة المبشرات، يقول النبى صلى الله عليه وسلم ": ذهبت النبوات وبقيت المبشرات [" ۱۰] فالحسين يقف عند مرحلة من مراحل الإخبار بالغيب،

يقف كعلامة بارزة، فإذا بعث إليه الناس أو جاؤوه، فليس عليه إلا أن يلبى. وكذلك كان الإمام على. لقد عهد إليه النبى أن لا ينازع، فإذا بايعه الناس فعليه أن يلبى. فإن تركوه فعليه أن يأخذ بالأسباب ويدعوهم وفقا لحركة الدعوة، ووفقا لحركة الناس بحيث أن لا يكون هناك إكراه بأى صورة من الصور. فالإسلام لا يكره أحدا، والإسلام لا يقيم وزنا إلا للذين يفكرون بمفهوم الحلال والحرام، ويؤمنون بأن غدا حساب وما الدنيا إلا قنطرة للآخرة. فالإمام على شق الطريق معهم، وقاتل على التأويل آخذا بكل سبب من الأسباب. وعند ما وقفوا بالغ فى نصحهم، وهو يعلم أنه على طريق هو مقتول فيه لا محالة. وسنة الأخذ الأسباب سنة إلهية، فالله سبحانه يقول": ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين - أنهم لهم المنصورون [" ۱۱] أى: أنا قضينا قضاء محتوما فيهم أنهم لهم المنصورون. فالرسل عليهم السلام منصورون فى الحجة لأنهم على الحق، والحق غير مغلوب، وهم منصورون على أعدائهم، إما بإظهارهم عليهم، وإما بالانتقام منهم. وهم منصورون فى الآخرة، وقال تعالى ": كتب الله لأغلبن أنا ورسلى [" ۱۲] فالنصر هنا واقع لا محالة ولكن طريقه هو

[صفحه ۲۳۹]

طريق الأخذ بالأسباب، يقول تعالى ": أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولم يأتكم مثل الذين خلو من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا- إن نصر الله قريب) [۱۳] ، فهذه الآية تدل على دوام أمر الابتلاء والامتحان وجريانه على امتداد التاريخ الإنسانى. والابتلاء والامتحان لا بد أن يكون له حركة، لينظر الله ماذا يفعل عباده وهو أعلم بحركاتهم وسكناتهم من أنفسهم. وأيضا فى قوله تعالى: (وإن جندنا لهم الغالبون) [۱۴] ، فالمؤمنين الذين يعملون بأمر الله ويجاهدون فى سبيله، ما داموا على هذا الطريق وهذه الصفة، فهم متصورون غالبون. ولكن لا بد لهم من الأخذ بالأسباب التى تحكمها الدعوة، وفى عالم الأسباب يكون الابتلاء والامتحان. يقول تعالى وهو يخاطب المؤمنين: (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) [۱۵] ، إنه

ضوء على الحركة لتستقيم المقدمات مع النتائج. والإمام الحسين ادخره الله سبحانه لوقت سارت فيه الأمة فى أعماق الفتن والابتلاء، وكان عليه السلام يعلم بأنه مقتول فى نهاية الطريق، والذين من حوله يعرفون هذا جيدا. ولكنه لم يجئ ليقتل، وإنما جاء ليخرج أهل عصره من كهف مظلم، وأهل عصره أحرار فى الاختيار، فمن أجابه ونصره يكون قد عبر قنطرة الدنيا بأمان - وركب معهم الذين جاؤوا من بعدهم، وفى الحديث ": المرء مع من أحب [" ۱۶] ، ومن قاتله وسفك دمه فله عند الله عقوبة، وركب معه من أحبه، حتى يصير الناس إلى فسطاطين، إيمان لا نفاق فيه، ونفاق لا إيمان فيه. حتى يأتى الله بأمره. فيركب المهدى فسطاط الأيمان. ويركب الدجال فسطاط النفاق ". وما صنعت فتنة منذ كانت الدنيا صغيرة ولا كبيرة إلا لفتنة

[صفحه ۲۴۰]

الدجال [" ۱۷] .

ولدقة مهمة الحسين عليه السلام أحيط بدائرة تحذيرية من أخطر ما يكون فقال النبى صلى الله عليه وسلم ": حسين منى وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسينا، حسين سبط من الأسباط [" ۱۸] قال فى تحفة الأحوذى: علم

الرسول ما سيحدث له، فخصه بالذكر، وبين أنهما كالشئ الواحد فى وجوب المحبة، وحرمة التعرض والمحاربة. وأكد ذلك بقوله": أحب الله من أحب حسينا، " فإن محبته محبة الرسول، ومحبة الرسول محبة الله، وقوله ": حسين سبط من الأسباط " أى: أمة من الأمم فى الخير، والأسباط فى أولاد إسحاق بن إبراهيم الخليل بمنزلة القبائل فى ولد إسماعيل. وأحدهم سبط، فهو واقع على الأمة والأمة واقعة عليه [۱۹] وقال فى لسان العرب: إن الأسباط فى ولد إسحاق

من إبراهيم بمنزلة القبائل فى ولد إسماعيل عليهم السلام، فولد كل ولد من ولد إسماعيل قبيلة، وولد كل ولد من ولد إسحاق سبط. وإنما سمى هؤلاء بالأسباط وهؤلاء بالقبائل، ليفصل بين ولد إسماعيل وولد إسحاق. وسبط رسول الله صلى الله عليه وسلم معناه أى: طائفة وقطعة منه. ومن هذا الحديث يمكن القول. بأن الذى يقاتل الحسين فإنه سيدخل فى دائرة الذى يريد أن يقضى على نسل الرسول حتى قيام الساعة، أى سيكون بمثابة الذى يريد أن يقضى على نسل الرسول حتى قيام الساعة، أى سيكون بمثابة الذى يريد أن يخلع الشجرة بجذورها، وهذا قمة الفساد فى الأرض. فأى مكان لأولادهم هنا؟ وكيف يتم وضعهم على رقبة الأمة؟ أن لفظ سبط جاء ليكون مميزا عن لفظ القبيلة، فهم قبائل. وحتى لا تختلط عليهم الأمور، ويدخلون دهاليز الرأى والتأويل، جاءت الكلمة التى يعرفون أنهم ليسوا

[صفحه ۲۴۱]

من نسيجها. وبنفس الكلمة أقام النبى صلى الله عليه وسلم عليهم الحجة فقال: إن بنى إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبى خلف نبى، وإنه لا نبى بعدى. إنه سيكون خلفاء فنكثر، قالوا: فما تأمرنا؟ قال: فوا ببيعة الأول فالأول، وأعطوهم حقهم الذى جعل الله لهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم [" ۲۰] .

إنه طريق الحسن والحسين، ومن معالمه ": وأعطوهم حقهم الذى جعل الله لهم " ومن معالمه أن الله هو الذى استرعاهم. بمعنى أن معاوية، والمغيرة، وزياد، ومروان، وغيرهم ليس لهم يد فى عملية التنصيب وهذا باب كبير لا مجال لبحثه هنا. وكان الحسين يعلم أنه سبط من الأسباط، وأنه سيعتدى عليه كما اعتدت اليهود على أعلامها. فكان يقول ": والله لتعدن كما اعتدت بنو إسرائيل فى السبت" [۲۱] والذى يتدبر أحاديث الإخبار بالغيب، يجد أن النبى

صلى الله عليه وسلم كان يحذر من اتباع طريق الذين ضلوا وانحرفوا من بنى إسرائيل. وفى هذا إشارة إلى أن بعد الحسين الذى وصفه الحديث بسبط من الأسباط سيكون اختلاف وفرقة، قال النبى صلى الله عليه وسلم ": لتهوكن كما تهوكت اليهود والنصارى [" ۲۲] ، فالنبى حذر، وعلم من ربه أن هناك من لن يأخذ بالتحذير - فأخبر بما سيكونوا عليه فى بطن الغيب. إن الحسين لم يأت ليقتل، وإنما جاء لينظر الله عمل الأمة فيه، وهو سبحانه العليم المطلق، والأمة ستقتل الحسين، وهى فى هذا العمل مختارة، ولو شاء الله ما فعلوه. فهو

سبحانه العزیز وغیره ذلیل، فقول معاویة ": إنه لم یبق إلا ابنی وأبناءهم وابن أحق " قول یصلح للتجارة، وزینة یتزین بها الذین لا یشبعون حتی ولو جلسوا علی آرائک الملک. إن أبناء النبی فی دائرة الطهر وعلی قمة الحجة. أما غیرهم فهم مبتلون بهم، قال النبی صلی الله علیه وسلم ": إن

[صفحه ۲۴۲]

أهل بیتی سیلقون بعدی من أمتی قتلا وتشریدا، وإن أشد قومنا لنا بغضا بنو أمیة وبنو المغیرة وبنو مخزوم [" ۲۳] فإذا رفع واحد من أولادهم سیفا علی أبی

عبد الله الحسین فسیکون بمثابة الذی رفع سیفه علی طائفة هی من الرسول والرسول منها. عن ابن عباس قال: رأیت رسول الله صلی الله علیه وسلم فرج ما بین فخذی الحسین وقبل زیبته [" ۲۴] .

[۱] سورة آل عمران: الآیة ۶۱.

[۲] رواه الترمذی وحسنه وصححه الحاکم وابن حبان (تحفة الأحوازی ۲۷۴:۱۰)، (الجامع ۶۵۶:۵).

[۳] رواه الطبرانی عن جابر والخطیب عن ابن عباس (کنز العمال ۶۰۰:۱۱).

[۴] رواه الحاکم وابن عساکر عن جابر (کنز العمال ۹۸:۱۲).

[۵] رواه الطبرانی عن معاذ (کنز العمال ۱۰۴:۱۲).

[۶] رواه أحمد والترمذی والحاکم والطبرانی وابن ماجة وابن أبی شیبة وابن حبان فی صحیحه والضیاء (جامع الترمذی ۶۹۹:۵)، (الفتح الربانی ۱۰۶:۲۲)، (المستدرک ۱۴۹:۳)، (کنز العمال ۹۶:۹۷:۱۲ /، ۱۴۹، ۶۴۰:۱۳)، (البدایة والنهایة ۳۸:۵).

[۷] أبو نعیم عن علی (کنز العمال ۱۰۳:۱۲).

[۸] أحمد (الفتح الربانی ۷:۲۳) والحاکم وصححه (المستدرک ۱۶۶:۳)، وابن ماجة وصححه البوصیری (کنز العمال ۱۱۶:۱۲).

[۹] رواه الترمذی (البدایة والنهایة ۲۰۵:۸).

[۱۰] ابن ماجة وابن حبان فی صحیحه (الإصابة ۲۷۲:۸).

[۱۱] سورة الصافات: الآیة ۱۷۱ – ۱۷۲.

[۱۲] سورة المجادلة: الآیة ۲۱.

[۱۳] سورة البقرة: الآیة ۲۱۴.

[۱۴] سورة الصافات: الآیة ۱۷۳.

[۱۵] سورة آل عمران: الآیة ۱۳۹.

[۱۶] البخاری (الصحیح ۷۷:۴).

[۱۷] رواه أحمد والبزار وقال الهیثمی رجاله رجال الصحیح (الزوائد ۳۳۵:۷).

[۱۸] رواه الترمذی وحسنه وقال رواه غیر واحد (الجامع ۶۵۸:۵) وقال فی تحفة الأحوازی رواه البخاری فی الأدب المفرد وابن ماجة والحاکم (تحفة الأحوازی ۲۸۰:۱۱)، ورواه أحمد (الفتح الربانی ۱۷۹:۲۳).

[۱۹] تحفة الأحوذی ۲۸۰:۱۰.

[۲۰] رواه عبد الله بن أحمد وقال فی الفتح إسناد صحیح (الفتح ۵۲:۲۳).

[۲۱] البدایة والنهایة ۱۶۹:۸، الطبری ۲۱۷:۶.

[۲۲] رواه ابن حبان فی صحیحه (کنز العمال ۲۰۱:۱).

[۲۳] رواه نعیم ابن حماد والحاکم (کنز العمال ۱۶۹:۱۱).

[۲۴] رواه الطبرانی وقال الهیثمی إسناده حسن (الزوائد ۱۸۶:۹).

النبی یبکی

کان النبی صلی الله علیه وسلم یری الرؤیا فی منامه، فإذا استیقظ

حدث الناس بحقیقة جاءت فی صورة رؤیا. وکان الله تعالی فی أحیان أخری یریه بعینه رؤیة فیراها رأی العین، أی یقع بصره علیها من دون خلق الله، فیحدث بها علی أنها حقیقة. فکان علیه الصلاة والسلام یجلس فی المسجد وأمامه الناس. فیقول ": من أحب أن یسأل عن شئ فلیسأل عنه، فوالله لا تسألون عن شئ إلا أخبرتکم به ما دمت فی مقامی هذا، والذی نفسی بیده لقد عرضت علی الجنة والنار آنفا فی عرض هذا الحائط وأنا أصلی ["... ۱] ، وروی أن أحد أصحابه قال له ": أین مدخلی یا رسول الله. قال: النار [۲] وروی أنه خطب فقال: أیها

الناس إن فیکم منافقین، فمن سمیت فلیقم، قم یا فلان، قم یا فلان، حتی عد، ستا وثلاثین [" ۳] .

فالنبی صلی الله علیه وسلم کان یری فردا ما أمامه، ثم یری حرکة هذا الفرد فی التاریخ، ثم یری مدخل هذا الفرد هل فی الجنة أم فی النار. ووفقا لهذا کان یخبر عن بنی أمیة ویقول ": أریت فی منامی بنی الحکم [" ۴ "] ، رأیت

[صفحه ۲۴۳]

بنی أمیة ["... ۵] ، ویخبر عن أحداث أخری فیقول ": إنی أری مواقع الفتن خلال بیوتکم [" ۶ "] ، رأیت الدجال أعور العین الیمنی... ["۷] ویخبر عن

أحداث أخری فیقول ": لیدخلن علیکم رجل لعین [" ۸] إلی غیر ذلک من

أحادیث الإخبار بالغیب. وکلما تکرر الحدث أکثر من مرة، کان أمره عظیما. کحدیث الکساء نزلت آیته فی بیت أم سلمة، ثم تکرر دعاء الرسول لأهل الکساء فی أکثر من موضع فسمعت به عائشة، وواثلة، وعمر بن أبی سلمة، وشداد بن أبی عمار، وزینب بنت أبی سلمة، وإسماعیل بن عبد الله. وکذلک مروره صلی الله علیه وسلم علی بیت فاطمة ستة أشهر، وفی روایة سبعة أشهر، ونداؤه الصلاة یا أهل البیت، وأیضا حدیث من کنت مولاه فعلی مولاه، سمعته جموع غفیرة ورواه غیر واحد. وأیضا حدیث الارتداد. وذلک عندما یقول النبی ": یا رب أصحابی فیقال إنک لا تدری ما أحدثوا بعدک، " فلقد تکرر فی أکثر من موضع، ورواه أکثر من واحد. وهکذا فالأمور العظیمة والأحداث المصیریة تتکرر مشاهدتها أکثر من مرة ویخبر عنها الرسول فی أکثر من موضع ویرویها أکثر من واحد. وأحداث أبو عبد الله الحسین علیه السلام من هذا النوع، فلقد نزل بها جبریل علیه السلام، ونزل بها ملک لم یکن ینزل علی النبی صلی الله علیه وسلم من قبل، ونزل بها ملک المطر. وأخبر النبی صلی الله علیه وسلم بأحداثها: علی وعائشة وأبو بکر وعمر وأم سلمة وابن عباس وغیرهم، ووصف المکان الذی سیدور فیه القتال وسماه، بل وأحضر له جبریل من تربتها... حتی

[صفحه ۲۴۴]

أن الطبری وغیره رووا: إن أهل ذلک الزمان یقولون ذلک الأمر وینتظرونه فی کل یوم ولیلة [۹] وروی الحاکم عن ابن عباس قال: ما کنا نشک، وأهل البیت

متوافرون، أن الحسین یقتل بالطف [۱۰] ، وذکر ابن کثیر عن عمرة بنت عبد الرحمن أنها قالت: أشهد لقد سمعت عائشة تقول: إنها سمعت رسول الله صلی الله علیه وسلم یقول: یقتل الحسین بأرض بابل [۱۱] .

وروی عن علی أنه قال: لیقتلن الحسین قتلا، وإنی لأعرف تربة الأرض التی بها یقتل. قریبا من النهرین [۱۲] وروی أنه مر أیام صفین بکربلاء فنادی:

اصبر أبا عبد الله، اصبر أبا عبد الله بشط الفرات ["... ۱۳] ، ثم أخبر بقتل الحسین. وروی أنه جاء علی الموضع الذی سیقتل فیه الحسین

وقال: ههنا مناخ ركابهم، وموضع رحالهم، ومهراق دمائهم، فتيـة من آل محمـد يقتلون بهـذه العرصة، تبكى عليهم السـماء والأرض" [۱۴] ، وفى روايـة قال: ها هنا، هاهنا، ثقل لآل محمد ينزل ها هنا فويل لهم منكم، وويل لكم منهم، فقال له رجل: ما معنى هذا الكلام يـا أمير المؤمنين؟ قال: ويل لهم منكم تقتلونهم، وويل لكم منهم يـدخلكم الله بقتلهم النار [" ۱۵] ، والحسين كان يعرف كل ما يتعلق بتحركاته، كان يعرف أن جند الباطل سيقطع رأسه، وأنهم سيسرقون متاعه بعد ذلك، بل والأكثر من ذلك أن أمير القتلة عمر بن سعد بن أبى وقـاص، كـان يعرف موقفه من الحسـين قبل أن يتحرك الحسـين، روى أن على بن أبى طالب عليه السـلام قال لعمر بن سـعد: كيف أنت إذا قمت مقاما خير فيه بين الجنة والنار فتختار

[صفحه ۲۴۵]

النار [۱۶] تماما كما أخبر القرآن بأن أبا لهب لن يؤمن، فى الوقت الذى يدعو فيه القرآن الجميع إلى الإيمان، إن هناك أنماطا بشـرية علم الله أن الرسول لو جـاءهم بكـل آيـة فسـيكون لهم تفسـيرهم الخاص. بل إن هناك أنماطا سـيطلبون العودة إلى الـدنيا يوم القيامة ليعملوا صالحـا، والله يعلم أنهم لو عـادوا فلن يفعلوا إلاـ مـا كانوا يفعلون على الرغم من أنهم شاهـدوا النار بأعينهم. يقول تعالى ": ولو ترى إذ وقفوا على النـار، فقالوا: يا ليتنا نرد ولا نكـذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين – بل بـدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) [۱۷] .

فهؤلاء منهم من عاصـر الأنبياء ومنهم من أخذ بذيول الآباء، وعلى رؤوسهم جميعا حجة من الله، لأن الله تعالى لا يكذب أحدا، إلا بعد أن يقيم عليه الحجـة، فإن أعرض عنها ولم يحـدث نفسه بتوبـة، كانت له عنـد ربه الأعلى عقوبـة. وبعـد أن بينا أن الناس كانوا يعرفون حقيقـة الأحـداث قبـل وقوعها، كى يأخـذوا بالأسـباب التى تجعلهم يحققون سـعادة الـدنيا والآخرة، ولا يـدفعون الأحـداث دفعا حتى يسفك الدم الحرام. نقدم الآن بعض الأحاديث التى رويت عن النبى صلى الله عليه وسلم عن منزلة الحسن والحسين، ولقد قدمنا بعضا على امتـداد هـذا البحث. ومن ذلـك قول النبى صـلى الله عليه وسـلم ": الحسن والحسـين سـيدا شـباب أهل الجنـة. " وهـذا الحـديث محفوظ ورواه ستة عشر صحابيا [۱۸] وقول النبى صلى الله عليه

وسلم ": هما ريحانتاى من الدنيا [" ۱۹] ، وقوله ": من أحبهما فقد

[صفحه ۲۴۶]

أحبنى [" ۲۰] فمنزلتهما فى الجنة لا خلاف عليها، وموقعهما فى الدنيا واضح،

وروى أن ابن عباس كان يأخذ الركاب للحسن والحسين إذ ركبا ويرى هذا من النعم عليه [۲۱] .

ومـا ورد فى أبى عبـد الله كثير، ومنه عن أبى هريرة قال: رأيت النبى صـلى الله عليه وسـلم وهو حامل الحسـين وهو يقول ": اللهم إنى أحبه فأحبه [" ۲۲] وعن جابر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى الحسين بن على [۲۳] والأحداث الكبرى على امتداد الجيل الأول كان النبى صلى الله عليه وسـلم يحـدد فيهـا المثـل الأعلى المرتفع، والمثل الأعلى المنخفض، ويبين أن طريق المثل الأعلى المرتفع غايته الله ومكانه فى الجنـة. أما المثل الأعلى المنخفض، فإن على طريقه تكون الفتن التى يغيب فيها العقل، وترقع فيه الحقائق، وتلتبس فيه الأمور، ولا ينجو إلا العالم بما يجرى. وبداية طريق المثل الأعلى والمرتدع أن يتذكر الإنسان أنه سيموت وسيبعث وسيعرض على الله الملك الحق، وأن هذه الدنيا صـغيرة، وهى دار للامتحان عند دائرة فيها نقص فى الأنفس، ونقص فى الثمرات، وشـئ من الخوف، وشئ من الجوع. ودار للامتحان عنـد دائرة زينها الشـيطان وزخرفها رغبة منه فى الاغواء والاحتناك. وعلى امتداد طريق المثل الأعلى المرتفع، يواجه الإنسان المحن بزاد الصبر. أما طريق المثل الأعلى المنخفض، فدائما ما يشق خطاه فى ساحات الزينة والافتخار بالأموال والأولاد. وأصـحابه يعز عليهم أن يغادروا الدنيا وليس لهم أعلام تأكل وتحلد وتسـجن باسمهم. فطريق المثل الأعلى المنخفض هو نفسه الطريق الذى يتكالب فيه

[صفحه ۲۴۷]

أصحاب الأنياب على المستضعفين من أبناء هذه الأمة الجريحة ولقد كان أبو عبد الله الحسين علما من أعلام طريق المثل الأعلى المرتفع الذى غايته الله وحده. كان أبو عبد الله دعوة لرفض الظلم والاستكبار على عباد الله المساكين. فالسلطة الأموية تسير بالقافلة نحو طريق لا يورث الأمة إلا الذل والعار. ألم يقتل حجر بن عدى ويدعى معاوية زياد وتسير الصلاة فى طريق الضياع؟ ألم تنفق أموال المسلمين على تدبير المؤامرات وقتل من ترى الدولة أنهم معارضين لسياستها؟ ألم تتخذ الدولة بطانة لها من النصارى وعلى رأسهم سرجون الرومى موضع سر معاوية؟ ثم ألم يكن هذا كله مقدمة أو خطوة داخل مربع اتخاذ مال الله دولا ودين الله دخلا وعباد الله خولا؟ وعلاوة على هذا، ألم تكن الساحة قد طفحت تحت ثقافة السب بأجيال سيكون لهم الأثر البالغ على مسيرة الأمة بعد عام ستين، ذلك العام الذى أخبر النبى صلى الله عليه وسلم بأنه سيكون مقدمة للفجار والمنافقين الذين يتاجرون بالقرآن. وفوق هذا الطوفان يبحث المحترفين من أبناء الصحابة عن طريق لكى يصلوا به إلى سدة الحكم. إن هذا الطفح كان لا بد له من مثل أعلى مرتفع، فمن تذكر الموت وعلم أن لكل ذرة فى هذا الكون رسالة، وأن رسالته هى الوقوف فى خنادق الدعوة والسير على طريقها وفى اتجاه أهدافها. فمن علم ذلك فلن يجد مشقة فى الوقوف تحت مظلة المثل الأعلى المرتفع. ويكفيه عنوان " من أحب أن ينظر إلى سيد شباب أهل الجنة فلينظر إلى هذا - يعنى الحسين [۲۴] ، ويكفيه أيضا العنوان التحذيرى القاطع الباتر ": إن ابنى هذا يقتل بأرض من أرض العراق يقال لها: كربلاء، فمن شهد ذلك فلينصره - " وفى رواية ": فمن شهده فلينصره - " وفى رواية ": فمن شهد منكم ذلك فلينصره [" ۲۵] .

[صفحه ۲۴۸]

ولأن النبى صلى الله عليه وسلم علم من ربه ماذا ستكون عليه الأمور، كان يبكى بكاءا شديدا، كلما جاء إليه نعى أبى عبد الله الحسين. وكما ذكرنا فلقد جاء إليه النعى فى أكثر من موضع، وحمله أكثر من واحد. عن أم سلمة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا ذات يوم فى بيتى. فقال: لا يدخل على أحد، فانتظرت، فدخل الحسين، فسمعت نشيج (أى: صوت معه توجع وبكاء) رسول الله يبكى، فاطلعت فإذا حسين فى حجره، والنبى صلى الله عليه وسلم يمسح جبينه وهو يبكى. فقلت: والله ما علمت حين دخلت. فقال: إن جبريل كان معنا فى البيت. قال: أفتحبه؟ قلت: أما من الدنيا فنعم. فقال: إن أمتك ستقتل هذا بأرض يقال لها: كربلاء. فتناول جبريل من تربتها وأراها النبى ["... ۲۶] ، وفى رواية: فقلت لجبريل: أرينى تربة الأرض التى يقتل فيها - فجاءنى فهذه تربتها [۲۷] .

وروى الإمام أحمد عن أم سلمة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: لقد دخل على البيت ملك لم يدخل على قبلها. فقال لى: إن ابنك هذا حسين مقتول. وإن شئت أريتك من تربة الأرض التى يقتل بها، قال: فأخرج تربة حمراء [۲۸] .

وروى الإمام أحمد عن أنس قال: استأذن ملك القطر أن يأتى النبى صلى الله عليه وسلم، فأذن له. فقال لأم سلمة: احفظى علينا الباب لا يدخل علينا أحد، فجاء الحسين بن على، فوثب حتى دخل، فجعل يصعد على منكب النبى صلى الله عليه وسلم. فقال الملك: أتحبه؟ قال: نعم، فقال:.

[صفحه ۲۴۹]

إن أمتك تقتله، وإن شئت أريتك المكان الذى يقتل فيه. قال: فضرب بيده فأراه ترابا أحمر. فأخذت أم سلمة ذلك التراب فصرته فى طرف ثوبها، قال أنس: فكنا نسمع أنه يقتل بكربلاء [۲۹] .

فماذا كان يفعل النبى صلى الله عليه وسلم عقب كل إخبار من ملك من الملائكة؟ لقد كان النبى يبلغ ويحذر، روى الطبرانى: فلما ذهب جبريل من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج والحسين فى يده يبكى، فقال: يا عائشة إن جبريل أخبرنى أن ابنى حسين مقتول فى أرض الطف، وإن أمتى ستفتن من بعدى، ثم خرج النبى صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه منهم: على، وأبو بكر، وعمر، وحذيفة، وعمار، وأبو ذر رضى الله عنهم وهو يبكى، فقالوا: ما يبكيك يا رسول الله. فقال: أخبرنى جبريل أن ابنى الحسين يقتل بعدى

بأرض الطف، وجاءنى بهذه التربة، وأخبرنى أن فيها مضجعه [۳۰] .

وأخرج ابن سعد فى الطبقات عن عائشة قالت: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم راقد. إذ جاء الحسين يحبوا إليه، فنحيته عنه، ثم قمت لبعض أمرى، فدنا منه فاستيقظ يبكى، فقلت: ما يبكيك قال: إن جبريل أرانى التربة التى يقتل عليها الحسين، فاشتد غضب الله على من يسفك دمه. وبسط يده فإذا فيها قبضة من بطحاء، فقال: يا عائشة والذى نفسى بيده إنه ليحزننى، فمن هذا من أمتى يقتل حسينا بعدى؟ [۳۱] .

أما عندما نزل الملك على النبى وأخبره بمقتل الحسين. فلقد روى الطبرانى عن عائشة: أن الحسين بن على دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: يا عائشة ألا أعجبك؟! لقد دخل.

[صفحه ۲۵۰]

على ملك آنفا ما دخل على قط. فقال: إن ابنى هذا مقتول. وقال: إن شئت أريتك تربة يقتل فيها. فتناول الملك بيده. فأرانى تربة حمراء [۳۲] وروى عبد بن

حميد فى مسنده بسند صحيح أن النبى كان يبكى ويقول ": يا ليت شعرى من يقتلك بعدى، " وروى الطبرانى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ": نعى إلى الحسين وأتيت بتربته وأخبرت بقاتله، والذى نفسى بيده، لا يقتلوه بين ظهرانى قوم لا يمنعونه، إلا خالف الله بين صدورهم وقلوبهم وسلط عليهم شرارهم وألبسهم شيعا [۳۳] وروى ابن عساكر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

"حسين أتيت بتربته، ورأيت قاتله أما أنه لا يقتل بين ظهرانى قوم فلا ينصرونه. ألا عمهم الله بعقاب [" ۳۴] .

مما سبق علمنا أن العصر الأول كان على علم بأحداث أبى عبد الله الحسين فى خطوطها العريضة، وأنهم كانوا يعلمون أيضا بما سيترتب على قتل الحسين. فالطريق بعد القتل فيه عذاب من الله، وأمروا أن ينصروا الحسين. ومن الثابت والمحفوظ أن معاوية كان يسب أهل البيت على منابر دمشق وغيرها. ولم تقف الأكثرية ضد هذه الثقافة التى ليس فيها نصر للحسين. لم يعملوا بسياسة ": لو أن الناس اعتزلوهم [" ۳۵] ، ولم يأخذوا بقول النبى صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع " أيها الناس خذوا العطاء ما كان عطاء، فإذا تجاحفت قريش على الملك، وكان عن دين أحدكم فدعوه [" ۳۶] وقال ": خذوا العطاء ما دام عطاء، فإذا كان إنما هو رشا فاتركوه، ولا أراكم تفعلون، يحملكم على ذلك الفقر

[صفحه ۲۵۱]

والحاجة. ألا وإن رحى بنى مرج قد دارت، وإن رحى الإسلام دائرة، وإن الكتاب والسلطان سيفترقان. فدوروا مع الكتاب حيث دار"..

[۳۷] .

إن الأغلبية بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم بأقل من خمسين سنة لم يعتزلوا بنى أمية، على الأقل عندما تبينوا أن معاوية يتجاحف على الملك وهو من الطلقاء، ويبذر المال بذرا لوقف تقدم الذين يدورون مع الكتاب حيث دار. ولا يعنى هذا أن بنى أمية شقوا طريقهم بسهولة ويسر، لأن خير أمية أخرجت للناس ما نامت، إن كان أكثرهم قد قتل. ولو لم يكن هناك غير هذه الفئة القليلة لكان ذلك كفاية، لأن التاريخ قد سجل وعلم الشاهد والغائب أن خير أمة أخرجت للناس وقفت بالمرصاد للظلم والاستكبار وبطر الحق، الذى اتخذ من الدين رداءا له. ولم يحدث على امتداد التاريخ الإنسانى أن خرجت أمة على أمة، أمة ترفع راية الإسلام وهى تريد بطر الحق، وأخرى على بينة وترفع راية القرآن والسنة، وتنادى بإقامة العدل. ولم يحدث فى أمة من الأمم أن خرج منهم رجال يحملون القرآن فى صدورهم، ليأمروا بالمعروف فى عالم مدجج بالسلاح، وأهله لا تجاوز القرآن تراقبهم. لم يحدث هذا من قبل، ولكنه حدث فى الأمة الخاتمة التى حمل أمانتها خير أمة أخرجت للناس.

[۱] رواه أحمد والشيخان (كنز العمال ۴۲۱:۱۱).

[۲] البخارى ك الاعتصام (الصحيح ۲۵۹:۴).

[۳] رواه البیهقی بسند صحیح (الخصائص الکبری ۱۷۴:۲).

[۴] رواه الحاکم والبیهقی وابن عساکر وأبو یعلی ویعقوب بن سفیان (کنز العمال ۱۱۷، ۳۵۸:۱۱)، (الزوائد ۲۴۴:۵).

[۵] رواه الحاکم وأقره الذهبی (المستدرک ۱۷۱:۳) والترمذی وابن جریر والبیهقی (البدایة والنهایة ۲۴۳:۶).

[۶] مسلم (الصحیح ۷:۱۸) ک الفتن.

[۷] مسلم (الصحیح ۶۰:۱۸) ک الفتن.

[۸] رواه أحمد والبزار إلا أنه قال دخل الحکم بن أبی العاص والطبرانی فی الأوسط (الزوائد ۲۴۱:۵).

[۹] الطبری ۲۱۹:۶.

[۱۰] رواه الحاکم وقال السیوطی سنده صحیح (الخصائص الکبری ۲۱۳:۲).

[۱۱] البدایة والنهایة ۱۷۷:۸.

[۱۲] رواه ابن أبی شیبة (کنز العمال ۶۷۳:۱۳).

[۱۳] رواه أحمد وأبو یعلی والبزار ورجاله ثقات (الزوائد ۱۸۷:۹)، (الفتح الربانی ۱۷۵:۲۳).

[۱۴] رواه أبو نعیم (الخصائص الکبری ۲۱۴:۲) ابن أبی الحدید ۶۲۰:۱.

[۱۵] ابن أبی الحدید ۶۲۰:۱.

[۱۶] رواه ابن عساکر (کنز العمال ۶۷۴:۱۳).

[۱۷] سورة الأنعام: الآیة ۲۷ – ۲۸.

[۱۸] قال فی نظم المتناثر فی الحدیث المتواتر نقل عن السیوطی أنه متواتر رواه ستة عشر صحابیا (نظم المتناثر ۱۹۶:۱).

[۱۹] رواه البخاری (الصحیح ۳۰۶:۲) وأحمد والترمذی وابن عدی وابن عساکر والنسائی والبزار (کنز العمال ۱۱۳، ۱۱۴:۱۲)، (الزوائد ۱۸۱:۹)، (البدایة والنهایة ۲۰۵:۸).

[۲۰] رواه أحمد (البدایة والنهایة ۲۰۵:۸).

[۲۱] ابن کثیر (البدایة والنهایة ۴۰:۸).

[۲۲] رواه الحاکم وقال الذهبی صحیح (المستدرک ۱۷۷:۳).

[۲۳] رواه أبو یعلی ورجاله ثقات (الزوائد ۱۸۷:۹)، ورواه ابن کثیر فی البدایة بلفظ: من أحب أن ینظر إلی سید شباب أهل الجنة فلینظر إلی هذا، وقال تفرد به أحمد (البدایة والنهایة ۲۰۶:۸).

[۲۴] رواه الإمام أحمد (البدایة والنهایة ۲۰۶:۸).

[۲۵] رواه البغوی وابن السکن والبارودی وابن منده وابن عساکر وأبو نعیم (البدایة والنهایة ۱۹۹:۸)، (کنز العمال ۱۲۶:۱۲)، (الخصائص الکبری ۲۱۳:۲)، (أسد الغابة ۳۴۹:۱)، (الإصابة ۶۸:۱).

[۲۶] قال الهیثمی رواه الطبرانی بأسانید ورجال أحدهما ثقات (الزوائد ۱۸۹:۹).

[۲۷] ابن سعد عن أم سلمة (کنز العمال ۱۲۶:۱۲).

[۲۸] رواه عبد الله بن أحمد بن حنبل (۱۷۶:۲۷ الفتح الربانی) وقال فی الفتح: قال الهیثمی رجاله رجال الصحیح (۱۸۷:۹)، وأورده ابن کثیر فی البدایة (البدایة ۱۹۹:۸)، وقال: روی هذا الحدیث من غیر وجه عن أم سلمة ورواه الطبرانی عن أبی إمامة وفیه قصة أم سلمة. ورواه ابن سعد عن عائشة بنحو روایة أم سلمة وروی ذلک من حدیث زینب بنت جحش ولبابة وأم الفضل امرأة العباس. وأرسله غیر واحد من المتابعین.

[۲۹] أورده ابن کثیر فی البدایة ۱۹۹:۸، وأخرجه أبو یعلی فی مسنده وأبو نعیم فی الدلائل (۲۰۲:۳)، ورجالهما ثقات. وأخرجه

الطبرانی فی الکبیر ورجاله ثقات.

[۳۰] أخرجه الطبرانی فی الکبیر والأوسط باختصار (الزوائد ۱۸۸:۹)، وأخرجه الماوردی فی أعلام النبوة ص ۸۳، ورجاله ثقات.

[۳۱] رواه ابن سعد فی الطبقات وابن عساکر عن أم سلمة باختصار (کنز العمال ۱۲۷:۱۲).

[۳۲] رواه الطبرانی فی الکبیر (کنز ۱۲۸:۱۲) ورجاله ثقات وهم: محمد بن عبد الله الحضرمی قال الدارقطنی: ثقة والحسین بن حریث بن الحسن من رجال الصحاح غیر ابن ماجة، وثقه النسائی وابن حبان، والفضل بن موسی من رجال الصحاح الست وثقه ابن معین وابن سعد، وابن وکیع وغیرهم.

[۳۳] الطبرانی (الزوائد ۱۹۰:۹)، وإسناده جید (کنز العمال ۱۶۷:۱۱).

[۳۴] ابن عساکر (کنز العمال ۱۲۸:۱۲).

[۳۵] رواه البخاری (الصحیح ۲۸۰:۲) ک. بدء الخلق.

[۳۶] رواه أبو داوود حدیث ۲۹۵۸.

[۳۷] رواه الطبرانی عن معاذ، وابن عساکر عن ابن مسعود (کنز ۲۱۶:۱).

علی مفترق الطرق

قبل اشتعال الأحداث التی تنتهی بمقتل الحسین کان هناک تغیرات، ذهب

معها قدیم وجاء علیها جدید منها: موت المغیرة بن شعبة أحد دهاة العرب، والذی یعود الفضل إلیه فی وضع بذرة الحکم الوراثی فی ساحة الملک، فی أمة رفضت الحکم الوراثی فی دائرة الطهر. وضع بذرة لا تنبت إلا بالسیف والدهاء والمکر. فی حین أن هذه البذرة کان یقابلها بذرة أخری شجرتها التقوی وفروعها الیقین وتسقی من حوض فیه ماء لذة للشاربین. مات المغیرة سنة خمسین بعد أن ضربه الطاعون [۱] وفی سنة اثنین وخمسین مات زیاد ابن أبیه، ذراع معاویة،

[صفحه ۲۵۲]

مات بالطاعون بعد أن فعل الأفاعیل بأمة النبی الأمی صلی الله علیه وسلم: ومات سمرة بن جندب الذی قتل من المسلمین ثمانیة آلاف، وعند ما قیل له: هل تخاف أن تکون قد قتلت بریئا قال: لو قتلت إلیهم مثلهم ما خشیت [۲] وروی

أنه قال فی آخر أیام حیاته وبعد أن فقد منصبه: لعن الله معاویة، والله لو أطعت الله کما أطعت معاویة ما عذبنی أبدا [۳] ومات عمرو بن العاص الذی

نظر إلیه عمر بن الخطاب یوما وقال ": ما ینبغی لأبی عبد الله أن یمشی علی الأرض إلا أمیرا [۴] .

وروی أن ابن العاص عندما احتضر حول وجهه إلی الجدار وقال: اللهم أمرتنا فعصینا، ونهیتنا فما انتهینا ولا یسعنا إلا عفوک. وفی روایة أنه جزع جزعا شدیدا، فلما رأی ذلک ابنه عبد الله قال: یا أبا عبد الله ما هذا الجزع، وقد کان رسول الله صلی الله علیه وسلم یدنیک ویستعملک؟ قال: أی بنی: وسأخبرک عن ذلک، أما والله. ما أدری أحبا کان ذلک أم تألفا یتألفنی [۵] .

ومات أیضا معاویة بن أبی سفیان بن حرب، کان عمر بن الخطاب یقول للناس ": أتذکرون کسری وعندکم معاویة [" ۶] ، ویقول لهم ": دعوا فتی قریش وابن سیدها، إنه لمن یضحک فی الغضب، ولا ینال منه إلا علی الرضا [" ۷] ، وإذا قال له معاویة: مرنی یا أمیر المؤمنین بما شئت. یقول له عمر: لا آمرک ولا أنهاک [۸] وعندما استعمله عمر کتبت هند بنت عتبة إلی معاویة: إن هذا الرجل قد استنهضک فی هذا الأمر، فاعمل بطاعته فیما أحببت وکرهت. وکتب إلیه

[صفحه ۲۵۳]

أبوه: یا بنی إن هؤلاء الرهط من المهاجرین سبقونا وتأخرنا، فرفعهم سبقهم وقصر بنا تأخیرنا، فصاروا قادة وسادة وصرنا أتباعا، قد

ولوک جسیما من أمورهم، فلا تخالفهم، فإنک تجری إلی أمد، فنافس فإن بلغته أورثته عقبک [۹].

لقد ذهب جیل عاصر حذیفة الذی کان یصلی سرا، وجاء جیل آخر علی أکتافه تضیع الصلاة ویشق شعر الأدیرة وشعر المجون طریقه علی أیدی الأقیشر، وحنین الحیری، والثرفوانی، وبکر بن خارجة، وغیرهم من الذین سلموا أعلامهم إلی خلیفة ماجن متهتک خلیع، نسی أنه خلیفة للمسلمین، واندفع فی حیاة لاهیة مستهترة، وهذا الخلیفة هو الولید بن یزید، وهو فرع أخیر من فروع شجرة بنی أمیة [۱۰].

والجیل الذی ذهب وضع علی رقبة الأمة من هو أشد. وروی أن یزید بن معاویة عندما جلس علی أریکة الملک وقام بأبهته، استشار مستشاره النصرانی سرجون. ذکر ابن کثیر: أن سرجون الرومی کان کاتبا لمعاویة وصاحبا لأمره [۱۱] وقال: عندما تولی یزید أقر نواب أبیه ولم یعزل أحدا منهم وهذا

من ذکاء یزید [۱۲] وقال ابن حجر فی الإصابة: سرجون مستشار یزید

هو الذی أشار علیه بتولیة عبید الله بن زیاد الکوفة لیتصدی لأتباع الحسین [۱۳] وذکر الطبری: لما اجتمعت الکتب عند یزید، دعا یزید سرجون

وقال له: ما رأیک فإن حسینا قد توجه نحو الکوفة. فقال سرجون: أرأیت معاویة لو بعث لک کنت آخذا برأیه؟ قال یزید: نعم. فأخرج سرجون عهد عبید الله علی الکوفة، وقال: هذا رأی معاویة وقد أمر بهذا

[صفحه ۲۵۴]

الکتاب [۱۴]، فمعاویة وسرجون کتبا الکتب وأودعوها الخزائن، فکل حدث یحدث له فی الخزینة کتاب، وسنری فیما بعد عهد معاویة لیزید فی أحداث الحرة، حیث أوصی معاویة لمسلم بن عقبة لیذل به الأنصار. وبینما کان سرجون یخطط فی دار الخلافة، کان مروان بن الحکم یخدمه فی مکان آخر سواء أکان فی الحکم أو فی خارجه. فهو فی هذه الآونة کبیر بنی أمیة، وبکر أبناء الحکم بن العاص الذی لعنه النبی صلی الله علیه وسلم ومروان فی صلبه. وبین هؤلاء وقف عبد الله بن الزبیر، وکان قد تثاقل عن مبایعة یزید، وذهب إلی مکة ودعا الناس إلیه، وعبد الله کان علما من أعلام یوم الجمل، وهو الذی أفسد أبیه، وکان الکرسی أملا من آماله. وبعیدا عن هؤلاء وقف عبد الله بن عمر بن الخطاب، ولم یکن مصدر خطورة لأحد، فهو لم ینصر علی وبایع یزید، ووقف فی وجه الخارجین علیه یوم الحرة، ثم بایع عبد الملک بن مروان. وبعد ضرب الکعبة طاف ابن عمر بها، وطاف معه الحجاج بن یوسف. وکان قد أمره عبد الملک أن یأخذ مناسکه عن عبد الله وسیأتی ذلک فی موضعه. والخلاصة: کانت الأحداث علی أبواب خروج الحسین، یدیرها سرجون ومعاویة - وإن کان قد مات - ویزید، وکان ربان السفینة عبید الله بن زیاد، السفاح الذی تتواری أمامه خجلا أفعال بسر بن أرطأة، وسمرة بن جندب، وغیرهما رغم قسوتها. وکانت الأحداث تبشر بثقافة لا تنتج إلا جیلا متسلقا یبحث عن السلطة، أو جیلا حاملا لیس عنده المقدرة لیمیز بین الصالح وبین الطالح، وبین ما هو رجس وما هو طاهر. وبالجملة: کان الجیل الأول فی القرن الأول أمام امتحان لا إجبار فیه، إما أن یختار یزید ویقف معه لتصفیة معارضیه، کابن الزبیر والخوارج لیستقیم الملک للأسرة الأمویة، وإما أن ینقبوا فیما حولهم ویقرؤون الأحداث علی وجهها الفطری، بعیدا عن زخرف أعلام المعارضة، وبریق

[صفحه ۲۵۵]

أهدافها التی ما هی إلا سراب. ویساعدهم فی ذلک مخزونهم الفطری الذی هو حجة بذاته، وما حفر فی دائرة ذهنهم من أقوال النبی صلی الله علیه وسلم، ثم یختاروا لأنفسهم الدائرة التی لا تری عندها زخرفا أو بریقا، وإنما أخبار بحیاة کریمة من ورائها موت وبعث وحساب، یترتب علیه أما جنة وإما نار... لقد کانت الساحة تعج بأعلام الزینة والإغواء وعلی طرقها تسیر قوافل الاحتناک، وکانت هناک حجة من الله علی هذا الأعلام وهذه القوافل، حتی لا تکون لهم علی الله حجة یوم القیامة. وحجة الله ظاهرة ولا تفرض نفسها علی أحد، وإنما تأخذ الحجة بالأسباب فی مخاطبة الناس کی یساعدهم ذلک فی الالتفاف حول طوق النجاة.. وشاء الله أن یکون

الحجهٔ فی هذه الساحهٔ مقتولا، وشاء الله أن یکون الناس علی علم بأنه مقتول حتما، وشاء سبحانه أن یکون فی الخندق المقابل للحجهٔ أهل دنیا معهم الأعلام التی یزینها البریق، وهنا یکون الابتلاء - فمن سیقف فی ساحهٔ الدماء؟ ومن سیقف فی ساحهٔ الدینار والدرهم؟ إن الجیل الأول فی القرن الأول کان فی مفترق طرق. لأن الحجهٔ فی سنن الوجود یحب أن یهرع إلیه الناس ما دام فیه من الله برهان. لأن الناس مطالبون بحرکهٔ لینظر الله کیف یعملون، قال تعالی ": والذین جاهدوا فینا لنهدینهم سبلنا [" ۱۵] فالخطوهٔ الأولی منهم، فإذا جاهدوا فیه عند المقدمهٔ، ترتب علی

ذلک عطاء الله إن کانوا صادقین. وقال تعالی ": ولینصرن الله من ینصره [" ۱۶] ، وقال ": إنهم فتیهٔ آمنوا بربهم وزدناهم هدی [" ۱۷] ، لقد آمنوا أولا فزادهم الله هدی، فإذا هرع الناس إلی الحجهٔ، سلک بهم طرق الدنیا عن طریق الدین. فالدین طریقهٔ خاصهٔ فی الحیاهٔ تؤمن صلاح الدنیا بما یوافق الکمال الأخروی، والحیاهٔ الدائمهٔ الحقیقیهٔ. والسعادهٔ الحقیقیهٔ یصل إلیها الإنسان. أو یعمل فی الوصول إلیها. عندما یکون مؤمنا بالله وکافرا بالطاغوت.

[صفحه ۲۵۶]

[۱] الطبری ۶:۱۳۱.

[۲] الطبری ۶:۱۳۲.

[۳] الطبری ۶:۱۶۴.

[۴] الإصابهٔ ۵:۳.

[۵] قال الهیثمی فی الصحیح طرف منه ورواه أحمد ورجاله رجال الصحیح (الزوائد ۹:۳۵۳).

[۶] الطبری ۶:۱۸۴.

[۷] البدایهٔ والنهایهٔ ۸:۱۲۴، الدیلمی (کنز العمال ۱۳:۵۸۷).

[۸] البدایهٔ والنهایهٔ ۸:۱۲۵، الطبری ۶:۱۸۴.

[۹] البدایهٔ والنهایهٔ ۸:۱۱۸.

[۱۰] راجع سیرته وأخباره وأقوال العلماء فیه فی البدایهٔ والنهایهٔ ۶، ۷، ۸، ۹، ۱۰، ۱۰:۱۱.

[۱۱] البدایهٔ والنهایهٔ ۸:۲۱.

[۱۲] ابن کثیر البدایهٔ والنهایهٔ ۸:۱۴۶.

[۱۳] الإصابهٔ ۲:۱۶.

[۱۴] الطبری ۶:۲۰۰.

[۱۵] سورهٔ العنکبوت: الآیهٔ ۶۹.

[۱۶] سورهٔ الحج: الآیهٔ ۴۰.

[۱۷] سورهٔ الکهف: الآیهٔ ۱۳.

الرسائل والحصار

بعد وفاهٔ معاویهٔ، حدث ما توقعه الحسن بن علی، فلقد علم کثیر من

أهل الحجاز والیمن والعراق أن بنی أمیهٔ لیسوا بأصحاب دین، بقدر ما هم أصحاب بغی ومکر - وکان الحسن بن علی، بعد أن صالح معاویهٔ، یرید أن ینطلق أهل البیت فیما بعد من هذه الأرضیهٔ. فالذین علموا أن حرکهٔ بنی أمیهٔ تدور حول توریث الکرسی وجمع الأموال، سیعیدون التفکیر ویردون الحق إلی أصحابه لینالوا علما ونجاهٔ. وأصحاب الحق لن یطمعوا فی ما بین أیدی الناس، لأنهم لا

يأكلون الصدقة، ولا يريدون إلا نصيبهم الذى كتبه الله لهم من الخمس. فوفقا لهذا التفكير ينال الناس العلم والمال، ويفتح الله عليهم بركات من السماء، ولكن معاوية قطع طريق هذا الخط بعد أن فرض ابنه على العقل. وما يهمنا هنا هو إلقاء الضوء على حركة أهل العراق، كيف بدأت؟ وما هى القوة التى أدت إلى فشلها، ثم كيف كانت حركة أبى عبد الله الحسين مع البداية، وكيف كانت حركته مع القوة الغاشمة التى صدت عن سبيل الله؟ روى أن أبا عبد الله الحسين عليه السلام خرج إلى مكة، فى الوقت الذى كانت الشيعة مجتمعة فى العراق فى منزل سليمان بن صرد صحابى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - قال فى الإصابة: كان سليمان خيرا فاضلا شهد صفين مع على [۱] - فقال سليمان: إن معاوية قد هلك، وإن حسينا قد تقبضه على القوم ببيعته، وقد خرج إلى مكة، وأنتم شيعته وشيعة أبيه، فإن كنتم تعلمون. أنكم ناصروه ومجاهدوا عدوه، فاكتبوا إليه. وإن خفتم الوهن والفشل، فلا تغروا الرجل من نفسه قالوا: بل نقاتل عدوه، ونقتل أنفسنا دونه. قال: فاكتبوا إليه. بسم الله الرحمن الرحيم. لحسين بن على من سليمان بن صرد، والمسيب بن نجية [۲] ورفاعة بن شداد، وحبيب بن مظاهر، وشيعته من

[صفحه ۲۵۷]

المؤمنين والمسلمين من أهل الكوفة. سلام عليك. فإنا نحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو. أما بعد. فالحمد لله الذى قصم عدوك الجبار العنيد، الذى انتزى على هذه الأمة فابتزها أمرها، وغصبها فيأها، وتآمر عليها بغير رضى منها، ثم قتل خيارها واستبقى شرارها، وجعل مال الله دولة بين جبابرتها وأغنيائها، فبعدا له كما بعدت ثمود. إنه ليس علينا إمام، فاقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق"... [۳].

ثم أرسلوا الكتاب مع عبد الله الهمدانى، وبعد يومين بعثوا إليه بنحو من ثلاثة وخمسين صحيفة موقعة من الرجل والاثنين والأربعة. ثم لبثوا يومين آخرين، وبعثوا إليه بكتاب قالوا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، لحسين بن على من شيعته من المؤمنين والمسلمين. أما بعد. فحى هلا- فإن الناس ينتظرونك ولا رأى لهم فى غيرك فالعجل العجل والسلام عليك [۴] ، ثم كتب إليه شبث بن ربعى ومن معه: أما بعد فقد أخضر الجناب، وأينعت الثمار، وطمت الجمام، فإذا شئت فاقدم على جند لك مجند. والسلام عليك [۵] .

وروى أن الرسل تلاقت كلها عند الحسين عليه السلام، فقرأ الكتب، وسأل الرسل عن أمر الناس. ثم كتب مع هانئ بن هانئ السبيعى، وسعيد بن عبد الله. وكانا آخر الرسل: بسم الله الرحمن الرحيم. من حسين بن على إلى الملاء من المؤمنين والمسلمين. أما بعد. فإن هانئا وسعيدا أقدما على بكتبكم، وكانا آخر من قدم على من رسلكم. وقد فهمت كل الذى اقتصصتم وذكرتم ومقالة جلكم، إنه ليس علينا إمام فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى والحق. وقد بعثت إليكم أخى وابن عمى وثقتى من أهل بيتى، وأمرته أن يكتب إلى بحالكم وأمركم ورأيكم. فإن كتب إلى أنه قد أجمع رأى ملئكم وذوى الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت على به رسلكم وقرأت فى كتبكم،

[صفحه ۲۵۸]

أقدم عليكم وشيكا أن شاء الله. فلعمرى ما الإمام إلا- العامل بالكتاب والأخذ بالقسط والدائن بالحق والحابس نفسه على ذات الله. والسلام [۶] .

وبعث الحسين إليهم مسلم بن عقيل، وكان ذلك لثمان ليال ماضين من ذى الحجة سنة ۶۰. وكان الحسين قد خرج من المدينة إلى مكة لليلتين بقيتا من رجب سنة ۶۰. وأقام بمكة شعبان وشهر رمضان وشوال وذا القعدة، ثم خرج منها لثمان ماضين من ذى الحجة يوم التروية [۷] ، وكان مسلم بن عقيل قد بعث إليه من الكوفة ": أما بعد، فإن الرائد لا يكذب أهله، وقد بايعنى من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفا، فعجل الاقبال حين يأتيك كتابى، فإن الناس كلهم معك، ليس لهم فى آل معاوية رأى ولا هوى والسلام [۸] .

وروى أن الحسين بعد أن وصلت إليه رسائل أهل الكوفة، وعلم أن هوى أهل البصرة ليس مع آل معاوية، بعث مع مولى لهم يقال له سليمان بكتاب إلى رؤوس الأخماس بالبصرة وإلى الأشراف قال فيه: أما بعد. فإن الله اصطفى محمدا صلى الله عليه وسلم على خلقه،

وأكرمه بنبوته، واختاره لرسالته ثم قبضة الله إليه. وقد نصح لعباده وبلغ ما أرسل به صلى الله عليه وسلم وكنا أهله وأولياءه وورثته، وأحق الناس بمقامه فى الناس، فاستأثر علينا قومنا بذلك، فرضينا وكرهنا الفرقة، وأحببنا العافية. ونحن نعلم أنا أحق بذلك الحق المستحق علينا ممن تولاه، وقد أحسنوا وأصلحوا، وتحروا الحق فرحمهم الله وغفر لنا ولهم، وقد بعثت رسولى إليكم بهذا الكتاب. وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم، فإن السنة قد أميتت، وإن البدعة قد أحييت، وإن تسمعوا قولى وتطيعوا أمرى أهدكم سبيل الرشاد. والسلام عليكم ورحمة الله [۹] وروى أن أشراف أهل البصرة عندما قرؤا الكتاب كتم غير

[صفحه ۲۵۹]

واحد منهم يدعى المنذر بن الجارود. الذى خشى أن يكون الكتاب مدسوس من قبل عبيد الله بن زياد ولذا توجه إلى مقر الإمارة، وأعطى الكتاب لابن زياد. فأمر بإحضار سليمان حامل رسالة الحسين وضرب عنقه [۱۰] ثم صعد إلى المنبر

وقال: إنى لنكل لمن عادانى، وسم لمن حاربنى.. يا أهل البصرة. إن أمير المؤمنين يزيد ولانى الكوفة، وأنا غاد إليها الغداة، وقد استخلفت عليكم عثمان بن زياد بن أبى سفيان. وإياكم والخلاف والإرجاف، فوالذى لا إله غيره، لئن بلغنى عن رجل منكم خلاف، لأقتلنه وعريفه ووليه. ولآخذن الأدنى بالأقصى حتى تسمعوا لى، ولا يكون فيكم مخالف ولا مشاق. أنا ابن زياد. أشبهته من بين من وطئ الحصى. ولم ينتزعنى شبه خال ولا ابن عم [۱۱] ثم

خرج من البصرة، واستخلف أخاه عثمان وأقبل إلى الكوفة. كما أوصى معاوية بن أبى سفيان. وروى أنه عندما دخل الكوفة كانت عليه عمامة سوداء. وكان متلثما، فظن الناس حين قدم عبيد الله بن زياد أنه الحسين، فأخذ لا يمر على جماعة من الناس إلا سلموا عليه وقالوا: مرحبا بك يا ابن رسول الله، قدمت خير مقدم. فرأى ابن زياد من تباشيرهم بالحسين عليه السلام ما ساءه. فلما دخل القصر وعلم الناس فى الكوفة أنه عبيد الله بن زياد، دخلهم من ذلك كآبة وحزن شديد [۱۲] ولما نزل ابن زياد القصر، نودى الصلاة جامعة. فاجتمع

الناس. فخرج وقال: إن أمير المؤمنين ولانى مصركم وثغركم. وأمرنى بإنصاف مظلومكم.... وبالشدة على مريبكم وعاصيكم. وأنا متبع فيكم أمره ومنفذ فيكم عهده... [۱۳] .

مما سبق علمنا أن الجموع بعثت بالرسائل إلى أبى عبد الله الحسين، ولم يكن النظام الحاكم بعيدا عن ما يحدث. فلقد أغلق الأبواب على البصرة، وأعلن قانونه بصراحة " لئن بلغنى عن رجل منكم خلاف لأقتلنه وعريفه ووليه ولآخذن

[صفحه ۲۶۰]

الأدنى بالأقصى حتى تسمعوا ولا يكون فيكم مخالف، " إنه قانون له عند فقهاء السلطان والفتنة ألف تأويل. أما فى الكوفة فلقد أعلن الأمير بأنه متبع فيهم أمر أمير المؤمنين يزيد ومنفذ فيهم عهده. ولعل فى هذا كفاية لمن أراد أن يبرئ يزيد من دم الحسين أو أن يلتمسوا إليه الأعذار، وقيل أن نسلط الأضواء على أعمال ابن زياد فى الكوفة. فلننظر مجريات الأحداث فى مكة.

[۱] الإصابة ۱۲۷:۳.

[۲] قال فى الإصابة أدرك النبى وهو قول ابن سعد وقيل غير ذلك (الإصابة ۱۷۵:۶).

[۳] الطبرى ۱۹۷:۶.

[۴] الطبرى ۱۹۷:۶.

[۵] الطبرى ۱۹۷:۶.

[۶] الطبرى ۱۹۸:۶.

[۷] الطبرى ۳۱۵:۶.

[۸] الطبرى ۳۱۱:۶.

[۹] الطبرى ۶:۲۰۰.

[۱۰] الطبرى ۶:۲۰۰.

[۱۱] الطبرى ۶:۲۰۰.

[۱۲] الطبرى ۶:۲۰۱.

[۱۳] الطبرى ۶:۲۰۱.

العزيمة والإصرار

كان الحسين يقف كحجر عثرة فى طريق آمال عبد الله بن الزبير، الذى

وضع مكة فى اعتباره، لينطلق منها ويدعو إلى نفسه. روى أن ابن الزبير قال للحسين: ما تريد أن تصنع؟ فقال الحسين: والله لقد حدثت نفسى بإتيان الكوفة، ولقد كتب إلى شيعتى بها وأشراف أهلها، واستخير الله. فقال له ابن الزبير: أما لو كان لى بها مثل شيعتك ما عدلت بها. وبعد أن قال ذلك، خشى أن يتهمه، فقال للحسين: أما إنك لو أقمت بالحجاز، ثم أردت هذا الأمر ههنا. ما خولف عليك إن شاء الله. وعندما خرج الحسين من عنده قال الحسين: ها إن هذا ليس شئ يؤتاه من الدنيا أحب إليه من أن أخرج من الحجاز إلى العراق. وقد علم أنه ليس له من الأمر معى شئ، وأن الناس لم يعدلوه بى فود أنى خرجت منها لتخلو له [۱] ولقد كان الحسين يعلم أن ابن الزبير سيقتل فى مكة

على طريق الفتن وذلك وفقا لإخبار النبى صلى الله عليه وسلم بالغيب عن ربه. وروى أن ابن الزبير الذى لزم الكعبة وقد عرف أن أهل الحجاز لا يبايعونه ولا يتابعونه أبدا ما دام حسين بالبلد، لأنه حسينا أعظم فى أعينهم وأنفسهم منه قال للحسين: إن شئت أن تقيم أقمت فوليت هذا الأمر... فقال الحسين: إن أبى حدثنى أن بها كبشا يستحل حرمتها. فما أحب أن أكون أنا ذلك الكبش [۲] .

فالحسين يتعامل مع الأحداث وفقا لمعايير دقيقة، فابن الزبير يريد الحكم

[صفحه ۲۶۱]

ويعمل من أجله. وهذا قد حدث. وبما أنه ليس وحده الذى يقاتل فى عالم القتن من أجل الحكم، فإن من يريد أن ينتزع منه هذا الحكم فسيقاتله. وفى جميع الأحوال ستكون مكة أرض الصراع، ومكة حرمها الله، لذا فالحسين تعامل مع الحدث من هذا الباب. فهو لا يريد أن يدخل فى صراع مع ابن الزبير أو غيره داخل الحرم، لأن للحرم عنده مكانة وقداسة، ولأنه يعرف طريقة جيدا. اختار الذهاب إلى الكوفة فهناك أو على طريقها يواجه أصول البغى والإرهاب والفتن التى اجتمعت كلها فى سلة واحدة. فهناك تكون الحركة لها معنى. أما فى مكة ما أدرانا ماذا كان سيحدث لو واجه الحسين خصومه فيها. ولذا قال الحسين لابن الزبير: والله لأن أقتل خارجا منها – أى مكة – بشبر أحب إلى من أن أقتل داخلا منها بشبر [۳] .

وبعد أن عزم الحسين على الخروج إلى الكوفة، أشفق عليه الكثير من الناس، لأنهم كانوا يعلمون نتيجة هذا الخروج، وعندما كلموه فى ذلك قال: إنى رأيت رؤيا فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمرت فيها بأمر. وأنا ماض له عله كان أولى. فقيل له: فما تلك الرؤيا؟ قال: ما حدثت أحدا بها وما أنا محدث بها حتى ألقى ربى [۴] وروى أنه قال لابن الزبير، وأيم الله لو كنت

فى جحر هامة من هذه الهوام، لاستخرجونى حتى يقضوا فى حاجتهم، ووالله ليعتدن على كما اعتدت اليهود فى السبت [۵] وإنى ماض فى أمر رسول الله

حيث أمرنى. وإنا لله وإنا إليه راجعون [۶] ثم قال عليه السلام: والله لا يدعونى

حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفى، فإذا فعلوا، سلط الله عليهم من يذلهم، حتى يكونوا أذل من فرم الأمة [۷] .

[صفحه ۲۶۲]

ویبدو، والله أعلم، أن أجهزة التیار الأموی کانت تعد العدة من أجل القیام بعمل تخریبی للإضرار بالحسین فی موسم الحج. ولا قدر الله لو حدث هذا، لوضعت الدماء علی وجه فریضة إسلامیة یحتشد فیها الناس، ولترتب علی ذلک أمور الأمة فی غنی عنها. ویبدو أن ابن عباس فطن لهذا الأمر عندما وجد الحسین طاف بالبیت، وبین الصفا والمروة، وقص شعره، وحل من عمرته بینما الناس یتوجهون إلی منی [۸] ففی هذا الوقت یقول ابن عباس: کلمنی حسین فی الخروج فقلت: لولا أن یزری ذلک بی أو بک لشبکت بیدی فی رأسک. فقال الحسین: لأن أقتل بمکان کذا وکذا أحب إلی من أن یستحل بی حرم الله ورسوله. قال ابن عباس: فذلک الذی سلی بنفسی عنه [۹] .

وخرج الحسین ومعه أهل بیته، وروی أنه لما خرج من مکة، عترضه رسل عمرو بن سعید ابن العاص عامل یزید بن معاویة علی مکة، فقالوا له: انصرف، أین تذهب؟ کانوا یریدون أن یعود إلی مکة، فأبی علیهم ومضی، وتدافع الفریقان، فاضطربوا بالسیاط، ثم إن الحسین وأصحابه امتنعوا منهم امتناعا قویا. ومضی الحسین علیه السلام علی وجهه. فنادوه: یا حسین ألا تتقی الله، تخرج من الجماعة وتفرق هذه الأمة. فتلی قوله تعالی: (لی عملی ولکم عملکم أنتم بریئون مما أعمل. وأنا برئ مما تعملون) [۱۰] .

وکان الحسین قد تلی قوله تعالی ": فخرج منها خائفا یترقب. قال: رب نجنی من القوم الظالمین)، وذلک عندما سار نحو مکة بعد أن رفض بیعة یزید، فلما دخل مکة تلی قوله تعالی ": فلما توجه تلقاء مدین، قال عسی ربی أن یهدینی سواء السبیل) [۱۱] ، وعندما خرج من مکة تلی قوله تعالی: (لی عملی ولکم عملکم...) الآیة.

[صفحه ۲۶۳]

وفی الطریق انتهی إلی ماء من میاه العرب، فإذا علیه عبد الله بن مطیع، فلما رأی الحسین قام إلیه وقال: بأبی أنت وأمی یا ابن رسول الله. ما أقدمک؟ فقال له الحسین: کان من موت معاویة ما قد بلغک. فکتب إلی أهل العراق یدعوننی إلی أنفسهم. فقال له ابن مطیع:... فوالله لئن طلبت ما فی أیدی بنی أمیة لیقتلنک، ولئن قتلوک لا یهابون بعدک أحدا أبدا. والله إنها لحرمة الإسلام تنتهک، وحرمة قریش، وحرمة العرب، فلا تفعل ولا تأت الکوفة، ولا تعرض لبنی أمیة. فأبی الحسین إلا أن یمضی [۱۲] وقال له آخر: إنی مشفق علیک من

مسیرک، إنک تأتی بلدا فیه عماله وأمراؤه، ومعهم بیوت الأموال. وإنما الناس عبید لهذا الدرهم والدینار. ولا آمن علیک أن یقاتلک من وعدک بالنصر ومن أنت أحب إلیه ممن یقاتلک [۱۳] فأبی الحسین إلا أن یمضی.

[۱] الطبری ۶:۲۱۶.

[۲] الطبری ۶:۲۱۷، البدایة ۸:۱۶۶.

[۳] الطبری ۶:۲۱۷.

[۴] الطبری ۶:۲۱۹، أسد الغابة ۲:۲۱، البدایة ۲۸:۱۶۷.

[۵] البدایة والنهایة ۸:۱۶۹، الطبری ۶:۲۱۷.

[۶] مقتل الحسین:الخوارزمی ۱:۱۵۸.

[۷] الطبری ۶:۲۲۳، البدایة والنهایة ۸:۱۶۹.

[۸] الطبری ۶:۲۱۷.

[۹] رواه الطبرانی وقال الهیثمی رجاله رجال الصحیح (الزوائد ۹:۱۹۲).

[۱۰] الطبری ۶:۲۱۸، البدایة والنهایة ۸:۱۶۶.

[۱۱] الطبری ۶:۱۹۱.

[۱۲] الطبری ۶:۲۲۴.

[۱۳] الطبرى ۶:۲۱۶.

التخويف والإرهاب

كتب يزيد بن معاوية إلى عبيد الله بن زياد: كتب إلى شيعتى من أهل
الكوفة يخبروننى أن ابن عقيل بالكوفة يجمع الجموع لشق عصا المسلمين، فسر حين تقرأ كتابى هذا، حتى تأتى أهل الكوفة فتطلب ابن عقيل كطلب الخرزة، حتى تثقفه فتوثقه أو تقتله والسلام [۱] ولقد بينا كيف دخل ابن زياد الكوفة
وعلى رأسه عمامة سوداء، وماذا قال للناس عندما خطبهم وكان قد خطب فى أهل البصرة من قبل وهددهم. وروى أن ابن عقيل نزل فى الكوفة على دار هانئ بن عروة، وكان الشيعة يتكتمون أخباره خوفا عليه من ابن زياد. ولكى يصل ابن زياد إلى ابن عقيل وأصحابه، دعا مولى له يقال له: معقل وقال له: خذ ثلاثة آلاف درهم ثم اطلب مسلم بن عقيل، واطلب لنا أصحابه، ثم أعطهم هذه الثلاثة آلاف وقل لهم:

[صفحه ۲۶۴]

استعينوا بها على حرب عدوكم، وأعلمهم أنك منهم. ففعل الرجل ذلك، فجاء إلى المسجد وسمع الناس يقولون: هذا يبايع للحسين، فتقدم وقال: يا عبد الله إنى أمرؤ من أهل الشام مولى لذى الكلاع. أنعم الله على بحب هذا البيت وحب من أحبهم، فهذه ثلاثة آلاف درهم أردت بها لقاء رجل منهم بلغنى أنه قدم الكوفة يبايع لابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكنت أريد لقاءه، فلم أجد أحدا يدلنى عليه ولا يعرف مكانه. وإنى لجالس آنفا فى المسجد. إذ سمعت نفرا من المسلمين يقولون. هذا رجل له علم بأهل البيت، وإنى أتيتك لتقبض هذا المال. وتدخلنى على صاحبك فأبايعه. وإن شئت أخذت بيعتى له قبل لقائه... فشكره الرجل ودعا له وقال له: لقد ساءنى معرفتك إياى بهذا الأمر من قبل أن ينمى، مخافة هذا الطاغية وسطوته.. وأخذ بيعته وأخذ عليه المواثيق المغلظة ليناصحن وليكتمن. فأعطاه من ذلك ما رضى به [۲] ، ثم إن معقلا مولى ابن زياد ذهب إلى واحد من أتباع ابن عقيل، وهو مسلم بن عوسجة ليدخله على ابن عقيل. فأقبل به حتى أدخله عليه، وأصبح معقل أول داخل وآخر خارج يسمع أخبارهم ويعلم أسرارهم، ثم ينطلق بها حتى يقرها فى أذن ابن زياد [۳] ، وروى أن ابن زياد بعد أن أخذ جميع احتياطاته الأمنية. بعث إلى هانئ بن عروة الذى ينزل فى داره ابن عقيل وقال له: إيه يا هانئ بن عروة، ما هذه الأمور التى تربض فى دورك لأمير المؤمنين وعامة المسلمين؟ جئت بمسلم بن عقيل فأدخلته دارك، وجمعت له السلاح والرجال فى الدور حولك وظننت أن ذلك يخفى على [۴] .
ثم دعا ابن زياد معقلا ذلك العين، فجاء حتى وقف بين يديه فقال لهانئ: أتعرف هذا، قال: نعم. وعلم هانئ عند ذلك إنه كان عينا عليهم، وأنه قد أتاه بأخبارهم [۵] فقال هانئ: آمره أن يخرج من دارى إلى حيث شاء من الأرض.

[صفحه ۲۶۵]

فقال ابن زياد: لا والله لا تفارقنى أبدا حتى تأتينى به. قال: لا والله لا أجيئك به أبدا، أنا أجيئك بضيفى تقتله. فقال: والله لتأتينى به، قال: والله لا آتيك به [۶] .
فتدخل بينهما رجل فقال: أصلح الله الأمير خلنى وإياه أكلمه. فقال له: يا هانئ إنى أنشدك الله ألا تقتل نفسك، وتدخل البلاء على قومك وعشيرتك... فادفع الرجل إليه، فإنه ليس عليك بذلك، مخزاه ولا منقصة. إنما تدفعه إلى السلطان قال: بلى والله إن على فى ذلك للخزى والعار. أنا أدفع جارى وضيفى وأنا حى صحيح أسمع وأرى، شديد الساعد كثير الأعوان! والله لو لم أكن إلا واحدا ليس لى ناصر، لم أدفعه حتى أموت دونه. فسمع ابن زياد ذلك فقال: ادنوه منى فأدنوه فقال: والله لتأتينى به أو لأضربن عنقك... ثم قال للعسكر: ادنوه منى فأدنوه فاستعرض وجهه بالقضيب. فلم يزل يضرب أنفه وجبينه وخده، حتى كسر أنفه وسيل الدماء على ثيابه ونثر لحم خديه وجبينه على لحيته. ثم قال: خذوه فألقوه فى بيت من البيوت وأغلقوا عليه بابه واجعلوا عليه حرسا [۷] .

وعندما علم ابن عقيل بما حدث، أمر عبد الله بن حزم أن ينادى فى أصحابه، وقد ملأ منهم الدور حوله. وقد بايعه ثمانية عشر ألفا. وفى الدور أربعة آلاف رجل. وتنادى أهل الكوفة فاجتمعوا إليه وعقد ابن عقيل للرجال على القبائل. وسارت الخيل فى اتجاه القصر. فلما بلغ ابن زياد إقباله تحرز فى القصر وغلق الأبواب. وروى عن عباس الجدلى أنه قال: خرجنا مع ابن عقيل فى أربعة آلاف فما بلغنا القصر إلا ونحن ثلاثمائة [۸] .

وبينما كانت خيل ابن عقيل تتقدم نحو القصر، كانت أبواق السلطان تتجه نحو دور الكوفة. روى أن ابن زياد دعا كثير بن شهاب وأمره أن يخرج فيمن أطاعه، فيسير بالكوفة، ويخذل الناس عن ابن عقيل، ويخوفهم ويحذرهم عقوبة

[صفحه ۲۶۶]

السلطان [۹] ووقف كثير بن شهاب فقال: أيها الناس الحقوا بأهليكم، ولا

تعجلوا الشر، ولا تعرضوا أنفسكم للقتل. فإن هذه جنود أمير المؤمنين يزيد قد أقبلت. وقد أعطى الله الأمير عهدا، لئن أتممتم على حربه ولم تنصرفوا من عشيتكم. أن يحرم ذريتكم العطاء، ويفرق مقاتلتكم فى مغازى أهل الشام على غير طمع، وأن يأخذ البرئ بالسقيم، والشاهد بالغائب، حتى لا يبقى له فيكم بقية من أهل المعصية. إلا أذاقها وبال ما جرت أيديها [۱۰] .

يقول الطبرى: وتكلم الأشراف بنحو من كلام هذا. فلما سمع مقالتهم الناس أخذوا يتفرقون وأخذوا ينصرفون وروى أن المرأة كانت تأتى ابنها أو أخاها فتقول: انصرف، ويجيئ الرجل إلى ابنه أو أخيه فيقول: غدا يأتيك أهل الشام، فما تصنع بالحرب والشر؟ انصرف، فما زالوا يتفرقون ويتصدعون، حتى أمسى ابن عقيل وما معه ثلاثون نفسا فى المسجد، فلما أمسى وليس معه إلا أولئك النفر. خرج متوجها نحو أبواب كنده. فما بلغ الأبواب وما معه منهم عشرة، ثم خرج من الباب. وإذا ليس معه إنسان، والتفت فإذا هو لا يحس أحدا يدله على الطريق، ولا يدله على منزل ولا يواسيه بنفسه إن عرض له عدو. فمضى على وجهه يتلدد فى أزقة الكوفة لا يدرى أين يذهب، حتى خرج إلى دور بنى جبلة من كندة، فمشى حتى انتهى إلى باب امرأة يقال لها: طوعة كانت للأشعث بن قيس فأعتقها فتزوجها أسيد الحضرمى. فولدت له بلالا، وبعد أن عرفها بنفسه وأن القوم كذبوه، أدخلته بيتا فى دارها غير البيت الذى تكون فيه .[۱۱]

ومن قصر الإمارة أعلن ابن زياد على أهل الكوفة: إن برئت ذمة الله من رجل وجدنا ابن عقيل فى داره ومن جاء به فله ديته. وقال: اتقوا الله عباد الله، والزموا طاعتكم وبيعتكم ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلا، ثم نادى على صاحب

[صفحه ۲۶۷]

الشرطة: يا حصين بن تميم ثكلتك أمك، إن صاح باب سكة من سكك الكوفة، أو خرج هذا الرجل ولم تأتنى به، وقد سلطتك على دور أهل الكوفة، فابعث مراصدة على أفواه السكك، وأصبح غدا واستبر الدور وجس خلالها. حتى تأتينى بهذا الرجل [۱۲] ، وروى أن بلال بن أسيد الذى آوت أمه ابن عقيل أخبر الشرطة بمكان ابن عقيل وعندما علم ابن زياد بذلك أمر بإحضاره.. فلما سمع ابن عقيل وقع حوافر الخيل وأصوات الرجال عرف أنه قد أتى، فخرج إليهم بسيفه، واقتحموا عليه الدار. فشد عليهم يضربهم بسيفه. حتى أخرجهم من الدار. وأشرفوا عليه من فوق ظهر البيت، وأخذوا يرمونه بالحجارة ويلهبون النار فى أطنان القصب. فلما رأى ذلك خرج عليهم مصلتا بسيفه فى السكة فقاتلهم فأقبل عليه محمد بن الأشعث فقال: يا فتى لك الأمان، لا تقتل نفسك فأقبل يقاتلهم وهو يقول:

أقسمت لا أقتل إلا حرا++

وإن رأيت الموت شيئا نكرا

وظل يقاتلهم وفد أثخن بالحجارة، وعجز عن القتال. وأسند ظهره إلى جدار الدار، فقال ابن الأشعث: لك الأمان واجتمعوا حوله فقال ابن عقيل: أما لو لم تؤمنونى ما وضعت يدى فى أيديكم. وعندما انتزعوا سيفه، دمعت عيناه ثم قال: هذا أول الغدر... أين أمانكم أنا لله وإنا إليه راجعون... وبكى، فقيل له: إن من يطلب مثل الذى تطلب، إذ نزل به مثل الذى نزل بك لم يبك. فقال: والله ما لنفسى

أبكى، ولا لها من القتل أرثى... ولكن أبكى لأهلى المقبلين إلى. أبكى الحسين وآل حسين. ثم أقبل على بن الأشعث فقال: يا عبد الله إنى أراك والله ستعجز عن أمانى فهل عندك خير تستطيع أن تبعث من عندك رجلا على لسانى يبلغ حسينا؟ فإنى لا أراه إلا قد خرج إليكم اليوم مقبلا، أو هو خارج غدا هو وأهل بيته. فيقول: أن ابن عقيل بعثنى إليك، وهو فى أيدى القوم أسير، لا يرى أن تمشى حتى تقتل، وهو يقول لك ارجع بأهل بيتك، ولا يغرك أهل الكوفة، فإنهم أصحاب أبيك، الذى كان يتمنى فراقهم

[صفحه ۲۶۸]

بالموت أو القتل، إن أهل الكوفة قد كذبوك وكذبونى وليس لمكذوب رأى. فقال ابن الأشعث: والله لأفعلن، ولأعلمن ابن زياد إنى قد أمنتك [۱۳] .

وروى أن ابن عقيل عندما دخل على ابن زياد دار بينهما حوار طويل، منه أن ابن زياد قال له: إن نفسك تمنيك ما حال الله دونه ولم يرك أهله. فقال ابن عقيل: فمن أهله يا ابن زياد؟ قال: أمير المؤمنين يزيد. فقال: الحمد لله على كل حال، رضينا بالله حكما بيننا وبينكم. قال: كأنك تظن أن لكم فى الأمر شيئا. فقال ابن عقيل: ما هو بالظن ولكنه باليقين. قال: قتلنى الله إن لم أقتلك قتلة لم يقتلها أحد فى الإسلام. فقال: أما أنك أحق من أحدث فى الإسلام ما لم يكن فيه، أما أنك لا تدع سوء القتلة، وقبح المثلة، وخبث السيرة، ولؤم الغلبة، ولا أحد من الناس أحق بها منك. فأقبل ابن زياد يشتمه ويشتم حسينا وعليا وعقيلا، وأخذ مسلم لا يكلمه [۱۴] وكان ابن عقيل قد عرى نظامه فقال

له: إن أباك قتل خيار الناس، وسفك دماءهم، وعمل فيهم أعمال كسرى وقيصر [۱۵] ووصفهم بأنهم يلغون فى دماء المسلمين ولغا. ويقتلون النفس التى

حرم الله قتلها، ويقتلون النفس بغير النفس. ويسفكون الدم الحرام. ويقتلون على الغضب والعداوة وسوء الظن. وهم يلهون ويلعبون كأن لم يصنعوا شيئا [۱۶] .

وأمر ابن زياد بضرب عنق ابن عقيل فوق سطح القصر، فصعد به وهو يكبر ويستغفر ويصلى على ملائكة الله ورسله وهو يقول ": اللهم احكم بيننا وبين قوم غرونا وكذبونا وأذلونا وقتلونا " ثم ضرب عنقه [۱۷] وروى أنهم أحضروا هانئ بن عروة من السجن. حتى انتهوا به إلى مكان من السوق كان يباع فيه

[صفحه ۲۶۹]

الغنم وهو مكتوف. وعندما لم يجد أحدا من قبيلته يدافع عنه، جذب يده فنزعها. من الكتاف ثم قال: أما من عصا أو سكين أو حجر أو عظم. فوثبوا عليه، فضربه رجل بالسيف فلم يصنع سيفه شيئا، فقال هانئ: إلى الله المعاد اللهم إلى رحمتك ورضوانك. ثم ضربه الرجل أخرى فقتله [۱۸] .

وكتب ابن زياد إلى يزيد بن معاوية ": الحمد لله الذى أخذ لأمير المؤمنين بحقه وكفاه مؤنة عدوه، " ثم أخبره بما تم من لجوء ابن عقيل إلى دار هانئ وإنه جعل عليهما العيون ودس إليهما الرجال، إلى آخر القصة، ثم قال ": وقد بعثت إليك برؤوسهما "... والسلام فكتب يزيد بن معاوية، فأخبره بأنه عنده قد عمل عمل الحازم، وصال صولة الشجاع الرابط الجأش ثم قال له ": إنه قد بلغنى أن الحسين بن على قد توجه نحو العراق، فضع المناظر والمسالح واحترس على الظن. وخذ على التهمة غير أن لا تقتل إلا من قاتلك واكتب إلى - فى كل ما يحدث من الخبر - والسلام [" ۱۹] وهكذا نزل الستار على رسول الحسين، ومما سبق رأينا أن الجماهير خذلت الحسين، لأن الدولة الأموية أرهبت الجماهير. أرهبتهم بصورة تأنف منها الفطرة. فإذا كان الخوف من الأمور الفطرية، فيجب أن يتم التعامل مع الإنسان بما لا يرعب الخوف الفطرى، إن الإسلام نهى عن ترويع المسلم، بل ووضع أسس راقية للتعامل مع الحيوان والطير والنبات. فإذا جئت بقانون فيه ": أخذ البرئ بالسقيم، والشاهد بالغائب " و " لئن بلغنى عن رجل منكم خلافا لأقتلنه وعريفه ووليه، ولآخذن الأدنى بالأقسى " و " احترس من السلطان فإنه يغضب غضب الصبيان، ويأخذ أخذ الأسد، وقليلة يغلب كثير من الناس

"فمثل هـذا القانون لا علاقة له بالإسـلام. وقانون مثل هذا يكون حجر عثرة فی طريق الفطرة لأن الاختيار فيه لا يتم إلا بعقل السـلطان وعينه. بمعنی أن الناس لا يرون إلا ما يری السلطان. وهذا فی حد ذاته ضد طبيعة الوجود لأنه ينتج إنسانا مشوها.

[صفحه ۲۷۰]

والإنسـان لا بـد له من حركـة لأن سـنة الوجود أن ينظر الله إلی خلقه كيف يعملون. إن التخويف والإرهاب يضـرب بصورة أو بأخری دائرة الاختيار، بل ويجتث شـجرة الحريـة الحقيقيـة التی تتغذی بماء الفطرة، ولما كانت الدولة الأموية قد عملت من أجل تنمية شـجرة الارهاب، ولما كانت هذه الشـجرة قد وضـعت عليها عباءة القداسة والدين، بعد وفاة النبی صـلی الله عليه وسـلم بأقل من خمسين عاما، وهـذا يمثـل خطرا علی الأجيال وحتی قيام الساعـة، فإن الحسـين بن علی إذا كان له رأی فی الـذين خـذلوه، فإن حركته سـتكون نحو الجـذور أی نحو صـناع الارهاب. وهذه الحركة ليست من أجل وقف الارهاب، وإنما لوضع لباس العار الذی ما بعده عار علی رؤوس صناع التخويف والإرهاب حتی يرث الله الأرض ومن عليها.

[۱] الطبری ۶:۲۰۰.

[۲] الطبری ۶:۲۰۴، البداية والنهاية ۸:۱۵۳.

[۳] الطبری ۶:۲۰۴، البداية والنهاية ۸:۱۵۳.

[۴] الطبری ۶:۲۰۵، البداية ۸:۱۵۴.

[۵] الطبری ۶:۲۰۵، البداية ۸:۱۵۴.

[۶] الطبری ۶:۲۰۵.

[۷] الطبری ۶:۲۰۶، البداية ۸:۱۵۴.

[۸] الطبری ۶:۲۰۷، البداية ۸:۱۵۴.

[۹] الطبری ۶:۲۰۷، البداية ۸:۱۵۴.

[۱۰] الطبری ۶:۲۰۸.

[۱۱] الطبری ۶:۲۰۹، البداية ۸:۱۵۵.

[۱۲] الطبری ۶:۲۱۰، البداية ۸:۱۵۵.

[۱۳] الطبری ۶:۲۱۱.

[۱۴] الطبری ۶:۲۱۳، البداية ۸:۱۵۶.

[۱۵] الطبری ۶:۲۱۳، البداية ۸:۱۵۶.

[۱۶] الطبری ۶:۲۱۳، البداية ۸:۱۵۶.

[۱۷] الطبری ۶:۲۱۳، البداية ۸:۱۵۶.

[۱۸] الطبری ۶:۲۱۴، البداية ۸:۱۵۷.

[۱۹] الطبری ۶:۲۱۵، البداية والنهاية ۸:۱۶۵.

صمود علی الطريق

كان الحسين عليه السلام فی الطريق إلی الكوفة، ولم يكن يعلم بالأحداث

التی جرت هناك، لذا بعث قيس بن مسـهر إلی أهل الكوفة، وكتب معه إليه: بسم الله الرحمن الرحيم من الحسـين بن علی إلی إخوانه من المؤمنين والمسـلمين. سـلام عليكم. فإنی أحمد إليكم الله الذی لا إله إلا هو. أما بعد. فإن كتاب مسلم بن عقبة قد جاءنی يخبرنی

فيه بحسن رأيكم، واجتماع ملئكم على نصرنا والطلب بحقنا... فإذا قدم عليكم رسول فاكمشوا أمركم وجدوا، فإنى قادم عليكم فى أيامى هذه إن شاء الله [" ۱] ، وأقبل قيس بن مسهر إلى الكوفة بكتاب الحسين، حتى إذا انتهى إلى القادسية. أخذه الحصين بن نمير فبعث به إلى ابن زياد، الذى كان قد شدد الرقابة على جميع المنافذ والأبواب. وعندما علم ابن زياد بأسباب قدوم قيس بن مسهر، أمر قيس أن يصعد القصر حتى يراه الناس وقال له: سب الكذاب ابن الكذاب... فصعد ثم قال: أيها الناس، إن

[صفحه ۲۷۱]

هذا الحسين بن على خير خلق الله ابن فاطمة بنت رسول الله، وأنا رسوله إليكم. وقد فارقته بالحاجر فأجيبوه، ثم لعن عبيد الله بن زياد وأباه واستغفر لعلى بن أبى طالب. وعندئذ أمر ابن زياد أن يرمى به من فوق القصر فرمى به فتقطع فمات [۲] .

لقد كان بيان قيس بن مسهر فيه كفاية ليهب الناس هبة رجل واحد، ولكن القوى الطاغية كانت قد نشرت الذل فى الطرقات بما فيه كفاية، ولكى يطوقهم الحسين بطوق الحجة مرة أخرى، بعث إليهم عبد الله بن يقطر. وما حدث لقيس حدث لابن يقطر. فلقد تلقته خيل الحصين بن نمير بالقادسية، وبعث به إلى ابن زياد، فأمره أن يصعد القصر، وأن يلعن الكذاب ابن الكذاب. فصعد فلما أشرف الناس قال: أيها الناس إنى رسول الحسين بن فاطمة بن بنت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لتنصروه وتوازروه على ابن مرجانة بن سمية الدعى. فأمر ابن زياد بأن يلقى من فوق القصر، فرمى به فكسرت عظامه وبقى به رمق، فأتاه رجل يقال له عبد الملك بن عمير. [۳] فذبحه فما عيب ذلك عليه قال: إنما أردت أن أريحه [۴] .

فالطريق إلى الفطرة ودعوتها كان ابن زياد قد أغلقه تماما. فى أثناء ذلك كان الحسين لا يمر بأهل ماء إلا اتبعوه [۵] وبينما هو فى" ماء زبالة " سقط إليه

خبر قتل رسله بالكوفة فأخرج الحسين للناس كتابا فقرأ عليهم وفيه ": بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد، فإنه قد أتانا خبر فظيع، قتل مسلم بن عقيل، وهانئ بن عروة. وعبد الله بن يقطر. وقد خذلتنا شيعتنا. فمن أحب منكم الانصراف، فليس عليه منا ذمام [" ۶] فتفرق الناس عنه تفرقا، فأخذوا يمينا

[صفحه ۲۷۲]

وشمالا. حتى بقى فى أصحابه الذين جاؤوا معه من المدينة. وذكر الطبرى: وإنما فعل ذلك، لأنه ظن إنما اتبعه الأعراب، لأنهم ظنوا أنه يأتى بلدا قد استقامت له طاعة أهله، فكره أن يسيروا معه إلا وهم يعلمون على ما يقدمون. وقد علم أنهم إذا بين لهم. لم يصحبه إلا من يريد مواساته والموت معه [۷] .

إلى هنا انتهت قصة الذين خذلوه فى أصولها العريضة. فأى خطوة سيخطوها الحسين بعد ذلك فلن تكون بحال من أجل الذهاب إلى الذين خذلوه، وإنما ستكون نحو القوة الباغية التى تعوق تقدم الأمر الفطرى بأحجار الكسروية وقيصرية وجاهلية. وانطلق الحسين حتى مر بطن العقبة فنزل بها، وبينما هو جالس جاءه أحد عمومته فسأله: أين تريد؟ فحدثه فقال للحسين: إنى أنشدك الله لما انصرفت، فوالله لا تقدم إلا على الأسنة وحد السيوف، فإن هؤلاء الذين بعثوا إليك لو كانوا كفوك مؤنة القتال، ووطئوا لك الأشياء فقدمت عليهم، كان ذلك رأيا. فأما على هذه الحال التى تذكرها، فإنى لا أرى لك أن تفعل. فقال الحسين: يا عبد الله إنه ليس يخفى على الرأى ما رأيت، ولكن الله لا يغلب على أمره [۸] أى والله يا أبا عبد الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون. إن الناس لا يرون إلا أول الطريق أو وسطه أما نهاية الطريق فلا ترى إلا بعد أن تجئ. والله غالب على أمره. وروى أن ابن زياد بعث إلى الحصين بن نمير أن يبعث من القادسية الحر بن يزيد وبين يديه ألف من الجنود ليستقبل الحسين، وانطلق الحر بقواته لاستقبال الحسين ومراقبته. وروى أن الحسين خرج فأمر مناديه فنادى بالعصر، وكان الحر وقواته يصلون مع الحسين وأتباعه، وبعد الصلاة: قام الحسين فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس فإنكم أن تتقوا وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضى لله. ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدعين ما ليس لهم والسائرين.

[صفحه ۲۷۳]

فيكم بالجور والعدوان. وإن أنتم كرهتمونا وجهلتم حقنا. وكان رأيكم غير ما أتتنى كتبكم وقدمت به على رسلكم انصرفت عنكم" [۹] ، فالحسين يوضح هنا أن الدعوة إليه كانت صادرة من صدور ماضيه، وعلى هذا الرضى جاءت الرسائل التى لم يجد أمامها إلا أن يتحرك، وإنه لو لم تأت هذه الرسائل ما كان له أن يتحرك. وكيف يتحرك نحو قوم كرهوه وجهلوا حقه. فالرسائل هى دليل الرضا، والحر وقواته دليلا- على كبت هذا الرضا. ولذا قال له الحر: إنا والله ما ندرى ما هذه الكب؟ التى تذكر. فقال الحسين: يا عقبة بن سمعان أخرج الخرجين اللذين فيهما كتبهم إلى، فأخرج خرجين مملوءين صحفا. فنشرها بين أيديهم. فقال الحر: فإنا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك، وقد أمرنا إذا نحن لقيناك أن لا نفارقك حتى نقدمك على عبيد الله بن زياد. فقال له الحسين: الموت أدنى إليك من ذلك. قال الحر: لم أؤمر بقتالك وإنما أمرت أن لا أفارقك حتى أقدمك الكوفة، فإذا أبيت فخذ طريقا لا تدخلك الكوفة ولا تردك إلى المدينة، تكون بينى وبينك نصفا، حتى أكتب إلى ابن زياد. وتكتب أنت إلى يزيد بن معاوية إن أردت أن تكتب إليه أو إلى عبيد الله بن زياد إن شئت فلعل الله إلى ذلك أن يأتى بأمر يرزقنى فيه العافية من أن أبتلى بشئ من أمرك [۱۰] وسار الحسين فى طريق

والحر فى طريق آخر يسايره ويراقبه. وروى أن الحسين خطب أصحابه وأصحاب الحر بالبيضة. فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من رأى سلطانا جائرا مستحلا لحرم الله، ناكثا لعهد الله، مخالفا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويعمل فى عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول. كان حقا على الله أن يدخله مدخله. إلا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفئ، وأحلوا حرام الله، وحرموا حلاله. وأنا أحق من غير، وقد آتتنى

[صفحه ۲۷۴]

كتبكم، وقدمت على رسلكم ببيعتكم إنكم لا تسلمونى ولا تخذلونى، فإن أتممتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم. فأنا الحسين بن على وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، نفسى مع أنفسكم، وأهلى مع أهليكم، فلكم فى أسوة، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم وخلعتم بيعتى من أعناقكم، فلعمرى ما هى لكم بنكر. لقد فعلتموها بأبى وأخى وابن عمى مسلم، والمغرور من اغتر بكم، فحظكم أخطأتم، ونصيبكم ضيعتم، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه وسيغنى الله عنكم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته [۱۱] .

إن الحسين وهو يخاطب الجنود الذين لم يكتبوا إليه، خاطبهم من على أرضيه الحجة، فوضعهم مع الذين بعثوا إليه فى مربع واحد. فالذين بعثوا إليهم هم أشراف القوم ورؤوسهم، والجنود لا- ينفصلوا عنهم بحال، لذا كان الخطاب واحدا وموجه إلى مربع واحد. وروى أنه خطب فيهم بمنطقة ذى حسم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إنه قد نزل من الأمر ما قد ترون. وإن الدنيا قد تغيرت وتنكرت، وأدبر معروفها، واستمرت جدا، فلم يبق منها إلا صبابة الإناء. وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون أن الحق لا يعمل به، وأن الباطل لا- يتناهى عنه، ليرغب المؤمن فى لقاء الله محقا. فإنى لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلا برما. وعندئذ قام زهير بن القين فقال لأصحابه: تتكلمون أم أتكلم. قالوا: بل تكلم، فحمد الله فأثنى عليه ثم قال: قد سمعنا هداك الله يا ابن رسول الله مقالتك. والله لو كانت الدنيا لنا باقية، وكنا فيها مخلدين، إلا أن فراقها فى نصرك ومواساتك لآثرنا الخروج معك على الإقامة فيها. فدعا له الحسين. فأقبل الحر وقال: يا حسين إنى أذكرك الله فى نفسك، فإنى أشهد لئن قاتلت لتقتلن، ولئن قوتلت لتهلكن فيما أرى، فقال له الحسين: أفبالموت تخوفنى؟ ما أدرى ما أقول لك، ولكن أقول كما قال أخو الأوس لابن عمه ولقيه وهو يريد نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال له: أين تذهب

[صفحه ۲۷۵]

فإنك مقتول فقال:

سأمضی وما بالموت عار علی الفتی++

إذا ما نوی حقا وجاهد مسلما

وواسی الرجال الصالحین بنفسه++

وفارق مثبورا وخالف مجرما

فلما سمع ذلک منه الحر تنحی عنه وسار، وکان یسیر بأصحابه فی ناحیهٔ وحسین فی ناحیهٔ أخری، وبینما هم علی ذلک إذا بأربعهٔ من الکوفهٔ قد أقبلوا علی رواحلهم، وعندما انتهوا إلی الحسین قال الحر بن یزید: إن هؤلاء النفر الذی من أهل الکوفهٔ، لیسوا ممن أقبل معک، وأنا حابسهم أو رادهم فقال الحسین: لأمنعنهم بما أمنع منه نفسی، إنما هؤلاء أنصاری وأعوانی. وقد کنت أعطیتنی أن لا تعرض لی بشیء حتی یأتیک کتاب من ابن زیاد، فقال الحر: أجل ولکن لم یأتوا معک، قال: هم أصحابی وهم بمنزلهٔ من جاء معی. فإن تممت علی ما کان بینی وبینک وإلا ناجزتک، فکف عنهم الحر [۱۲].

وروی أن الحسین قال لهم: أخبرونی خبر الناس وراءکم، فقال له مجمع بن عبد الله، وهو أحد النفر الأربعهٔ الذین جاؤوه: أما أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم، وملئت غرائرهم، یستمال ودهم، ویستخلص به نصیحهم، فهم ألب واحد علیک. وأما سائر الناس بعد. فإن أفئدتهم تهوی إلیک، وسیوفهم غدا مشهورهٔ علیک. قال أخبرنی فهل لکم برسولی إلیکم؟ قالوا: من هو؟ قال: قیس بن مسهر. فقالوا: نعم. أخذه الحصین بن نمیر، فبعث به إلی ابن زیاد، فأمره ابن زیاد أن یلعنک ویلعن أباک، فصلی علیک وعلی أبیک. ولعن ابن زیاد وأباه. ودعا إلی نصرتک. وأخبرهم بقدومک، فأمر به ابن زیاد فألقی من طمار القصر، فترقرقت علینا حسین علیه السلام، ولم یملک دمعه، ثم قال: منهم من قضی نحبه ومنهم من ینتظر وما بدلوا تبدیلا. الله اجعل لنا ولهم الجنهٔ نزلا، واجمع بیننا وبینهم فی مستقر من رحمتک ورغائب مذخور ثوابک [" ۱۳].

وکان الحسین قد علم بقتل مسلم بن عقیل، وهانئ بن عروهٔ، وعبد الله بن یقطر.

[صفحه ۲۷۶]

عندما نزل بزباله. ولم یکن یعلم بقتل قیس إلا هنا عندما قابل النفر الأربعهٔ. ولأن الحسن حجهٔ وخطواته من أجل هدف ومن وراء الهدف حکمهٔ، لم یلجأ إلی أی قوهٔ لتحمیه من بنی أمیهٔ. فهو سائر علی طریق، فمن شاء أن ینصره فلینصره، والموعد الله: لقد عرض علیه أن یلجأ إلی قریهٔ أو إلی قبیلهٔ من القبائل، ولکنه أبی إلا أن یسیر نحو الهدف. روی أن الطرماح بن عدی قال له: إنی لأنظر فما أری معک أحدا، ولو لم یقاتلک إلا هؤلاء الذین أراهم ملازمیک لکان کفی بهم - أی قوات الحر - وقد رأیت قبل خروجی من الکوفهٔ إلیک، ظهر الکوفهٔ وفیه من الناس ما لم تر عیناک فی صعید واحد جمعا أکثر منه. فسألت عنهم. فقیل: إنهم اجتمعوا لیعرضوا، ثم یسرحون إلی الحسین. فأنشدک الله، إن قدرت علی أن لا تقدم علیهم شبرا إلا فعلت، فإن أردت أن تنزل بلدا یمنعک الله به حتی تری من رأیک، ویستبین لک ما أنت صانع. فسر حتی أنزلک مناع جبلنا، الذی یدعی أجا، امتنعنا والله به من ملوک غسان وحمیر ومن النعمان بن المنذر ومن الأسود والأحمر. والله إن دخل علینا ذل قط فأسیر معک. حتی أنزلک القریهٔ. ثم نبعث إلی الرجال ممن بأجا وسلمی من طئ. فوالله لا یأتی علیک عشرهٔ أیام حتی یأتیک طئ رجالا ورکبانا. ثم أقم فینا ما بدا لک، فإن هاجاک هیج، فأنا زعیم لک بعشرین ألف طئ یضربون بین یدیک بأسیافهم، والله لا یوصل إلیک أبدا ومنهم عین تطرف [۱۴].

إن هذا عرض سخی، ولکنه لا یستقیم مع الحجهٔ فی هذه الأحداث، لأن الهجرهٔ إلی موطن آخر. تفرضها أحداث أخری وإنسان آخر. أما الأحداث حول أبی عبد الله الحسین فتدور علی ساحهٔ یدعی تیار القوهٔ أنه منار الهدی فیها، وأنه الجماعهٔ التی أمر الله بالتزامها، لهذا فلا بد من المفاصلهٔ لا إلی الهجرهٔ. لهذا قال أبو عبد الله الحسین لمن عرض هذا العرض: جزاک الله وقومک خیرا. إنه قد کان بیننا وبین هؤلاء القوم قول لسنا نقدر معه علی الانصراف [۱۵].

[صفحه ۲۷۷]

إن المفاضلة لا بد منها، والحق واضح وضوح الشمس، والأربعة الذين فارقوا؟ أهل الكوفة هم فی حقيقة الأمر حجة على أهل الكوفة الذين خذلوا الحسين. فالحسين كان فی حاجة إلى الناس، لأنه حجة ظاهرة فيه من الله برهان، ولم يكن فی حاجة لكی يقتحم بنفسه على الناس، لأن الحركة حركة اختيار لينظر الله كيف يعملون. وفی هذا المقام نسلط الضوء على ثلاث حركات لها إيقاع واحدة فی دائرة الحجة. أولها: أن الطرماح بن عدی، الذی عرض عليه العرض السابق ذكره، قال للحسين بعد أن سمع منه: دفع الله عنك شر الجن والإنس، إنی قد امترت لأهلی من الكوفة ميره ومعی نفقة لهم. فأتيهم فأضع ذلك فيهم ثم أقبل إليك إن شاء الله فإن ألحقك فوالله لأكونن من أنصارك. فقال له الحسين: فإن كنت فاعلا فعجل رحمك الله. يقول الطرماح: فعلمت أنه مستوحش إلى الرجال حتى يسألنی التعجيل [۱۶] فهو فی هذه الحركة وهذا الايقاع يطلب الرجال. الذين

يعلمون إلى أی هدف يسيرون. ثانيها: ما رواه البغوی بسند صحيح أن أنس بن الحارث قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن ابنی - يعنی الحسين - يقتل بأرض يقال لها كربلاء، فمن شهد منكم ذلك فلينصره. وخرج الحارث إلى كربلاء فقتل مع الحسين [۱۷] فالحارث عمل بما

سمع، ما سمعه كان حجة ليس على الحارث وحده، وإنما حجة على طريق طويل. وعلى عصر ما الحارث فيه إلا فردا واحدا. ثالثها: ما رواه الطبری من أن الحسين دخل إلى فسطاط عبيد الله بن الحر الجعفی. وقال: ادعوه لی فلما أتاه الرسول قال لعبيد الله بن الحر: هذا الحسين بن على يدعوك. فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون والله ما خرجت من

[صفحه ۲۷۸]

الكوفة. إلا كراهة أن يدخلها الحسين وأنا بها. والله ما أريد أن أراه ولا يرانی. فأخبر الرسول الحسين بذلك. فأخذ الحسين نعليه ثم قام فجاءه، فسلم وجلس، ثم دعاه إلى الخروج معه. فأعاد إليه ابن الحر تلك المقالة. فقال له الحسين: فإلا تنصرنا، فاتق الله فينا إن تكون ممن يقاتلنا، فوالله لا يسمع وأعيتنا أحد، ثم لا ينصرنا إلا هلك. فقال ابن الحر: أما هذا فلا يكون أبدا إن شاء الله [۱۸] ، فالحسين هنا دعا وذكر وأنذر. ولم يلوح بدينار ولا بدرهم. فمما سبق نرى أنه طلب الرجال الذين يعرفون الموقف على حقيقته. ولقد أوردنا قبل ذلك أنه قال فی بيانه الذی ألقاه بعد أن علم بقتل رسله " فمن أحب منكم الانصراف، فليس عليه منا ذمام " لأنه كره أن يسير معه الأعراب وغيرهم، إلا وهم يعلمون حقيقة ما يقدمون عليه. أنه يريد الرجال الذين يسيرون بوقود فيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم برهان، لأن هؤلاء ذروة الذين يؤمنون بالغيب. فأحاديث الإخبار بالغيب. بما أنها تفصل بين الحق والباطل، وبين الظلام والنور وبما أنها تبين ماذا يترتب على الانحراف. وأين تقع بصمات التزيين والإغواء، التی أخذ الشيطان على عاتقه أن يضعها ليقع عليها أكثر الناس ولا يؤمن منهم إلا القليل. وبما أنها حجة على الأكثرية، لأن الله تعالى كشف لهم بهذه الأحاديث أمورا حتى لا تكون لهم حجة على الله يوم القيامة. (أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين - أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون - وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون) [۱۹] وبما أن فی

أحاديث الإخبار بالغيب مبشرات بعد أن ذهبت النبوة وفيها محذرات، فكذلك هی فی عهد الحسين، إن فيها إخبار بالدم، ومن لبی النداء فهو إلى القتل أقرب. لهذا فمن يشهد الحسين ونصره، وهو على بينة من أمره، يكون فی ذروة دائرة الذين يؤمنون بالغيب. وفی عصر الحسين يدخل فی هذه الدائرة الذين كان هواهم فيه ولم يشهدوا خروجه، ويدخل فيها بنی هاشم الذين شهدوا خروجه ولم يخرجوا - وذلك لأن الحسين أذن لهم فی البقاء. ومنهم من كان يبعث إليه

[صفحه ۲۷۹]

بالرسائل ليحيطه علما بما وراءه من أحداث. وفی هذه الآونة كان بنی أمية يطلبونه ليقتلوه ومنهم من كان يشرح قضيته للأشراف الذين جاؤوا من الأمصار إلى موسم الحج.

[۱] الطبری ۶:۲۲۳.

[۲] الطبری ۶:۲۲۴، البدایة ۸:۱۱۸.

[۳] وقیل إنه رجل غیره کان یشبهه.

[۴] الطبری ۶:۲۲۶، البدایة ۸:۱۶۸.

[۵] الطبری ۶:۲۲۶، البدایة ۸:۱۶۸.

[۶] الطبری ۶:۲۲۶.

[۷] الطبری ۶:۲۲۶، البدایة ۸:۱۶۹.

[۸] الطبری ۶:۲۲۶.

[۹] الطبری ۶:۲۲۸، البدایة ۸:۱۷۲.

[۱۰] الطبری ۶:۲۲۹، البدایة ۸:۱۷۳.

[۱۱] الطبری ۶:۲۲۹، الکامل لابن الأثیر ۳:۲۸۵، نهایة الإرب ۲۰:۴۱۹.

[۱۲] الطبری ۶:۲۳۰، البدایة ۸:۱۷۳.

[۱۳] الطبری ۶:۲۳۰، البدایة ۸:۱۷۳.

[۱۴] الطبری ۶:۲۳۱.

[۱۵] الطبری ۶:۲۳۱.

[۱۶] الطبری ۶:۲۳۱.

[۱۷] البدایة والنهایة (۸:۱۹۹).

[۱۸] الطبری ۶:۲۳۱.

[۱۹] سورة الأعراف: الآیة ۱۷۲ - ۱۷۴.

و جاء الطغاة

فی الکوفة بدأت القیادة العلیا تعد العدة للقضاء علی الحسین ومن معه،

وکانت الخطوة الأولی نحو هذا الهدف أمر القیادة الصادر إلی الحر بن یزید، الذی یلازم الحسین ویسیر معه کظله، وفیه: أما بعد، فجعجع بالحسین حتی یبلغک کتابی ویقدم علیک رسولی، فلا تنزله إلا بالعراء فی غیر حصن وعلی غیر ماء، وقد أمرت رسولی أن یلازمک ولا یفارقک حتی یأتینی بإنفاذک أمری [" ۱] .

وبعد أن قرأ الحر البیان قال للحسین هذا کتاب الأمیر عبید الله بن زیاد، وهذا رسوله. فنظر أحد أتباع الحسین إلی رسول ابن زیاد فعرفه فقال له: ثکلتک أمک، ماذا جئت فیه؟ فقال له: وما جئت فیه أطعت إمامی ووفیت ببیعتی، فقال: عصیت ربک وأطعت إمامک فی هلاک نفسک، کسبت العار والنار، قال تعالی: (وجعلنا منهم أئمة یدعون إلی النار ویوم القیامة لا ینصرون) فهو إمامک [۲] .

وسار الحسین والحر بن یزید یرفض أن تنزل قافلة الحسین إلی أی مکان به ماء، وروی أن زهیر بن القین قال للحسین: یا ابن رسول الله، إن قتال هؤلاء أهون من قتال من یأتینا من بعدهم... فقال الحسین: ما کنت لأبدأهم بالقتال، فقال له زهیر: سر بنا إلی هذه القریة حتی ننزلها، فإنها حصینة، وهی علی شاطئ الفرات، فإن منعونا قاتلناهم. فقال الحسین: وأیة قریة هی قال: هی العقر، فقال: اللهم إنی أعوذ بک من العقر [۳] .

[صفحه ۲۸۰]

وبینما کان الحسین فی قریة العقر، کان ابن زیاد قد بعث إلیه بقوة عسکریة تحت قیادة عمر بن سعد بن أبی وقاص. وکان ابن زیاد قد

كتب لعمر ولاية الرى إذا رجع من حرب الحسنين، فجد الرجل وشمر عن ساعده [۴] وعندما جاء
بعث إلى الحسين يسأله ما الذى جاء به، وماذا يريد؟ فأخبر الحسين رسوله: كتب إلى أهل مصركم هذا أن أقدم، فأما إذ كرهونى فأنا انصرف عنهم [۵] وبهذا الرد طوق الحسين النظام بطوق الحجة، لقد أخبرهم أن الأشراف وغيرهم كتبوا إليه ومعه الدليل على ذلك. فإذا كانوا قد كرهوه فقد كان عليهم أن يبينوا له ذلك، وعندئذ ينصرف عنهم. ولكن الحال الآن أنه لا يراهم وإنما يرى جنودا مجندة تنتشر حوله فى كل مكان. فإذا كان الجند قد جاؤوا ليبلغوه رد الذين كتبوا إليه، فهو على استعداد أيضا للانصراف. ولقد كان فى هذا الرد ما أزاح الستار عن وجه السياسة الأموية، فعندما كتب عمر بن سعد إلى عبيد الله بن زياد ": أما بعد فإنى حيث نزلت بالحسين بعثت إليه رسولى، فسألته عما أقدمه، وماذا يطلب ويسأل، فقال: كتب إلى أهل هذه البلاد، وآتتنى رسلهم فسألونى القدوم ففعلت، فأما إذ كرهونى فبدا لهم غير ما أتتنى به رسلهم. فأنا منصرف عنهم [" ۶] قال ابن زياد:

الآن إذا علقت مخالبنا به++

يرجو النجاة ولات حين مناص

وكتب إلى عمر بن سعد: أما بعد فقد بلغنى كتابك وفهمت ما ذكرت. فأعرض على الحسين أن يبايع ليزيد بن معاوية هو وجميع أصحابه. فإذا فعل ذلك رأينا رأينا والسلام [۷] فالتيار الأموى رفض تقديم أى دليل يثبت أن الناس
كرهوا الحسين، بل ورفض أن تقوم قواته المسلحة بإبلاغ الحسين أن الناس قد كرهوه، لأن تقديم ذلك إليه سيؤدى إلى نجاته، وهم لا يريدون ذلك.

[صفحه ۲۸۱]

باختصار: كان التيار الأموى قد سبح شوطا طويلا فى مستنقعات الأوحال. حيث البغى والنكث والفساد فى الأرض... لقد رفضوا إظهار بينة، وهذا من أمور الدين. وطالبوه بمبايعة يزيد بن معاوية، وهذا ليس من أمور الفطرة. وأوصاف يزيد التى اتفق عليها العلماء تثبت ذلك. والذين قالوا إن الحسين طلب أن يضع يده فى يد يزيد أو طلب منهم أن يسيروه إلى أى ثغر من ثغور المسلمين لم يصيبوا الحقيقة، لأن هذه الأقوال لا تستقيم مع المقدمات، وإذا كانت هناك أحاديث قد روت هذا، فإن هناك ما يعارضها فعن عقبة بن سمعان قال: صحبت حسينا فخرجت معه من المدينة إلى مكة ومن مكة إلى العراق، ولم أفارقه حتى قتل. وليس من مخاطبته الناس كلمة بالمدينة ولا بمكة. ولا فى الطريق ولا بالعراق ولا فى عسكر إلى يوم مقتله إلا وقد سمعتها. ألا والله ما أعطاهم ما يتذاكر الناس. وما يزعمون من أن يضع يده فى يد يزيد بن معاوية، ولا أن يسير إلى ثغر من ثغور المسلمين ولكنه قال: دعونى فلأذهب فى هذه الأرض العريضة حتى ننظر ما يصير من أمر الناس [۸] فهذا القول يستقيم مع المقدمة وفيه حجة
على القوم الذى يريدون قتله. وبعد وصول كتاب ابن زياد إلى عمر بن سعد، صدر إليه الأمر التالى: من عبيد الله بن زياد إلى عمر بن سعد. أما بعد، فخل بين الحسين وأصحابه وبين الماء، ولا يذوقوا منه قطرة، كما صنع بالتقى الزكى المظلوم أمير المؤمنين عثمان بن عفان. " فبعث عمر بن سعد خمسمائة فارس، على رأسهم عمرو بن الحجاج، فنزلوا على الشريعة وحالوا بين حسين وأصحابه وبين الماء أن يسقوا منه قطرة، وذلك قبل قتل الحسين بثلاث. وبينما جنود بنى أمية عند الماء، نادى عبد الله بن أبى حصين على الحسين وقال: يا حسين ألا تنظر إلى الماء كأنه كبد السماء، والله لا تذوق منه قطرة حتى تموت عطشا. فقال الحسين: اللهم اقتله عطشا ولا تغفر له أبدا. روى أن حميد بن مسلم قال: إنه شاهد ابن أبى حصين بعد ذلك فى

[صفحه ۲۸۲]

مرضه. فوالله الذى لا إله إلا هو لقد رأيته يشرب حتى يغر، ثم يقئ، ثم يعود فيشرب حق يقر، فما زال ذلك دأبه حتى لفظ نفسه [۹] .
ورغم قرار منع الماء عن الحسين إلا أن فوارس الحسين كانوا يحصلون على الماء، بدفع الحراس عنها بين حين وآخر [۱۰] وروى أن عمر بن سعد كان

يريد أن يفتح بابا للسلامة والعافية، فكتب إلى ابن زياد بذلك، فبعث إليه ابن زياد كتاب مع شمر بن ذى الجوشن، وقال لشمر: أخرج بهذا الكتاب إلى عمر بن سعد فليعرض على الحسين وأصحابه النزول على حكمى، فإن فعلوا فليبعث بهم إلى سلما، وإن هم أبو فليقاتلهم، فإن فعل فاسمع له وأطع، وإن هو أبى فقاتلهم، فأنت أمير الناس، وثب عليه فاضرب عنقه وابعث إلى برأسه [۱۱] وكانت الرسالة التى حملها شمر إلى عمر بن سعد، تحمل فى

مضمونها أمر القتال، وفيها: أما بعد، فإنى لم أبعثك إلى حسين لتكف عنه، ولا لتطاوله، ولا لتمنيه السلامة والبقاء ولا لتقعد له عندى شافعا. انظر، فإن نزل حسين وأصحابه على الحكم واستسلموا فأبث بهم إلى سلما. وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم فإنهم لذلك مستحقون، فإن قتل حسين فأوطئ الخيل صدره وظهره، فإنه عاق مشاق قاطع ظلوم، إن أنت مضيت لأمرنا فيه، جزيناك جزاء السامع المطيع، وإن أبيت فاعتزل عملنا وجندنا، وخل بين شمر بن ذى الجوشن وبين العسكر فإنا قد أمرناه بأمرنا ["... ۱۲] .

وعندما حمل شمر الرسالة إلى عمر بن سعد واطلع عليها قال شمر: أخبرنى ما أنت صانع، أتمضى لأمر أميرك وتقتل عدوه، وإلا فخل بينى وبين الجند والعسكر، فقال له: لا ولا كرامة لك، وأنا أتولى ذلك [۱۳] ونادى

[صفحه ۲۸۳]

عمر بن سعد: يا خيل الله اركبى وابشرى! فركب فى الناس، ثم زحف نحو الحسين بعد صلاة العصر وحسين جالس أمام بيته محتبيا بسيفه إذ خفق برأسه على ركبتيه، وسمعت أخته زينب الصيحة فدنت من أخيها فقالت: يا أخى أما تسمع الأصوات قد اقتربت. فرفع الحسين رأسه وقال: إنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال لى: إنك تروح إلينا [۱۴] .

وبينما كانت الخيل تتقدم، اتجه العباس بن على إليهم، وعندما انتهى إليهم قال: يا هؤلاء إن أبا عبد الله يسألكم أن تنصرفوا هذه العشية، حتى ينظر فى هذا الأمر.... فإذا أصبحنا التقينا. وإنما أراد بذلك أن يردهم عنه تلك العشية حتى يأمر بأمره، ويوصى أهله. فجاء رسول من قبل عمر بن سعد إلى معسكر الحسين وقال: إنا قد أجلناكم إلى غد، فإن استسلمتم سرحنا بكم إلى أميرنا عبيد الله بن زياد وإن أبيتم فلسنا تاركيكم [۱۵] وأثناء الليل جمع الحسين أصحابه وقال: إنى

لا أعلم أصحابا أوفى ولا خيرا من أصحابى. ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتى، فجزاكم الله عنى جميعا خيرا. ألا وإنى أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غدا. إلا وإنى قد رأيت لكم، فانطلقوا جميعا فى حل، ليس عليكم منى ذمام، هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملا، ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتى، ثم تفرقوا فى سوادكم ومدائنكم حتى يفرج الله، فإن القوم إنما يطلبونى، ولو قد أصابونى لهوا عن طلب غير [۱۶] .

فقال له أخوته وأبناؤه، وبنو أخيه، وابنا عبد الله بن جعفر: لم نفعل لنبقى بعدك، لا أرانا الله ذلك أبدا. وقام إليه مسلم بن عوسجة فقال: أنحن نخلى عنك، ولما نعذر إلى الله فى أداء حقك، أما والله حتى أكسر فى صدورهم رمحى، وأضربهم بسيفى ما ثبت قائمة فى يدى، ولا أفارقك، ولو لم يكن معى سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك. وتكلم جماعة

[صفحه ۲۸۴]

من أصحابه بكلام يشبه بعضه بعضا فى وجه واحد، فقالوا: والله لا نفارقك ولكن أنفسنا لك الفداء، نقيك بنحورنا، وجباهنا، وأيدينا، فإذا نحن قتلنا، كنا وفينا وقضينا ما علينا [۱۷] .

وقام الحسين وأصحابه إلى الصلاة، فقاموا الليل كله، يصلون ويستغفرون ويدعون ويتضرعون. والحسين يقرأ قوله تعالى: (ولا يحسبن الذين كفروا إنما نملى لهم خيرا لأنفسهم. إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) [۱۸] .

وفى الصباح، وكان يوم سبت، وكان ذلك اليوم يوم عاشوراء، خرج الحسين فيمن معه من الناس. وكان معه اثنان وثلاثون فارسا وأربعون راجلا فعبأهم وصلى بهم صلاة الغداة، وجعل البيوت فى ظهورهم وأمر بحطب وقصب كان من وراء البيوت تحرق بالنار

مخافة أن يأتوهم من ورائهم [۱۹] وكل ذلك

من باب الأخذ بالأسباب. وروى أن الحسين رفع يده ودعا الله تعالى، فلما دنا منه القوم، دعا براحلته، فركبها ثم نادى بأعلى صوته: أيها الناس، اسمعوا قولى، ولا تعجلونى حتى أعظكم بما هو حق لكم على، وحتى أعتذر إليكم من مقدمى عليكم، فإن قبلتم عذرى، وصدقتم قولى وأعطيتمونى النصف، كنتم بذلك أسعد، ولم يكن لكم على سبيل. وإن لم تقبلوا منى العذر ولم تعطوا النصف من أنفسكم " فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة. ثم اقضوا إلى ولا تنظرون إن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ". فلما سمع أخواته كلامه هذا، صحن وبكين، وبكى بناته فارتفعت أصواتهن. فأرسل إليهن أخاه العباس بن على، وعليا ابنه، وقال لهما: أسكتاهن فلعمرى ليكثرن بكاؤهن. فلما سكتن حمد الله وأثنى عليه، وذكر الله بما هو أهله، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى ملائكته وأنبيائه، يقول الضحاك: فوالله ما

[صفحه ۲۸۵]

سمعت متكلما قط قبله ولا بعده أبلغ فى منطق منه. ثم قال الحسين: أما بعد، فانسبونى، فانظروا من أنا؟ ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها، فانظروا أهل يحل لكم قتلى وانتهاك حرمتى؟ ألست ابن بنت نبيكم صلى الله عليه وسلم، وابن وصيه وابن عمه، وأول المؤمنين بالله، والمصدق لرسوله بما جاء من عند ربه. أوليس حمزة سيد الشهداء عم أبى. أوليس جعفر الشهيد الطيار ذو الجناحين عمى، أولم يبلغكم قول مستفيض فيكم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى ولأخى ": هذان سيدا شباب أهل الجنة، " فإن صدقتمونى بما أقول، وهو الحق والله ما تعمدت كذبا مذ علمت أن الله يمقت عليه أهله، ويضر به من اختلقه، وإن كذبتمونى، فإن فيكم من إن سألتموه عن ذلك أخبركم، سلوا جابر بن عبد الله الأنصارى، أو أبا سعيد الخدرى، أو سهل بن سعد الساعدى، أو زيد بن أرقم، أو أنس بن مالك، يخبروكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لى ولأخى. أما فى هذا حاجز لكم عن سفك دمى، فإن كنتم فى شك من هذا القول أفتشكون أثرا ما أنى ابن بنت نبيكم، فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبى غيرى لا منكم ولا من غيركم، أنا ابن بنت نبيكم خاصة، أخبرونى أتطلبونى بقتيل منكم قتلته، أو مال لكم استهلكته، أو بقصاص من جراحه، ثم نادى: يا شبث بن ربعى، ويا حجار بن أبجر، ويا قيس بن الأشعث، ويا يزيد بن الحارث، ألم تكتبوا إلى أن قد أينعت الثمار واخضر الجناب وطمت الجمام، وإنما تقدم على جند لك مجند فأقبل؟ فقالوا له: لم نفعل. فقال: سبحان الله، بل والله لقد فعلتم، ثم قال: أيها الناس إذ كرهتمونى فدعونى أنصرف عنكم إلى مأمنى من الأرض. فقال له قيس بن الأشعث: أولا تنزل على حكم بنى عمك، فإنهم لن يروك إلا ما تحب ولن يصل إليك منهم مكروه. فقال الحسين: أنت أخو أخيك، أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل، لا والله لا أعطيهم بيدى إعطاء الذليل ولا أقر إقرار العبيد، عباد الله " إنى عذت بربى وربكم أن ترجمون"، " أعوذ بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، " ثم أناخ فى راحلته، وأمر عقبة بن سمعان

[صفحه ۲۸۶]

فعقلها وأقبلوا يزحفون نحو [۲۰] .

قال كثير بن عبد الله الشعبى: لما زحفنا قبل الحسين، خرج إلينا زهير بن القين فقال: يا أهل الكوفة، نذار لكم من عذاب الله نذران. حقا على المسلم نصيحة أخيه المسلم. ونحن الآن إخوة وعلى دين واحد وملة واحدة، ما لم يقع بيننا وبينكم السيف، وأنتم للنصيحة منا أهل، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة، وكنا أمة وأنتم أمة، إن الله ابتلانا وإياكم بذرية نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم، لينظر ما نحن وأنتم عاملون، إنا ندعوكم إلى نصرهم، وخذلان الطاغية عبيد الله بن زياد، فإنكم لا تدركون منهما إلا بسوء عمر سلطانهما كله ليسملان أعينكم، ويقطعان أيديكم وأرجلكم ويمثلان بكم، ويرفعانكم على جذوع النخل، ويقتلان أماثلكم وقراءكم أمثال حجر بن عدى وأصحابه، وهانئ بن عروة وأشباهه. وعند ما قال لهم زهير ذلك، سبوه وأثنوا على عبيد الله بن زياد ودعوا له، وقالوا: والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه، أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيد الله سلما. فقال لهم: عباد الله إن ولد فاطمة رضوان الله عليها

أحق بالود والنصر من ابن سمية. فإن لم تنصروهم، فأعيذكم بالله أن تقتلوهم، فخلوا بين هذا الرجل وبين يزيد بن معاوية... فرماه شمر بن ذى الجوشن بسهم وقال: اسكت اسكت الله نأمتك أبرمتنا بكثرة كلامك. فأقبل زهير على الناس رافعا صوته: عباد الله، لا يغرنكم من دينكم هذا الجلف الجافى وأشباهه فوالله لا تنال شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم قوما هرقوا دماء ذريته وأهل بيته، وقتلوا من نصرهم وذب عن حريمهم. فناداه رجل من معسكر الحسين: يا زهير، أن أبا عبد الله يقول لك أقبل، فلعمرى لئن كان مؤمن آل فرعون نصح لقومه وأبلغ فى الدعاء، لقد نصحت لهؤلاء وأبلغت لو نفع النصح والإبلاغ [۲۱] .

وهكذا قامت الحجة عليهم من كل اتجاه، ليقفوا عراة أمام التاريخ، ويقفوا فى الدائرة الأضيق عندما يعرضون على الله قاصم الجبارين.

وبينما كان أبناء

[صفحه ۲۸۷]

ثقافة السب وعبيد الدينار يستعدون لاجتياح معسكر الحسين، كان هناك رجل بين الرجال يراقب الأحداث ويسمع من هذا ومن ذاك، إنه الحر بن يزيد، الذى كانت مهمته، تنحصر فى مراقبة الحسين على طول الطريق إلى الكوفة. وروى أن الحر ركب فرسه ونظر إلى معسكر الحسين، فقال له المهاجر بن أوس: ما تريد يا ابن يزيد؟ أتريد أن تحمل؟ فسكت. فقال له الرجل: يا ابن يزيد والله إن أمرك لمريب. فقال له: إنى والله أخير نفسى بين الجنة والنار، ووالله لا أختار على الجنة شيئا ولو قطعت وحرقت، ثم ضرب فرسه فلحق بالحسين عليه السلام فقال له: جعلنى الله فداك يا ابن رسول الله، أنا صاحبك الذى حبستك عن الرجوع، وسايرتك فى الطريق وجعجعت بك فى هذا المكان.. وإنى جئتك تائبا مما كان منى إلى ربى ومواسيا لك بنفسى حتى أموت بين يديك، أفترى ذلك لى توبة؟ قال: نعم يتوب الله عليك ويغفر لك [۲۲] .

[۱] الطبرى ۶:۲۳۲.

[۲] الطبرى ۶:۲۳۲.

[۳] الطبرى ۶:۲۳۲.

[۴] الإصابة ۲:۱۷، الطبرى ۶:۲۳۳.

[۵] الطبرى ۶:۳۳۴.

[۶] الطبرى ۶:۳۳۴.

[۷] الطبرى ۶:۳۳۴.

[۸] الطبرى ۶:۳۳۵، البداية ۸:۱۷۵.

[۹] الطبرى ۶:۳۳۴.

[۱۰] الطبرى ۶:۳۳۴.

[۱۱] الطبرى ۶:۳۳۶، البداية ۸:۱۷۲.

[۱۲] الطبرى ۶:۳۳۶، البداية ۸:۱۷۵.

[۱۳] الطبرى ۶:۳۳۷، البداية ۱:۱۷۵.

[۱۴] الطبرى ۶:۳۳۷.

[۱۵] الطبرى ۶:۲۳۸.

[۱۶] البداية ۸:۱۷۶، الطبرى ۶:۲۳۹.

[۱۷] البداية ۸:۱۷۷، الطبرى ۶:۲۳۹.

[۱۸] الطبرى ۶:۲۴۰، البداية ۸:۱۷۸.

[۱۹] الطبرى ۶:۲۴۱.

[۲۰] الطبرى ۶:۲۴۲، البداية ۸:۱۷۹.

[۲۱] الطبرى ۶:۲۴۴، البداية ۸:۱۸۰.

[۲۲] الطبرى ۶:۲۴۴، البداية ۸:۱۸۰.

القتلة واللصوص

بعد أن وقف الحر بن يزيد فى معسكر الحسين، خاطب القوات الأموية

فقال ": ويحكم منعتم الحسين ونساءه وبناته ماء الفرات الذى يشرب منه اليهود والنصارى، ويتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه، فهو كالأسير فى أيديكم لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا [۱] وبدأ الحسين بن على عليه السلام، يتصرف وفقا لما

أخبره النبى الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بخصوص نهايته. فقال الحسين: إئتونى ثوبا لا يرغب فيه أحد، أجعله تحت ثيابى. فأتوه بتبان فقال: لا ذاك لباس من ضربت عليه الذلة، فأخذ ثوبا مخرقة، فجعله تحت ثيابه حتى إذ قتل وجردوه من ثيابه بقى عليه هذا الثوب [۲] .

وبدأت المعركة، معركة الطهر ضد الرجس، معركة قتلت فيها القوات الأموية الأطفال، واستعملت أساليب فى القتال، يندى لها الجبين خجلا. ليس

[صفحه ۲۸۸]

لأنها لا تستقيم مع تعاليم الإسلام، ولكن لأنها لا تستقيم مع المروءة العربية الجاهلية. ولقد حدثنا التاريخ عن معارك قادها جنكيزخان، وهولاكو، والقياصرة، والأكاسرة. وعلمنا سيرة قادتهم مع أبناء الملوك المهزومين، وكيف كانوا يتعاملون معهم وفقا لأعراف وقوانين متفق عليها. وعلمنا من تاريخهم أيضا أن الجبان ليس هو الإنسان الذى يفر من ساحة القتال وإنما هو ذلك الإنسان الذى إذا قدر كان أكثر جبنا أى أكثر قتلا. والتحرك الأموى فى كربلاء ضد أبناء النبى صلى الله عليه وسلم، هو فى كثير من بنوده، لا يرتقى إلى مستوى تعامل الجبابرة مع أبناء الملوك المنهزمين. ويلتقى مع تعريف الإنسان الأكثر جبنا. وفيما سبق ألقينا الضوء على تحرك الحسين نحو كربلاء من مصادر معتمدة ومعتبرة، ألا وهى: الطبرى فى كتابه المسمى بتاريخ الأمم والملوك، والبداية والنهاية لابن كثير، ولقسوة بنى أمية كقادة وأمراء، وأهل الكوفة كجنود لهذه السياسة، سيكون مصدرنا الأساسى فى إلقاء الضوء على ساحة المعركة هو، البداية والنهاية لابن كثير. وما اتفق معه من مصادر سنبينه بالهامش. واختيارنا لهذا المصدر فى هذا الموضع بالذات له أسبابه. منها حتى لا يقال إن الأحداث مبالغ فيها. ومنها أن ابن كثير فى كتابه يميل ميلا كبيرا نحو السياسة الأموية فى خطوطها العريضة، وإن كان ينتقدها فى بعض الأمور الثانوية، إلا أنه مؤيد لرموزها بلا استثناء، وهذا يجعل تلقى أخبار القتال مقبولا ولا شبهة فيه. ولقد أجاد ابن كثير عندما تحدث عن مقتل الحسين تحت عنوان " وهذه صفة مقتله مأخوذة من كلام أئمة هذا الشأن، لا كما يزعمه أهل التشيع من الكذب [" ۳] .

وقدم نخبة من المرويات تكفى لما نريد أن نبينه فى هذا المقام. وعن تحديد الذى بدأ القتال، يقول ابن كثير: فتقدم عمر بن سعد بن أبى وقاص وقال لمولاه: يا دريد ادن رأيتك، فأدناها، ثم شمر عمر بن سعد عن ساعده، ورمى بسهم وقال: اشهدوا، إنى أول من رمى القوم. فترامى الناس

[صفحه ۲۸۹]

بالنبال [۴] وبدأت المبارزة بين الفريقين، ووقف رجل وقال: يا حسين أبشر

بالنار. فقال له الحسين: كلا ويحك إنى أقدم على رب رحيم وشفيع مطاع، بل أنت أولى بالنار، وكثرت المبارزة بين الفريقين

والنصر فى ذلك لأصحاب الحسين، لقوة بأسهم، وأنهم مستميتون لا عاصم لهم إلا سيوفهم. فأشار بعض الأمراء على عمر بن سعد بعدم المبارزة [۵] وبعث عمر نحوا من خمسمائة رجل

فجعلوا يرمون خيول أصحاب الحسين فعقروها كلها، حتى بقى جميعهم رجالة. وأمر ابن سعد بحرق الأبنية التى تحمى أجناب قوات الحسين. فقال الحسين: دعوهم يحرقونها فإنهم لا يستطيعون أن يجوزوا منها وقد أحرقت [۶] ونادى ابن

الحجاج أمير ميمنة جيش ابن زياد: قاتلوا من مرق من الدين وفارق الجماعة. فقال له الحسين: يا عمر بن الحجاج أعلى تحرض الناس، أنحن مرقنا وأنتم ثبتم عليه؟ أما والله لتعلمن لو قبضت أرواحكم، ومتم على أعمالكم، أينا مرق من الدين، ومن هو أولى بصلى النار [۷].

إن المعركة تكشف فيما تكسف عن سياسة الترقيع والتشويه، وعن انتاج ثقافة السب حيث الجيل والعصر الذى ضيع الصلاة. واتهام الحسين بأنه من أهل النار، وأنه مارق من الدين، دليل قاطع على أن الرحلة الأموية كارثة كبرى فى بدايتها فما بالك بها عند نهاية الطريق، ففى أول الطريق ضاع الدين ورموز الدين، فبأى وقود تسير القاطرة بعد ذلك؟ ثم انظر إلى هذا الجندى الأموى الذى ضاعت الصلاة فى عهودهم، ماذا قال عندما سمع الحسين يقول: مروهم فليكفوا عن القتال حتى نصلى. لقد قال للحسين إن الصلاة لا تقبل منكم. فرد عليه أحد جنود الحسين قال له: ويحكم أتقبل منكم ولا تقبل من آل رسول

[صفحه ۲۹۰]

الله [۸] وفى رواية الطبرى قال له: زعمت الصلاة من آل رسول الله لا تقبل،

وتقبل منك يا حمار [۹] فهذا دليل على مدى السقوط الذى انحدرت إليه الأمة

بعد وفاة النبى صلى الله عليه وآله وسلم بأقل من خمسين عاما، وليس بعد ثلاثة قرون. وبعد أن قامت القوات الأموية برفض المبارزة، وهى قانون قتالى لا خلاف عليه. وبعد أن وجهت النبال إلى خيول الحسين، وحرقت الأبنية التى تحمى أجنابه. يقول ابن كثير: كان الرجل من أصحاب الحسين إذا قتل بان فيهم الخلل، وإذا قتل من أصحاب عبيد الله بن زياد الجماعة الكثيرة لم يتبين ذلك فيهم لكثرتهم [۱۰] فالقوات الأموية فى الأساس يتمتعون بكثرة عددهم، ولكنهم

كانوا أكثر جبنا، فهم خائفون ولكنهم بما لديهم من عتاد، يضربون فى كل مكان حتى أخبية النساء ما سلمت منهم. وروى أن حبيب بن مظاهر، قاتل بجانب الحسين قتالا شديدا، فضربه رجل بالسيف على رأسه فقتله. وحمل عليه آخر فطعنه فوقع، فنزل إليه الذى ضربه بالسيف فاحتز رأسه. فقال له الذى طعنه إنى لشريكك فى قتله. فقال الآخر: والله ما قتله غيرى. فقال الذى طعنه وهو من بنى تميم: أعطنيه أعلقه فى عنق فرسى كيما يرى الناس ويعلموا أنى شاركت فى قتله، ثم خذه أنت بعد ذلك فامض به إلى عبيد الله بن زياد، فلا حاجة لى فيما تعطاه على قتلك إياه. فأبى عليه فأصلح قومه فيما بينهما على هذا، فدفع إليه الرأس، فجال به فى العسكر وقد علقه فى عنق فرسه. وبعد المعركة أقبل به إلى ابن زياد فى القصر، وبينما هو يسير، شاهده ابن حبيب بن مظاهر فقال له: إن هذا الرأس الذى معك رأس أبى، أفتعطينيه حتى أدفنه؟ فقال له: يا بنى لا يرضى الأمير أن يدفن، وأنا أريد أن يثيبنى الأمير على قتله ثوابا حسنا. فقال له الغلام: لكن الله لا يثيبك على ذلك إلا أسوأ الثواب، وبكى الغلام. وروى أن هذا الغلام لم يكن له همه إلا

[صفحه ۲۹۱]

اتباع أثر قاتل أبيه. فلما كان زمان مصعب بن الزبير، دخل الغلام معسكر مصعب فوجد الرجل فقتله [۱۱].

وبدأت جحافل بنى أمية تتدفق على معسكر الحسين من كل ناحية، وقتل الحر بن يزيد. وبعد ذلك صلى الحسين صلاة الخوف، ثم اقتتلوا بعدها قتالا شديدا، فلما رأى أصحاب الحسين أنهم قد كثروا، وأنهم لا يقدرون عن أن يمنعوا حسينا ولا أنفسهم، تنافسوا فى أن يقتلوا بين يديه. فجاء عبد الله، وعبد الرحمن ابنا عزرة الغفار، فقالا: يا أبا عبد الله عليك السلام، حازنا العدو إليك، فأحببنا أن نقتل بين يديك، نمنعك وندفع عنك. قال: مرحبا بكما ادنوا منى. فدنوا منه، فجعلا يقاتلان. وجاء الفتيان الجابريان، سيف بن الحارث،

ومالك بن عبد، فأتيا حسينا، فدنوا منه وهما يبكيان. فقال: ما يبكيكما، فوالله إنى لأرجو أن تكونا عن ساعة قريرى عين. فقالا للحسين: جعلنا الله فداك، لاـ والله ما على أنفسنا نبكى ولكن نبكى عليك، نراك قد أحيط بك ولاـ نقدر أن نمنعك. فقال: جزاكما الله بوجدكما من ذلك ومواساتكما إياى بأنفسكما أحسن جزاء المتقين [۱۲] .

وجاء حنظلة بن أسعد، فقام بين يدى حسين، فأخذ ينادى: يا قوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب. مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم. وما الله يريد ظلما للعباد. ويا قوم إنى أخاف عليكم يوم التناد يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم، ومن يضلل الله فما له من هاد. يا قوم لا تقتلوا حسينا فيسحتكم الله بعذاب وقد خاب من افترى. فقال له الحسين: يا ابن سعد رحمك الله. إنهم قد استوجبوا العذاب حين ردوا عليك ما دعوتهم إليه من الحق، ونهضوا إليك ليستبيحوك وأصحابك. فكيف بهم الآن، وقد قتلوا إخوانك الصالحين. قال: صدقت جعلت فداك أنت أفقه منى. وأحق بذلك، أفلا نروح إلى الآخرة ونلحق بإخواننا. فقال له: رح إلى خير من الدنيا وما فيها..

[صفحه ۲۹۲]

وإلى ملك لا يبلى. فقال: السلام عليك يا أبا عبد الله وعلى أهل بيتك، وعرف بيننا وبينك فى جنته. فقال: آمين آمين فاستقدم فقاتل حتى قتل [۱۳] .

ثم آتاه أصحابه مثنى، وفرادى يقاتلون بين يديه، وهو يدعو لهم ويقول: جزاكم الله جزاء المتقين. فجعلوا يسلمون على الحسين ويقاتلون حتى يقتلوا. ثم جاء حبس بن أبى شبيب، فقال: يا أبا عبد الله، أما والله ما أمسى على ظهر الأرض قريب ولا بعيد أعز على منك، ولو قدرت أن أدفع عنك الضيم أو القتل بشئ، أعز على من نفسى ودمى لفعلته. السلام عليك يا أبا عبد الله، اشهد لى أنى على هديك. ثم مشى بسيفه صلتا وبه ضربة على جبينه، فنادى: ألا رجل لرجل، ألا ابرزوا إلى. فعرفوه - وكان من أشجع الناس - فنكلوا عنه. ثم قال عمر بن سعد: أرضخوه بالحجارة، فرمى بالحجارة من كل جانب، فلما رأى ذلك ألقى درعه ومغفره، ثم شد على الناس، فكرد أكثر من مائتين بين يديه، ثم إنهم عطفوا عليه من كل جانب فقتل رحمه الله. وأخذ رأسه. عدد من الرجال، كل يدعى قتله، فأتوا به عمر بن سعد فقال لهم: لا تختصموا فيه فإنه لم يقتله إنسان واحد. ففرق بينهم بهذا القول [۱۴] .

وقاتل زهير بن القين بين يدى الحسين قتالا شديدا، فشد عليه كثير بن عبد الله، ومهاجر بن أوس فقتلاه [۱۵] وكان آخر من بقى مع الحسين من أصحابه

سويد بن عمر، وكان أول قتيل من بنى أبى طالب يومئذ، على الأكبر بن الحسين بن على. فلقد أخذ يشد على الناس وهو يقول:

أنا على بن حسين بن على++

نحن ورب البيت أولى بالنبى

تالله لا يحكم فينا ابن الدعى وبينما هو يقاتل، اعترضه مرة بن منقذ فطعنه، واجتمع عليه الناس فقطعوه بأسيافهم، فقال الحسين: قتل الله قوما قتلوك يا بنى، ما أجرأهم على الرحمن.

[صفحه ۲۹۳]

وعلى انتهاك حرمة الرسول على الدنيا بعدك العفاء. وخرجت زينب، ابنة فاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تنادى: يا أخياه ويا ابن أخاه، فجاءت حتى أكبت عليه. فجاءها الحسين فأخذ بيدها فردها إلى الفسطاط. وأقبل الحسين إلى ابنه، وأقبل فتيانه إليه، فقال: احملوا أخاكم. فحملوه من مصرعه حتى وضعوه بين يدى الفسطاط الذى كانوا يقاتلون أمامه [۱۶] ثم قتل عبد الله بن

مسلم بن عقيل، ثم قتل عون، ومحمد ابنا عبد الله بن جعفر، ثم قتل عبد الرحمن وجعفر ابنا عقيل بن أبى طالب، ثم قتل القاسم بن الحسن بن على بن أبى طالب [۱۷] وعن حميد بن مسلم قال: وخرج غلام كأن وجهه شقة

قمر فى يده السيف. عليه قميص وإزار، ونعلاه قد انقطع " شسع أحدهما. فقال عمرو بن سعد بن نفيل: والله لأشدن عليه. فقيل له:

سبحان الله وما تريد إلى ذلك، يكفيك قتل هؤلاء الذين تراهم قد احتولوهم. فقال: والله لأشدن عليه، فشد عليه، فما ولى حتى ضرب رأسه بالسيف، فوقع الغلام لوجهه، وقال: يا عماه. فجلى الحسين كما يجلى الصقر، ثم شد شدة ليث أغضب، فضرب عمر بالسيف فاتقاه بالساعد فأطنها من لدن المرفق، فصاح ثم تنح عنه. وحملت خيل الكوفة ليستنقذوا عمر من الحسين... فاستقبلت عمر بصدورها، وحركت حوافرها، وجلت الخيل بفرسانه عليه، فتوطأته حتى مات. وقام الحسين على رأس الغلام، والغلام يفحص برجليه. والحسين يقول: بعدا لقوم قتلوك، ومن خصمهم يوم القيامة فيك جدك. ثم قال: عز والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك، أو يجيبك ثم لا ينفعك، صوت والله كثر واتره وقل ناصره، ثم احتمله وكأنى أنظر إلى رجلى الغلام يخطان فى الأرض، وقد وضع الحسين صدره على صدره، ثم جاء به حتى ألقاه مع ابنه الأكبر ومع من قتل من أهل بيته فسألت عن الغلام فقيل: هو القاسم بن الحسين بن على بن أبى طالب [۱۸].

[صفحه ۲۹۴]

وقال هانئ بن ثبيت: خرج غلام من آل الحسين، وهو ممسك بعود - أى عود قصب - من تلك الأبنية، وعليه إزار وقميص وهو مذعور يلتفت يمينا وشمالا. فكأنى أنظر إلى درتين فى أذنيه، تذبذبان كلما التفت. إذ أقبل رجل يركض فرسه. حتى إذا دنا من الغلام، مال عن فرسه ثم أخذ الغلام فقطعه بالسيف. قال هشام السكونى: هانئ بن ثبيت هو الذى قتل الغلام، خاف أن يعاب ذلك عليه فكنى عن نفسه [۱۹].

ومكث الحسين نهارا طويلا وحده لا يأتيه أحد، حتى آتاه رجل من كنده يقال له مالك بن النسير. أتاه فضربه على رأسه بالسيف، وعليه برنس له فقطع البرنس، وأصاب السيف رأسه فأدمى رأسه، فامتلأ البرنس دما. فقال له الحسين: لا أكلت بها ولا شربت، حشرك الله مع الظالمين، وألقى ذلك البرنس، ثم دعا بقلنسوة فلبسها واعتم. وقد أعيا. وجاء الكندى الذى ضربه حتى أخذ البرنس [۲۰].

وأتى الحسين بصبى له فأجلسه فى حجره، ثم جعل يقبله ويودعه. فرماه رجل من بنى أسد بسهم فذبح ذلك الغلام. فتلقى الحسين دمه فى يده. وألقاه نحو السماء وقال: رب إن تك حبست عنا النصر من السماء، فاجعل ذلك لما هو خير وانتقم لنا من هؤلاء الظالمين [۲۱] وأحاطوا بالحسين، وأقبل إلى

الحسين غلام من أهله، فأخذته أخته زينب ابنة على لتحبسه. فقال لها الحسين: أحبسيه، فأبى الغلام، وجاء يشتد إلى الحسين فقام إلى جنبه، فأهوى بحر بن كعب إلى الحسين بالسيف. فقال الغلام: أتقتل عمى، فضربه بالسيف فاتقاه الغلام بيده فأطنها سوى الجلدة، فإذا يده معلقة. فنادى الغلام: يا أمتاه، فأخذه الحسين فضمه إلى صدره، وقال: يا ابن أخى اصبر على ما نزل بك، واحتسب فى ذلك الخير فإن الله يلحقك بآبائك الصالحين، برسول الله صلى الله عليه

[صفحه ۲۹۵]

وسلم، وعلى بن أبى طالب، وحمزة، وجعفر، والحسن صلى الله عليهم أجمعين [۲۲].

وبعد أن فرغت القوات الأموية من الخيول، ثم من الرجال، ثم من الأطفال، بدءوا يتفرغون للنساء، وكان هذا كله وفق خطة محكمة، هدفها أن يرى الحسين كل شئ قبل أن يقتلوه. يقول عبد الله بن عمار: فوالله ما رأيت مكسورا قط، قد قتل ولده وأهل بيته وأصحابه أربط جأشا، ولا أمضى جنانا منه، ولا أجرأ مقدما. والله ما رأيت قبله ولا بعده مثله. إن كانت الرجالة لتنكشف من عن يمينه وشماله. انكشاف المعزى إذ شد فيها الذئب، فوالله إنه لكذلك [۲۳].

وتحرك شمر بن الجوشن فى اتجاه منزل الحسين الذى فيه ثقله وعياله، ثم قام بقواته فحالوا بين الحسين وبين رحله. فقال الحسين: ويلكم إن لم يكن لكم دين، وكنتم لا تخافون يوم المعاد فكونوا فى أمر دنياكم أحرارا ذوى أحساب، منعوا رحلى وأهلى من طغاتكم وجهالكم. فقال له شمر: ذلك لك يا ابن فاطمة [۲۴].

[۱] البداية والنهاية ۸:۱۸۱.

[۲] سروال صغیر یستر العورة المغلظة فقط، ویلبسه الفلاحون.

[۳] رواه الطبرانی وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۱۹۳:۹).

[۴] البدایة ۱۸۱:۸.

[۵] البدایة ۱۸۲:۸.

[۶] البدایة ۱۸۲:۸، الطبری ۲۵۰:۶.

[۷] الطبری ۲۴۹:۶، البدایة ۱۸۵:۸.

[۸] البدایة ۱۸۳:۸.

[۹] الطبری ۲۵۱:۶.

[۱۰] البدایة ۱۸۳:۸.

[۱۱] الطبری ۶۵۲:۶، البدایة ۱۸۳:۸.

[۱۲] الطبری ۲۵۳:۶، البدایة ۱۸۴:۸.

[۱۳] الطبری ۲۵۴:۶.

[۱۴] البدایة ۱۸۵:۸.

[۱۵] البدایة ۱۸۴:۸.

[۱۶] البدایة ۱۸۵:۸، الطبری ۲۵۶:۶.

[۱۷] البدایة ۱۸۵:۸، الطبری ۲۵۶:۶.

[۱۸] البدایة ۱۸۶:۸، الطبری ۲۵۶:۶.

[۱۹] البدایة ۱۸۶:۸، الطبری ۲۵۸:۶.

[۲۰] البدایة ۱۸۶:۸، الطبری ۲۵۶:۶.

[۲۱] البدایة ۱۸۶:۸، الطبری ۲۵۷:۶.

[۲۲] البدیة ۱۸۷:۸، الطبری ۲۵۹:۶.

[۲۳] الطبری ۲۵۹:۶، البدایة ۱۸۸:۸.

[۲۴] الطبری ۲۵۸:۶، البدایة ۱۸۷:۸.

سلام علیک أبا عبدالله

وقف الحسین فی ساحة المعرکة وحده. وکان النبی صلی الله علیه

وسلم، یراقب الحرکة من عالم غیر العالم الذی یعیش فیه الناس. فأم سلمة ستراه فی المنام بعد قتل الحسین، وعلی لحیته التراب، ویقول لها: لقد شهدت قتل الحسین آنفا، لقد وقف الحسین فی نهایة عمل أحسن أدائه، فأقام الحجة الدائمة التی شاء الله أن یجعلها حجة دامیة لتقرع الذاکرة علی امتداد التاریخ، وتدفع الذهن إلی طریق البحث عن الحقیقة، کان فی مواجهة الحسین أنماط

[صفحه ۲۹۶]

بشریة أقوالها غیر أفعالها، خرجت من خیام بها الکثیر من التقیح والفساد، الذی یسد أبواب الأمل. ولم یرفع الحسین یده استسلاما لهذه الأنماط، لأنه لیس من شیمة الرجل الشریف أن یتردی فی هوة هذا الخوف الذلیل، وأی شریف یکون غیر أسف علی ترک عالم الباطل هو الشئ الوحید الذی یسود فیه، لم یرفع الحسین یده، وإنما تصدی للخیام التی بها حشدا من الجرائم، ومکتظة بالقتل والآثام،

وواجه العدوان البهيمى البربرى الذى ليس له نظير، كان الحسين فى أحلك الأوقات يدعو لإقامة الدين، وكان خصومه الذين ترعرعوا تحت ثقافة السب وأمام بيوت المال، يعملون من أجل الدنيا، كانوا يعملون من أجل كيس نقود، وكانوا يضعون العقبات أمام الحسين، حتى يظل عاجزا عن نيل ما يشتهى بينما يبلغ كل منهم ما يريد.

صرخات الحسين

أمام المجموع التى تقرقع أنيابها كرقعة أنياب الحيتان، وقف الحسين

والدماء تغطى وجهه بعد أن ضربه رجل من كنده بالسيف على رأسه، فقطع البرنس وأدمى الرأس. فقال لهم: أعلى قتلى تحاثون؟ أما والله ولا تقتلون بعدى عبدا من عباد الله، الله أسخط عليكم لقتله منى. وأيم الله، إنى لأرجو أن يكرمنى الله بهوانكم، ثم ينتقم لى منكم من حيث لا تشعرون. أما والله إن لو قد قتلتمونى لقد ألقى الله بأسكم بينكم وسفك دماءكم، ثم لا يرضى لكم بذلك حتى يضاعف لكم العذاب الأليم [۱] وكان قد قال: إنى لم أخرج أشرا ولا

بطرا، ولا مفسدا ولا ظالما، وإنما خرجت لطلب الاصلاح فى أمة جدى، محمد صلى الله عليه وسلم، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدى محمد صلى الله عليه وسلم، وأبى على بن أبى طالب. فمن قبلنى بقبول الحق فالله أولى بالحق. ومن رد على هذا، أصبر حتى يقضى الله بينى وبين القوم الظالمين [۲].

[صفحه ۲۹۷]

كان الحسين يذكر ويقيم الحجة على امتداد الطريق، وكان الذين من حوله تلمع فى عقولهم دنانير عبيد الله بن زياد. كما لمع العجل فى قلوب بنى إسرائيل، كان يلقى عليهم كلمات فيها حياتهم، وبها بعيشوا أحرارا. وكانوا يبحثون عن حجارة ليرجموه بها. هو يريد حياتهم، وهم يريدون قتله. وصاح الحسين: ما لك يا ابن سعد قطع الله رحمك، ولا بارك الله لك فى أمرك، وسلط عليك بعدى من يذبحك على فراشك، كما قطعت رحمى ولم تحفظ قرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم رفع صوته وتلى قوله تعالى [۳] (إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين - ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم [" ۴] .

كان يذكرهم بما يعرفون وبما يخفون. وتعالت الأصوات: الحق مع آل معاوية، وقطع ضجيجهم صوت الحسين: نعم الرب ربنا، وبئس العبيد أنتم.... يا أمة السوء بئسما خلفتم محمدا فى عترته. ثم قال: أما إنكم لن تقتلوا بعدى عبدا من عباد الله فتهابوا قتله. بل يهون عليكم ذلك، عند قتلكم إياى، وأيم الله، إنى لأرجو أن يكرمنى الله بالشهادة، ثم ينتقم لى منكم من حيث لا تشعرون. فناداه الحصين بن مالك: وبماذا ينتقم لك منا يا ابن فاطمة فقال: يلقى بأسكم بينكم ويسفك دماءكم، ثم يصب عليكم العذاب الأليم [۵].

وبعد أن حذرهم الحسين التحذير الأخير، عطش الحسين حتى اشتد عطشه فدنا ليشرب من الماء، فرماه حصين بن تميم بسهم فوقع فى فمه، فجعل يتلقى الدم من فمه، ويرمى به إلى السماء، ثم حمد الله وأثنى عليه، ثم جمع يديه فقال: اللهم احصهم عددا، واقتلهم بددا، ولا تذر على الأرض منهم أحدا [۶].

[صفحه ۲۹۸]

[۱] البداية والنهاية ۱۸۸:۱، الطبرى ۲۶۰:۶، الكامل ۲۶۴:۳.

[۲] مقتل الحسين:الخوارزمى ۱۸۹:۱.

[۳] مقتل الحسين:الخوارزمى ۳۰:۲.

[۴] سورة آل عمران: الآية ۳۳ و ۳۴.

[۵] مقتل الحسين ۳۴:۲.

[۶] رواه الطبرانى وقال الهيثمى رجاله ثقات (الزوائد ۱۹۳:۹) والبداية والنهاية ۱۸۷:۸، الطبرى ۲۵۸:۶.

و الله إنه ليحزننى قتل الحسين

وقف الحسين أمام رحله الذى به، ما تكته السيوف من بقايا أجساد أبنائه.

مكث نهارا طويلا وحده، لا يأتيه أحد، حتى نزف دمه. وبعد أن ارتوت الأرض من دمائه، نادى شمر بن ذى الجوشن: ويحكم ماذا تنتظرون بالرجل؟ فاقتلوه ثكلتكم أمهاتكم. فحملت الرجال من كل جانب على الحسين. وضربه زرعه بن شريك على كتفه اليسرى، وضرب على عاتقه. ثم انصرفوا عنه، وهو ينوء ويكبو. ثم جاء إليه سنان بن أبى عمرو، فطعنه بالرمح فوقع [۱] يقول

عبد الله بن عمار: رأيت الحسين حين اجتمعوا عليه، يحمل على من على يمينه حتى انذعروا عنه. فوالله ما رأيت مكثورا قط قد قتل أولاده وأصحابه أربط جأشا منه، ولا أمضى جنانا منه، والله ما رأيت قبله ولا بعده مثله [۲] وروى الطبرى: كان مع الحسين سكين، فعندما أخذ سيفه قاتلهم بسكينة ساعة [۳] .

وعندما جاء شمر بن ذى الجوشن، نظر إليه الحسين وقال: صدق الله ورسوله. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": كأنى أنظر إلى كلب أبقع يلغ فى دماء أهل بيتى. " وكان شمر أبرص [۴] ثم قال: اللهم أحبس عنهم

القطر، وابعث عليهم سنين كسنى يوسف، وسلط عليهم غلام ثقيف يسقيهم كأسا مصيرة، فإنهم كذبونا وخذلونا. اللهم إن متعتهم إلى حين ففرقهم فرقا واجعلهم طرائق قددا، ولا ترضى الولاة عنهم أبدا. فإنهم دعونا لينصرونا ثم عدوا علينا فقتلونا.. ثم أراد الحسين أن يقف، ولكن قضى الله أن تنتهى أعمال الحسين بالدعاء إليه سبحانه. وأن تنتهى حركته فى هذه البقعة من الأرض، لتبدأ الحركة بصورة أخرى على امتداد الزمان. وروى أن الحسين سأل عن هذه البقعة فقالوا: كربلاء، فقال: صدق الله ورسوله كرب وبلاء – وفى

[صفحه ۲۹۹]

راية – صدق رسول الله أرض كرب وبلاء [۵] .

وشاء الله أن تحفر فى ذاكرة المسلمين أحداث كربلاء، فالأحداث والأرض حزمة واحدة. داخل الذهنية الإسلامية، واسم كربلاء اسم مقصود له معنى، وللمعنى حكمة، ومن وراء الحكمة هدف. قال فى لسان العرب: الكرب: الحزن والغم، الذى يأخذ بالنفس. فإذا كان هذا وقودا لقاطرة، فإن هذه القاطرة ستدخل إلى دائرة البلاء، من مدخل الأمان. وقال فى المجمع: البلاء على ثلاثة أوجه: نعمة، واختبار، ومكروه. قال تعالى: (لتبلون فى أموالكم وفى أنفسكم) يريد توطين النفس على الصبر. وقال تعالى: (وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات). أى اختبره، بما تعبده به من السنن. (فأتمهن) أى عمل بهن، ولم يدع منهن شيئا. والبلاء يكون حسنا وسيئا، وأصله المحنة. والله يبلوا العبد، بما يحبه ليمتحن شكره، وبما يكرهه ليمتحن صبره. قال تعالى: (ونبلوكم بالشر والخير فتنة). وقال: (يوم تبلى السرائر)، أى تختبر السرائر فى القلوب، من العقائد والنيات وغيرها. وما أسر وأخفى من الأعمال. فيتميز منها ما طاب وما خبث. وقال (ليبلوكم أيكم أحسن عملا)، أى ليعاملكم، معاملة المختبرين لكم، وإلا فعالم الغيب والشهادة، لا يخفى عليه شئ، وإنما يبلوا ويختبر من تخفى عليه العواقب. وقوله: (أيكم أحسن عملا) ليس يعنى أكثركم عملا ولكن أصوبكم عملا وإنما الإصابة خشية الله والنية الصادقة. وسنة البلاء لا يستثنى فيها المؤمن والكافر، والمحسن والمسئ. وفى الحديث القدسى ": إنما بعثتك لأبتليك وأبتلى بك قومك، من يتبعك، ومن يتخلف عنك، ومن ينافق معك. وهكذا تكون دائرة الكرب، مدخلا إلى دائرة البلاء. وهكذا كان للحدث كله حكمة من ورائها هدف. لقد أراد الحسين، أن يقف فى وجه أعدائه، آخذا بكل سبب من الأسباب. ولكن الله قضى أن تقطع الأسباب، وأن يقع على أرض كربلاء. وروى أنهم تركوه نهارا طويلا وهو ينوء ويكبو، ثم التفوا حوله بعد أن

[صفحه ۳۰۰]

صعدت الروح إلى بارئها، ونزل أحدهم من على فرسه، قيل إنه شمر بن ذى الجوشن. وقيل إنه سنان بن أنس. فاحتز رأسه، ورؤوس بقية من قتل معه. يقول ابن كثير: كان معه رؤوس بقية أصحابه وهو المشهور، ومجموعها اثنان وسبعون رأسا. وذلك أنه ما قتل قتيل

إلا احتزوا رأسه. وحملت هذه الرؤوس إلى ابن زياد. ثم بعث بها ابن زياد إلى يزيد بن معاوية إلى الشام [۶] .

وسلب الحسين ما كان عليه، فأخذ سرواله بحر بن كعب، وأخذ قيس بن الأشعث قطيفته، وأخذ نعليه رجل من بنى أود يقال له الأسود، وأخذ سيفه رجل من بنى نهشل بن دارم. ومال الناس على الورس والحلل والإبل وانتهبوها، ومال الناس على نساء الحسين وثقله ومتاعه. فإن كانت المرأة لتنازع ثوبها عن ظهرها، حتى تغلب عليه فيذهب به منها [۷] ووجد بالحسين عليه السلام، حين

قتل ثلاث وثلاثون طعنة، وأربع وثلاثون ضربة [۸] وأمر عمر بن سعد عشرة

فرسان، أن يدوسوا الحسين، فداسوا الحسين بحوافر خيولهم، حتى ألصقوه بالأرض يوم المعركة [۹] وكان عمر الحسين يوم قتل، ثمان وخمسين سنة [۱۰] .

وقتل معه سبعة عشر كلهم، ارتكض فى رحم فاطمة عليها السلام [۱۱] وجميع

من قتل مع الحسن اثنان وسبعون رجلا [۱۲] .

وعن حميد بن مسلم قال: انتهيت إلى على بن الحسين بن على الأصغر، وهو منبسط على فراش له وهو مريض. وإذا شمر بن الجوشن فى رجاله معه يقولون: ألا تقتل هذا. فقال حميد: إنما هذا صبى، حتى جاء عمر بن سعد فقال: لا يعرضن لهذا الغلام المريض. فقال لى على بن الحسين: جزيت من رجل خيرا. فوالله

[صفحه ۳۰۱]

لقد دفع الله عنى، بمقالتك شرا. وقال حميد: فقال الناس، لسنان بن أنس: قتلت حسين بن على بن أبى طالب، وابن فاطمة ابنة رسول الله. قتلت أعظم رجال العرب خطرا، جاء إلى هؤلاء يريد أن يزيل ملكهم. فأت أمراءك فاطلب ثوابك منهم. وإنهم لو أعطوك، بيوت أموالهم فى قتل الحسين كان قليلا. فأقبل على فرسه، فأقبل حتى وقف، على باب فسطاط عمر بن سعد، ثم نادى بأعلى صوته:

أوقر ركابى فضة وذهبا++

أنا قتلت الملك المحجبا

قتلت خير الناس أما وأبا++

وخيرهم إذ ينسبون نسبا

فقال عمر: أشهد أنك لمجنون، أدخلوه على. فلما أدخل قال: يا مجنون أتتكلم بهذا الكلام أما والله لو سمعك ابن زياد لضرب عنقك [۱۳] .

[۱] البداية والنهاية ۸:۱۸۹، الطبرى ۲:۳۶۰.

[۲] البداية والنهاية ۸:۱۸۸.

[۳] الطبرى ۶:۳۶۰.

[۴] البداية والنهاية ۸:۱۸۸، وابن عساكر (كنز العمال ۱۲:۲۲۶).

[۵] رواه الطبرانى وقال الهيثمى رجاله ثقات (الزوائد ۹:۱۸۹).

[۶] البداية ۸:۱۹۰.

[۷] الطبرى ۶:۳۶۰.

[۸] الطبرى ۶:۲۶۰.

[۹] البداية ۸:۱۸۹، الطبرى ۶:۲۶۱.

[۱۰] رواه الطبرانى وقال الهيثمى رجاله رجال الصحيح (الزوائد ۹:۱۹۸).

[۱۱] رواه الطبرانى وقال الهيثمى رجاله رجال الصحيح (۹:۱۹۸) البداية ۸:۱۸۹.

[۱۲] الطبری ۶:۲۶۱، البدایة ۸:۱۸۹.

[۱۳] البدایة والنهایة ۸:۱۸۹، الطبری ۱۶:۲۶۱.

بکاء و أحداث

فی دار أم سلمة

عن سلمی قالت: دخلت علی أم سلمة، وهی تبکی، فقلت: ما یبکیک؟

قالت: رأیت رسول الله صلی الله علیه وسلم فی المنام، وعلی رأسه ولحیته التراب. فقلت: ما لک یا رسول الله. قال: شهدت قتل الحسین آنفا [۱] وکان

النبی صلی الله علیه وسلم، قد أعطی أم سلمة التربة التی أتی بها جبریل علیه السلام یوم أن أخبره، بأن أمته ستقتل حسینا، وقال لها": إذا تحولت هذه التربة دما فاعلمی أن ابنی قد قتل. فجعلتها فی قارورة [۲] - وفی روایة - فأخذتها أم سلمة، فصرتها فی خمارها [۳] وممکن أن تکون فعلت هذا وذاک، لأن

الإخبار بالحدث تکرر أکثر من مرة.

[صفحه ۳۰۲]

وروی أن أم سلمة، عندما نظرت إلی التربة ووجدتها قد تحولت دما بکت، وقالت ": قد فعلوها ملأ الله قبورهم - أو - بیوتهم علیهم نارا. ووقعت مغشیا علیها [۴] وفی روایة - لعنت أهل العراق، وقالت: قتلوه قتلهم الله

عز وجل [۵] وتوفیت أم سلمة رضی الله عنها، فی نفس العام الذی قتل فیه

الحسین [۶] وکانت محبة لأهل بیت النبی صلی الله علیه وسلم. وإعطاء النبی

التربة لها فیه إشارة، أن الله تعالی أخبره بأن حیاتها، ممتدة إلی أن تسمع بهذه الأحداث. فتبین الحقیقة فی عالم خیم علیه الظلام.

[۱] رواه الترمذی (البدایة ۸:۲۱۷) والحاکم والبیهقی (الخصائص الکبری ۲:۲۱۴) أسد الغابة ۲:۲۳.

[۲] أبو نعیم (الخصائص الکبری ۲:۲۱۳.

[۳] رواه أحمد وأبو یعلی وقال الهیثمی رجال أبو یعلی رجال الصحیح (الزوائد ۹:۱۸۷).

[۴] البدایة ۸:۲۱۸.

[۵] رواه الطبرانی وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۹:۱۹۴).

[۶] البدایة ۸:۲۳۲.

فی دار عبدالله بن عباس

عن ابن عباس قال: رأیت رسول الله صلی الله علیه وسلم، نصف

النهار أشعث أغبر، معه قارورة فیها دم. فقلت: بأبی وأمی یا رسول الله، ما هذا؟ قال: هذا دم الحسین وأصحابه [۱] وهکذا أخبر النبی صلی الله علیه

وسلم، عن قتل الحسین. أخبر أثناء حیاته، وفی مماته. ولا یحدث شئ فی کون الله عبثا. إن جبریل علیه السلام، نزل وأخبر بأن الحسین سیقتل. ومعنی أنه یقتل، أن جریمة قد حدثت، ولکل جریمة عقوبة، بمعنی أن جبریل علیه السلام أخبر بجریمة، وعقوبتها. فمن دخل فی دائرة الجریمة، ضربته العقوبة. یقول النبی صلی الله علیه وسلم ": إن جبریل أخبرنی أن ابنی هذا یقتل، وأنه اشتد غضب الله علی

من یقتله [" ۲] وکان النبی یحذر ویقول ": من آذی شعرهٔ منی فقد
آذانی ومن آذانی فقد آذی الله [" ۳] ولقد تحدثنا فیما سبق أن الله لا یجعل لقاتل
مؤمن توبهٔ. لأن هذا النمط من بنی الإنسان، له ضربهٔ لا بد أن ینالها فی الدنیا،
[صفحه ۳۰۳]
ولعذاب الآخرهٔ أکبر. سئل ابن عباس عن رجل قتل مؤمنا، ثم تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدی. قال: ویحک وأنی له الهدی، سمعت نبیکم صلی الله علیه وسلم یقول: یجئ المقتول متعلقا بالقاتل یوم القیامهٔ، یقول یا رب سل هذا فیم قتلنی. والله لقد أنزلها الله عز وجل علی نبیکم (ومن یقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فیها وغضب الله علیه ولعنه وأعد له عذابا عظیما)، وما نسخها بعد أن أنزلها [۴] .
وعن مرثد قال: سئل النبی صلی الله علیه وسلم، عن القاتل والآمر، قالا: قسمت النار، سبعین جزءا فللآمر تسع وتسعون، وللقاتل جزء، وحسبه. (أی یکفیه هذا المقدار من العذاب) [۵] إنه عدل الله، الذی تحت سلطانه لا یفر
الظالمین. إن العصفور سیبحث عن قاتله یوم القیامهٔ. فما بالک بالمؤمن وقاتله. روی الطبرانی، قال رسول الله صلی الله علیه وسلم ": ما من أحد یقتل عصفورا، إلا عج یوم القیامهٔ، فقال: یا رب هذا قتلنی عبثا، فلا هو انتفع بقتلی ولا هو ترکنی أعیش فی أرضک [" ۶] .
[۱] رواه أحمد وقال الهیثمی رجاله رجال الصحیح (الزوائد ۱۹۴:۹) البدایهٔ ۲۱۷:۸.
[۲] ابن عساکر (کنز العمال ۱۲۷:۱۲).
[۳] ابن عساکر (کنز العمال ۹۶:۱۲).
[۴] رواه أحمد والنسائی وابن ماجهٔ بسند صحیح (الفتح الربانی ۴:۱۶).
[۵] رواه أحمد ورجاله رجال الصحیح (الفتح الربانی ۵:۱۶).
[۶] رواه الطبرانی (الإصابهٔ ۳۴۹:۶).

فی قصر الإمارهٔ

عندما سارت القافلهٔ الأمویهٔ، ومعها الرؤوس ومن بقی من آل الحسین،
من کربلاء إلی الکوفهٔ، کان لآل الحسین نداء، یقول قرهٔ بن قیس: نظرت إلی تلک النسوهٔ، لما مررن بحسین وأهله وولده، صحن ولطمن وجوههن. فما نسیت من الأشیاء لا أنسی قول زینب ابنهٔ فاطمهٔ، حین مرت بأخیها الحسین صریعا وهی تقول: یا محمداه، یا محمداه صلی علیک ملائکهٔ السماء، هذا حسین بالعراء مرمل مقطع الأعضاء، یا محمد وبناتک سبایا وذریتک مقتلهٔ تسفی علیها الصبا [" ۱] وبنی أمیهٔ من قبل طافوا، برأس عمرو بن الحمق، وهی فی
[صفحه ۳۰۴]
أیدیهم. أما رأس الحسین علیه السلام، فهی أول رأس رفع علی خشبهٔ [۲] .
ودخل الموکب إلی قصر الإمارهٔ. فقام عبید الله بن زیاد، ونودی الصلاهٔ جامعهٔ فاجتمع الناس فی المسجد، فصعد المنبر ابن زیاد فقال: الحمد لله الذی أظهر الحق ونصر أهله ونصر أمیر المؤمنین یزید بن معاویهٔ، وحزبه وقتل الکذاب بن الکذاب، الحسین بن علی وشیعته. فلم یفرغ ابن زیاد من مقالته، حتی وثب علیه عبد الله بن عفیف، وکان من شیعهٔ علی علیه السلام، وکانت عینه الیسری ذهبت یوم الجمل مع علی، فلما کان یوم صفین، ضرب علی رأسه ضربهٔ، وأخری علی حاجبه، فذهبت عینه الأخری، فکان لا یفارق المسجد یصلی فیه إلی اللیل، فلما سمع مقالهٔ ابن زیاد قال: یا ابن مرجانهٔ إن الکذاب ابن الکذاب، أنت وأبوک، والذی ولاک وأبوه، یا ابن مرجانهٔ أتقتلون أبناء النبیین وتتکلمون بکلام الصدیقین! فقال ابن زیاد علی به. فوثب علیه الجلاوزهٔ فأخذوه، ثم أمر بقتله، وأمر بصلبه

فی السبخة، فصلب [۳] .

وفی القصر جلس ابن زیاد للناس، وجاءت الوفود فأدخلهم. یقول حمید بن مسلم: وأذن للناس، فدخلت معهم، فإذا رأس الحسین موضوع بین یدیه، وإذا هو ینکث بقضیب بین ثنیتیه. فما رآه زید بن أرقم، لا ینجم عن نکته بالقضیب قال له: أعل بهذا القضیب، عن هاتین الثنیتین، فوالذی لا إله غیره، لقد رأیت شفتی رسول الله صلی الله علیه وسلم، علی هاتین الشفتین یقبلهما، ثم بکی زید. فقال له ابن زیاد: أبکی الله عینیک، فوالله لولا أنک شیخ قد خرفت، وذهب عقلک لضربت عنقک. فنهض فخرج. فلما خرج قال الناس: والله لقد قال زید بن أرقم قولا لو سمعه ابن زیاد لقتله. فقلت: ما قال. قالوا: مر بنا وهو یقول: ملک عبد عبدا، فاتخذهم تلدا، أنتم یا معشر العرب العبید بعد الیوم، قتلتم ابن فاطمة وأمرتم ابن مرجانة، فهو یقتل خیارکم، ویستعبد شرارکم، فرضیتم بالذل فبعدا لمن رضی

[صفحه ۳۰۵]

بالذل [۴] .

وروی أنه لما دخل، برأس الحسین، وصبیانه، وأخوته، ونسائه، علی عبید الله بن زیاد، لبست زینب بنت فاطمة أرذل ثیابها، فلما دخلت جلست، فقال ابن زیاد: من هذه؟ فلم تکلمه. فقال ذلک ثلاث، کل ذلک لا تکلمه فقال بعض إمائها هذه زینب ابنة فاطمة. فقال لها ابن زیاد: الحمد الله الذی فضحکم وقتلکم، وأکذب أحدوثتکم. فقالت: الحمد لله، الذی أکرمنا بمحمد صلی الله علیه وسلم، وطهرنا تطهیرا، لا- کما تقول أنت، إنما یفتضح الفاسق، ویکذب الفاجر. فقال: فکیف رأیت صنع الله بأهل بیتک؟ قالت: کتب علیهم القتل، فبرزوا إلی مضاجعهم، وسیجمع الله بینک وبینهم فتحاجون إلیه، وتخاصمون عنده. فغضب ابن زیاد. فقال له عمرو بن حریث: أصلح الله الأمیر، إنما هی امرأة، وهل تؤاخذ المرأة بشئ من منطقها... فقال لها ابن زیاد: قد أشفی الله نفسی من طاغیتک، والعصاة المردة من أهل بیتک. فبکت، ثم قالت: لعمری: لقد قتلت کهلی، وأبرت أهلی، وقطعت فرعی، واجتثثت أصلی، فإن یشفک هذا، فقد اشتفیت. فقال لها: هذه شجاعة قد لعمری کان أبوک شاعرا شجاعا. قالت: ما للمرأة والشجاعة إن لی عن الشجاعة لشغلا، ولکنی نفثی ما أقول. ونظر ابن زیاد إلی علی بن الحسین، فقال له: ماسمک؟ قال: أنا علی بن الحسین. فقال: أولم یقتل الله علی بن الحسین؟ فسکت. فقال له: ما لک لا تتکلم؟ قال: قد کان لی أخ، یقال له أیضا علی فقتله الناس. فقال ابن زیاد: إن الله قد قتله. قال: الله یتوفی الأنفس حین موتها، وما کان لنفس أن تموت إلا بإذن الله. فقال: أنت والله منهم، انظروا هل أدرک، والله إنی لأحسبه رجلا. فقال مری بن معاذ: نعم قد أدرک. قال: اقتله. فتعلقت به زینب عمته، وقالت: حسبک منا أما رویت من دمائنا، وهل أبقیت منا أحدا، إن قتلته

[صفحه ۳۰۶]

اقتلنی معه فترکه [۵] .

ثم نصب ابن زیاد رأس الحسین بالکوفة، فجعل یدار به فیها، ثم دعا حر بن قیس. وأمره بحمل رأس الحسین، ورؤوس أصحابه إلی یزید بن معاویة [۶] .

[۱] الطبری ۶:۲۶۲.

[۲] البدایة ۵۸:۱۹۳، الطبری ۶:۲۲۳.

[۳] الطبری ۶:۲۶۴، البدایة والنهایة ۸:۱۹۱.

[۴] رواه أبو داوود والطبرانی (البدایة والنهایة ۸:۱۹۰) الکامل ۳:۲۹۶.

[۵] الطبری ۶:۲۶۲.

[۶] الطبری ۶:۲۶۴.

فی قصر الخلافة

لقد كانت سياسة معاوية أن يكون الأمراء للشدة وهو للين [۱] وكذلك

كان ابنه، لقد مزقوا الأمة، وعندما تعرض قضاياها عليهم، تراهم يرفعون الحقائق، ويبررون المصائب، ويلقون جميع الأخطاء على جهات خارجية، أو معارضة داخلية. ويزعمون أن هؤلاء سببا فى كل مشكلة، نظرا لأنهم يحسدون بنى أمية على ما آتاهم الله من فضله. وعندما قدمت القافلة التى تحمل الرؤوس، وتأسر الأحياء، وعلم يزيد بن معاوية بذلك. روى أنه قال: لعن الله ابن سمية أما والله، لو أنى صاحبه لعفوت عنه، فرحم الله الحسين [" ۲] فالذى يقول هذا، هو

نفسه الذى قام بتعيين ابن زياد، وفقا لمشورة سرجون الرومى، من أجل التصدى لأهل الكوفة. وهو نفسه الذى أمر ابن زياد بمراقبة الحسين على جميع أبواب الكوفة. وهو نفسه الذى كشف عن وجهه الحقيقى، عندما دخل على بن الحسين، وصبيان الحسين، ونساؤه عليه، والناس ينظرون. روى أنه قال لعلى: يا على أبوك الذى قطع رحمى، وجهل حقى، ونازعنى سلطانى، فصنع الله به ما قد رأيت. فقال على: ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها. فقال يزيد لابنه خالد رد عليه. فما درى خالد ما يرد عليه، فقال يزيد لابنه قل: ما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم [۳] .

[صفحه ۳۰۷]

بل إن يزيد كشف عن أعماقه، عندما دخل رجل من أهل الشام، ونظر إلى فاطمة بنت على، فقال ليزيد، يا أمير المؤمنين هب لى هذه. وعندما قال الرجل ذلك، خافت فاطمة وأخذت بثياب أختها زينب. فقالت زينب للرجل: كذبت، والله ولؤمت، ما ذلك لك وله. فعندئذ، غضب يزيد بن معاوية وقال لها: كذبت والله إن ذلك لى، وإن شئت أفعله، لفعلت. قالت: كلا والله، ما جعل الله ذلك لك، إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا. فقال يزيد، إياى تستقبلين بهذا، إنما خرج من الدين أبوك وأخوك. فقالت: بدين الله، ودين أبى، ودين أخى، وجدى، اهتديت أنت وأبوك وجدك. فقال يزيد، كذبت يا عدوة الله. قالت: أنت أمير مسلط، تشتم ظالما، وتقهر بسلطانك [۴] .

إنها خبايا تعرف فى لحن القول. وروى عن مجاهد قال: لما جئ برأس الحسين فوضع بين يدى يزيد، تمثل بهذه الأبيات:

ليت أشياخى ببدر شهدوا++

جزع الخزرج فى وقع الأسل

فأهلوا واستهلوا فرحا++

ثم قالوا لى هنيا لا تسل

حين حكت بفناء بركها++

واستحر القتل فى عبد الأسل

قد قتلنا الضعف من أشرافكم++

وعدلنا ميل بدر فاعتدل

قال مجاهد: نافق فيها. والله ثم والله ما بقى فى جيشة، أحد إلا ذمه وعابه [۵] ، على هذا الشعر، وروى أن يزيد قال أيضا ورأس الحسين بين يديه، ينكتها بقضيب كان فى يده: إن هذا وإيانا كما قال الحصين بن الحمام:

يغلقن هاما من رجال أعزة++

علينا وهم كانوا أعق وأظلما

فقال له أبو برزة الأسلمى: ارفع قضيبك، فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلثمه [۶] وروى الطبرى أن يزيد، كان مسرورا بقتل

[صفحه ۳۰۸]

الحسین [۷] وعندما أمر بتجهیز أهل البیت، والذهاب بهم إلی المدینهٔ قالت

السیدهٔ سکینهٔ: ما رأیت رجلا کافرا بالله، خیر من یزید بن معاویهٔ [۸] وروی

عن الکلبی أنه قال: نشأت، وهم یقولون: ضحی بنو أمیهٔ یوم کربلاء بالدین [۹] وقال الیافعی وأما حکم من قتل الحسین، أو أمر بقتله، ممن استحل

ذلک فهو کافر. [۱۰] وقال التفتازانی، فی شرح العقائد النفسیهٔ: والحق أن رضا یزید بقتل الحسین، واستبشاره بذلک، وإهانته أهل بیت الرسول مما تواتر معناه، لعنهٔ الله علیه، وعلی أنصاره، وأعوانه [۱۱] وقال الذهبی: کان ناصبیا، فظا،

غلیظا، یتناول المسکر ویفعل المنکر، افتتح دولته بقتل الحسین، وختمها بوقعهٔ الحرهٔ [۱۲] وقال ابن کثیر: کان فی یزید خصال محمودهٔ، من الکرم، والحلم

الفصاحهٔ، والشعر، والشجاعهٔ، وحسن الرأی فی الملک، وکان ذا جمال حسن، وکان حسن المعاشرهٔ، وکان فیه أیضا إقبال علی الشهوات، وترک بعض الصلوات، فی بعض الأوقات، وإماتتها فی غالب الأوقات [۱۳] ، وابن کثیر فی کتاباته التاریخیهٔ، یقدم فی کثیر من الأحیان آراء، لو أراد الباحث أن یقیم علیها دلیل واحد، ما وجد هذا الدلیل فی کتب المسلمین المعتمدهٔ. وذلک یعود إلی منهج ابن کثیر الخاص به، فی رؤیته للأحداث التاریخیهٔ. فمن المعروف أن الحسین، وأهل الحرهٔ وغیرهم خرجوا من أجل الأمر بالمعروف، والنهی عن المنکر. فإذا عرضنا هذا الأمر، علی تفکیر ابن کثیر نجد أنه لا یقره. بل ویوهن خروج الذین خرجوا، بجمیع أسمائهم، فیقول: إن یزید کان إماما فاسقا، والإمام الفاسق، لا یعزل بمجرد فسقه، ولا یجوز الخروج علیه، لما فی ذلک

[صفحه ۳۰۹]

من إثارهٔ الفتنهٔ [" ۱۴] فهذه رؤیته للمسار التاریخی. بمعنی: لیس فی الإمکان.

أبدع مما کان. لقد جاء یزید، وعلیه أن یستمر. وأن یورث الخلافهٔ لولده ولولده أن یفعل من یشاء، فهذا حقه الذی کتبه الله له. ومن أراد أن ینهاه عن المنکر، فمن حق أبناء معاویهٔ، أن یؤدبونه، حتی یرجع إلی الطاعهٔ، ولزوم الجماعهٔ [۱۵] .

[۱] البدایهٔ والنهایهٔ ۱۳۶:۸.

[۲] البدایهٔ ۱۹۱:۸، الطبری ۲۶۴:۶.

[۳] رواه الطبرانی ورجاله ثقات (الزوائد ۱۹۵:۹) الطبری ۲۶۵:۶، البدایهٔ ۱۹۴:۸.

[۴] رواه الطبرانی (الزوائد ۱۹۵:۹) والبدایهٔ ۱۹۵:۸، الطبری ۲۶۵:۶.

[۵] البدایهٔ ۱۹۲:۸.

[۶] البدایهٔ ۱۹۲:۸.

[۷] الطبری ۱۹:۷.

[۸] الطبری ۲۶۷:۶.

[۹] تاریخ الخلفاء ۲۲۹:۱.

[۱۰] شذرات من ذهب:ابن العماد الحنبلی ص ۶۸:۱.

[۱۱] المصدر السابق ۶۷:۱.

[۱۲] المصدر السابق ۶۷:۱.

[۱۳] البدایهٔ ۲۳۰:۸.

[۱۴] البدایهٔ ۲۲۳:۸.

[۱۵] البدایهٔ ۲۲۴:۸.

الظهور والتشويه

تحركت قافلة أهل البيت إلى المدينة. وفى المدينة نادى المنادى: قتل
الحسين بن على. يقول عبد الملك: لم أسمع والله واعية قط، مثل واعية نساء بنى هاشم فى دورهن على الحسين. فقال عمر بن سعيد بن العاص: هذه واعية، بواعية عثمان بن عفان [۱] وبكى ابن عباس. على آل البيت، حتى فقد بصره فى
آخر عمره [۲] وروى أن رأس الحسين مكث فى خزائن السلاح حتى ولى
سليمان، فبعث فجئ به، فكفنه ودفنه فى مقابر المسلمين. فلما دخل العباسيون سألوا عن موضع الرأس، وأخذوه. وقيل غير ذلك، وليس هذا مجال بحثنا وبعد قتل الحسين، بدأ الشعر يشق طريقه وهو يحمل معالم الألم على هذه الجريمة الشنعاء، ومن هذا قالت ابنة عقيل بن أبى طالب:

ماذا تقولون إن قال النبى لكم++

ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم.

بعترتى وبأهلى بعد مفتقدى++

منهم أسارى ومنهم ضرجوا بدم [۳] .

وأنشد الحاكم أبو عبد الله النيسابورى:

جاؤوا برأسك يا ابن بنت محمد++

متزملا بدمائه تزميلا

وكأنما بك يا ابن بنت محمد++

قتلوا جهارا عامدين رسولا

[صفحه ۳۱۰]

قتلوك عطشانا ولم يتدبروا++

فى قتلك القرآن والتنزيلا

ويكبرون بأن قتلت وإنما++

قتلوا بك التكبير والتهليلا [۴] .

وفى دور أهل الإيمان بدأت أحاديث الحوض، تطفوا على الساحة، بجانب الشعر، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم ": إنى تارك فيكم ثقلين، أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء والأرض وعترتى أهل بيتى وإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض [" ۵] وقوله صلى الله عليه وسلم:

"أنا فرطكم على الحوض من ورد شرب ومن شرب لم يظمأ. وليردن على أقوام أعرفهم ويعرفوننى ثم يحال بينى وبينهم [" ۶] وهذه الأحاديث، كانت تمثل صفعة قوية للتيار الأموى، الذين قتلوا أهل البيت فإذا كانت مهمتهم سهلة فى مواجهة الشعر، فإنها لم تكن كذلك مع أحاديث الحوض، التى أصبحت، كمنشور سرى يقره صحابة النبى صلى الله عليه وسلم الأوفياء. ويشق طريقه فى الساحة التى بدأت تشعر بالندم بعد قتل الحسين، وتبحث عن مدخلا تقدم توبتها منه، إلى الله جل وعلا. ولم يجد التيار الأموى، غير عبيد الله بن زياد ليتصدى، لما استجد فى الساحة بعد قتل الحسين. فبدأ ابن زياد صده بإنكار هذه الأحاديث، ثم مواجهة الذين يروونها بكل قسوة وكل عنف. روى أنه ذكر الحوض عند ابن زياد، فأنكر ذلك. فبلغ ذلك أنسا فقال: ما أنكرتم من الحوض؟ قالوا: سمعت النبى يذكره؟ قال: نعم. ولقد أدركت عجائز بالمدينة، لا يصلين صلاة، إلا سألن الله تعالى أن يوردهن حوض محمد صلى الله عليه

[صفحه ۳۱۱]

وسلم [۷] وفی روایة قال ابن زیاد: ولمحمد حوض؟ قالوا: هذا أنس بن

مالک، یحدث أن له حوضا. فجاء أنس فقال: سمعت رسول الله صلی الله علیه وسلم یقول ": إن لی حوضا وأنا فرطکم علیه [" ۸] .

وعن زید بن أرقم قال: بعث إلی، عبید الله بن زیاد فأتیته. فقال: ما أحادیث تبلغنا وترونها عن رسول الله لا نسمعها فی کتاب الله، وتحدث أن له حوضا. قال زید: لقد حدثنا عنه رسول الله صلی الله علیه وسلم، وأوعدناه. فقال ابن زیاد: کذلک ولکنک شیخ قد خرفت. قال زید: إنی قد سمعته أذنای، ووعاه قلبی من رسول الله صلی الله علیه وسلم - وفی روایة - سمعته أول خطبة النبی فی غدیر خم، فی الوصیة بکتاب الله وأهل بیته [۹] وفی

روایة قال ابن زیاد: أرأیتم الحوض الذی تذکرون، ما أراه شیئا. فقال له ناس من أصحابه: عندک رهط من أصحاب رسول الله صلی الله علیه وسلم، فأرسل إلیهم فسلهم. فأرسل إلی زید بن أرقم، فسأله عن الحوض. فحدثه حدیثا موثقا. فقال: أنت سمعت هذا من رسول الله "... الحدیث [۱۰] .

وعن أبی سبرة الهذلی قال: کان عبید الله بن زیاد، یکذب بالحوض، بعدما سأل عنه أبا برزة والبراء بن عازب، وعائذ بن عمرو، ورجلا آخر [۱۱] .

وکان تکذیب ابن زیاد بالحوض تکذیبا له ثقافته الواسعة، علی أرض اتخذت من قبل ثقافة سب أمیر المؤمنین علی عنوانا لها، وتحت خیام هذه الثقافات، نشأت أجیال یقرؤن القرآن، لا یجاوز تراقیهم، وهذه الأجیال ما خرجت إلا من تحت

[صفحه ۳۱۲]

خیام بنی أمیة. وثقافة إنکار الحوض، شقها ابن زیاد بالسکین، وبالسیف وجلد علیها الظهور، ومنع العطایا عن کل من قال إن للنبی حوض. لأنه یعلم أن إثبات الحوض، سیترتب علیه أمور تدینه، وتدین ملک بنی أمیة الطویل العریض، وإذا کان ابن زیاد قد جمع من حوله، أتباع یقولون بقوله. فإن طائفة الحق، کان یدوی فی أسماعهم قول النبی صلی الله علیه وسلم ": اسمعوا " قالوا: سمعنا. فقال": اسمعوا " قالوا: سمعنا، فقال ": إنه سیکون علیکم أمراء فلا تعینوهم علی ظلمهم. فمن صدقهم بکذبهم فلن یرد علی الحوض [" ۱۲] .

وکان فی ذاکرتهم أیضا قوله صلی الله علیه وسلم ": أنا فرطکم علی الحوض، ولأنازعن أقواما، ثم لأغلبن علیهم فأقول: یا رب أصحابی أصحابی. فیقول: إنک لا تدری ما أحدثوا بعدک [" ۱۳] وقوله ": إنی تارک فیکم الثقلین

أحدهما أکبر من الآخر، کتاب الله حبل ممدود من السماء إلی الأرض، وعترتی أهل بیتی، وإنهم لن یتفرقا حتی یردا علی الحوض" [۱۴] .

لقد کان فی ذاکرة طائفة الحق، الذین لا یضرهم من خذلهم أو من ناوأهم أو من عاداهم، الکثیر من أقوال النبی صلی الله علیه آله وسلم. وکانوا یعلمون أن فی الحبل الممدود من السماء إلی الأرض، عنوان أصیل للأخذ بأسباب المعرفة. لهذا هرولوا إلی دائرة الطهر، فی وسط هذا اللیل الذی لا نجوم فیه. ولقد صدق فی هؤلاء قول النبی صلی الله علیه وسلم لحذیفة ": یا حذیفة، إن فی کل طائفة من أمتی قوما شعثا غبرا. إیای یریدون، وإیای یتبعون، ویقیمون کتاب الله أولئک منی وأنا منهم وإن لم یرونی [" ۱۵] .

[صفحه ۳۱۳]

[۱] الطبری ۸:۲۶۸.

[۲] مروج الذهب ۳:۱۲۱.

[۳] رواه الطبرانی (الزوائد ۹:۲۰۰) الطبری ۶:۲۶۸، البدایة ۸:۱۹۸.

[۴] البدایة ۸:۱۹۸.

[۵] رواه أحمد والترمذی وحسنه والطبرانی وقال المناوی رجاله موثقون " الفتح الربانی ۱:۱۸۶. "

[۶] البخاری ک الدعوات ب الصراط جسر جهنم (الصحیح ۱۴۱:۴) مسلم (الصحیح ۵۳:۱۵).

[۷] رواه ابن أبی عاصم وقال الألبانی إسناده صحیح علی شرط مسلم وأخرجه أحمد (کتاب السنة ۳۲۱:۲.

[۸] قال الألبانی أخرجه الآجری فی الشریعة وإسناده صحیح رجاله کلهم ثقات (کتاب السنة ۳۲۲:۲).

[۹] رواه ابن أبی عاصم وقال الألبانی إسناده صحیح علی شرط مسلم (کتاب السنة ۳۲۲:۲).

[۱۰] رواه ابن أبی عاصم وقال الألبانی رجاله ثقات رجال الشیخین (کتاب السنة ۳۲۲:۲).

[۱۱] رواه ابن أبی عاصم وقال الألبانی إسناده ثقات (کتاب السنة ۳۲۳:۲).

[۱۲] رواه أحمد وابن أبی عاصم وابن حبان فی صحیحه (الفتح الربانی ۳۰:۲۳) (کتاب السنة ۳۵۲:۲).

[۱۳] رواه البخاری ک الدعوات ب الصراط جسر جهنم (الصحیح ۱۴۱:۴) ومسلم (الصحیح ۵۹:۱۵).

[۱۴] رواه أحمد والترمذی وحسنه والطبرانی وقال المناوی رجاله موثقون (الفتح الربانی ۱۸۶:۱).

[۱۵] رواه أبو نعیم (کنز العمال ۱۸۴:۱۲).

نظرات علی کربلاء

عندما خرج الحسین کان خروجه، من تحت مظلة المثل الأعلی المرتفع.

وکان خصومه قد خرجوا من کهف المثل الأعلی المنخفض. ولم یکن خروج الحسین، نتیجة لوجود المجتمع الحر، وإنما کان الخروج من أجل خلق المجتمع الحر، لأن المجتمع الحر هو الذی یقیم الحضارة الحق. والحضارة لا تقاس بسجونها وبریق ذهبها، وإنما تقاس بعدلها. وعندما توجه الحسین إلی الکوفة، وعلم بمقتل رسله هناک، وبأن الذین أرسلوا إلیه قد خذلوه، لم یتراجع وسار فی اتجاه الطریق، الذی أخبر النبی صلی الله علیه وسلم بأن مقتله فیه. وذلک بعد أن حدد مصدر البلاء، الذی أکره الناس علی عدم إقامة الحق والعدل. لقد توجه الحسین إلی کربلاء، لیس من أجل مقاومة الجماهیر، وإنما من أجل مواجهة السلطة التی اتخذت مال الله دولا، ودین الله دغلا، وعباد الله خولا، وأصبحت تفرخ الذین یقرؤون القرآن، لا یجاوز تراقیهم. أی تفرخ خوارج جدد، ولکن تحت مظلة بنی أمیة. لقد اتجه الحسین نحو کربلاء، علی امتداد الطریق کان یعلم أنه یسیر، بین حراب الذین یکرهون، ویخافون أن یفقدوا ما یحبون. ولکنه واصل المسیر، وحوله نداء خالد من الرسول الأعظم یقول فیه ": من حضره فلینصره، " وفیه أیضا ": أنا حرب لمن حاربتم، "... کان الحسین فی خطاه، یقیم الحجة علی کل صامت، أو متراجع، أو متردد اعتلالا بفساد المناخ، وسطوة القبائل، وتقالیدها وقوانینها، وتمادی الارهاب، وقطع الرؤوس وقتل الأطفال والنساء، کما فعل بسر بن أرطاة وغیره وعلی أرض کربلاء، فاض الدم ألقانی، الذی أراد صاحبه، أن یخرج الأمة من خیام القبائل حیث الحقد والحسد والإرهاب، الذی رفع بنو أمیة أعلامه زمنا طویلا. وعلی مقربة من الوادی الذی یفیض بالدم ألقانی، تربع قاضی، علی کرسی من الصلب، والنحاس الأصفر، وکأنه یصرخ فی أتباعه: اسلکوا هذا السبیل، فلن تجدوا أنفسکم إلا فیه، ومن أبی فإن له من خنجری معولا ولأمزقن به أحشاء الأرض.

[صفحه ۳۱۴]

لقد کان القاضی یمسک بین أسنانه بقطعة من ذهب، وکأنها جمرة ملتهبة. ویتحدث عن العدل، ولم یکن یعلم أن من العدل أن یقتص الله من الظالم. ومن العدل، أن دم القتیل لا تضیع سدی.. إن ساعة الانتقام، ومکانه، وکیفیته، هی فی علم الله تعالی، الذی أخبر عن مقتل الحسین، وساعته، ومکانه، وکیفیته. لقد رکب أتباع بنی أمیة بسفینة التی ربانها معاویة ویزید ومروان. ولن یری للسفینة شراع، إذا ما قلب البحر الهائج سطحه، وقد عبثت به الریاح والمد کیما تستمر حرکة الأمواج. وعندئذ سیعلم رکاب السفینة وأن من العبث أن ینشد المرء العدالة علی ظهرها. وسیعلمون، أن معنی نزول جبریل علیه السلام بخبر مقتل الحسین، یعنی فی مقدمته الأولی، أن هذه الجریمة علیها من الله عقوبة. وعلی الجمیع أن یأخذوا بأسباب السلامة، حتی لا یدخلوا تحت العقوبة. وأسباب السلامة، أصل

أصيل فى دائرة الاختيار. لكنهم صادروا السلامة وأسبابها، وصرخ فيهم صارخهم: لا- مناص من موت الحسين، إذا أردنا نحن أن نعيش. وبين الأمواج، سيعلمون أن السماء عادلة، وأن القتل لا يمكن إخفاؤه وسيخرج الزمان فعلتهم الغادرة إلى الضوء، لترى الأجيال أن الجراح ما زالت تتفجر منها الدماء. دماء تنادى بالحرية الحقيقية، تحت مظلة العبادة الحق. وتعلم الأجيال أن خروج الحسين، وضع على الجبابرة، والعتاة، وقواتهم الضاربة، لباس الذل والعار. ويا له من عار تخجل منه أى قوة ضاربة على امتداد الزمان.

الاستعباد

بعد قتل الحسين، فى إمكان كل رسام أن يرسم لك دمعة، أو جرحا، أو
آهة. فى إمكانه أن يرسم لك شجرة كهذه، أو يرسم لك شابا، اخترقت جسده سيوف المجرمين من كل جهة، وقد علقوه على هذه الشجرة، ومن حوله الغيوم تتلبد، والقمر معتما. يستطيع الرسام، أن يقوم بذلك، لتكرار الجرائم بعد الحسين. فلم يكن يمر يوما، إلا وترى فيه رجلا مصلوبا، أو رأس معلقة تتطوح
[صفحه ۳۱۵]
بعد أن هزت الرياح حبلها، ويستطيع الرسام أن يفهم ذلك، لذهاب الإنصاف من ساحة بنى أمية، حتى أنه لا يستطاع أن تشترى أوقية من العدالة داخل خيامهم بعد أن زرع بنو أمية شجرة، وتعهدوها برعايتهم، لتكون مشنقة لكل من طعن فى عدالتهم. ونحن هنا سنسلط الضوء على الأحداث التى تثبت ذلك.

يوم الحرة أو يوم الأنصار

حدر النبى صلى الله عليه وسلم من الكيد لأهل المدينة، أو من فعل
أى عمل يؤدى إلى خوفهم، فقال ": لا يكيد أهل المدينة أحد. إلا انماع كما ينماع الملح فى الماء [" ۱] وقال ": لا يريد أحد المدينة بسوء إلا أذابه الله فى
النار ذوب الرصاص. [۲] وقال ": من أخاف أهل المدينة ظلما، أخافه الله وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا [" ۳] وبعد هذا التحذير أخبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم، أن الحرة
سيقتل بها خيار الناس من أصحابه الذين ساروا على هديه. فماذا حدث لأهل المدينة يوم الحرة؟ روى أن معاوية حين حضره الموت قال ليزيد: قد وطأت لك البلاد، وفرشت لك الناس، ولست أخاف عليكم إلا أهل الحجاز، فإن رابك منهم ريب، فوجه إليهم مسلم بن عقبة. فإنى قد جربته مرة، فلم أجد له مثلا لطاعته [۴] .
فمعاوية أوصى، وهو على فراش الموت بالكيد، ويضرب أهل المدينة إذا
[صفحه ۳۱۶]
هددوا سلطان ابنه يزيد. وعلى هذه الوصية سار يزيد. يقول المسعودى: كان يزيد صاحب طرب، وجوارح، وكلاب، وقرود، وفهود، ومنادمة على الشراب، وجلس ذات يوم على شرابه، وعن يمينه ابن زياد، وذلك بعد مقتل الحسين فأقبل على ساقيه فقال:
اسقنى شربة تروى مشاشى++
ثم مل فاسق مثلها ابن زياد
صاحب السر والأمانة عندى++
ولتسديد مغنمى وجهادى
ثم أمر المغنيين فغنوا، وغلب على أصحاب يزيد وعماله، ما كان يفعله من الفسوق، وفى أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة، واستعملت

الملاهی، وأظهر الناس شرب الشراب، وکان له قرد یکنی، بأبی قیس یحضره مجلس منادمته، ویطرح له متکئا [۵] وقال المسعودی: ولما شمل الناس جور یزید وعماله،

وعمهم ظلمه، وما ظهر من فسقه، ومن قتله ابن بنت رسول الله صلی الله علیه وسلم وأنصاره، وما أظهر من شرب الخمر، سیره سیرة فرعون، بل کان فرعون أعدل منه فی رعیته، وأنصف منه لخاصته وعامته، أخرج أهل المدینة عامله علیهم، وهو: عثمان بن محمد بن أبی سفیان [۶] .

وروی أن عبد الله بن حنظلة الغسیل قال: والله ما خرجنا علی یزید، حتی خفنا. أن نرمی بالحجارة من السماء، إنه رجل ینکح أمهات الأولاد، والبنات، والأخوات، ویشرب الخمر، ویدع الصلاة [۷] .

وبدأ یزید فی تنفیذ وصیة والده معاویة، وأرسل إلی مسلم بن عقبة، ووضعه علی رأس الجیش وقال له: إذا قدمت إلی المدینة، فمن عاقک عن دخولها أو نصب لک حربا، فالسیف السیف، ولا تبقی علیهم، وانتهبها علیهم ثلاثا، واجهز علی جریحهم، واقتل مدبرهم. وإن لم یعرضوا لک، فامض إلی مکة، فقاتل ابن الزبیر، فأرجو أن یظفرک الله

[صفحه ۳۱۷]

به [۸] وسار مسلم بن عقبة إلی المدینة، وکان أهلها قد حفروا خندق رسول

الله صلی الله علیه وآله وسلم، الذی کان حفره یوم الأحزاب، ووقف شاعر المدینة مخاطبا یزید فقال:

أن بالخندق المکلل بالمجد++

لضربا بیدی عن النشوات

لست منا ولیس خالک منا++

یا مضیع الصلوات للشهوات

فإذا ما قتلتنا فتنضر++

واشرب الخمر واترک الجمعات [۹] .

وتقدم مسلم بن عقبة، واجتاح أهل المدینة، وکانت وقعة عظیمة. قتل فیها خلق کثیر من الناس، من بنی هاشم، وسائر قریش، والأنصار، وغیرهم من سائر الناس [۱۰] وأباح مسلم بن عقبة المدینة ثلاثة أیام... وانتهبت أموالا کثیرة

منها، ووقع شر عظیم، وفساد عریض، علی ما ذکره غیر واحد [۱۱] وذکر ابن کثیر أن ابن عقبة قتل ألف بکر [۱۲] ، وقتل سبعمائة رجل من حملة القرآن [۱۳] .

وقال المسعودی: قتل بضع وتسعون رجلا، من سائر قریش ومثلهم من الأنصار، وأربعة آلاف من سائر الناس، ممن أدرکه الاحصاء دون من لم یعرف [۱۴] وقال

صاحب کتاب المحن: کان مسلم بن عقبة یقول: من جاء برأس فله کذا وکذا، ومن جاء بأسیر فله کذا وکذا، وجعل یغری قوما لا دین لهم، فقتلوا ما لا یحصی ولا یعد [۱۵] ، وقتل یوم الحرة، من أصحاب النبی صلی الله علیه وسلم ثمانون، ولم یبق بعد ذلک بدری [۱۶] وروی ابن کثیر أن ألف امرأة من أهل

[صفحه ۳۱۸]

المدینة، ولدت بعد وقعة الحرة، من غیر زوج [۱۷] ، وکان الناس یلبسون المصبوغ، من الثیاب قبل الحرة. فلما قتل الناس بالحرة، استحیوا أن یفعلوا ذلک [۱۸] .

وهرب یوم الحرة إلی کهوف الجبال، العدید من الصحابة، منهم جابر بن عبد الله وأبو سعید الخدری [۱۹] وأنشد شاعر الأنصار فقال:

فإن تقتلونا یوم حرة وأقم++

فنحن على الإسلام أول من قتل

ونحن تركناكم ببدر أذلة++

وأبنا بأسياف لنا منكم تفل [۲۰] .

وروى أن مسلم بن عقبة، أتى بعلى بن الحسين، فتبرأ منه ومن آبائه ثم أقعده وقال له: سلنى حوائجك، فلم يسأله فى أحد ممن قدم إلى السيف إلا شفعه فيه، ثم انصرف عنه. فقيل لعلى: رأيناك تحرك شفتيك، فما الذى قلت؟ قال: قلت: اللهم رب السماوات السبع وما أظللن، والأرضين السبع وما أقللن، رب العرش العظيم، رب محمد وآله الطاهرين، أعوذ بك من شره، وأدرأ بك من نحره، أسألك أن تؤتينى خبره، وتكفينى شره. وقيل لمسلم بن عقبة: رأيناك تسب هذا الغلام وسلفه، فلما أتى رفعت منزلته. فقال: ما كان الرأى منى، لقد ملئ قلبى منه رعبا [۲۱] .

ولم تكن الكارثة فى قتل أهل المدينة فقط، وإنما كانت الكارثة أيضا فى أن الناس بايعوا يزيد على أنهم عبيد له [۲۲] روى الطبرى أن مسلم بن عقبة أتى

بقرشيان، ومعهم ناس من أهل المدينة، فقال لهم: بايعوا فقال القرشيان: نبايعك على كتاب الله وسنة نبيه. فقال: لا والله لا أقيلكم هذا أبدا، فقدمهما

[صفحه ۳۱۹]

فضرب أعناقهما [۲۳] وروى أن ابن عقبة قال لأهل المدينة: أتبايعون ليزيد أمير

المؤمنين، ولمن استخلف بعده على أن دماءكم، وأموالكم، وأنفسكم، خول له يقضى ما شاء فيها؟ فقال له يزيد بن عبد الله بن زمعة: إنما نحن نفر من المسلمين لنا ما لهم وعلينا ما عليهم. فقال مسلم: والله لأقتلنك، والله لا تشرب البارد أبدا فأمر به فضربت عنقه [۲۴] .

وهكذا اكتملت الدائرة، باتخاذ بنى أمية عبيد الله خولا، بعد أن اتخذوا دين الله دخلا، ومال الله دولا، ولم يكن هذا بعد وفاة النبى صلى الله عليه وآله وسلم بألف عام. لا. لأن هذه الأحداث جرت عام ۶۳ ه، ورواها أصحاب التواريخ والتراجم والسير، وأجمعوا على أن يزيد أباح المدينة ونهب الأموال، وهتك الأعراض، وقتل النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق، وبايعه الناس، على أنهم عبيد له!! وفى إجمالى أحداث يوم الحرة يقول ابن حزم ": قتل يزيد بجيوشه، بقايا المهاجرين، والأنصار، يوم الحرة، وهى أكبر مصائب الإسلام وخرومه. لأن أفاضل المسلمين، وبقية الصحابة، وخيار المسلمين من جلة التابعين، قتلوا جهرا، ظلما فى الحرب، وصبرا. وجالت الخيل فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وراثت، وبالت فى الروضة بين القبر والمنبر، ولم تصل جماعة فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم... وأكره الناس على أن يبايعوا، يزيد بن معاوية، على أنهم عبيد له، إن شاء باع وإن شاء أعتق، وذكر له بعضهم البيعة على حكم القرآن وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأمر بقتله، فضرب عنقه صبرا. وهتك مسرف [۲۵] ، أو مجرم الإسلام هتكا، وأنهب المدينة ثلاثا، واستخف بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومدت الأيادى إليهم، انتهبت دورهم. ثم انتقل الجيش بعد ذلك، إلى مكة شرفها الله تعالى، فحوصرت، ورمى البيت بحجارة

[صفحه ۳۲۰]

المنجنيق [۲۶] .

مما سبق، يمكن القول إن عدم مناصرة الحسين، فتح أبواب، للابتلاء، والعقاب وأن الحسين الذى رفض يزيد، كان أبعد نظرا من الذين جمعوا حريمهم وأولادهم، وأمروهم بعدم الخروج على يزيد، لأن فى ذلك شق عصا الجماعة كما قالوا. لقد كان الحسين، أعلم بيزيد وبخطه منهم، لأنه كان يتحرك بعلم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. أما الكثرة، فكانت حركتهم غير مضبوطة، لأن زيت حركتهم اختلطت به شوائب كثيرة. لقد رفع يزيد الحراب فى وجه الحسين، ثم قام بتوسيع الدائرة بعد ذلك، فرفعها ضد الرأى العام الذى يسير فى خط، معاكس للسلطة. وعندما قيل للحسين أن يذهب إلى يزيد ويبايعه. أقسم الحسين أنهم لن يتركوه. فهم لا

یریدون البیعة، وإنما یریدون رأسه، ویوم الحرة علمنا أن البعض طلب البیعة على حکم القرآن وسنة رسول الله، فکان جزاؤهم أن ضربت أعناقهم صبرا. وبایع الناس على أنهم عبید لیزید، الذی کان عمره فی هذا الوقت، نیف وثلاثون سنة، إن شاء باع وإن شاء أعتق. وإذا کان یزید قد أخاف الحسین، وأهله، یوم کربلاء، فلقد قام بتوسیع الدائرة یوم الحرة، فأخاف رسول الله صلى الله علیه وسلم. روى عن محمد وعبد الرحمن، ابن جابر بن عبد الله قالا: خرجنا مع أبینا یوم الحرة، وقد کف بصره، فقال: تعس من أخاف رسول الله صلى الله علیه وسلم، فقلنا: وهل یخیف أحد رسول الله؟ قال: سمعت النبی صلى الله علیه وآله وسلم یقول: من أخاف أهل هذا الحی من الأنصار، فقد أخاف ما بین هذین، ووضع یده على جنبیه [۲۷] .

ثم قام یزید، بتوسیع الدائرة، واقتحم الباب الأخیر الذی یدخل من

[صفحه ۳۲۱]

اقتحمه، أو کاد له، أو رماه، فی دائرة الذین یؤذون الله. قال تعالى ": إن الذین یؤذون الله ورسوله لعنهم الله فی الدنیا والآخرة وأعد لهم عذابا مهینا [" ۲۸] فیزید

سیر الجیوش نحو مکة، ورمى جنوده بیت الله بالحجارة. وقبل ذلک، کانوا قد أخافوا رسول الله صلى الله علیه وسلم یوم الحرة. وقبل ذلک آذوه فی قتل الحسین، وهو من عترة رسول الله، من أصحاب الکساء والمباهلة، وابن فاطمة ریحانة رسول الله، التی یقول فیها النبی صلى الله علیه وسلم ": إنما فاطمة بضعة منی یؤذینی من آذاها [" ۲۹] .

إن یزید دخل إلى جمیع الدوائر بعد قتله للحسین، فآذى الخط الذی یسوق الناس إلى الله، ووجه ضربات إلى الثقل، الذی لا ینفصل عن القرآن حتى یردا الحوض، ومن البدیهی أن أحدا لن یستطیع أن یؤذی الله سبحانه ولکن صورة الأذى هنا، هی عرقلة الطریق، وعدم احترام المقدسات التی فیها نصوص من الله ورسوله. فأی أذى یصیب الخط الرسالی، المادی أو المعنوی، هو فی الحقیقة، موجه إلى المشرع. ویزید أعلن، یوم أن نصبه والده، ولیا للعهد. بأنه سیسیر فی الناس بسیرة عمر بن الخطاب، وعمر رضی الله عنه کان له مفهومه الخاص، فی الکعبة والحجر، ولکنه کان یعظم أمرهما. فعن الحسن قال: ذکر عمر بن الخطاب الکعبة فقال: والله ما هی إلا حجارة نصبها الله قبلة لأحیائنا، وتوجه إلیها موتانا [۳۰] ولکی لا یفتتن الناس بالکعبة، وفی نفس الوقت لکی یحافظ علیها

عمر. روى البخاری ": لم یکن على عهد النبی صلى الله علیه وسلم حول البیت حائط، فکانوا یصلون حول البیت، حتى کان عمر، فبنى حوله حائطا جدره قصیر، فبناه ابن الزبیر [" ۳۱] وروى البخاری أن عمر بن الخطاب قال

[صفحه ۳۲۲]

للرکن ": أما والله إنی لأعلم أنک حجر، لا تضر، ولا تنفع، ولولا أنی رأیت النبی صلى الله علیه وسلم استلمک، ما استلمتک. فاستلمه ["۳۲] .

فأین یزید من سیرة عمر؟ وقد أخذ على عاتقه أن یقوم فی الناس بها. إن یزید تعامل مع المقدسات. على أساس أنها حجارة، ولم ینظر فی أعماق رؤیة عمر لهذه المقدسات. بل إنه لم یهتم بما روى عن رسول الله صلى الله علیه وسلم عن هذه المقدسات. فعن ابن عباس قال: قال النبی صلى الله علیه وسلم فی الحجر ": والله لیبعثنه الله یوم القیامة له عینان یبصر بهما ولسان ینطق به یشهد على من استلمه بحق [" ۳۳] وروى الطبرانی أن النبی صلى الله علیه وسلم قال

فی الکعبة ": لا یزال الناس بخیر ما عظموا هذه الحرمة - یعنی الکعبة [۳۴] .

وقال ": إذا رأیتم قریشا قد هدموا البیت ثم بنوه، فزوقوه، فإن استطعت أن تموت فمت [" ۳۵] .

ولقد ضرب یزید المعول الأول، فی الکعبة، ثم قام ابن الزبیر بعملیة الهدم، والتعمیر. فجاء إلیه الحجاج بن یوسف حامل سیف عبد الملک بن مروان، فقام بهدم البیت على رأس ابن الزبیر. وبعد ذلک، قام بعملیات الترمیم، والتعمیر، والتزویق. ولیس معنى قوله صلى الله علیه وسلم ": فإن استطعت أن تموت فمت " أن یسارع الناس إلى الانتحار، بأی طریقة من الطرق، وإنما المقصود أن تموت فی

سبیل الله تحت رایـة مبصـرة. لقـد تعاملوا مع عترة النبی، التعامل الذی لا یلیق بهم. ثم تعاملوا مع المقدسات، من منظور حمایة السـلطة من الخارجین عنها، قد خلت خیولهم المسجد النبوی، وهدموا البیت العتیق، وفی جمیع الحالات لم یصب ابن

[صفحه ۳۲۳]

الزبیر، وغیره فی الاحتماء بالبیت، من أجل الملک، فعلی امتداد التاریخ، لم نسـمع بواحد من أهل البیت الأطهار، قد احتمی بالمساجد. وإنما کانت حرکتهم مضـبوطة، لأنها حرکـة فی جمیع الحالات لا علاقة لها بالملک، وإنما بإقامة الحجة. وهل یسـعی قتیل یعلم مکان قتله من أجل الملک؟

[۱] قال ابن کثیر رواه البخاری (البدایة ۲۲۳:۸) البخاری (الصحیح ۳۲۲:۱) ک الحجج ب إثم من کاد للمدینة.

[۲] قال ابن کثیر رواه مسلم (البدایة ۲۲۳:۸) مسلم (الصحیح ۱۲۱:۴).

[۳] قال ابن کثیر رواه أحمد (البدایة ۲۲۳:۸)، (کنز العمال ۲۳۸:۱۲).

[۴] رواه الطبرانی ورجاله ثقات (الزوائد ۲۵۰:۷) وابن کثیر (البدایة ۲۳۹:۸) والطبری ۱۷۹:۶، فتح الباری ۷۱:۱۳، الکامل ۳۱۱:۳.

[۵] مروج الذهب ۸۲:۳.

[۶] مروج الذهب ۸۳:۳، الکامل ۳۱۰:۳.

[۷] تاریخ الخلفاء ۱۹۵:۱.

[۸] التنبیه والإشراف:المسعودی ۲۸۰:۱، کتاب المحن ۱۴۹:۱، الکامل ۳۱۱:۳.

[۹] التنبیه والإشراف:المسعودی ۲۸۰:۱.

[۱۰] مروج الذهب ۸۴:۳.

[۱۱] البدایة والنهایة ۲۳۸:۸.

[۱۲] البدایة والنهایة ۲۶۵:۸.

[۱۳] البدایة والنهایة ۲۶۶:۸.

[۱۴] مروج الذهب ۸۵:۳.

[۱۵] کتاب المحن ۱۵۱:۱.

[۱۶] کتاب المحن ۱۵۸:۱.

[۱۷] البدایة ۲۳۹:۸، الخصائص الکبری ۲۴۰:۳.

[۱۸] کتاب المحن ۱۵۹:۱.

[۱۹] البدایة ۲۳۹:۸، الطبری ۱۱:۷.

[۲۰] مروج الذهب ۸۵:۳، شذرات الذهب:ابن المعاد ۷۱:۱.

[۲۱] مروج الذهب ۸۵:۳.

[۲۲] فتح الباری ۷۰:۱۳، مروج الذهب ۸۵:۳، کتاب المحن ۱۵۵:۱، والطبری ۱۳:۷.

[۲۳] الطبری ۱۱:۷.

[۲۴] کتاب المحن ۱۵۵:۱.

[۲۵] إشارة إلی ابن عقبة.

[۲۶] رسائل ابن حزم ۱۴۰:۲.

[۲۷] قال ابن کثیر رواه الدارقطنی (البدایة ۲۲۳:۸).

[۲۸] سورة الأحزاب الآیة ۵۷.

[۲۹] رواه مسلم (الصحیح ۳:۱۶).

[۳۰] المروزی فی الجنائز (کنز العمال ۱۰۰:۱۴).

[۳۱] البخاری (کنز العمال ۱۰۰:۱۴).

[۳۲] قال فی تحفة الأحوذی رواه البخاری. ورواه أحمد وأبو عوانة (کنز ۱۷۵:۵).

[۳۳] رواه الترمذی وصححه ورواه ابن ماجة والدارمی، وابن خزیمة فی صحیحه (تحفة الأحوذی ۳۰۵:۴).

[۳۴] ذکره ابن حجر فی ترجمة عامر بن ربیعة (الإصابة ۸:۴) وابن ماجة (کنز ۱۹۸:۱۴).

[۳۵] رواه ابن أبی شیبة (کنز العمال ۲۵۱:۱۱).

الوحل

لقد بدأ یزید شق الطریق إلی مکة التی کان ابن الزبیر فیها وفی هذا

الحصار، احترقت الکعبة، واحترق فیها قرنا الکبش، الذی فدی به إسماعیل بن إبراهیم. ودام الحصار إلی أن مات یزید [۱] وقال المسعودی فی حرق البیت:

نصب أهل الشام المجانیق، والعرادات [۲] ، علی مکة والمسجد من الجبال والفجاج... فتواردت أحجار المجانیق، والعرادات، علی البیت ورمی مع الأحجار، بالنار، والنفط، ومشاقات الکتان، وغیر ذلک من المحرقات وانهدمت الکعبة واحترقت البنیة [۳] .

وبعد وفاة یزید بن معاویة، جلس علی العرش معاویة بن یزید بن معاویة. فکانت أیامه أربعین یوما، إلی أن مات. ولما حضرته الوفاة، اجتمعت إلیه بنو أمیة فقالوا له: أعهد إلی من رأیت من أهل بیتک. فقال: والله ما ذقت حلاوة خلافتکم، فکیف أتقلد وزرها، وتتعجلون أنتم حلاوتها، وأتعجل مرارتها، اللهم إن برئ منها، متخل عنها. اللهم إنی لا أجد نفرا کأهل الشوری، فأجعلها إلیهم، ینصبون لها من یرونه أهلا لها [۴] .

وقد اختلفوا فی سبب وفاته، فمنهم من رأی أنه سقی شربة، ومنهم من رأی أنه مات حتف أنفه، ومنهم من رأی أنه طعن. وقبض وهو ابن

[صفحه ۳۲۴]

اثنین وعشرین سنة [۵] وبعد معاویة بن یزید، بدأ نجم مروان بن الحکم طرید

رسول الله صلی الله علیه وسلم فی الظهور. ومروان سبب من الأسباب الرئیسیة فی قتل عثمان، وهو أیضا قاتل طلحة یوم الجمل، وکان یعلم أن الخلافة، ستکون له فی یوم من الأیام، وعلی هذا الأساس کان یتصرف، ویفسح الطریق لنفسه. کما کان معاویة یصلح الطریق لنفسه بعد أن ألقی إلیه کعب الأحبار، بما کان یتمناه. ومروان هو إنتاج الفرع الثانی من بنی أمیة، أما معاویة فکان إنتاج الفرع الأول. والنبی صلی الله علیه وسلم حذر من الفرعین. فقال ": إذا بلغ بنو أمیة أربعین رجلا... وفی روایة، ثلاثین رجلا - اتخذوا مال الله دولا ودین الله دخلا، وعباد الله خولا [" ۶] فهذا تحذیر من الفرع الأول. وقال صلی الله علیه

وآله وسلم ": إذا بلغ بنو الحکم ثلاثین رجلا، اتخذوا مال الله دولا ودین الله دخلا، وعباد الله خولا [" ۷] وهذا تحذیر من الفرع الثانی. ولقد أخذ النبی

صلی الله علیه وسلم بالأسباب، فوضع أبا سفیان، عمید الفرع الأول، فی دائرة المؤلفة قلوبهم، ووضع الحکم بن العاص، عمید الفرع الثانی، علی طریق النفی فنفاه، لیکون فی إبعاده علامة وإرشاده ولکن الذی حدث، أن سهم المؤلفة بعد النبی لم یکن لوجود. فظهر أبو سفیان ولمع ولده. ثم جاء الحکم بن العاص من منفاه، فظهر الحکم " ولمع ولده، ومروان أخبر النبی بأنه أبو الجبابرة الأربعة [۸]

وروى أن على بن أبى طالب قال لمروان ": ويل لأمتك
منك، ومن بنيك، إذا شابت ذراعاك [" ۹] ، ومروان الذى كان يمهد الطريق
[صفحه ۳۲۵]
لنفسه، عليه من رسول الله صلى الله عليه وسلم علامة. فلقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم لعن الحكم وما ولد [۱۰] وروى أن الحسن بن على قال
لمروان: لقد لعنك الله على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم وأنت فى صلب أبيك [۱۱] .
وكانت ولاية مروان، تسعة أشهر وأياما، دق فيها أوتادا لا يستهان بها. وروى أنه أول من أخذ البيعة بالسيف، كرها بغير رضا من الناس... وقد كان غيره ممن سلف، يأخذها بعدد وأعوان. إلا مروان [۱۲] وذكر ابن عبد البر
والذهبى وغيرهما مخازى مروان بأنه أول من شق عصا المسلمين بلا شبهة [۱۳] .
وفى عهد مروان، خرج سليمان بن صرد، وهو صحابى على رأس جماعة عرفت فى التاريخ باسم " التوابين [" ۱۴] ولقد رأى بن صرد وأتباعه أنهم كانوا
سببا فى قدوم الحسين، وأنهم خذلوه حتى قتل هو، وأهل بيته، لذلك أقدموا على التوبة من هذا الذنب، بأخذ خطوة فى اتجاه السلطة، لأنهم رأوا أنهم لا يغسل عنهم ذلك الجرم إلا قتل من قتله أو القتل فيه [۱۵] وتوجه إليهم من الشام
لحربهم، عبيد الله بن زياد على رأس جيش من ثلاثين ألفا. ودارت بين الطرفين المعارك فى موقعة عين الوردة، فحمل سليمان وأتباعه على جيش الشام. واستشهد سليمان بن صرد. وروى أنه عندما وقع على الأرض قال: فزت ورب الكعبة. وكان عمره يوم قتل، ثلاث وتسعين سنة. وعندما قتل سليمان استقتل أتباعه وكسروا أجفان السيوف، وخاضوا معارك عظيمة، وقتل منهم خلق كثير. ولما علم من بقى من التوابين أن لا طاقة لهم بمن بإزائهم من أهل الشام،
[صفحه ۳۲۶]
انحازوا عنهم. وطلب منهم أهل الشام المكافة، والمتاركة، لما رأوا من بأسهم وصبرهم مع قلتهم. فلحق أهل الكوفة بمصرهم، وأهل المدائن والبصرة ببلادهم [۱۶] .
وحمل أهل الشام رأس ابن صرد إلى مروان بن الحكم، فجمع الناس وقال: أهلك الله رؤوس الضلال، ابن صرد وأتباعه. ثم أمر فعلقت الرؤوس بدمشق [۱۷] وكانت حركة ابن صرد فى عام ۶۵ ه، وهو نفس العام الذى مات
فيه مروان بن الحكم، واختلفوا فى سبب وفاته، فمنهم من رأى أنه مات مطعونا، ومنهم من رأى أنه مات حتف أنفه، ومنهم من رأى أن أم خالد بن يزيد بن معاوية هى التى قتلته [۱۸] .
لقد كانت حركة سليمان بن صرد، مقدمة صحيحة، لو تكاتف الناس فيها لأعطت نتائج أفضل. وأقوى. إنه الرأى العام داخل مربع سليمان بن صرد، كان قد احتقن احتقانا شديدا، ما لبث أن عبر عن نفسه وأشهد الله على ذلك بينما كان الرأى العام فى مكان آخر، تقع عليه الضربات من كل جانب، ورغم هذا، لم يقم من نومه، وينشط ذاكرته، ويتحرك التحرك الذى يستقيم مع سنة الابتلاء، لينظر الله كيف يعمل عباده. فيصيبهم إما الثواب وإما العقاب. ولما كان الغالب الأعم من الرأى العام فى سبات عميق، مكبلين بنصوص ليس فيها من كتاب الله، ولا من سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم برهان، تدعوهم للاستسلام، وترك الدنيا، وهذه النصوص لا يستفيد منها إلا الذين يتخذون مال الله دولا، ودين الله دخلا، وعباد الله خولا. ولما كان الغالب الأعم يتصرف على اعتبار أنه كحصى على الأرض تلهو بها كل ريح، ولا يملك لنفسه سببا من الأسباب ليدفع المخاطر عن نفسه، تاركا الساحة للذين يأخذون بالأسباب للوصول إلى أهداف أهوائهم، فى الوقت الذى يرى من حوله نجوم
[صفحه ۳۲۷]

الهدی یأخذون بالأسباب، وهم یعلمون نتائج حرکتهم مسبقا، ولم یدعوهم هذا إلی الاستسلام والترهب. لما کان الغالب الأعم علی هذا النحو فی القرن الأول الهجری، توالت الابتلاءات من الله سبحانه لتکون حرکهٔ التاریخ، حرکهٔ صحیحهٔ أمام کل باحث.... وفی هذه الامتحانات یضرب العذاب أقواما، ویقتل أقوام فی سبیل الله، وتسیر طائفهٔ الحق شامخهٔ، لا یضرها من خذلها، أو من عاداه، أو من ناوأها. وبعد مروان، جاء ابنه عبد الملک، الذی وصف قبل أن یولد بأنه أحد الجبابرهٔ الأربعهٔ وعبد الملک اختار من بین الناس الحجاج ابن یوسف الثقفی الذی وصف قبل أن یولد بأنه فتی ثقیف الذیال المیال. وقبل أن یتقلد عبد الملک بن مروان السلطهٔ، کان الناس یعلمون أنه سیصیر خلیفهٔ [۱۹] وذلک بعد أن وضعوا أحادیث التحذیر، فی دائرهٔ التبشیر. وروی أن

یزید بن معاویهٔ قال: إن الناس یزعمون أن هذا یصیر خلیفهٔ، فإن صدقوا، فقد صانعناه. وإن کذبوا، فقد وصلناه، وکان یزید قد أعطی لعبد الملک قطعهٔ أرض [۲۰] .

وذکر ابن کثیر، أنه لما سلم علی عبد الملک بالخلافهٔ، کان فی حجره مصحف فأطبقه، هذا فراق بینی وبینک [۲۱] وقال السیوطی: عبد الملک

هو أول خلیفهٔ بخل، وهو أول من غدر فی الإسلام، وأول من نهی عن الکلام بحضرهٔ الخلفاء، وأول من نهی عن الأمر بالمعروف [۲۲] وذکر ابن کثیر: أن

عبد الملک کان له إقدام علی سفک الدماء، وکان حازما، فطنا لأمور الدنیا لا یکل أمر دنیاه إلی غیره [۲۳] وقال المسعودی: وکان له إقدام علی الدماء وکان

عماله علی مثل مذهبه [۲۴] وروی صاحب الفتح الربانی: أن عبد الملک منع

[صفحه ۳۲۸]

الناس من الحج، خوفا أن یبایعوا ابن الزبیر [۲۵] .

وروی أن عبد الملک بن مروان، هادن ملک الروم، وبعث إلیه بأموال وهدایا لیتفرغ للأمهٔ. وکان عبید الله بن زیاد، أمیر بنی أمیهٔ المطیع قد قتل، بعد موقعهٔ عین الوردهٔ وقتل معه أشراف أهل الشام، عندما التقی هو وإبراهیم بن الأشتر النخعی [۲۶] ، وبینما کان عبد الملک یعید ترتیب أوراقه، وأوتاده، کانت الأحداث فی الحجاز والعراق تشتعل. فعبد الله بن الزبیر کان قد بسط یده علی رقعهٔ کبیرهٔ من الأرض، وکان یرید أن یضم الشام إلی سلطانه. وروی أن المختار بن أبی عبید الثقفی، قال لابن الزبیر: إنی لأعرف قوما، لو أن لهم رجل له رفق، وعلم مما یأتی، لاستخرج لک منهم جندا تغلب بهم أهل الشام. قال: من هم. فقال: شیعهٔ بنی هاشم بالکوفهٔ. فقال له: کن أنت ذلک الرجل. وبعثه إلی الکوفهٔ. فنزل ناحیهٔ منها، وجعل یظهر البکاء علی الطالبیین وشیعتهم، ویظهر الحنین والجزع لهم، ویحث علی أخذ الثأر لهم، المطالبهٔ بدمائهم [۲۷] وبهذه

المقدمهٔ سار إلی قصر الإمارهٔ، وغلب علی الکوفهٔ، وابتنی لنفسه دارا، وفرق الأموال علی الناس، وخلع طاعته لابن الزبیر، وجحد بیعته، وکان من قبل قد بایعه. وتتبع المختار قتلهٔ الحسین فقتلهم. قتل عمر بن سعد بن أبی وقاص، وهو الذی تولی حرب الحسین یوم کربلاء. فزاد میل أهل الکوفهٔ إلیه ومحبتهم له. ولقد حاول المختار أن یضع علی حرکته رداء أهل البیت، فکتب إلی علی بن الحسین یرید أن یبایعه، ولکن علی بن الحسین أبی أن یقبل ذلک منه، وأظهر کذبه وفجوره، ودخوله علی الناس بإظهار المیل إلی آل أبی طالب. فلما یئس المختار من علی بن الحسین، کتب إلی عمه محمد بن الحنفیهٔ، یریده علی

[صفحه ۳۲۹]

مثل ذلک، فأشار علیه علی بن الحسین ألا یجیبه إلی شیء من ذلک، فإن الذی یحمله علی ذلک، اجتذابه لقلوب الناس بهم، وتقربه إلیهم بمحبتهم، وباطنهٔ مخالف لظاهره، فی المیل إلیهم والتولی لهم والبراءهٔ من أعدائهم. بل هو من أعدائهم لا من أولیائهم، والواجب علیه، أن یشهر أمره، ویظهر کذبه علی حسب ما فعل هو، عندما أظهر للناس کذب المختار [۲۸] .

وأتى محمد بن الحنفية ابن عباس، يستشيره فى هذا الأمر. فأوصاه بالسكوت لأن تأييد حركة المختار التى لا تقوم على أرضية إيمانية لا قيمة لها، ثم إن إظهار حقيقة المختار، لن تأتى بفائدة من عند ابن الزبير، خصم المختار الأول. لأن ابن الزبير بايعه كل الناس إلا محمد بن الحنفية [۲۹] وابن الزبير من

المبغضين لأهل البيت. فكان ينال من على بن أبى طالب فى خطبه [۳۰] وكان

ينتقص بن عباس [۳۱] وبالجملة: كانت حركة المختار، وابن الزبير، حركة

هدفها الدنيا وليس لأهل البيت فيها أى نصيب اللهم إلا قتل أعدائهم، تحت راية المختار. ولقد جعل ابن حزم هذا القتل من مناقب المختار فقال: تتبع المختار بعض الذين شاركوا فى قتل ابن الزهراء الحسين، فقتل منهم ما أقدره الله عليهم، وفعل أفاعيل يعفى فيها على هذه الحسنة [۳۲] .

وحركة المختار، دليل عظيم على أن أهل البيت لا يركبون باطلا ليصلوا به إلى حق. فلو كانوا طلاب دنيا، لهرولوا إلى المختار، فى وقت كان البيت الأموى يعيد ترتيب أوراقه وأوتاده، بعد الخسائر التى منى بها فى موقعة مرج راهط بين مروان والضحاك بن قيس، ثم الخسائر التى أصابته فى موقعة عين الوردة، وما بعدها لكنهم لم يفعلوا ذلك، لأن الدين لا يخضع للتجارة، وحركة

[صفحه ۳۳۰]

أهل البيت حركة واحدة على امتداد التاريخ، فهم فى انتظار الناس، فإذا جاء الناس، على الإمام أن يتحرك بهذه الحركة التى تستقيم مع الواقع لإقامة الحجة بهم على من خالفهم. وفى عالم القتال على الدنيا، يكون التحرك خاضعا لقول النبى صلى الله عليه وسلم ": إذا رأيت رجلين من أمتى يقتتلان على المال، فأعدد عند ذلك سيفا من خشب [" ۳۳] ، وقوله ": إذا رأيت الأخوين المسلمين يختصمان فى شبر من أرض، فاخرج من تلك الأرض [" ۳۴] فكل حركة فى هذه

الأمور لا بد لها من فقه، وفقيه على بصيرة. والدليل على أن الدولة الأموية، وابن الزبير وغيرهما كانوا يقاتلون على الدنيا، ما رواه البخارى عن أبى المنهال قال: لما كان ابن زياد ومروان بالشام، ووثب ابن الزبير بمكة، ووثب القراء بالبصرة. انطلقت مع أبى، إلى أبى برزة الأسلمى حتى دخلنا عليه فى داره. فقال أبى: يا أبا برزة، ألا ترى ما وقع فيه الناس. فقال: إنى احتسبت عند الله كأنى أصبحت ساخطا على أحياء قريش، إنكم يا معشر العرب كنتم على الحال الذى علمتم من الذلة، والقلة، والضلالة، وأن الله أنقذكم بالإسلام، وبمحمد صلى الله عليه وسلم، حتى بلغ بكم ما ترون، وهذه الدنيا التى أفسدت بينكم. إن ذاك الذى بالشام والله إن يقاتل إلا على الدنيا. وإن هؤلاء الذين بين أظهركم والله إن يقاتلون إلا على الدنيا، وإن ذاك الذى بمكة، والله أن يقاتل إلا على الدنيا [۳۵] ورواه الحاكم بزيادة: فقيل

له: فما تأمرنا؟ قال: لا أرى خير الناس إلا عصابة ملبدة، خماص البطون من أموال الناس، خفاف الظهور من دمائهم [" ۳۶] وفى هذه الدائرة ترى أعلام أهل

البيت، الذين لا يأخذون من أموال الناس إلا ما كتب الله لهم. ومن أجل المصالح دارت المعارك بين المختار، وبين ابن الزبير، سنة

[صفحه ۳۳۱]

سبع وستين هجرية. وانتهت المعارك بقتل المختار، وقتل معه سبعة آلاف رجل. وتتبعت قوات ابن الزبير الشيعة، بالكوفة وغيرها، وقتلت منهم خلقا كثيرا [۳۷] ، ولم يبق بالساحة سوى بنى أمية وابن الزبير. ودخلت سنة سبعين هجرية، وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد قال عن فترة الستينيات " تعوذوا بالله من رأس الستين ومن إمارة الصبيان [" ۳۸] وكما علمنا أن الحسين قتل على رأس الستين، ثم اجتاح صبيان قريش الحرة، وحاصروا مكة، ثم وقعت معارك عديدة من أجل الدنيا، حتى دخل عام ۷۰ ه. وفى الاستفتاح يقول النبى صلى الله عليه وسلم ": تعوذوا بالله من رأس السبعين ومن إمارة الصبيان [" ۳۹] .

وعلى رأس السبعين، قويت شوكة الروم يقول الطبرى: فى هذه السنة ثارت الروم واستجاشوا على من بالشام من المسلمين، فصالح عبد

الملـك بن مروان ملك الروم، على أن يؤدى إليه فى كل جمعـة ألف دينار، خوفا منه على المسـلمين [" ۴۰] وفى هذا الصلح، تسلل العديد من أهل الديانة النصرانية إلى

بلاد الشام، وتقربوا إلى أمراء الأمصار، وفى هـذا العام أيضا قتل عبد الملك، عمرو بن سـعيد الأشدق، وكان عبد الملك يظن بأن ابن الأشـدق يزاحمه على الخلافـة. وبدأ عبد الملك يعد العدة لبسط نفوذه على الأراضـى التى يسـيطر عليها ابن الزبير، فخرج متوجها إلى العراق وعلى مقدمته، الحجاج بن يوسف الثقفى، وقيل كان على ساقته [۴۱] واجتاحت خيل عبد الملك الكوفة، وقتل مصعب بن الزبير، وبايعه الناس. وغرس عبـد الملك ولاته على أرض العراق، وكان على رأسـهم الحجاج بن يوسف. وكانت وصـية عبـد الملك للحجاج: إن أردت أن يستقيم لك من قبلك، فخذهم بالجماعة، وأعطهم عطاء الفرقة وألصق بهم

[صفحه ۳۳۲]

الحاجة [۴۲] .

والحجـاج أخبر النبى صـلى الله عليه وسـلم بمجيئه، كعقـاب لأمـة، رفعت سـيوفها وألسـنتها على الحق. لينظر الله إلى أين يفر الناس من العـذاب، إلى الله، أم إلى بيوت المال؟ حيث الانحناء إلى السـلطان؟ إن العذاب ليس من أجل العذاب، ولكن العذاب امتحان تظهر فيه المعـادن، وهو فى خطوطه العريضـة رحمـة، لأـنه يـدعو النـاس إلى الشـكر لأن الشـكر نجاة من عـذاب يوم عظيم، فمن فر إلى الله من عـذاب الـدنيا، لم يجمع الله عليه عـذاب الآخرة. أما المنافقين والمنافقات، والمشـركين والمشـركات، فإنهم بعـذاب الـدنيا يعبرون إلى عـذاب القبر، إلى عـذاب يوم أليم، لأنهم يتعاملون مع العذاب، وفقا لأهوائهم، فتحت العذاب تراهم يصالحون ويحاربون، وليس لله فى أعمالهم نصيب. وفى سنة العذاب يقول تعالى: (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) [۴۳] وقال:

(ما يفعل الله بعذابكم إن شـكرتم وآمنتم) [۴۴] ، وقال: (وما كنا معـذبين حتى نبعث رسولا) [۴۵] ، والحجاج عذاب، ولقد أخبر النبى صلى الله عليه وآله وسـلم عنه، لأن هوى الحجاج لن يكون على خط الهدى، وإنما سـيختار خط الكذب، وسـفك الدماء. وهذا إخبار بالغيب، ولقد شهدت حركة التاريخ بذلك. قال النبى صلى الله عليه وسلم " سيخرج من ثقيف كذابان الآخر منهما شر من الأول. وهو مبير [" ۴۶] قيل إن الأول هو المختار الثقفى، الذى تتبع قتلة

الحسين. أما الثانى فهو الحجاج. وكان الإمام على، قد دعى على أهل العراق، بأن يبعث الله عليهم فتى ثقيف. وأخرج البيهقى. أن عليا قال لرجل: لا مت حتى تدرك فتى ثقيف. قال: وما فتى ثقيف؟ قال: ليقالن له يوم القيامة، أكفنا

[صفحه ۳۳۳]

زاوية من زوايا جهنم، رجل يملك عشـرين أو بضـعا وعشـرين، لا يدع لله معصية إلا ارتكبها. حتى لو لم يبق إلا معصية واحدة، وكان بينه وبينها باب مغلق، لكسره حتى يرتكبها، يقتل بمن أطاعه من عصاه [۴۷] وروى أن الإمام على قال

لأهـل الكوفـة، فيمـا أخرجه الإمام أحمـد عن الحسن ": اللهم كما ائتمنتهم فخانونى، ونصـحت لهم فغشونى، فسـلط عليهم فتى ثقيف الـذيال الميـال، يأكـل خضـرتها ويلبس فروتهـا، ويحكم فيهم بحكم الجاهليـة. قـال الحسن: ما خلق الحجاج يومئـذ [۴۸] وكـان الإمام الحسين قد دعا عليهم يوم كربلاء فقال: اللهم

احبس عنهم قطر السـماء، وابعث عليهم سـنين كسـنين يوسف، وسـلط عليهم غلام ثقيف يسـقهم كأسا مصبرة، فإنهم كذبونا وخذلونا [۴۹] فالحجاج عذاب دق

أوتاده نظام. وحكمـة الوجود عمودها الفقرى، لينظر الله كيف تعملون. إن الحجاج بقعـة حمراء جاهلية فى ثوب به جميع الألوان، كلها تحمـل زخارف الـدنيا، فإلى أين يكون الفرار؟ وكيف سـيدون القرن الأول الهجرى تاريخه فى هـذه الحقبـة الزمنيـة، التى عليها تنبت عقائـد، وعلى مساحتهـا تشق أكثر من سـبعين فرقـة طريقهـا. والحجاج وضع شـذوذا، وارتكب جرائم من شأنها أن تحرك الناس، طلبا للتغيير على طريـق العـودة إلى الله. ويكفى أن يقـول عمر بن عبـد العزيز فى أعمـال الحجـاج ": لـو جـاءت كـل أمـة بخبثهـا وجئنـاهم

بالحجاج لغلبناهم [" ۵۰] وقال أبى النجود ": ما بقيت لله حرمة إلا وقد

ارتكبها الحجاج [" ۵۱] وسألوا مجاهد عن الحجاج فقال: تسألون عن الشيخ

الكافر [۵۲] وقال الشعبى: الحجاج يؤمن بالجبت والطاغوت كافر بالله

[صفحه ۳۳۴]

العظيم [۵۳] وقال الأوزاعى سمعت القاسم بن ضميرة يقول: كان الحجاج

ينقض عرى الإسلام [۵۴] .

فهذا هو الحجاج فى نظر علماء الإسلام. أما القيادة التى دقت وتد الحجاج فى جسد الأمة روى أنه قيل للوليد بن عبد الملك: ما تقول فى عبد الملك بن مروان؟ فقال: ما أقول فى رجل الحجاج خطيئة من بعض خطاياه [۵۵] ونحن هنا سنسلط الضوء على أهم الأقوال والأفعال التى أتى بها

الحجاج، والتى تعتبر دعوة صريحة للخروج عليه، والالتفاف حول راية الهدى التى لم تكن خافية على أحد فى هذا الزمان. روى أبو داود عن جعفر بن عوف قال: سمعت الحجاج يخطب وهو يقول: إن مثل عثمان عبد الله كمثل عيسى بن مريم، ثم قرأ هذه الآية ويفسرها (إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا)، يشير إلينا بيده، وإلى أهل الشام [۵۶] ثم قام الحجاج بتوسيع الدائرة، فروى عن

سليمان الأعمش، أن الحجاج قال ": اسمعوا وأطيعوا لخليفة الله، وصفيه عبد الملك بن مروان [" ۵۷] وقال ": اسمعوا وأطيعوا ليس فيها مثنوية لأمير

المؤمنين عبد الملك، والله لو أمرت الناس أن يخرجوا من باب من أبواب المسجد فخرجوا من باب آخر، لحلت لى دماؤهم وأموالهم ["۵۸] .

وذكر الجاحظ أن الحجاج قال: والله لطاعتى أوجب من طاعة الله، لأن الله يقول: (اتقوا الله ما استطعتم)، فجعل منها مثنوية [۵۹] وقال الله ": واسمعوا

وأطيعوا)، ولم يجعل منها مثنوية ولو قلت لرجل: ادخل من هذا الباب فلم

[صفحه ۳۳۵]

يدخل لحل لى دمه [۶۰] قال الجاحظ: لقد فهم الحجاج أن المراد طاعة أولى

الأمر. وليس كما ظن. بل المراد: اسمعوا المواعظ وأطيعوا الأوامر الإلهية. أو اسمعوا لله ولرسوله وأطيعوا الله فيما يأمركم [۶۱] .

وروى أن سجون الحجاج كان يوجد فيها شئ يلجأ الناس إليه، من حر، أو برد، وأن المسجونين كانوا يسقون الماء مشوبا بالرماد [۶۲] وذكر أن

الحجاج مر فى يوم جمعة، فسمع استغاثة فقال: ما هذا؟ فقيل له: أهل السجون يقولون، قتلنا الحر، قال: قولوا لهم اخسئوا فيها ولا تكلمون [۶۳] .

ولم تقف أعمال الحجاج عند هذا الحد. ففى عصره كان الصحابة يعايرون بالصحبة. وروى أنه كان يختم الصحابة بخاتم، حتى يعرفهم الناس، ويعايرونهم بصحبتهم للنبى صلى الله عليه وآله وسلم. يقول السيوطى: فى سنة أربع وسبعين. سار الحجاج إلى المدينة، وصار ينعت على أهلها ويستخف ببقايا من فيها من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وختم أعناقهم وأيديهم يذلهم بذلك، كأنس، وجابر، وسهل بن سعد [۶۴] وقد قتل من الصحابة

والتابعين ما لا يحصى [۶۵] وهذه الأمور كانت دعوة فى حقيقة الأمر ليتحرك

الناس الحركة التى يحبون أن ينظر الله إليهم، وهم يقومون بها. كان هذا دعوة مفتوحة، للفراو إلى الله، موجه إلى جيل حديث عهد

برائحة النبوة الزكية. ونحن هنا سنلقى الضوء على صور محددة لحركة الناس فى هذا الجيل.

[۱] أسد الغابة ۳:۲۴۳.

[۲] العرادات:آلة حربية لدك الحصون.

[۳] مروج الذهب ۳:۸۶.

[۴] مروج الذهب ۳:۸۸.

[۵] مروج الذهب ۳:۸۹.

[۶] ذكره ابن كثير فى البداية (۶:۲۷۴، ۸:۲۷۹) ورواه ابن عساكر (كنز العمال ۱۱:۱۶۵).

[۷] ذكره ابن كثير فى البداية (۸:۲۷۹، ۸:۲۵۸) ورواه الطبرانى والبيهقى (كنز ۱۱:۱۶۲).

[۸] رواه البيهقى فى الدلائل وابن عساكر (كنز ۱۱:۳۶۱).

[۹] ابن عساكر (كنز العمال ۱۱:۳۶۱).

[۱۰] رواه البزار وأحمد بلفظ: لعن رسول الله فلانا وما ولد من صلبه. وقال الهيثمى رجاله رجال الصحيح (الزوائد ۵:۲۴۱).

[۱۱] رواه أبو يعلى (الزوائد ۵:۲۴۰).

[۱۲] مروج الذهب ۳:۱۰۳.

[۱۳] شذرات الذهب:ابن العمال الحنبلى ۱:۶۹.

[۱۴] وعند المسعودى (الترابين) أى أصحاب أبى تراب على بن أبى طالب.

[۱۵] مروج الذهب ۳:۱۱۱.

[۱۶] مروج الذهب ۳:۱۱۴.

[۱۷] البداية والنهاية ۲۵۴، ۸:۲۵۵.

[۱۸] مروج الذهب ۳:۱۰۷.

[۱۹] مروج الذهب ۳:۸۲.

[۲۰] مروج الذهب ۳:۸۲.

[۲۱] البداية والنهاية ۹:۶۳، تاريخ الخلفاء:السيوطى ۱:۲۰۲.

[۲۲] تاريخ الخلفاء:۱:۲۰۳.

[۲۳] البداية والنهاية ۹:۶۳.

[۲۴] مروج الذهب ۳:۱۰۹.

[۲۵] الفتح الربانى ۱۱:۱۷۱.

[۲۶] مروج الذهب ۳:۱۱۶.

[۲۷] مروج الذهب ۳:۸۹.

[۲۸] مروج الذهب ۳:۹۰.

[۲۹] مروج الذهب ۳:۹۳.

[۳۰] مروج الذهب ۳:۹۷.

[۳۱] مروج الذهب ۳:۹۷.

[۳۲] رسائل ابن حزم ۲:۱۴۱.

[۳۳] رواه الطبرانی (کنز العمال ۱۱:۱۴۸).

[۳۴] رواه الطبرانی (کنز ۱۱:۱۴۹).

[۳۵] البخاری (الصحیح ۴:۲۳۰) ک الأحکام.

[۳۶] رواه الحاکم وصححه (المستدرک ۴:۴۷۱).

[۳۷] مروج الذهب ۳:۱۱۹.

[۳۸] رواه الإمام أحمد وأبو یعلی (کنز العمال ۱۱:۱۱۹).

[۳۹] رواه أحمد وأبو یعلی ورجاله ثقات (الزوائد ۷:۲۲۰) (الفتح الربانی ۲۳:۳۴)، (البدایة والنهایة ۶:۲۳۴)، (کنز العمال ۱۱:۱۱۹).

[۴۰] الطبری ۷:۱۸۴.

[۴۱] مروج الذهب ۳:۱۲۵.

[۴۲] مروج الذهب ۳:۱۴۳.

[۴۳] سورة الأنفال: الآیة ۳۳.

[۴۴] سورة النساء: الآیة ۱۴۷.

[۴۵] سورة الإسراء: الآیة ۱۵.

[۴۶] رواه ابن سعد ونعیم ابن حماد والحاکم والطبرانی (کنز العمال ۲۰۱، ۲۱۴:۲۰۲).

[۴۷] الخصائص الکبری ۲:۲۲۶، البدایة ۹:۱۳۲.

[۴۸] الخصائص الکبری ۲:۲۲۵، البدایة ۹:۱۳۲.

[۴۹] الطبری ۶:۳۵۹.

[۵۰] رواه البیهقی (البدایة والنهایة ۶:۲۷۰).

[۵۱] البدایة والنهایة ۶:۲۷۰.

[۵۲] البدایة والنهایة ۹:۱۳۶.

[۵۳] البدایة والنهایة ۹:۱۳۶.

[۵۴] البدایة والنهایة ۹:۱۳۶.

[۵۵] البدایة والنهایة ۹:۱۳۵.

[۵۶] أبو داوود حدیث رقم ۴۶۴۱ ص ۴:۲۰۹.

[۵۷] أبو داوود حدیث ۴۶۴۵ ص ۴:۲۱۰.

[۵۸] أبو داوود حدیث ۴۶۴۳، ص ۴:۲۱۰.

[۵۹] المثنویة:الاستثناء.

[۶۰] حیاة الحیوان ۳:۱۶.

[۶۱] أنظر تفسیر الزمخشری والرازی والبیضاوی.

[۶۲] التنبیه والإشراف:المسعودی ۱:۲۹۱.

[۶۳] البدایة والنهایة ۹:۱۳۷.

[۶۴] تاریخ الخلفاء ۱:۲۰۰.

[۶۵] تاریخ الخلفاء ۱:۲۰۵.

حركة عبدالله بن عمر بن الخطاب

فعبد الله عند المقدمة، رفض القتال مع أمير المؤمنين على بن أبى

[صفحه ۳۳۶]

طالب [۱] وفى أكثر الأقوال رفض أن يبايع على. ويقول ابن حزم فى الذين لم

يبايعوا عليا: وتأخر عن بيعة على، قوم من الصحابة بغير عذر شرعى، إذ لا شك فى إمامته [۲] وعبد الله الذى لم يبايع عليا. بايع فيما بعد معاوية، ثم

يزيد بن معاوية، ثم عبد الملك بن مروان. وكان عنوان عبد الله بن عمر على امتداد هذه الأحداث، من عثمان إلى عبد الملك بن مروان هو ": لا أقاتل، وأصلى وراء من غلب [" ۳] وكان على امتداد هذا الزمان لا يأتى أمير إلا صلى

خلفه، وأدى إليه زكاة ماله [۴] .

روى أن عليا طلب من ابن عمر الخروج معه لقتال أهل الشام فقال: أنا رجل من أهل المدينة إن خرجت خرجوا، ولكن لا أخرج للقتال فى هذا العام [۵] والمعنى: هو مع أهل المدينة ما يجرى عليهم، جرى عليه، فإن خرج

أهل المدينة مع على، فإن ابن عمر لن يخرج هذا العام. وبعد مقتل الإمام على، لم يبايع ابن عمر الحسن بن على، فلما تم الصلح بين الحسن ومعاوية بايع معاوية. وعندما أراد معاوية أن يبايع ليزيد من بعده، بعث إلى ابن عمر وقال: يا ابن عمر إنك كنت تحدثنى أنك لا تحب أن تبيت ليلة سوداء، ليس عليك فيها أمير. وإنى أحذرك أن تشق عصا المسلمين، أو تسعى فى فساد ذات بينهم.. فقال ابن عمر: إنك تحذرنى أن أشق عصا المسلمين، ولم أكن أفعل، وإنما أنا رجل من المسلمين، فإذا اجتمعوا على أمر فأنا رجل منهم. فقال له معاوية: يرحمك الله [۶] .

وذكر ابن كثير: حين قدم نعى معاوية، لم يكن ابن عمر بالمدينة. وعندما لقى الحسين وابن الزبير قال: ما وراءكما؟ قالا: موت معاوية، والبيعة ليزيد.

[صفحه ۳۳۷]

فقال لهما: اتقيا الله ولا تفرقا بين جماعة المسلمين. وعندما قدم ابن عمر إلى المدينة، بايع يزيد [۷] وعن محمد بن المنكدر قال: لما بويع يزيد بن معاوية،

قال ابن عمر: إن كان خيرا رضينا، وإن كان بلاء صبرنا [۸] .

وعندما خلع أهل المدينة يزيد، روى أحمد، ومسلم، والترمذى، أن ابن عمر أنكر على أهل المدينة خلعهم ليزيد. وروى أنه دعا بنيه، وجمعهم وقال: أنا بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة، فيقول هذه غدرة فلان.... فلا يخلعن أحد منكم يزيد، ولا يسرعن أحد منكم فى هذا الأمر فتكون الصيلم بينى وبينه [۹] .

وبعد مجزرة الحرة، وموت يزيد. وعندما جاءت دولة مروان التى لعن النبى صلى الله عليه وسلم رأسها فى أحاديث صحيحة، منها قول عائشة: لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكم، ومروان فى صلبه. فمروان قصص من لعنة الله عز وجل [۱۰] ، بعد أن جاءت هذه الدولة. روى البخارى عن عبد الله بن دينار قال: شهدت ابن عمر، حيث اجتمع الناس على عبد الملك كتب: إنى أقر بالسمع والطاعة لعبد الملك أمير المؤمنين، على سنة الله وسنة رسوله، ما استطعت، وإن بنى قد أقروا بذلك [۱۱] .

إن ما قدمناه ما هو إلا ضوء على حركة ابن عمر خلال هذه الأحداث، وللأسف الشديد، أن هذه الحركة أصبحت فيما بعد أصلا من أصول الدين، زرعه فقهاء السلاطين، والغائر الوحيد تحت شجرتهم هم الطلقاء، والملعونين، والمطرودين، وأعداء الفطرة، والإنسانية، إن فقهاء السوء التقطوا موقف ابن

[صفحه ۳۳۸]

عمر، وجعلوه کمامهٔ فی عالم التلجیم والاحتناک، وعلی هذه الکمامهٔ، تعددت الفرق، وافترقت الأمهٔ إلی أکثر من سبعین شعبهٔ، بعد أن أصبح للجدل أسواق. لقد سلطوا الأضواء علی موقف ابن عمر، وعتموا علی مواقف أبی ذر، وعمار، والمقداد، وحجر بن عدی، وزید بن صوحان، وغیرهم، ولا تخفی الأسباب علی أصحاب الضمائر والأفهام والأبصار. وفوق هذا التعتیم، وضعوا عباءهٔ عبد الله بن سبأ. فقالوا: إن ابن سبأ هو السبب فی جمیع الأحداث التی عصفت بالأمهٔ. وأشهد أن ابن سبأ ما هو إلا أقصوصهٔ، جاء بها عالم القص لیعتم بها علی حرکهٔ التاریخ. لم ینظر أصحاب الاحتناک إلا فی مقدمهٔ ابن عمر، ولم ینظروا إلیه فی نهایهٔ الطریق، حیث کان یعلوه الندم. فعن الزهری عن حمزهٔ بن عبد الله بن عمر. أنه بینما هو جالس مع عبد الله بن عمر، إذ جاءه رجل من أهل العراق فقال: یا أبا عبد الله، إنی والله لقد حرصت أن أتسم بسمتک، وأقتدی بک فی أمر فرقهٔ الناس، واعتزال الشر ما استطعت، وإنی أقرأ آیهٔ من کتاب الله محکمهٔ، قد أخذت بقلبی فأخبرنی عنها، أرأیت قوله عز وجل: (وإن طائفتان من المؤمنین اقتتلوا فأصلحوا بینهما. فإن بغت إحداهما علی الأخری فقاتلوا التی تبغی حتی تفیئ إلی أمر الله)، أخبرنی عن هذه الآیهٔ. فقال ابن عمر: ما لک ولذلک. انصرف عنی. فانطلق الرجل حتی تواری عنا سواده. وعندما أقبل علینا عبد الله قال: ما وجدت فی نفسی شیئا من أمر هذه الآیهٔ، ما وجدت فی نفسی أنی لم أقاتل هذه الفئهٔ الباغیهٔ کما أمرنی الله عز وجل [۱۲] وفی روایهٔ قال: لم أجدنی آسی علی شئ، إلا أنی، لم أقاتل

الفئهٔ الباغیهٔ مع علی [۱۳] .

[صفحه ۳۳۹]

لقد کان هذا آخر مواقف ابن عمر، بعد أن صلی وراء الحجاج، وأخذ عنه الحجاج مناسکه یوم أن کانت الکعبهٔ تحترق، وهم یطوفون بها کما سیأتی.

[۱] البدایهٔ والنهایهٔ ۲۳۱:۷.

[۲] رسائل ابن حزم الأندلسی ۱۳۸:۲.

[۳] الطبقات الکبری ۱۴۹:۴.

[۴] الطبقات الکبری ۱۴۹:۴.

[۵] البدایهٔ والنهایهٔ ۲۳۱:۷.

[۶] تاریخ الخلفاء ۱۱۳:۱.

[۷] البدایهٔ والنهایهٔ ۱۴۸:غیر واضح فی المصدر (۵۴۱).

[۸] الطبقات الکبری ۱۸۴:۴.

[۹] البدایهٔ والنهایهٔ ۲۳۳، ۲۵۱:۸، الطبقات الکبری ۱۸۳:۴.

[۱۰] رواه الحاکم وصححه (المستدرک ۴۸۱:۴).

[۱۱] البخاری (الصحیح ۲۴۵:۴) ک الأحکام.

[۱۲] رواه الحاکم وقال: هذا باب کبیر، وقد رواه عن عبد الله بن عمر جماعهٔ من کبار التابعین وإنما قدمت حدیث شعیب بن أبی حمزهٔ عن الزهری واقتصرت علیه لأنه صحیح علی شرط الشیخین ولم یخرجاه (المستدرک ۱۱۶:۳).

[۱۳] رواه الطبرانی بإسنادین ورجاله رجال الصحیح (الزوائد ۲۴۲:۷)، ورواه ابن سعد فی الطبقات بإسنادین (الطبقات الکبری ۱۸۵، ۱۸۷:۴).

حرکهٔ أنس بن مالک

كان أنس من الذين كتموا حديث الغدير، يوم أن قال على بن أبى طالب

فى الرحبة ": أنشد الله رجلا سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول يوم الغدير إلا قام " وقام الناس ولم يقم أنس. فدعا على بن أبى طالب على كل من كتم، ولم يشارك أنس فى معاركه على. لكنه تحدث بعد على عن مناقب أهل البيت، وذلك عندما علم أن مقدمته كانت مقدمة خطأ. روى ابن كثير أن أنس بن مالك جاء إلى الحجاج بن يوسف. فقال له الحجاج، هى يا خبيث، جوال فى الفتن، مرة مع ابن الزبير، ومرة مع ابن الأشعث، أما والذى نفس الحجاج بيده لأستأصلنك كما تستأصل الصمغة، ولأجردنك كما تجرد الضب. فقال أنس: إياى يعنى الأمير، قال الحجاج: إياك أعنى أصم الله سمعك. فاسترجع أنس، وشغل الحجاج. فخرج أنس، فتتبعناه. فقال: لولا أنى ذكرت أولادى الصغار، وخفت عليهم، ما باليت أى قتل أقتل، وكلمته بكلام فى مقامى هذا لا يستخفنى بعده أبدا. وروى أن أنسا بعث إلى عبد الملك بن مروان يشكو إليه الحجاج. فكتب عبد الملك إلى الحجاج أن يترضاه [۱] وروى ابن سعد: كان أنس بن مالك من أحرص أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم على المال [۲] .

وفقهاء السلطان وقفوا عند المقدمة، وعزلوا غزلهم، ونسجوا نسيجهم، ولم ينظروا فى الخاتمة، حيث كان أنس يبكى فى آخر أيام حياته، وهو آخر من مات من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم

[صفحه ۳۴۰]

بالبصرة [۳] وكان أنس يقول: ما بقى أحد صلى القبلتين كلتيهما غيرى [۴] .

ولو تدبر أصحاب الغزل والنسيج، فى أقوال أنس فى آخر حياته، لرؤا فيها الندم. ولعلموا أن غرسهم بعد الندم لا قيمة له إلا فى خزائن السلطان. فعن ابن عمران الجونى قال: سمعت أنس بن مالك يقول: ما أعرف شيئا اليوم، مما كنا عليه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. قلنا: فأين الصلاة؟ قال: أولم تصنعوا فى الصلاة، ما قد علمتم [۵] وروى البخارى أن الزهرى دخل

على أنس، فوجده يبكى. فقال ما يبكيك قال: لا أعرف شيئا مما أدركت إلا هذه الصلاة، وهذه الصلاة قد ضيعت [۶] ، إن معنى أن يضيع كل شئ عند النتيجة، أن المقدمة بعد وفاة الرسول يجب البحث فيها لنقف على الداء. وما نسجوه على موقف أنس وابن عمر، فعلوه أيضا فى حركة عائشة. تلك الحركة التى قام فقهاء السلطان بترقيعها، وتلوينها، حتى لا يصل أحد إلى حقيقة، وكان يكفيهم أن ينظروا إلى موقف عائشة فى المحطة الأخيرة، حيث التوبة والندم. فعائشة بعد قتل محمد بن أبى بكر وحجر بن عدى، تبينت الحقيقة، واعترفت بأنه لولا موافقها السابقة، لكان لها شأن آخر فى مقابل هذه الأحداث [۷] ثم بدأت فى نشر فضائل أهل البيت، وقيل أن حديثها ينشر

الفضائل، كان بعد وفاة الحسن بن على. وقيل غير ذلك. وروى أنها قالت عند وفاتها: إنى قد أحدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقالت: ليتنى لم أخلق. يا ليتنى كنت شجرة أسبح وأقضى ما على [۸] .

وإذا كنا قد ذكرنا أن الحجاج عقاب، وتحت هذا العقاب ينظر الله تعالى

[صفحه ۳۴۱]

إلى عباده، كيف يعملون وإلى أين يفرون. وإذا كنا قد ذكرنا أن العقاب، على الجيل الأول، عموده الفقرى أن يقوم هذا الجيل بتصحيح خطواته، وترتيب أوراقه، لأن على أوراقه ستأتى أجيال سيأخذون من ممارستهم، وأعمالهم، وقودا، ويتخذونهم قدوة، فإذا لم يصحح الأوائل خطاياهم، حتما سيقع فيها الأواخر، يقول النبى صلى الله عليه وسلم ": إذا عملت الخطيئة فى الأرض كان من شهدها فكرهها كم غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها [" ۹] ، وقوله ": المرء مع من أحب [" ۱۰] وإذا كنا قد ذكرنا، أن العمود

الفقرى لحركة الإنسان العاقل فى هذا الكون، هو الأخذ بالأسباب، لأن فيها يظهر الإنسان الذى يخشى الله بالغيب، والإيمان بالغيب هو وعاء المؤمنين الوحيد على هذا الكون المنظور، وعلى طريق الإيمان سار على بن أبى طالب، وعمار، والحسين، وكل منهم كان يعلم

بأنه مقتول فی نهایة الطریق. فلم ینظروا إلی النتائج، لأن النتائج بید الله، والله تعالی لا یضیع عمل الصالحین، الذین یخشونه بالغیب. وهؤلاء وغیرهم، هم الذین اشتری الله منهم أنفسهم، وأخبرهم علی لسان رسول صلی الله علیه وآله وسلم، بمکان وکیفیة قتلهم. فلم یتکاسلوا، وأخذوا بأسباب الحیاة الأبدیة، حتی قتلوا وربح بیعهم. فإذا کنا قد ذکرنا ذلک فی أکثر من موضع فلم یبق إلا إلقاء ضوء یسیر علی رجل من الرجال، أخذ بأسباب النجاة، وکتمها فی نفسه، وذلک عندما خطب الحجاج وجعل مرتبة عبد الملک فوق مرتبة النبوة. روی أبو داوود عن الربیع بن خالد قال: سمعت الحجاج یخطب فقال فی خطبته: رسول أحدکم فی حاجته أکرم علیه، أم خلیفته فی أهله؟ قال الربیع: فقلت فی نفسی: لله علی ألا أصلی خلفک أبدا، وإن وجدت قوما یجاهدونک، لأجاهدنک معهم. وروی أنه قاتل بعد ذلک فی موقعة الجماجم حتی قتل [۱۱] .

[صفحه ۳۴۲]

لقد کانت أقوال الحجاج وأفعاله، تصطدم مع العقیدة، وهنا یکمن الامتحان الإلهی. وتحت هذا الامتحان، کان هناک من یدافع عن دینه، بیده، أو بلسانه، أو بقلبه، وکان هناک من فدی الحجاج بالمال والولد، وقاتل تحت راياته. وکان هناک أیضا من یرید أن یرکب موجة المعارضة، لیصل إلی کرسی الحکم، کالمختار مثلا الذی انطلق من عباءة قال أنها هاشمیة، وبتصریح من محمد بن الحنفیة. والحقیقة تخالف ذلک. باختصار: کانت هناک معارضة، ولکنها بلا رأس فیه من الله برهان. لقد کان علی بن الحسین، یعیش فی عالم الغربة، وکان فی هذا العالم کثیر البکاء. وقیل له فی ذلک فقال: أن یعقوب علیه السلام بکی حتی ابیضت عیناه علی یوسف، ولم یعلم أنه مات. وإنی رأیت بضعة عشر من أهل بیتی یذبحون فی غداة واحدة، فترون حزنهم یذهب من قلبی أبدا [۱۲] وفی روایة قال: إننی کلما شربت الماء تذکرت ابن فاطمة.

وعلی بن الحسین کان علما وحده فی هذه الساحة، ودلیلا ینیر لمن أراد أن یتوجه إلیه، روی أن الزهری قارف ذنبا فاستوحش منه وهام علی وجهه، وترک أهله وماله فلما اجتمع بعلی بن الحسین قال له علی: یا زهری قنوطک من رحمة الله التی وسعت کل شئ، أعظم من ذنبک. فقال الزهری ": والله أعلم حیث یجعل رسالاته، " وفی روایة: أنه کان أصاب دما حراما خطأ، فأمره بالتوبة والاستغفار، وأن یبعث الدیة إلی أهله. وعندما سمع منه الزهری قال ": والله أعلم حیث یجعل رسالاته [" ۱۳] لقد کان علی بن الحسین علما فی الساحة. روی أن

هشام بن عبد الملک حج فی خلافة أبیه، فطاف بالبیت، فلما أراد أن یستلم الحجر لم یتمکن حتی نصب له منبر، فاستلم وجلس علیه. وقام أهل الشام حوله، فبینما هو کذلک إذ أقبل علی بن الحسین، فلما دنا من الحجر لیستلمه. تنحی عنه الناس إجلالا له وهیبة واحتراما. فقال أهل الشام لهشام: من هذا؟ فقال: لا أعرفه استنقاصا به، واحتقارا، لئلا یرغب فیه أهل الشام. فقال

[صفحه ۳۴۳]

الفرزدق وکان حاضرا. أنا أعرفه. فقالوا: ومن هو؟ فأشار الفرزدق یقول:

هذا الذی تعرف البطحاء وطأته++

والبیت یعرفه والحل والحرم

هذا ابن خیر عباد الله کلهم++

هذا التقی النقی الطاهر العلم

إذا رأته قریش قال قائلها++

إلی مکارم هذا ینتهی الکرم

ینمی إلی ذروة العز التی قصرت++

عن نیلها عرب الإسلام والعجم

إلى أن قال:

هذا ابن فاطمة إن كنت تجهله++

بجده أنبياء الله قد ختموا

من جده دان فضل الأنبياء له++

وفضل أمته دانت لها الأمم

عم البرية بالإحسان فانقشعت++

عنها الغواية والإملاق والظلم

إلى أن قال:

من معشر حبهم دين وبغضهم++

كفر وقربهم منجى ومعتصم

يستدفع السوء والبلوى بحبهم++

ويستزاد به الاحسان والنعم

مقدم بعد ذكر الله ذكرهم++

فى كل حكم ومختوم به الكلم

إن عد أهل التقى كانوا أئمتهم++

أو قيل من خير أهل الأرض؟ قيل: هم

لا يستطيع جواد بعد غايتهم++

ولا يدانيهم قوم وإن كرموا

هم الغيوث إذا ما أزمة أزمت++

والأسد أسد الشرى والبأس محتدم

يأبى لهم أن يحل الذم ساحتهم++

خيم كرام وأيد بالندى هضم

لا ينقص العدم بسطا من أكفهم++

سيان ذلك أن آثروا وإن عدموا

أى الخلائق ليست فى رقابهم++

لأولية هذا أوله نعم

فليس قولك من هذا؟ بضائرة++

العرب تعرف من أنكرت والعجم

من يعرف الله أولية ذا++

فالدين من بيت هذا ناله الأمم

يقول ابن كثير: فغضب هشام من ذلك، وأمر بحبس الفرزدق بين مكة والمدينة، فلما بلغ ذلك على بن الحسين، بعث إلى الفرزدق باثنى عشر ألف درهم، فلم يقبلها، وقال: إنما قلت ما قلت لله عز وجل، ونصرة للحق، وقياما بحق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذريته، ولست أعتاض عن ذلك بشئ. فأرسل إليه على بن الحسين يقول: قد علم الله صدق نيتك فى ذلك

[صفحه ۳۴۴]

وأقسمت عليك بالله لتقبلها. فقبلها منه [۱۴] .

لقد كانت هناك معارضة، للذين يقاتلون من أجل الدنيا، ولكن هذه المعارضة لم يكن لها رأس هدفها الآخرة، وتسوق الناس فى الدنيا إلى عالم البركات، وشرط عالم البركات أن يؤمن أهل القرى وأن يتقوا. أهل القرى كلهم، وليس قبيلة من القبائل، أو فردا من الأفراد، فالدعوة عالمية. وتتحرك بعالميتها تحركا واحدا، على امتداد العصور. وهذا التحرك على أرض إذا سقط عليها الماء، اهتزت وأنبتت نبات عالم البركات، وليس نبات عالم الضنك. فالإنسان مرتبط بالكون، فإن استقام على الفطرة التى فطر الله الناس عليها، التقى مع فطرة الكون فى معزوفة واحدة. أما إذا شذ، فإنه بهذا الشذوذ يصطدم من فطره الله فى خلقه، فتضربه جميع الأسباب وفى عالم الفرية، وفى عالم القتال من أجل الدنيا، وفتح أبواب الفتن، ونشر ثقافة السب، روى أن يحيى بن سعيد قال: سمعت على بن الحسين، وهو أفضل هاشمى أدركته يقول: يا أيها الناس، أحبونا حب الإسلام، فما برح بنا حبكم حتى صار علينا عارا. وفى رواية: حتى بغضونا إلى الناس [۱۵] .

وفى عالم البغض والحقد والكراهية. مارس الحجاج بن يوسف مهمته بكل ارتياح. فصد عن سبيل الله، وتتبع أصحاب الإمام على فى كل مكان، وشكك فى أهل البيت. روى أنه طلب كميل بن زياد ليقتله، وكان كميل صحابى أدرك من الحياة النبوية، ثمان عشرة سنة، وشهد صفين مع على [۱۶] ، وكان شجاعا، فاتكا، وزاهدا عابدا [۱۷] وعندما وقف كميل أمام الحجاج، نال

الحجاج من على، فصلى كميل عليه. فقال له الحجاج: والله لا بعثن إليك من يبغض عليا أكثر مما تحبه، فأرسل إليه ابن أدهم، وكان من أهل

[صفحه ۳۴۵]

حمص [۱۸] وأمر الحجاج بقتله صبرا بين يديه. فقال كميل: فاقض من أنت

قاض، فإن الموعد الله، وقد أخبرنى أمير المؤمنين على بن أبى طالب أنك قاتلى. فقال: اضربوا عنقه. فضربت عنقه [۱۹] .

وفى عالم البغض والكراهية، أنكر الحجاج أن يكون الحسين من ذرية النبى صلى الله عليه وسلم، لأنه ابن ابنته. فقال له يحيى بن معمر: كذبت. فقال الحجاج. لتأتينى على ما قتل ببينة من كتاب الله أو لأضربن عنقك فقال: قال تعالى: (ومن ذريته داوود وسليمان) إلى قوله: (وزكريا ويحيى وعيسى) ثم قال للحجاج: فعيسى من ذرية إبراهيم، وهو إنما ينتسب إلى أمه مريم. والحسين ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الحجاج: صدقت، ونفاه إلى خرسان [۲۰] .

وعلى ساحة البغض والكراهية، كان الحجاج ينال من عبد الله بن مسعود ويقول: والله لو أدركت عبد هذيل، لأضربن عنقه [۲۱] وكان يمنع الناس من

القراءة فى المصحف بقراءة ابن مسعود. ويقول: لا أجد أحدا يقرأ على قراءة ابن عبد إلا ضربت عنقه. ولأحكنها من المصحف، ولو بضلع خنزير!! [۲۲] ، وقال ابن كثير: وإنما نقم على قراءة ابن مسعود لكونه خالف القراءة، على المصحف الإمام الذى جمع الناس عليه عثمان [۲۳] وروى أن الحجاج قال على

المنبر: عبد الله بن مسعود رأس المنافقين، لو أدركته لأسقيت الأرض من دمه [۲۴] وروى أنه تلا على المنبر هذه الآية: (هب لى ملكا لا ينبغى لأحد من

بعدى)، وقال: والله إن كان سليمان لحسودا. قال ابن كثير: وهذا جراءة

[صفحه ۳۴۶]

عظيمة تقضى به إلى الكفر [۲۵] .

من كل ما سبق، نعلم أن الحجاج اقتحم على الناس من الباب الذى لا ينبغى للناس أن يسمحوا له بالدخول منه، ولكن الغالب الأعم

تعامى عن حركة الحجاج، كما تعاموا من قبل، عن أعمال يزيد، ومن قبله عن أعمال معاوية. وتعامى الرأى العام وإن كان يعود إلى ثقافة السب، ورشوة النبلاء، إلا أنه عذر لا تقبله الفطرة التى هى حجة بذاتها على الإنسان. وفى عالم البغض والتعامى، تحركت جيوش الحجاج، بعد أن صدرت الأوامر إليها من عبد الملك بن مروان. وكان تحركها فى اتجاه مكة لقتل ابن الزبير، وابن الزبير لم يدع شيئا مقدسا، أو راية نقية، إلا تاجر بها لبسط نفوذه، وعبد الملك ما ترك سجنا، ولا سيفا، إلا واستعمله من أجل بسط نفوذه. لقد كانت المواجهة بين الطرفين فى مكة. وعلى مكة تحذير من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن الله حرم مكة. يوم خلق السماوات والأرض، فهى حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لم تحل لأحد قبلى ولا تحل لأحد بعدى، ولا تحل لى قط إلا ساعة من الدهر، لا ينفر صيدها، ولا يعضد شوكها، ولا يختلى خلاها، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد [۲۶] وفى رواية قالوا: إلا الأذخر يا رسول

الله، فإنه لا بد منه للقين، والبيوت. قال: إلا الإذخر فإنه حلال. وفى رواية قال صلى الله عليه وسلم: وهى اليوم حرام كما حرمها الله عز وجل أول مرة، وإن أعتى الناس على الله عز وجل ثلاثة: رجل قتل فيها، ورجل قتل غير قاتله، ورجل طلب بذحل [۲۷] الجاهلية [۲۸] .

ومن أجل هذا، تحرك أهل البيت بعيدا عن الدائرة الحرام، وكانت حركتهم من أجل أن يدخلوا بالناس إلى المنطقة الأمان. أما غيرهم فقد تسلق

[صفحه ۳۴۷]

على الدائرة الحرام طمعا فى الدنيا، حتى جاء يزيد وعبد الملك فى زمن القهر، واتخاذ عباد الله خولا، فوجهوا الجيوش إلى الدائرة الحرام، لينالوا الدنيا على دخان الكعبة. روى أن الحجاج زحف إلى مكة. فحاصر ابن الزبير بها وكتب إلى عبد الملك: أنى ظفرت بأبى قبيس. فلما ورد كتابه على عبد الملك بحصار ابن الزبير، كبر عبد الملك، فكبر من معه فى داره، واتصل التكبير بمن فى جامع دمشق فكبروا، واتصل ذلك بأهل الأسواق فكبروا ثم سألوا عن الخبر فقيل لهم: إن الحجاج حاصر ابن الزبير بمكة، وظفر بأبى قبيس [۲۹] منع ابن الزبير

الحجاج أن يطوف بالبيت. ووقف الحجاج بعرفة محرما فى درع مغفر [۳۰] ، وكانت مدة الحصار خمسين ليلة [۳۱] ثم بدأ الحجاج يصب الحجارة على مسكة

صبا، وابن الزبير متحصن بالكعبة، وتفرق عن ابن الزبير أصحابه، وخذله من معه خذلانا شديدا. وجعلوا يخرجون إلى الحجاج، حتى خرج إليه نحو من عشرة آلاف، وذكر أنه كان ممن فارقه وخرج إلى الحجاج ابنا الزبير، وخبيب، فأخذا منه لأنفسهما أمانا [۳۲] .

وروى أنه عندما رمى البيت بالحجارة والمنجنيق، أرسل الله تعالى الصواعق والبروق والرعود. فنزلت الصواعق على المنجنيق وأحرقته، فوقف أهل الشام عن الرمى، فقال لهم الحجاج، ويحكم ألم تعلموا أن النار كانت تنزل على من كان قبلنا. فتأكل قربانهم إذا تقبل منهم. فلولا أن عملكم مقبول ما نزلت النار فأكلته. فعاد أهل الشام للضرب. وقتل ابن الزبير [۳۳] وأمر الحجاج

بصلب الزبير بمكة. وكان مقتله سنة ثلاث وسبعين. [۳۴] .

[صفحه ۳۴۸]

وأعطى عبد الملك للحجاج الجائزة، فأقامه واليا على مكة، والمدينة، والحجاز، واليمن، واليمامة، ثم جمع له العراق بعد موت بشر بن مروان بالبصرة [۳۵] وبدأ عبد الملك يعيد بناء البيت الذى قام برميه من فوق الجبال،

ولم يدخر عبد الملك جهدا فى تشييد البيت وزخرفته. وهذا كله شاهد صدق على حركة التاريخ. حيث يقول النبى صلى الله عليه وسلم ": إذا رأيتم قريشا قد هدموا البيت ثم بنوه فزوقوه. فإن استطعت أن تموت فمت [" ۳۶] ، والدعوة إلى الموت ليست دعوة إلى الانتحار، وإنما أن تختار الموتة، التى يكون لله فيها رضا. وقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم ": كيف أنتم إذا مرج الدين، فظهرت الرغبة، واختلف الإخوان، وحرق البيت العتيق [" ۳۷] وكيف أنتم أى كيف تكون

حركتكم، التى تحبون. أن ينظر الله إليكم وأنتم عليها. إنه توجيه خاص، بأجيال القرن الأول، لأن على خيرتهم ستأتى أجيال وأجيال.

وبعد أن شيد عبد الملك البيت وزوقه، أمر عبد الملك الحجاج أن يقتدى بعبد الله بن عمر فى مناسك الحج [۳۸] وروى أنه لما مات عبد الله بن عمر،

صلى عليه الحجاج بن يوسف [۳۹] ، وأن عبد الملك حج فى بعض أعوامه، فأمر للناس بالعطاء. فخرجت بدرة مكتوب عليها ": من الصدقة " فأبى أهل المدينة من قبولها. وقالوا: إنما كان عطاؤنا من الفئ. فقال عبد الملك: نعلم أنكم لا تحبوننا أبدا. وأنتم تذكرون يوم الحرة. نحن لا نحبكم أبدا، ونحن نذكر مقتل عثمان [۴۰] .

وعلى بساط البغض والحقد، دارت الأحداث. وفى نهايتها مات

[صفحه ۳۴۹]

عبد الملك بن مروان. وروى أنه وصى ابنه بالحجاج فقال له: انظر إلى الحجاج فإنه هو الذى وطأ لكم المنابر، وهو سيفك يا وليد، ويدك على من ناوأك، فلا تسمعن فيه قول أحد، وأنت إليه أحوج منه إليك، وادع الناس إذا مت إلى البيعة. فمن قال برأسه هكذا. فقل بسيفك هكذا [۴۱] ولما احتضر عبد الملك

دخل عليه ابنه الوليد فبكى. فقال عبد الملك: أتحن حنين الجارية. إذا أنا مت فشمر وائتزر، والبس جلد النمر، وضع سيفك على عاتقك، فمن أبدى ذات نفسه لك، فاضرب عنقه، ومن سكت مات بدائه [۴۲] .

[صفحه ۳۵۳]

[۱] البداية والنهاية ۹:۹۱.

[۲] الطبقات الكبرى ۷:۱۸.

[۳] الطبقات الكبرى ۷:۲۶.

[۴] الطبقات الكبرى ۷:۲۰.

[۵] رواه أحمد والترمذى وحسنه وقال فى الفتح الربانى ۱:۱۹۹، روى من غير وجه عن أنس.

[۶] الفتح الربانى ۱:۲۰۰.

[۷] راجع الطبرى ۶:۱۵۶، ابن أبى الحديد ۳:۲۷۲.

[۸] رواه الطبرانى (الزوائد ۸:۷۴) وابن سعد (الطبقات ۷:۲۳۸).

[۹] رواه أبو داوود حديث ۴۳۴۵ ص ۴:۱۲۴.

[۱۰] البخارى (الصحيح ۴:۷۷) والترمذى وصححه (الجامع ۴:۵۹۶).

[۱۱] رواه أبو داوود حديث ۴۶۴۲ ص ۴:۲۰۹، البداية ۹:۱۳۱.

[۱۲] البداية والنهاية ۹:۱۰۷.

[۱۳] البداية والنهاية ۹:۱۰۷.

[۱۴] البداية والنهاية ۹:۱۰۸.

[۱۵] البداية والنهاية ۹:۱۰۴.

[۱۶] الإصابة ۳:۳۱۸.

[۱۷] البداية والنهاية ۹:۴۶.

[۱۸] البداية والنهاية ۹:۴۷.

[۱۹] الإصابة ۳:۳۱۸.

[۲۰] البداية والنهاية ۹:۱۲۶.

[۲۱] البدایة والنهایة ۱۲۸:۹.

[۲۲] البدایة والنهایة ۱۲۸:۹، وقال ابن کثیر رواه غیر واحد.

[۲۳] البدایة ۱۲۸:۹.

[۲۴] البدایة والنهایة ۱۲۸:۹.

[۲۵] البدایة والنهایة ۱۲۹:۹.

[۲۶] رواه البخاری (کنز العمال ۱۹۸:۱۲).

[۲۷] ذحل:أی ثأر.

[۲۸] رواه الإمام أحمد والبیهقی (کنز العمال ۲۰۶:۱۲).

[۲۹] مروج الذهب ۱۳۵:۳.

[۳۰] المغفر:الدرع الذی یغطی به الرأس.

[۳۱] مروج الذهب ۱۳۵:۳.

[۳۲] الطبری ۲۰۲:۷.

[۳۳] البدایة والنهایة ۲۲۲، ۲۲۹:۸.

[۳۴] مروج الذهب ۱۳۸:۳.

[۳۵] مروج الذهب ۱۳۸:۳.

[۳۶] ابن أبی شیبة (کنز ۲۵۱:۱۱).

[۳۷] ابن أبی شیبة (کنز ۲۵۱:۱۱).

[۳۸] ثبت ذلک فی الصحیحین راجع: فتح الباری ۱۹۵:۱۳، البدایة والنهایة ۳۵۳:۸.

[۳۹] أسد الغابة ۳۴۴:۳.

[۴۰] مروج الذهب ۱۴۶:۱۴۷:۵.

[۴۱] تاریخ الخلفاء ۲۰۵:۱.

[۴۲] تاریخ الخلفاء ۲۰۵:۱.

ما أشبه اللیلة بالبارحة

ریاح الفرعونیة

لکل شئ فی الوجود مقدمة، ولم یعد من المقبول أن نقف عند النتیجة

ونقول: ما الذی جاء بهؤلاء؟ لأن الفطرة لا تسمح بهذا الشطط، ومعرکة التاریخ تصرخ من حولنا وتقول: إن ثغرة صغیرة عند المقدمة، قد تؤدی إلی فیضان کبیر عند النتیجة. ولم یعد مقبولا أن نمر علی الأحداث التاریخیة بفکر یقدم أسوا الحلول، لأن الحقیقة لا تقبل إلا أن تکون کلمة الله هی العلیا. فعند مقدمة ما، قتل الحسین بن علی، والنبی صلی الله علیه وسلم یقول ": والذی نفسی بیده، لا تقتلوه بین ظهرانی قوم لا یمنعونه، إلا خالف الله بین صدروهم وقلوبهم. وسلط علیهم شرارهم وألبسهم شیعا [" ۱] ولقد جاؤوا

وجلسوا فوق الرقاب عذابا واختبارا، وفی دولتهم یقول الإمام علی، قال رسول الله صلی الله علیه وسلم... ": تطول دولتهم حتی لا یدعون لله محرما إلا استحلوه، ولا یبقی بیت ولا مدد ولا وبر، إلا دخله ظلمهم. وحتی یکون أحدکم تابعا لهم، وحتی تکون نصرة

أحدكم منهم كنصرة العبد من سيده. إذا شهد أطاعه، وإذا غاب سبه، وحتى يكون أعظمكم فيها - أى فى دولتهم - غنا أحسنكم بالله ظنا، فإن آتاكم الله بالعافية فاقبلوا [۲] ، فإن ابتليتم فاصبروا، فإن.

[صفحه ۳۵۴]

العاقبة للمتقين [۳] وتحت أعلامهم أتى الله بالعافية، فلم يقبل عليها إلا القليل،

وتحت السيوف حبسوا وقتلوا وتأبى السماء أن تترك قتلهم بغير عقاب. وجاء الوليد بن عبد الملك كنتيجة لمقدمة، كما جاء فرعون موسى فى الدولة الحديثة (۱۵۷۵ - ۹۴۵ قبل الميلاد) هاضما للتجربة الفرعونية كلها، منذ بدأت فى العصور التاريخية (۲۷۸۰ قبل الميلاد). فكان تجسيدا حيا للشذوذ الذى دونه آباءه فى عالم الانحراف. وعلى امتداد تاريخ الفرعون، غرست بذور لم تمت شجرتها بموت الفرعون، وإنما امتدت ظلال الشجرة لتشمل عصور الدولة الفرعونية المتأخرة (۹۴۵ - ۳۴۳ ق. م). ثم تمتد بعد ذلك إلى دولة الإغريق، ودولة الرومان، بعد اندحار دولة الفراعنة أمام الغزاة الإغريق. فالفراعنة كانوا فى عالم الأموات، وشذوذهم له أعلام فى عالم الأحياء. وفيهم يقول تعالى: (وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون - وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين) [۴] قال

المفسرون: الدعوة إلى النار، هى الدعوة إلى ما يستوجب النار من الكفر والمعاصى. ومعنى جعلهم أئمة يدعون إلى النار، تعييرهم سابقين فى النار، يقتدى بهم اللاحقون. وقوله تعالى: (وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة....)، أى لكونهم أئمة يقتدى بهم من خلفهم فى الكفر والمعاصى، لا- يزال يتبعهم ضلال الكفر والمعاصى، من مقتديهم ومتبعيهم، وعليهم من الأوزار مثل ما للمتبعين فيتبعهم لعن مستمر، باستمرار الكفر والمعاصى بعدهم. فالآية فى معنى قوله تعالى: (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم) [۵] .

ففرعون امتص التجربة والوليد بن عبد الملك امتصها أيضا. يقول النبى صلى الله عليه وسلم ": ليكونن فى هذه الأمة رجل يقال له الوليد، لهو أشر

[صفحه ۳۵۵]

على هذه الأمة من فرعون لقومه [" ۶] وقال ابن حزم: الوليد بن عبد الملك، كان يركب حمارا ويمشى فى الأسواق، ويحتسب على البقالين وهو أحد الفراعنة [۷] .

والوليد ملأ الأمة رعبا، واعتمد لها بذرة فكرية ما زالت تعمل حتى زماننا هذا، أما كونه الأمة رعبا، فلقد عده ابن حزم فى المسرفين فى الدماء [۸] .

وذكر غير واحد أن الوليد كان جبارا عنيدا [۹] وكان شديد السطوة لا يتوقف

عند الغضب. ولا ينظر فى عاقبة، وتهون عليه الدماء [۱۰] وروى أن عمر بن

عبد العزيز قبل أن يتقلد الخلافة وكان الوليد بالشام، والحجاج بالعراق، وعثمان بن حبارة بالحجاز، وقرة بن شريك بمصر. قال: امتلأت الأرض والله جورا [۱۱] .

وعندما تقلد الوليد الخلافة قال: الحمد لله على ما أنعم علينا من الخلافة، قوموا فبايعوا [۱۲] وقال: أيها الناس، عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة، فإن الشيطان مع الواحد. أيها الناس،، من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذى فيه عيناه، ومن سكت مات بدائه [" ۱۳] وعاصفة الدماء التى أقرها الوليد، أشرف على تنفيذها الحجاج بن يوسف. وروى أن الحجاج وفد على الوليد بن عبد الملك، فلما رأى الوليد ترجل له وقبل يده، وجعل يمشى وعليه درع، وكنانة، وقوس عربية. فقال له الوليد: إركب يا أبا محمد. فقال له الحجاج: دعنى يا أمير المؤمنين استكثر من الجهاد، فإن ابن الزبير وابن الأشعث شغلانى

[صفحه ۳۵۶]

عنك [۱۴] .

وسار الجلاد وراء رفيق لا يطمع فى أحسن منه، وفى هذا الوقت كان على بن الحسين يقيم الحجة على أرضية ثقافة السب، ويتحرك تحركا لا تمليه إلا الدعوة. وكان على بن الحسين كما ذكرنا من قبل، راية هدى يعرفها الخاص والعام. وروى أن هشام بن إسماعيل، كان أحد ولاة الوليد بن عبد الملك على المدينة، وعندما عزله الوليد. مر به على بن الحسين. فناداه هشام قائلا ": الله يعلم حيث يجعل رسالته [" ۱۵] فالحجة ظاهره. وفى نفس الوقت بيوت المال

مفتوحة، والسيوف مرفوعة، والله ينظر إلى عباده كيف يعملون. وفى الوقت الذى كانت فيه حجة الله ظاهرة، كان خدام الوليد، يرفعونه فوق مرتبة النبوة كما رفعوا والده من قبل. وروى عن نافع مولى بنى مخزوم قال: سمعت خالد بن عبد الله القسرى يقول: على منبر مكة، وهو يخاطب الناس: أيها الناس. أيهما أعظم، خليفة الرجل على أهله أم رسوله إليهم؟ والله لم تعلموا فضل الخليفة. إن إبراهيم خليل الرحمن استسقاه فسقاه ملحا أجاجا. واستسقى الخليفة فسقاه عذبا فراتا. قال ابن كثير: وهذا الكلام يتضمن كفرا إن صح عن قائله. قد قيل أن الحجاج بن يوسف نحو هذا الكلام، من أنه جعل الخليفة أفضل من رسول الله الذى أرسله الله. وكل هذه الأقوال تتضمن كفر قائلها [۱۶] ويبدو أن الوليد قد انتفخ بهذه الأقوال، كما انتفخ فرعون بأقوال

الكهنة والرعاع من قبل. فروى أن الوليد قال لإبراهيم بن أبى زرعة: أيحاسب الخليفة؟ فقال: يا أمير المؤمنين أنت أكرم على الله أم داوود. إن الله جمع له النبوة والخلافة، ثم توعده فى كتابه فقال: يا داوود [" ۱۷] .

لقد كان الفرعون يدعى أنه ابن آمون، وأبناء آمون فوق المسألة، لما قال

[صفحه ۳۵۷]

هامان، وكهنة الترقيع والتلجيم والاحتناك، على امتداد التاريخ الفرعونى الذين دونوا شذوذ الانحراف تحت أعلام، حور، ورع، وآمون رع، وغير هؤلاء من أعلام الشيطان والدجل [۱۸] وها نحن قد رأينا الوليد يجلس على أفخم كرسى،

وهو لا يعلم هل يحاسب الخليفة أم لا. وقد وصفه الذهبى فى دول الإسلام، بأنه: كان دميما، سائل الأنف، يختال فى مشيته، قليل العلم [۱۹] ، وقال ابن كثير: كان لا يحسن العربية، فجمع جماعة من أهل النحو فأقاموا عنده سنة. وقيل: ستة أشهر. فخرج يوم خرج أجهل مما كان [۲۰] وفرعون موسى كان أشد

جهلا، فهو الذى طلب من هامان أن يوقد له على الطين، وأن يجعل له صرحا كى يطلع إلى إله موسى. ولقد شهد الله بجهل فرعون فقال: (وأضل فرعون قومه وما هدى) [۲۱] ومن دائرة الجهل قاد فرعون المسيرة، ولكن بأعلام

الدين، فقال لقومه وهو يصد عن السبيل طمعا فى أن يبعدهم عن دعوة موسى عليه السلام: (إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد) [۲۲] .

وقام بتنفير قومه من خط موسى، وهارون عليهما السلام فقال: (إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى) [۲۳] وعلى طريق فرعون سار الرعاع، (فاتبعوا أمر فرعون وما أمر

فرعون برشيد) [۲۴] ورفعت أعلام وصيحات الفرعونية (قالوا اقتلوا أبناء الذين

آمنوا معه واستحيوا نساءهم) [۲۵] وذهب فرعون وقومه. ثم جاءت الأيام على

امتداد التاريخ لتحمل معالمهم، لأن الاستخلاف من سنة الوجود لينظر الله كيف تعملون، وكما أن الأيام تتشابه، فكذلك تكون القلوب (كذلك قال الذين من

[صفحه ۳۵۸]

قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون) [۲۶] وتحت

مظلة الأيام تختبر القلوب على امتداد التاريخ الإنسانى... (وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء) [۲۷] ، وكما كان فى عالم الفرعون ابتلاء، كذلك كان فى عهد الوليد بن عبد الملك امتحان، فالوليد جلس على كرسى الحكم أحد

عشر سنة تقريبا، وقبل وفاته بستة أشهر، مات ذراعه الأيمن الحجاج بن يوسف الثقفى. وكان عد من قتله الحجاج صبرا، سوى من قتل فى زحوفه، وحروبه مائة ألف وعشرين ألفا [۲۸] وروى أن الحجاج مات

وفى حبسه خمسين ألف رجل وثلاثين ألف امرأة [۲۹] منهن ستة عشر ألفا

مجردة [۳۰] وكان يحبس النساء والرجال فى موضع واحد [۳۱] .

[۱] رواه الطبرانى (الزوائد ۹:۱۹۰).

[۲] فاقبلوا:أى تقدموا.

[۳] رواه الطبرانى ورجاله ثقات (الزوائد ۹:۱۹۱).

[۴] سورة القصص: الآية ۴۱ و ۴۲.

[۵] سورة العنكبوت: الآية ۱۳.

[۶] رواه الإمام أحمد وقال الهيثمى رجاله ثقات (الزوائد ۵:۲۴۰، ۷:۳۱۳) ورواه البيهقى، (الخصائص الكبرى ۲:۲۲۷).

[۷] رسائل ابن حزم ۲:۷۱.

[۸] رسائل ابن حزم ۲:۷۵.

[۹] مروج الذهب ۳:۱۹۲، البداية والنهاية ۹:۱۶۴.

[۱۰] التنبيه والإشراف ۱:۲۹۰.

[۱۱] تاريخ الخلفاء ۱:۲۰۸.

[۱۲] البداية ۹:۷۰.

[۱۳] البداية ۹:۷۰.

[۱۴] مروج الذهب ۳:۱۹۴.

[۱۵] البداية ۹:۷۱.

[۱۶] البداية ۹:۷۶.

[۱۷] تاريخ الخلفاء ۱:۲۰۸.

[۱۸] الخوف والجوع:للمؤلف - تحت الطبع.

[۱۹] دول الإسلام:الذهبى ۱:۵۵.

[۲۰] البداية والنهاية ۹:۱۶۱.

[۲۱] سورة طه: الآية ۷۹.

[۲۲] سورة غافر: الآية ۲۶.

[۲۳] سورة طه: الآية ۶۳.

[۲۴] سورة هود: الآية ۹۷.

[۲۵] سورة غافر: الآية ۲۵.

[۲۶] سورة البقرة: الآية ۱۱۸.

[۲۷] سورة آل عمران: الآية ۱۴۰.

[۲۸] التنبيه والإشراف ۱:۲۹۰.

[۲۹] المصدر السابق ۱:۲۹۱.

[۳۰] المجردة:التی نزع شعرها.

[۳۱] مروج الذهب ۲۰۴:۳.

تشابه القلوب

إذا کان الولید قد ارتکب الجرائم، التی ارتکبها آبائه من قبل، وزادوا علیه

أنهم اقتحموا المساجد ورموا الکعبة وقتلوا الذین اشتری الله أنفسهم. فماذا کان الولید من دونهم جمیعا الذی وضع فی دائرة الفرعون، وکان خطره علی الأمة أشد من خطر فرعون علی قومه؟ فی البدایة نقول: إن القرآن الکریم أشار إلی أن الرسالة الخاتمة جاءت لتخاطب الجمیع، وعلی رأسهم الفراعنة الجدد. ولعلمه سبحانه أن الفراعنة الجدد سیسحقون شعوبهم، ویتخذون مال الله دولا، ودین الله دخلا وعباد الله خولا جعل خطاب الرسالة الخاتمة موجه إلی الفراعنة وشعوبهم بمعنی أنه خاطب الشعوب باعتبار أن منهم الفراعنة، وخاطب الفراعنة علی اعتبار أنهم یمسکون برقبة شعوبهم. فالشعوب والفراعنة جزء واحد فی

[صفحه ۳۵۹]

جسد واحد، قال تعالی: (إنا أرسلنا إلیکم رسولا شاهدا علیکم کما أرسلنا إلی فرعون رسولا - فعصی فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبیلا) [۱] .

فالخطاب لجبابرة قریش، ولم یقل لهم مثلا: کما أرسلنا إلی مدین رسولا، أو إلی ثمود رسولا، وإنما قال: (کما أرسلنا إلی فرعون رسولا)، لقد وضعهم فی کفة النمط البشری المستکبر الذی یتسلق من أجل العلو فی الأرض. ولیس معنی هذا أن المجتمع القرشی کله فی صدر الدعوة کان یحمل البصمة الفرعونیة، لأن مجتمع فرعون موسی کان به مؤمن آل فرعون والسیدة آسیة وفی هذا کفایة، لأن الدعوة لا تقاس باللحوم وکثرة العدد وإنما تقاس بالصدق والثبات علی المبدأ. فقریش کانت تقف فی الصدر الأول علی أرضیة الفراعنة. وهم علی نفس الأرضیة خاطبهم القرآن، وذکرهم أن فرعون عصی الرسول وخطه المتمثل فی هارون. ولما کانت المقدمة تحمل عصیان فإن النتیجة جاءت بالأخذ الوبیل. والولید بن عبد الملک کما ذکرنا کان الشخص الذی امتص التجربة کلها، داخل النفسیة القرشیة المتمثلة فی الظالمین من بنی أمیة. وإذا کنا قد علمنا أن أوتاد الخیمة الفرعونیة القدیمة تقویم علی أرضیة مصالح الفرعون. والتی هی نفسها مصالح الدائرة الفرعونیة من کهنة وغوغاء ورعاع. وأن أهم هذه الأوتاد قول فرعون (یا أیها الملأ ما علمت لکم من إله غیری) [۲] وأن فرعون بقوله

هذا قام بتعطیل منهاج الفطرة، وجعل من نفسه مصدرا للتشریع. ثم قوله: (ما أریکم إلا ما أری) [۳] ، قال المفسرون: أی ما أقول لکم وأشیر علیکم إلا ما أراه لنفسی. وإنه علی یقین مما یهدی إلیه قومه..... وأنه بهذا القول جعل من مقعده حیث الجهل والظلام منبرا للعلم، وأن هذه الأوتاد ما کان لها أن تقوم إلا علی أرضیة ثقافیة استخفت بالعقول علی دروب المتاجرة بالدین. ألم یقل لهم:

[صفحه ۳۶۰]

(إنی أخاف أن یبدل دینکم أو أن یظهر فی الأرض الفساد) [۴] فطریقه إلی

عقولهم کی یستخفهم کان یحمل عنوان الدین الذی التقی مع أهوائهم. إذا کنا قد علمنا ذلک من سیرة الفرعون کما قصها القرآن الکریم، وعلمنا أیضا أن هذه الحرکة الفرعونیة کانت تجری علی أرضیة الفتنة، لقوله تعالی: (فما آمن لموسی إلا ذریة من قومه علی خوف من فرعون وملائهم أن یفتنهم) [۵] ، فإن الولید بن عبد الملک الذی امتص تجربة بنی أمیة وضع هو وقائمة المنتفعین والمتسلقین معه منهجا یلتقی فی خطوطه العریضة مع المنهج الفرعونی الذی یقوم علی قوله: (ما أریکم إلا ما أری) [۶] وهذا المنهج دخل

إلی الغالب الأعم فی الأمة کما دخل إلی قوم فرعون من قبل، وذلک لأنه دخل من باب قوله: (إنی أخاف أن یبدل دینکم أو أن

یظهر فی الأرض الفساد) [۷] ، وکانت حرکة منهج الولید تستقیم مع حرکة المنهج الفرعونی فی اتجاه الفتنة یقول تعالی لرسوله صلی الله علیه وسلم: (هو الذی أنزل علیک الکتاب منه آیات محکمات هن أم الکتاب وأخر متشابهات فأما الذین فی قلوبهم زیغ فیتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأویله) [۸] .

ولقد ذکرنا من قبل أن القرآن الکریم کتاب طاهر ولا یمسه بتأویل إلا طاهر، وهذا الطاهر لا بد أن یکون بنص وإلا ادعی کل إنسان الطهارة. وذکرنا أن أجر الرسالة الخاتمة لا یصب إلا فی وعاء مودة ذی القربی، وأن دائرة ذی القربی دائرة لها رأس. وکما أن لکل قوم سادة حتی النحل له سادة، کذلک دائرة ذی القربی فإن لها سادة یرتبطون بالقرآن ولا ینفصلا حتی یردا علی الحوض. فهؤلاء رفعهم الله یعلمهم درجات، بمعنی أنهم یمتازون عن بقیة الأمة بعلمهم

[صفحه ۳۶۱]

الذی رفعهم به الله درجات، فإذا ذهبوا ذهب العلم، لأن ذهاب العلم ذهاب حملته ویترتب علی ذلک التیه قال النبی صلی الله علیه وسلم ": مثل العلماء فی الأرض، مثل النجوم فی السماء، إذا ظهرت ساروا بها وإذا توارت عنهم تاهوا [" ۹] فالعلماء تحت سقف الأمة شربوا من علوم دائرة ذی القربی وساروا

بمشاعلهم حتی لا یسقطوا فی حفر الفتن یقول النبی صلی الله علیه وسلم ": النجوم أمان لأهل السماء، وأهل بیتی أمان لأمتی [" ۱۰] فتحت مشاعل أهل

البیت یکون الأمان من الفتن ومن کل مکروه، لأنهم مع کتاب الله الهادی ثقلین فی حبل واحد. یقول الزرقانی فی شرح المواهب: أما الکتاب فلأنه معدن العلوم الدینیة، والأسرار والحکم الشرعیة، وکنوز الحقائق، وخفایا الدقائق. وأما العترة، فلأن العنصر إذا طاب أعان علی فهم الدین، فطیب العنصر یؤدی إلی حسن الأخلاق، ومحاسنها یؤدی إلی صفاء القلب ونزاهته وطهارته [۱۱] .

وقال صاحب التاج الجامع للأصول: قال النبی صلی الله علیه وسلم ": أحسنوا خلافتی فیهما باحترامهما، والعمل بکتاب الله وما یراه أهل العلم من آل البیت أکثر من غیرهم [" ۱۲] .

فإذا کنا قد علمنا ذلک، وعلمنا کیف حورب أهل البیت حتی لا یقوموا فی الأمة بالعمل الذی یستقیم مع مرتبة العلم التی فضلهم الله بها وبغیرها، وکیف قتل أمیر المؤمنین الذی علیه نص بأنه یقاتل علی التأویل حتی لا تکون فتنة ویکون الدین کله لله، فإذا کنا قد علمنا هذا وغیره علی امتداد هذا الکتاب، فلم یبق إلا أن نقول إن ذهاب العلم، وذهاب حملته، یفتح الطریق أمام الذین یبتغون الفتنة. ولدینا العدید من النصوص التی تقول بأن حرکة بنی أمیة ما هی إلا حرکة فتنة علی طریقها ترفع أعلام أغیلمة وسفهاء قریش الذین یتخذون ما الله دولا، وعباد الله خولا، ودین الله دخلا. وفی عالمهم یقتل المتقین، وتضیع الصلاة،

[صفحه ۳۶۲]

ویقرأ القرآن خلف لا یجاوز تراقیهم، ویکون القتال فیه علی الملک. فعلوم الفتن إنتاج طبیعی لمقدمة ذهب فیها العلم. ومعنی: ذهب فیها العلم. أنه لا یوجد إلا فی المکان الذی ذهب إلیه. ومشاعله لا توجد إلا فی المکان الذی توارت فیه.

[۱] سورة المزمل: الآیة ۱۵ – ۱۶.

[۲] سورة القصص: الآیة ۳۸.

[۳] سورة غافر: الآیة ۲۹.

[۴] سورة غافر: الآیة ۲۶.

[۵] سورة یونس: الآیة ۸۳.

[۶] سورة غافر: الآیة ۲۹.

[۷] سورة غافر: الآیة ۲۶.

[۸] سورة آل عمران: الآیة ۷.

[۹] رواه الإمام أحمد (کشف الخفاء ۴۰۵:۲).

[۱۰] رواه أبو یعلی (کشف الخفاء ۴۳۶:۲)، (کنز العمال ۱۰۲:۱۲).

[۱۱] شرح المواهب ۲:۸.

[۱۲] التاج الجامع للأصول ۴۸:۱.

دائرة الرؤیة الفرعونیة

والولید بن عبد الملک الذی وصف بأنه " قلیل العلم [" ۱] ، وأنه کان " لا یحسن العربیة، وجمع أهل النحو فأقاموا عنده فخرج یوم خرج أجهل مما کان [" ۲] ، الولید هذا کان رأس دائرة تتأول کتاب الله علی طریق الفتنة، کما تأول فرعون صفحة الوجود فنادی " ما أریکم إلا ما أری، " وکما التقط الفرعون الزاد من تراث آبائه. کذلک فعل الولید بن عبد الملک. لقد کانت دائرة القدر أهم دائرة تجول فیها بنی أمیة والتقطوا منها کل ما یستقیم مع أعمالهم، ثم قذفوا بما التقطوه إلی علمائهم لیتأولوه، ویضعوا علیه رداء الدین لیعبر إلی الغالب الأعم من الأمة بکل سهولة وبکل یسر. والکلام فی القدر کلام قدیم. قال تعالی: (سیقول الذین أشرکوا لو شاء الله ما أشرکنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شئ کذلک کذب الذین من قبلهم حتی ذاقوا بأسنا قل هل عندکم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم ألا تخرصون) [۳] یقول الآلوسی فی تفسیره: ولم

یریدوا بهذا الکلام الاعتذار عن ارتکاب القبیح... بل هم یحسبون أنهم یحسنون صنعا، وأنهم یعبدون الأصنام لتقربهم إلی الله زلفی، وإن ما ارتکبوه حق ومشروع، ورضی الله عنه بناء علی أن المشیئة والإرادة تساوی الأمر وتستلزم الرضا. فیکون حاصل کلامهم: إن ما ارتکبوه من الشرک والتحریم وغیرهما مما تعلقت به مشیئة الله وإرادته، وکل ما تعلقت به مشیئة الله وإرادته فیه مشروع

[صفحه ۳۶۳]

مرضی عنه [۴] ولقد رد علیهم القرآن الکریم وبین أن الذین من قبلهم قالوا

مثل قولهم فذاقوا العذاب، والعذاب لا یکون نتیجة لفعل رضی الله عنه. ثم بین أن قولهم لا یستند إلا علی الوهم والخیال. وتحداهم إن کان عندهم علم بهذا فلیخرجوه. ولقد أراد طابور الشرک فی مکة أن ینسج من مسائل القدر عقبات أمام الرسالة الخاتمة، ولکن القرآن الکریم أطاح بنسیجهم فی آیات کثیرة ومنهم أیضا قوله تعالی: (وقال الذین أشرکوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه شئ)، ثم صرف الله تعالی الخطاب عنهم لسقوط فهمهم وقال لنبیه: (کذلک فعل الذین من قبلهم فهل علی الرسل إلا البلاغ المبین - ولقد بعثنا فی کل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) [۵] ، قال المفسرون: فکأنهم یقولون: لو کانت النواهی التی جاءت بها الرسالة حقة، وإن النواهی لله سبحانه، کان الله سبحانه شاء أن لا نعبد شیئا غیره، وأن لا نحرم دونه شیئا، ولو شاء الله سبحانه أن لا نعبد غیره ولا نحرم شیئا، لم تعبد ولم نحرم لاستحالة تخلف مراده عن إرادته، لکنا نعبد غیره، ونحرم أشیاء، فلیس یشاء شیئا من ذلک، فلا نهی ولا أمر منه تعالی، ولا شریعة ولا رسالة من قبله. هذا تقریر حجتهم علی ما یعطیه السیاق ومغزی مرادهم. إن عبادتهم لغیر الله وتحریمهم لما حرموه، وبالجملة عامة أعمالهم، لم تتعلق بها مشیئة من الله ینهی، ولو تعلقت لم یعملوها. ثم قال تعالی لنبیه: (کذلک فعل الذین من قبلهم فهل علی الرسول إلا البلاغ المبین)، خطاب للنبی یأمره تعالی أن یبلغ رسالته بلاغا مبینا، ولا یعتنی بما لفقوه من الحجة، فإنها داحضة والحجة التامة علیهم بالبلاغ. فالذین من قبلهم قالوا بهذا ولو کان قولهم صحیحا ما أذاقهم الله بأسه ودمر علیهم. وهؤلاء رکبوا سنن الذین من قبلهم وقالوا قولهم، ولقد أرسل الله لهم رسولا لیزیل من عقولهم بصمات سلفهم الضال. فالبلاغ حجة

[صفحه ۳۶۴]

عليهم بأن حركتهم نحو الأصنام والطاغوت حركة ليس لله فيها أى نصيب. لقد كان القول القدر يدور فى إحياء المشركين عند بعثة النبى صلى الله عليه وآله وسلم. وبعد النبى حمل تركه القول بالقدر طابور النفاق وجميع تيارات الهدم والصد عن سبيل الله. وظهر القول بالقدر فى عصر عمر بن الخطاب عندما دخل أحبار اليهود فى الإسلام، وعندما اتسعت دائرة الفتوحات وتسربت المفاهيم الغير إسلامية إلى ديار المسلمين، ولما جاء عصر الإمام على، واجه الإمام هذه التيارات... روى أن الإمام على عند مسيره إلى صفين قيل له: أخبرنا عن مسيرنا إلى صفين أكان بقضاء الله وقدره؟ فقال: والذى فلق الحبة، وبرأ النسمة، ما وطأنا موطئا، ولا هبطنا واديا، إلا بقضاء الله وقدره. فقال السائل: فعند الله أحتسب عناى، ما أرى من الأجر شيئا. فقال الإمام: مه أيها الشيخ: لقد عظم الله أجركم فى سيركم وأنتم سائرون، وفى منصرفكم وأنتم منصرفون، ولم تكونوا فى شئ من أحوالكم مكرهين ولا مضطرين، فقال الشيخ: وكيف القضاء والقدر ساقنا؟ فقال الإمام: ويحك، لعلك ظننت قضاء لازما وقدرا حتما، لو كان ذلك لبطل الثواب والعقاب، والوعد والوعيد، والأمر والنهى. ولم تأت لائمة من الله لمذنب. ولا محمدة لمحسن. ولم يكن المحسن أولى بالمدح من المسئ. ولا المسئ أولى بالذم من المحسن. تلك مقالة عباد الأوثان، وجنود الشيطان، وشهود الزور أهل العمى عن الصواب. وهم قدرية هذه الأمة ومجوسها. إن الله أمر تخييرا ونهى تحذيرا، وكلف تسييرا، ولم يعصه مقلوبا، ولم يطع كارها. ولم يرسل الرسل إلى خلقه عبثا، ولم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلا. ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار. فقال الشيخ: فيما القضاء والقدر اللذان ما سرنا إلا بهما؟ فقال الإمام: هو الأمر من الله تعالى والحكم، ثم تلا قوله تعالى: (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) [۶] .

وروى أن سائلا قال للإمام على: يا أمير المؤمنين أخبرنى عن القدر. فقال

[صفحه ۳۶۵]

الإمام: يا سائل. إن الله خلقك كما شاء أو كما شئت؟ قال: كما شاء فقال الإمام: إن الله يبعثك يوم القيامة كما شئت أو كما يشاء؟ قال: كما يشاء، فقال الإمام: يا سائل. ألك مشيئة مع الله أو فوق مشيئته. أو دون مشيئته. فإن قلت مع مشيئته، أدعيت الشركة معه، وإن قلت دون مشيئته، استغنيت عن مشيئته وإن قلت فوق مشيئته كل مشيئتك غالبة على مشيئته. ثم قال الإمام: يا سائل. ألست تسأل العافية؟ قال السائل: نعم، فقال الإمام: عن ماذا تسأله العافية؟ أمن بلاء هو ابتلاك به، أو من بلاء غيره ابتلاك به؟ قال الرجل: من بلاء ابتلانى به. فقال الإمام: ألست تقول لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. قال السائل: بلى، فقال الإمام: أتعرف تفسيرها؟ قال: لا يا أمير المؤمنين علمنى مما علمك الله. فقال: تفسيره إن العبد لا قدرة له على طاعة الله ولا على معصيته. يا سائل، إن الله يسقم ويداوى، منه الداء ومنه الدواء، ثم قال: لو وجدت رجلا من أهل القدر لأخذت بعنقه ولا أزال أضربه حتى أكسر عنقه، فإنهم يهود هذه الأمة [۷] وظلت تيارات القول بالقدر تحفر فى جدار الأمة حتى بعد وفاة الإمام على. روى أن الإمام الحسن بن على بعث برسالة إلى قوم من أهل البصرة ادعوا الجبر فقال: من لم يؤمن بقضاء الله وقدره فقد كفر، ومن حمل ذنبه عليه ربه فقد كفر. إن الله لا يطاع استكراها، ولا يعصى لغلبة، لأنه المليك لما ملكهم، والقادر على ما أقدرهم عليه. فإن عملوا بالطاعة لم يحل بينهم وبين ما فعلوا، وإن عملوا بالمعصية فلو شاء لحال بينهم وبين ما فعلوا. فإن لم يفعلوا، فليس هو الذى أجبرهم على ذلك، فلو أجبر الخلق على الطاعة لأسقط عنهم الثواب. ولو أجبرهم على المعاصى، لأسقط عنهم العقاب [۸] .

فهذا الكلام صادر من عند سادة أهل البيت، فإذا ذهبوا ذهب العلم الذى إذا ضبط المرء حدوده خصم من خالفه. ومع بروز الدولة الأموية انشغل الأمراء

[صفحه ۳۶۶]

بالقتال على الدنيا، وتفرق المسلمون أثر السياسة التى اتبعتها الدولة، وضعف أمر الدين وتغلبت المطامع والأهواء على عقول المسلمين، وصدت الدولة كل دعوة تدعو المسلمين للاحتفاظ بعقيدتهم الحقة، ووقف العامة والغوغاء حاجزا أمام الدعاة المصلحين الذين دعوا الأمة للتمسك بسيرة السلف الصالح من المهاجرين والأنصار. وكان الرعاع دعاة سوء. وملتقى كل من يريد هدم الإسلام،

وحولوا القوهٔ التی حصنها الإسلام لصالحهم الخاص، وجردوا السیف علی رقاب الأئمهٔ والقادهٔ والعلماء لأنهم لم یسیروا فی رکابهم. وعندما اشتغل المسلمون بالفتن الداخلیهٔ، وجانبوا تعالیم القرآن، اندس بین المسلمین رجال دخلوا فی الإسلام من فرس ونساطرهٔ ویعاقبه ویهود، وتزینوا بزی العلماء وأظهروا المحافظهٔ علی تعالیم القرآن. ثم أدخلوا عقائدهم السابقهٔ من القول بالحلول والقدر والجبر فی عقیدهٔ المسلمین، وفسروا آیات کتاب الله حسب ما یؤید ما یذهبون إلیه. ففریق أخذ بظاهر تلک الآیات، وفریق آخر أولها، فنشأت القدریهٔ فی ثوبها الجدید، وبالغ القدری فی القدر، فجعل العبد خالقا لأفعاله، وبالغ الجبری فی مقابلته فسلب عنه الفعل والاختیار، وبالغ المعطل فی التنزیه فسلب عن الله صفات الجلال ونعوت الکمال، وبالغ المشبه فی مقابلته، فجعله کواحد من البشر له وجه ویدین [۹].

وهکذا عصفت ریاح الفتن داخل الجماجم البشریهٔ فی الدولهٔ الأمویهٔ التی قاتلت أصحاب العلم وجاؤوا بما قاله المشرکون عند البعثهٔ النبویهٔ ولکن فی ثوب جدید براق. ولقد اتفق العلماء کافهٔ علی أن القول بالقدر شاع فی الدولهٔ الأمویهٔ، وأن الدولهٔ احتضنت هذا التیار وتبنته حتی ترعرع علی تربتها [۱۰]، وفکرهٔ القضاء والقدر التی طرحتها أجهزهٔ الصد عن سبیل الله هدفها وضع العالم فی حیرهٔ واضطراب فکری، ینتج عن ذلک عدم تقدیس الشرائع، وعدم التقید

[صفحه ۳۶۷]

بنواهیها، وإلی ارتکاب المحظورات التی حظرتها الدیانات السماویهٔ بحجهٔ أنها بقضاء الله تعالی. واحتضان الدولهٔ الأمویهٔ لهذا التیار الهدف منه التعتیم علی ما ورد فی شأنهم، وخضوع المسلمین لهم بحجهٔ أن قیادتهم مفروضهٔ علیهم بقضاء الله وقدره، وأن أی تمرد علیهم هو تمرد علی قضاء الله وعن أول من قال بالجبر فی ثوبه الجدید یقول الشیخ محمد أبو زهرهٔ: إننا نجزم بأن القول فی الجبر شاع فی أول العصر الأموی وکثر حتی صار مذهبا فی آخره... وقد قالوا إن أول من فعل ذلک بعض الیهود، فقد علموه بعض المسلمین وهؤلاء أخذوا ینشرونه. ویقال إن أول من دعا إلی هذه النحلهٔ من المسلمین " الجعد بن درهم، " وقد تلقاه عن یهودی بالشام، ونشره بین الناس بالبصرهٔ. ثم تلقاه منه " الجهم بن صفوان [" ۱۱]، ولم یکن الجهم یقول بالجبر یقول بالجبر فقط بل إن جهما کان یدعو إلی آراء أخری [۱۲]، تتعلق بالجنهٔ والنار، ورؤیهٔ الله یوم القیامهٔ وغیر ذلک. وهکذا تشابکت فروع الشجرهٔ الأمویهٔ مع فروع شجرهٔ أهل الکتاب. بعد أن التقطوا منهم فکرهٔ الجبر فی ثوبها الجدید، لأنها تتلائم ومبدأهم السیاسی. ومن المعلوم أن الشام عاصمهٔ الخلافهٔ الأمویهٔ کانت متبعا للدیانات والآراء المختلفهٔ. کان الأمویون یتسامحون مع رؤوساء الأدیان، ویعقدون مع القیاصرهٔ معاهدات الصلح لیتفرغوا للمسلمین فی قتالهم علی الملک. وفی أثناء هذه المعاهدات کان الأحبار الجدد یتسللون لتکملهٔ بناء الأحبار الأوائل. وکان الأمویون یقربون الأحبار إلیهم. ومن الثابت أیضا أن سرجون النصرانی کاتب معاویهٔ ومن بعده یزید ثم مروان بن الحکم [۱۳]، وکاتم أسرار الدولهٔ الأمویهٔ کان علی رأس الجبریهٔ [۱۴].

فالدولهٔ الأمویهٔ باتفاق جمیع علماء الفرق تبنت تیار الجبریهٔ، لأن تحت

[صفحه ۳۶۸]

خیمتهم لا- تظهر عورات بنی أمیهٔ، وعلی منابرهم یجد فقهاؤهم أبوابا للخروج من کل مأزق. فإذا قیل لهم لماذا قاتلتم علیا ثم قمتم بسبه بعد ذلک؟ أو لماذا قتلتم حجر بن عدی واستلحقتم زیاد وقتلتم الحسین؟ أو لماذا اجتحتم المدینهٔ یوم الحرهٔ ثم توجهتم إلی مکهٔ لرمیها بالحجارهٔ، أو لماذا استخذتم مال الله دولا وعباد الله خولا ودین الله دخلا وضیعتم الصلاهٔ؟. فإذا قیل لهم هذا أو غیره قالوا: کل هذا بقضاء الله وقدره. وعلی هذا أجمعت الأمهٔ. فمن أبی فالسیف. ولما کانت الدولهٔ الأمویهٔ قد أخذت الخطوهٔ الرسمیهٔ فی اتجاه سنن الذین خلو من قبل، فإن أهل الکتاب قد أخذوا خطوهٔ إضافیهٔ تتفق مع أهدافهم التی یسارعون من أجل تنفیذها فی الفساد، فقاموا بتغذیهٔ الساحهٔ بتیار مضاد لتیار الجبریهٔ لسبب رئیسی هو وضع المسلمین فی حلقهٔ من الحیرهٔ والاضطراب الفکری حتی لا یصلوا إلی الحقیقهٔ التی تغذی الفطرهٔ. فی التیار الذی قذفوا به هو تیار القدریهٔ وهذا التیار یعمل تحت عنوان: إن کل فعل للإنسان هو إرادته

المستقلة عن إرادة الله سبحانه وتعالى [۱۵] وهذا العنوان يعارض تيار الجبرية

معارضة تامة. فبينما تقوم الجبرية على تحجر الإنسان والوقوف كحجر عثرة أمام سعيه ونضاله وتدعو الإنسان للخضوع والاستسلام لأولياء الأمر، بدعوى أن الله قدر عليهم أزلا. أن يكونوا محكومين للطغاة، وكما قال الشاعر:

جرى قلم القضاء بما يكون++

سيان منك التحرك والسكون

جنون منك أن تسعى لرزق++

ويرزق فى غشاوته الجنين [۱۶] .

فإن تيار القدرية يعمل على الخط المقابل، والهدف من وراء ذلك العمل على اشتغال الساحة وفى جميع الحالات فالنتيجة لصالح أهل الكتاب. ويقول الشيخ أبو زهرة عن أول من تكلم فى القدر ووضع وتد هذا التيار على أرض الواقع: أول من تكلم فى القدر رجل من أهل العراق كان نصرانيا، فأسلم ثم تنصر. وأخذ عنه معبد الجهنى، وغيلان

[صفحه ۳۶۹]

الدمشقى [۱۷] وأخذ بنى أمية من هذا التيار كل ما يتفق مع طروحاتهم السياسية فيما يتعلق بالخلافة والأسماء والصفات، ثم تصدوا بعد ذلك لأتباع هذا التيار فقتل منهم من قتل وهرب من هرب. ولكن المذهب لم يمت بل دام بعد ذلك فى البصرة قرونا طويلة فرخ فيها، بل تحول عند طائفة منهم إلى ما يشبه مذهب الثنوية الذين جعلوا العالم محكوما بقوتين النور والظلمة [۱۸] .

وظلت طائفة الجبرية رافعة لأعلامها التى لا تطاولها أعلام، وظلت تتقدم لجعل دين؟ الله دخلا ولاتخاذ عباد الله خولا، وكانت فى تقدمها ترتدى ثياب الدين وفى يدها سيف فرعون. وفى هذا الوقت الذى تزاحمت فيه الأفكار ظهر بالساحة أسئلة تبحث لها عن إجابات مثل: هل مرتكب الكبيرة مؤمن أم غير مؤمن؟ وهل يضر مع الإيمان ذنب؟ وكان مصدر هذه التساؤلات تلك الجرائم البشعة التى ارتكبها الخلفاء والأمراء ابتداء من مقتل الحسين، ومرورا باجتياح المدينة، وانتهاءا برمى الكعبة. فجميع هذه الجرائم تتم باسم الدين، والفطرة السوية ترفض جميع التبريرات والترقيعات التى تدافع هذه الأعمال الوحشية. وأمام هذه الأسئلة برز تيار " المرجئة" ليباشر عمليات التكميم والتعمية. وبذور المرجئة وضعت فى عهد عبد الملك بن مروان [۱۹] ثم احتضن الوليد بن

عبد الملك هذه البذور تحت إشراف أهل الكتاب، حتى ترعرع شجرها ثم أصبح غابة. وذهب العديد من العلماء إلى أن بذور وضعها الصحابة الذين اعتزلوا أحداث عثمان، ولم يشاركوا فى القتال بين أمير المؤمنين على ومعاوية أمثال: سعيد بن أبى وقاص، وعبد الله بن عمر، وأبو بكرة [۲۰] فهؤلاء الصحابة

يقول النووى فى موقفهم: إن القضايا كانت بين الصحابة مشبهة، حتى أن جماعة منهم تحيروا فيها فاعتزلوا الطائفتين، ولم يقاتلوا ولم يتيقنوا الصواب [" ۲۱] .

[صفحه ۳۷۰]

وقالوا إن هؤلاء الصحابة الذين اعتزلوا الطائفتين، أرجئوا الحكم فى أى الطائفتين أحق، وفوضوا أمورهم إلى الله تعالى، وعلى هذا تكون هذه الطائفة من الصحابة أول من وضع بذرة الإرجاء. ومن وجهة نظرى فأنا لا أوافق على هذا التصور، لأن من الصحابة من تأول الأحداث بصورة خاطئة ثم ندم بعد ذلك. ومنهم من كان يخاف من سيوف الجلادين، ويعلم أنهم سيجلسون على الكراسى الأولى فى نهاية الأحداث كما أخبر النبى. فآثر الصمت والسكون ومنهم من اكتفى بمراقبة الأحداث من بعيد، خوفا على رأسه من سيف أبى الحسن فى الوقت الذى كان يحشد فيه الناس ليقفوا وراء معاوية. وبالجملة: لم يكن هناك إرجاء، وإنما كانت هناك مصالح. ولا يوجد صحابى اعتزل القتال إلا وهو يعلم أن عليا كان صاحب الحق فى جميع معاركه التى خاضها. ولا يوجد صحابى وضع عليا فى كفة ومعاوية فى كفة ليرى أيهما أرجح. فأين الإرجاء والنبى صلى الله عليه وسلم ترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها،

والأحداث فى عهد الصحابة كان فيها من الله برهان يجذب العقل إليه ويدعوه إلى التمييز؟ والقول بأن الصحابة كانوا يخافون من الوقوع فى الفتن فأرجئوا الحكم فى الأحداث إلى الله تعالى، لا يتعادل من أصناف الفتن، يقول تعالى: (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) [۲۲] فهل خافوا من الوقوع فى هذه الفتن؟ إن التاريخ لم يسجل ذلك للكثير منهم. فلماذا خافوا هناك ولم يخافوا هنا. ثم كيف يهربون من الفتن وتحت سقفها يختبر الله تعالى عباده، قال تعالى: (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون - ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) [۲۳] .

إن الله تعالى يبتلى ما فى الصدور، ويمحص ما فى القلوب بأحداث تجرى على صفحة الوجود. ومخاصمة الفتن فى القرن الأول لا يستقيم مع حركة هذا الوجود، لأن هناك أحداث لا بد فيها من القتال حتى لا تكون فتنة ويكون الدين

[صفحه ۳۷۱]

كله الله، وهناك فتن يقذف بها تيارات الهدم، فلا بد من التصدى لها وكشف أوتاد النفاق فيها [۲۴] والمال والبنون لا يمكن مخاصمتهما وهما من الفتن، إنما

يتم التعامل معهما بميزان الله تعالى. إن المخاصمة لا يستقيم مع حركة الوجود، والذى يستقيم هو التعوذ من مضلات الفتن. وعلى ما سبق لا نوافق بأن توضع بذرة الإرجاء على أرضية اعتزال الصحابة أيام قتال أمير المؤمنين على ومعاوية، لأن التاريخ يشهد بأن هذه البذرة وضعت من أجل احتناك الكثير من عباد الله، ولتتعانق شجرتها مع شجرة الجبرية فى ليل واحد. وبذرة المرجئة أمام الناقد البصير شربت من نفس الماء الذى شرب منه الجبرية، وصبت ثمارها فى سلتهم بصورة أو بأخرى. لقد دخلوا من باب الفلسفة، والفلسفة عندما تكون أجوبتها عقلية أو منطقية، تولد عن الإنسان قناعة فكرية بما سمع. أما إذا جعلت الجمود لها مادة والمتاهات لها ديار، ثم دخلت من باب القضاء والقدر، فهنا تكمن الكارثة. لأن هناك الكثير من بنى الإنسان يؤثر عليهم الكلام فى القضاء والقدر، وينتهى بهم التفكير فى مسائله إلى عدة طرق: إما متشائمين، وإما مستسلمين، أو مضطربين فكرا أو سلوكا. وهذا التفكير يدفع بأصحابه فى أحد طريقين: إما طريق الاستسلام للقدر نتيجة لفهمهم الخاص، وإما أن ينسبوا إلى الله تعالى الظلم أو يكفروا به مطلقا، أو يكفروا به وهم لا يشعرون. وإذا كان بنو أمية وأهل الكتاب هم الذين يشرفون على مطبخ الفلسفة فلا خير يرجى من عندهم. لقد التقط الوليد بن عبد الملك بذرة الإرجاء التى تركها له والده [۲۵] ومن

الذين جهزوا وزودوا تيار الإرجاء يوحنا الدمشقى، الذى كان يتمتع بشهرة كبيرة فى عاصمة الأمويين، وكان يقوم ببحوث دينية فى الوقت الذى كان الناس يتحدثون فيه عن الإرجاء [۲۶] ، ولقد ذكر أكثر من واحد أن هناك صلة بين مبادئ

[صفحه ۳۷۲]

المرجئة، وبين تعاليم الكنيسة الشرقية التى ينتمى إليها يوحنا الدمشقى. [۲۷] هذا عن الأصابع التى وراء تيار المرجئة. أما عن ظروف ظهور التيار يقول د. خليف: إن نزعة الإرجاء اشتدت فى الفترة التى تبدأ من مصرع الحسين، وتمتد إلى خلافة عمر بن عبد العزيز - أى فترة يزيد، ومروان، وعبد الملك والوليد، وسليمان بن عبد الملك - ومن الطبيعى أن تشتد نزعة الإرجاء فى هذه الفترة. لأنها فترة اضطراب سياسى وقلق نفسى. وأخذ الناس فيها بالشبهة والظنة [۲۸] ومن المعروف أن الأمور فى الكوفة ازدادت سوء وشدة فى أعقاب مصرع الحسين، وانتشرت الثورات فيها بشكل قوى.. وأدركت الدولة الأموية أن الأمر لا بد مفلت من يدها، إن لم تقابل هؤلاء المتمردين بمنتهى القسوة والعنف. فسلطت عليهم أشد ولاتها عتوا وجبروتا، عبيد الله بن زياد، والحجاج بن يوسف، وترتب على هذا أن الكوفة عاشت فى ظلال حكم دكتاتورى رهيب [۲۹] .

وأمام هذا برزت التساؤلات، هل مرتكب الكبيرة مؤمن أم غير مؤمن؟ وهل يضر مع الإيمان ذنب؟ إن القوم قتلوا الحسين وكانوا يرفعون أعلاما إسلامية، والقوم فتحوا السجون وأخذ البرئ بذنب المذنب. ولم يعد الإنسان يأمن إذا أصبح أن يمسى، وإذا أمسى أن يصبح... كل هذا يتم باسم الإسلام، فأين الحقيقة؟ هل الذين يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس يعتبروا فى دائرة الأمان؟ كيف

والله قال فى كتابه (فبشرهم بعذاب أليم) [۳۰] هل من يقتل مؤمنا متعمدا لا يضره شئ، كيف والله تعالى قال: (فجزاؤه جهنم خالدا فيها) [۳۱] هل الذين يشهدون الزور ويقيمون كل يوم خيمة للهو، وإذا مروا بآية من آيات الله مروا عليها كأنهم صما وعميانا هل هؤلاء لا يضر مع إيمانهم ذنب؟

[صفحه ۳۷۳]

كيف وهؤلاء لا يجزون الفرقة ولا يلقون تحية ولا سلاما. وكانت هناك أسئلة عن قيمة العمل وقيمة حركة الإنسان فى عالم الابتلاء والاختبار. فالله تعالى قرن الإيمان والعمل فى حبل واحد فقال: (إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات) [۳۲] وميز سبحانه بين عمل المؤمن وبين عمل المفسد،

فقال: (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض) [۳۳] ، وقال: (وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسئ) [۳۴] فأين هذا من الذى يجرى فى الساحة؟ فهذه الأسئلة وغيرها كانت

تطرح على أرض الواقع، الذى اعتمد حكامه مذهب الجبرية إماما لهم، وأمام هذه الأسئلة تجرح القاضى وهو فى الوقت نفسه السياف، لإيجاد الدواء المناسب لهذه الأسئلة وغيرها. والضمير الآثم إذا بحث عن الدواء، جاء به من حركة أوزاره الماضية. يقول د. خليف: فى هذا الجو السياسى المضطرب، ظهرت المرجئة.. مذهبا سياسيا مسالما... والدولة الأموية كانت عاملا قويا على استقرار مذهب المرجئة... وسارع الناس إلى اعتناق المذهب الذى وجدوا فيه وسيلة للعيش فى سلام واطمئنان مع الحكومة الدكتاتورية. ووجد الأمويون فى هذا المذهب ضالتهم المنشودة، التى كانوا يتمنون أن يعثروا عليها وسط الاتجاهات والمذاهب المتعددة المعادية لهم [۳۵] ويقول

د. شوقى ضيف عن هذه الاتجاهات: إن أفكار المرجئة تخدم البيت الأموى، الذى كان فى رأى الشيعة وكثير من الأتقياء منحرفا عن الجادة الدينية، وينبغى أن يغيره المسلمون ويضعوا مكانه البيت العلوى. والمرجئة لم يكونوا يوافقونهم على هذا الرأى، لأنهم لا يريدون المفاضلة بين المسلمين ولا الحكم على أحد بتقوى وغير تقوى، فالمسلم يكفى أن يكون مسلما [" ۳۶] .

[صفحه ۳۷۴]

فالمذهب جاء لينضم إلى بقية المعاول التى عملت من أجل ضياع الحقيقة وتشويه الدين. جاء ليقف بالناس على أرضية واحدة. ولأن الناس ينظرون إلى أعمال بنى أمية نظرات ارتياب وشكوك. قام المذهب بذبح الأعمال التى تميز هذا عن ذاك. وليس معنى هذا أن بنى أمية وأصحاب المقاعد الأولى قد تساوت رؤوسهم مع بقية الناس، لأن مذهب الجبرية فصل بين الناس وجعلهم يستسلمون لبنى أمية وأصحاب مقاعدهم. يقول د. خليف: ومسألة الإيمان مسألة تتصل اتصالا وثيقا بمبادئ المرجئة السياسية، فقالت طائفة: إن الإيمان مصدره القلب، فيكفى إن يكون الإنسان مؤمنا فى قلبه، وليس الاقرار باللسان ولا الأعمال من صلاة وصوم ونحوهما جزء من الإيمان. وقالت طائفة أخرى: الإيمان ركنان: تصديق بالقلب، وإقرار باللسان. لا بد منهما معا ليكون المرء مؤمنا كامل الإيمان صحيح العقيدة. ومعنى هذا أن المرجئة جميعا يتفقون على أن العمل ليس ركنا من أركان الإيمان [۳۷] ويقول الشيخ أبو زهرة عن عقائدهم: قرروا أنه لا يضر

مع الإيمان ذنب فقالوا: إن الإيمان إقرار وتصديق واعتقاد ومعرفة، ولا يضر مع هذه الحقائق معصية. فالإيمان منفصل عن العمل، بل منهم زعم أن الإيمان اعتقاد بالقلب وإن أعلن الكفر بلسانه وعبد الأوثان، أو لزم اليهودية والنصرانية فى دار الإسلام وعبد الصليب. وأعلن التثليث فى دار الإسلام، ومات على ذلك فهو مؤمن كامل الإيمان عند الله عز وجل ومن أهل الجنة! بل إن بعضهم زعم أن لو قال قائل: اعلم أن الله قد حرم أكل الخنزير، ولا أدرى هل الخنزير الذى حرمه هو هذه الشاة أم غيرها كان مؤمنا. ولو قال: أعلم أنه قد فرض الحج إلى الكعبة. غير أنى لا أدرى أين الكعبة ولعلها بالهند كان مؤمنا.. ويظهر من هذا أنهم تجاوزوا الحد فى الاستهانة بالعمل، من حيث اتصاله بأصل الإيمان. ومن حيث أثره فى دخول الجنة إن كان صالحا، ودخول النار إن كان غير صالح. بل كان إثما

منفيا. فاستهانوا أيضا بأصل الإيمان فحرفوا حقيقة، وجعلوه مجرد

[صفحه ۳۷۵]

الاذعان القلبى وإن خالفته الجوارح.... وفى وسط تلك الأقوال غير السليمة وجد من المتعقبين لهذا المذهب من يستهين بحقائق الإيمان وأعمال الطاعات. ومن يستهين بالفضائل، واتخذه مذهبا له كل مفسد مستهتر. حتى لقد ذكر فيه المفسدون واتخذوه ذريعة لمآثمهم ومنهلا لمفاسدهم، ومسايرا لنياتهم الخبيثة، وصادف هوى أكثر المفسدين [۳۸] .

وهكذا تعانقت الأشجار على سنن الأولين، وهكذا فرضت الدولة المذهب الذى تراه يستقيم مع مبادئها على طريق فرعون. لقد أعطت المرجئة للطغاة ثياب المؤمنين، وأعطت الجبرية لهم سيفا قاطعا. ويا له من عالم لم يمت فيه فرعون وهامان، عالم تخصص فى الاحتيال على الناس بالعنف أو بالحسنى لتحتفظ فيه الجبارين بالكراسى، ويا له من فقه بالخديعة يستلب الأرواح. وكأن صوت فرعون قد جاء من بعيد ويقول: كل هذا يلائم سياستنا المرسومة، هذا هو منطق التجربة الذى يتصرف بوحيه كل من سار على طريقى. فأنا أضع الخطة وأنتم تقومون بالتنفيذ. أنا أنصب الشرك وأنتم تحطمون الفروع الزائدة على الحاجة حتى يتم اقتناص الطائر.. وهكذا فإن على القائد الطموح إن أراد أن يحافظ على مركزه أن يتصرف كصائد مع شعبه. وكما حذر النبى صلى الله عليه وآله وسلم من بنى أميه، ووضع الوليد فى كفة الفراعنة. فإن صلى الله عليه وسلم ذم القدرية والمرجئة من قبل أن يعرف الناس عنهما شيئا. وذلك وهو يقيم الحجة على القرون من بعده بصفة عامة وعلى القرن الأول بصفة خاصة. فقال ": صنفان من أمتى ليس لهم من الإسلام نصيب: المرجئة والقدرية [" ۳۹] وقال ": اتقوا القدر فإنه شعبة من

النصرانية [" ۴۰] ولقد رأينا بصمات أهل الكتاب على هذه المذاهب.. وقال

[صفحه ۳۷۶]

رسول الله صلى الله عليه وسلم ": ينعق الشيطان بالشام نعقه يكذب ثلثاهم بالقدر [" ۴۱] وقال صلى الله عليه وسلم ": صنفان من أمتى لعنهم الله على

لسان سبعين نبيا، القدرية والمرجئة الذين يقولون الإيمان إقرار ليس فيه عمل [" ۴۲] وقال النبى صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام ": الإيمان

بالقلب واللسان والهجرة بالنفس والمال [" ۴۳] وقال ": ليس الإيمان بالتمنى ولا

بالتحلى، ولكن: هو ما وقر فى القلب وصدقه العمل [" ۴۴] وقال ": الإيمان

والعمل أخوان شريكان فى قرن لا يقبل الله أحدهما إلا بصاحبه [" ۴۵] وقال " لا

يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين [" ۴۶] وقال:

"لا يقبل إيمان بلا عمل ولا عمل بلا إيمان [" ۴۷] وقال ": لا يستقيم إيمان عبد

حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، ولا يدخل الجنة حتى يؤمن جاره بوائقه [" ۴۸] .

وهكذا أقام النبى صلى الله عليه وسلم الحجة، وفيها ظهرت بصمات أهل الكتاب على هذه المذاهب، وتم تعرية الذين ذبحوا العمل على طريق الاحتناك. وهذه المذاهب التى صنعت من أجل حماية الطغاة ما جاءت إلا من طريق الذين لعنهم الله، وعلى رأسهم الشيطان قال تعالى بعد أن رفض الشيطان السجود لآدم (وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين) [۴۹] ، وقال عن فرعون وقومه أصحاب طروحات الاستكبار والجهل (وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة) [۵۰] ، وقال

[صفحه ۳۷۷]

عن الظالمين من أهل الكتاب الذى يسعون فى الأرض فسادا (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم) [۵۱] وقال عن المنافقين: (إن الذين يؤذون الله ورسوله

لعنهم الله فی الدنیا والآخرهٔ) [۵۲] ، إنه طریق واحد لأنماط متعددهٔ (أولئک الذین لعنهم الله ومن یلعن الله فلن تجد له نصیرا) [۵۳] .

من علامات طریق اللعن القردیهٔ والخنزیریهٔ، قال تعالی لرسوله صلی الله علیه وسلم: (قل هل أنبئکم بشر من ذلک مثوبهٔ عند الله من لعنه الله وغضب علیه وجعل منهم القردهٔ والخنازیر...) [۵۴] والقردیهٔ هی التقلید للشئ دون

الوقوف علی بدایته ونهایته ووسائله وأهدافه، والخنزیریهٔ هی البحث عن المادهٔ والتهامها من بین القاذورات، وعدم العفهٔ، وعدم الطهارهٔ، وبلادهٔ الحس، وعدم التبصر فی الأمور للوقوف علی حقیقهٔ الأمور. والظالمین من أهل الکتاب لهم علامات علی طریق اللعن فعندما نهاهم الله أن یعتدوا فی السبت، لم یلتزموا بما أمر الله به. فجاءهم العقاب قال تعالی: (فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم کونوا قردهٔ خاسئین) [۵۵] ، وکما اعتدت الیهود فی السبت اعتدی بنی أمیهٔ أیضا فی السبت.. روی أن الحسین قال قبل کربلاء " لو کنت فی جحر لأخرجونی واعتدوا علی کما اعتدت الیهود یوم السبت [" ۵۶] وعلی هذا فطریق القردیهٔ طریق

مفتوح. ولقد روی أن النبی صلی الله علیه وسلم قال: یمسخ قوم من أمتی آخر الزمان قردهٔ وخنازیر. قالوا: یا رسول الله ویشهدون أن لا إله إلا الله وأنک رسول الله. قال: نعم [۵۷] .

وطریق اللعن فی نهایته یجلس المسیح الدجال لیستقبل القردهٔ والخنازیر،

[صفحه ۳۷۸]

وأصحاب القدر الذین ساروا علی نهج بنی أمیهٔ. هم بلا شک فی مقدمهٔ الطابور إلی الدجال، قال النبی صلی الله علیه وسلم عن هؤلاء ": فإذا لقیتموهم فلا تسلموا علیهم، وإن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوا جنائزهم، فإنهم شیعهٔ الدجال [" ۵۸]

وکشف النبی صلی الله علیه وسلم خطوات هؤلاء

وما سیترتب علی هذه الخطوات داخل الأمهٔ، وکیف ستنتهی الحلقات جمیعا إلی الدجال فی حدیث رواه البغوی قال: وقال النبی صلی الله علیه وسلم: یکون قوم من أمتی یکفرون بالقرآن وهم لا یشعرون، کما کفرت الیهود والنصاری. یقرون ببعض القدر ویکفرون ببعضه. یقولون: الخیر من الله والشر من إبلیس، فیقرؤن علی ذلک کتاب الله، ویکفرون بالقرآن بعد الإیمان والمعرفهٔ. فما تلقی أمتی منهم إلا العداوهٔ والبغضاء والجدل. أولئک زنادقهٔ هذه الأمهٔ، فی زمانهم یکون ظلم السلطان، فیا له من ظلم وحیف وآثره. ثم یبعث الله طاعونا فیفنی عامتهم، ثم یکون الخسف، فما أقل من ینجوا منهم. المؤمن یومئذ قلیل فرحه شدید غمه، ثم یکون المسخ، فیمسخ الله هؤلاء قردهٔ وخنازیر، ثم یخرج المسیح الدجال علی إثر ذلک قریبا. ثم بکی رسول الله، حتی بکینا لبکائه وقلنا: ما یبکیک؟ قال: رحمهٔ لأولئک القوم، لأن فیهم المقتصد وفیهم المجتهد [" ۵۹] .

إن الدجال لن یستقبل قردهٔ وخنازیر، وإنما یستقبل أنماطا بشریهٔ فیها من القردیهٔ والخنزیریهٔ الکثیر. وهؤلاء إنتاج لحلقات کثیرهٔ [۶۰] علی رأسها أصحاب

القدر الذین جلسوا علی موائد أهل الکتاب، فأملوا علیهم من سننهم الکثیر. وعلی هذه التصورات قرأوا کتاب الله، فی عالم العداوهٔ والبغضاء والجدل وظلم السلطان. إنه طریق اللعن والجدل العقیم والبصیرهٔ المطموسهٔ. وفی نهایهٔ هذا الطریق یجلس فی لیل احتجبت نجومه وتواری قمره. فاحتضن ظلامه

[صفحه ۳۷۹]

الذین تشابهت قلوبهم علی امتداد التاریخ الإنسانی. فالدجال فتنهٔ فی سلتها تقع جمیع الفتن وذیولها منذ کانت الدنیا.

[۱] دول الإسلام:الذهب ۱:۲۰۸.

[۲] ابن کثیر (البدایهٔ والنهایهٔ ۹:۱۶۱).

[۳] سورهٔ الأنعام: الآیهٔ ۱۴۸.

[۴] تاریخ المذاهب الإسلامیهٔ:محمد أبو زهرهٔ ۹۹.

[۵] سورة النحل: الآیة ۳۵ – ۳۶.

[۶] الصواعق:ابن حجر ص ۱۳۰.

[۷] تاریخ الفرق الإسلامیة:محمد خلیل الزین ص ۷۳.

[۸] تاریخ الفرق الإسلامیة:محمد خلیل الزین ۷۰.

[۹] المصدر السابق ۴۲.

[۱۰] راجع: تاریخ المذاهب الإسلامیة:محمد أبو زهرة ص ۱۰۴ – ۱۱۱، وتاریخ الفرق الإسلامیة:خلیل الزین ص ۶۶.

[۱۱] تاریخ المذاهب الإسلامیة ص ۱۰۲، تاریخ الفرق الإسلامیة:محمد خلیل ص ۶۸.

[۱۲] تاریخ المذاهب الإسلامیة ۱۰۶.

[۱۳] التنبیه والإشراف:المسعودی ۲۸۵:۱.

[۱۴] تاریخ الفرق الإسلامیة:الزین ص ۶۹.

[۱۵] تاریخ المذاهب الإسلامیة ص ۱۱۱، تاریخ الفرق الإسلامیة ص ۷۹.

[۱۶] تاریخ الفرق الإسلامیة:الزین ص ۸۱.

[۱۷] تاریخ المذاهب الإسلامیة ص ۱۱۲، تاریخ الفرق الإسلامیة ص ۴۰.

[۱۸] تاریخ المذاهب الإسلامیة ص ۱۱۷.

[۱۹] رسائل ابن حزم ص ۱۶۳.

[۲۰] تاریخ المذاهب الإسلامیة ص ۱۲۰.

[۲۱] تاریخ المذاهب الإسلامیة ص ۱۲۰.

[۲۲] سورة التغابن: الآیة ۱۵.

[۲۳] سورة العنکبوت: الآیة ۲ – ۳.

[۲۴] روی عن علی أنه قال ": لا تکرهوا الفتنة فی آخر الزمان فإنها تبیر المنافقین " رواه أبو نعیم کنز العمال ۱۸۹:۱۱.

[۲۵] رسائل ابن حزم ص ۱۶۳.

[۲۶] حیاة الشعر فی الکوفة:د. یوسف خلیف ص ۳۱۲.

[۲۷] المصدر السابق ص ۳۱۲.

[۲۸] المصدر السابق ۳۱۳.

[۲۹] المصدر السابق ۳۱۴.

[۳۰] سورة آل عمران: الآیة ۲۱.

[۳۱] سورة النساء: الآیة ۹۳.

[۳۲] سورة الحج: الآیة ۱۴.

[۳۳] سورة ص: الآیة ۲۸.

[۳۴] سورة غافر: الآیة ۵۸.

[۳۵] المصدر السابق ۳۰۹.

[۳۶] التطور والتجدید فی الشعر الأموی ص ۵۰.

[۳۷] تاریخ الشعر فی الکوفة ۳۱۰.

[۳۸] تاریخ المذاهب الإسلامیهٔ ص ۱۲۲.

[۳۹] رواه البخاری فی التاریخ والنسائی وابن ماجهٔ والخطیب والطبرانی (کنز العمال ۱۱۸:۱).

[۴۰] رواه ابن أبی عاصم والطبرانی وابن عدی (کنز العمال ۱۱۹:۱).

[۴۱] رواه البیهقی وابن عساکر (کنز العمال ۱۴۰:۱).

[۴۲] رواه الدیلمی عن حذیفهٔ، والحاکم عن أبی أمامهٔ (کنز ۱۳۵:۴).

[۴۳] رواه عبد الخالق بن زاهر فی الأربعین (کنز ۲۴:۱).

[۴۴] ابن النجار (کنز ۲۵:۱).

[۴۵] ابن شاهین (کنز ۳۶:۱).

[۴۶] رواه أحمد والبیهقی والنسائی وابن ماجهٔ (کنز ۳۷:۱).

[۴۷] رواه الطبرانی (کنز العمال ۶۸:۱).

[۴۸] رواه الإمام أحمد (الزوائد ۵۳:۱).

[۴۹] سورهٔ ص: الآیهٔ ۷۸.

[۵۰] سورهٔ القصص: الآیهٔ ۴۲.

[۵۱] سورهٔ المائدهٔ: الآیهٔ ۱۴.

[۵۲] سورهٔ الأحزاب: الآیهٔ ۵۷.

[۵۳] سورهٔ النساء: الآیهٔ ۵۲.

[۵۴] سورهٔ المائدهٔ: الآیهٔ ۶۰.

[۵۵] سورهٔ الأعراف: الآیهٔ ۱۶۶.

[۵۶] الطبری ۲۱۷:۶، البدایهٔ والنهایهٔ ۱۶۹:۸.

[۵۷] رواه نعیم ابن حماد (کنز العمال ۲۸۰:۱۴).

[۵۸] رواه الحاکم (کنز العمال ۱۳۸:۱).

[۵۹] رواه الطبرانی والبغوی کنز العمال حدیث ۳۸۸۲۸.

[۶۰] راجع شرح الحدیث فی کتابنا عقیدهٔ المسیح الدجال، ط دار الهادی بیروت.

نظرات علی الأطلال

صدود وردود

لم یقف تیار الحق موقف الذلیل علی امتداد هذه الأحداث، فالاضطهاد لم یقل عزیمهٔ الذین یسیرون علی طریق علی بن أبی طالب، فکانوا یصرخون فی وجه الباطل ویضحون بالغالی والنفیس فی سبیل المحافظهٔ علی الإسلام والوقوف فی وجه أعداء الحق. وکانت ثورهٔ الحسین وحجته قد علمت الناس التضحیهٔ، وعلم الناس أن بنی أمیهٔ یعاملون الذین یجهرون بمخالفتهم إما بالسیف، وإما علی أنهم من المؤلفهٔ قلوبهم، وعن طریق المال تتلاشی مقاومهٔ خصومهم. ورفض اتباع الحق أن یقفوا داخل مربع المؤلفهٔ قلوبهم لحساب بنی أمیهٔ، وجاءت الأیام بثورهٔ زید بن علی بن الحسین عام ۱۲۲ ه، ذکر ابن الأثیر: إن ثورهٔ زید بن علی جاءت فی وقت بدت البغضاء للأمویین بنفوس الشعب [۱] .

ودعا زيد إلى العمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وجهاد الظالمين، وإعطاء المحرومين، وقسم الفئ بين أهل بالسوية، ورد المظالم. ووطد زيد ثورته ببث الدعاة والرسل، وضاعف اتصاله بزعماء البلاد والعلماء وزعماء العشائر وحملة القرآن والحديث، ومن كان له أثر فعال فى توجيه الرأى العام. ولم يقف الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك بن مروان من هذه الثورة موقفا يختلف عن موقف آبائه وهم يدافعون عن دنياهم، فبعث جيشا جرارا لقتال زيد بن على يقول المسعودى: فلما قامت الحرب انهزم أصحاب زيد... وحال المساء بين الفريقين، فراح زيد مثخنا بالجراح وقد أصابه سهم فى جبهته. فأتى بحجام من بعض القرى فأخرج النصل، ومات زيد، فدفنوه فى ساقية ماء، وجعلوا على قبره التراب والحشيش، وأجرى الماء على ذلك. وذهب الحجام

[صفحه ۳۸۰]

فأخبر يوسف بن عمر الثقفى قائد جيش هشام بن عبد الملك، ودله على قبره، فاستخرجه يوسف وبعث برأسه إلى هشام. فكتب إليه هشام: أن اصلبه عريانا. - صلبه يوسف كذلك [۲] وظل مصلوبا حتى أيام الوليد بن يزيد الذى أمر بإنزاله

وحرق جثته ويقال إن زيدا مكث مصلوبا أربع سنين [۳] .

وعندما مضى عهد هشام بن عبد الملك وجاء من بعده عهد الوليد بن يزيد، الذى يقول فيه الذهبى: اشتهر الوليد بالخمر والتلوط فخرجوا عليه لذلك [۴] وقال فيه أيضا: كان الوليد فاسقا مهتكا [۵] ، فعندما جاء عهد هذا

الخليفة، قام يحيى بن زيد بن على بن الحسين بثورته. ولكن الخليفة الفاسق تصدى لها بعامته وغوغائه، وبعث جيشا جرارا فاقتتلوا ثلاثة أيام أشد قتال، حتى قتل أصحاب يحيى كلهم، وقتل يحيى واحتزت رأسه، وصلب بالجوزجان من بلاد خرسان، وبعثت رأسه إلى نصر بن سيار، فبعث به نصر إلى الوليد بن يزيد [۶] ويقول المسعودى كان ظهور يحيى فى آخر سنة ۱۲۵ ه وقيل فى أول

سنة ۱۲۶ ه [۷] .

ويقول المسعودى عن الخليفة الأموى الوليد بن يزيد الذى ثار عليه يحيى بن زيد: كان الوليد بن يزيد صاحب شراب ولهو وطرب وسماع للغناء، وهو أول من حمل المغنيين من البلدان إليه، وجالس الملهين، وأظهر الشراب والملاهى والعزف، وفى أيامه غلبت شهوة الغناء على الخاص والعام، واتخذ القيان وكان متهتكا ماجنا خليعا [۸] وذكر أن الوليد ألحد فى شعر له ذكر فيه

النبى صلى الله عليه وآله وسلم. وإن الوحى لم يأته عن ربه. كذب أخزاه الله

[صفحه ۳۸۱]

ومن ذلك الشعر:

تلعب بالخلافة هاشمى++

بلا وحى أتاه ولا كتاب

فقل لله يمنعنى طعامى++

وقل لله يمنعنى شرابى

وقال ابن كثير: فى خلافة هشام أمر الوليد بن يزيد على الحج سنة ۱۱۶ ه، فأخذ معه كلاب الصيد خفية ولكن أمرها قد انكشف واصطنع الوليد قبة على قدر الكعبة، وعزم أن ينصب تلك القبة فوق سطح الكعبة ويجلس هو وأصحابه هنالك، واستصحب معه الخمور وآلات الملاهى وغير ذلك من المنكرات. فلما وصل إلى مكة هاب أن يفعل ما كان قد عزم عليه من الجلوس فوق ظهر الكعبة. خوفا من الناس ومن إنكارهم عليه ذلك [۹] وقال ابن كثير:

وبعد موت هشام قصد الوليد دمشق، واستعمل العمال وجاءته البيعة من الآفاق وجاءته الوفود، وكتب إليه نائب أرمنية يبارك له فى خلافة الله له على عباده والتمكين فى بلاده [۱۰] .

وقال ابن كثير: كان هذا الرجل مجاهرا بالفواحش مصرا عليها، منتهكا محارم الله عز وجل لا يتحاشى من معصية، وربما اتهمه بعضهم

بالزندقة والانحلال من الدين فالله أعلم. لكن الذى يظهر أنه كان عاصيا شاعرا ماجنا متعاطيا للمعاصى. لا يتحاشاها من أحد، ولا يستحى من أحد، قبل أن يلى الخلافة وبعد أن ولى [۱۱] ، وذكر ابن كثير أن الوليد كان يحب نصرانية، وكان يذهب متنكرا إلى بستان قريب من الكنيسة للقائها. وفى لقاء من اللقاءات قال الوليد شعرا منه:

أضحك فؤادك يا وليد عميدا++

صبا قديما للحسان صيودا

فى حب واضحة العوارض طفلة++

رزت لنا نحو الكنيسة عيدا

ما زلت أرمقها بعينى دامعة++

حتى بصرت بها تقبل عودا

[صفحه ۳۸۲]

عود الصليب فويح نفسى من رأى++

منكم صليبا مثله معبودا

فسألت ربى أن أكون مكانه++

وأكون فى لهيب الجحيم وقودا [۱۲] .

وقال ابن كثير: قال القاضى أبو الفرج: أخبار الوليد كثيرة، قد جمعها الإخباريون مجموعة ومفردة، وقد جمعت شيئا من سيرته وأخباره، ومن شعره الذى ضمنه ما فجر به من جرأته وسفاهته وحمقه وهزله ومجونه وسخافة دينه، وما صرح به من الالحاد فى القرآن العزيز، والكفر بمن أنزله وأنزل عليه [۱۳] .

هذا هو الخليفة الذى يصدر القوانين، وقيل: الذى يقوم بأمر الدين، وقيل: صاحب الجماعة التى إذا خرج منها واحد مات ميتة جاهلية. فمن الذى يجرؤ أن يقيم الحد على الوليد أعلى سلطة فى الدولة؟ إن الوليد ما كان يرتعد إلا من صوت الحق. كانت دقات قلبه تقشعر من رعدة الخوف، لهذا كان يبعث بمن يأتيه بخبر أى تحرك. وما أن يخبروه، حتى يصدر أوامره للجلادين وقطاع الطرق والرقاب، وعلى الأعواد تصلب الأجساد، وبعد ذلك يخرج الوليد إلى مستنقع الرجل الذى لا يقام للقتل وإنما للهو الذى خرج من معطف المرجئة الذين فصلوا الإيمان عن العمل. وأفعال الوليد وأقواله لم تأت فجأة ولم تذهب سدى، فكما أن الوليد استلم مشاعلها فكذلك قام بتسليم مشاعلها وعلى امتداد هذا الطريق صلب أكثر من واحد من الذين عارضوا هذا العبث. وعن مشاعل الوليد يقول د. خليف: إننا أمام ظاهره اجتماعية شديدة الخطر لمن يسبق للمجتمع الإسلامى أن شهد مثلها، فلأول مرة فى تاريخ هذا المجتمع، نجد أنفسنا أمام خليفة ماجن متهتك خليع، نسى أنه أميرا للمؤمنين وأنه أمام المسلمين. فاندفع فى حياة لاهية مستهترة حتى أطلق عليه " الخليع " والناس على دين ملوكهم. وفعلا اندفع كثير من الناس يقلدون خليفتهم. دون أن يجدوا فى ذلك حرجا عليهم، أو يخشوا تنفيذ الحدود فيهم.. فإن الخليفة الوليد بن يزيد. لم يجد أحدا ينفذ فيه الحد،

[صفحه ۳۸۳]

لأنه هو نفسه صاحب الحق الشرعى فى تنفيذ الحدود، ولم يكن من المعقول أن ينفذ الحد فى نفسه، ولم يكن من المعقول أيضا أن ينفذه فيه غيره [۱۴] .

إن الناس لم يشعروا بالخجل بفضل عقيدة المرجئة، والوليد لم يشعر بالخجل بفضل عقيدة الجبرية. وفى موجة الغناء والشعر والمجون استجاب كثير من الشباب إلى النداء، ومضوا يغرقون همومهم فى هذه الحياة الصاخبة المعربدة، يقول د. خليف: وكثرت جماعات المجون، ودوت معزوفات ضخمة اشترك فيها مجموعات هائلة من العزاف. وعلى الجسر الذى يصل الشاطئين الأموى والعباسى

أخذت جماعات من المجان والخلعاء تمر فوقه لتستقبل على الشاطئ الآخر الرذيلة. وقد تجردت من ثيابها جميعا. وبسطت ذراعيها إلى أقصاها، لتضم إلى أحضانها هؤلاء الوافدين من طلابها، وتبلغ الغاوية مداها، ويتساقط الشباب تساقط الفراش المتهافت على النار. وكلما اشتدت ظلمة الهاوية، زاد عدد المتخبطين فيها، وفى أعماقها السحيقة، مضت جماعات من الشعراء تضرب على غير هدى. وقد ألف اللهو بينهم، وربط المجون بين أسبابهم. كلهم فاسق، وكلهم خليع، وكلهم سكير. وهذه المدرسة اللاهية، هى التى أرست قواعد غزل النساء، وغزل الغلمان. فالغزل فى هذه المدرسة لم يكن حديث العاطفة، وإنما كان حديث الغريزة، ولم يكن نجوى الروح. وإنما كان نداء الجسد. وعلى بناء هذه المدرسة كثرة طائفة الجوارى والمغنيات فى المجتمع الإسلامى، وعلى أكتاف هذه المدرسة انتشرت الزندقة ودقت أوتادها، وراج شعر الأديرة [۱۵] وكان الوليد بن عقبة، وصاحبة أو زبيد النصرانى أول من

حفر الحفرة لهذه البذرة فى عهد عثمان بن عفان. فمع شعر الأديرة، ومع الجوارى، سبحت الدولة الأموية فى آخر أيامها، ثم قامت بتسليم هذه الآفة الاجتماعية إلى الدولة العباسية، حيث كثر الرقيق فى هذه الدولة. وكانن الجوارى والغلمان والإيماء فيها من أجناس وثقافات وديانات

[صفحه ۳۸۴]

وحضارات مختلفة. فأثر هذا فى الحكام وأبنائهم. وكثر الجوارى فى القصور وكان بينهن من يعلقن الصلبان [۱۶] .

وكانت هذه الحلقة عضوا مهما فى اتباع سنن الأولين، وعلى امتداد المسيرة التاريخية، ولم يقف خط على بن أبى طالب من هذه الظاهرة وغيرها موقف الصامت. فمع بداية الدولة كان بنو العباس، وبنو على كشئ واحد، وتكاتفوا سويا من أجل تقديم الصورة الأفضل لحركة المسلمين على طريق الإسلام. وعندما جاء عهد أبى جعفر المنصور آخر عام ۱۳۶ ه وتغير الحال. فلقد أحاط المنصور نفسه بهالة كبيرة من القداسة، كان لها أسوأ الأثر فى خنوع الناس، وخضوعهم للظلم والفساد. وفى ظل حكمه الاستبدادى لم يحسب أى حساب للرعية. يقول الحافظ السيوطى: قتل المنصور خلقا كثيرا حتى استقام ملكه، وهو الذى ضرب أبا حنيفة على القضاء، ثم سجنه فمات بعد أيام، وقيل إنه قتله بالسم لكونه أفتى بالخروج عليه [۱۷] وإنه أول من أوقع الفتنة بين

العباسيين والعلويين وكانوا قبل شيئا واحدا [۱۸] وقتل المنصور جماعة كثيرة من

آل البيت، فإن لله وإنا إليه راجعون [۱۹] وكان يقول: لقد هجمت بالعقوبة حتى

كأنك لم تسمع بالعفو، لأن بنى مروان لم تبل رمحهم. وآل أبى طالب لم تغمد سيوفهم، ونحن من قوم رأونا أمس سوقه واليوم خلفاء. فليس تتمهد هيبتنا فى صدروهم إلا بنسيان العفو واستعمال العقوبة [۲۰] وفى عهد المنصور خرجت العديد من الرايات العلوية تطالب بأن تكون حركة المسلمين فى عالم الاختبار حركة إسلامية ليفوزوا بسعادة الدنيا والآخرة. وكان من هؤلاء محمد بن عبد الله بن الحسن (عام ۱۴۵ ه)، وكان يدعى بالنفس

[صفحه ۳۸۵]

الزكية لزهده ونسكه، وبويع له فى كثير من الأمصار. وتصدت جيوش الدولة لحركة محمد بن عبد الله، وانتهى الأمر بقتله لينضم إلى الشهداء الذين سبقوه وروى أن أبا جعفر المنصور جمع قادة حرسه وجيوشه وقال لهم: والله ما رأيت رجلا أنصح من الحجاج بن يوسف لبنى مروان، فقال له المسيب بن زهير: يا أمير المؤمنين، ما سبقنا الحجاج بأمر تخلفنا عنه، والله ما خلق الله على جديد الأرض [۲۱] خلقا أعز علينا من نبينا صلى الله عليه وسلم. وقد أمرتنا بقتل أولاده فأطعناك وفعلنا ذلك، فهل نصحناك أم لا؟ فقال له المنصور: اجلس لا جلست [۲۲] .

وهكذا عاد الحجاج من جديد، ولكن فى عالم يغلب عليه حياة الجوارى تلك الحياة التى خرجت بذرتها من غابة بنى أمية ليستظل تحتها القادم الجديد. وسارت أحوال خط على بن أبى طالب فى النظام العباسى بين أذى الدولة المكشوف، وبين أذى الطرق الخفية المضمونة النتائج والتى تتدثر فى رداء من الطيبة الظاهرة. حتى جاء عهد المتوكل فأمر بهدم قبر الحسين، وهدم ما حوله من الدور.

يقول السيوطى: وكان المتوكل معروفا بالتعصب، فتألم المسلمون من ذلك، وهجاه الشعراء، فمما قيل فى ذلك:

بالله إن كانت أمية قد أتت++

قتل ابن بنت نبيها مظلوما

فلقد أتاه بنو أبيه بمثله++

هذا لعمرى قبره مهدوما

أسفوا على أن لا يكونوا شاركوا++

فى قتله فتتبعوه رميما [۲۳] .

وقال السيوطى: قتل المتوكل يعقوب بن السكيت، الإمام فى العربية، فإنه ندبه إلى تعليم أولاده، فنظر المتوكل يوما إلى ولديه. المعتز والمؤيد وقال لابن السكيت: من أحب إليك هما أو الحسن والحسين. فقال: قنبر مولى على بن أبى طالب خيرا منهما. وعندئذ أمر المتوكل الأتراك فداسوا بطنه حتى مات،

[صفحه ۳۸۶]

وقيل: أمر بسل لسانه فمات [۲۴] .

وهكذا جمع بنى العباس فى منتصف رحلتهم الهلع المروع إلى الخوف المرتجف وألقوه على خط الإمام على بن أبى طالب. وعلى الرغم من ذلك ظل هذا الخط يعمل على امتداد الثلاثة قرون الأولى يقول النبى صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم ": سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أى الناس خير؟ قال: قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ["... ۲۵] ، وفى رواية عدد أربعة قرون [۲۶]

وقال النووى: قال الحسن وغيره القرن عشر سنين، وقال قتادة:

سبعون، وقال النخعى أربعون، وقال زرارة: مائة وعشرون، وقال عبد الملك: مائة [۲۷] .

والخيرية هنا لا تقاس بالفتوحات أو بالهجوم على المدينة أو مكة من أجل الملك، وإنما الخيرية عمودها الفقرى هو دعوة الناس إلى الخير والعمل على إصلاح ما أفسدوه. والخيرية هى التى تعمل من أجل بناء الإنسان العابد الصالح أولا. لأن شرط التمكين فى الأرض أن يكون العابد صالحين. قال تعالى: (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون - إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين) [۲۸] ، وشرط نزول البركات أن يكون الناس مؤمنين قال تعالى: (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) [۲۹] فالخيرية تسوق الناس إلى الله وتذكرهم بما نسوه، كى يرفع الله

عنهم العذاب الذى تعددت أشكاله وألوانه، لأن من السنن الإلهية أن الذين نسوا ما ذكروا به، كان حقا على الله أن يفتح عليهم أبواب كل شئ حتى إذا فرحوا بما

[صفحه ۳۸۷]

أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون - فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) [۳۰] .

والخيرية لها أعلام ومشاعل روى الترمذى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": يكون بعدى اثنا عشر أميرا كلهم من قريش [" ۳۱]

وروى الطبرانى:

"لا يزال هذا الأمر ظاهرا على من ناوأه لا يضره مخالف ولا مفارق حتى يمضى اثنا عشر خليفة من قريش [" ۳۲] ، وروى ابن عساكر ": لا يزال أمر أمتى صالحا حتى يمضى منهم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش [" ۳۳] .

وروى نعيم بن حماد ": يكون بعدى من الخلفاء عدة نقباء موسى [" ۳۴] .

والطريق إلى نقباء بنى إسرائيل لا بد وأن يأخذ فى حسابه منزلة هارون من موسى، ودائرة الخيرية لا يضرها من خذلها أو من عاداها أو من ناوأها. روى البخارى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق يقاتلون. وهم أهل العلم

[۳۵] ولقد علمنا من هم أهل العلم الذین قاتلوا، ولم یقاتل أحد من أهل العلم من أجل إقامة الدین، أو علی تأویل القرآن إلا خط علی بن أبی طالب. وروی مسلم ": لا تزال طائفة من أمتی ظاهرین علی الحق لا یضرهم من خذلهم حتی یأتی من الله أمر الله وهم کذلک [" ۳۶] وفی روایة ": لا تزال طائفة من أمتی قائمة بأمر الله لا

یضرهم من خذلهم أو خالفهم حتی یأتی أمر الله وهم ظاهرون علی

[صفحه ۳۸۸]

الناس [" ۳۷] وفی روایة عند الإمام أحمد والحاکم وأبو داوود بزیادة " حتی یأتی

أمر الله تبارک وتعالی وینزل عیسی بن مریم [" ۳۸] وکثیر من الشراح ذکر أن

أمر الله هنا هو المهدی المنتظر الذی ینزل عیسی بن مریم فی زمانه. ومن المحفوظ أن المهدی من أبناء علی بن أبی طالب وفاطمة ریحانة رسول الله صلی الله علیه وسلم. وإذا کان المهدی خاتمة فلا بد من البحث عن المقدمة لنعرف من هم أصحاب هذه الطائفة. إن دائرة الخیریة دائرة أصیلة فی الوجود، لم یکسرها ظلم بنی أمیة وبنی العباس. ولا تعرف الدائرة بالکثرة، لأن الحق حق وإن قل أتباعه، والباطل باطل وإن کثر أتباعه. ولا یمکن لباحث أن یهمل الکثرة من هذه الأمة، وأن یحسبها ضمن مربع الحکام. فالتاریخ یشهد بأن الحکام کانوا فی واد والجماهیر فی واد آخر. إن السواد الأعظم من الجماهیر لم یلتف حول الحکام، وإنما انطلقوا فی ربوع الأرض ینشرون الإسلام وتعالیمه السمحة التی تحتضنها فطرة الباحثین عن الحقیقة. لقد التفت الجماهیر حول الزهاد الأوائل الذین لا یملکون من حطام الدنیا شیئا، وبنوا لهم الأضرحة بینما لم یلتفوا حول الطغاة ولم یسألوا عنهم أین دفنوا. وبصرف النظر عن شرعیة بنا الأضرحة إلا أن هذا العمل کان تعبیرا مقصودا أو غیر مقصود للنفسیة الإسلامیة المحتقنة من دائرة الحکام الذین فرضوا أنفسهم فرضا علی الجماهیر وساقوهم إلی عالم الجبریة والطاغوت. إن الجماهیر الإسلامیة قامت بنشر الدعوة، وأقامت حضارة فطریة غیر حضارة الملوک، وهذه الحضارة هی الباقیة ولن تعلوا علیها حضارة حتی یأتی أمر الله.

[۱] راجع ابن الأثیر ۹۲:۵، البدایة والنهایة ۳۳۰:۹.

[۲] مروج الذهب ۲۵۱:۳، البدایة والنهایة ۳۳۱:۹.

[۳] البدایة والنهایة ۳۳۱:۹، مقاتل الطالبین ص ۱۳۹:۱.

[۴] تاریخ الخلفاء ۲۳۳.

[۵] دول الإسلام:الذهبی ۷۵:۱.

[۶] مقاتل الطالبین ۱۵۰:۱.

[۷] مروج الذهب ۲۵۹:۳.

[۸] مروج الذهب ۲۶۳:۳.

[۹] البدایة والنهایة ۲:۱۰.

[۱۰] البدایة والنهایة ۴:۱۰.

[۱۱] البدایة والنهایة ۶:۱۰.

[۱۲] البدایة والنهایة ۷:۱۰.

[۱۳] البدایة والنهایة ۷:۱۰.

[۱۴] حیاة الشعر فی الکوفة ص ۲۰۵.

[۱۵] المصدر السابق ۶۳۳، ۶۳۴.

[۱۶] العصر العباسی الأول:د. شوقی ضیف ص ۲۱.

[۱۷] تاریخ الخلفاء ۲۴۱.

[۱۸] تاریخ الخلفاء ۲۴۳.

[۱۹] تاریخ الخلفاء ۲۴۳.

[۲۰] تاریخ الخلفاء ۲۴۸.

[۲۱] جدید الأرض:وجهها.

[۲۲] موج الذهب ۳۶۴:۳.

[۲۳] تاریخ الخلفاء ۳۲۱.

[۲۴] راجع کتاب مقاتل الطالبین لأبی الفرج الأصفهانی (۲۸۴ – ۳۵۶ ه).

[۲۵] رواه مسلم (الصحیح ۸۵:۱۶).

[۲۶] مسلم (الصحیح ۸۷:۱۶).

[۲۷] النووی شرح مسلم ۸۵:۱۶.

[۲۸] سورهٔ الأنبیاء: الآیهٔ ۱۰۵ – ۱۰۶.

[۲۹] سورهٔ الأعراف: الآیهٔ ۹۶.

[۳۰] سورهٔ الأنعام: الآیهٔ ۴۴ و ۴۵.

[۳۱] رواه الترمذی وقال حدیث حسن صحیح (کنز العمال ۲۴:۱۲) والبخاری بلفظ: یکون اثنا عشر أمیرا فقال کلمهٔ لم أسمعها. فقال أبی أنه قال: کلهم من قریش (الصحیح ۲۴۸:۴).

[۳۲] رواه الطبرانی (کنز العمال ۲۳:۱۲).

[۳۳] رواه ابن عساکر (کنز العمال ۳۲:۱۲).

[۳۴] کنز العمال ۳۳:۱۲ ورواه أحمد والحاکم (کنز العمال ۳۳:۱۲).

[۳۵] البخاری (الصحیح ۲۶۳:۴) ک الاعتصام.

[۳۶] مسلم (الصحیح ۶۵:۱۳) ک البهاء.

[۳۷] مسلم (الصحیح ۶۷:۱۳) ک الجهاد.

[۳۸] (الفتح الربانی ۲۱۰:۲۳).

افرازات فکریهٔ

ذکرنا فیما سبق المذاهب القدیمهٔ التی قامت فی العصر الأموی، ونبتت

[صفحه ۳۸۹]

جذورها قبل ذلک. ونحن هنا سنلقی بعض من الضوء علی مذاهب فکریهٔ أخری، کان لها الأثر البالغ بعد الدولهٔ الأمویهٔ. ومن هذه المذاهب مذهب المعتزلهٔ. یقول الشیخ أبو زهرهٔ: نشأت هذه الفرقهٔ فی أواخر العصر الأموی. وفی هذا الوقت دخل الإسلام طوائف من المجوس والیهود والنصاری وغیر هؤلاء وأولئک، رؤوسهم ممتلئهٔ بکل ما فی هذه الأدیان من تعالیم جرت فی نفوسهم مجری الدم. ومنهم من کان یظهر الإسلام ویبطن غیره. إما خوفا ورهبهٔ، أو رجاء نفع دنیوی، وإما بقصد الفساد والإفساد وتضلیل المسلمین. وقد أخذ ذلک الفریق ینشر بین المسلمین ما یشککهم فی عقائدهم. وظهرت ثمار غرسهم فی فرق هادمهٔ للإسلام تحمل اسمه ظاهرا وهی معاول هدمه فی الحقیقهٔ... وقد تصدی للدفاع عن الإسلام أمام هؤلاء، فرقهٔ درست المعقول وفهمت المنقول فکانت المعتزلهٔ [۱] ولم

يجد المعتزلة من الأمويين معارضة.

لأنهم لم يثيروا شغبا عليهم ولا حربا. إذ أنهم كانوا فرقة لا عمل لها إلا الفكر وقرع الحجة، ووزن الأمور بمقاييسها الصحيحة. ومع أن الأمويين لم يعارضوهم فهم أيضا لم يعاونوهم [۲] .

ويختلف العلماء فى أساس بذرة المعتزلة. فبعضهم يرى أنها ابتدأت فى قوم من أصحاب على بن أبى طالب اعتزلوا السياسة، وانصرفوا إلى العقائد عندما صالح الحسن معاوية، ولزموا منازلهم ومساجدهم وقالوا: نشتغل بالعلم والعبادة. وبعضهم يرى أن رأس المعتزلة هو واصل بن عطاء... والمعتزلة فى كتبهم يرون أن مذهبهم أقدم فى نشأته من " واصل " ويعدون من رجال مذهبهم كثيرين من آل البيت [۳] ويقول الشيخ أبو زهرة: والذى نراه أن المذهب أقدم

من " واصل " وأن كثيرين من آل البيت قد نهجوا منهجه، كزيد بن على الذى كان صديقا لواصل. ولكن واصلا من أبرز الدعاة، فكان عند الأكثرين رأسه لأنه أبرز

[صفحه ۳۹۰]

من دعا إليه [۴] .

ومذهب المعتزلة يقوم على أصول خمسة: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. والتوحيد، هو لب مذهبهم وأس نحلتهم، فقالوا: إن الله واحد أحد. ليس كمثله شئ، وهو السميع البصير. وليس بجسم ولا شبح ولا جثة ولا صورة، ولا لحم ودم، ولا شخص ولا جوهر ولا غرض. ولا بذى لون ولا طعم ولا رائحة ولا مجسة. ولا بذى حرارة ولا برودة ولا رطوبة ولا يبوسة. ولا طول ولا عرض ولا عمق. ولا اجتماع ولا افتراق. ولا يتحرك ولا يسكن ولا يتبعض. ولا بذى أبعاض وأجزاء. ولا جوارح وأعضاء. وليس ذى جهات. ولا بذى يمين وشمال وأمام وخلف وفوق وتحت ولا يحيط به مكان. ولا يجرى عليه زمان. ولا تجوز عليه المماسة ولا العزلة. ولا الحلول فى الأماكن. ولا يوصف بشئ من صفات الخلق الدالة على حدوثهم ولا يوصف بأنه متناه. ولا يوصف بمساحة ولا ذهاب فى الجهات. وليس بمحدود ولا والد ولا مولود. لا تحيط به الأقدار، ولا تحجبه الأستار. ولا تدركه الحواس. ولا يقاس بالناس ولا يشبه الخلق بوجه من الوجوه. ولا تجرى عليه الأوقات. ولا تحل به العاهات، وكل ما يخطر بالبال وتصور بالوهم فغير مشبه له. ولم يزل أولا سابقا. متقدما للمحدثات. موجودا قبل المخلوقات. ولم يزل عالما قادرا حيا. ولا يزال كذلك لا تراه العيون. ولا تدركه الأبصار ولا تحيط به الأوهام. ولا يسمع بالأسماع. شئ لا كالأشياء عالم قادر حى. لا كالعلماء القادرين الأحياء. وأنه القديم وحده. ولا قديم غيره. ولا إله سواه ولا شريك له فى ملكه ولا وزير له فى سلطانه. ولا معين له على إنشاء ما أنشأ وخلق ما خلق. لم يخلق الخلق على مثال سابق. وليس خلق شئ بأهون عليه من خلقه شئ آخر. ولا بأصعب عليه منه. ولا يجوز عليه اجترار المنافع، ولا تلحقه المضار ولا يناله السرور واللذات. ولا يصل إليه الأذى والآلام. ليس بذى غاية فيتناهى. ولا يجوز عليه

[صفحه ۳۹۱]

الفناء. ولا يلحقه العجز والنقص. تقدس عن ملامسة النساء. وعن اتخاذ الصاحبة والأبناء. وقد بنوا على هذا الأصل استحالة رؤية الله سبحانه وتعالى يوم القيامة، لاقتضاء ذلك الجسمية والجهة [۵] أما قولهم فى العدل بينه المسعودى فى مروج

الذهب فقال: هو أن الله لا يحب الفساد. ولا يخلق أفعال العباد. بل يفعلون ما أمروا به ونهوا عنه بالقدرة التى جعلها الله لهم وركبها فيهم. وأنه لا يأمر إلا بما أراد. ولم ينه إلا عما كره. وأنه ولى كل حسنة أمر بها. وبرئ عن كل سيئة نهى عنها [۶] لم يكلفهم ما لا يطيقون. ولا أراد لهم ما لا يقدرون. وأن أحدا

لا يقدر على قبض ولا بسط إلا بقدرة الله تعالى التى أعطاهم إياها. وهو المالك لها دونهم يفنيها إذا شاء. ولو شاء لجبر الخلق على طاعته. ومنعهم اضطرارا عن معصيته. ولكنه لا يفعل. إذ كان فى ذلك رفع للمحنة وإزالة للبلوى. وقد ردوا بهذا الأصل على الجبرية

الذین قالوا: أن العبد فی أفعاله غیر مختار. فعدوا العقاب علی ذلک یکون ظلما، إذ لا معنی لأمر الشخص بأمر هو مضطر إلی مخالفته، ونهیه عن أمر هو مضطر إلی فعله [۷] .

وفیما یتعلق بالعدل یقول الشیخ محمد خلیل الزین: قال المعتزلة: إن الله عادل لا یصدر منه الظلم ولا یجدر أن یتصف به. وقالوا: إن الأجسام تدل بما فیها من العقول والنعم التی أنعم الله بها علی خلقه، تدل أن الله لا یصدر منه الظلم والعقول تدل بأنفسها علی أن الله لیس بظالم. ولا یجوز أن یجامع الظلم ما دل بنفسه علی أن الظلم لا یقع منه تعالی. والظلم والجور منفیان عنه، بدلیل قوله تعالی: (وما ربک بظلام للعبید). وقد فرعوا علی العدل غایات ثلاث:

[صفحه ۳۹۲]

الأولی: أن الله یسیر بالخلق إلی غایة ومصلحة، وهو حکیم ولا یصدر من الحکیم فعل لا تکون فیه مصلحة وغایة. وتلک المصلحة عائدة للمخلوقین. وسبحانه لا یفعل شیئا به غایة لنفسه. فالوجود ومن فیه یسیر ویمشی وراء غایة ومصلحة. والغایة تختلف بحسب المعنی وأهمیته، فتارة تکون ظاهرة المنفعة ففعلها صلاح، وتارة تکون خفیة لا تدرک العقول مصلحتها، وهذه إما أن یقنع العقل بوجودها، أو یشکک، فإن شککک یجب تزن بالمقیاس البرهانی، فإن توافقا وإلا وجب طرحها. الثانیة: من لوازم العدل، أن الأوامر والنواهی الشرعیة، ذات حسن وقبح ذاتی. وهی قبل أمر الشارع فیها حسن وقبح ذاتی - فالودیعة إذا ردت فیها حسن ذاتی قبل أمر الشارع فالحسن والقبح فی الموجودات من الأمور الذاتیة. وقالوا: إن العقل هو المرجح، فما حکم بقبحه فلا بد أن یأتی به نهی من الشارع. فالحسن من مقومات الذات لأنه عرض یتحکم به الشارع. وقالوا: إنا نعلم بالضرورة حسن بعض الأشیاء وقبح بعضها من غیر نظر إلی أمر الشارع. فإن کل عاقل یجزم بحسن الاحسان ویمدح فاعله، ویعلم بقبح الإساءة والظلم. وهذا الحکم ضروری لا یقبل الشک. وقالوا: لم نعلم حسن الأشیاء وقبحها عقلا. وقالوا: إن الله داعیا لفعل الحسن ولیس له صارف عنه. وله صارف عن فعل القبیح ولیس له داع إلیه، وهو قادر علی کل مقدور، ومع وجود المقدرة والداعی یجب الفعل. لأنه تعالی غنی یستحیل علیه الحاجة وهو عالم بحسن الحسن وقبح القبیح. ومن المعلوم بالضرورة، أن العالم بالقبیح الغنی عنه لا یصدر عنه. وأن العالم بالحسن القادر علیه إذا خلا عن جهات المفسدة فإنه یوجد. وتحریره أن الفعل بالنظر لذاته ممکن وواجب النظر إلی علته، وکل ممکن مستند إلی قادر. وعلته تتم بواسطة القدرة والداعی، فإذا وجد ما تقدم تم السبب. وعند تمام السبب یجب وجود الفعل. ولو جاز فعل القبیح منه تعالی أو الاخلال بالواجب، لارتفع الوثوق بوعده ووعیده، وأمکن تطرف الکذب علیه تعالی. ولجاز منه إظهار المعجزة علی ید الکاذب. وذلک یقتضی الشک فی صدق الأنبیاء. وبطل الاستدلال بالمعجزة.

[صفحه ۳۹۳]

الثالثة: التی یتفرع علی القول بالعدل مسألة الأفعال الصادرة منا، هل نفعلها باختیار أو نحن مسیرون إلیها. فقد ذهبت المعتزلة إلی أن الإنسان مختار فی أفعاله. وأن أفعال العباد مخلوقة لهم وهی من کسب أنفهسم... وشبهوا أفعال الإنسان بالحرکة الاختیاریة، فإن الإنسان یفعلها علی اختیاره. وفرعوا علی هذا القول أن الإنسان لو لم یکن مختارا فی أفعاله لما جاز عذابه علی عدم امتثاله، لأن العذاب متفرع عن عدم امتثال الأوامر الممکن إثباتها بمطلق إرادة العبد. وقالوا: أن العقل لا یجوز أن یکلف الإنسان بالإتیان بشئ هو مسلوب القدرة عنه، فإن قصر بالإتیان بشئ مسلوب القدرة عنه یعاقب ویعذب فإن هذا تکلیف بالمحال. وقالوا: إن الإنسان المسلوب الاختیار لا یأتی الوعید بحقه لأن الوعید إنما یجئ فی المسائل المقدورة للإنسان. والمسائل التی لا قدرة للخلق علی الإتیان بها یقبح العقل العقاب علیها. ولا معنی لأن یقال للعبد. افعل وهو مسلوب الاختیار.. إنما یصح لمن یکون له حریة الاختیار، هذا من الوجهة العقلیة، وأما النقل فقد استدلوا علی حجة دعواهم بالآیات القرآنیة. مثل قوله تعالی: (فویل للذین یکتبون الکتاب بأیدیهم ثم یقولون هذا من عند الله)، فهذه الآیة من الآیات التی تذم عمل من الأعمال، وأما الآیات التی بها مدح للمؤمنین وذم للکافرین مثل قوله: (الیوم تجزی کل نفس بما کسبت الیوم تجزون بما کنتم تعملون) [۸] .

وقالوا فى الوعـد والوعيـد: إن الوعـد والوعيـد نازلان لا محالة. فوعد الله بالثواب واقع. ووعيده بالعقاب واقع أيضا. ووعده بقبول التوبة النصوح واقع أيضـا. وهكـذا فمن أحسن يجـازى بالإحسـان إحسانا، ومن أساء يجازى بالإساءة عـذابا أليما. فلا عفو عن كبيرة من غير توبـة، كما لا حرمان من ثواب لمن عمل خيرا. وإن هـذا فيه رد على المرجئـة الـذين قالوا: لا يضـر مع الإيمان معصـية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة. إذ لو صح هذا، لكان وعيد الله فى مقام اللغو. قال

[صفحه ۳۹۴]

تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا [۹] .

ومن قولهم فى المنزلـة بين المنزلتين: إن الإيمـان إقرار باللسان ومعرفـة وعمل بالجوارح. وإن كل عمل فرضا أو نقلا هو إيمان، وكلما ازداد الإنسـان خيرا ازداد إيمانـا، وكلمـا عصـى نقص إيمـانه. فالإيمـان مركب من أمـور، فلو أخـل المكلف بأحـدها يسـلب عنه اسـم الإيمـان. فلاـ يقـال له مؤمن أو كـافر. بـل هو بمنزلـة من المنزلتين. ومرتكب الكبيرة لا كافر ولا مؤمن. والكبيرة عنـدهم أنواع، منها ما تؤول إلى الكفر. ومنها ما يطلق على مرتكبها اسم الفسوق فقط [۱۰] ويقول الشيخ أبو زهرة: من

اعتقادهم، أن العاصـى من أهل القبلـة فى منزلـة بين المنزلتين. يرون أنه لا مانع من أن يطلق عليه اسم المسـلم تمييزا له عن الـذميين لا مدحا ولا تكريما. وأنه فى الدنيا يعامل معاملة المسلمين، لأن التوبة له مطلوبة. والهداية مرجوة. وقد قال فى ذلك " ابن أبى الحديد" وهو من شيوخ المعتزلة: إنا وإن كنا نذهب إلى أن صاحب الكبيرة لا يسـمى مؤمنا ولا مسـلما. نجيز أن يطلق عليه هذا اللفظ. إذا قصد به تمييزه عن أهل الذمة وعابدى الأوثان، فيطلق مع قرينة حال أو لفظ يخرجه عن أن يكون مقصودا به التعظيم والثناء أو المدح [۱۱] .

ومن قولهم فى الأـمر بـالمعروف والنهى عن المنكر: أنهما واجبان عقلا ونقلا. ويـذهبون إلى أنهما واجبان باللسان والقلب واليـد، وقد فسـر الزمخشـرى صـاحب الكشـاف. إلى أن الأمر بهما من فروض الكفايـة، لأنه لا يصـلح له إلا من علم المعروف، وعلم كيف يرتب الأمر فى إقامته وكيف يباشـره. وأن الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر وقـد يغلط فى موضع اللين ويلين بموضع الغلظـة. وينكر على من لاـ يزيـده إنكـاره إلاـ تحاديا. والأمر بالمعروف تابع للمأمور به، إن كان واجبا فواجب، وإن كان نـدبا فنـدب، وأما النهى عن المنكر

[صفحه ۳۹۵]

كله لأن جميع المنكر تركه واجب، لاتصافه بالقبح وشرط الوجوب أن يغلب على ظنه وقوع المعصية [۱۲] .

وقالوا فى النبوة يقول فيه ابن أبى الحديـد: إن الـذى عليه أصـحابنا، أن النبى منزه قبل البعثـة. عما فيه تنفير عن الحق الـذى يـدعو إليه. وعما فيه غضاضـة وعيب. مثل: الكفر أو الفسق، لأنا نجـد أن التائب العائد إلى الصـلاح بعد أن عهد منه السـخف والمجون والفسق لا يقع بـالمعروف ونهيه عن المنكر عنـد النـاس موقعهمـا ممن لم يعهـدوه، إلاـ على السـعد والصـلاح. كما أنه لا يجوز أن يكون محترفا بحرفة يسـتخفون الناس بصاحبها. هذا قبل البعثة، أما بعد البعثة. فقد منع أصـحابنا وقوع الكبائر منهم عليهم السـلام أصـلا. ومنعوا أيضا وقوع الصغائر المستخفة منهم [۱۳] .

مما سبق نعلم أن المعتزلة لم يهضموا نظرية الجبر، ونفوا القول بالقدر. ورفضوا أن يكون الإنسان مجرد آلة صماء، لا رأى له ولا حرية ولا اختيار، إنما تسـيره يد القضاء من وراء سـتار، فأثبتوا أنهم يحترمون الحرية الفردية. حرية الفكر والعمل. ويقدرون المواهب العقلية. ويقول الشـيخ:محمـد خليل: وإنى لأعتقـد أن المعتزلـة بنفيهم القـدر عن أفعال العباد الاختيارية المكتسـبة، قد أصابوا هدفين فى وقت واحـد، فإنهم لم ينفوا الظلم عن الله ودافعوا عن العدالـة الإلهيـة فحسب، بل دافعوا أيضا عن الحرية الإنسانية. لأنهم اعتبروا الإنسان حرا فى أفعاله فرفعوا من شأنه. وجعلوه مخلوقا عاقلا حرا جديرا بتحمل المسؤولية [۱۴] .

والمعتزلـة لم تظهر شـجرتهم فى العهـد الأموى على الرغم من أنهم بدؤوا فى هذا العهد، فما كانت الدولة لتسـمح بهذه الأفكار. وهى التى تحارب كل فكر لا يتفق مع سياستها. ولكن الشجرة بدأت فى الظهور عندما شاخت الدولة الأموية، ثم تفرعت شجرتهم وأورقت

عندما جاء العهد العباسى، ففى هذا العهد

[صفحه ۳۹۶]

طم سيل الالحاد والزندقة. فوجد الخلفاء فى المعتزلة سيفا مسلولا على الزنادقة لم يغلوه، بل شجعوهم على الاستمرار فى نهجهم. ويقول الشيخ أبو زهرة: كان جدال المعتزلة بقوة وحسن دليل. وفصاحة وبيان وقدرة على الإقناع اكتسبوها من علومهم وممارستهم الجدال، حتى أن بعض خصومهم من غير المسلمين كانوا يسلمون بعد مناقشتهم، ولقد قال مؤرخو المعتزلة: أن أبا الهذيل العلاف أسلم على يديه أكثر من ثلاثة آلاف رجل من من المجوس، لحذقه وبراعته فى المناظرة، وقوة ما يدعو إليه وضعف ما يدعون إليه [۱۵] وظل المعتزلة يحطمون أسوار

الجهل الذى ألقى على كاهل الأمة من كل مكان، فلما جاء المأمون وقد كان يعتبر نفسه من علماء المعتزلة شايعهم وقربهم وأدناهم وجعل منهم حجابه ووزراءه. وكان يعقد المناظرات بينهم وبين الفقهاء لينتهوا إلى رأى متفق. واستمر على ذلك حتى توفى سنة ۲۱۸ ه [۱۶] ومن أقوال المأمون: من علامة

الشريف أن يظلم من فوقه ويظلمه من هو دونه. وقال أيضا: لوددت أن أهل الجرائم عرفوا رأيى فى العفو، ليذهب عنهم الخوف. ويخلص السرور إلى قلوبهم [۱۷] وقال: أول العدل أن يعدل الرجل فى بطانته، ثم الذين يلونهم حتى

يبلغ إلى الطبقة السفلى. وقال: غلبة الحجة أحب إلى من غلبة القدرة، لأن غلبة القدرة تزول بزوالها. وغلبة الحجة لا يزيلها شئ. وقال: لا نزهة ألذ من النظر فى عقول الرجال [۱۸] .

وكان المأمون يقرب آل البيت إليه، وعلى رأسهم الإمام أبى الحسن الرضا رضى الله عنه. وروى أن المأمون أراد أن يقلد الرضا ولاية العهد من بعده، لتكون الخلافة فى أفضل آل أبى طالب. ولكن الرضا أبى عليه إباءا شديدا لأسباب عديدة نراها. منها: أن قرار مثل هذا هو بمثابة قرار فوقى. وهذا لا يستقيم مع حركة أهل البيت التى لا تبحث عن الحكم وإنما تبحث عن الجماهير

[صفحه ۳۹۷]

الذين يتحركون الحركة التى يحبوا أن يراهم الله فيها، فالإمام إذا هتف باسمه أهل القرى عليه أن يلبى النداء، ويسير بهم نحو طريق البركات لأن الحركة فى أصولها العريضة حركة حجة فى عالم الابتلاء، لينظر الله إلى عباده كيف يعملون. ومنها أيضا لا يختلفوا عن بنى أمية من ناحية القتال على الملك. وروى أنه فى أيام المأمون أحصيت أولاد العباس، فبلغوا ثلاثة وثلاثين ألفا، ما بين ذكر وأنثى وذلك عام مأتين. الكثير منهم على رأس العسكر وعلى بيوت المال، وكل منهم ينتظر دوره فى الحكم. والإمام الرضا يرى أن لكل زمان حركة، ولكل أحداث فقه. وربما تتطلب هذه الحركة أن يجلس فى دائرة الضوء، بينما تتطلب الأحداث أن لا يكون له أى نشاط ملحوظ. وعندما أصر المأمون على أن يكون الرضا وليا للعهد، قال له الرضا: إنى أجيبك إلى ما تريد على أنى لا آمر ولا أنهى ولا أفتى ولا- أقضى ولا- أولى ولا أعزل. فأجابه المأمون إلى ذلك كله. وعلى الرغم من أن الرضا لم يباشر أى سلطة إلا أن هذا لم يلق قبولا- من بنى العباس. يقول المسعودى: بايع المأمون للرضا على بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب بالعهد من بعده، فاضطرب من بمدينة السلام من الهاشميين. وعظم ذلك على أهل بغداد عامة، وعلى الهاشميين خاصة. لزوال الملك عنهم ومصيره إلى ولد أبى طالب، فأخرجوا الحسن بن سهل وكان خليفة المأمون على العراق. وبايعوا المنصور بن المهدى، فلم يتم له أمر، وكان مضعفا فبايعوا أخاه إبراهيم بن المهدى بالخلافة لخمس من المحرم سنة ۲۰۲ ه، ودعى له على المنابر بمدينة السلام وغيرها، فوجه الجيوش لمحاربة الحسن بن سهل خليفة المأمون على العراق، وهو يناجيه المدائن، فكانت الحروب بينهم سجالا سنة ۲۰۱ ه [۱۹] ومات الإمام الرضا عام

۲۰۳ ه. وقيل قتل [۲۰] وبعد وفاة المأمون عام ۲۱۸ ه. بدأت شجرة المعتزلة

[صفحه ۳۹۸]

تجف. وعندما جاء عهد المتوكل سنة ۲۳۲ ه يقول المسعودى: أمر المتوكل يترك النظر والمباحثة فى الجدال. والترك لما كان عليه الناس فى أيام المعتصم والواثق والمأمون وأمر الناس بالتسليم والتقليد وأمر شيوخ المحدثين بالتحديث وإظهار السنة والجماعة [۲۱] وبايع المتوكل لبنيه الثلاثة: محمد المنتصر بالله،

وأبى عبد الله المعتز بالله، والمستعين بالله. وفى ذلك يقول ابن المدبر فى ذكره لهذه البيعة:

يا بيعة مثل بيعة الشجرة++

فيها لكل الخلائق الخيرة

آلدها جعفر وصيرها++

إلى بنيه الثلاثة البررة [۲۲] .

وفى ذلك يقول على بن الجهم:

قل للخليفة جعفر يا ذا الندى++

وابن الخلائف والأئمة والهدى

لما أردت صلاح دين محمد++

وليت عهد المسلمين محمدا

وثنيت بالمعتز بعد محمد++

وجعلت ثالثهم أعز مؤيدا [۲۳] .

وفى عام ۲۳۵ ه أمر المتوكل بهدم قبر الحسين وهدم ما حوله من الدور، وخرب وبقى صحراء. يقول السيوطى: وكان المتوكل معروفا بالتعصب [۲۴] .

وسارت الأمور بعد المتوكل إلى ما ذكرناه. يقول الدكتور أحمد أمين: إن السلطات الحكومية من عهد المتوكل. قد تخلت عن نصرة المعتزلة، وأغلب الناس يمالؤون السلطة أينما كانت ويخافون أن يعتنقوا مذهبا لا ترضاه. فهربوا من الاعتزال إلى من يهاجم الاعتزال [۲۵] وفى أثناء ذلك، ظهر أبو الحسن

الأشعرى، الذى ولد بالبصرة عام ۲۶۰ ه. وكان قد التحق بالمعتزلة مبكرا

[صفحه ۳۹۹]

ودرس مذهب الاعتزال على الجبائى رئيس معتزلة البصرة أربعين سنة [۲۶] وظل

الأشعرى يؤمن بآراء أستاذه ويناضل عنها بحماس، ولكن الناس شاهدوا عليه تغييرا مفاجئا، حيث اعتكف فى منزله بضعة أيام لا يرى أحد. ثم خرج على إثر ذلك فصعد المنبر فى وسط جموع حاشدة من الناس ثم قال بعد أن نزع عباءته: إنى كما خرجت من هذه العباءة، أعلن برائتى من كل أخطائى السابقة، وأصرح بأن جميع آرائى الماضية باطلة [۲۷] ويقول الشيخ أبو زهرة: إن الأشعرى وجد من نفسه ما يبعده عن المعتزلة، مع أنه تغذى من موائدهم. ونال من ثمرات تفكيرهم، ثم وجد ميلا إلى آراء الفقهاء والمحدثين، مع أنه لم يغش مجالسهم ولم يدرس العقائد على طريقتهم [۲۸] .

وبدأ الأشعرى يشن هجومه على المعتزلة. يقول الصعيدى فى كتاب المجد دون فى الإسلام: أنه كان الأجدر بالأشعرى ألا يتنكر لمذهب مكث معتنقا صوابه أربعين سنة، كل هذا التنكر، لأنه بلا شك كان مخلصا فى اعتقاده له كل هذه المدة، بل كان له وجهه من النظر يعتمد عليها فيه. ويرى معها أنه لا تنافى فى الإسلام إن لم يكن هو الإسلام، فلا يصح أن ينفى الإسلام عن المعتزلة أو يقال أنهم فساق مسلمون، وإنما هم يثابون على صوابهم ويعذرون فى خطأهم. وقد انتفع) بهم خلقا كثيرا.. لم يكن من اللائق أن يبالغ فى خصومتهم بعد مخالفته لهم لأنهم كانوا أساتذته [۲۹] ويقول الدكتور حمودة فى كتابه الأشعرى:

كثير من الباحثين تعرض لأسباب تحول الأشعرى. ويذكره ناقدوه تبعا لبعض الروايات عن معاصريه، أنه كان خاضعا فى ذلك لضغط من أفراد أسرته، كما يحاول البعض الآخر تعليل ذلك برغبة إلى الحسن أن يستغل كراهة الشعب للمعتزلة، وأن يظفر بالبطولة والمجد على حسابهم [۳۰] .

[صفحه ۴۰۰]

وإذا كانت هذه مقدمة الأشعرى، فيجب أن نلقى نظرة على النتيجة. يقول الشيخ أبو زهرة: وقد نال الأشعرى منزلة عظيمة. وصار له أنصار كثيرون ولقى من الحكام تأييدا ونصرة. فتعقب خصومه من المعتزلة وغيرهم. وبث أنصاره فى الأقاليم يحاربون خصوم الجماعة ومخالفيها. ولقبه أكثر علماء عصره بإمام أهل السنة والجماعة [۳۱] وقد استمرت عقيدة الأشعرى وكتب لها البقاء [۳۲] وإذا كنا قد عرفنا بداية الحركة ونتيجتها الخاصة بالأشعرى، فإننا نلقى هنا بعض الضوء على هذه العقيدة. يقول الشيخ أبو زهرة: إن الأشعرى جاء لإحياء آراء الإمام أحمد بن حنبل فى نظره إذ يعتبر منهاجه هو منهاجه [۳۳] وأنه يرى أن ما يعتقده هو رأى الإمام

أحمد. ويعتبره الإمام المقدم والعالم المفهم [۳۴] وأن الدارس لحياة الأشعرى

يجد أن الذى يتفق مع اطلاعه هو أن يختار مذهبا وسطا [۳۵] فرأيه فى الصفات

وسط بين المعتزلة ومعهم الجهمية، وبين الحشوية والمجسمة. فالأولون نفوا الصفات ولم يثبتوا إلا الوجود والقدم والبقاء والوحدانية، ونفوا السمع والبصر والكلام وغيرها من الأوصاف الذاتية، وقالوا: ليست شيئا غير الذات وإنها فى القرآن أسماء الله تعالى كالرحمن والرحيم. وجاء الأشعرى فأثبت الصفات التى وردت كلها فى القرآن والسنة، وقرر أنها صفات تليق بذات الله.. فسمع الله ليس كسمع الحوادث وبصره ليس كبصرهم وكلامه ليس ككلامهم. ويقول الشيخ خليل الزين فى هذا المجال: وجاء فى دائرة المعارف الإسلامية. أن الأشعرى خالف المعتزلة بقوله: إن لله صفات أزلية مثل العلم والبصر والكلام. وأنه عالم بعلم بصير يبصر متكلم بكلام وينكر المعتزلة أن لله

[صفحه ۴۰۱]

صفات ويقولون: أنه عالم بذاته متكلم بذاته. وقالت المعتزلة إن ما جاء فى القرآن الكريم مثل: يد الله ووجهه يجب أن تفسر على أنها لطفه وذاته، أما الأشعرى فمع تسليمه بأنه ليس ذلك شئ من المفهوم التجسيدى فإنه يرى أن هذه الصفات حقيقة لا نعلم طبيعتها بدقة. وهو يرى مثل هذا الرأى مثل استواء الله على العرش. فهو يقول إن الاستواء على العرش ليس معناه الاستيلاء أو القهر أو الغلبة، بل المراد الاستواء حقيقة، وليس للمعتزلة أن ينكروا ذلك. إذ كيف يجوز لهم أن يسلموا بوجود الله فى كل مكان وينكرون أنه عليه العرش. ويقول: لو كان الاستواء على العرش هو القدرة والاستيلاء لما كان هناك فارق بين العرش والأرض [۳۶] .

أما عقيدته فى مرتكب الكبيرة، يقول الشيخ أبو زهرة: وبالنسبة لمرتكب الكبيرة قال المعتزلة: إن صاحب الكبيرة مع إيمانه وطاعته إذا لم يتب عن كبيرته لا- يخرج من النار. وقال المرجئة: من أخلص لله وآمن فلا تضره كبيرة مهما تكن. فسلك الأشعرى طريقا وسطا وقال: المؤمن الموحد الفاسق هو فى مشيئة الله تعالى، إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة، وإن شاء عاقبه بفسقه ثم أدخله النار [۳۷] .

وأما عقيدته فى قدرة الله يقول الشيخ أبو زهرة: ورأيه فى قدرة الله وأفعال الإنسان وسط بين الجبرية والمعتزلة. فالمعتزلة قالوا: أن العبد هو الذى يخلق أفعال نفسه بقوة أودعها الله تعالى إياه. والجبرية قالوا: أن الإنسان لا يستطيع إحداث شئ ولا كسب شئ، بل هو كالريشة فى مهب الريح فقال الأشعرى: إن الإنسان لا يستطيع إحداث شئ ولكن يقدر على الكسب [۳۸] .

وبالنسبة لرؤية الله يوم القيامة يقول الشيخ أبو زهرة: قال المعتزلة: الله سبحانه وتعالى لا يرى... وقال الأشعرى، يرى من غير حلول ولا

[صفحه ۴۰۲]

حدود [۳۹] ويقول الشيخ خليل الزين: نزه المعتزلة ذات البارى عن كل آفة.

وعرضوا واستدلوا على صحة دعواهم بالكثير من الأدلة. نفوا رؤية البارى تعالى بنفى الجسمية، فإذا انتفت الجسمية انتفت الجهة، وإذا

انتفت الجهه انتفت الرؤیه، لأن المرئی له حیز وجهه وشکل، والجمیع محال تحققها فی ذات الله. نفوا الجسمیه بقولهم: أن کل جسم حادث ومحتاج إلی الإعراض، وأن الذی لا یتخلی عن الحوادث لا بد أن یکون حادثا. نفوا الرؤیه بالدلیل العقلی والنقلی بقول تعالی: (لا تدرکه الأبصار وهو یدرک) وقوله تعالی مخاطبا موسی علیه السلام: (لن ترانی) فأدلتهم فی التوحید مرکبه من العقلیه والنقلیه [۴۰] وذهب

الأشعری إلی جواز رؤیه الله تعالی فی الآخره، وقال: إن کل موجود یصح أن یری. فإن المصحح للرؤیه هی إنما هو الوجود. والباری موجود فیصح أن یری [۴۱] .

ویقول الشیخ أبو زهره: وبالنسبه للألفاظ التی وردت موهمه للتشبه فی القرآن مثل... (ید الله فوق أیدیهم)، وقال المعتزله: المراد سلطان الله فوقهم. وقال الحشویه: یده ید جارحه. وقال الأشعری: یده ید تلیق بذاته [۴۲] .

کانت هذه أهم ملامح مذهب الأشعری. ویقول الشیخ أبو زهره: وجاء من بعد الأشعری علماء یخالفونه. فابن حزم یعد الأشعری من الجبریه، لأن رأیه فی أفعال الإنسان لا یثبت الاختیار للعبد [۴۳] ، وعن منهج الأشاعره یقول الدکتور محمود قاسم فی کتاب مناهج الأدله فی عقائد الملهٔ: إنهم أنکروا ضروره وجود الغایه والحکمه والصلاح فی العالم. وحقروا من شأن العقل فی التفرقه بین الحسن والقبیح. وزعموا أن الشرع لو مدح الکاذب لکان حسنا ولو ذم الصدق

[صفحه ۴۰۳]

لکان قبیحا، کذلک نفت هذه المدرسه أن یکون للفرد حریه واختیار وقدره علی خلق أفعاله. ومع ذلک فهی تری أنه من الممکن أن المکلف الکافر بالإیمان مع عدم استطاعته له. بناء علی إراده الله ومشیئته [۴۴] ومما سبق یمکن القول أن الاختلاف بین المذاهب قد وقع. وأن هناک من أصاب الحقیقه أو اقترب منها. وأن هناک من ابتعد عنها وقطع شوطا کبیرا فی عالم الفتنه والتأویل. ذلک العالم الذی یدخله الذین فی قلوبهم زیغ. وأن العمود الفقری لهذا الاختلاف، تلک الآراء التی تعارض بعضها بعضا فیما یختص بمعرفه الله عز وجل. بمعنی أن الاختلاف فی معرفه الله هو عمده الاختلافات. والله تعالی لم یترک معرفته للعباد کی یقولوا فیها بآرائهم، وإنما بعث الأنبیاء والرسل لیبینوا ذلک لأممهم، لأن الهدف من خلق الجن والإنس أن یعبدوا الله. ولا تصح عباده لله إلا بمعرفه الله. فالمنحرفین من أهل الکتاب یعبدون الله، ولکنهم انحرفوا عن المعرفه الحقه. فأصبحت العباده هباء ضائع فی خلاء.. فی رأینا أن أسباب هذا الاختلاف، یعود إلی إبعاد الراسخین فی العلم عن مزاوله عملهم الرسالی وسوق الناس إلی صراط العزیز الحمید، لینالوا سعاده الدنیا بما یتوافق مع الکمال الأخروی. وهذا الاختلاف یصرخ فی أعمال الوجود. إن الکتاب لو کان فی غیر حاجه إلی الراسخین فی العلم أصحاب التأویل، لأجمع الناس علی مدلوله ولم تفترق الأمه. ولکن الاختلاف قد وقع عندما جلس الذین یحتاجون إلی التعلیم والإرشاد علی المقاعد الأولی. لیصبحوا قرین القرآن الذی اشتمل تبیان کل شئ، وأول هذه الأشیاء معرفه الباری جل وعلا. ولقد تحدثنا من قبل أن الله تعالی جعل المودهٔ والرحمه بین الزوجین. لتکون أرضیه إنشاء البیت المسلم وانتصارا للفطره. وأخر مودهٔ ذی القربی أجرا للرساله الخاتمه. والفرق بین المودهٔ بین الزوجین وبین مودهٔ ذی القربی، أن الأولی مجعوله داخل النسیج الإنسانی. أما الثانیه فمأمور بها لتکون حرکهٔ لینظر الله إلی عباده کیف یعملون. فالدائره الأولی وقود للدائره الثانیه،

[صفحه ۴۰۴]

وکل دائره هی حجه بذاتها علی الإنسان. وعندما أبعد أهل العلم الذین رفعهم الله درجات وجعلهم قرین الکتاب ولا ینفصلا حتی یردا علی الحوض. والله یزکی من یشاء. عندما أبعدوا وانتهی المطاف بعدم روایه الحدیث. وظهور الذین وضعهم الرسول فی دائره التحذیر، بعد أن خمد التحذیر منهم فی عالم اللاروایه، بدأ هؤلاء یضعون الحدیث علی رسول الله. ومن هذه التربه خرجت القدریه والجبریه والمرجئه وغیرهم، فکل مذهب کان له وقوده من الحدیث والتأویل. ویشرف علی أکثرهم علماء أهل الکتاب الذین لا یترکون فتنه إلا سارعوا إلیها. ومن تربه الأحادیث الموضوعه جاء اختلاف الروایه والفتیا والسیره والأخلاق وطریق الهدایه والإرشاد

وکل شئ، ونحن نری أن الکثیر من الحدیث وضع الخدمهٔ أصحاب المقاعد الأولی وتحقیق أهدافهم. وأن الکثیر من الحدیث الصحیح تم تأویله لخدمهٔ نفس الأهداف، التی منها اتخاذ مال الله دولاـ ودین الله دخلا وعباد الله خولا، وأول خطوهٔ لتحقیق هذه الأهداف کانت فتح باب المواجههٔ مع أهل البیت ولا اختلاف ولا خلاف بین أهل العلم علی أن علیا کان مصیبا فی قتاله لأهل البغی وأن أهل البغی عندما رکبوا علی رقبهٔ الأمهٔ قاموا بسب الإمام علی منابرهم وقتلوا أتباعه، ثم فتحوا الأبواب أمام أغیلمهٔ قریش الذین أقاموا لجعل الإمام علی المجازر. لقد کان أهل البیت حلقهٔ وجهوا إلیها الضربات لیکون الطریق أمام الحلقهٔ الثانیهٔ مفتوحا فتوجه إلیها الضربات بما یستقیم معها، وبما یتقبله العامهٔ فی هدوء. وذلک بطرح مجموعهٔ من الأحادیث یکون الهدف منها التقلیل من شأن النبوهٔ ومن تحت عباءهٔ ثقافهٔ التقلیل یحققون هدف التماس الأعذار. بمعنی إذا کان هذا هو شأن النبی فلا عصمهٔ لأحد. ومن هذا الباب تلتقی هذه الأعذار مع العقائد التی تشرف علیها الدولهٔ. بمعنی یکفی أن یکون قلبک عامرا بالإیمان وأنت علی طریق ضاعت فیه الصلاهٔ. روی البخاری عن أبی هریرهٔ قال: أقیمت الصلاهٔ. وعدلت الصفوف قیاما. فخرج إلینا رسول الله صلی الله علیه وسلم، فلما قام فی مصلاه ذکر أنه جنب. فقال لنا: مکانکم. ثم رجع فاغتسل. ثم خرج إلینا ورأسه یقطر.

[صفحه ۴۰۵]

فکبر فصلینا معه [۴۵] وروی البخاری عن أبی هریرهٔ قال: صلی بنا النبی

صلی الله علیه وسلم الظهر أو العصر. فسلم. فقال له ذو الیدین: أنسیت أم قصرت؟ قال النبی: لم أنس ولم أقصر. فقال ذو الیدین: بلی قد نسیت [۴۶] .

وفی روایهٔ: فقال له ذو الیدین: أقصرت الصلاهٔ أم نسیت یا رسول الله؟ قال النبی: أصدق ذو الیدین قال الناس: نعم. فقام رسول الله صلی الله علیه وسلم فصلی اثنتین أخریین ثم سلم... الحدیث [۴۷] .

وروی البخاری أن عمر بن الخطاب جاء یوم الخندق بعدما غربت الشمس، فجعل یسب کفار قریش، وقال: یا رسول الله ما کدت أصلی العصر حتی کادت الشمس تغرب. فقال النبی: والله ما صلیتها... الحدیث [۴۸] وروی

البخاری عن قتادهٔ قال: سرنا مع النبی صلی الله علیه وسلم لیلهٔ فقال بعض القوم: لو عرست بنا یا رسول الله. قال: أخاف أن تناموا عن الصلاهٔ. فقال بلال: أنا أوقظکم فاضطجعوا. وأسند بلال ظهره إلی راحلته فغلبته عیناه فنام. فاستیقظ النبی صلی الله علیه وسلم. وقد طلع حاجب الشمس. فقال: یا بلال أین ما قلت... الحدیث [۴۹] .

روی مسلم عن عائشهٔ: اعتم رسول الله صلی الله علیه وسلم حتی رقد ناس واستیقظوا. ورقدوا واستیقظوا فقام عمر بن الخطاب فقال: الصلاهٔ. وفی روایهٔ: الصلاهٔ نام النساء والصبیان. فقال رسول الله صلی الله علیه وسلم: ما کان لکم أن تنزروا رسول الله علی الصلاهٔ.. الحدیث [۵۰] معنی ما کان لکم أن تنزروا:

أی تلحوا علیه فیها.

[صفحه ۴۰۶]

ولم یقتصر نسیان النبی کما قالوا علی الطهارهٔ وعدد الرکعات والصلاهٔ فی وقتها، وإنما شمل النسیان أشیاء أخری. روی البخاری عن عائشهٔ قالت: سمع النبی صلی الله علیه وسلم رجلا یقرأ القرآن. فقال: یرحمه الله. لقد أذکرنی کذا وکذا آیهٔ من سورهٔ کذا [۵۱] وفی روایهٔ یرحمها الله لقد اذکرنی کذا وکذا آیهٔ کنت أنسیتها من سورهٔ کذا وکذا [۵۲] .

لا حرج علی أصحاب المقاعد الأولی فی نسیان کل شئ ما دام القلب عامرا بالإیمان وهذا باب کبیر فی عقیدهٔ المرجئهٔ التی نسجت خیوطها علی حساب الدعوهٔ. إن هذه الأحادیث وغیرها تم تأویلها لخدمهٔ أهداف الذین ضیعوا الصلاهٔ، ثم کیف یجری علی النبی صلی الله علیه وسلم النسیان وهو القائم بدعوهٔ الناس إلی صراط العزیز الحمید. وما هی الحکمهٔ من محافظهٔ عمر بن الخطاب علی الصلاهٔ بینما رسول الله إما ناسیا أو نائما. ولم یقفوا فی التأویل عند هذه الأحادیث وإنما ذهبوا إلی أبعد من هذا. روی البخاری عن

عائشة قالت: سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من بنى زريق يقال له: لبيد بن الأعصم، حتى كان النبى صلى الله عليه وسلم يخيل إليه أن يفعل الشئ وما فعله.. الحديث [۵۳] كيف تكون هناك

قدرة للساحر على نبى الله ورسوله؟ كيف والله تعالى نفى السحر عن رسوله فقال: (وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا - انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) [۵۴] .

ومن دائرة السحر هبطوا، فرفعوا بعض الصحابة على مقام النبوة. ليعطوا لأنفسهم المبرر فى ركوب رقبة الأمة مع وجود السابقين عليهم والأفضل منهم. روى البخارى: استأذن عمر بن الخطاب على رسول الله صلى الله عليه

[صفحه ۴۰۷]

وسلم. وعنده نسوة من قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن على صوته، فلما استأذن عمر قمن فبادرن الحجاب [۵۵] ، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم. فدخل عمر ورسول الله يضحك!! فقال عمر: أضحك الله سنك يا رسول الله. قال النبى: عجبت من هؤلاء اللاتى كن عندى، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب. فقال عمر: فأنت أحق أن يهبن يا رسول الله.. فقال رسول الله: إيها يا ابن الخطاب. والذى نفسى بيده، ما لقيك الشيطان سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك [۵۶] وروى الترمذى عن عائشة قالت: كان رسول الله

صلى الله عليه وسلم جالسا. فسمعنا لغطا وصوت صبيان. فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم. فإذا حبشية تزف والصبيان حولها. فقال النبى: يا عائشة تعالى فانظرى. فجئت فوضعت لحيى على منكب رسول الله صلى الله عليه وسلم. فجعلت أنظر إلى ما بين المنكب إلى رأسه فقال لى: أما شبعت. فقلت، لا. لأنظر منزلتى عنده. إذ طلع عمر بن الخطاب. فأرقص الناس عنها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنى لأنظر إلى شياطين الإنس والجن قد فروا من عمر.. الحديث [۵۷] وروى البخارى عن عائشة قالت: دخل على النبى

صلى الله عليه وسلم. وعندى جاريتان تغنيان بغناء بعاث فاضطجع النبى صلى الله عليه وسلم على الفراش وحول وجهه. فدخل أبو بكر فانتهرنى وقال: مزمارة الشيطان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأقبل عليه النبى صلى الله عليه وسلم قال: دعهما... الحديث [۵۸] .

وهكذا رأينا رواية يقول فيها النبى صلى الله عليه وسلم لعمر: والذى

[صفحه ۴۰۸]

نفسى بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك. ورأينا فى رواية أن النبى نسى كم صلى، وعند البخارى قال النبى صلى الله عليه وسلم: إن أحدكم إذا قام يصلى جاء الشيطان فلبس عليه حتى لا يدرى كم صلى. فإذا وجد ذلك أحدكم فليسجد سجدتين وهو جالس [۵۹] ، وروى مسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: ما منكم من أحد إلا ومعه شيطان. قالوا: وأنت يا رسول الله. قال: وأنا إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم [۶۰] - وفى رواية بزيادة: فلا يأمرنى إلا بخير [۶۱] ويا للعجب عمر يفر الشيطان منه. بينما يأمر

النبى بخير. كيف والله تعالى هو الآمر ولا آمر سواه. قال تعالى: (إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه) [۶۲] كيف وليس للشيطان على الرسول سبيلا. قال

تعالى: (وما ينطق عن الهوى). ومنذ متى والشيطان يأمر بالخير والله تعالى يقول: (فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر) [۶۳] وقال: (إن الشيطان كان للرحمن

عصيا) [۶۴] وقال: (وكان الشيطان للإنسان خذولا) [۶۵] وقال: (هل أنبئكم

على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم) [۶۶] أما خير خلق الله محمد

صلى الله عليه وسلم، فيقول له البارى تبارك وتعالى: (وتوكل على العزيز الرحيم الذى يراك حين تقوم - وتقلبك فى الساجدين - إنه هو السميع العليم) [۶۷] ويقول له: (فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين - واعبد ربك

حتى يأتيك اليقين) [۶۸] .

[صفحه ۴۰۹]

ولم تقف الحركة عند زمن البعثة حيث فضلوا على النبى بعض صحابته. وإنما تتبعوا الحركة قبل بعثة النبى صلى الله عليه وآله وسلم. وقدموا مواقف ترفع من شأن الباحثين عن الحقيقة أمثال زيد بن عمرو بن نفيل. روى البخارى أن النبى صلى الله عليه وسلم لقى زيد بن عمرو قبل أن ينزل الوحى على النبى. فقدم إليه النبى سفرة. فأبى زيد أن يأكل منها وقال: إنى لست آكل ما تذبحون على أنصابكم ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه [۶۹] .

وروى الديلمى قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم ": سمعت زيد بن عمرو، يعيب أكل ما ذبح لغير الله فما ذقت شيئا ذبح على النصب حتى أكرمنى الله تعالى بما أكرمنى به من رسالته [۷۰] وكما أظهروا فضل زيد بن

عمرو. أظهروا فضل قس بن ساعدة الأيادى، فعن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": رحم الله قسا كأنى انظر إليه على جمل أورق تكلم بكلام له حلاوة ولا أحفظه\ " ۷۱] cf۱] .

كيف وهو النبى الأعظم الذى اصطفاه على أرضية الجذور الطاهرة. لقد قال النبى الأعظم: إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خيرهم فرقة. ثم جعلهم فرقتين فجعلنى فى خيرهم فرقه. ثم جعلهم قبائل فجعلنى فى خيرهم قبيلة. ثم جعلهم بيوتا تجعلنى فى خيرهم بيتا وخيرهم نفسا\ ۷۲] cf۱] كيف وقد سألوه: يا

رسول الله هل أتيت فى الجاهلية شيئا حراما؟ قال: لا\ ۷۳] cf۱] وقيل له: هل عبدت

وثنا قط؟ قال: لا، قالوا: فهل شربت خمرا قط؟ قال: لا. وما زلت أعرف أن الذى هم عليه كفر، وما كنت أدرى ما الكتاب\ ۷۴] cf۱] .

[صفحه ۴۱۰]

والخلاصة: أن الهدف كان من أجل نشر ثقافة لا تقود إلى حقيقة، ولا تدين الذين ركبوا رقبة الأمة.. بمعنى أن القامات متساوية. ولم يكن الهدف من وراء هذه الثقافة نشرها على العامة فى الطرقات، وإنما دقها أمام الباحثين ليفوز المرجئة والجبرية وجميع المذاهب التى تنادى بالمقامات المتساوية. ولقد رأينا على أرضية هذه الأحاديث أن هناك من يتقدم خطوة فيصلى بينما الرسول ينام. ويتذكر كم صلى بينما الرسول ينسى ويخاف منه النسوة بينما الرسول يضحك ويتعجب ويفر منه الشيطان بينما زماره فى بيت الرسول. ورأينا قبل البعثة كيف كان أصحاب الورع لا يأكلون إلا ما ذكر عليه اسم الله، وكيف أن المعصوم استفاد منهم الكثير. وأنه سمع من قسا كلام له حلاوة وطلاوة. ورأينا كيف نسبوا إليه أنه سحر فكان يخيل إليه أنه يفعل الشئ وما يفعله. فإذا أضيف إلى هذا كله أنه كان ينسى آيات القرآن وأنه لم يأمر بجمعه ولا بجمع السنة وأنه لم يعين نائبا له ليسوق الناس إلى صراط العزيز الحميد، فلنا أن نتوجه بسؤال إلى بنى أمية ومن شايعهم ومن شربوا من إنائهم فنقول: ماذا أبقيتم من النبوة؟ بعد أن اتخذتم مال الله دولا ودين الله دخلا وعباد الله خولا ومن دائرة النبى صلى الله عليه وسلم هبطوا إلى دائرة القرآن الكريم. روى البخارى عن عمر بن الخطاب قال: إن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق. وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل الله آية الرجم. فقرأناها وعقلناها ووعيناها. رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: والله ما نجد آية الرجم فى كتاب الله. فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله. والرجم فى كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء.. ثم إنا كنا نقرأ من كتاب الله: أن لا ترغبوا عن آبائكم فإن كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم... الحديث\ ۷۵] cf۱] وأخرج مسلم عن

عائشة أنها قالت: كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن، ثم

[صفحه ۴۱۱]

نسخن بخمس معلومات. فتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى فيما يقرأ من القرآن\ ۷۶] cf۱] وروى البخارى عن علقمة. قال: قدمنا الشام، فأتانا أبو

الدرداء فقال: أفيكم أحد يقرأ على قراءة عبد الله، فقلت: نعم أنا، قال: فكيف سمعت عبد الله يقرأ هذه الآية (والليل إذا يغشى)، قلت: (والليل إذا يغشى. والذكر والأنثى). فقال: وأنا والله هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرؤها. ولكن هؤلاء يريدون أن أقرأ (وما خلق) فلا أتابعهم\ ۷۷] ۱cf] فهذه

الأحاديث لها تأويلها، ولكن لتأويل الجبرية والمرجئة طرق أخرى ولبنى أمية ومن شايعهم أهداف أخرى. وبالإضافة إلى هذه الأحاديث، يوجد كم غير قليل من الأحاديث التى تدعو إلى التسليم بالأمر الواقع، الأمر الذى أدى إلى دخول الأمة إلى دائرة القهر التاريخى. أو إلى دائرة الاحتقان التاريخية. وهناك أحاديث كثيرة تدعو إلى ترك الدنيا والترهب وترتب على ذلك ظهور طبقات من الصوفية. منها ما هو قريب. ومنها ما هو بعيد، وعلى هذا تعمقت جذور الطاغوت الذى يرقع أعلام الجبرية، ويرتدى ملابس المرجئة وغيرهم. وعلى هذا تقدم الطابور الذى يتخذ تهويد الفطرة أو تنصيرها هدفا له. وبعد أن طرحت الأحاديث لينال كل طابور ما يتفق مع أهوائه، وبعد أن دقوا الأوتاد حول دائرة الطهر وحول كتاب الله وحول عباد الله. هبطوا درجات، ودخلوا من باب الأسماء والصفات، فتأولوا الأحاديث الخاصة بها. وترتب على ذلك حدوث التباس فى معرفة البارى جل وعلا، والتى على قوائمها تبنى العبادة الحق. ومن هذه الأحاديث التى تحدث الالتباس وتحير العقول كان ابن عباس ينتفض. فعن طاووس عن أبيه عن ابن عباس قال: حدث رجل بحديث أبى هريرة فانتفض ابن عباس وقال: ما بال أقوام يجدون\ ۷۸] ۱cf] عند محكمة ويهلكون عند متشابهة\ " ۷۹] ۱cf] قال الألبانى: لم أقف عن حديث أبى

[صفحه ۴۱۲]

هريرة... ويغلب الظن أنه حديث " إن الله خلق آدم على صورته " وهو حديث صحيح\ ۸۰] ۱cf] .

وهذا النوع من الحديث قامت عليه مذاهب ومدارس وعلى قاعدتهم حدث الاختلاف والافتراق، وكما ذكرنا من قبل أن حزمة الأحاديث التى ذكرناها فى هذا الباب أحاديث صحيحة تم تأولها لخدمة أهداف سياسية. من هذه الأحاديث ما رواه البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا. حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعونى فأستجيب له. من يسألنى فاعطيه. ومن يستغفر فأغفر له\ ۸۱] ۱cf] وما رواه

البخارى عن رؤية الله تعالى يوم القيامة. أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه ليلة البدر فقال: إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون هذا لا تضامون فى رؤيته\ ۸۲] ۱cf] وروى البخارى أن الله يجمع الناس يوم القيامة.

فيقول: (من كان يعبد شيئا فليتبعه " إلى أن قال ": وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها. فيأتيهم الله فى غير الصورة التى يعرفون. فيقول: أنا ربكم. فيقولون: نعوذ بالله منك! هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا. فإذا أتانا ربنا عرفناه. فيأتيهم الله فى الصورة التى يعرفون فيقول: أنا ربكم فيقولون: أنت ربنا فيتبعونه\ " ۸۳] ۱cf] وروى

البخارى أن حديثا سيجرى بين الله وبين أحد عباده يقول فيه العبد ": إى رب أدخلنى الجنة " إلى أن يقول له الله ": ويلك يا ابن آدم ما أغدرك. فيقول إى " رب لأكونن أشقى خلقك، فلا يزال يدعو حتى يضحك الله منه. فإذا ضحك منه قال له: ادخل الجنة" \۸۴] ۱cf] وما رواه البخارى أيضا يقال لجهنم يوم القيامة ": هل

امتلأت. تقول: هل من مزيد. فيضع الرب تبارك وتعالى قدمه عليها فتقول: قط.

[صفحه ۴۱۳]

قط\ ۸۵] ۱cf] وفى رواية: فلا تمتلئ حتى يضع رجله فتقول: قط قط قط. فهنالك تمتلئ ويزوى بعضها إلى بعض\ " ۸۶] ۱cf] .

فهذه الروايات وأمثالها تم تأويلها على رقعة كبيرة من أرض الاختلاف. واستغلها الذين لا يؤمنون بالعقل، فأثبتوا لله النزول إلى الناس فى ظلل من الغمام والاستقرار على العرش. وأثبتوا الله الضحك والسرور والحزن وأثبتوا له الوجه واليد والقدم. من غير تأويل ولا تفسير ومن أهم أعلام الذين لا يؤمنون بالعقل " ابن تيمية " الذى زعم أن هذا هو مذهب السلف الصالح. يقول الشيخ أبو زهرة: وما

أقره ابن تیمیة. أن مذهب السلف إثبات کل ما جاء فی القرآن الکریم من فوقیة وتحتیة واستواء علی العرش. ووجه ویدومحبة وبغض وما جاء فی السنة أیضا. من غیر تأویل. وبالظاهر الحرفی\ ۸۷] cf۱] ثم یتساءل الشیخ أبو زهرة:

هل هذا هو مذهب السلف حقا؟ ونقول فی الإجابة علی ذلک. لقد سبقه بهذا الحنابلة فی القرن الرابع الهجری وادعوا أن ذلک مذهب السلف، وناقشهم العلماء فی هذا الوقت. وأثبتوا إنه یؤدی إلی التشبیه والجسمیة لا- محالة. وکیف لا یؤدی إلیهما والإشارة الحسیة إلیه جائزة، لذا تصدی لهم الإمام الحنبلی ابن الجوزی. ونفی أن یکون ذلک مذهب السلف. ونفی أیضا أن یکون ذلک رأی الإمام أحمد. وقال: رأیت من أصحابنا من تکلم فی الأصول بما لا یصح. فصنفوا کتبا شانوا بها المذهب، ورأیتهم قد نزلوا إلی مرتبة العوام فحملوا الصفات علی مقتضی الحس. سمعوا حدیث أن الله خلق آدم علی صورته، فأثبتوا له صورة ووجها زائدا عن الذات. وفما ولهوات وأضراس وأضواء لوجهه. ویدین وأصبعین وکفا وخنصرا وإبهاما. وصدرا وفخذا وساقین ورجلین وقالوا: ما سمعنا بذکر الرأس! وقد أخذوا بالظاهر فی الأسماء والصفات... ویقولون: نحن أهل السنة. وکلامهم صریح فی التشبیه. وقد تبعهم خلق من

[صفحه ۴۱۴]

العوام. وقد نصحت التابع والمتبوع وقلت: یا أصحابنا أنتم أصحاب وأتباع. وإمامکم الأکبر أحمد بن حنبل یقول: کیف أقول ما لم یقل. فإیاکم أن تبتدعوا فی مذهبه ما لیس منه\ ۸۸] cf۱] .

کان هذا رد ابن الجوزی علیهم عندما خرجت شجرتهم. ویقول الشیخ أبو زهرة: ولقد قال فی ذلک القول الذی ینتقده ابن الجوزی. القاضی أبو یعلی الحنبلی المتوفی ۴۵۷ ه وابن الزاغونی المتوفی ۵۲۷ ه. وهکذا استنکر الحنابلة ذلک الاتجاه عندما شاع فی القرن الرابع والخامس الهجری، ولذلک استتر هذا المذاهب. حتی أعلنه ابن تیمیة المتوفی ۷۶۸ ه فی جرأة وقوة. وزاد آراءه انتشارا اضطهاده بسببها. فإن الاضطهاد یذیع الآراء وینشرها، ولذلک کثر أتباعه بسبب الاضطهاد وکسب الرأی ذیوعا وانتشارا. ونری هنا أنه یجب أن تذکر أن الادعاء بأن هذا مذهب السلف موضع نظر\ ۸۹] cf۱] .

ویقول ابن حجر الهیثمی المتوفی ۹۷۴ ه -: ابن تیمیة عبد خذله الله وأضله وأعماه وأصمه وأذله، وبذلک صرح الأئمة الذین بینوا فساد أحوال وکذب أقواله. ومن أراد ذلک فعلیه بمطالعة کلام أبی الحسن السبکی... والحاصل أن لا یقام لکلامه وزن. بل یرمی فی کل وعر وحزن. ویعتقد فیه أنه مبتدع ضال ومضل. جاهل غال. عامله الله بعدله وأجاره من مثل طریقته وعقیدته وفعله آمین\ ۹۰] cf۱]

وذکر ابن حجر عقیدة ابن تیمیة وفیها: أن ربنا محل الحوادث وأنه

مرکب تفتقر ذاته افتقار الکل للجزء. ویقول بالجسمیة والجهة والانتقال. وأن الله بقدر العرش لا أصغر ولا أکبر. ویقول: أن النار تفنی وأن الأنبیاء غیر معصومین. وأن رسول الله صلی الله علیه وسلم لا جاه له. ولا یتوسل به. وأن إنشاء السفر إلیه بسبب الزیارة معصیة. وأن التوراة والإنجیل لم تبدل

[صفحه ۴۱۵]

ألفاظهما وإنما بدلت معانیهما.. وبعد أن عد ابن حجر عقائد ابن تیمیة قال: أنه قال بالجهة وله فی إثباتها جزء، ویلزم أهل هذا المذهب الجسمیة والمحاذاة والاستقرار\ ۹۱] cf۱] وقال ابن حجر: وأدی اعتقاد ابن تیمیة إلی قیامه بتبدیع کل من

خالفه، ولا یزال یتتبع الأکابر حتی تمالأ علیه أهل عصره ففسقوه وبدعوه بل کفره کثیر منهم\ ۹۲] cf۱] ولم یقف عداوته علی أکابر أهل عصره. وأخبر عنه بعض

السلف إنه ذکر علی بن أبی طالب فی مجلس فقال: إن علیا أخطأ فی أکثر من ثلاثمائة مکان، ویعلق ابن حجر علی ذلک بقوله: فیا لیت شعری من أین یحصل لک الصواب إذا أخطأ علی بزعمک رضی الله عنه\ ۹۳] cf۱] .

وقال ابن حجر: عقیدة إمام السنة أحمد بن حنبل موافقة لعقیدة أهل السنة والجماعة.. وما اشتهر بین جهلة المنسوبین إلی هذا الإمام من أنه قائل بشیء من الجهة أو نحوها فکذب وبهتان وافتراء علیه. ولقد بین الإمام ابن الجوزی من أئمة مذهبه أن کل ما نسب إلیه من

ذلک کذب علیه وافتراء... وإیاک أن تصغی إلی ما فی کتب ابن تیمیهٔ وتلمیذه ابن قیم الجوزیهٔ وغیرهما ممن اتخذ إلهه هواه. وأضله الله علی علم. وختم علی سمعه وقلبه وجعل علی بصره غشاوهٔ\ ۹۴] cf۱] .

وفیما یتعلق بعدم شرعیهٔ زیارهٔ قبر النبی صلی الله علیه وسلم، کما تقول عقیدهٔ ابن تیمیهٔ یقول الشیخ أبو زهرهٔ: ولقد خالف ابن تیمیهٔ بقوله هذا جمهور المسلمین، بل تحداهم فی عنف بالنسبهٔ لزیارهٔ قبر المصطفی صلی الله علیه وسلم... ونحن نخالفه مخالفهٔ تامهٔ فی زیارهٔ الروضهٔ الشریفهٔ، وذلک لأن الأساس الذی بنی علیه منع الزیارهٔ هو خشیهٔ الوثنیهٔ. وأن ذلک خوف فی غیر مخاف. فإنه إذا کان فی ذلک تقدیس لرسول الله صلی الله علیه وسلم،

[صفحه ۴۱۶]

فهو تقدیس لنبی الوحدانیهٔ وتقدیس نبی الوحدانیهٔ إحیاء لها. إذ هو تقدیس للمعانی التی بعث بها.. وقد روی ابن تیمیهٔ نفسه أن السلف الصالح کانوا یسلمون علی النبی صلی الله علیه وسلم کلما مروا علی الروضهٔ الشریفهٔ، ونحن لنعجب من استذکاره لزیارهٔ الروضهٔ مع ما رواه عن الأئمهٔ الأعلام من تسلیمهم علی النبی کلما مروا بقبره\ ۹۵] cf۱] .

[۱] تاریخ المذاهب الإسلامیهٔ ۱:۱۳۱.

[۲] المصدر السابق ۱:۱۳۲.

[۳] المصدر السابق ۱:۱۲۴.

[۴] المصدر السابق ۱:۱۲۴.

[۵] المصدر السابق ۱:۱۲۶.

[۶] استدلوا علی هذا بقوله تعالی: (ما أصابک من حسنهٔ فمن الله وما أصابک من سیئهٔ فمن نفسک).

[۷] المصدر السابق ۱:۱۲۷.

[۸] تاریخ الفرق ص ۱۳۷، ۱۳۸.

[۹] المصدر السابق ۱:۱۲۸.

[۱۰] تاریخ الفرق الإسلامیهٔ:الزین ص ۱۴۱.

[۱۱] تاریخ المذاهب الإسلامیهٔ ص ۱:۱۲۸.

[۱۲] تاریخ الفرق الإسلامیهٔ ۱۴۳.

[۱۳] المصدر السابق ۱۴۵.

[۱۴] المصدر السابق ۱۳۴.

[۱۵] تاریخ المذاهب الإسلامیهٔ ۱:۱۴۰.

[۱۶] المصدر السابق ۱:۱۳۲.

[۱۷] تاریخ الخلفاء ۲۹۷، ۱:۲۹۸.

[۱۸] المصدر السابق ۱:۳۰۸.

[۱۹] التنبیه والإشراف ۱:۳۱۸، دول الإسلام:الذهبی ۱۱۳.

[۲۰] قال المسعودی: قبض الرضا بطوس لعنب أکله وقیل أنه کان مسموما (مروج الذهب ۴:۲۳۳).

[۲۱] مروج الذهب ۳:۹۸، دول الإسلام ۱:۱۲۶.

[۲۲] المصدر السابق ۴:۱۰۰.

[۲۳] المصدر السابق ۴:۱۰۰.

[۲۴] تاریخ الخلفاء ۳۲۱:۱.

[۲۵] تاریخ الفرق الإسلامیة ص ۱۵۰.

[۲۶] تاریخ بغداد ۳۴۷:۱۱.

[۲۷] تاریخ الفرق الإسلامیة، ص ۱۵۱.

[۲۸] تاریخ المذاهب الإسلامیة ۱۶۰:۱.

[۲۹] تاریخ الفرق الإسلامیة ص ۱۵۲.

[۳۰] المصدر السابق ۱۵۳:۱.

[۳۱] تاریخ المذاهب الإسلامیة ۱۶۸.

[۳۲] تاریخ الفرق الإسلامیة ۱۶۴.

[۳۳] تاریخ المذاهب الإسلامیة ۱۶۲.

[۳۴] المصدر السابق ۱۶۵.

[۳۵] المصدر السابق ۱۶۵.

[۳۶] تاریخ الفرق الإسلامیة ۱۵۸.

[۳۷] تاریخ المذاهب ص ۱۶۷.

[۳۸] المصدر السابق ۱۶۶.

[۳۹] المصدر السابق ۱۶۶.

[۴۰] تاریخ الفرق ۱۳۶.

[۴۱] المصدر السابق ۱۵۶.

[۴۲] تاریخ المذاهب ۱۶۶.

[۴۳] تاریخ المذاهب الإسلامیة ۱۹۹.

[۴۴] تاریخ الفرق الإسلامیة ۱۵۷.

[۴۵] البخاری (الصحیح ۶۰:۱) ک الغسل.

[۴۶] البخاری (الصحیح ۲۱۲:۱) ک الکسوف باب ما جاء فی السهو.

[۴۷] البخاری (الصحیح ۲۱۲:۱) ب ما جاء فی السهو.

[۴۸] البخاری (الصحیح ۱۱۲:۱).

[۴۹] البخاری (الصحیح ۱۱۲:۱) ک الصلاة، باب الأذان بعد ذهاب الوقت.

[۵۰] رواه مسلم (۱۳۷، ۱۳۸:۵ الصحیح)، فی کتاب المساجد وقت العشاء.

[۵۱] البخاری (الصحیح ۲۳۳:۳) فی فضائل القرآن باب نسیان القرآن.

[۵۲] البخاری (الصحیح ۲۳۳:۳).

[۵۳] البخاری ک الطب باب هل یستخرج السحر (الصحیح ۲۰:۴).

[۵۴] سورة الفرقان: الآیة ۷، ۸.

[۵۵] إن المبادرة بالحجاب لازمة عند دخول الأجنبی سواء کان عمر أولا. هذا إذا کانت هذه الواقعة بعد نزول آیة الحجاب، أما إذا کانت قبل نزول آیة الحجاب، فما الداعی لأن یقمن ویبادرن الحجاب. کان یکفی القیام ولا حاجة للحجاب (السندی شرح البخاری

۲۹۴:۱).

[۵۶] البخاری (الصحیح ۲۹۴:۲) ک بدء الخلق ب مناقب عمر.

[۵۷] رواه الترمذی وصححه (الجامع ۶۲۲:۵).

[۵۸] البخاری ک الجهاد والسیر، باب الدرق (الصحیح ۱۵۴:۲).

[۵۹] البخاری ک الکسوف باب إذ لم یدر کم صلی (الصحیح ۲۱۳:۱).

[۶۰] رواه مسلم (کنز العمال ۲۴۷:۱).

[۶۱] رواه أحمد ومسلم (کنز العمال ۲۴۷:۱).

[۶۲] سورة یوسف: الآیة ۴۰.

[۶۳] سورة النور: الآیة ۲۱.

[۶۴] سورة مریم: الآیة ۴۴.

[۶۵] سورة الفرقان: الآیة ۲۹.

[۶۶] سورة الشعراء: الآیة ۲۲۱ – ۲۲۲.

[۶۷] سورة الشعراء: الآیة ۲۱۷ – ۲۲۰.

[۶۸] سورة الحجر: الآیة ۹۸ – ۹۹.

[۶۹] البخاری ک بدء الخلق ب حدیث زید بن عمرو (الصحیح ۳۱۶:۲).

[۷۰] الدیلمی (کنز ۷۹:۱۲\). ۷۱] cf۱] الأزدی (کنز ۷۷:۱۲\). ۷۲] cf۱] رواه الترمذی وصححه (الجامع ۵۸۴:۵\). ۷۳] cf۱] رواه ابن عساکر (کنز ۳۴۸:۱۲) وقال الهیثمی رواه الطبرانی فی الثلاثة (الزوائد ۲۲۶:۸\). ۷۴] cf۱] رواه أبو نعیم (کنز العمال ۴۰۶:۳.). \۷۵] cf۱] البخاری ک الحدود ب رجم الحبلی (الصحیح ۱۷۹:۴\). ۷۶] cf۱] مسلم (الصحیح ۲۹:۱۰\). ۷۷] cf۱] رواه البخاری ک التفسیر (الصحیح ۲۱۵:۳\). ۷۸] cf۱] یجدون:أی یجتهدون\. ۷۹] cf۱] رواه ابن أبی عاصم (کتاب السنة ۲۱۲:۱) وقال الألبانی إسناده صحیح\. ۸۰] cf۱] رواه البخاری (الصحیح ۸۵:۴\). ۸۱] cf۱] البخاری ک الدعوات ب الدعاء ونصف اللیل (الصحیح ۱۰۱:۴\). ۸۲] cf۱] البخاری ک التوحید ب وجوه یومئذ ناضرة (الصحیح ۲۴۳:۴\). ۸۳] cf۱] البخاری ک الدعوات ب الصراط جسر جهنم (الصحیح ۱۴۰:۴\). ۸۴] cf۱] البخاری ک التوحید باب وجوه یومئذ ناضرة (الصحیح ۲۸۴:۴\). ۸۵] cf۱] البخاری فی تفسیر سورة ق (الصحیح ۱۹۲:۳\). ۸۶] cf۱] البخاری (الصحیح ۱۹۲:۳\). ۸۷] cf۱] تاریخ المذاهب الإسلامیة ۱۹۳:۱، وراجع العقیدة الواسطیة لابن تیمیة:محمد خلیل هراس ص ۱۰۶\. ۸۸] cf۱] تاریخ المذاهب الإسلامیة ۱۹۴:۱\. ۸۹] cf۱] تاریخ المذاهب الإسلامیة ۱۹۴:۱\. ۹۰] cf۱] الفتاوی الحدیثیة:ابن حجر الهیثمی ص ۱۱۴ ط البابلی الحلبی القاهرة طبعة سنة ۱۹۷۰ م\. ۹۱] cf۱] المصدر السابق ۱۱۶، ۱۱۷\. ۹۲] cf۱] المصدر السابق ۱۱۵\. ۹۳] cf۱] المصدر السابق ۱۱۶\. ۹۴] cf۱] المصدر السابق ۲۰۳\. cf۱ ۹۵]] تاریخ المذاهب الإسلامیة ۲۰۵:۱.

من مقدمات الإفرازات الفکریة

لقد سیطرت السیاسة علی جمیع الشؤون حتی الدینیة منها، وذلک لأن

للسیاسة طابعها الدینی. ومن أجل ذلک کان الحکام یشعرون بالحاجة الماسة إلی الدعم الدینی لإغراء الجماهیر بشرعیة حکمهم، ومن غیر الممکن أن یجدوا هم وأعوانهم بین النصوص الدینیة من کتاب أو سنة. ما یشعر ولو من بعید بشرعیة حکم یقوم علی الظلم والجور واغتصاب الحقوق والاستهتار بالمقدسات وحریة الفرد والجماعة، ولیس أدل علی ذلک من تحویر مفهوم الخلافة عملیا

ونظريا إلى حكم فردى يستمد قوته وبقاءه من الاسراف فى بذل الأموال. وإراقة الدماء لا من النصوص الإسلامية ولا من رغبة الشعب وإرادة الجماهير. وقد ظهرت بوادر هذا النظام فى مطلع العهد الأموى. فهذا النظام بدأ فى استمال أعوانه لتحوير الحقائق وخلق المبررات لتصرفاته وإعطائها صفة الشرعية، وكانت الدولة الأموية فى أمس الحاجة لشراء الضمائر وتسخير المرتزقة والحاقدين لينسجوا لهم ثوبا من الفضائل والمكرمات ليستروا به ماضيهم الأسود وحاضرهم الملوث عن أعين الناس، الذين لا يملكون من الوعى والتفكير ما يفرقون بين الناقة والجمل. ومع وجود دائرة الحاقدين الذى عملوا من أجل تثبيت الحزب الأموى برزت دوائر أخرى، باشرت وضع الحديث لأهداف أخرى لا تختلف كثيرا عن أهداف بنى أمية. وقد أوجز القاضى عياض الحالة التى وصل إليها الحديث فى العصر الأموى والدوافع على

[صفحه ۴۱۷]

الكذب فيه بما حاصله: أن الوضاعين على حد تعبيره، كانوا أقساما. فمنهم من كان يضع على النبى ترفعا واستخفافا كالزنادقة وأشباههم. ومنهم من كان يضع خشية وتدينا كجهلة المتعبدين الذين وضعوا الأحاديث فى الرغائب. ومنهم من كان يضع الحديث إغرابا وسمعة وتعصبا كفسقة المحدثين ومتعصبى المذاهب. ومنهم من كان يضع الحديث تنفيذا لرغبة الحكام وطلب العذر لهم فيما ارتكبوه من الجرائم والمنكرات. ومنهم من كان يأخذ كلام العرب والصحابة وينسبه إلى الرسول لهوى فى نفسه [۱] ولا يمكن إغفال دور القص الذى وضعه كعب

الأحبار، فالقصاصون كانت لهم مقدرة وبراعة فى العرض، وخيالا واسعا فى التصوير والإغراء. قل أن تجد أسطورة من أساطيرهم بدون سند يربطها بصحابى يسندها إلى النبى. وحتى لا يتسرب الشك إلى هذه الموضوعات، وتبقى عنصرا مؤثرا على العامة. ساعدت الدولة هذا الصنف وفتحت له المساجد والنوادى ووفرت لهم الهبات والعطاء. وبعد أن دق الوضاعون أوتاد الأحاديث الموضوعة. وظهرت الأحزاب السياسية والعقائدية، لتدلى بالدلو وتحرج ما يؤيد اتجاهها الذى يتفق بصورة أو بأخرى مع اتجاه الحزب الحاكم الذى يعارض الحاكم الشرعى على بن أبى طالب، بعد كل هذا جاء الفقهاء ووضعوا خيمة على على هذا كله، تحت عنوان " تقديس الصحابة " ومنهم من تطرف فى عنوانه فقال ": تقديس أصحاب القرون الثلاثة الأولى. " وعلى فكرة تقديس الصحابة درس العلماء الحديث ووضعوا أصوله وقواعده. وهذا الاسراف بالغلو فى تنزيه جميع الصحابة عن الكذب ووضعهم فى مستوى القديسين والملائكة الأبرار جاء بنتائج شوهت معالم السنة، وقامت بتحصين البغاة والقتلة والمجرمين فى حصن منيع لا يجوز الاقتراب منه، لأن البغاة فى خيمة القديسين والملائكة الأبرار. وأصحاب اللافتة المرفوعة. يعلمون جيدا، أن المعاصرين للنبى من الصحابة لم يكونوا فى مستوى واحد، وكانوا كغيرهم من سائر الناس فى مختلف العصور. فمنهم الصديقون الأبرار

[صفحه ۴۱۸]

الذين طهرت نفوسهم الصحبة من الفجور والآثام. ومنهم المسلم الذى لم يبلغ مرتبة هؤلاء، ومنهم المتستر بالإسلام الذى يستبيح كل شئ فى سبيل تحقيق أهدافه ورغباته. وأصحاب اللافتة يعلمون أحاديث الارتداد التى اتفق عليها الشيخان البخارى ومسلم. والتى تنص على أن هناك من ارتد عن الدين بعد النبى صلى الله عليه وسلم ولم ينج منهم إلا مثل همل النعم كما جاء فى بعض مرويات الشيخين الجليلين. ويعلم أصحاب اللافتة أيضا أن بعض الصحابة أمثال معاوية، ومروان، والمغيرة، وابن العاص، وولده عبد الله، وطلحة، والزبير، اللذين تزعما حركة المعارضة لخلافة على بن أبى طالب. بقيادة السيدة عائشة، وكان من نتائجها أن استشهد ما يقرب من خمسين ألفا أكثرهم من المسلمين الأبرياء الذى غررتهم السيدة عائشة بوقوفها هذا الموقف الذى حذرها منه الرسول فى أكثر من مناسبة، يعلم أصحاب اللافتة أن الكثير من الصحابة كانوا مدخلا لتحريف السنة وتجاهل أحكام الدين، ونحن نسأل: إذا كان النبى صلى الله عليه وسلم جعل أصحابه دون استثناء فوق البشر من حيث العدالة والصدق والإخلاص إلى غير ذلك. وإذا افترضنا أن الساحة لم يكن بها منافقون. وأن الجميع أطهار. فبأى من هؤلاء نقتدى. بالذين بايعوا أبو بكر أم بالذين تخلفوا عنه؟ بمن يمكن الاقتداء بالذين كانوا مع

عثمان أم الذين أنكروا عليه أعماله؟ ومن المسؤول عن سفك الدماء يوم الجمل وبأى الفريقين نقتدى؟ وابن آكلة الأكباد وقرينة ابن العاص الذين نسبوا أنفسهم إلى الصحبة فخاضوا فى دماء المسلمين، فبمن نقتدى؟ نقتدى بأمير المؤمنين أم بالقاسطين وكلهم صحابة؟ بمن نقتدى بالحكم بن العاص وكعب الأحبار وأمثالهم من الذين بشروا بملك بنى أمية، أم بأبى ذر وحذيفة وغيرهم من الذين حذروا من ملك بنى أمية؟ بمن نقتدى بالمقتول حجر بن عدى، أم بالقاتل معاوية بن أبى سفيان؟ والخلاصة: لو صح حديث أصحابى كالنجوم. فلا شك أنه لم يرد به العموم. وإنما يرد به الذين كالنجوم فى ظلمة الليل يحذرون ويبشرون، لكى يعيد الناس ترتيب أوراقهم وتنظيم حركتهم، لأن الله ينظر إليهم كيف يعملون. إن لافتة القداسة جعلت للقرآن ثقلا آخر هو الصحابة. كيف؟ وفى حبل

[صفحه ۴۱۹]

هذا الثقل الذين أذلوا الأمة ودفعوها إلى دائرة المقهور. وفيه الذين كذبوا على الرسول ووضعوا مئات الأحاديث ليدعموا بها فريقا أو رأيا أو ليشوشوا على الإسلام ومبادئه والقرآن الكريم شن عليهم حملات عنيفة، ووصفهم بالنفاق والفسق. وفضح مؤامرتهم ودسائسهم التى كانوا يحيكونها فى الظلام للقضاء على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوته. فضلا إلى عشرات الأحاديث التى وصفتهم بالارتداد عن الدين والتمرد على أصوله ومبادئه. لقد وضع الحزب الأموى الصحابة داخل هالة من القداسة. ومنحهم صفة العداة. وأشاع ذلك بين الناس على اختلاف فئاتهم وطبقاتهم. وجدوا فى تثبتها وتركيزها فى النفوس بالمال والسلاح وكل المغريات. وظلت هذه الفكرية تسير مع الأجيال جيلا بعد جيل. إلى أن جاء دور المؤلفين من الرجال وأحوال الرواة فى عصر يختلف عن أى عصر مضى. من حيث الصراع الفكرى والعقائدى الذى شاع وانتشر بين أوساط المسلمين خلال القرن الثانى من الهجرة، فوجد هؤلاء أن محاكمة الصحابة وتجريحهم كغيرهم يؤدى إلى الإطاحة بأكثر المرويات عن الرسول. لأن أكثرها مروى بواسطتهم، وفى ذلك انتصارا للعناصر الأخرى التى لم ترض للعقل بأن يبقى بعيدا عن المسرح. وأعطوا للعقل الحق فى أن يتدخل فى كل شئ، ما لم يكن من الضرورات التى لا تقبل الشك والمراجعة، هذا بالإضافة إلى أن السياسيين وغيرهم يعلمون أن انتقاد الصحابة ومحاكمتهم كغيرهم، يؤدى بالنتيجة إلى انتقاد الخلافة الإسلامية بالنحو الذى سارت عليه، لأن عدالة الصحابة وعدم اجتماعهم على ضلال كما يزعمون. من أوفر الأدلة حظا على شرعيتها، فإذا التزموا بأنهم كغيرهم من سائر الناس وضعوهم فى قفص الاتهام، كان ذلك انتصارا للحزب المعارض لخلافة الثلاثة، وبالتالى تبطل خلافة الأمويين من أساسها حتى على منطقهم الذى ضللوا به الجماهير المغلوبة على أمرها. فبعد أن وضعت الأحاديث ونصبت خيمة القداسة وظهرت الفرق وجاء عصر التدوين، اهتم القائمين على هذا الأمر بأحاديث الأحكام. وتجاهلوا التيارات المتضاربة والآراء الغريبة عن تعاليم الإسلام، والافتراضات التى أيدتها

[صفحه ۴۲۰]

وروجتها بعض الفرق والأحزاب التى لبست المسوح ومضت تفلسف المعتقدات والمبادئ الإسلامية. إلى غير ذلك من الاتجاهات التى كان لها أكبر الأثر فى تحوير الحقائق والتلاعب فى حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بالإضافة إلى دور القصاصين والمرتزقة الذين اتخذوا القصص مهنة. فأخذ القائمين على هذا الأمر هذه المرويات ودونوها من غير تعديل أو تمحيص، ولهذا كثيرا ما نجد بين الرواة الكثير من الذين ينتسبون إلى هذه التيارات من جبرية وقدرية ومرجئة وغيرهم، وعلى سبيل المثال فرغم الهالة التى للبخارى وجامعه فى نفوس آلاف العلماء والمحدثين، فقد تعرض للنقد وأبى الباحثون المنصفون إلا أن ينظروا إلى البخارى كمحدث اجتهد فى جمع الحديث وتدوينه يخطئ ويصيب، وإلى كتابه كغيره من مجاميع الحديث التى جمعت الغث والسمين والصحيح والفاسد. والبخارى روى عن مروان بن الحكم، وأبا سفيان، ومعاوية وعمر بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وعبد الله بن عمرو، والنعمان بن بشير. الذى لازم معاوية وولده يزيدا إلى اللحظة الأخيرة من حياته. واشترك معهما فى جميع الجرائم والفتن. ولم يذكر البخارى الحسن والحسين فى جملة من روى من الصحابة، مع العلم بأنهما يخضعان لقاعدة تعريف الصحابى. وأكثر ما روى عنه البخارى أبو

هريرة، وعائشة، وعمر بن الخطاب، وعبد الله بن عمر. وقد روى عن أبى هريرة أربعمائة وستة وأربعين حديثا، وعن عبد الله بن عمر مائتين وسبعين حديثا، وعن عائشة مائتين واثنين وأربعين حديثا. ولم يرو عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا حديثا واحدا. وروى عن على بن أبى طالب تسعة وعشرين حديثا. وروى عن أبى موسى الأشعرى سبعة وخمسين حديثا، وروى عن معاوية ثمانية أحاديث. وعن المغيرة بن شعبة أحد عشر حديثا، وعن النعمان بن بشير ستة أحاديث. ولم يرو عن المقداد بن الأسود إلا حديثا واحدا. ولا عن عمار بن ياسر إلا أربعة أحاديث ولا عن سليمان الفارسى إلا أربعة. وروى عن عبد الله بن عباس نحو من مائتين

[صفحه ۴۲۱]

وسبعة عشر حديثا [۲] وقد صحت عنده أحاديث عبد الله لأن أكثرها جاء عن

طريق عكرمة.. المتهم باعتناق فكرة الخوارج [۳] .

وذكر فى مقدمة فتح البارى أن أكثر من أربعمائة من رواة الصحيح تضاربت فيهم آراء المحدثين، من حيث وثاقتهم وجواز الاعتماد على مروياتهم، ونحن هنا سنلقى الضوء على البعض منهم من الذين لهم علاقة بالإفرازات الفكرية التى طفحت على الساحة. منهم: (حصن بن نمير أبو محصن الواسطى)، قال ابن معين ليس بشئ [۴] ، وقال فيه جماعة: أنه كان ناصبيا يشتم عليا [۵] (ومحمد بن زياد الالهانى الحمصى) قال الحاكم: وهو ممن اشتهر عنهم النصب [۶] (وعبد الله بن سالم الأشعرى) قال أبو داود: كان يذم على. يعنى أنه ناصبى [۷] .

ومنهم: (ثور بن زيد)، اتهمه محمد بن البرقى بالقدر [۸] ، (وثور بن يزيد الكلاعى) قال ابن معين: ما رأيت أحد يشك أنه قدرى. وقال أحمد بن حنبل: كان ثور يرى القدر [۹] وقد نهى ابن المبارك والأوزاعى عن كتابة حديثه

والاعتماد عليه [۱۰] (ووهب بن منبه) صاحب القصص قال الذهبى: من أحبار

علماء التابعين... كثير النقل من كتب الإسرائيليات. قال الجوزجانى: كتب كتابا فى القدر. وقال أحمد بن حنبل: كان يتهم بشئ من القدر.

[صفحه ۴۲۲]

ثم رجع [۱۱] .

ومنهم: (سالم بن عجلان الأفطس) قال أبو حاتم: صدوق مرجئ. وقال الفسوى: مرجئ معاند، وقال ابن حبان: تغرر بالمعضلات عن الثقات. ويقلب الأخبار [۱۲] (وعبد الحميد بن عبد الرحمن أبو يحيى)، قال النسائى: ليس بالقوى. وضعفه أحمد وقال أبو داود: كان داعيا فى الأرجاء [۱۳] .

ومنهم: (داود بن الحصين أبو سليمان) قال ابن حبان كان يذهب مذهب الشراة - يعنى الخوارج كعكرمة.. تجب مجانبة حديثهم [۱۴] ، (والوليد بن كثير) قال أبو داود: كان أباضى [۱۵] وقيل: كان خارجيا [۱۶] (وعمران بن حطان

السدوسى البصرى الخارجى) قال العقيلى: كان خارجيا [۱۷] وعمران هذا هو

الذى قال شعرا يشيد فيه بابن ملجم قاتل على بن أبى طالب. فهؤلاء رواة اعتمد عليهم البخارى فى صحيحه. وغير هؤلاء كثير. وقد ذكر ابن حجر فى مقدمة البخارى أكثر من أربعمائة من رواة الصحيح تضاربت فيهم آراء المحدثين. وهذا أمام الباحث المنصف ليس فيه ذم للبخارى. ولا لغيره من الذين جمعوا الحديث ودونوه. فهؤلاء قاموا بعمل لم يقم به الصحابة بعد وفاة الرسول. ولم يقل البخارى أو غيره عليكم بكتابى وقدسوه. ولم يفرضه على الذين جاؤوا من بعده. وهؤلاء المؤلفون كانوا يعتمدون على اجتهادهم حينا. وعلى غيرهم ممن يحسنون به الظن حينا آخر. فيخطئون ويصيبون ككل إنسان لم يعصمه الله من الخطأ والزلل. وعلى الرغم من أن مجاميع الحديث جمعت الغث والسمين والصحيح والفاسد. فإننا نعترف لأصحابها بالفضل

[صفحه ۴۲۳]

والعمل الطيب والجهد المثمر. لأنهم وضعوا أمام الباحثين عن الحقيقة مادة غنية يستطيعون بها أن يميزوا بين الغث والسمين وأن يحددوا الطريق إلى الصراط المستقيم. رحم الله البخارى ومسلم وأحمد والترمذى وأبا داوود والحاكم وابن ماجة وابن عساكر وأبا نعيم والديلمى والبغوى ونعيم بن حماد والبيهقى وابن حبان وابن خزيمة والضياء والسيوطى وغيرهم من الذين جمعوا لنا الأحاديث كى ننظر فيها نظرة الدراية التى تقود إلى الحقيقة. د - مرايا عالم الدراية: لم يترك النبى صلى الله عليه وسلم أمته هملا. فالقرآن الذى بين يدى الناس فى يومنا هذا هو القرآن الذى جمع فى عهده صلى الله عليه وسلم. وليس صحيحا أن القرآن تم جمعة وترتيبه بعد وفاة الرسول. وكان النبى صلى الله عليه وآله وسلم يبين تفسير كل آية ويأمر بكتابة ما يراه من هذا التفسير. لقد فسر صلى الله عليه وآله وسلم المعارف الإلهية والأحكام التشريعية وأظهر الفضائل الخلقية والمبادئ الإنسانية. وبما أن الكتاب وحى من الله تعالى فإن السنة هى أيضا وحى من الله تعالى. قال صلى الله عليه وسلم ": أوتيت القرآن ومثله معه " فسنة النبى وتفسيره لآيات الكتاب تبين بحمل القرآن وتخصص عامة وتقييد مطلقه. والكتاب والسنة ينظمان كل نواحى الحياة. ففيهما العقائد والعبادات والفضائل والنظم الاجتماعية والاقتصادية والتربوية ونظام الحكم والسياسة. فالسنة لم تترك شيئا إلا وبينته. ونصوص الكتاب والسنة جاءت منفصلة وموضحة كل المسائل التى لا تختلف باختلاف الزمان والمكان. فليس لأحد أن يزيد عليها أو ينقص منها [۱۸] والكتاب والسنة لا يخاطبان جنسيا دون جنس ولا شعبا دون

شعب. وإنما يخاطبان الناس جميعا فى كل زمان ومكان. ومن الدليل أن القرآن جمع فى عهد النبى وأنه تم تفسيره للصحابة لإقامة الحجة عليهم، قوله تعالى: (إن علينا جمعه وقرآنه - فإذا قرأناه فاتبع قرآنه - ثم إن علينا بيانه) [۱۹].

[صفحه ۴۲۴]

فالجمع والبيان وحى من الله ينطق على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرى فى حركته. ومن الثابت أن بعض الصحابة كانوا يكتبون الوحى للنبى. كعلى بن أبى طالب وزيد بن ثابت وأبى بن كعب، يقول الشيخ سيد سابق: فكان كلما نزلت آية دعاهم وأمرهم بكتابتها وأرشدهم إلى موضعها من السورة التى يريد أن يلحقها بها. وكان بعض الصحابة يكتبون ما ينزل من القرآن من تلقاء أنفسهم... وكان الغرض من الكتابة تقوية ما علق بالذاكرة، وكانوا يكتبون فى جريد النخل [۲۰] وصفائح الحجارة [۲۱] والرقاع والأقتاب [۲۲] والأكتاف [۲۳].

وكان النبى يأمرهم بحفظ آيات القرآن وما بينه لهم من أحكام وتفسير قال تعالى: (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) [۲۴]، قال سيد سابق: أى بيانا. وفى الاصطلاح. علم يفهم به معانى كلام الله ويستخرج به أحكامه [۲۵]، والبيان يقتضى أن يبين لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما خفى عليهم من ألفاظ القرآن ومعانيه. قال تعالى: (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون) [۲۶]، يقول سيد سابق: وقد امتثل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فبين للأمة ما هو فى حاجة إلى بيان. روى عن أبى عبد الرحمن السلمى أنه قال: حدثنا الذين كانوا يقرؤوننا القرآن. أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل. قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا [" ۲۷].

مما سبق علمنا أن جمع القرآن وبيان ما خفى من ألفاظه كان بوحى

[صفحه ۴۲۵]

من الله. وأن النبى صلى الله عليه وسلم بين للناس ما أنزل إليهم. وأمر بكتابة القرآن والعلم وأن الصحابة كانوا يتعلمون القرآن والسنة جنبا إلى جنب لأمر الله تعالى بأن يأخذوا بما أتى به الرسول وأن ينتهوا عما نهى عنه قال تعالى: (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) [۲۸]، وقال: (من يطع الرسول فقد أطاع الله) [۲۹]، وقال: (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر...) [۳۰].

وبعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم. تفرغ الإمام على لجمع القرآن وتفسيره بعد أحداث السقيفة. وكان هناك من الصحابة من جمع

القرآن كله ومنهم: على، وزيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود وأبى بن كعب [۳۱] ورأى

عمر بن الخطاب فى خلافة أبى بكر أن يجمع القرآن ليكون فى خزينة الدولة. روى البخارى أن أبا بكر قال: أتانى عمر فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن. وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن فيذهب كثير من القرآن. وإنى أريد أن تأمر بجمع القرآن فقلت لعمر: كيف نفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال عمر: هو والله خير. قال أبو بكر. فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك [" ۳۲] .

وبدأت عملية الجمع. وأثناء هذه العملية سقط الكثير من تفسير الآيات التى تحذر من الفتن. بل وسقط تفسير بعض آيات الأحكام. ولذا وجدنا عمر بن الخطاب يقول أثناء خلافته فيما رواه البخارى: إن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق وأنزل عليه الكتاب. فكان مما أنزل آية الرجم. فقرأناها وعقلناها ووعيناها. رجم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ورجمنا بعده

[صفحه ۴۲۶]

فأخشى إن طال الناس زمان أن يقول قائل: والله ما نجد آية الرجم فى كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله. ألا وإن الرجم حق على من زنى وقد أحصن.... [۳۳] ، وما ذكره عمر كان من التفسير وليس من القرآن. ولم يجده عمر لأن عملية الجمع سقط منها كثير من التفسير. وقول عمر هذا اشتهر على أنه يقصد به القرآن الكريم. ولكن الحقيقة تخالف ذلك، فالآية من مقام البيان والتفسير. وهذا المقام كان قد استهدف بعد وفاة النبى صلى الله عليه وآله وسلم. عندما نقل الصحابة ما كان فى الرقاع والأكتاف والعسب وجمعوه فى مصحف واحد. ويقول الشيخ سيد سابق عن هذا الجمع: كان الجمع مقتصرا على ما لم تنسخ تلاوته [۳۴] وبينما كان الإمام على متفرغا لجمع القرآن والتفسير. كان ابن عباس يعلم تفسير بعض الآيات فى المصحف الذى جمعه الصحابة فى عهد أبى بكر. بينما كان عمر يجهل هذا التفسير. روى البيهقى بسند صحيح أن عمر بن الخطاب سأل ابن عباس فقال: أرأيت قول الله تعالى لأزواج النبى صلى الله عليه وآله وسلم ": ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى، " هل كانت جاهلية غير واحدة؟ فقال ابن عباس: ما سمعت بأولى إلا ولها آخره، قال عمر: فأتنى من كتاب الله مما يصدق ذلك، فقال ابن عباس: قوله تعالى: (وجاهدوا فى الله حق جهاده)، كما جاهدتم أول مرة. قال عمر: من أمرنا أن نجاهد؟ فقال ابن عباس: مخزوم وعبد شمس [" ۳۵] ، فالجهاد آية فى القرآن ومخزوم وعبد شمس تفسير لهذه الآية. وبعد أن استفسر عمر من ابن عباس عن الذين أمرهم الله بجهادهم. روى أن عمر قال لعبد الرحمن بن عوف: أما علمت أنا كنا نقرأ (وجاهدوا فى الله حق جهاده)، فى آخر الزمان كما جاهدتم فى أوله. فقال عبد الرحمن: ومتى ذلك؟ قال عمر: إذا كان بنو أمية الأمراء وبنو المغيرة

[صفحه ۴۲۷]

الوزراء [" ۳۶] ، وما ذكره عمر ما هو إلا تفسير للآية المذكورة. وإذا كانت الآية فى كتاب الله الذى تولى الله حفظه. وإذا كان التفسير قد سقط عند جمع المصحف بعد ذلك. فإن السنة الشريفة بينت هذا التفسير عند الحفاظ الذين احتفظوا بالتفسير داخل عقولهم وليس فى صناديق بنى أمية أو بنى المغيرة. فعن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أهل بيتى سيلقون بعدى من أمتى قتلا وتشريدا وإن أشد قومنا لنا بغضا بنو أمية وبنو المغيرة وبنو مخزوم [" ۳۷] ، فهذا تفسير جامع بابه طويل وعريض. وروى أن المصحف الذى جمعه أبو بكر كان عنده حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته. ثم عند حفصة بنت عمر [۳۸] ، وعندما جاء عهد عثمان سليل الأمويين. أرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك [۳۹] وروى البخارى أن حفصة أرسلت بها إلى عثمان.

فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث. فنسخوها فى المصاحف. ورد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا. وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق [" ۴۰] .

وقيل إن عثمان فعل ذلك عندما اختلف الناس فى تلاوته نظرا لأن القرآن يشمل على الأحرف السبعة. ولقد اختلف العلماء فيما هو

المقصود بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولا [۴۱] ، فمنهم من قال: الأحرف السبعة. سبع لغات من لغات العرب فى المعنى الواحد. واللغات السبع هى: لغات قريش

[صفحه ۴۲۸]

وهذيل وثقيف هوزان وكنانة وتميم واليمن [۴۲] ومنهم من قال: نزل بلغة قريش

وهذيل وتيم والأزد وربيعة وهوازن وسعد [۴۳] فاختلاف التلاوة كان باعثا لعثمان

لكى ينسخ من المصاحف مصحفه. ليقضى على أصول الخلاف. ولا ندرى إذا كان الله قد أمر بنزول كتابه على الأحرف السبعة فهل يجوز أن يلغى أى مخلوق هذا الأمر؟ وإذا اختلف الناس فهل يكون العيب إلا فى الناس. وهل يقتضى إزالة هذا العيب أن تمتد الأيدى إلى الأصول أم إلى تعليم الناس ووضعهم على طريق اللاخلاف. إن ربط الأحرف السبعة بألسنة القبائل عنوان لا يهضمه عالم التدبر.. والذى يمكن قبوله ما روى عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كان الكتاب الأول ينزل على حرف واحد. وأنزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف: زاجر، وآمر، وحلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه وأمثال، فأحلوا حلاله وحرموا حرامه وافعلوا ما أمرتم به وانتهوا عما نهيتم عنه. واعتبروا بأمثاله واعملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه وقولوا آمنا به كل من عند ربنا [" ۴۴] .

أما ما قيل بأن الأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب. فإن القرآن يرده، قال تعالى فى كتابه: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين له)، ومعنى هذا أن الرسل إنما تبعث بألسنة قومها لا بألسنة من سواها. ولقد بين القرآن الكريم أن اللسان الذى بعث به النبى صلى الله عليه وآله وسلم، هو لسان قومه. أى لسان قريش لا من سواه من الألسنة العربية. وكان قومه المرادون بذلك هم قريشا لا من سواهم. ومن ذلك قوله تعالى: (وإنه لذكر لك ولقومك) يعنى قريشا لا سواهم.

[صفحه ۴۲۹]

فالقرآن نزل بلغه قريش، ومن هذه اللغة خرج العلم وتمدد على صفحة الأرض. وعثمان نفسه قال للذين نسخوا المصاحف ". اكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم [" ۴۵] ، ونحن لا ندرى إذا كان قد نزل بلسان قريش فكيف يكتب بلسان قريش؟ ومن الثابت والمحفوظ أن عبد الله بن مسعود تصدى لقرار عثمان فى هذا الشأن. يقول محب الدين الخطيب وهو من المتحمسين فى الدفاع عن الدولة الأموية: أن ابن مسعود كان يكتب ما يوحى من القرآن فى مصحفه كلما بلغه نزول آيات منه. وقد أثنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على حسن تلاوة ابن مسعود للقرآن. وقد تسارع أبو بكر وعمر ليوصلا لابن مسعود هذا الثناء النبوى [۴۶] وكانت تغلب على ابن مسعود لهجة قومه. والنبى صلى الله عليه

وسلم رخص له أن يقرأ بلهجاتهم [۴۷] وعندما صدر قرار عثمان بحرق

المصاحف يقول أبو بكر بن العربى وهو أيضا من المتحمسين للدولة الأموية: كان فى بقائها فساد. أو كان فيها ما ليس من القرآن. أو ما نسخ منه. أو على غير نظمه. إلا أنه روى عن ابن مسعود أنه خطب بالكوفة فقال: أما بعد فإن الله قال: (ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة)، وإنى غال مصحفى فمن استطاع منكم أن يغل مصحفه فليفعل. وأراد ابن مسعود أن يأخذ مصحفه فأكرهه عثمان على رفع مصحفه. ومحا رسومه فلم تثبت له قراءة أبدا. ونصر الله عثمان والحق يمحوها من الأرض [۴۸] وفى تعليق لمحب الدين الخطيب يقول: إن عثمان كان

على حق فى غسل المصاحف كلها ومنها مصحف ابن مسعود لأن توحيد كتابة المصحف على أكمل وجه ما كان فى استطاعة البشر. وهو من أعظم أعمال عثمان [۴۹] ومن المعلوم أن عثمان ضرب ابن مسعود خلال هذه الأحداث.

وعلى أى حال فقد تم تفريغ القرآن من التفسير. أما المصاحف التى كانت عند

[صفحه ۴۳۰]

حفصة. فقد ظلت عندها حتى ماتت. ويقول الشيخ سيد سابق: ثم أخذت المصاحف بعد موتها وغسلت غسلا وقيل: إن مروان بن

الحکم أخذها وأحرقها [۵۰] .

وهکذا أحرقت أحادیث عند المقدمة، ثم جاء مروان بن الحکم الذی لعنه الله علی لسان رسوله وبدأ عملیة حرق جدیدة. والله غالب علی أمره. یقول تعالی: (فلیحذر الذین یخالفون عن أمره أن تصیبهم فتنة أو یصیبهم عذاب ألیم) [۵۱] ، وقال جل شأنه (وما کان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضی الله ورسوله أمرا أن یکون لهم الخیرة من أمرهم ومن یعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبینا) [۵۲] .

وعندما جاء عهد الإمام علی کان یحتج علی البغاة والمخالفین بالقرآن والسنة. وکان القوم قد تعمقوا فی عالم التأویل وتوغلوا فی عالم إطفاء السنة. وروی أنه قال لابن عباس حینما بعثه إلی الخوارج: لا تخاصمهم بالقرآن. فإنه حمال أوجه. ولکن حاججهم بالسنة. فإنهم لن یجدوا عنها محیصا [" ۵۳] ، ولکن عالم الحریق لم یفسح المجال الکافی لتلقی هذا الحوار. ولم ینصت لابن عباس إلا قلیلا. إن القرآن والسنة وحی من الله تعالی. فالقرآن محفوظ ولا یأتیه الباطل من بین یدیه ولا من خلفه. والسنة ترجمان له وعلی طریقها یکون الامتحان ویترتب علی الامتحان الثواب والعقاب کما نص القرآن وعلی طریق السنة یمکن أن تمتد الأیدی لتبدل أو تحرف ولکن الأیدی لیس لها أن تفعل ذلک مع القرآن. ولهذا ساق النبی صلی الله علیه وسلم أمته إلی القرآن فقال ": یا أیها الناس أنزل الله کتابه علی لسان نبیه وأحل حلاله. وحرم حرامه.

[صفحه ۴۳۱]

فما أحل فی کتابه علی لسان نبیه فهو حلال إلی یوم القیامة. وما حرم فی کتابه علی لسان نبیه فهو حرام إلی یوم القیامة [" ۵۴] ، وقال: "لا یمکن الناس علی شیئا، إنی لا أحل إلا ما أحل الله فی کتابه. ولا أحرم إلا ما حرم الله فی کتابه [" ۵۵] ، وقال ": ستکون عنی رواة یروون الحدیث فاعرضوه علی القرآن. فإن وافق القرآن فخذوه وإلا فدعوه [" ۵۶] ، وقال ": سئلت الیهود عن موسی فأکثروا فیه وزادوا ونقصوا حتی کفروا - وفی روایة - وسئلت النصاری عن عیسی فأکثروا فیه وزادوا ونقصوا حتی کفروا - وإنه ستفشو عنی أحادیث فما أتاکم من حدیث فاقرأوا کتاب الله واعتبروه فما وافق کتاب الله فأنا قلته وما لم یوافق کتاب الله فلم أقله [" ۵۷] .

فالقرآن هو العمود الفقری لحرکة السنة. والقرآن وحی یتحکم فی وحی السنة المتحرکة. والقرآن والسنة نور. والنور لا یری ولکن تری به الأشیاء. فلو لم یک حولنا ذرات وأجسام فی هذا الکون ما رأینا النور ولکننا نراه! إذا انعکست أشعة النور علی هذه المواد. ولقد علمنا أن موسی علیه السلام سأل ربه الرؤیة فکان الجواب (قال لن ترانی ولکن انظر إلی الجبل فإن استقر مکانه فسوف ترانی فلما تجلی ربه للجبل جعله دکا...) [۵۸] ، فنور الله له معالم تدل علیه. وکذلک نور السنة. ومن المعالم التی ینعکس علیها نور السنة دوائر الإیمان والعمل الصالح. فعلی هذه الدوائر فقط یمکن أن نری نور السنة قال تعالی وهو یخاطب الذین آمنوا: (یا أیها الذین آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله یؤتکم کفلین من رحمته ویجعل لکم نورا تمشون به) [۵۹] ، وقال تعالی: (ومن

[صفحه ۴۳۲]

لم یجعل الله له نورا فما له من نور) [۶۰] .

إن النور فی دائرة العباد لن یتحقق إلا بتقوی الله والإیمان برسوله. فهنا فقط یعمل نور السنة ویکشف للعباد طریقهم الذی یمشون فیه. وکما أن الأنبیاء والرسل علیهم السلام یهدون الناس إلی نور الله. فکذلک الأئمة والأوصیاء الذین عینهم الله علیه لسان رسله یهدون الناس إلی نور سنة الأنبیاء. وهکذا کان لکل نور طریق یقود الناس إلی صراط العزیز الحمید. والذی حدث فی عهد الرسالة. أن الرسول اهتم بأهل بیته تربیة وتثقیفا وتأهیلا وتفضیلا. ولم یکن هذا الاهتمام عاطفیا أو خاضعا لآصرة الدم أو العرق. وإنما کان تنفیذا لأمر إلهی أوحی به إلیه. وما علی الرسول إلا البلاغ المبین. وکان من المتوقع أن یعرف الرعیل الأول لتلک الصفوة قدرها. وأن یضع تلک الأوامر الإلهیة الواردة بحقهم نصب عینیه. غیر أنه من المؤسف أن یذهل عنها ویضرب بها عرض الجدار، وقد رأینا من التاریخ أن آل محمد صلی الله علیه وسلم قد لاقوا الکثیر من البطش والاضطهاد وتجرعوا الکثیر من المحن والویلات وفی خضم ذلک کله کانوا صابرین محتسبین مقدرین للدور الرسالی المنوط بهم، وکان الرسول صلی الله علیه وسلم قد أخبر بهذا کله وهو یخبر بالغیب

عن ربه جل وعلا. وعلى إثر المذابح التى أقيمت لأهل البيت، رفعت رايات الأنظمة السياسية الفاسدة المستبدة التى تمثلت فى الدولة الأموية وتحت هذه الرايات ظهرت الفرق والمذاهب والتشرذم والتحزب. كل حزب بما لديهم فرحون. وكان الحكام يقومون بتغذية تلك النعرة داخل الأمة وإذكاء نيرانها. وفى هذه الموجات ظهر الغلاة والمتصوفة وأصحاب الشطحات. واجتاحت الأمة ثقافات غريبة دخيلة وفلسفات يونانية وهندية وفارسية قديمة. وذلك بعد أن تم ترجمة العديد منها إلى اللغة العربية مما أدى إلى تهيئة المناخ لظهور الدهريين والجدليين والملحدين والمشككين. فصار هناك من يتكلمون فى الذات الإلهية والأسماء والصفات والجوهر والعرض. وهل القرآن مخلوق أم غير

[صفحه ۴۳۳]

مخلوق إلى غير ذلك من قضايا منطقة الصفر. وعلى امتداد الثورات والانقلابات كان الغالب الأعم يتجه إلى العلماء ولم يجرؤ عالم على نقد معالم الشذوذ لأن هناك قاعدة تربطه تقول: القاتل والمقتول فى الجنة والمجتهد إن أخطأ له حسنة وإن أصاب فله عشرة، وإن العدالة ليست شرطا لقبول الحاكم المتغلب لأن الأصل: أطيعوا البر والفاجر. ولا شئ فى ركوب قطار الإمام الفاسق لأن كل القطارات تصل إلى أهداف الله. وفى داخل منطقة الصفر غرس فى نفوس العامة الكثير من الآراء والمقالات وصرف الناس عن الاجتماع حول كلمة واحدة ورأى واحد وعندما جاء القرن الرابع. تصدى للإفتاء فقهاء قادوا المسيرة نحو إغلاق باب الاجتهاد. نظرا لحالة الفوضى التى سادت القضاء والإفتاء فى ذلك الحين. وعلى هذا نرى أنهم عالجوا الفوضى والاستغلال والفساد. بالجمود لا بالتنظيم القويم. فكان الدواء شرا من الداء. ويقول الشيخ خلاف عن هذه الفترة: إن العلماء فشت فيهم أمراض خلقية. جالت بينهم وبين السمو إلى مرتبة الاجتهاد. فقد ظهر بينهم التحاسد والأنانية. فكانوا إذا طرق أحدهم باب الاجتهاد فتح على نفسه أبوابا من التشهير به وحط أقرانه من قدره، وإذا أفتى فى واقعة برأيه. تصدوا إلى تسفيه؟ رأيه وتفنيد ما أفتى به بالحق وبالباطل [۶۱] .

وكان من آثار الجمود لدى بعض العلماء أنهم تعصبوا لأئمتهم وأنزلوا أقوال إمامهم مكانا فوق ما للقرآن والسنة من مقام... وانصرفوا عن الأساس التشريعى الأول وهو القرآن والسنة بحيث أصبحوا لا يرجعون إلى نص قرآنى أو حديث إلا ليلتمسوا فيه ما يؤيد مذهبهم ولو بضرب من التعسف فى الفهم والتأويل [۶۲] ، والواقع أن الجمود يتعارض مع طبائع الأشياء ومع سنة التطور الذى يعد بمثابة قانون يخضع له كل ما فى الوجود حتى الصخور كما يقرر علماء

[صفحه ۴۳۴]

الجيولوجيا [۶۳] ، والجمود يؤدى دائما إلى الالتجاء للحيل التى توصف بالحيل الشرعية. للتخلص من اتباع أحكام الشريعة. بل وتعاليم الإسلام بوجه عام. بل والإقدام على ارتكاب بعض المحرمات وأنواع الفساد. وفى ذلك يقول ابن القيم: إن إقفال باب الاجتهاد أدى إلى التحايل. حتى وضعت الكتب فى الحيل والمخارج للهروب من كل التزام. حتى تحايل بعضهم فى إسقاط حد السرقة. وبعضهم لأخذ أموال الناس وظلمهم فى نفوسهم وسفك دمائهم وإبطال حقوقهم وإفساد ذات بينهم [" ۶۴] .

ومع الجمود الذى جاء نتيجة لجفاف نهر العلم فى مدرسة رفعت للرأى والأهواء أعلاما. ومع الحيل التى تزين كل شذوذ فى عالم الفقيه الفاسق والإمام الجائر وقف الجميع تحت مظلة العذاب وهذه المظلة تجمع من ضربهم الخسف فلا يستطيعون مضيا ولا يرجعون. والخسف لا يضرب إلا الذين استقالوا من حركة الحياة وجلسوا فى منطقة الصفر يهتفون للسلطان أمام كل مصلوب ويضربون بالدف حول كل قرد يأتيهم الدجال وهم على هذا الحال. يقول أبو حامد الغزالى: إن المعصية إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها. فإذا أعلنت ولم تغير أضرت بالعامة [" ۶۵] وفى هذا الوقت فى دولة بنى العباس كانت الكلمة قد تمزقت. وانقسمت ممالك الأرض. وحكم الناس بالعسف والظلم والجور [۶۶] ، وكان هذا كله مقدمة لمجئ التتار والسبب الرئيسى لهجوم التتار هو التعصب المذهبى بين الشافعية والحنفية [۶۷] وعندما جاء التتار أحاطوا بدار الخلافة

ورشقوها بالنبال من كل جانب وقتل هولاكو الخليفة العباسى رفسا بالأقدام [۶۸] .

[صفحه ۴۳۵]

وبدولة بنى العباس تفرقت الجماعة [۶۹] .

والنبى صلى الله عليه وآله وسلم كان قد أخبر بالغيب عن ربه وذكر هذا الهجوم التتارى الذى يسلطه الله على الظالمين. فقال": يوشك خيل الترك مخرمة أن تربط بسعف نخل نجد [" ۷۰] ، وقال ": لتنزل طائفة من أمتى أرضا يقال لها البصرة، يكثر بها عددهم ويكثر بها نخلهم ثم يجئ بنو قنطوراء عراض الوجوه صغار العيون حتى ينزلوا على جسر لهم يقال لها دجلة\ ۷۱] cf۱] ، وفى رواية: كأن وجوههم المجان المطرقة. ينتعلون الشعر ويتخذون الدرق حتى يربطوا خيولهم بالنخل\ " ۷۲] cf۱] .

ومن الطريف أن يقال إن الجماعة تفرقت بدولة بنى العباس. ووجه الطرافة أن الذين ضيعوا الصلاة واتبعوا الشهوات قد تفرقوا من زمن طويل حتى قبل مجئ دولة بنى العباس. وكيف تكون هناك جماعة تحت رايات الجبرية والمرجئة. وسلاطين الاستبداد والظلم! إن الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم رفض شريحة زمنية على امتداد تاريخ الأمة. فلقد قيل له: يا رسول الله: أى الناس خير؟ قال: أنا ومن معى. فقيل له: ثم من؟ قال: الذى على الأثر فقيل له: ثم من؟ فرفضهم رسول الله صلى الله عليه وسلم\ " ۷۳] cf۱] ، فهل معاوية وعمرو بن العاص والوليد بن عقبة وعبد الله بن أبى السرح ومروان بن الحكم كانوا معه؟ وهل بسر بن أرطأة وسمرة بن جندب ويزيد بن معاوية وعبيد الله بن زياد والحجاج بن يوسف وعبد الملك بن مروان. كانوا على الأثر؟ هل الناكثون والقاسطون والمارقون كانوا معه أو كانوا على الأثر؟ كيف أمر بقتالهم إذن؟ هل أبناء عام ستين وما بعدها الذين ضيعوا لصلاة وأمر النبى بالاستعاذة بالله منهم

[صفحه ۴۳۶]

كانوا على الأثر؟ كيف أمر بالاستعاذة إذن؟ إن الجماعة لم يرفع أعلامها البغاة، ومن الطريف أيضا أن الإمام على بن الحسين بن على بن أبى طالب سأل ابن المبارك. من الجماعة؟ فقال ابن المبارك: أبو بكر وعمر. قال على بن الحسين: قد مات أبو بكر وعمر. فقال ابن المبارك: فلان وفلان، فقال له: قد مات فلان وفلان. فقال ابن المبارك: أبو حمزة السكرى جماعة! قال الترمذى: وأبو حمزة هو محمد بن ميمون وكان شيخا صالحا. وإنما قال هذا فى حياته\ " ۷۴] cf۱] .

إن النبى صلى الله عليه وسلم يقول ": يد الله مع الجماعة\ " ۷۵] cf۱] ، فبيد من قتل عمار وحجر بن عدى والحسين ومن معه وعلى يد من تم اجتياح المدينة وحوصرت مكة ورمى البيت بالحجارة؟ إن الذين كانوا مع النبى هو الذين لم يرفعوا السلاح فى وجه حبل النبى وسبيله وساروا من بعده على الأثر وظهروا تحت شعاع نور السنة، فالنور لا يرى ولكن ترى به الأشياء. إن الأمة بجميع فرقها ومذاهبها متفقة على الكتاب والسنة. ورغم ذلك اختلفت الأمة ضروبا من الاختلاف فى الأصول والفروع. وتنازعوا فيها فنونا من التنازع فى الواضح والمشكل من الأحكام والحلال والحرام والتفسير والتأويل والعيان والخبر والعادة الاصطلاح. والعمود الفقرى لهذا الاختلاف ينحصر فى: ممن تأخذ السنة؟ فهناك مدرسة نأخذ السنة من الصحابة. والصحابة عند هذه المدرسة ثقات عدول. والقرآن يرد على هذه المدرسة قولها. قال تعالى فى نفر من الصحابة: (إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم\) ۷۶] cf۱] ، فالصحابة الذين رموا فراش رسول الله هل يستبعد عليهم أن يكذبوا على رسول الله؟ كيف يدخل دائرة العدول من أدخله الله فى دائرة الإثم

[صفحه ۴۳۷]

وأوعد من تولى كبره منهم عذابا عظيما؟ ويقول تعالى فى طائفة أخرى منهم: (وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين\) ۷۷] cf۱] ، فهل يدخل دائرة العدول من ترك الصلاة وراء رسول الله يوم الجمعة وتركه قائما وانطلق إلى الطبل والتجارة؟ وروى البخارى حديث الارتداد وقد ذكرناه فيما سبق وفيه ": فأقول يا رب أصحابى أصحابى فيقال إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك\ " ۷۸] cf۱] ، وروى أيضا ": إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك. إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى\ " ۷۹] cf۱] ، فهل المرتد ثقة؟ هل المرتد فى دائرة العدول؟ وقال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ

فتبینوا\) ۸۰] cf۱] ، فهل یجوز للذی لم یأتمنه الله علی نبأ. أن تأتمنه الأمهٔ علی قیادتها؟ هل الفاسق یمکن أن یقود الناس إلی صراط الله؟ هل یجوز للفاسق أن یعلم الناس تأویل القرآن؟ وهناک مدرسهٔ لا ترفع إلا أعلام النبی صلی الله علیه وسلم وتأخذ بسنته من الذین عینهم الله علی لسان نبیه، وتری علی طرف هذه المدرسهٔ دموع أبی بن کعب وأبی ذر الغفاری والمقداد وسلمان الفارسی وتری علیها أیضا دماء عمار وحجر بن عدی، وتری أعلام الحسین ومن معه، وإذا کان هؤلاء جمیعا حججا علی الجیل الأول. وإذا کانت حرکتهم دعوهٔ للنجاهٔ لینظر الله تعالی إلی عباده فی القرن الأول کیف یعملون. فإنهم أیضا حجج علی الحاضر وعلی المستقبل. لأن التاریخ وحدهٔ واحدهٔ تنقسم إلی ماض وحاضر ومستقبل فإذا عملت الخطیئهٔ فی الأرض کان من شهدها فکرهها کمن غاب عنها. ومن غاب عنها فرضیها کان کمن شهدها\ ۸۱] cf۱] ، فالحاضر یشارک الماضی فی الإثم وإن بعدت المسافهٔ بینهما. ولهذا کان حجج الجیل الأول کمفتاح فی ید الحاضر یفتح به

[صفحه ۴۳۸]

خزانهٔ الماضی لیبحث فیها عن الحقیقهٔ، والحقیقهٔ فی یدیه، وهذا من فضل الله علیه. وهناک مدرسهٔ ولدت فی عالم الجمود وسهر علیها أساتذهٔ التبشیر والصهیونیهٔ. وهذه المدرسهٔ تکتفی بإطلاق الأسماء الإسلامیهٔ علی أبنائها فی أغلب الأحیان. الإسلام عندهم اسم والقرآن رسم إذا رتلوا القرآن فانظر حولهم. حتما ستجد أما قبرا أو سرادق عزاء أو حفلهٔ من حفلات النفاق التی یلبسون بها علی شعوبهم. وتلامیذ هذه المدرسهٔ عندهم جواب لکل سؤال. وکل جواب لبنهٔ فی صرحهم العتیق الذی أقاموه للصد عن سبیل الله. ولا یطلقون إجاباتهم إلا إذا اعتمدت من أساتذهٔ التعتیم الیهود والنصاری وإذا کان أساتذهٔ التعتیم قدیما اعتمدوا مذهب الجبریهٔ والمرجئهٔ. فهم الیوم یتحرکون بملابس نظیفهٔ ویحملون حقائب أنیقهٔ فیها جمیع الأسئلهٔ والأجوبهٔ التی هدفها الصد عن سبیل الله ولکن تحت شعار حقوق الإنسان وتقدیم الخدمات الاجتماعیهٔ. ونحن نطلق علی أتباع هذه المدرسهٔ اسم " الرویبضهٔ " لأن مجال عملهم هو ساحهٔ الذین لا یعلمون. الذین قتلوا العلم فأصابهم الجمود. والذین ترکوا الطهر فوقعوا فی الرجس لیلتقطهم النجس ثم لیقودهم النجس بعد ذلک إلی المسیح الدجال الذی ما صنعت فتنهٔ منذ خلقت الدنیا إلا ستصب فی إنائه آخر الزمان یقول النبی صلی الله علیه وآله وسلم: "إن أمام الدجال سنین خداعهٔ یکذب فیها الصادق ویصدق فیها الکاذب. ویخون فیها الأمین ویؤتمن فیها الخائن. ویتکلم فیها الرویبضهٔ، " قالوا: وما الرویبضهٔ یا رسول الله؟ قال: التافه یتکلم فی شؤون العامهٔ\ " ۸۲] cf۱] ، وفی روایهٔ: الفاسق یتکلم فی شؤون العامهٔ\ ۸۳] cf۱] ، وفی روایهٔ: السفیه یتکلم فی شؤون العامهٔ\ " ۸۴] cf۱] .

[صفحه ۴۳۹]

[۱] الموضوعات فی الآثار والأخبار:هاشم معروف ۱۴۷.

[۲] ضحی الإسلام ۱۱۱، ۱۱۲:۲، الباعث الحثیث ص ۲۵، مقدمهٔ فتح الباری ۲۴۸، ۲۴۹:۳.

[۳] أنظر المعارف لابن قتیبهٔ ص ۲۰۱.

[۴] میزان الاعتدال:الذهبی ص ۵۵۴:۱.

[۵] دراسات فی الحدیث والمحدثون:هاشم معروف ص ۱۷۸.

[۶] میزان الاعتدال ۵۵۱:۳، دراسات فی الحدیث ۱۸۴.

[۷] مزان الاعتدال ۴۲۶:۲، دراسات فی الحدیث ۱۸۶.

[۸] میزان الاعتدال ۳۷۳:۱.

[۹] میزان الاعتدال ۳۷۴:۱.

[۱۰] میزان الاعتدال ۲۷۴:۱.

[۱۱] میزان الاعتدال ۳۵۳:۴.

[۱۲] میزان الاعتدال ۱۱۲:۲.

[۱۳] میزان الاعتدال ۵۴۲:۲.

[۱۴] میزان الاعتدال ۶:۲.

[۱۵] میزان الاعتدال ۳۴۵:۴.

[۱۶] دراسات فی الحدیث ۱۹۰.

[۱۷] میزان الاعتدال ۲۳۵:۳.

[۱۸] سورة القیامة: الآیة ۱۷:۱۹.

[۱۹] أی العسب.

[۲۰] أی اللخاف.

[۲۱] أی الخشب الذی یوضع علی ظهر البعیر.

[۲۲] أی عظم البعیر أو الشاة.

[۲۳] سورة الفرقان: الآیة ۳۳.

[۲۴] مصادر التشریع ۳۹.

[۲۵] سورة النحل: الآیة ۴۴.

[۲۶] مصادر التشریع ۴۵.

[۲۷] سورة الحشر: الآیة ۷.

[۲۸] سورة النساء: الآیة ۸۰.

[۲۹] سورة الأحزاب: الآیة ۲۱.

[۳۰] مصادر التشریع الإسلامی:سید سابق ص ۳۵ ط دار الفتح للإعلام.

[۳۱] مصادر التشریع ۱۶.

[۳۲] البخاری باب جمع القرآن (الصحیح ۲۲۵:۳).

[۳۳] البخاری (الصحیح ۱۷۹:۴).

[۳۴] مصادر التشریع الإسلامی ص ۲۰.

[۳۵] رواه البیهقی وذکره ابن کثیر فی البدایة ۲۱۵:۶. ورواه الخطیب کنز العمال ۲۷۱:۱۱.

[۳۶] رواه أبو عبید وابن جریر وابن المنذر وابن أبی حاتم وابن مردویه (کنز العمال ۴۸۰:۲).

[۳۷] رواه نعیم بن حماد والحاکم (کنز العمال ۱۶۹:۱۱).

[۳۸] البخاری باب مجمع القرآن (الصحیح ۲۲۵:۳).

[۳۹] البخاری (الصحیح ۲۲۵:۳).

[۴۰] البخاری باب جمع القرآن (الصحیح ۲۲۶:۳).

[۴۱] مصادر التشریع الإسلامی ۲۹.

[۴۲] مصادر التشریع الإسلامی ۲۹.

[۴۳] المصدر السابق ۲۹.

[۴۴] الطحاوی فی مشکل الآثار ۱۸۵:۴.

[۴۵] البخاری (الصحیح ۲۲۶:۳).

[۴۶] مسند أحمد ۱:۲۵، ۲۶.

[۴۷] العواصم من القواصم:ابن العربی تحقیق محب الخطیب ۷۱.

[۴۸] العواصم من القواصم:ابن العربی ص ۷۱.

[۴۹] المصدر السابق ص ۶۴.

[۵۰] مصادر التشریع ص ۲۵.

[۵۱] سورة النور: الآیة ۶۳.

[۵۲] سورة الأحزاب: الآیة ۳۶.

[۵۳] مصادر التشریع الإسلامی ۶۲.

[۵۴] أبو نصر السجزی فی الإبانة وحسنة (کنز العمال ۱۹۶:۱).

[۵۵] رواه الشافعی وابن سعد والبیهقی (کنز العمال ۱۹۵:۱).

[۵۶] رواه ابن عساکر (کنز العمال ۱۹۷:۱).

[۵۷] رواه الطبرانی (کنز العمال ۱۹۶:۱).

[۵۸] سورة الأعراف: الآیة ۱۴۳.

[۵۹] سورة الحدید: الآیة ۲۸.

[۶۰] سورة النور: الآیة ۴۰.

[۶۱] علم أصول الفقه وتاریخ التشریع الإسلامی:عبد الوهاب خلاف ص ۳۲۷.

[۶۲] أزمة الفکر السیاسی الإسلامی:د. عبد الحمید متولی ۱۲۹.

[۶۳] المصدر السابق ۱۳۰.

[۶۴] أعلام الموقعین:ابن القیم ۲۵۴:۲.

[۶۵] إحیاء علوم الدین ۱۱۹۵:۸.

[۶۶] تاریخ الخلفاء ۲۴۰.

[۶۷] مجلة المنار عدد السنة ۱۳۱۸ ه، ۱۳۱۹ ه، بحثا بعنوان: القول الصحیح فی الرد علی الشبهات ص ۲۰۵ وما بعدها، أزمة الفکر السیاسی الإسلامی ص ۱۲۷.

[۶۸] تاریخ الخلفاء ۴۳۴.

[۶۹] المصدر السابق ۲۴۰.

[۷۰] رواه ابن قانع (کنز العمال ۲۳۹:۱۴). ۷۱] cf۱] رواه أحمد (کنز ۲۳۹:۱۴). ۷۲] cf۱] رواه أحمد وابن حبان وابن ماجة (کنز العمال ۲۰۶:۱۴). ۷۳] cf۱] رواه أحمد ومسلم (الفتح الربانی ۲۱۹:۲۳). ۷۴] cf۱] رواه الترمذی (الجامع ۴۶۷:۴). ۷۵] cf۱] رواه الترمذی (الجامع ۴۶۶:۴). ۷۶] cf۱] سورة النور: الآیة ۱۱. ۷۷] cf۱] سورة الجمعة: الآیة ۱۱. ۷۸] cf۱] البخاری (الصحیح ۱۴۱:۴) ومسلم (الصحیح ۵۹:۱۷). ۷۹] cf۱] البخاری (الصحیح ۱۴۲:۴). ۸۰] cf۱] سورة الحجرات: الآیة ۶. ۸۱] cf۱] رواه أبو داوود حدیث ۴۳۴۵. ۸۲] cf۱] رواه الحاکم دائرة الذهبی (المستدرک ۴۶۱:۴). ۸۳] cf۱] رواه أحمد (کنز العمال ۲۲۹:۱۴). ۸۴] cf۱] رواه الحاکم وأقره الذهبی (المستدرک ۵۱۲:۴).

آراء و شهود

على امتداد هذا الكتاب علمنا أن تاريخ الإسلام هو تاريخ الدفاع عن
الفطرة. ولم يترك النبى صلى الله عليه وسلم أمته إلا- وقد بين لهم حركة الأمم الماضية ليتدبروا فيها وليعلموا أن الإسلام منصور منصور منصور، فإذا أرادوا أن يقفوا تحت رايات هذا النصر فما عليهم إلا أن يتحركوا الحركة التى تستقيم معه، أما إذا أرادوا غير ذلك فما قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة منهم ببعيد، والدجال على الطريق، وعلمنا أيضا أن تاريخ المسلمين كان كغيره من تاريخ بنى الإنسان فيه ضعف الإنسان وخوفه وفيه أيضا أصحاب النفس اللوامة الذين يتذكرون حركتهم فيلومون أنفسهم ويودون أنهم تحركوا الحركة التى يحبون أن ينظر الله إليهم وهم على طريقها. ويخطئ من يظن أن حركة المسلمين على صفحة التاريخ لم تقدم جديدا للبشرية، فلقد رأينا حركة الذين دافعوا عن الفطرة وهذا فى حد ذاته دفاع عن البشرية، وعلمنا حركة الذين نشروا الإسلام فى ربوع العالم بوسائلهم البسيطة، فبعملهم هذا أقاموا ينابيع الماء الطاهر الذى يوفر الارتواء ويدعو إلى البحث، وعالم البحث لا يكون فى دائرة مغلقة على الإيجابيات والمناقب، وإنما وجد البحث ليفتش بين الإيجابيات وبين السلبيات، وهذا فى حد ذاته حركة بين الماضى والحاضر والمستقبل حركة تقرأ فى أصول الإسلام وتنظر فى حركة المسلمين، وليس هذا من أجل محاكمة التاريخ وإنما من أجل ضرب الباطل.

[صفحه ۴۴۰]

حتى يخرج الحق من جنبه، لأن الإسلام لا- يجامل أحدا وطريقه إما إلى جنة وإما إلى نار. وهناك فرق بين حركة المسلمين عبر تاريخهم وبين حركة أهل الكتاب على امتداد تاريخهم. روى أن بعض اليهود قال للإمام على بن أبى طالب: ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم فيه. فقال له الإمام: إنما اختلفنا عنه لا فيه، ولكنكم ما جفت أرجلكم من البحر حتى قلتم لنبيكم " اجعل لنا إلها كما لهم آلهة. قال: إنكم قوم تجهلون [" ۱] ، إن الفرق يكمن فى دائرة (عنه) وليس فى دائرة (فيه) وهذا فرق جوهرى عند المقارنة بين تاريخ المسلمين وبين تاريخ اليهود والنصارى. ونحن فى هذا الباب سنقدم بعض آراء علماء المسلمين حول الأحداث التى ذكرناها على امتداد هذا الكتاب. ومنها نعلم كيف كانوا ينظرون إلى التاريخ. هل كانوا ينظرون إليه بعيون السلطان وفقهائه؟ أم كانوا ينظرون إليه من ثقوب الخوف أم نظروا إليه من خلال تاريخ الإسلام وخفقات الفطرة؟ ثم نقدم بعد ذلك أقوال الشهود الذين عاصروا هذه الأحداث.

[۱] الكشاف:للزمخشرى ۲:۱۵۰، نهج البلاغة خطبة ۴:۳۱۷.

آراء

- نلقى الضوء هنا على رأى شيخ المسلمين أحمد بن تيمية فى الأحداث
التى عصفت بالأمة بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم. ولقد بينا رأى الشيخ أبى زهرة فى ابن تيمية حامل لواء مذهب السلفية. وكذا رأى ابن حجر الهيثمى (۹۰۹ - ۹۷۴ ه) الذى ذكر أن ابن تيمية قال: إن عليا أخطأ فى أكثر من ثلاثمائة مكان [" ۱] ، وقبل أن نقدم رأى ابن تيمية فى الأحداث نرى من الضرورى أن نلقى بعض الضوء على حركته فى عصره. ذكر ابن كثير فى البداية والنهاية: أن العلماء كان منهم من يحسده لتقدمه عند الدولة ومنهم من كان يبغضه لآرائه، وذكر أنه خلال اجتياح التتار لدمشق اجتمع ابن تيمية مع أعيان البلد واتفقوا على

[صفحه ۴۴۱]

المسير إلى القائد التتارى وأخذ الأمان منه لأهل دمشق، وأعطاه القائد الأمان، ونزلت خيول التتار إلى المدينة وطلبوا السلاح والأموال المخبأة عند الناس من جهة الدولة، وعندما قام التتار بالتخريب فى المدينة وما حولها ذهب ابن تيمية إلى ملك التتر وعاد بعد يومين،

وفى هذه الفترة كان التتار قد قتلوا الكثير من الفقهاء والمشايخ وعلى وجه الخصوص فى دير الحنابلة [۲] ويقول ابن كثير:

وفى جمادى الأولى وقع بيد نائب سلطان المسلمين كتاب فيه: إن الشيخ تقى الدين بن تيمية والقاضى شمس الدين بن الحريرى. وجماعة من الأمراء والخواص الذين بباب السلطنة يناصحون التتر ويكاتبونهم، ويريدون تولية قبجق على الشام. وأن الشيخ كمال الدين الزملكانى يعلمهم بأحوال الأمير. ثم ذكر ابن كثير أن هذا الكتاب مزور [۳] فزيارات ابن تيمية كلها للتتار كانت فى صالح الإسلام والمسلمين. وذكر ابن كثير: عندما حضر ابن تيمية إلى القاهرة، اشتكى منه الصوفية وردوا الأمر فى ذلك إلى القاضى الشافعى. فعقد له مجلسا. وفى أثناء ذلك قال ابن تيمية: لا يستغاث إلا بالله ولا يستغاث بالنبى. فرأى القاضى الشافعى أن هذا فيه قلة أدب، وحضرت رسالة إلى القاضى أن يعمل معه ما تقتضيه الشريعة. فقال القاضى ": قد قلت له ما يقال لمثله [" ۴] .

ورأى ابن تيمية فى الأحداث نبدأه من عقيدته فى أهل البيت. يقول: آية التطهير ليس فيها إخبار بطهارة أهل البيت وذهاب الرجس عنهم [۵] ، وقال فى حديث الكساء: إن مضمون هذا الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا لهم بأن يذهب عنهم الرجس ويطهرهم تطهيرا. وغاية ذلك أن يكون دعا لهم بأن يكونوا من المتقين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا. واجتناب الرجس واجب على المؤمنين والطهارة مأمور بها كل مؤمن [۶] ، والسابقون

[صفحه ۴۴۲]

الأولون لا بد وأن يكونوا قد فعلوا المأمور وتركوا المحظور. وحينئذ فيكون ذهاب الرجس عنهم وتطهيرهم من الذنوب بعض صفاتهم [۷] ، ثم يقول فى آية المودة: (قل لا۔ أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى) [۸] ، قال: إيجاب المودة غلط [۹] ثم بدأ يفسر حتى استقر عند قوله: ثبت أن الصديق كان أتقى الأمة بالكتاب والسنة وتواتر عن النبى أنه قال: لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا۔ وقال فى آية المباهلة: (قل تعالوا ندع أبناءنا) لا يقتضى أن يكون من باهل بهم الرسول أفضل من جميع الصحابة [۱۰] .

ثم يقول فى الأحداث مبررا لاقتحام أبى بكر لبيت فاطمة بعد أحداث السقيفة: غاية ما يقال: إنه كبس البيت لينظر هل فيه شئ من مال الله الذى يقسمه لكى يعطيه لمستحقه، ثم رأى أنه لو تركه لهم لجاز فإنه يجوز أن يعطيهم من مال الفئ [۱۱] لاحظ أن ابن تيمية لا يقول إلا رأيا ولا يستند فى ذلك على

حديث أو أثر وهذا من شأنه فى رؤيته للتاريخ. ثم يقول عن عهد عمر: كان عمر يسوغ التفضيل من الصحابة فى العطاء للمصلحة. فهو الذى ضرب الله الحق على لسانه وقبله [۱۲] ، ثم يقول فى قتل عمر: وما فعله أبو لؤلؤة كرامة فى حق عمر. وهو أعظم مما فعله ابن ملجم بعلى وما فعله قتلة الحسين به. فإن أبا لؤلؤة كافر قتل عمر. وهذه الشهادة أعظم من شهادة من يقتله مسلم [۱۳] وقال:

إن عمر لما فتح الأمصار بعث علماء الصحابة إليهم لبث العلم. واتصل العلم من أولئك إلى سائر المسلمين. ولم يكن ما بلغه على بن أبى طالب للمسلمين أعظم مما بلغه ابن مسعود ومعاذ وأمثالهما. ولو لم يحفظ الدين إلا بالنقل عن

[صفحه ۴۴۳]

على بن أبى طالب لبطل عامة الدين لأنه لم ينقل عن على إلا أمر قليل لا يحصل به المقصود [۱۴] .

وإذا كان ابن تيمية يعتقد بأن الله أذهب الرجس من الصحابة وطهرهم تطهيرا على الرغم من قول الله تعالى للذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه) [۱۵] ، وقوله فى أئمة الكفر: (وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم) [۱۶] ، وعلى الرغم من أن بعض الصحابة رموا فراش رسول الله بحديث الإفك وعلى الرغم من حديث البخارى الذى يصرح بارتداد بعضهم بعد وفاة الرسول، فإن ابن تيمية فتح أبواب الجنة واعتبر أن جميع الجرائم التى حدثت بعد وفاة الرسول. كانت نابعة من الاجتهاد ولا عقاب على الذين ارتكبوها يوم القيامة، وهذا تطرف فى الرأى يفوق تطرف المرجئة فى رأينا على الأقل، يقول ابن تيمية: إن أهل السنة عندهم أن أهل بدر كلهم

فى الجنة... وأهل السنة يقولون: إن أهل الجنة ليس من شرطهم سلامتهم عن الخطأ بل ولا عن الذنب. بل يجوز أن يذنب الرجل منهم ذنبا صغيرا أو كبيرا ويتوب منه، ولو لم يتب فالصغائر تمحى باجتناب الكبائر. بل أن الكبائر تحمى بالحسنات التى هى أعظم منها [۱۷] ، وقال: الواجب على كل مسلم أن يعلم أن أفضل الخلق بعد الأنبياء الصحابة [۱۸] فإن الهدى

يدور مع الرسول حيث دار ويدور مع الصحابة حيث داروا فإذا اجتمعوا لم يجتمعوا على خطأ قط [۱۹] .

ويقول على عهد عثمان: أما رد عثمان للحكم بن أبى العاص فغاية ذلك

[صفحه ۴۴۴]

أن يكون اجتهادا اجتهده عثمان، وفى رده لصاحبه أجر مغفور له، أو ذنب له أسباب كثيرة توجب غفرانه [۲۰] ويقول: عثمان ولى من يعلم أن غيره أصلح

منه، وهذا من الاجتهاد، أو يقال إن محبته لأقاربه ميلته إليهم حتى صار يظنهم أحق من غيرهم. وإن ما فعله كان ذنبا وإن ذنبه لا يعاقب عليه فى الآخرة!! [۲۱] .

ويقول: فى خلافة عثمان توسع الأغنياء حتى زاد كثير منهم على قدر المباح فى المقدار والنوع. وتوسع أبو ذر فى الانكار [۲۲] واحتج أبو ذر بما لا

حجة فيه من الكتاب والسنة [۲۳] وكان أبو ذر يريد أن يوجب على الناس ما لم

يوجب الله عليهم. ويذمهم على ما لم يذمهم الله عليه [۲۴] وليس معنى أن أبا ذر

أصدق الناس أنه أفضل من غيره... فأهل الشورى مؤمنون أقوياء وأبو ذر وأمثاله مؤمنون ضعفاء [۲۵] ثم يقول عن جريمة مروان بن الحكم التى أدت إلى

قتل عثمان: غاية ما قيل: إن مروان كتب كتابا بغير علم عثمان، وإن أهل مصر طالبوا عثمان أن يسلم إليهم مروان فامتنع، فإن كان قتل مروان لا يجوز فقد فعل عثمان الواجب، وإن كان يجوز ولا يجب فقد فعل عثمان الجائز، وإن كان قتله واجبا فعدم تسليمه من موارد الاجتهاد [۲۶] وغاية الأمر أن يكون مروان قد أذنب

فى إرادته قتلهم، ولكن لم يتم غرضه، ومن سعى فى قتل إنسان ولم يقتله لم يجب قتله، فما كان يجب قتل مروان بمثل هذا [۲۷] .

ثم يقول عن دور عائشة فى الأحداث: هب أن عائشة قالت: اقتلوا نعثلا، فإن هذا القول لا نكارة فيه، فليس القول قدحا فلا إيمان القائل ولا المقول له،

[صفحه ۴۴۵]

بل كلاهما ولى الله من أهل الجنة [۲۸] وقال: إذا ثبت أن عائشة أو عمارا أو

غيرهما كفرا آخر من الصحابة عثمان أو غيره. أو أباح قتله على وجه التأويل. لم يقدح ذلك فلا إيمان واحد منهم ولا فى كونه من أهل الجنة [۲۹] .

ويقول ابن تيمية فى على بن أبى طالب: لم يكن لعلى فى الإسلام أثر حسن إلا ولغيره مثله ولبعضهم آثار أعظم من آثاره [۳۰] وقال: كثير من الصحابة

أشجع من على وأبو بكر وعمر كانا أكثر جهادا منه [۳۱] وعلى تعلم من أبى بكر

السنة ولم يتعلم أبو بكر من على شيئا [۳۲] وأبو بكر وعمر لا يضاهيهما أحد فى

الزهد وكانوا فوق على فى ذلك [۳۳] وقال: إن الله أخبر أنه سيجعل للذين آمنوا

وعملوا الصالحات ودا وهذا وعد منه صادق ومعلوم. والله قد جعل للصحابة مودة فى قلب كل مسلم لا سيما الخلفاء أبو بكر وعمر فإن عامة الصحابة والتابعين كانوا يودونهم وكانوا خير القرون، ولم يكن ذلك على بن أبى طالب فإن كثيرا من الصحابة والتابعين كانوا

یبغضونه ویسبونه ویقاتلونه [۳۴] ، وقال عن ثقافة السب: فهذا کله سواء کان ذنبا أو اجتهادا أو مخطئا أو عاصیا، فإن مغفرة الله ورحمته تتناول ذلک بالتوبة والحسنات الماضیة [۳۵] وقال: کان علی

صغیرا لیلة المعراج لم یحصل له هجرة ولا جهاد، والأنبیاء السابقون لم یذکروا علیا فی کتبهم، بل ذکر أن المقوقس کان عنده تابوت به صور الأنبیاء وصورة أبی بکر وعمر مع صورة النبی!! [۳۶] .

[صفحه ۴۴۶]

وقال عن یوم الجمل: لم یکن قتال علی یوم الجمل وصفین بأمر النبی [۳۷] وإنما کان رأیا رآه [۳۸] وعندما خرجت عائشة یوم الجمل لم تتبرج تبرج

الجاهلیة. والأمر بالاستقرار فی البیوت لا ینافی الخروج لمصلحة مأمور بها [۳۹] .

ثم وصف القتال فقال: لم یکن یوم الجمل لهؤلاء قصد فی القتال، ولکن وقع الاقتتال بغیر اختیارهم، لقد خشی القتلة أن یتفق علی مع عائشة، فحملوا علی معسکر طلحة والزبیر، فظن طلحة أن علیا حمل علیهم، فحملوا دفعا عن أنفسهم، فظن علی أنهم حملوا علیه، فحمل دفعا عن نفسه، فوقعت الفتنة بغیر اختیارهم وعائشة راکبة!! [۴۰] ، ثم یقول شیخ المسلمین: یوم الجمل إذا کان قد وقع خطأ أو ذنب من أحد الفریقین أو کلیهما، فقد عرفنا أن هذا لا یمنع ما دل علیه الکتاب والسنة من أنهم خیار أولیاء الله المتقین وعباده الصالحین وأنهم من أهل الجنة [۴۱] .

ثم یقول عن صفین: کان علی عاجزا عن الحق والعدل، ولیس لأهل الشام أن یبایعوا عاجزا عن العدل [۴۲] لقد بادر علی بعزل معاویة ولم یکن یستحق

العزل [۴۳] إن أهل الشام خیر الناس للإسلام. ومعاویة کان خیرا من کثیر: فلم

یکن یستحق أن یعزل ویولی من هو دونه [۴۴] وقال شیخ المسلمین: من قاتل علیا

إن کان باغیا فلیس ذلک بمخرجه من الإیمان ولا موجبا له النیران ولا مانعا له من

[صفحه ۴۴۷]

الجنان [۴۵] ، وقال: القول بأن أول من یدخل النار مبغض علی وأن أول من یدخل الجنة محبه..، هل تعلق السعادة والشقاوة بمجرد حب علی دون حب الله ورسوله إلا کتعلقها بحب أبی بکر وعمر وعثمان ومعاویة رضی الله عنهم [۴۶] .

وقال: إن علیا لیس قائدا لکل البررة ولا- هو أیضا قاتلا- لکل الکفرة، وکذلک القول: منصور من نصره فهو خلاف الواقع... فمن المعلوم أن الأمة کانت منصورة فی عصور الخلفاء الثلاثة... فلما قتل عثمان... لم یکن الذین قاتلوا مع علی منصورین.. بل أولئک الذین انتصروا علیه عندما صار الأمر إلیهم لما تولی معاویة انتصروا علی الکفار وفتحوا البلاد [۴۷] والعسکر الذین قاتلوا مع معاویة ما خذلوه قط فی قتال علی. فکیف یکون النبی قال له: اللهم اخذل من خذله؟ [۴۸] ، ولو کان حرب علی حربا للرسول ولله تعالی لوجب أن یغلب محارب رسول الله، ولم یکن الأمر کذلک، فقد طالب علی مسالمة معاویة ومهادنته وأن یکف عنه [۴۹] إن علیا قاتل علی الخلافة حتی غلب وسفک الدماء

بسبب المنازعة التی بینه وبین منازعه، ولم یحصل بالقتال لا مصلحة الدین ولا مصلحة الدنیا [۵۰] واجتهاد علی فی سفک دماء المسلمین بعضهم بعضا ذل

المؤمنین [۵۱] إن الخلفاء الثلاثة اتفق المسلمون علیهم، وکان السیف فی زمانهم

مسلولا علی الکفار أما علی بن أبی طالب فلم یتفق المسلمون علیه وکان السیف فی مدته مکفوفا عن الکفار مسلولا علی أهل الإسلام [۵۲] إن الله أظهر الدین

علی أیدی الخلفاء الثلاثة وعلی لم یظهر الدین فی خلافته [۵۳] ولم یکن فی

[صفحه ۴۴۸]

خلافة على للمؤمنين الرحمة التى كانت فى زمن عمر وعثمان، بل كانوا يقتتلون ولم يكن لهم على الكفار سيف، فكيف يظن مع هذا تقدم على فى هذا الوصف على أبى بكر وعمر وعثمان [۵۴] ثم قال: وبعد على لم يعرف أحد إلا أهل السنة

الذين نصروا دين الله [۵۵] .

ثم يقول شيخ المسلمين عن قتل معاوية للحسن: إن كان معاوية دس السم للحسن فهو من باب قتال بعضهم بعضا، وقتال المسلمين بعضهم بعضا بتأويل باب عظيم - أى لا يمنعهم من دخول الجنة [۵۶] ثم يقول عن استخلاف يزيد:

أهل السنة يعتقدون أن يزيد ملك جمهور المسلمين وكان خليفتهم فى زمانهم [۵۷] ولقد كان كل واحد من الخلفاء إماما وخليفة وسلطانا [۵۸] وأهل

السنة إذا اعتقدوا إمامة واحد من هؤلاء يزيد أو عبد الملك أو المنصور كان بهذا الاعتبار، ومن نازع فى هذا فهو شبيه بمن نازع فى ولاية أبى بكر وعمر وعثمان [۵۹] وقال: إن يزيد رغم ما فيه من ظلم وقتل وفعل ما فعل يوم الحرة،

فإنه لا يخرج عليه لأن من لم يكن مطيعا لولاة الأمور مات ميتة جاهلية [۶۰] .

وقال شيخ المسلمين فى قتل الحسين: قالوا للحسين: لا تخرج. وهم بذلك قاصدون نصيحته ومصلحة المسلمين والله ورسوله يأمر بالصلاح لا بالفساد، فتبين أن الأمر على ما قاله هؤلاء، إذ لم يكن فى خروج الحسين مصلحة لا فى دين ولا فى دنيا [۶۱] ، وقال عن جهاد الحسن والحسين: جهاد

[صفحه ۴۴۹]

الحسنين فى سبيل الله كذب عليهما [۶۲] وقال عن قتل الحسين: قتل الحسين لم

يجلب فسادا على الأمة [۶۳] وقال: لم يعظم إنكار الأمة لقتل الحسين كما عظم

لقتل عثمان، ولا انتصر له جيوش كالجيوش التى انتصرت لعثمان، ولا انتقم أعوانه من أعدائه كما انتقم أعوان عثمان من أعدائه، ولا حصل بقتله من الفتن والشرور والفساد ما حصل بقتل عثمان ولا كان قتله أعظم إنكارا عند الله ورسوله وعند المؤمنين من قتل عثمان [۶۴] وقال ": إن عثمان أعظم أجرا. وقتلته أعظم

إثما ممن لم يكن متوليا فخرج يطلب الولاية ولم يتمكن حتى قتل، ولا ريب أن قتال الدافع عن نفسه وولايته أقرب من قتال الطالب لأن يأخذ الأمر من غيره، وعثمان ترك القتال دفعا عن نفسه وولايته أقرب من الحسين [۶۵] .

ثم يقول: من قال إن عثمان كان مباح الدم، لم يمكنه أن يجعل عليا معصوم الدم ولا الحسين، فإن عصمة دم عثمان أظهر من عصمة دم الحسين، وعثمان أبعد من موجبات القتل من على والحسين، وشبهة قتل عثمان أضعف بكثير من شبهة قتل على والحسين فإن عثمان لم يقتل مسلما ولا قاتل أحدا على ولايته [۶۶] ثم يقول: كان المنتصرون لعثمان معاوية وأهل الشام، والمنتصرون

من قتلة الحسين المختار، ولا يشك عاقل أن معاوية خير من المختار [۶۷] .

وعمر بن سعد قائد السرية التى قتلت الحسين لم يصل فى الجرم إلى ما وصل إليه المختار الذى تتبع قتلة الحسين [۶۸] وفى الختام يقول: إن عثمان تاب توبة

ظاهرة من الأمور التى صاروا يذكرونها ويظهر له أنها منكرة. وكذلك عائشة ندمت على مسيرها إلى البصرة وكانت إذا ذكرته تبكى حتى تبل خمارها، وطلحة

[صفحه ۴۵۰]

والزبير ندما على مسير يوم الجمل [۶۹] ولم يقل لنا الشيخ لماذا كان الندم؟ هل

لأنهم كانوا على حق أم أن خصمهم هو صاحب الحق؟ كان هذا مجمل رأى ابن تيمية وفى إمكاننا أن نعارضه بالأدلة التى لا تدفع

ولا ترد، ولقد ذكرنا على امتداد هذا الكتاب ما فيه كفاية للرد على هذا الكلام وغيره، ولقد حرصت على أن أعرض وجهة نظر الشيخ حتى يعلم الحاضر حقيقة الأمور من حوله وهو يأخذ بخيوط البحث عن الحقيقة، ولقد تبين لنا أن ابن تيمية يصادر الأصول ولا يقيم لها وزنا إذا تعارضت مع آرائه. وقد وصفه الشيخ ناصر الدين الألبانى بأنه " متسرع فى تضعيف الأحاديث قبل أن يجمع طرقها ويدقق النظر فيها [" ۷۰] ، وقال فى حديث استنكره ابن تيمية ": استنكره شيخ الإسلام ولو صحت عن رسول الله لم نعبأ باستنكاره\ " cf۱ ۷۱]] ، ويقول الشيخ محمد الكوثرى قاضى الدولة العثمانى عن تضعيف ابن تيمية للأحاديث وعن آرائه التى تخالف النصوص: فمثل هذا الشيخ الحرانى لا يمكن أن يوزن فى كفة وأئمة علوم شتى المذاهب فى كفة أخرى، إن ما ألفه ابن تيمية فى أواخر عمره متوغل فى الفساد\ " ۷۲] cf۱] .

ولقد أخذ ابن تيمية على عاتقه التشكيك فى كل حديث يتعلق بأهل البيت حتى ولو كان هذا الحديث فى الصحاح، وعلى سبيل المثال قال فى الحديث الذى رواه الإمام مسلم عن على " إنه لعهد النبى الأمى إلى أنه لا يحبنى إلا مؤمن ولا يبغضنى إلا منافق،" قال: فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: آية الإيمان حب الأنصار وآية النفاق (بغض الأنصار. وقال: لا يبغض الأنصار رجل مؤمن بالله واليوم الآخر. فإن هذه الأحاديث أصح مما يروى عن على أنه قال: لعهد النبى الأمى إلى، "... فإن هذا الحديث رواه مسلم.

[صفحه ۴۵۱]

والبخارى أعرض عنه بخلاف أحاديث الأنصار... وأهل العلم شكوا فى حديث على\ ۷۳] cf۱] ولم يذكر الشيخ من هم أهل العلم الذين شكوا فى أحاديث الإمام

مسلم؟ ولو صح هذا لانهدم جانب كبير من السنة، وقال الشيخ أيضا فى حديث الثقلين كتاب الله فذكر كتاب الله وحض عليه ثم قال: وعترتى أهل بيتى أذكركم الله – ثلاثا. قال الشيخ: هذا مما انفرد به مسلم ولم يروه البخارى، والحديث الذى رواه مسلم إذا كان النبى قد قاله، فليس فيه إلا الوصية باتباع كتاب الله، وهذا أمر قد تقدمت الوصية به فى حجة الوداع قبل ذلك، وهو لم يأمر باتباع العترة!! \۷۴] cf۱] .

وإذا كان ابن تيمية يرد كل شئ إلى البخارى ويشكك فى الحديث الذى يرويه مسلم ولم يروه البخارى، فإننا نجده يشكك فى البخارى نفسه عندما روى حديثا لم يصادف هوى ابن تيمية. روى البخارى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ": ويح عمار. تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار، " فقال الشيخ: حديث عمار " تقتلك الفئة الباغية، " رواه مسلم ورواه البخارى، ولكن البخارى فى كثير من النسخ لم يذكره تاما\ ۷۵] cf۱] وعندما لم يجد

مفرا قال: ولكن لا يختلف أهل العلم بالحديث أن هذه الزيادة " يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار " هى فى الحديث\ ۷۶] cf۱] لقد وضع الشك أولا ليتأرجح

الباحث بين الحقيقة والخيال. وشكك أيضا فى أقوال أحمد بن حنبل فقال: وأحمد بن حنبل لم يقل إنه صح لعلى من الفضائل ما لم يصح لغيره، بل أحمد أجل من أن يقول مثل هذا الكذب\ ۷۷] cf۱] وشكك فى حديث " وأنذر

عشيرتك الأقربين " الذى رواه أحمد وغيره بسند صحيح كما ذكرنا من قبل، وطعن فى الترمذى والنسائى وقال: رويا أحاديث ضعيفة فى فضل

[صفحه ۴۵۲]

على\ ۷۸] cf۱] ، وطعن فى تفسير ابن جرير وابن أبى حاتم والثعلبى والبغوى\ ۷۹] cf۱] .

والواحدى وابن حميد وعبد الرزاق\ ۸۰] cf۱] ، وأبى نعيم\ ۸۱] cf۱] والكلبى\ ۸۲] cf۱] والديلمى\ ۸۳] cf۱] والحاكم وابن عبد ربه وابن عقدة\ ۸۴] cf۱] وابن خلويه\ ۸۵] cf۱] وابن عساكر\ ۸۶] cf۱] وابن إسحاق\ ۸۷] cf۱] وجريمة هؤلاء جميعا فى نظر ابن

تیمیة أنهم رووا أحادیث فی فضل أهل البیت. حتی أنه قال فی الحدیث الذی رواه الإمام أحمد بسند صحیح أن رسول الله صلی الله علیه وسلم أخذ بید حسن وحسین وقال: من أحبنی وأحب هذین وآباهما وأمهما فهو معی فی درجتی یوم القیامة، " قال الشیخ: وبتقدیر أن یکون أحمد روی الحدیث فمجرد روایة أحمد لا توجب أن یکون صحیحا یجب العمل به، بل الإمام أحمد روی أحادیث کثیرة لیعرف ویبین للناس ضعفها\!! ۸۸] cf۱] مما سبق نعلم أن الشیخ لجم العقل ولم یجعل فیه نافذة مفتوحة إلا لاستقبال رأیه فقط، ونحن فیما سبق دعونا الله أن یرحم العلماء الذین جمعوا لنا الحدیث لأنهم بهذا العمل وضعوا أمام العقل فی کل مستقبل المادة الغزیرة التی من خلالها یتم البحث عن الحقیقة، ولکن الأمر مختلف عن ابن تیمیة. لقد جاهد من أجل أن یری الناس ما یراه مبینا لهم أن أی حدیث لا یعرفه هو فلیس بحدیث، وعلی أی حال إذا کانت هذه المحاولة قد حققت نجاحا فی فترة من

[صفحه ۴۵۳]

الزمان، ألا أنه بالتأکید لن یکتب له الخلود. - ویقتضی الأمر أن نبین رأی المعتزلة فی الأحداث کما بینا الرأی السلفی الذی یمثله ابن تیمیة. یقول ابن أبی الحدید المعتزلی. فأما علی کرم الله وجهه فإنه عندنا بمنزلة الرسول فی تصویب قوله والاحتجاج بفعله ووجوب طاعته، ومتی صح عنه أنه قد برئ من أحد من الناس برئنا منه کائنا من کان، ولکن الشأن فی تصحیح ما یروی عنه فقد کثر الکذب علیه... وأما براءته کرم الله وجهه من المغیرة وعمرو بن العاص ومعاویة فهو عندنا معلوم جار مجری الأخبار المتواترة، فلذلک لا یتولاهم أصحابنا، ولا یثنون علیهم، وهم عند المعتزلة فی مقام غیر محمود\ ۸۹] cf۱] ، وقال ابن أبی الحدید: فأما الأفاضل من المهاجرین والأنصار الذین ولوا الإمامة قبله فلو أنه أنکر إمامتهم وغضب علیهم وسخط فعلهم فضلا عن أن یشهر علیهم السیف أو یدعو إلی نفسه لقلنا: إنهم من الهالکین کما لو غضب علیهم رسول الله صلی الله علیه وسلم لأنه قد ثبت أن رسول الله صلی الله علیه وسلم قال له ": حربک حربی وسلمک سلمی " وقال ": اللهم والی من والاه وعادی من عاداه، " وقال ": لا یحبک إلا مؤمن ولا یبغضک إلا منافق، " ولکنا رأیناه رضی إمامتهم فلم یکن لنا أن نتعدی فعله ولا نتجاوز ما اشتهر عنه، إلا تری أنه لما برئ من معاویة برئنا منه ولما لعنه لعناه، ولما حکم بضلال أهل الشام ومن کان فیهم من بقایا الصحابة کعمرو بن العاص وعبد الله ابنه وغیرهما حکمنا أیضا بضلالهم، والحاصل: أنا لم نجعل بینه وبین النبی صلی الله علیه وسلم إلا رتبة النبوة. وأعطیناه کل ما عدا ذلک من الفضل والمشترک، " ولم نطعن فی أکابر الصحابة الذین لم یصح عندنا أنه طعن فیهم، وعاملناهم بما عاملهم به\ ۹۰] cf۱] .

قال ابن أبی الحدید: لو نازع عقب وفاة الرسول صلی الله علیه وسلم، وسل سیفه لحکمنا بهلاک کل من خالفه وتقدم علیه، کما حکمنا بهلاک

[صفحه ۴۵۴]

من نازعه حین أظهر نفسه، ولکنه مالک الأمر وصاحب الخلافة، إذا طلبها وجب علینا القول تنسیق من ینازعه فیها، وإذا أمسک عنها وجب القول بعدالة من أغضی له علیها، وحکمه فی ذلک حکم رسول الله صلی الله علیه وسلم، لأنه قد ثبت عنه فی الأخبار الصحیحة أنه قال ": علی مع الحق والحق مع علی یدور حیثما دار " وقال له غیر مرة ": حربک حربی وسلمک سلمی " وهذا المذهب هو أعدل المذاهب عندی وبه أقول\ ۹۱] cf۱] .

وقال: ومذهب أصحابنا من البغدادیین أنه الأفضل والأحق بالإمامة وأنه لولا ما یعلمه الله ورسوله من أن الأصلح للمکلفین من تقدیم المفضول علیه لکان من تقدم علیه هالکا، فرسول الله صلی الله علیه وسلم أخبره أن الإمامة حقه، وأنه أولی بها من الناس أجمعین، وأعلمه أنه فی تقدیم غیره وصبره علی التأخر عنها مصلحة راجعة إلی المکلفین، وأنه یجب علیه أن یمسک عن طلبها ویغض عنها لمن هو دون مرتبته، فامتثل ما أمره رسول الله صلی الله علیه وسلم، ولم یخرجه تقدم من تقدم علیه من کونه الأفضل والأولی والأحق \۹۲] cf۱] .

ومعنی هذا أن قول النبی صلی الله علیه وسلم ": من کنت مولاه فعلی مولاه " فیه إشارة إلی مخاطبة دائرة الاختیار والإرادة عند

الصحابة. بمعنى إذا أردتم سلوك طريقى والنجاة من الفتن التى حدثتكم عنها فهذا هو طريق ولا إجبار فى دين الله، وهذا أصل فى حكمة الوجود وخلافة الوجود وخلافة الإنسان فى الأرض، فحركة الإنسان تدور فى فلك عظيم لينظر الله كيف يعملون ويترتب على هذا العمل إما الثواب وإما العقاب وليس معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم ": من كنت مولاه فعلى مولاه " أنه اكتفى بمخاطبة دائرة الاختيار عن الصحابة، لا فلقد روى فى أحاديث صحيحة قوله ": فإنه منى وأنا منه وهو وليكم بعدى " فهناك خاطب ملكة الاختيار وهنا ثبت الأمر فى هذه الملكة. وقال ابن أبى الحديد فى حروب الإمام: كان لا يستعمل فى حربه إلا ما

[صفحه ۴۵۵]

وافق الكتاب والسنة، وكان معاوية يستعمل خلاف الكتاب والسنة ويستعمل جميع المكايد حلالها وحرامها ويسير فى الحرب بسيرة ملك الهند إذا لاقى كسرى، وعلى يقول: لا تبدأوهم بالقتال حتى يبدأوكم ولا تتبعوا مدبرا ولا تجهزوا على جريح ولا تفتحوا بابا مغلقا.. فعلى كان ملجما بالورع من جميع القول إلا ما هو لله عز وجل رضا، وممنوع اليدين من كل بطش إلا ما هو لله رضا، ولا يرى الرضا إلا فيما يرضاه الله ويحبه، ولا يرى الرضا إلا فيما دل عليه الكتاب والسنة\ ۹۳] ۱cf] .

وبعد أن ألقينا شعاعا من الضوء على رأى المعتزلة فى الخطوط العريضة للأحداث نقدم هنا رأى الأستاذ سيد قطب صاحب " فى ظلال القرآن " ورأيه الذى سنقدمه جاء فى كتاب " كتب وشخصيات\ " ۹۴] ۱cf] ، وفى هذا الكتاب يعلق سيد قطب على بعض الكتب المختارة فيقول: حلقة من سلسلة (اقرأ) استعرض فيها الأستاذ شفيق جبرى بعض الواقف والمواقع من تاريخ صدر الإسلام وتاريخ بنى أمية مبرزا فيها العنصر النفسى الذى قامت عليه ليكشف عن درايه صاحب الموقف أو الموقعة بذلك العنصر النفسى أو عدم درايته وعن أثر العلم بهذا العنصر أو الجهل به فى هذا الموقف أو الموقعة، ويقول سيد قطب عن إحدى ملاحظات الكاتب ": أما الملاحظة الثانية فتبدو على أتمها فى الحكم على موقف عمر بن الخطاب من العهد بالخلافة، وندع المؤلف يبين رأيه فى هذه السطور ": مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم مرضه الذى قبض فيه، فأمر أبا بكر أن يصلى، بالناس... ثم كان أمر السقيفة ما كان... ثم مرض أبو بكر المرض الذى مات فيه، فاستخلف على المسلمين عمر بن الخطاب، ثم طعن عمر، فدخلوا عليه وهو فى البيت وسألوه أن يستخلف عليهم، فجعل الخلافة شورى بين هؤلاء الستة من المهاجرين الأولين... وكل هذا يدل على الارتباك، ولقد كانت هذه

[صفحه ۴۵۶]

الطريقة سبيلا إلى المخاصمة، فقد تشاح أصحاب الشورى على الخلافة، وأخروا إبرام الأمر، ورجا كل واحد منهم أن يكون خليفة... وكاد يؤدى هذا الأمر إلى الفتنة، فقد تطلع الناس إلى معرفة خليفتهم وإمامهم، واحتاج من أقام لانتظار ذلك من أهل البلدان إلى الرجوع إلى أوطانهم، ولسنا ندرى ما الذى حمل سيدنا عمر على الوقوع فى هذا الارتباك، وقد كان قادرا على أن يستخلف أصلح القوم، وهو يعرفهم واحدا واحدا، ويعرف عيوبهم وفضائلهم، ولكنه عدل عن ذلك، وإذا لجأت إلى الحرية فى الكلام قلت: خاف التبعة ففر منها، فإنه جعل الأمر شورى بين جماعة كل واحد منهم يريد الخلافة لنفسه مخالفا للقواعد النفسية فى السياسة، ولقد أنقذ الله المسلمين من فتنة الشورى، وكانوا فى غنى عنها لو حزم عمر... ففكرة عمر فى أن يجعل أمر المسلمين شورى بين ستة يتزاحمون على الخلافة غلطة نفسية، وقد أدرك معاوية هذه الغلطة، ومثله لا يكاد يفوته شئ من أسرار السياسة النفسية، فقد ذكروا أن زيادا أوفد ابن حصين إلى معاوية، فأقام عنده ما أقام، ثم إن معاوية بعث إليه ليلا فخلا به، فقال له: يا ابن حصين قد بلغنى أن عندك ذهنا وعقلا فأخبرنا عن أى شئ أسألك عنه؟ قال: سلنى عما بدا لك، قال: أخبرنى ما الذى شتت أمر المسلمين وملأهم وخالف بينهم؟ قال ابن حصين: نعم، قتل الناس عثمان، فقال معاوية: ما صنعت شيئا. قال: فمسير على إليك وقتاله إياك. فقال: ما صنعت شيئا، قال ابن حصين: فمسير طلحة والزبير وعائشة وقتال على إياهم، فقال: ما صنعت شيئا. قال: ما عندى غير هذا يا أمير المؤمنين. فقال معاوية: فأنا أخبرك، إنه لم يشتت بين المسلمين، ولا فرق أهواءهم إلا الشورى التى جعلها عمر إلى ستة نفر.... فلم يكن رجل منهم إلا رجاها لنفسه وجاها له قومه وتطلعت إلى ذلك نفسه، ولو أن عمر استخلف عليهم كما استخلف أبو بكر ما كان فى ذلك خلاف... وعلى

هـذا فالشورى غلطـة نفسـية رحم الله من غلطها. ويعلق سـيد قطب على هـذا الكلام فيقول:... إن الشخصـية التى يصـدر عليها مثل هـذا الحكم السـريع شخصـية جليلـة ضـخمة فـذة فى تاريـخ الإسـلام... على أننى لست من أنصار القداسة المطلقة للشخصـيات الإسـلامية، ولست أعنى

[صفحه ۴۵۷]

مما تقدم أن أحرم المعاصـرين حق الحكم على هذه الشخصـيات، ولكنى أريد أن تتوافر أسباب الحكم كاملة... وليس ما نقله الأستاذ من أقوال معاويـة حجة، فمعاوية كان يريد بهذا القول التمهيد لاسـتخلاف ابنه يزيد، وهنا عنصـر نفسـى فات الأسـتاذ جبرى ملاحظته، ولست أجزم الجزم القـاطع برأيى هـذا، كما فعل الأسـتاذ فى تخطئـة عمر، ولكنى أريـد فقط ألا نسارع إلى الحكم القاطع وبين أيـدينا كفتا الميزان على الأقل تتأرجحان\ ۹۵] cf۱] .

ثم يتطرق الكاتب إلى معركة صفين، فوصف الإمام بأنه كان يجهل العناصر النفسية فى صراعه مع معاوية فقال: لم تكن معرفته بالأمور النفسـية على قدر صـراحته، فإذا لم تنجح سياسته النجاح كله، فهذا سببه أنه لم يخطر على باله أن طلب الحقوق يستلزم كثيرا من حسن الموارد والمصـادر... ولم يـدر الإمام أن الناس عامـة إنما همهم حطام هـذه الـدنيا، فكان يعز عليه أن يعتقـد أن الناس يـدورون كيف دارت مصـالحهم ومنـافعهم، فلم يعـاملهم كنـا يجب أن يعـاملهم رجـل السـياسة، وإنمـا عاملهم كما يعاملهم رجل الأخلاق، فكان من عواقب هـذه المعاملـة شـكوه منهم فى كل كلام وفى كل خطبـة. ويعلق سـيد قطب فيقول: وهكذا يحكم على على كرم الله وجهه بأنه كـان يجهل النفس البشـرية لمجرد أنه لم يسـتخدم الوسائل السياسـية التى اسـتخدمها خصـماه معاويـة وعمرو بن العاص، وأبسط نظرة تكشف أن هناك فرقا كبيرا بين معرفة السلاح واستخدام هذا السلاح، فلم يكن الفرق بين على وبين خصميه أنه يجهل النفس البشرية وأنهما يعرفانها، إنما كان الفرق فى حقيقته هو الرضـى باسـتخدام كل سـلاح يرضاه الخلق العالى أو يأباه، فعلى لم تكن تنقصه الخبرة بوسائل الغلبـة ولا بنوازع النفوس البشـرية وأهوائها، ولكنه لم يكن يتدنى لاسـتخدام الأسـلحة القذرة جميعا، وفى رده على من أشاروا عليه بتوزيع المال لرشوة الضمائر ما يكفى " أتأمرونى أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه من الإسلام. فوالله لا أفعل ذلك ما لاح فى السماء نجم "

[صفحه ۴۵۸]

فحين قالهـا لم يكن جاهلاـ أن النـاس عامـة همهم حطـام هـذه الـدنيا، ولكنه كان مترفعا عن اسـتخدام سـلاح تسـتقذره نفسه الكريمة ويسـتخدمه خصـمه بلا تحرج وكذلك رده على ابن عباس. حينما اسـتصوب إشارة المغيرة بن شـعبة على على بأن يولى الزبير البصرة ويولى طلحـة الكوفة يدل على هذا، فلقد قال: ولو كنت مسـتعملا أحدا لضـره ونفعه لاسـتعملت معاوية على الشام، " فهو إذن لم يكن بجهل ما يضـر وما ينفع، ولكنه كان يأبى ويترفع. ثم يقول سـيد قطب رحمه الله: إن معاوية وزميله عمرو لم يغلبا عليا لأنهما أعرف منه بدخائل النفوس وأخبر منه بالتصـرف النافع فى الظرف المناسب، ولكن لأنهما طليقان فى اسـتخدام كل سـلاح، وهو مقيد بأخلاقه فى اختيـار وسائـل الصـراع، وحين يركن معاويـة وزميله إلى الكـذب والغش والخديعـة والنفاق والرشوة وشـراء الـذمم. لا يملك على أن يتـدنى إلى هـذا الـدرك الأسـفل. فلا عجب ينجحان ويفشل، وإنه لفشل أشـرف من كل نجاح، على أن غلبة معاوية على على كانت لأسـباب أكبر من الرجلين، كانت غلبة جيل على جيل، وعصـر على عصـر، واتجاه على اتجاه، كان مد الروح الإسلامى العالى قد أخذ ينحسر، وارتد الكثيرون من العرب إلى المنحدر الذى رفعهم منه الإسلام، بينما بقى على بن أبى طالب فى القمة لا يتبع هذا الانحسار، ولا يرضـى بأن يجرفه التيار، من هنا كانت هزيمته، وهى هزيمة أشـرف من كل انتصار ثم يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله. لقد كان انتصار معاويـة هو أكبر كارثـة دهمت روح الإسـلام التى لم تتمكن بعـد من النفوس، ولو قـد قدر لعلى أن ينتصـر، لكان انتصاره فوزا لروح الإسـلام الحقيقية، الروح الخلقية العادلة المترفعة التى لا تستخدم الأسلحة القذرة فى النضال، ولكن انهزام هذه الروح ولما يمض عليها نصف قرن كامل، وقـد قضـى عليها فلم تقم لها قائمـة بعـد - إلا سـنوات على يـد عمر بن عبـد العزيز - ثم انطفأ ذلك السـراج،

وبقيت الشكليات الظاهرية من روح الإسلام الحقيقية. قد تكون رقعة الإسلام قد امتدت على يدى معاوية ومن جاء بعده، ولكن روح الإسلام قد تقلصت، وهزمت، بل انطفأت، فإن يهش إنسان لهزيمة الروح الإسلامية لحقيقية فى مهدها وانطفاء شعلتها بقيام ذلك الملك العضوض، فتلك غلطة نفسية

[صفحه ۴۵۹]

وخلقية لا شك فيها. ثم يقول رحمه الله: على أننا لسنا فى حاجة يوما من الأيام أن ندعو الناس إلى خطة معاوية، فهى جزء من طبائع الناس عامة، إنما نحن فى حاجة لأن ندعوهم إلى خطة على بن أبى طالب، فهى التى تحتاج إلى ارتفاع نفسى يجهد الكثيرون أن ينالوه، وإذا احتاج جيل لأن يرعى إلى خطة معاوية، فلن يكون هو الجيل الحاضر على وجه العموم، فروح " مكيافيلى " التى سيطرت على معاوية قبل مكيافيلى بقرون هى التى تسيطر على أهل هذا الجيل، وهم أخبر بها من أن يدعوهم أحد إليها، لأنها روح " النفعية" التى تظلل الأفراد والجماعات والأمم والمحكومات. ثم يقول رحمه الله: وبعد، فلست " شيعيا " لأقرر هذا الذى أقول، إنما أنا أنظر إلى المسألة من جانبها الروحى الخلقى، ولن يحتاج الإنسان أن يكون شيعيا لينتصر للخلق الفاضل المترفع عن الوصولية الهابطة المتدنية، ولينتصر لعلى بن أبى طالب على معاوية وعمرو، إنما ذلك انتصار للترفع والنظافة والاستقامة\..... ۹۶] cf۱] .

[۱] الفتاوى الحديثية ۱۱۶.

[۲] البداية والنهاية ۷، ۸، ۹، ۲۲، ۴۵:۱۴.

[۳] وهذه التهمة ظلت لصيقة بابن تيمية وعالقة فى أذهان شيوخ عصره.

[۴] المصدر السابق ۴۹:۱۴.

[۵] منهاج السنة ۱۱۷:۲.

[۶] المصدر السابق ۴:۳.

[۷] المصدر السابق ۴:۳.

[۸] سورة الشورى: الآية ۲۳.

[۹] منهاج السنة ۸:۱.

[۱۰] منهاج السنة ۳۵:۴.

[۱۱] المصدر السابق ۲۲۰:۴.

[۱۲] المصدر السابق ۱۵۳:۳.

[۱۳] المصدر السابق ۱۳۷:۳.

[۱۴] منهاج السنة ۲۷۲:۳.

[۱۵] سورة الفتح: الآية ۱۰.

[۱۶] سورة التوبة: الآية ۱۲.

[۱۷] منهاج السنة ۱۸۴:۲.

[۱۸] المصدر السابق ۶۶:۳.

[۱۹] المصدر السابق ۶۶:۳.

[۲۰] المصدر السابق ۲۳۶:۳.

[۲۱] المصدر السابق ۱۸۷:۳.

[۲۲] منهاج السنة ۱۹۹:۳.

[۲۳] المصدر السابق ۳:۱۹۸.

[۲۴] المصدر السابق ۳:۱۹۹.

[۲۵] المصدر السابق ۳:۱۹۹.

[۲۶] المصدر السابق ۳:۱۸۸.

[۲۷] المصدر السابق ۳:۱۹۰.

[۲۸] المصدر السابق ۲:۱۸۸.

[۲۹] المصدر السابق ۲:۱۸۹.

[۳۰] المصدر السابق ۴:۵۴.

[۳۱] المصدر السابق ۴:۱۶۶.

[۳۲] المصدر السابق ۴:۱۳۷.

[۳۳] المصدر السابق ۴:۱۳۰.

[۳۴] المصدر السابق ۴:۳۸.

[۳۵] المصدر السابق ۲:۲۲۴.

[۳۶] المصدر السابق ۴:۴۶.

[۳۷] أخرج أحمد والحاکم بسند صحیح قول النبی لعلی ": إنک تقاتل علی القرآن کما قاتلت علی تنزیله. "

[۳۸] المصدر السابق ۲:۲۳۱.

[۳۹] المصدر السابق ۲:۱۸۶.

[۴۰] المصدر السابق ۲:۱۸۵.

[۴۱] المصدر السابق ۳:۲۴۱.

[۴۲] المصدر السابق ۲:۲۰۳.

[۴۳] المصدر السابق ۲:۲۲۲.

[۴۴] المصدر السابق ۲:۲۲۳.

[۴۵] المصدر السابق ۲:۲۰۵.

[۴۶] المصدر السابق ۴:۱۰۷.

[۴۷] المصدر السابق ۴:۶.

[۴۸] المصدر السابق ۴:۱۷.

[۴۹] السابق ۲:۲۳۴.

[۵۰] المصدر السابق ۴:۱۲۱.

[۵۱] المصدر السابق ۲:۲۲۳.

[۵۲] المصدر السابق ۲:۱۴۸.

[۵۳] المصدر السابق ۲:۱۳۸.

[۵۴] المصدر السابق ۲:۲۲۸.

[۵۵] المصدر السابق ۲:۱۳۸.

[۵۶] المصدر السابق ۲:۲۲۵.

[۵۷] المصدر السابق ۲:۲۳۹.

[۵۸] المصدر السابق ۲:۲۳۹.

[۵۹] المصدر السابق ۲:۲۴.

[۶۰] المصدر السابق ۱:۳۷.

[۶۱] المصدر السابق ۲:۲۴۱.

[۶۲] المصدر السابق ۲:۱۱۸.

[۶۳] المصدر السابق ۱:۱۶۴.

[۶۴] المصدر السابق ۲:۱۸۸.

[۶۵] المصدر السابق ۲:۱۸۸.

[۶۶] المصدر السابق ۳:۱۲۹.

[۶۷] المصدر السابق ۲:۱۸۸.

[۶۸] المصدر السابق ۱:۱۶۵.

[۶۹] المصدر السابق ۳:۱۸۱.

[۷۰] سلسلة الأحادیث الصحیحة ۴:۳۴۴ ط المکتب الإسلامی\. ۷۱] cf۱] المصدر السابق ۴:۴۰۰\. ۷۲] cf۱] صفات البرهان:الکوثری ص ۳۰\. ۷۳] cf۱] منهاج السنة ص ۴:۴۰\. ۷۴] cf۱] منهاج السنة ۴:۸۵\. ۷۵] cf۱] منهاج السنة ۲:۲۱۰\. cf۱ ۷۶]] المصدر السابق ۲:۲۱۱\. ۷۷] cf۱] المصدر السابق ۴:۹۹\. ۷۸] cf۱] المصدر السابق ۴:۴۸\. ۷۹] cf۱] المصدر السابق ۴:۸۰. ۸۰\] cf۱] المصدر السابق ۴:۴\. ۸۱] cf۱] المصدر السابق ۴:۱۰\. ۸۲] cf۱] المصدر السابق ۴:۱۸\. ۸۳] cf۱] المصدر السابق ۴:۳۸. ۸۴\] cf۱] المصدر السابق ۴:۹۹\. ۸۵] cf۱] المصدر السابق ۴:۱۰۶\. ۸۶] cf۱] المصدر السابق ۴:۱۱۱\. ۸۷] cf۱] المصدر السابق ۴:۴۸\. ۸۸] cf۱] المصدر السابق ۴:۱۰۶\. ۸۹] cf۱] شرح نهج البلاغة:ابن أبی الحدید ۵:۷۶۴\. ۹۰] cf۱] المصدر السابق ۵:۸۸۱. ۹۱\] cf۱] المصدر السابق ۱:۴۸۰\. ۹۲] cf۱] المصدر السابق ۱:۴۸۰\. ۹۳] cf۱] المصدر السابق ۳:۵۲۹\. ۹۴] cf۱] کتب وشخصیات:سید قطب ط دار الشروق\. ۹۵] cf۱] أی کفة الغلطة النفسیة لعمر. وکفة الغلطة النفسیة لمعاویة\. ۹۶] cf۱] کتب وشخصیات:سید قطب ص ۲۳۵، ۲۳۶، ۲۳۷، ۲۳۸، ۲۴۰، ۲۴۱، ۲۴۲، ۲۴۳.

الشهود

بعد أن قدمنا الآراء حول الأحداث، نقدم الشهود على هذه الأحداث

بمعنى أن کل مساحة تاریخیة بعد وفاة النبی صلی الله علیه وسلم سنقدم شاهدا منها، وفی النهایة یمکن أن نحکم علی المسیرة بوجه عام، وهؤلاء الشهود اعتبرهم من الموازین التی یوزن بها الأحداث التی رصدتها فی هذا الکتاب، فشهادة الشهود هنا تلتقی مع النتیجة التی انتهی إلیها هذا البحث. وشهود الفترة من وفاة النبی صلی الله علیه وسلم إلی مقتل عثمان هم

[صفحه ۴۶۰]

أبی بن کعب وحذیفة بن الیمان، فأما شهادة أبی بن کعب فلقد سجلت حب الناس للدنیا فی عهد عمر. روی مسلم عن عبد الله بن الحارث قال: کنت واقفا مع أبی بن کعب فقال: لا یزال الناس مختلفة أعناقهم فی طلب الدنیا [" ۱] ، وأما شهادة حذیفة فلقد سجلت ظهور النفاق، روی البخاری عنه أنه قال ": إنما کان النفاق علی عهد النبی صلی الله علیه وآله وسلم، فأما الیوم فإنما هو الکفر بعد

الإيمان [" ۲] ، وقال فيما رواه البخارى أيضا ": إن المنافقين اليوم شر منهم على عهد النبى صلى الله عليه وسلم، كانوا يومئذ يسرون واليوم يجهرون [" ۳] وروى البزار بسند صحيح عن أبى وائل قال: قلت لحذيفة النفاق اليوم شر أم على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فضرب على جبهته وقال: أوه، هو اليوم ظاهر إنهم كانوا يستخفون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم [" ۴] .

أما الحلقة الثانية من الشهود فتمتد حتى عهد الوليد بن عبد الملك. فأبو برزة الأسلمى سجلت شهادته القتال على الملك خلال هذه الفترة. عن أبى المنهال قال: لما كان ابن زياد ومروان بالشام ووثب ابن الزبير بمكة ووثب القراء بالبصرة، انطلقت مع أبى إلى أبى برزة الأسلمى فقال أبى: يا أبا برزة ألا ترى ما وقع فيه الناس؟ فقال: إنى احتسبت عند الله أنى أصبحت ساخطا على أحياء قريش، إنكم يا معشر العرب كنتم على الحال الذى علمتم من الذلة والقلة والضلالة، وإن الله أنقذكم بالإسلام وبمحمد صلى الله عليه وسلم حتى بلغ ما ترون، وهذه الدنيا أفسدت بينكم، إن ذاك الذى بالشام والله إن يقاتل إلا على الدنيا، وإن هؤلاء الذين بين أظهركم والله إن يقاتلون إلا على الدنيا، وإن ذاك الذى بمكة والله إن يقاتل إلا على الدنيا [" ۵] .

[صفحه ۴۶۱]

وبعد شهادة القتال على الدنيا تأتى شهادة جابر بن عبد الله التى سجل فيها خروج الناس من دين الله أفواجا بعد أن دخلوه أفواجا، فعن أبى عمار قال: حدثنى جار لجابر بن عبد الله قال: قدمت من سفر فجاءنى جابر يسلم على، فجعلت أحدثه عن افتراق الناس وما أحدثوا، فجعل جابر يبكى ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الناس دخلوا فى دين الله أفواجا وسيخرجون منه أفواجا [۶] ، ومات جابر بن عبد الله فى عهد عبد الملك، وبعد شهادة جابر تأتى شهادة أنس بن مالك التى سجل فيها ضياع كل شئ، روى البخارى عن الزهرى أنه دخل على أنس فوجده يبكى فقال: ما يبكيك؟ قال: لا أعرف شيئا مما أدركت إلا هذه الصلاة. وهذه الصلاة قد ضيعت، " وعن ابن عمران الجوفى قال: سمعت أنس بن مالك يقول: ما أعرف شيئا اليوم مما كنا عليه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. قلنا: فأين الصلاة قال: أولم تصنعون فى الصلاة ما قد علمتم [" ۷] .

وقد يقول قائل: ما معنى ضياع الصلاة على الرغم من أن الناس يصلون؟ فنقول: إن معنى الضياع هو تفريغ الصلاة من الخشوع كما فرغ القرآن. من التفسير، والخشوع يبهت إذا ابتعد الإنسان عن المصدر الذى يعله الكتاب والحكمة، ومعنى الضياع أيضا أن يتقرب الإنسان بها إلى الله وهو يعتقد أن الإله يمكن أن يرى وأن له أعضاء ويضحك ويبكى إلى غير ذلك. فالصلاة هنا مصدرها الوحيد عالم الضياع الذى ينتهى إلى هباء ضائع فى خلاء، ومن معانى الضياع إدخال ما ليس من الصلاة فى الصلاة أو سرقتها، وأول من وضع وتد السرقة من الصلاة معاوية بن أبى سفيان وما زالت سرقته جارية إلى يومنا هذا، يقول الإمام فخر الدين الرازى فى تصنيف له فى سورة الفاتحة: روى الشافعى بإسناده أن معاوية قدم المدينة فصلى بهم ولم يقرأ " بسم الله الرحمن الرحيم " ولم يكبر عند الخفض إلى الركوع والسجود، فلما سلم ناداه

[صفحه ۴۶۲]

المهاجرين والأنصار: يا معاوية سرقت الصلاة. أين بسم الله الرحمن الرحيم؟ أين التكبير عند الركوع والسجود؟ فأعاد الصلاة مع للتسمية والتكبير. قال الإمام الشافعى لولا أمر الجهر بالبسملة كان كالأمر المتقرر عند الصحابة من المهاجرين والأنصار لما قدروا على إظهار الانكار عليه بسبب تركه، وهو حديث حسن أخرجه الحاكم والدار قطنى وقال: إن رجاله ثقات. وقد بينا أن هذا يدل على أن الجهر بهذه الكلمة كالأمر المتواتر فيما بينهم [" ۸] .

وإذا كان معاوية قد أعاد الصلاة فى المدينة، إلا أنه بالشام كان يقودهم إلى عالم ضياع الصلاة، وما فعله معاوية كان خطوة أكمل مسيرتها يزيد وعبيد الله بن زياد، وعبد الملك والحجاج بن يوسف، وأصول خطوات الضياع نجدها فى الحديث الصحيح الذى رواه الإمام أحمد. عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ": لينقض الإسلام عروة عروة، فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتى تليها. فأولهن نقضا الحكم وآخرهن الصلاة [" ۹] .

فبعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم بفترة قصيرة كان صحابته الأوفياء يصلون سرا. روى البخارى عن حذيفة أنه قال: ابتلينا حتى أن الرجل ليصلى وحده وهو خائف [" ۱۰] ، وفى رواية عند أحمد ومسلم " فابتلينا حتى جعل الرجل منا لا يصلى إلا سرا [" ۱۱] ، وعندما جاء عصر الوليد لم يكن الأمر يحتاج إلى أى سر لأن كل شئ قد ضاع وأصبح كل إنسان خائف، ولله الأمر والحكم، إنه الطريق الذى ضاعت عليه الصلاة هو نفس الطريق الذى تم فيه. عزل الراسخون فى العلم عن القرآن، ثم تفريغ القرآن نفسه بعد ذلك من تفسير النبى صلى الله عليه وسلم، والطريق الذى ضاعت فيه الصلاة تم تفريغ القرآن فيه هو نفس الطريق الذى رفعت على أعلام اللارواية عن

[صفحه ۴۶۳]

رسول الله، فبعد كل هذا لا عجب إذا رأيت النتيجة بعد ستين سنة من وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ": يكون خلف بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، فسوف يلقون غيا. ثم يكون خلف يقرأون القرآن لا يعدو تراقيهم، ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن ومنافق وفاجر [" ۱۲] .

أنظر إلى قوله ": يكون خلف " ثم تدبر القول، وعندئذ سترى طابورا طويلا يعرف بعضهم بعضا وإن لم يلتقوا، ثم انظر إلى قوله": يقرأون القرآن لا يعدو تراقيهم " ثم إرجع وتدبر عملية العزل والتفريغ، وعندئذ ستعلم أن هؤلاء نتيجة لا غبار عليها لمقدمة لا غبار عليها، ثم انظر إلى قوله ": ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن ومنافق وفاجر، " ثم ارجع وتدبر المعارك من أجل إقامة الدين والمعارك من أجل طلب الدنيا. أنظر! إن الجميع هنا وهناك يقرأون القرآن، ولكن لكل قراءة قبله، فالمنافق كافر به، والفاجر يتأكل منه، والمؤمن يؤمن به. الجميع يقفون على أرض واحدة وتحت أعلام الإسلام، ولكن الأهداف تحت الأعلام ليست واحدة. نعم. إن الجميع يقرأون القرآن، ولكن هل القرآن شفاء للجميع؟ عليك أن تتدبر قوله تعالى: (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) [۱۳] ، هل تدبرت؟ إن كل حركة فى هذا الكون تخضع لرواية، وكل ساكن فى هذا الكون منظور، وما تسقط من ورقة إلا ويعلمها الذى خلقها، وكذلك الذين تفرقوا لن يجدى عنهم قراءة القرآن الذى لا يجاوز تراقيهم، فهم تحت الرقابة ينظر الله كيف يعملون. وسبحانه يعلم من قبل أن يتفرقوا أنهم سيتفرقون وأن طريق الافتراق سيقودهم إلى سنن الذين من قبلهم، وهناك تراهم على منحدرات الأودية كالغثاء العفن قال النبى صلى الله عليه

[صفحه ۴۶۴]

وسلم ": إن بنى إسرائيل تفرقت إحدى وسبعين فرقة، فهلك سبعون فرقة خلصت فرقة واحدة، وإن أمتى ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة تهلك إحدى وسبعون وتخلص فرقة. قيل يا رسول الله من تلك الفرقة؟ قال: الجماعة الجماعة [" ۱۴] .

أنظر إلى قوله ": الجماعة الجماعة " ثم انظر إلى الساحة التى يقرأ القرآن فيها ثلاثة: مؤمن ومنافق وفاجر، ثم تدبر الأحداث والدوائر هل رأيت الجماعة؟ دعنا نكرر النظر ونعيد البحث، وهيا ننظر من جديد. والقرآن وتفسير النبى أخبرا بأن بعد الاختلاف والافتراق يكون الطريق مفتوحا إلى سنن الأمم السابقة. قال تعالى: (وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هى حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم - كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذى خاضوا أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون) [۱۵] ، إن المنافقين والكفار فى صدر الآية، فافهم ذلك، أما تفسير النبى لهذه الآيات رواه ابن جرير عن الربيع قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية: حذركم الله أن تحدثوا فى الإسلام حدثا، وقد علم أنه سيفعل ذلك أقوام من هذه الأمة، إنما حسبوا أن لا يقع بهم من الفتنة ما وقع ببنى إسرائيل قبلهم، وأن الفتن عائدة كما بدأت. وروى ابن جرير عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال": لتأخذن كما أخذ الأمم من قبلكم ذراعا بذراع وشبرا بشبر وباعا بباع. حتى لو أن أحد من أولئك دخل حجر ضب لدخلتموه [" ۱۶] ، وروى ابن كثير عن ابن عباس أنه قال: ما أشبه الليلة بالبارحة " كالذين من قبلكم " هؤلاء بنو إسرائيل

[صفحه ۴۶۵]

شبهنا بهم، والـذى نفسـى بيـده لتتبعنهم حتى لو دخل الرجل منهم جحر ضب لـدخلتموه [" ۱۷] لقد شـهد ابن عباس " ما أشـبه الليلة بالبارحـة " ويا لها من شـهادة!. وإذا أردنا أن نرصـد شـهادة على المساحـة الزمنية الممتدة حتى عام ۱۶۱ ه فلن نجد أفضل من شـهادة سفيان الثورى، فلقد جاء فى زمن لا يدرى فيه القاتل فى أى شئ قتل ولا يدرى المقتول فى أى شئ قتل [۱۸] يقول ابن كثير: سفيان الثورى أحـد أئمـة الإسـلام وعبـادهم والمقتـدى به، وقال يحيى بن معين وغير واحـد: هو أمير المؤمنين فى الحـديث وقال شـعبة: ساد الناس بالورع فى زمانه وقال أحمد: لا يتقدمه فى قلبى أحد [۱۹] وكان سفيان كثير الحط على المنصور

لظلمه وأراد المنصور قتله مما أمهله الله [۲۰] وحاول المهدى إغراؤه بالمال

والمنصب وكتب له على قضاء الكوفة، فرمى سفيان الكتاب فى دجلة وهرب [۲۱] وكان يقول: من لاق لهم دواة أو برى لهم قلما فهو شريكهم فى كل

دم [۲۲] وعندما قرأ حديث " هلاك أمتى على أيدى غلمة من قريش سفهاء " قال:

ما أشبه طعامهم إلا بطعام الدجال [۲۳] وكان يقول ليوسف بن أسباط: يا يوسف

لا ـ تكن من قراء الملوك، ولا ـ تكن فقيه السوق، وما أقبح قراءة ليس معها زهـد، وأن دعاك الملوك على أن تقرأ عليهم (قل هو الله أحد) فلا تفعل [۲۴] وقال

له: ما رأينا الزهد فى شـئ أقل منه فى الرآسة، ترى الرجل يزهد فى المال والثياب والمطعم، فإذا نوزع فى الرياسة، جابى عليها وعادى [۲۵].

[صفحه ۴۶۶]

كانت هذه حركة سـفيان حتى وفاته عام ۱۶۱ ه وإذا أردنا أن نقدم شـهادة سـفيان فإننا فى الوقت نفسه نقدم حركته. وفى شهادته على عصره سألوه معاملة الأمراء أحب إليك أم غيرهم؟ فقال: معاملة اليهود والنصارى أحب إلى من معاملة هؤلاء الأمراء [۲۶] وقال: القبول مما فى أيديهم من استحلال المحارم،

والتبسـم فى وجـوههم علامـة الرضـا بفعـالهم، وإدمـان النظر إليهم يميت القلب [۲۷] وقـال: لا ـ تنظروا إلى الأئمـة المضـلين إلا بإنكار قلوبكم عليهم لئلا

تحبط أعمالكم [۲۸].

هـذا هو سـفيان الثورى الـذى وصف بأنه أمير المؤمنين فى الحديث، ولكن أين ذهب فقه هذا الشـيخ؟ وقد قال عنه ابن العماد: ومات سفيان بالبصـرة متواريا، وكان صاحب مذهب، وقال ابن رجب: وجد فى آخر القرن الرابع سـفيانيون ومناقبه تحتمل مجلدات [" ۲۹]، فى الحقيقة ما كان لفقه الباحث عن الحقيقة أن يبقى فى عالم طعامه أشـبه بطعام الدجال. لقد رفسوا فقهه بعد مماته بعد أن رفسوه فى حياته، ولقد تتبعت رحلة البحث لهذا الشـيخ فما وجدت عليها إلا التعتيم الشديد، الأمر الذى دعانى للبحث عنه فى مصادر عديدة كى أقف على ما وصل إليه، وفى بحار الأنوار قرأت أن سـفيان الثورى سمع حديثا يقول فيه النبى صلى الله عليه وسلم: نعيت إلى نفسى.... نصـر الله امرءا سـمع مقالتى فوعاها وبلغها من لم يسـمعها، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يغل عليهم قلب امرئ مسـلم: إخلاص العمل لله، والنصـيحة لأئمة المسـلمين واللزوم لجماعتهم، فإن دعوتهم محيطة من ورائهم، أيها الناس إنى تارك فيكم ما إن تمسـكتم به لن تضـلوا ولن تزلوا كتاب الله وعترتى أهل بيتى، فإنه قد نبأنى اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا على

[صفحه ۴۶۷]

الحوض [" ۳۰]، وعندما سـمع سـفيان الثورى هذا الحديث الذى جاءه عن طريق أهل البيت قال لصاحبه: كما أنت حتى أنظر فى هذا

الحديث. فقال صاحب سفيان: ثلاث لا يغل عليهم قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل قد عرفناه والنصيحة لأئمة المسلمين، من هؤلاء الأئمة الذين يجب علينا نصيحتهم؟ معاوية بن أبى سفيان ويزيد معاوية ومروان بن الحكم وكل من لا تجوز شهادته عندنا ولا تجوز الصلاة خلفهم. وقوله: واللزوم لجماعتهم، فأى جماعة؟ مرجئ يقول: من لم يصل ولم يصم ولم يغتسل من جنابة وهدم الكعبة ونكح أمه فهو على إيمان جبريل وميكائيل، أو قدرى يقول: لا يكون ما شاء الله عز وجل ويكون ما شاء إبليس، أو حرورى يبرأ من على بن أبى طالب وشهد عليه بالكفر، أو جهمى يقول: إنما هى معرفة الله وحده ليس الإيمان شئ غيرها [۳۱] فقال له سفيان: ويحك وأى شئ يقولون قال: يقولون: إن عليا

والله الإمام الذى يجب علينا نصيحته ولزوم جماعة أهل بيته [" ۳۲] .

وسمع سفيان حديث " من قاتلنا آخر الزمان فكأنما قاتلنا مع الدجال [" ۳۳] .

عندئذ علم سفيان أن الأمراء ما أشبه طعامهم إلا بطعام الدجال [۳۴] وبدأ يمسك

بخيط البحث عن الحقيقة. روى أبو الفرج الأصفهانى عن أبى عوانة قال: فارقنى سفيان على أنه زيدى [۳۵] وانطلق الشيخ فى رحلة البحث، واندثر فقهه ومذهبه،

وما عند الله خير وأبقى. وفى دائرة الشهود أمامنا العديد من الرجال والكثير من الأحاديث، وكل دائرة فيها شهادة وكل شهادة حجة بذاتها، وإليك حديثا جاء على لسان أمراء

[صفحه ۴۶۸]

المؤمنين ليكون شاهدا عليهم يوم لا ـ ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. عن إبراهيم بن سعيد الجوهرى قال: حدثنى أمير المؤمنين المأمون حدثنى أمير المؤمنين الرشيد حدثنى أمير المؤمنين المهدى قال: دخل على سفيان الثورى، فقلت: حدثنى بأحسن فضيلة عندك لأمير المؤمنين على بن أبى طالب، فقال سفيان: حدثنى سلمة بن كهيل عن حجية عن على بن أبى طالب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى: أنت منى بمنزلة هارون من موسى [۳۶] وعن موسى الجهنى قال: دخلت على فاطمة بنت على، فقال لها رفيقى أبو سهل: كم لك؟ قالت: ست وثمانون سنة. قال: ما سمعت من أبيك شيئا؟ قالت: حدثتنى أسماء بنت عميس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلى: أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه ليس بعدى نبى [" ۳۷] .

فهذا الحديث فى هذه الأزمنة حجة على الخاص والعام، وبين أيدينا أيضا حديث رواه أبناء الصحابى الجليل عمار بن ياسر، ونقدمه هنا فى دائرة الشهود فعن أبى عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر عن أبيه عن جده قال: قال النبى صلى الله عليه وسلم: أوصى من آمن بى وصدقنى بولاية على بن أبى طالب، فمن تولاه فقد تولانى، ومن تولانى فقد تولى الله، ومن أحبه. فقد أحبنى، ومن أحبنى فقد أحب الله، ومن أبغضه فقد أبغضنى، ومن أبغضنى فقد أبغض الله عز وجل [" ۳۸] ، وعنه أيضا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم من آمن بى وصدقتى فليتول على بن أبى طالب، فإن ولايته ولايتى وولايتى ولاية الله [" ۳۹] .

وبين أيدينا حديث رواه أبناء الصحابى أبى رافع، نقدمه أيضا فى دائرة الشهود، عن محمد بن عبد الله بن أبى رافع عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله

[صفحه ۴۶۹]

صلى الله عليه وسلم ": من أحب عليا فقد أحبنى. ومن أحبنى فقد أحب الله. ومن أبغضه فقد أبغضنى ومن أبغضنى فقد أبغض الله" [۴۰] .

وهكذا التقى البدء مع الختام وكل نتيجة سقطت على مقدمتها، وعلى امتداد الرحلة كانت النتائج تنطق بلسان فصيح وكانت المقدمات تشع لتراها العصور البعيدة، وعلى امتداد الزمان كان هناك رجال يتكلمون من كلامهم تنكشف حقائق أمام الباحثين الذى يبحثون عن المقدمات أو الذين يتأملون فى النتائج، ومن هذه الأقوال قول الحسن البصرى: أفسد أمر الناس اثنان عمرو بن العاص يوم أشار

على معاويـة برفع المصاحف فحملت... فلا يزال هـذا التحكيم إلى يوم القيامـة، والمغيرة بن شـعبة الذى بث فى معاوية البيعة ليزيد من بعـده، ثم خرج يقول: وضـعت رجـل معاويـة فى غرز نحس لاـ يزال فيه إلى يوم القيامـة. ثم قـال الحسن: فمن أجـل ذلك بايع هؤلاء لأبنائهم [" ۴۱] ، وروى أن الحسن كان ينقم على معاوية أربعة أشياء: قتاله عليا، وقتله حجر بن عدى واسـتلحاقه زياد بن أبيه ومبايعته ليزيد ابنه [" ۴۲] ، فهذه شهادة الحسن البصرى على بعض أحداث عصره ويمكن بتتبعها أن يصل الباحث إلى مقدماتها، وهناك أيضا شهـادة عروة بن بلحـة قال: أول ذل دخل على العرب قتل الحسين بن على وادعاء زياد [۴۳] وفى رواية عن أبى إسـحاق بزيادة: وقتل حجر بن عدى [۴۴] وهذه كلها

مقـدمات لفحص معاويـة وفتـح خزانته، أمـا التصـنم أمام قول ابن كثير ": إن معاويـة هو ستر الصـحابة، فإذا كشف الستر اجترأ على ما وراءه [" ۴۵] ، فإنه لن يقيد باحثا، فالصحابة أجل من أن يندثروا برداء وستر معاوية وأتباعه. وفى دائرة الشهود نستمع إلى قول الحافظ الذهبى فى تاريخ الإسلام،

[صفحه ۴۷۰]

حيث يقرر أن علماء الجرح والتعـديل ابتعدوا عن أى قول من الأمراء وأبناء الأمراء خوفا من السيف، وعلى هذا يمكن القول إن كلمة الحق كانت ترتعش على السـطور فى تلك الأزمنـة، ولم تفسـح السـطور إلا لما يريـده النظام، فبينما لا تكتب كلمـة واحدة فى الأمراء وأبنائهم، نجدهم يجرحون علماء الدراية الذين لا ينامون أمام خزائن السـلطان، على سبيل المثال جاء فى ترجمة جعفر بن سليمان كما ذكر صاحب كتاب التقريب: جعفر بن سـليمان الضـبعى أبو سـلمان البصـرى صـدوق زاهـد لكنه كان يتشـيع. وقال فى التهذيب: كان جعفر إذا ذكر معاوية شتمه وإذا ذكر عليا قعد يبكى [۴۶] وكان هذا البكاء كافيا لرفسه كما رفس سفيان

الثورى من قبـل. وفى الختـام أقول: هيا نتفق على أن الجميع خلفاء بما فيهم خلفاء الدولـة الأمويـة والدولـة العباسـية ومن جاء بعـدهم. الجميع بلا اسـتثناء خلفاء ونحن نقر هنا بـذلك، ولكن الأهم من هـذا كله ممن نأخـذ السـنة؟ فهنا كما يقولون مربط الفرس. إن العمل بالسـنة صـفحته القرآن فأى حبل نأخـذ به شـرط أن يكون قرينا للقرآن؟ إننا هنا لانتصـر للقبائل والأحزاب، ولكننا نريـد دثار الإسـلام وحده، نريد أن نسير فى ظلاله، وإذا كانت هناك كلمة، فإنى أوجهها للباحثين فأقول: أقدموا على الإسـلام وهو ليس غائبا عنكم، هو فيكم ومعكم حجـة عليكم، ولكى تنصـهروا فيه فلا بـد أن تنتقلوا من دائرة الشـعار إلى دائرة الشـعور، فـدائرة الشـعور هى نفسـها دائرة الغرباء، يقول النبى صـلى الله عليه وسـلم ": إن الإسـلام بـدأ غريبا وسـيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء [" ۴۷] ، قـال النووى: أى أن الإسـلام بدأ فى آحاد من الناس وقلة ثم انتشـر وظهر، ثم سـيلحقه النقص والإخلال حتى لا يبقى إلا فى آحاد وقلة أيضا كما بدأ [۴۸] وقيل: ظهر فى الغربة وسيعود من

بلاد الغربة...

[صفحه ۴۷۱]

كونوا فى دائرة الغرباء. والغربى هو الـذى يفر من مدينة إلى مدينة ومن قلة إلى قلة ومن بلد إلى بلد ومن بر إلى بحر ومن بحر إلى بر، ومن أوراق إلى أوراق حتى يسـلم وأنى له بالسـلامة مع هـذه النيران التى طافت بالشـرق والغرب وأتت على الحرث والنسل، فكممت الأفواه وأسـكتت كـل نـاطق وحيرت كل لبيب!! ومع هـذا كله فالغريب يسـير وهو قابض على الجمر، كونوا فى دائرة الغرباء لأن هـذه الدائرة فيها إخوان النبى صـلى الله عليه وسـلم. قال السـيد المصـطفى عليه الصـلاة والسلام ": متى ألقى إخوانى. قالوا: ألسنا إخوانك؟ قال: بل أنتم أصحابى، وإخوانى الذين آمنوا بى ولم يرونى، أنا إليهم بالأشواق [" ۴۹] .

وفى الختام أقدم الشاهد الأخير. قال النبى صـلى الله عليه وسلم: يجئ يوم القيامة المصحف والمسجد والعترة، فيقول المصحف: يا رب حرقونى ومزقونى، ويقول المسـجد: يـا رب خربونى وعطلونى وضـيعونى، وتقول العترة: يـا رب طردونـا وقتلونـا وشـردونا. قـال النبى: وأجثو بركبتى للخصومة، فيقول الله: ذلك إلى وأنا أولى بذلك [" ۵۰] .

وأصلی وأسلم علی خاتم النبیین محمد النبی الأمی العربی القرشی الهاشمی المکی المدنی صلی الله علیه وسلم الطیبین الطاهرین.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمین.

القاهرة ۱۹ صفر ۱۴۱۴ ه

۸ أغسطس ۱۹۹۳ م

[۱] رواه مسلم ک الفتن (الصحیح ۱۹:۱۸).

[۲] البخاری ک الفتن (الصحیح ۴:۲۳۱).

[۳] البخاری ک الفتن (الصحیح ۴:۲۳۰).

[۴] رواه البزار (فتح الباری ۷۴:۱۳).

[۵] رواه البخاری (الصحیح ۴:۲۳۰).

[۶] رواه أحمد والسیوطی فی الجامع ورمز له بالحسن (الفتح الربانی ۷:۲۴).

[۷] رواه أحمد والترمذی من غیر وجه عن أنس (الفتح الربانی ۹۹:۱).

[۸] تبسیط علوم الحدیث:نجیب المطیعی ص ۶۸.

[۹] رواه أحمد وابن حبان فی صحیحه والحاکم (کنز العمال ۲۳۸:۱).

[۱۰] رواه البخاری (الصحیح ۱۸۰:۲) ک الجهاد والسیر.

[۱۱] رواه أحمد (الفتح الربانی ۴۰:۲۳) مسلم (الصحیح ۱۷۹:۲).

[۱۲] رواه أحمد وقال الهیثمی رجاله ثقات (الزوائد ۲۳۱:۶) وقال ابن کثیر تفرد به أحمد وإسناده جید قوی (البدایة ۲۲۸:۶) ولم یتفرد به أحمد کما زعم ابن کثیر. ورواه الحاکم وأقره الذهبی (المستدرک ۵۰۷:۴) ورواه البیهقی (الخصائص الکبری ۲۳۶:۲) ورواه ابن حبان فی صحیحه (کنز ۱۹۵:۱۱).

[۱۳] سورة الإسراء: الآیة ۸۲.

[۱۴] رواه أحمد (الفتح الربانی ۶:۲۴) والترمذی وصححه (الجامع ۴۵:۴) وابن أبی عاصم وقال الألبانی صحیح وله ست طرق عن أنس وشواهد من جمیع الصحابة (کتاب السنة ۳۲:۱).

[۱۵] سورة التوبة: الآیة ۶۸ - ۶۹.

[۱۶] ابن جریر فی تفسیره ۱۲۲:۱۰.

[۱۷] ابن جریر فی تفسیره ۳۶۸:۲.

[۱۸] الحدیث رواه مسلم (الصحیح ۳۴:۱۸).

[۱۹] البدایة والنهایة ۱۳۴:۱۰، شذرات الذهب:ابن العماد ۲۵۰:۱.

[۲۰] شذرات الذهب ۲۵۰:۱.

[۲۱] شذرات الذهب ۲۵۰:۱.

[۲۲] کتاب الورع:أحمد بن حنبل ص ۹۳.

[۲۳] المصدر السابق ص ۹۴.

[۲۴] المصدر السابق ۹۵.

[۲۵] المصدر السابق ۹۶.

[۲۶] المصدر السابق ۹۶.

[۲۷] المصدر السابق ۹۶.

[۲۸] المصدر السابق ۹۶.

[۲۹] شذرات الذهب ۲۵۱:۱.

[۳۰] الرسول تحدث بهذا الحديث فی غدیر خم. ثم حدث به فی مسجد الخیف قبل أن یلقی الرقیق الأعلی (بحار الأنوار ۶۹ – ۲۷).

[۳۱] أی إیمان بلا عمل.

[۳۲] بحار الأنوار ۷۰:۲۷.

[۳۳] بحار الأنوار ۲۰۵:۲۷.

[۳۴] الورع:أحمد بن حنبل ص ۹۴.

[۳۵] مقاتل الطالبین ص ۱۴۱.

[۳۶] رواه ابن النجار (کنز العمال ۱۵۱:۱۳).

[۳۷] رواه أحمد والطبرانی ورجال أحمد ثقات (الفتح الربانی ۱۲۹:۲۷).

[۳۸] رواه الطبرانی فی الکبیر وابن عساکر (کنز العمال ۶۱۰:۱۱).

[۳۹] رواه الطبرانی فی الکبیر (کنز ۶۱۱:۱۱).

[۴۰] رواه الطبرانی عن ابن أبی رافع وعن أم سلمة (کنز ۶۲۲:۱۱).

[۴۱] تاریخ الخلفاء ۱۹۲.

[۴۲] البدایة والنهایة ۱۳۰:۸، الطبری ۱۵۷:۶.

[۴۳] رواه الطبرانی ورجاله ثقات (الزوائد ۱۹۶:۹).

[۴۴] مقاتل الطالبین ۸۳، ابن أبی الحدید ۱۸:۴.

[۴۵] البدایة والنهایة ۱۳۹:۸.

[۴۶] تحفة الأحوذی ۲۱۴:۱۰.

[۴۷] رواه مسلم وابن ماجة والطبرانی (کنز العمال ۱۷۷:۲).

[۴۸] مسلم بشرح النووی ۱۷۷:۲.

[۴۹] رواه أبو یعلی عن أنس وابن عساکر عن البراء (کنز العمال ۱۸۴:۱۲) ورواه أحمد بلفظ: وددت أنی لقیت إخوانی الذین آمنوا بی ولم یرونی (کنز العمال ۱۶۴:۱۲).

[۵۰] رواه الدیلمی عن جابر. وأحمد والطبرانی عن أبی أمامة (کنز العمال ۱۹۳:۱۱).

تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

بسم الله الرحمن الرحیم

جاهِدُوا بِأَمْوالِکُمْ وَ أَنْفُسِکُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ ُبنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْیَا أمْرَنَا... َ یَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ یُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ کَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلاّمة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشَّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة "الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى – "رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغفِهِ بأهل بَيت النبيّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام عليّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة "للتحرِّى الحاسوبيّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإماميّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ أُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ أُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائى/"بناية "القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹